مــذكــرات

صحفي استقصائي

REPORTER: A MEMOIR

يتناول فيها الصحفي الدولي
المخضرم سيمون هيرش

- مواضيع دولية هامة: أحداث 9/11
- علاقة رفيق الحريري مع نظام الأسد
- فضيحة ووتر غيت
- حرب فيتنام

إلى جانب قضايا عديدة أخرى تهمّ
المطلعين على الأوضاع العربية والعالمية.

سيمور م. هيرش
SEYMOUR M. HERSH
الحاصل على جوائز پولِتزر وپَولك وبِكِم



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

ترجمة وتقديم:
د. محمد جياد الأزرقي

مذكرات

صحفي استقصائي

مذكرات

صحفي استقصائي

REPORTER:A MEMOIR

سيمور م. هيرش

SEYMOUR M. HERSH

الحاصل على جوائز بولتزر وبولك وبكم

ترجمة وتقديم:

د. محمد جياد الأزرقي



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

REPORTER: A Memoir

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر

Alfred A. Knopf, a division of Penguin Random House LLC, New York

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى: أيار/مايو 2019 م – 1440 هـ

ردمك 978-614-02-3694-3



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

#

تصميم الغلاف: علي القهوجي

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف (1-961+) 785107

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت – هاتف (1-961+) 786233

المحتويات

الإهداء

للذين ينحازون للوجع الوطني والإنساني.

المترجم

مقدمة المترجم

كرّس سيمور هيرش الفصول الثلاثة الأولى من كتابه للحديث عن أسرته ونشأته ودراسته ثمّ حصوله على عمل كمراسل في جريدة محلية أسبوعية. هاجر والداه من ليتوانيا وبولندا خلال وبعد الحرب العالمية الأولى. تزوّجا في شيكاغو ورزقا بأربعة أطفال ولدوا على شكل توأمين، التوأم الأول بنتان. وبعد أربع سنوات ولد توأم آخر من صبيين. امتلك الوالد محلا لتنظيف الملابس وكيها يقع في منطقة فقيرة يسكنها الزنوج فقط في غرب مدينة شيكاغو. كان الصبيان يساعدان والدهما في المحل خلال عطل الأسبوع، وكان يصطحبهما للغداء وقضاء بعض الوقت في مسبح المنطقة صيفا أو لمتابعة لعبة بيسبول في الملعب المحلي. توفي الوالد في الصيف الذي تخرج فيه سيمور من المدرسة الثانوية وانتقل أخوه إلى كاليفورنيا للدراسة الجامعية هناك، فتكفل هو برعاية أمّه وإدارة المحل. انتسب لكلية حكومية للدراسة المسائية، وانتقل بتشجيع من أحد أساتذته إلى جامعة شيكاغو لدراسة اللغة الإنكليزية. تمكن من ذلك بفضل مساعدة أمه وأحد العمال أحيانا، حيث تناوب الثلاثة في إدارة المحل.

حصل هيرش على أول عمل له في صحيفة أسبوعية، حيث أنيط به نقل أخبار نشاطات مركز الشرطة الرئيسي في المدينة. يذكر أنّه ذهب إلى المركز وطلب نسخة من تقرير المحقق عن حادثة مقتل أحد الأشخاص السود. سمع صدفة الشرطي القاتل يتباهى بفعله، وكان الضحية قد فارق الحياة نتيجة إطلاقة واحدة في الظهر. أخذ التقرير وعرضه على أحد المحررين، الذي لم يبدِ أيّ اهتمام به. لا أحد يريد أن يلتفت إلى ذلك التقرير عن الحادثة. ليس عنده دليل على أنّ جريمة قد ارتُكِبت، باستثناء ما قاله القاتل/الشرطي نفسه، وهو طبعا سينفي ما صرّح به. وعليه فقد وضع القصة جانبا. لم يحاول أن يجرّي مقابلة مع الشرطي الذي سمعه يتبجّح بإطلاق النار، ولم يحاول حتى الاتصال بالشرطي الآخر الذي كان مع القاتل في الدورية حينها. لم يرفع صوته احتجاجا في مكتب الصحيفة، وكتب يقول، «ملأني الحزن لضعفي وضعف مهنتي، التي قيّدت نفسها بالرقابة الذاتية بحجة المرونة. لقد كرهت هذين المفهومين منذ تلك اللحظة واخترت الطريق المغاير لذلك تماما». وهذا هو ما دفعه أن يكون صحفيا استقصائيا.

غير أنّ «لعبته الكبرى في ميدان الصحافة»، كما وصفها، جاء وقتها حين كتب مقالة عن سكان أمريكا الأصليين. استطاع بفعل أحد المواضيع التي تناولها أن يحدِث فرقا يتعلق بوظيفته كصحفي استقصائي، رغم أنّه لم يكن متأكّدا أنّ الموضوع نُشِر بشكل واسع في ولاية دكوتا

الجنوبية. أبدى اهتماما بتاريخ بعض قبائل سكان البلاد الأصليين في تلك الولاية، وبشكل رئيسي للوضع الشّاذ حسب اعتقاده في حينه. كانت ولاية دَكوتا الجنوبية الموطن الأصلي لحوالي تسع قبائل من سكان أمريكا الأصليين، بما فيها قبيلتي شايان Cheyenne وأوگلالا سو Oglala Sioux المعروفتين بالزعامة البطولية، مثل رئيس القبيلة كرَيزي هورس، محارب قبيلة سو العنيد، الذي قاد ببسالة الهجوم ضد الجنرال جورج آرمسترونگ كَستر ووحدة الفرسان السابعة، حين اعترضهم في منطقة لتل بگهورن في شهر يونيو من عام 1876. يذكر هيرش أنّه يوجد عدد محدود من سكان البلاد الأصليين ممّن يعملون في عاصمة الولاية، وليس هناك اهتمام يُذكر للمجلس التشريعي للنظر في ظروفهم، ويا لها من محنة في أواخر عام 1962. كانت الأوضاع في مناطق تجميعهم القسري سيئة للغاية، إذ بلغت نسبة البطالة في بعض الحالات إلى ما يقرب من 90 بالمئة واشتداد الفقر وارتفاع حالات الانتحار وكذلك ارتفاع نسب الإصابة بمختلف الأمراض، منها الإفراط في شرب الكحول. كانت المسألة تبدو له ممارسة للعنصرية، وأنّ ضحايا هذا التمييز خلافا لواقع الحال في شيكاگو، بعيدين عن الأنظار. وعليه أجرى بعض المقابلات بمعونة من أحد أخذه بسيارته إلى مناطق تجمعاتهم. فعل ما هو مطلوب من أيّ صحفي، ولكن حسب ما أتيح له من الفرص والوقت. وهو يتذكّر بكلّ بوضوح إحدى قصصه عن العقبات التي يواجهها أفراد قبيلة أوگلالا سو، وهي القصة التي وجدت طريقها للنشر في صحيفة شيكاگو تربيُن وهي من أكبر الصحف في المنطقة في حينها.

ظهرت في أمريكا الشمالية حضارة النحاس وحضارة الصيادين بالبر والبحر ولاسيما حول البحيرات الكبرى بكندا والولايات المتحدة الأمريكية. كانوا يصنعون من النحاس آلاتهم بطرقه ساخنا أو باردا. لكنّهم لم يعرفوا طريقة صهره ولا كيفية صبّه في القوالب كما كان متبعا في العالم القديم منذ سنة 1500 ق.م. وفي المنطقة القطبية الشمالية مارس الأمريكان الأصليون صيد الأسماك والحيوانات. وحين استعمرهم الأوروبيون في القرن الخامس عشر الميلادي واجهوا تحديات كبيرة. ورغم أنّ البعض تعايش وتبادل التجارة مع المستعمر واستوعب تقنياته إلا أنّ المستعمر الأوربي استولى على أراضيهم وعمل على إبادتهم في كندا وأمريكا. وكانت تسمى هذه القبائل قبائل أونانداجو وموهوك وچيروكي. كما كانوا يعرفون جميعا باسم الهنود الأمريكيين أو الهنود الحمر. في كندا كان يطلق عليهم عادة شعب أبورجينال. حين وصل كريستوفر كولومبس عام 1492 أرضهم، كان عددهم يقدّر ما بين 40 إلى 90 مليونا. وحين جاء الإسپان وجدوا 50 قبيلة هندية في الغرب[1]، بما فيها شعب بيبلو وكومانچي وبيمان ويمان، وكانت لهم لغاتهم المتنوعة. جلب الأوروبيون معهم الأمراض كالجدري والحصبة والطاعون والكوليرا والتايفوئيد والدفتيريا والسعال الديكي والملاريا وبقية الأوبئة التي كانت تحصد أرواح السكان الأصليين. فمثلا، كانت السلطات البريطانية توزع عليهم الأغطية الحاملة للأمراض عمدا بهدف نشر الأمراض بينهم. أحد الذين فعلوا ذلك هو الجنرال جفري آمهرست، الذي سُمّيت احدى المدن باسمه.

يفترض نموذج هجرات العالم الجديد أنّ نزوح سكان أمريكا الأصليين إليها كان من أوراسيا عبر جسر يابسة بيرنگيا الذي كان يربط شمال غرب أمريكا الشمالية، ألاسكا الحالية بشمال

شرق آسيا، سايبيريا عبر ما يعرف الآن خليج بيرنگ، بدأ قبل 16500 إلى 40000 عام تقريباً، وقت كان منسوب سطح البحر منخفضا أثناء العصر الجليدي. استمر هذا النزوح لفترة غير معلومة المدى. كما تفترض النظريات أنّ السكان الأصليين نزحوا إما سيراً على الأقدام أو باستخدام قوارب بدائية على طول الساحل الجنوبي الغربي للمحيط الهادئ إلى أمريكا الجنوبية. انتشر الأمريكيون القدماء في الأمريكتين واستوطنوهما ليؤسسوا المئات من الأمم والقبائل ذات الثقافات المتباينة، وذلك قبل آلاف السنين من بدء استعمار الأوروبيين للعالم الجديد في القرن الخامس عشر الميلادي. غير أنّ التقاليد الشفاهية للأمريكيين الأصليين تقول إنّهم قد استوطنوا الأميركتين منذ بدء الخليقة، ويدعمون رواياتهم بالعديد من الحكايات التقليدية عن بدء الخلق. غير أنّ تحديد تاريخ الهجرة بالفترة من 40 ألف إلى 16500 سنة ماضية كان وسيظل عرضة لاختلاف علمي كبير. الشيء الوحيد المتفق عليه حتى الآن هو أنّ أصول الأمريكيين القدماء ترجع إلى آسيا الوسطى، وأنّ الانتشار الواسع في الأميركتين تمّ في أواخر العصر الجليدي الأخير، أي منذ 16 ألف إلى 13 ألف عام من الآن. (نفس المصدر)

أهم ما ذكره هيرش في فصله الرابع هو تعيينه مراسلا في وكالة الأسيوشيتد پرس لتغطية قضايا الحقوق المدنية في شيكاگو. لقد أتاحت له مهمته الجديدة فرص الاتصال واللقاء بالقس مارتن لوثر كنگ. كان ذلك خلال الأيام والليالي، التي جرت فيها تظاهرات صاخبة في الشمال ودعت للمقاومة. «كان كنگ عبقريا في معرفة نوايا الصحفيين واستطاع أن يميّزني وغيري ممّن اظهروا الموالاة للقضية. كان داهية في تفهّم الإعلام ودوره، وعليه فالأسيوشيتد پرس وأنا في نظره مهمون. فالأخبار التي أبعثها للوكالة تحتلّ واجهات العديد من الصحف الهامة، خاصة في المدن التي يوجد فيها توتر عنصري». في ليلة متوترة الأجواء في شيكاگو، تحدّث ووقع بصره عليه، فقال «كم هو صعب؟» ولوى بإصبعه نحوه وقصد أن ينتظره لأنّه يريد أن يفضي إليه بالمزيد. كان يعرف أنّ تقارير كثيرة عن مسيرة تلك الليلة ستظهر في صحف صباح اليوم التالي. في الحقيقة بدأت الصحف تنشر نسخا أخرى لفترة ما بعد الظهر. ذكرَ، «وبعد حوالي عشر دقائق انتحى بي جانبا وأعطاني المزيد من المعلومات. ومن بعض تلك الاقتباسات اللاذعة، كان حول خيبة أمله بإدارة جونسُن لجعل شعلة القضية تتقد ليوم آخر».

عندما يذكر موضوع حركة الحقوق المدنية الأمريكية، يخطر على البال مباشرة اسم قائد حركة الحقوق المدنية الأمريكية مارتن لوثر كينگ، الذي يُعتبر بطلا قوميا لدى غالبية الأمريكيين. إلا إنّه نفى عن نفسه دائما صفة البطولة وكان يذكر دائما أنّ الجماهير هي المحرك الأساسي لحركة الحقوق المدنية، الشباب والطلاب الذين خرجوا للشوارع، وعملوا بلا توقف بدون عنف وبلا انقطاع هم الذين صنعوا الظروف التي أتي فيها وصار بطلا أمريكيّا[2].

شهدت الحركة مسارا جديدا في عام 1954 بقيادة كِنگ. وكان إعلان الرئيس تيودور روزفلت ينصّ على ضمان الحريات المدنية المتمثلة في حرية التعبير وحرية العبادة وحرية التحرر من الخوف وحرية التحرر من الحاجة. واستطاعت الحركة في اقل من 14 عاما بدء من عام 1954 حتى 1968، أن توجه الضربة القاضية لنظام الفصل العنصري. كانت البداية مع تحدي نظام ركوب حافلات النقل العام عندما رفضت امرأة سوداء اسمها روزا پاركز الانصياع لتعليمات سائق

حافلة عامة بالنهوض ليجلس مكانها أحد الركاب من البيض، وتبع ذلك أن استدعى السائق رجال الشرطة بعد إصرار پاركز على عدم ترك مقعدها، وتمّ إلقاء القبض عليها بتهمة مخالفة القانون. كان للحادث أثر كبير في تأجيج مشاعر السود ضد الظلم والتمييز العنصري، فقاطع السود حافلات الركاب لمدة سنة. كما قام الطلاب باعتصامات في عام 1960، بالإضافة إلى مسيرة واشنطن الكبرى التي ساهم فيها نصف مليون أمريكي أسود عام 1963 كانت من المؤشرات لبداية الفصل العنصري في الولايات المتحدة.

يطالعنا المؤلف في فصله الخامس بشرح بداية صدامه مع المؤسسة العسكرية، التي تكذب وتموّه وتغطي وتبرر ما تقوم به آلتها المدمرة في فيتنام. حدثت الأزمة الجديرة بالذكر في يوم 12 ديسمبر من عام 1966، حين أشار تحديدا إلى وزير الدفاع روبرت مكنمارا ونائبه سيرَس فانس ومساعده الصحفي آرثر سِلفِستر. وصل هاريسُن سولزبَري من مجلة تايم إلى هَنوي، فكان أوّل صحفي أمريكي يُمنح تأشيرة دخول للبلاد منذ غزو رجال البحرية لفيتنام. كتب بعد يومين عن مشاهداته لأدلة عن قصف أمريكي واسع لهَنوي، استهدف بشكل واضح المدنيين. كان ردّ الپنتگون مباشرا وقاطعا بالإنكار التام لأيّ قصف داخل حدود مدينة هَنوي، وانطلقت إشاعات كرّرتها العديد من الصحف مفادها أنّ سولزبَري ومجلة تايم يقومان بدور العمالة الإعلامية للعدو. كان صاحبنا في طريقه إلى مؤتمر صحفي «لمسؤولين أمريكيين» في العادة شخص أو إثنان من رفيعي المستوى ذكرا فيه جهلهما بما تحدّث عنه سولزبَري، وأنّ الضرر الذي أصاب المنشئات المدنية ناجم عن سقوط الصواريخ المضادة للطائرات التي تطلقها دفاعات فيتنام الشمالية لاستهداف القاصفات الأمريكية. وهذه بطبيعة الحال كذبة يصعب «هضمها».

كشف له ضابط كبير في الپنتگون اسمه كليرنس هِل سرّا عن معركة خاسرة وأنّ الجنرال، الذي قادها قد فُصِل بشكل سريع لأنّه رفض أن يفهم موضوع إمكانية ايقاع الفيتناميين لوحدة أمريكية في شرك. كان ذلك بحدّ ذاته مشكلة، وهو الذي جعله يتخذ قرارا عقيما للإيعاز لوحدة ثانية بالتقدّم نحو ارض المعركة على أمل التخفيف من حدّة المذبحة، لتقع هذه في نفس الفخّ وتتعرّض لخسائر فادحة. أخبره هِل بأنّ التغطية على الكارثة تضمنت ترقية الجنرال الفورية ونقله إلى قاعدة عسكرية خارج فيتنام وفصلِه بعد ذلك. ورأى هيرش أنّ تلك الإجراءات كانت مهزلة محزنة.

ثم يمضي المؤلف ليخبرنا أنّه اعتمد في كتابة تقاريره على مصادر المخابرات، التي أشارت إلى أنّ الولايات المتحدة لديها صور التقطت من الجو تظهر الدمار الشاسع للمنشآت المدنية في فيتنام الشمالية. كما أخبِر بشكل محدّد أنّ ما يقرب من 59 منشأة مدنية قريبة من خطوط سكك الحديد في نواحي هَنوي قد تمّ قصفها، مع توفر الأدلة بأنّ العديد من القنابل لم تضرب أهدافها المرسومة. أظهرت الصور أنّ ثلاث قنابل فقط قد سقطت داخل محيط محطة قطارات هَنوي، لكنّ الصور كشفت أيضا وجود ما يقارب الأربعين حفرة خارج تلك المحطة. الاستنتاج الواضح هو أنّ أقلّ من 10 بالمئة من القنابل قد أصابت أهدافها المرسومة.

يتناول هيرش في الفصل السادس اهتمامه بموضوع الأسلحة الكيمياوية والجرثومية. كتب يقول، «لم يمضِ وقت طويل حتى عرفت أنّ أمريكا ليست فقط تعدّ أبحاثا دفاعية في حالة هجوم روسي، كما يتكرر الادعاء لإعداد اللقاحات المضادة والى غير ذلك، بل أنّه توجد دوافع قوية

لتطوير الأسلحة الكيمياوية والجرثومية، التي يمكن أن تحدث تدميرا شاملا». نشر مقالة ضمنها قائمة تحتوي على أسماء 52 جامعة ومركز بحوث وأساتذة وعلماء ممّن حصلوا على عقود عسكرية ارتبطت بحرب فيتنام. تحدث عن إمكانية وقوع كارثة في حالة حدوث شيء ما قرب مراكز تطوير وإنتاج تلك الأسلحة الفتاكة. حرّكت مقالته المشاعر فانطلقت تظاهرات الطلاب داخل الأحرام الجامعية للتنديد بذلك التعاون المخزي. استقال هيرش من وكالة الأنباء احتجاجا على عدم نشر تقاريره حول الموضوع، وأعدّ كتابا أصبح محتواه مادة للتحريض على مقاومة الحرب في فيتنام.

بعد مرور خمسة عقود تقريبا على نهاية تلك الحرب، لا بُدّ من تذكير القارئ بحقيقة وجود ملايين الفيتناميين وآلاف المحاربين الأمريكيين القدامى وأسرهم، ممّن يعانون آثار الحرب الكيماوية التي شنتها الولايات المتحدة في فيتنام. لم تكترث قيادة أمريكا بمستقبل من سينجو من حربها في تلك البلاد، ولكي تمنع الثوار من الاستفادة من كثافة الأشجار كغطاء، ألقت القوات الأمريكية مواد كيماوية لتعرية الغابات وكشف تحركات الثوار والجنود الفيتناميين. إنّ العنصر الكيماوي المعروف باسم العامل البرتقالي يمثّل أحد أكثر التركات خزياً وعاراً للحرب ضد فيتنام، حيث إنه ما زال حتى الآن يسمّم الفيتناميين الذين تعرضوا له وأبناءهم يولدون بتشوهات خلقية، إضافة إلى عشرات آلاف الجنود الأمريكيين. رغم مرور هذه المدة الزمنية، فإنّ ثلاثة ملايين فيتنامي لا يزالون يعانون تأثيرات ذلك السلاح الكيماوي، ولعل نتائج تلك الحرب لا يمكن حصرها. نظرا لأنّ الولايات المتحدة لم تُعاقب على جريمة قصفها هيروشيما ونكازاكي بالسلاح النووي، فمن الطبيعي أن تستخدم الأسلحة الكيماوية والناپالم في فيتنام، وإذ لم تعاقب، فإنها كرّرت أفعالها في العراق، بل وأدخلت، قبل ذلك، الأسلحة الكيماوية في الحرب العراقية الإيرانية[3].

جرّب هيرش حظه في السياسة عن طريق حملة انتخابات الرئاسة. أعجِب بما سمع حين ألقى السناتور عن ولاية منسوتا يوجين مكارثي خطابا مرتجلا عارض فيه الافتراضات، التي كانت سائدة عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية حول سلطة الرئيس ليتدخّل عسكريّا أينما يشاء دون الرجوع إلى الكونگرس. أثار موضوعا لا يزال ذا علاقة بأيامنا هذه، وهو الإصرار على أنّ المنصب لا يعود للشخص الذي يشغله بل إلى «الشعب». «لدينا الآن سناتور رفيع المستوى وعضو عال في لجنة العلاقات الخارجية يُهاجم الرئيس، الذي ينتمي لنفس حزبه ويتهمه باتخاذ قرارات انفرادية لتنفيذ حرب طاحنة. وأكثر من ذلك أنّه مضى لتصوير تلك الحرب بأنّها لا أخلاقية». وهذا شيء لم يدر بخلد المؤلف أن يسمعه من سياسي أمريكي. أنّه ملمّ بالتاريخ وله الشجاعة والقدرة العقلية ويمتلك الكرامة. لاحظ أنّه ألقى خطابه بهدوء وبدى ثقة بنفسه واحتراما لذكاء من كانوا يستمعون إليه. لم يُبدِ استبدادا في الرأي، فتبدّدت شكوك هيرش وشعر أنّه أقدم على اختيار جيدٍ حين قرر أن ينضم للحملة كسكرتير صحفي.

ذكر مكارثي أنّه قام بتكليف من جون كندي بزيارات لقادة أمريكا اللاتينية الكاثوليك، خصوصا چلي، ومن ضمنها تدبير تسليم حقيبة تحتوي على 50 ألف دولار من ميزانية CIA لأحد القادة المناهضين للشيوعية. قام جِري إلر رئيس مكتب السناتور في الكونگرس بتسليم تلك الحقيبة

شخصيا. لقد انزعج صاحبنا أكثر من تلك الأقاويل، فمن جهة حرّض ضد جاك كندي لتجاوز سلطته الرئاسية والتورط في فيتنام. وبعد خمس سنوات أصبح هذا الموضوع عنصرا أساسيا في حملته ضدّ لِندن جونسُن. لم يعتقد هيرش في السابق ولا فيما بعد أنّ لوكالة المخابرات المركزية يدّ في حملته، وليس لها علاقة بقراره لمنافسة جونسُن. طبعا لم يفصح للسناتور عن آرائه حول الوكالة، في الحقيقة لم يثر الموضوع إطلاقا خلال نقاشاتهما.

حقق مكارثي نجاحا مشهودا في ولاية نو هامشر بتاريخ 12 مارس، إذ حصل على نسبة 42 بالمئة من الأصوات باعتباره مرشحا من قبل الناخبين، الذين أضافوا اسمه إلى قائمة الاقتراع write-in candidate. أدرك جونسُن أنّ حياته السياسية قد شارفت على الانتهاء، لكنّه انتظر حتى يوم 31 مارس ليعلن أنّه لن يترشح ولن يقبل به حتى لو كلفه الحزب بذلك. قفز عندها بوبي كندي إلى الحلبة وصرح أنّه سيكون معارضا عنيدا للحرب، كما كان مكارثي، الذي ثبطت همته وخارت عزيمته إثر ذلك، واستمر الحال على ذلك المنوال حتى بعد اغتيال كندي في كاليفورنيا. بدأ مكارثي يتصرف كسياسي يضع نيل أصوات الناخبين فوق الخيارات الأخلاقية. فمثلا ألغى مكارثي سلسلة من اللقاءات والتجمعات الانتخابية المخطط لها في المناطق التي يسكنها السود في مدينة ملواكي، دون التشاور مع سكرتيره الصحفي. وهو الأمر، الذي دفع هيرش لتقديم استقالته الفورية من الحملة بعد ثلاثة أشهر حافلة بالنشاطات والاجتماعات. وحين انعقد مؤتمر الحزب الديمقراطي في شيكاگو، صاحبه الكثير من العنف والفوضى، وانتهى بقرار القيادة السياسية للحزب بترشيح نائب الرئيس هيوبرت همفري. علق هيرش على نتيجة ذلك المؤتمر بالقول، «برأيي أنّ مكارثي أفضل منه بكثير». طغت الحقيقة المرّة بفوز نِكسُن الجمهوري في الانتخابات التي جرت في نوفمبر، واستمرت بفوزه حرب فيتنام.

كرّس المؤلف فصله الثامن لتسليط الضوء على الأسلحة الكيمياوية والجرثومية. نمى إلى سمعه نفوق 6400 رأس من الأغنام في شمال ولاية نيفادا. من الطبيعي أنّه كان على بيّنة من رشّ الغازات السامة والمواد الكيمياوية الحارقة خلال حرب بلاده في فيتنام، فشرع بحثه الاستقصائي عن الموضوع. ساعده أصدقاؤه الجدد من داخل عالم CBW لفهم ما عرضه برنامج 60 دقيقة التابع لمحطة تلفزيون سي بي أس، فكتب مقالة لمجلة پروگرَسِف. لم تذكر محطة التلفزيون مَن صور المواقع ولا أماكن تواجدها، لكنّها ذكرت أنّ جزء من الفديو قد تمّ تصويره من قبل الجيش في مخزن العتاد في پاين بلف، وهو مبنى سرّي في ولاية آركِنسا. لم تشِر أنّه يوجد على الأقل 251 نفقا تحت الأرض للتجميد، وتُسمّى هذه الأنفاق «أكواخ» تقع في محيط منطقة پاين بلف، وتستعمل هذه «الأكواخ» لخزن العناصر الجرثومية وتجميدها. لم تذكر المحطة كذلك أنّه توجد أماكن لتجميع مئات القنابل زنة 750 پاوند خلال ساعات فقط لنشر الآفات المرضية حول العالم. كما أنّها لم تورد شيئا عن حدوث 3300 طارئ خلال فترة ثماني سنوات في قاعدة فورت دِترِك، نجم عنها حالة عدوى أصابت اكثر من 500 رجل، توفي ثلاثة منهم، اثنان بمرض الجمرة الخَبيثة، كما ورد على لسانه.

يمضي المؤلف فيخبرنا عن عرض فلم أشدّ انتقادا في مطلع شهر فبراير عام 1969 اسمه الثلاثاء الأول من إعداد محطة أن بي سي. اعترف معدّوه بقيمة برنامج 60 دقيقة، وأخبر المشاهدين سلفا وبشكل مباشر أنّ هذا البرنامج لم يُعدّ بالتشاور مع البنتگون. عرض البرنامج شريطا يزيد القلب خفقانا عن مختبرات تُستعمل فيها الأرانب والفئران للتجريب. كما أظهر جرافات تدفع أغناما نافقة إلى حفر كبيرة لدفنها قرب حامية دَگوَي پروفنگ. الأكثر أهمية، أنّ برنامج الثلاثاء الأول كشف أنّ وزارة الدفاع قد دفعت ملايين الدولارات خلال فترة 6 سنوات إلى معهد سمثسونيان في واشنطن، لإجراء بحث حول نماذج هجرة الطيور إلى جزيرة بيكر، التي تمتلكها الولايات المتحدة. وهي جزيرة مساحتها حوالي الميل المربع تبعد مسافة 1700 ميلا إلى الجنوب الغربي من هَنَلولو. كان الهدف واضحا، وهو أنّ أمريكا تبحث عن مكان آمن في المحيط الهادئ كي تستعمله ميدانا لاختبار فاعلية الأسلحة الجرثومية، حسب قوله.

توصّل هيرش إلى حقيقة اكتمال البحوث عن هذه الأسلحة في مختبرات في مَليزيا واليابان وإنگلترا وإيرلندا وكندا والسويد وقبرص وأستراليا وألمانيا وتايوان. كانت قاعدة فورت دِرِك هي المركز الأساسي لبحوث الأسلحة الجرثومية، حيث عمل ما يقارب من 120 عالما من حملة الدكتوراه في عام 1968، إضافة إلى 400 شخص آخر بدرجات علمية أقل. كما كانت توجد وفرة من العلماء الشباب الراغبين في الحصول على منح من أكاديمية العلوم الوطنية للعمل في مشاريع بحوث غريبة في قاعدة دِرِك. وهذه أكبر قاعدة فيها مختبرات تستعمل الكثير من الحيوانات وتقتلها أثناء التجريب. «أظهرت الإحصاءات أنّ 720000 من الحيوانات التي تتفاوت بين خنازير غينيا والقرود قد قتلت خلال عمليات التجريب كلّ سنة». كما عرف، «أنّ الآلاف من الجنود والمتطوعين قد خضعوا للتجارب منذ نهاية الحرب العالمية الثانية لمعرفة أثر العناصر الحيوية على البشر»، من ضمنهم متطوعين بلغ عددهم 1400 شخص بعثت بهم إحدى الكنائس لهذا الغرض.

قالوا للشعب الأمريكي أنّ حفنة من الجنود جُنَّ جنونهم في قرية فيتنامية تدعى ماي لاي وراحوا يقتلون أهلها بوحشية مريعة بتاريخ 16 مارس من عام 1968. انتهى الأمر بسقوط ما بين347 إلى 504 ضحية من النساء والأطفال والعجائز. تجدر الإشارة إلى أنّ 20 امرأة وفتاة، ممّن لم تتجاوز أعمارهن 10 سنوات، قد تم اغتصابهن من قبل الجنود قبل قتلهن[4]. لم تكن تلك اول جريمة حرب يقترفها الجيش في فيتنام، لكنّها تجاوزت غيرها في وحشيتها وضخامة عدد ضحاياها وفشل القيادة، بما فيها قائد الوحدة النقيب أرنست مدينا، الذي عمل بإمرة اللواء صاموئيل كوستر، نزولا إلى قائد الفصيل الذي ارتبط اسمه بالمجزرة الملازم وليم كالي. كان الجنود خليطا من البيض والسود والهسپانك، من أصول كوبية ومكسيكية وپورتريكية. قبل أسابيع من المذبحة وفي قرية أخرى صفع جندي فلاحا أعزل يملأ ماء من بئر القرية فوقع في البئر. سارع كالي وأطلق عليه النار فارداه قتيلا وهو في قعر تلك البئر.

يتعقب المؤلف في فصله التاسع خيوط تلك القصة بالبحث عن أثر الملازم الأول، وليم كالي، مجرم تلك المذبحة. وجده في قاعدة بِنِنگ في ولاية جورجا، وتمكن من الاطلاع على ملفه العسكري ودوّن نصّ الاتهامات التي وُجهت إليه. انتظره حتى عاد من نهار قضاه في نزهة بقارب طاف فيه على سطح بحيرة قريبة. وحين قابله وقدّم نفسه، كتب يقول «وجدت نفسي أمام شاب

مهزوز خائف قصير القامة ونحيل شاحب الوجه، بحيث يمكن رؤية الأوردة الزرقاء على رقبته وعلى كتفيه. كانت قصته المبدئية صعبة على التصديق، بطولة للقتال في السلاح الأبيض وتبادل إطلاق نار كثيف مصحوبا بإلقاء قنابل يدوية وقذائف مدفعية لدحر الشيوعيين الأشرار». قضى هيرش الليل بكامله معه يستمع ويدون ويسأل من حين لآخر.

ما الذي جرى حقيقة؟ بتاريخ 16 مارس من عام 1968 وبأمر من اللواء فرانك باركر، الابن، حملت ثمان طائرات مروحية وحدة چارلي المؤلفة من ثلاثة فصائل وحطت خارج قرية ماي لاي. بدأ الهجوم في الساعة 7 و35 دقيقة، حين تقدم فصيلان ثم تبعهما الفصيل الثالث. لم يعر سكان القرية من النساء والأطفال والشيوخ انتباها كثيرا، لأنّ الأمريكيين مرّوا من هنا من قبل. كانت الأمهات تعد الرّز لوجبة الفطور، ولم تكن هناك نيران قناصة ولا وجود للفيتكونگ. بدأ أفراد الفصيل الأول بتجميع سكان القرية. وفجأة وبدون أيّ استفزاز طعن أحد الجنود شيخا بحربته وعاجله جندي آخر بطعنة قاتلة في الظهر قضت على حياته. سحب نفس الجندي رجلا من الحشد يبلغ من العمر 40-50 عاما ودفعه إلى الخلف حتى وقع في بئر الماء، وسحب من حزامه قنبلة يدوية M26 وسحب صمامها وألقاها في البئر.[5]

ثمّ دخل الجنود وقائدهم كوخا يستعمله القرويون للعبادة وقتلوا الموجودين جميعا من النساء والأطفال والشيوخ واحدا إثر الآخر برصاصة في الرأس وهم راكعين للصلاة. أمّا أفراد الفصيل الثاني، الذي هاجم القرية من ناحية الشمال فقاموا بقتل الفلاحين المذعورين الذي احتموا بأكواخهم، وبعد أن فرغوا من ذلك قاموا بقتل حيواناتهم. قام أفراد الفصيل الثالث بقتل كلّ من حاول الهروب مستعملين الرشاشات التي توضع عند أبواب الطائرات المروحية. صاح النقيب أرنست مدينا، «اقتلوهم جميعا ولا تتركوا أحدا منهم». تعثرت إحدى النسوة فعاجلها جندي بوابل من بندقية M16، فخرت صريعة مضرجّة بدمائها. كما أبيدت على يد أفراد الفصيل الثالث مجموعة من النساء والأطفال والشيوخ تنفيذا للأوامر. حين ركض البعض للاحتماء في خنادق للوقاية، لاحقهم الجنود وألقوا عليهم القنابل اليدوية. خرجت إحدى النسوة من الكوخ تركض فزعا وهي تحمل طفلها الرضيع فأصبحت هدفا للرماية، وحين سقطت على الأرض تقدّم جندي نحوها ووضع رصاصة في رأس الطفل. أمسك ضابط امرأة من شعر رأسها وفجّر رأسها برصاصة من مسدسه عيار calber 45.

«ادفعوا بهم إلى الخندق»، أمر قائد الفصيل الملازم وليم كالي، الابن، ثمّ شرع بإطلاق النار عليهم وتبعه الآخرون، وألقي عدد من القنابل اليدوية لإكمال المهمة. تبيّنت معجزة وقت قام طفل عمره سنتان حيا من بين أكداس الموتى وهو سليم ويبكي. حين ركض باتجاه الأكواخ المحترقة أمسك به كالي، ورماه داخل الخندق وصلاه بزخّ من الرصاص من مدفعه الرشاش ليتأكّد أنه لن يقوم حيّا هذه المرة. كما استعمل جندي بندقيته M16 ليوقف عويل طفل آخر يبلغ من العمر 3-4 سنوات وهو يحتضن جثمان امّه فاهتز جسمه النحيل. استعمل آخر حربته ليمزق ظهر طفل شدّ

قميص أمه وهو يحاول أن يرضع ثديها. كما اغتصبت فتاة بعمر 13 عاما بشكل وحشي من قبل عدد من الجنود، أطلق آخرهم الرصاص عليها.

بحدود الساعة 8 و40 دقيقة انتهى كل شيء. لقد تمّ إعدام ثلاث مجموعات كبيرة من المدنيين ولوّثت آبار القرية بجثث القتلى وأبيدت حيوانات الفلاحين وأحرقت أكواخهم بما فيها. انسحبت فصائل وحدة چارلي بعد إكمال مهمتها لتبدأ مجزرة أخرى في قرية تالية اسمها ماي خي فقتلت 90 من الفلاحين الأبرياء وعوائلهم. وجد محققو الجيش في ما بعد قبورا جماعية في ثلاثة مواقع وقدّر أنّ فيها بقايا 450-500 ضحية أكثرهم من النساء والأطفال والشيوخ، الذين قتلوا في ذلك اليوم.

ما كانت أخبار مذبحة ماي لاي ترى النور لولا شهادة الجندي الأول رونلد رايدنأور البالغ من العمر 22 عاما، وهو من سكان مدينة فينكس في ولاية أريزونا. كان مسؤولا عن واحد من أربعة مدافع رشاشة تنصب عند بابي كلّ طائرة مروحية. كتب رايدنأور، بتشجيع من معلمه في المدرسة الثانوية، رسائل عن الجريمة المروعة إلى عدد من المسؤولين الكبار، بما فيهم الرئيس نِكسُن. شعر الجيش أنّ سمعته في خطر فقام بفتح تحقيق واستجوب 36 شاهدا. وأخيرا وبتاريخ 17 مارس من العام التالي، وُجهت اتهامات رسمية لأربعة عشر ضابطا، أهمهم اللواء صاموئيل كوستر والعميد جورج يونگ والعقيد أورن هندرسن والرائد فردرِك واتِك والنقيب تومَس وِلِنگهام والنقيب أرنست مدينا.

في شهر يونيو أُسقِطت تهم التغطية والتعتيم عن يونگ واثنين آخرين من الضباط. وفي شهر يناير من عام 1971 أسقِطت التهم ضدّ كوستر وواتِك وثلاثة آخرين عن مسؤولية العلم بقتل 20 مدنيا. إلّا أنّ كوستر قد خفضت رتبته إلى عميد وسُحب منه «وسام الخدمة المتميزة». في شهر فبراير من عام 1970 وجّهت الاتهامات رسميا إلى النقيب توَمس ولِنگهام، قائد فصيل برافو، من قبل الجيش بالقتل غير المتعمد لـ 20 مدنيا فيتناميا. أمّا كالي، فقد وُجّهت إليه الاتهامات في آخر دقيقة لغرض أحالته للقضاء العسكري لقتل 109 مدنيا. أجريت المحاكمة العسكرية في قاعدة بَنِنگ، وصدر العفو عن جميع المتهمين، باستثناء كالي، الذي حكمت عليه المحكمة بالإقامة الجبرية في منزله. قضى كالي ثلاث سنوات منها، ثمّ أصدر الرئيس نكسُن عفوا عاما عنه.

بعد أن فرغ المؤلف من إجراء مقابلة مع كالي وأخرى عرضية مع ضابط طيار قاد مروحية خلال عامي 1966 و1967، وجد صعوبة في نشر ما كتب عن المذبحة في كافة وسائل الإعلام العامة. وفي الوقت الذي عقد فيه البرلمان البريطاني جلسة لمناقشة ما جرى، كان الصمت يلف الدوائر الأمريكية، الرسمية والإعلامية، التي بدت غير مبالية بما جرى أو سارعت لنشر الأكاذيب لتغطية الحدث المرعب. أتهِم هيرش «بعدم الإخلاص للوطن» أو أنّ عمله الصحفي ليس إلا محاولات متعاطفة مع الجهات الشيوعية ويجب مقاطعة ما يكتب وعدم نشره، أو دعوته للمشاركة في ندوات التلفزيون العامة. إلا أنّ ذلك لم يثنِه عن المضي في استقصاء حقيقة ما جرى. كرّس الفصل العاشر لمقابلة أول من نشر أخبار المذبحة وبعض الشهود ومن شاركوا فيها. سافر من اجل ذلك في أنحاء البلاد المختلفة، إلى لوس أنجلس وأريزونا ويوتا وإلى نو جرزي ثم أنديانا وإلى نو جرزي ثانية، إلخ لمقابلة أفراد من وحدة چارلي، سيئة الصيت. وهو الذي أقنع پول ميدلُو، الذي

كان بأمرة الملازم وليم كالي وقتل عددا كبيرا من ضحايا مذبحة ماي لاي، أن يحضر إلى نو يورك لمقابلة تلفزيونية بثتها محطة سي بي أس وأدارها مايك وَلاس. اعترف ميدلَو ببرود ظاهر بما أقدم عليه من قتل للأطفال والنساء والشيوخ، فسبب صدمة للمواطنين. وهو ما قالت عنه أمّه الفلاحة من قريةٍ نائية في ولاية إنديانا شاكية، «أعطيتهم ولدا غِرّا، فأعادوه إليّ قاتلا شرّيرا» جدير بالذكر أنّ ميدلَو هذا انفجر لغم تحت قدمه اليمنى في صباح اليوم التالي لتنفيذ المذبحة، فبُتر ذلك القدم.

يمضي المؤلف ليقول، «إنّ مقالاتي الخمسة حول المذبحة هي التي رشحتني لنيل جائزة پولِتزر لعام 1970 لأهمية التقارير العالمية. وهو امتياز نادر لأيّ صحفي مستقل. كما حصلت على جائزة جورج پَولك، التي أسبغها عليّ فريق من زملائي لتميزي في ميدان الخدمة الصحفية. كما حصلت على جائزة وِرث بِگِم. وهكذا نلت الشهرة ومعها نلت المزيد من المال، الذي مكّنني من دفع مقدمة لشراء بيت صغير في واشنطن». ومع ذلك، «لا زلت أعاني من نفس الحيرة حتى بعد حصولي على جائزة پولِتزر. أين أنشر ما أكتبه، وأين أجد عملا؟».

في الذكرى الخمسين لوقوع تلك المأساة، كتبت إحدى الصحف العربية تعليقا حول الموضوع قالت فيه، إنّ مذبحة ماي لاي تمثل بالنسبة لجيل كامل من الأمريكيين والأوروپيين والآسيويين نموذج الوجه الأمريكي القبيح. كتبت مجلة تايم الأمريكية عقب إماطة اللثام عن تفاصيل المذبحة تقول، «تحمّل الضمير الأمريكي وطأة الإحساس الثقيل بالذنب عما حدث في ماي لاي، أمر لا فكاك منه». لكنّ القضية تطلبت ست سنوات أخرى قبل أن يفرّ الأمريكيون أخيرا في هلع من سايگون على متن مروحيات من على أسطح ثكنات السفارة الأمريكية في أبريل عام 1975بعد أن خسروا 58 ألف قتيل. وقعت أمريكا القوة العظمى في مستنقع الهزيمة والخزي والعار وهُزمت في حرب عصابات في واحدة من جبهات الحرب الباردة على يد عدو فقير تكنولوجيا، تكبد على حدّ قول الصحيفة، ما يتراوح بين مليونين وأربعة ملايين فيتنامي[6].

بدأ المؤلف يلاحق الشهود ويتابع ليس فقط تفاصيل ما جري بل أيضا محاولات التستر على ماذا جرى. أدرك أنّ القادة في ماي لاي وغيرها من مناطق فيتنام اختاروا سلوكا واحد تكرّر المرة تلو الأخرى خلال تلك الحرب. وهو النظر إلى قتل المدنيين ليس باعتباره جريمة وبدأ التحقيق باعتباره جريمة حرب وتحمل المسؤولية المهنية عن تنفيذها، بل النظر إلى المذبحة باعتبارها مخالفة لقواعد الاشتباك، ومعاقبة من ارتكب مثل هذه الجرائم الكبرى على أنّها مخالفة لتلك لقواعد. بدأ بإعداد كتاب عن هذا الأمر. وفي وسط ذلك حصل على موافقة تأشيرة لدخول فيتنام الشمالية، وهو الأمر الذي حدا بصحيفة نو يورك تايمز أن تخطب ودّه ليوافيها بتقاريره عمّا كان يجري هناك. كان أوّل صحفي غربي يُسمح له بالدخول إلى هَنوي منذ زيارة هَريسُن سولزبَرگ في أواخر عام 1966، وهو الذي كتب تقارير بالغة الأهمية عن آثار الحرب على فيتنام الشمالية في تلك الفترة. طار هيرش إلى هَنوي في أواخر شهر فبراير من عام 1971. في الحقيقة، «كان هدفي الطموح هو أن أكتب عن الحرب غير المتكافئة وأوضح كيف أنّ شعبا صغيرا ليس لديه قوة جوية يقف وجها لوجه ضدّ دولة عظمى ويحقق عليها انتصارا».

لنتأمل لحظة تلك الحرب التي بدأت حقيقة بتاريخ 1 نوفمبر 1955 واستمرت لغاية 30 أبريل 1975. بلغت خسائر الفيتناميين خلال سنوات الحرب الثماني:

- مليونا قتيل
- 3 ملايين جريح
- ما يناهز 12 مليون لاجئ.

أما الأمريكيون فقدرت خسائرهم بـ:

- 57 ألف قتيل
- 153303 جريحا
- 587 أسيرا بين مدني وعسكري تم إطلاق سراحهم بعد الانسحاب الأمريكي عام 1975[7].

من المعروف أنّ التورط الأمريكي بدأ قبل الإعلان الرسمي لأوّل مرة عن وصول لجان التدريب والاستشارة العسكرية في عهد إدارة كندي واستمر في إدارة جونسُن وبلغ أوجه في إدارة نِكسُن، حين امتد القتال إلى لاوس. وانتهت الحرب بانسحاب القوات الأمريكية بتاريخ 30 أبريل عام 1975، وكان جيرالد فورد هو الرئيس في ذلك الحين. لقد أرادت أمريكا أن تحتل الفراغ الذي تركته قوات فرنسا المهزومة في معركة ديان بِيان فو عام 1954. قاتلت فرنسا معارك شرسة كان وقودها أبناء مستعمراتها في شمال أفريقيا من الجزائر والمغرب ومن وسط غرب أفريقيا، خاصة من غينيا وبنين والسنِگال وساحل العاج. فعلى سبيل الحصر ساهمت الوحدات العربية التالية في تلك المعركة:

الكتيبة الأولى، الفوج الأول المشاة الجزائرية.

الكتيبة الثالثة، الفوج الثالث المشاة الجزائرية.

الكتيبة الخامسة، الفوج السابع المشاة الجزائرية.

الكتيبة الأولى، الفوج الرابع المشاة المغربي[8].

يُعتبر هيرش ثاني صحفي غربي حصل على تأشيرة دخول إلى فيتنام الشمالية، وأمضى سنة تقريبا وهو يكتب تقاريره ويبعثها من هَنوي. زار المناطق التي تعرضت للقصف الشديد وقابل عددا من المسؤولين الكبار في حكومة فيتنام الشمالية، خاصة ممّن شاركوا في مباحثات السلام في باريس. كما قابل بعض الأسرى من الطيارين الأمريكيين وعدد من الدبلوماسيين الأجانب في العاصمة. كان شديد الحذر فيما كتب ولم يعطِ فرصة لأحد أن يستغل وجوده لأغراض الدعاية. لقد

رفض مرارا أن يكون ضيفا على إذاعة هَنوي واكتفى بمقابلاته وملاحظاته وأسئلته ومناقشاته مع المسؤولين الحكوميين. يذكر أنّه في إحدى المرات أمضى 15 ساعة «وأنا أناقش ها فان لو وهوانگ تونگ، محرر صحيفة الشمال الرسمية والذي انضم إلى صفوف الثوار وهو في سن 17 عاما، وجهة نظر هَنوي حول محادثات السلام في باريس. لم يكن هناك تظاهر بأنّهما زوّداني باقتراح جديد للسلام، بل حقيقة أعطياني معلومات مباشرة. كان ها فان لو ضمن الوفد لتلك المفاوضات وذهب وعاد ليشترك في المفاوضات مباشرة مع الوفد الأمريكي برئاسة هنري كِسِنجر. فحوى ما علمته هو أنّ الحكومة الفيتنامية في الجنوب، التي ترأسها في حينه نِگوِن فان ثو، يجب أن تسقط قبل الشروع بأيّة مفاوضات جادة حول السلام. أعطتني المناقشة فهما ممتازا لطلبات الجانب الآخر الأساسية».

بعد كشف ماي لاي وفضح التستر عليها وعلى التحقيقات العسكرية بشأنها، انصرف في الفصل الثاني عشر للكتابة عن تكوين الغيوم برش المواد الكيمياوية في الجو لإحداث العواصف لعرقلة تحركات العدو وعدم كشف الطائرات المغيرة حتى لا تراها بطاريات المدفعية وتستهدفها بصواريخ أرض جو. كما بدأ يتابع التقارير عن قيام وكالة المخابرات المركزية بتأسيس شبكات لتهريب المخدرات في جنوب شرق آسيا. وتابع أيضا الغارات الجوية لتدمير السدود في فيتنام الشمالية وانطلاق تلك الغارات من مطارات سرية في لاوس. واستطاع من إجراء مقابلة مع ثلاثة أسرى ممّن أفرجت عنهم هَنوي لدواع سياسية محض.

أضف إلى ذلك أنّه تبين له وجود ثلاث قضايا خلقت خلافات داخل وكالة المخابرات الأمريكية، التي كان على رأسها رچرد هِلمز، الذكي المعروف الذي دخل شبكة المؤسسة الحكومية في واشنطن. القضية الأولى هي معرفة هيرش بموضوع رفع الغواصة السوفياتية الغارقة وهي تحمل ثلاثة رؤوس نووية المستقرة في قاع المحيط الهادئ، في عملية خُصص لها مبلغ 750 مليون دولار، في الوقت الذي كانت فيه الحكومة تستقطع من ميزانيتها المبالغ المخصصة لتوفير الحليب لطلبة المدارس العامة. والمسألة الثانية كانت عن وجود عملية اسمها عملية الفوضى، وهي مشروع سري وافقت على تنفيذه الحكومة عام 1967 لجمع المعلومات الشخصية عن المتظاهرين المناهضين لحرب فيتنام، وغيرهم من المنشقين. ومثل هذا النشاط يتعارض مباشرة مع مهمة وكالة CIA وميثاقها، الذي يمنع بشكل واضح تدخلها في الشؤون الداخلية أو ممارسة أيّ نشاط لها داخل الولايات المتحدة. المسألة الثالثة هي جهود وكالة المخابرات المركزية الحثيثة لتقويض حكومة سلفادور أيندي في چلي، وهو اشتراكي لم يخّف أو يخفف من نقد سياسات واشنطن الخارجية. غير أنّ انتباه روزِنثال كان مركزا على فضيحة ووترگيت فطلب من هيرش أن يلتفت إليها.

وعن الموضوع الثالث ضمن اهتمامات هيرش المشار إليها أعلاه، علقت احدى المجلات العربية بالقول إنّ سلفادور أيندي المرشح الرئاسي عن الحزب الاشتراكي في چلي، أنتخب بالأغلبية عام 1970، مما تسبب في قلق بالغ في واشنطن بسبب سياساته الاشتراكية العلنية والموالية لكوبا. فوّضت إدارة نِكسُن، بإيعاز من الرئيس نفسه، المخابرات المركزية بأن تشجع قيام انقلاب عسكري ليحول دون تنصيب أيندي، لكن الخطة لم تنجح.

ظلت العلاقات الأمريكية الچِيلية شبه متجمدة أثناء حكم أيندي، بعد التأميم الكامل لكل مناجم النحاس المملوكة جزئياً للولايات المتحدة وللفرع الچيلي لشركة ITT الأمريكية، وعدد من المصالح الأمريكية الأخرى. زعمت الولايات المتحدة أنّ الحكومة الچيلية بخست قيمة تلك المصالح حين قيّمتها للتعويض عن التأميم بخصمها ما رأته تلك الحكومة «أرباح زائدة عن الحد». ولذلك، طبقت الولايات المتحدة عقوبات اقتصادية ضد چِلي. وقامت وكالة المخابرات المركزية بتمويل إضرابات مناهضة للحكومة خلال عامي 1972 و1973، وحملة دعاية مضادة سوداء في صحيفة إل مركيوريو.

وفي 11 سبتمبر 1973، لقي أيندي مصرعه أثناء انقلاب عسكري دموي قام به القائد الأعلى للجيش أوگوستو پينوشَيه، الذي أصبح رئيسا للبلد. وثمة وثيقة كشفت عنها المخابرات المركزية الأمريكية في عام 2000 بعنوان «أنشطة الـ CIA في چِلي» أوضحت أنّ الولايات المتحدة عملت، من خلال وكالة المخابرات، على الدعم النشط لطغمة عسكرية بعد الإطاحة بالرئيس الشرعي وأنّها جعلت من العديد من ضباط پينوشَيه عملاء بمرتبات لدى المخابرات أو القوات المسلحة[9].

سجّلت واشنطن پوست ورئيسها بِن برادلي سبقا صحفيا حين قام مراسلاها الشابان بوب وودوَرد وكارل برنِستين بالكشف عن فضيحة ووترگيت وبالتالي إسقاط الرئيس رچرد نِكسُن. شعرت نو يورك تايمز، التي تعدّ نفسها الصحيفة الأولى في البلاد، بالإحراج، وطلب رئيسها أيب روزنثال من مراسله في مكتب واشنطن، ساي هيرش، أن يضع حرب فيتنام وهوسه بها جانبا وينصرف لمتابعة موضوع الفضيحة. قبل الأخير المهمة صاغرا وبدأ بحثه الاستقصائي وكتب العديد من المقالات، التي نشرت التايمز 40 منها. ادّعى هيرش، «أنّ تلك المقالات قرّبت مؤشر الاتهامات نحو نِكسُن»، لكنّه عرف جيدا أنّ مفاتيح الفضيحة كانت حقا في أيدي وودوَرد وبرنِستين.

بدأت فضيحة ووترگيت بعد إعادة انتخاب الجمهوري رچرد نِكسُن رئيسا للولايات المتحدة، وفوزه على منافسه الديمقراطي هيوبرت همفري. بتاريخ 17 يونيو 1972 تم اعتقال أشخاص اتهموا بالسطو ووضع أجهزة تنصت سرية في مكاتب الحزب الديمقراطي داخل مبنى ووترگيت بواشنطن، وتسجيل 65 مكالمة لأعضاء الحزب. في البداية أدين خمسة أشخاص حين اتهموا بأنّ لهم علاقة بوكالة المخابرات المركزية الأمريكية، كما أدين شخصان آخران في القضية بتهمة «التجسس والشروع في السرقة». ثم توسع التحقيق لاحقا بعد كشف صحفيي جريدة واشنطن پوست بوب وودوَرد وكارل برنِستين عن وجود علاقة بين قضية السطو والتجسس والشروع في السرقة ومحاولة التغطية عليها من قبل جهات رسمية كوزارة العدل، ومكتب التحقيقات الفدرالي ووكالة المخابرات المركزية والبيت الأبيض.

في مارس 1973 أرسل جَيمس مكورد، وهو أحد المدانين السبعة، رسالة إلى قاضي المحكمة أشار فيها إلى تورط جهات كبرى في القضية ليشمل التحقيق بعد ذلك طاقم البيت الأبيض، مما دفع الرئيس نِكسُن في 30 أبريل 1973 إلى إقالة اثنين من كبار مستشاريه بسبب علاقتهما

بالقضية. وفي 17 مايو من نفس العام بثت جلسات الاستماع في القضية على التلفزيون، مما أدى إلى تدهور شعبية نِكسُن. كشفت التحقيقات الخاصة بالفضيحة أنّ لجنة التحقيق طالبت بأشرطة مسجلة لكنّ الرئيس نِكسُن رفض تسليمها مبدئيا، لكنّ البيت الأبيض سلم الأشرطة بعد حذف بعض المقاطع منها مدعيا أنّها حذفت عن طريق الخطأ. اتهمت وكالة المخابرات المركزية بعرقلة التحقيقات بحجة أنّ «المقاطع المحذوفة تتضمن أشياء تمس أمن البلاد»، وفي 30 يونيو 1974 تم الكشف عن محتويات الأشرطة كاملة. أقرت المحكمة العليا بعدم دستورية استخدام الرئيس سلطته التنفيذية لحجب أجزاء من الأشرطة، وأدين بثلاث تهم، هي «استغلال النفوذ، وعرقلة مسار القضاء، وعدم الانصياع له»، إضافة إلى تهمة «الكذب على مكتب التحقيقات الفدرالي»، حيث اعتبره القضاء مشاركا في القضية. بدأ الكونگرس مناقشات لعزله[10].

في حوار تلفزيوني مع الصحفي البريطاني ديفد فروست، أقر نِكسُن بـ «الأسف الشديد» لما حدث. لكنّ فصول القضية لم تنته بالأسف، فأعلن نِكسُن استقالته من منصبه في 8 أغسطس 1974. وإضافة إلى استقالة نِكسُن وإدانة 48 شخصا، فقد الحزب الجمهوري 5 مقاعد في مجلس الشيوخ و49 مقعدا في مجلس النواب لصالح الديمقراطيين، وإجراء تغييرات تتعلق بتمويل الحملات الانتخابية وجعلها خاضعة للرقابة الفدرالية.

«الحنجرة العميقة» هو بطل فضيحة ووترگيت الذي سرب المعلومات الخاصة بها للصحفيَين بوب وودوَرد، وكارل برنِستين، اللذين تابعا القضية لصالح صحيفة واشنطن پوست ابتداء من يونيو 1971، وأطلقت عليه وسائل الإعلام الأمريكية هذا اللقب لسنوات طويلة. لكنّ شخصيته الحقيقية ظلت مجهولة حتى وفاته عام 2005 حين كشِف عن هويته، ويدعى مارك وِليَم فِلت. كان فِلت مسؤولا في مكتب التحقيقات الفدرالي، وكان المصدر الرئيسي في الكشف عن الفضيحة، حسب تأكيد الصحفي برنِستين لاحقا. وجدير بالذكر أنّ الوثائق الخاصة بالفضيحة التي حصل عليها وودوَرد وبرنِستين قد بيعت إلى جامعة تكسَس في مدينة أوستن بمبلغ 5 ملايين دولار في 8 أبريل 2003.

لعل أبرع وصف طرحه هيرش للمستشار والوزير كِسِنجر أنّ، «الرجل يتنفس كذبا، بل أسوأ من ذلك». يخبرنا المؤلف في فصله الرابع عشر أنّه أمضي غالبية وقتيه في صيف عام 1973 وخريف عام 1974 في متابعة ثلاث قضايا أخرى تحمل بصمات كِسِنجر. وهي القصف السري لكمبوديا وقضية تزوير سجل غارات طائرات B52 على ذلك البلد، ونشاطات فريق البيت الأبيض من السباكين، وعمليات وكالة المخابرات المركزية السرية ضدّ حكومة الرئيس أيندي في چِلي. يتفاخر أنّه ساعد على طرح هذه القضايا أمام الرأي العام، ووجد معلومات جيدة تصلح لتكون عناوين بارزة في الصحف ووضع عددا من المسؤولين، الذين ارتكبوا أعمالا محظورة، أمام مسؤولياتهم. ثمّ يمضي للادعاء، «وهو ما ساعد على جعل إدارة نِكسُن غير قابلة على الاستمرار». كيف إذن أفلت كِسِنجر من أيّة عقوبات؟ كيف تمكّن أن يفلت من كثير من الأعمال المشينة، التي قام بها الرئيس نِكسُن ومساعدوه الكبار؟ ولعل السؤال الأهم، لماذا انتخب الأمريكيون نِكسُن لفترة رئاسة ثانية عام 1972، رغم فضيحة ووترگيت وغيرها من الأهوال والفضائح؟

الحقيقة أنّ نِكسُن قد فاز بفارق 20 مليون صوت على خصمه الديمقراطي وحصل على ثقة كافة الولايات وتأييدها، باستثناء ولاية ماسَچوسِت والعاصمة واشنطن. طرح بنجامِن براون عددا من الأسباب والمبررات لهذا الفوز الكاسح وألقى باللائمة على الإعلام الذي لم يقم بدوره المطلوب في البحث والتمحيص بعد بروز الدلائل عن السطو على مكتب الحزب الديمقراطي في مبنى ووترگيت[11]. السبب في رأيه أنّ الصحف كانت تخشى أن يُحرم مراسلوها من دخول البيت الأبيض. كما اطلِقت حملة مسعورة ضدّ مرشح الحزب الديمقراطي جورج مكگفرن، الذي لاحقه الإعلام بوصفه لِبراليا ويساريا متطرفا جدّا، تفتقر حملته الانتخابية إلى حسن التنظيم، الذي تميزت به حملة نِكسُن. أضف إلى ذلك، نشر تقارير عن أنّ نائبه تومَس إيگلتُن خضع في ذات الوقت للعلاج النفسي بسبب حالة الكآبة التي كان يعاني منها، فاستدعى الأمر ترشيح سارجنت شرايفر بديلا عنه في آخر لحظة. لعل الأهم أنّ بوب وودوَرد وكارل برنِستين وكاثرِن گرام، ناشرة صحيفة واشنطن پوست، هم الذين توفرت لديهم المعلومات، لم ينشروا تفاصيل فضيحة ووترگيت حتى انتهت الانتخابات بوقت قصير. «لو كان وودوَرد وبرنِستين قد سجّلا سبقهما الصحفي مبكرا، لما أعيد انتخاب نِكسُن عام 1972»، بحسب ادّعاء براون. وبدلا من ذلك استمرت دراما ووترگيت تلعب على المسرح الأمريكي لمدة سنتين أخريين لغاية استقالة الرئيس في شهر أغسطس عام 1974.

بعد أن فرغ المؤلف من فصله الرابع عشر الذي كرسّه للحديث عن هنري كِسِنجر، جعل فصله الخامس عشر للحديث عن النشاطات غير القانونية لوكالة المخابرات المركزية للتجسس على المواطنين الأمريكيين المناوئين لحرب فيتنام وغيرهم من أعضاء المنظمات المتمردة المطالبة بالمساواة وبالحقوق المدنية. تطرق هيرش إلى مقالته، التي «أثارت غضبا وفزعا واسعين في أوساط الشعب لممارسة وكالة المخابرات المركزية CIA عمليات التجسس داخل البلاد. وترتب على ذلك قيام تحقيقين كبيرين من قبل لجان الكونگرس للبحث عن أدلة جديدة لتلك التجاوزات. غير أنّ ضغوطات الكونگرس من أجل الإصلاح قد جوبهت بعناد حاد من قبل إدارة فورد، التي قادها مدير مكتب الرئيس دونلد رامسفيلد ونائبه دِك چَيني، اللذان عملا ما بوسعهما لحماية الوكالة، التي مهمتها ممارسة نشاطاتها السرية للتجسس وجمع المعلومات حول العالم، منذ تأسيسها عقب الحرب العالمية الثانية».

الحقيقة هي أنّ سجل العمليات السرية القذرة للوكالة المذكورة في خمسينيات وستينيات وسبعينيات القرن الماضي لم يكن يدعو إلى الفخر. لقد دبرت وكالة المخابرات المركزية انقلابات واغتيالات في أفريقيا والشرق الأوسط وأمريكا اللاتينية. لكنّ ضمير الكونگرس لم يستيقظ إلا بعد أن طالت العمليات القذرة نوابا منه في فضيحة ووترگيت، التي أطاحت بالرئيس الأمريكي رِچَرد نِكسُن في عام 1974.

بعد تلك الفضيحة المدوية التي تجسس فيها الرئيس على خصومه السياسيين، كشف الكونگرس تحقيقاته حول العالم الخفي لعمليات البيت الأبيض السرية تحت إشراف لجنة چرچ، التي

سميت باسم السيناتور فرانك چرچ. حققت اللجنة في مجموعة واسعة من الانتهاكات التي ارتكبتها السلطة التنفيذية بما في ذلك عمليات التجسس الداخلي ضد مواطني الولايات المتحدة، ورسمت اللجنة صورة غير قانونية عن أنشطة نفذت دون رقابة من المحاكم أو الكونگرس.

أمام سيل الفضائح، التي هزت العالم كله، أصدر الرئيس جيرَلد فورد في عام 1976 الأمر الرئاسي رقم 11905 الذي منع فيه الولايات المتحدة من تنفيذ اغتيالات أو انقلابات سياسية، وكلِفت لجان الكونگرس بالإشراف علي عمليات المخابرات الأمريكية وعلى رأسها العمليات السرية. مهّد ذلك لقانون عام 1980 الذي أقره الكونگرس وأجبر به البيت الأبيض على تقديم تقارير عن جميع برامج التجسس إلي لجنة الاستخبارات الجديدة التي أنشئت للمراقبة والمتابعة والمحاسبة. تعقد هذه اللجنة اجتماعاتها في الغرفة S407، وهي غرفة بلا نوافذ تقع في القسم العلوي من مبني الكونگرس ولا يمكن الوصول إليها إلا بمصعد واحد أو سلم ضيق وجهزت الغرفة بأجهزة متطورة لمكافحة التنصت من الخارج. هناك يلتقي أعضاء من الكونگرس وكبار العسكريين وشخصيات مؤثرة في السياسة الخارجية بجانب رجال وكالات الاستخبارات والهدف مناقشة أدق الأسرار وأكثرها أهمية في البلاد ووضع برامج التجسس الخارجية. ولكن ما أن وصل] جورج بُش الابن إلى البيت الأبيض ومعه نائبه دِك چَيني حتى عادت الشرعية للعمليات السرية ولم تعد أجهزة الاستخبارات في حاجة للتحايل على القانون بحثا عن تمويل لتلك العمليات، فأعلى سلطة في البلاد تشجعها وتدعمهما وتتستر عليها. يختتم المؤلف فصله هذا بالقول، إنّ كولبي اعترف في مذكرة رفعها للرئيس فورد بمناسبة أعياد السنة الجديدة، أنّ وكالته قد فتحت ملفات لجمع المعلومات عن حوالي 100 ألف مواطن أمريكي[12].

بعد تركيزه على قضية تجسس وكالة المخابرات المركزية على آلاف المواطنين، انتقل المؤلف في الفصل السادس عشر ليغطي دور الوكالة في قضايا محاولات اغتيال زعماء أجانب ابتداء من فترة الستينات. ضمّت القائمة لومومبا في الكونگو وناصر في مصر وقاسم في العراق وسوكارنو في إندونيسيا وأيندي في چلي، وعلى رأس القائمة بطبيعة الحال فيدل كاسترو. كان هؤلاء أبطال تحرر وطني في بلدانهم مِمّن أعلنوا مناهضتهم لمطامع الدول الاستعمارية ومطامحها للتحكم في اقتصاد بلدانهم وإخضاعها سياسيا. كما كتب هيرش عن تعاون الوكالة والبحرية الأمريكية في مشروع لانتشال غواصة نووية سوفياتية غارقة من قاع المحيط. كما نشر مقالة «ذكرت فيها أنّ البحرية الأمريكية كانت تنفذ عمليات تجسس داخل المياه الإقليمية للاتحاد السوفياتي طيلة 15 عاما على الأقلّ. كانت مهمتها المبدئية أن تتنصت على خطوط الاتصالات (الكيبلات) تحت سطح البحر ومراقبة تحركات غواصات الأسطول السوفياتي».

من المعروف أنّ الحرب الباردة وما تمخّض عنها من عمليات التجسس بين القطبين بدأت مع نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى سقوط الاتحاد السوفيتي عام 1991، وبلغت ذروتها إبان ستينات القرن الماضي. أسقط الاتحاد السوفيتي طائرة تجسس أمريكية من طراز U2، كانت في مهمة لتحديد إذا ما كان السوفييت يوجهون صواريخ باتجاه الولايات المتحدة. استبعدت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية للرئيس الراحل، دوايت أيزنهاور إمكانية إسقاط طائراتها المعقدة

التقنية، والتي يمكنها التحليق على ارتفاع 70 ألف قدم. إلا أنّه في الأول من مايو 1962 اختفت الطائرة أثناء التحليق فوق روسيا، واعتقِل الطيار فرانسِس پاورز. جعل القائد السوفيتي، نِكيتا خروچوف، حطام الطائرة معرضا عاما، وبعد تلك الإهانة أجبر أيزنهاور على الاعتراف بأنّ أمريكا كانت تتجسس.

بعد ثلاثة أيام من اجتماعه بالرئيس الكوبي فيدل كاسترو، لأول مرة، توجه خروچوف للمشاركة في فعاليات الجمعية العامة للأمم المتحدة في 23 سبتمبر عام 1960.هدّد الزعيم السوفيتي، الذي كان يؤمن بأنّ الاشتراكية هي المستقبل وأمريكا بحاجة لكبح الجماح، في كلمته بـ «دفن» أمريكا. اعتقد كنَدي بأنّ مهمة إدارة الحرب الباردة وهزيمة السوفييت تقع على عاتقه، وهذا ما بدا جليا في كلمته أثناء توليه الرئاسة في 20 يناير 1961. من أبرز ما جاء فيها «لتعلم كلّ أمة سواء أرادت لنا الخير أو الشر أننا سوف ندفع أيّ ثمن ونتحمل أيّ عبء ونواجه كلّ مشقة، ونؤيد كلّ صديق ونعارض كلّ عدو، لضمان بقاء ونجاح الحرية»[13].

مع قيام رائد الفضاء، يوري گگارن، بالطيران إلى الفضاء الخارجي والدوران حول الأرض لمدة ساعة و48 دقيقة في 12 إبريل 1961، خشي قادة أمريكا من العجز عن حماية الشعب، واعتقد البعض أنّ من يمتلك القدرات لإرسال بشر للفضاء قادر على وضع رؤوس نووية هناك. وحول ذلك الإنجاز قال خروچوف، «الآن لندع الدول الرأسمالية محاولة اللحاق». تفجرت أزمة بفضول مستشار في وكالة المخابرات الأمريكية لدى مشاهدته ملاعب كرة قدم على ساحل كوبا في سبتمبر 1962، فعلق قائلا، «الكوبيون يلعبون كرة البيسبول والروس كرة القدم»، وهذا ما دعا للاعتقاد بوجود قواعد روسية في الجوار.

صادق كنَدي على تحليق طائرة تجسس U2 فوق كوبا، بعدما طلب أدلة مقنعة خشية تكرار سيناريو خليج الخنازير، واقتنع بالصور التي قدمت له بأنّ السوفييت ينصبون صواريخ في كوبا. تخوف الرئيس الأمريكي الراحل من أنّ حياة 30 مليون أمريكي في خطر، بعدما قدمت له وكالة المخابرات تقريرا موجزا عن المناطق الأمريكية التي تقع ضمن نطاق أيّ هجوم نووي محتمل من الأراضي الكوبية. بتاريخ 22 أكتوبر 1962، أعلن الرئيس حظرا على كوبا، وخاطب العالم قائلا بأنَ أسلحة دمار ضخمة وبعيدة المدى تهدد أمريكا. وعندما أرسلت روسيا 22 سفينة باتجاه كوبا، اعتقد البيت الأبيض أنّها المراحل الأولى لحرب عالمية ثالثة. في اللحظات الأخيرة غيّرت السفن السوفيتية اتجاهها، وللمرة الأولى أقر خروچوف بوجود صواريخ سوفيتية في كوبا، مؤكدا بأنّها لأغراض دفاعية بحتة، ووعد بإزالتها حال تعهد الرئيس الأمريكي بعدم غزو كوبا.

خصص المؤلف القسم الأخير من هذا الفصل لتغطية موضوع آخر. نُقِل عن صحفي التايمز الراحل جِمي برسلين قوله، «إنّ عصابات الجريمة المنظمة يقودها 9 إيطاليين ويهودي واحد». وهذا ما جعل هيرش يعد تحقيقا صحفيا وينشره في أربعة أجزاء عن ذلك اليهودي المسمى كورشاك. «ما كنت أتابع ضابط مخابرات رفيع المستوى، بل شخصا مدفونا بعمق داخل الدوائر الرسمية في واشنطن، ولا يتوقف عند نشر موضوع ينتقده، بل يسعى لإيجاد طرق أخرى لممارسة

نشاطاته. في الحقيقة، كان هدفي أبعد من المحامي كورشاك، صانع الصفقات لدى الشركات الاحتكارية، التي ساعدته ووفرت له الحماية».

تطرق هيرش في الفصل السابع عشر إلى ثلاثة كتب ألفها عن كِسِنجر بعنوان «ثمن السلطة». كان الكتاب الثاني عن إسقاط طائرة الركاب الكورية فوق الساحل الشرقي للاتحاد السوفياتي وعنوانه «تدمير الهدف». أمّا كتابه الثالث فخصصه للحديث عن امتلاك إسرائيل للسلاح النووي، الذي وضع له عنوان «خيار شمشون». ذكر عن الكتاب، «إنّ ما كشفته حول حجم ترسانة إسرائيل النووية أصبح القصة الرئيسية في صحيفة التايمز منذ أن نزل الكتاب إلى الأسواق في خريف عام 1991. لكنّه سرعان ما أصبح واضحا أنّنا نواجه قوة إسرائيل ونجابهها، لأنّ نظرة تحليلية لدور أمريكا منذ رئاسة دوايت أيزنهاور ومن جاء بعده من الرؤساء، هو الإذعان وتحاشي مجابهة إسرائيل بخصوص سلاحها النووي السري. خبت جذوة الإقبال على شراء الكتاب في الجانب الغربي من نو يورك، حيث محل سكني العديد من اليهود، بعد أن اتضحت الرسالة التي يعبّر عنها الكتاب. وهي رسالة لا يريد أن يسمعها إلّا النادر من اليهود».

وبصدد هذا قالت مجلة «ذا ناشنال إنترِست» الأمريكية إنّ البرنامج النووي الإسرائيلي هو الأكثر غموضا حول العالم[14]، مشيرة إلى أنّ إسرائيل تمتلك برنامجا نوويا قويا رغم مخزونها النووي المحدود. وأضافت المجلة الأمريكية، أنّ السلاح النووي الإسرائيلي يهدف إلى ردع الدول المعادية من شن هجمات كيميائية وبيولوجية ضدها، وأوضحت أنّ إسرائيل سارعت إلى الانضمام للنادي النووي في خمسينيات القرن الماضي، وكان رئيس وزراء الاحتلال دَيفِد بِن گورين مهووساً بتطوير البرنامج النووي للدولة العبرية، لأنّه رأى أنّ امتلاك السلاح النووي للدولة الصغيرة، التي بدأت على أساس فقير، مسألة وجودية.

أضافت المجلة إن بِن گورين أصدر تعليماته لمستشاره العلمي، إرنست ديفِد بيرگمَن، بقيادة الجهود النووية السرية لإسرائيل، وتأسيس وترأس لجنة الطاقة الذرية الإسرائيلية. أقام شمعون پيريز، الذي تولّى بعد ذلك منصبي رئيس الوزراء والرئيس الإسرائيلي، اتصالات مع فرنسا، لإقامة مفاعل نووي كبير يعمل بالماء الثقيل ومحطة لإعادة معالجة البلوتونيوم تحت الأرض، وبني المفاعل في ديمونة في صحراء النقب. هذا وكشف تقرير عن رسالة بريد إلكتروني خاصة بوزير الخارجية الأمريكي الأسبق كولِن پاول، تمّ تسريبها في سبتمبر 2016، تحدث پاول فيها عن امتلاك تل أبيب ترسانة من 200 سلاح نووي.

كرّس هيرش الفصل الثامن عشر للحديث عن بدء عمله في مجلة نو يوركر ومن ثم قضاء أربع سنوات في إعداد كتاب وفيلم وثائقي عن الرئيس جون كنَدي، الذي تمّ اغتياله في مدينة دَلاس في ولاية تكسَس عام 1963. صرف المؤلف الكثير من الوقت للتحقيق في نشاطات وكالة المخابرات المركزية ودورها الفعال في تنفيذ محاولات اغتيال زعماء أجانب في كوبا وامريكا الجنوبية وفي أفريقيا. لم يُتهم جاك كنَدي مباشرة بالتصديق على الإغتيالات (الأوامر المباشرة باغتيال كاسترو)، لكنّ المؤلف أشار إلى بوبي، اخيه ووزير العدل في حكومته، بالمساهمة والتصديق على محاولة اغتيال خلال اجتماع سرّي. «كان بوبي منسقا للعمليات السرية في كوبا

وساهم بشكل متفرد في اجتماع لاستخدام عصابة جيانكانا، للحصول على حبوب سامة لقتل كاسترو. كما أنّ لديه معرفة أنّ هوفر قد حذر الرئيس أثناء تناول غداء معه من قضية تسجيل المكالمات الهاتفية التي يجريها مع عشيقته جودي أكسنر، وقت كانت لها ارتباطات بعصابة جيانكانا المذكورة. قطع كنَدي إثر ذلك التحذير كافة اتصالاته مع أكسنر. وبعد 6 اسابيع صدّق بوبي على أمر الحصول على الحبوب السامة لاستخدامها في كوبا». ومع ذلك، فقد حقد عليه الناجون من الغزو الفاشل لكوبا، وعزوا الفشل إلى تخاذل الرئيس كنّدي وتخليه عنهم في اللحظات الحرجة. وقد يكون لذلك علاقة بقضية اغتياله بعد أشهر.

كان مخطط عملية الغزو يقوم على البدء بضرب أهم القواعد الجوية الكوبية قبل يومين من عملية الإنزال بطائرات تحمل شعار الطيران الحربي الكوبي ويقودها طيارون كوبيون. ثمّ يليها توجيه ضربة ثانية لتلك القواعد الجوية في صبيحة يوم الإنزال، بهدف شلّ حركة الطيران الكوبي وتمهيد الطريق للتدخل، ومن ثم ضرب الجسور البرية والحديدية في هَفانا والمناطق المجاورة. فضلت أمريكا في تلك الفترة البقاء بعيدة عن أضواء العملية، والتظاهر بأنّ العملية منظمة من قبل القوات المسلحة الكوبية وليست بتوجيه من الخارج.

كان من المفترض أن تنطلق الطائرات من القاعدة الجوية الأمريكية في نِكراگوا وأن يتم التمويه لانطلاقها أمام وسائل الإعلام. بدأ بتاريخ 15 أبريل الهجوم السابق للإنزال بالقاذفات الأمريكية B26 على مطارات كوبا وأحياء هَفانا وسَنتياگو والعديد من المناطق المجاورة، وبدت الغارة الأولى وكأنّها نجحت في تحقيق أهدافها، كما ظن قادة العملية. ولكن في الحقيقة قبيل العملية كانت قيادة الجيش الثوري في كوبا قد غيرت مواقع العديد من الطائرات إلى مطارات احتياطية.

رغم إخفاق العملية في أولى غاراتها إلا أن الرئيس كنَدي لم يلغ خطة الإنزال بل أصدر قرارا بإلغاء الغارة المقررة قبيل الإنزال. بدأ هذا الإنزال من السفن المتواجدة على شواطئ كوبا ليلا واستمر حتى فجر 17 أبريل. انتشر المئات من المرتزقة على الشواطئ بعد إنجاز الإنزال واتجهوا إلى الداخل، حيث كان لهم بالمرصاد المِليشيات الشعبية التي قاومت بعنف في محاولة لمنع هذه المجموعات من التقدم، وكسب الوقت لحين قدوم قوات الجيش الثوري.

ومع ظروف غياب الدعم الجوي، ونفاد الذخيرة، انسحبت القوات الغازية إلى الشاطئ. حاولت سفن الدعم القريبة من الشاطئ إخلاء تلك القوات، إلا أنّها لم تفلح في جهودها. انتهت بذلك عملية خليج كوچينوس، أو خليج الخنازير بالفشل الذريع. كان من نتيجة هذه العملية أنَ الجيش الثوري الكوبي قد أسر 1179 شخصا من مجموعات الإنزال واستولى على خمس دبابات ثقيلة (شيرمان) وعشرات من الأسلحة الفردية[15].... «تبيّن من التحقيق مع الأسرى أنّهم جميعا من أنصار الرئيس السابق باتيستا وصرحوا بأن المخابرات الأمريكية هي التي تولت تدريبهم لوقت طويل. كان لفشل العملية صدمة حقيقية للقيادة الأمريكية، وللرئيس الأمريكي جون كنَدي ذاته».

كرّس هيرش فصله التاسع عشر والأخير للحديث عن أمور عدة لعل أبرزها تأليفه لكتاب عنوانه (سلم القيادة) الذي فضح فيه جرائم التعذيب الوحشي للمعتقلين العراقيين في (سجن أبو

غريب). ولكن مثلما حصل مع كشفه فضيحة ماي لاي، التي لم ينجم عنها وقف حرب فيتنام ووحشيتها، لم يفلح كتابه عن فضيحة أبو غريب في إيقاف الحرب في العراق ولا الحدّ من وحشيتها.

في الذكرى الخامسة عشر للغزو الأمريكي للعراق، فتح واحد من أشهر معتقلي)سجن أبو غريب(سيئ السمعة خزانة ذكرياته، ليروي قصصا مروعة عن التعذيب والإهانة الجسدية والنفسية والجنسية التي عاصرها وزملاؤه داخل السجن. وقبل سنوات تسربت صور مخيفة لتعذيب السجناء العراقيين في السجن الذي أدارته الولايات المتحدة، هزت العالم وتسببت في فضيحة للجيش الأمريكي.

قرر علي القاسمي، أحد أشهر سجناء أبو غريب، أن يفتح أبواب ذاكرته، ليروي قصصا عن الإهانات التي تعرض لها نزلاء هذا المعتقل القريب من العاصمة العراقية بغداد. وقال القاسمي إن كافة المعتقلين داخل السجن «تعرضوا لانتهاكات وتعذيب وإذلال جنسي وإهانة واغتصاب وكثير من الأشياء السيئة».

بعد الغزو الأمريكي للعراق عام 2003 أصبح (سجن أبو غريب) الواقع قرب بغداد، المكان الرئيسي لاحتجاز العراقيين المتهمين بجرائم ضد قوات التحالف الغربي، ومورست وراء جدرانه أعمال التعذيب والقتل. ولا يبدو أنّ الطفولة ولا الكهولة تشفع عند السجان في (أبو غريب)، فكل من كان فيه منتهك حسب رواية القاسمي، الذي أضاف: «رأيت طفلا اغتصبوه أمام أبيه. كان محققو الشركات يرتكبون جرائم شنيعة».

القاسمي كان صاحب الصورة الأكثر شهرة في (سجن أبو غريب،) التي تظهره معلقا كشبح ومربوطا بأسلاك التعذيب بالكهرباء، ويقول إنّ جروحه النفسية أعمق من الجسدية. وأردف: «هناك جروح غائرة بالنفس صعب على الإنسان أن ينساها مهما طال الزمن».

عرضت وكالة «رابتلي» إفادات وشهادات لضحايا آخرين كانوا نزلاء في السجن، تحدثوا خلالها عن الانتهاكات وأساليب التعذيب الوحشية التي تعرضوا لها. وكشف المعتقلون السابقون الذين لم تكشف الوكالة هوياتهم، عن الاضطرابات النفسية ومشاعر الخوف، التي يعانونها حتى الآن. وتحدث أحدهم عن التعذيب الجسدي الذي تعرض له والإذلال النفسي والجنسي، وعمليات قتل المعتقلين واغتصاب الأطفال التي كانت تتم دون سبب أو إدانة، وعلى مرأى من الجميع. طالب بعض ضحايا السجن بضرورة توفر مراكز إعادة تأهيل نفسية، تمكنهم من نسيان الظلم الذي لاقوه بعد الإفراج عنهم، وتوفر العناية اللازمة لهم ولجميع المعتقلين السابقين[16].

نقلت صحيفة دَيلي تِلِگراف البريطانية عن الجنرال الأمريكي انتونيو تابوگا، الذي أجرى التحقيق في انتهاكات (سجن أبوغريب) أنّ من الصور التي يطالب مجلس الحريات المدنية الإفراج عنها ويحاول الرئيس بَراك أوباما منعها، هي تلك التي تحتوي على مشاهد جنسية فاضحة وانتهاكات واغتصابات، وقال إنه يدعم قرار الرئيس أوباما بمحاولة منع الإفراج عنها لأنّها تعرض حياة الجنود الأمريكيين للخطر. وتظهر صور عملية اغتصاب لسيدة عراقية معتقلة، فيما تظهر صورة أخرى مترجما مصريا يحمل الجنسية الأمريكية وهو يغتصب معتقلا شابا آخر، فيما تظهر

صور أخرى انتهاكات جنسية واضحة تصور عمليات ضرب وانتهاكات جنسية للمعتقلين بأدوات مثل أسلاك، وأنابيب فسفورية وما شابه ذلك وكلها في سجن أبو غريب الرهيب في العراق.

جاءت التفاصيل الجديدة عن حجم التعذيب الذي مورس في (سجن أبو غريب) من تقرير الجنرال تابوگا، الجنرال الأمريكي السابق الذي اجري التحقيق في انتهاكات (أبو غريب). وكان التحقيق في تلك الانتهاكات عام 2004 قد تضمن اتهامات بالاغتصاب إلا أنّه لم يكشف عن وجود صور. وقال الجنرال تابوگا الذي تقاعد عام 2007 أنه يدعم قرار الرئيس أوباما، مضيفا أنّ الصور «تظهر التعذيب والاغتصاب وأشياء أخرى غير لائقة»[17].

ليس بخاف أنّ التعذيب الأمريكي في السجون لم يقتصر على (أبو غريب) بل مورس في الفلوجة والرمادي والكاظمية وتكريت والموصل والبصرة، وغيرها من مدن العراق الأخرى، فما الذي حصل لفرق التعذيب في تلك السجون؟ من العجب العجاب أنّ التفاتة العدالة الأمريكية اقتصرت على (سجن أبو غريب) فقط، ومع ذلك كانت التفاتة منقوصة. وقف عدد محدود من العسكريين أمام المحكمة، وضمت قائمة هؤلاء ما يلي:

1. مَيگن أمبول.

اعترفت بالذنب لاتهام واحد فقط. فصِلت من الجّيش ولم تقضِ أيّة محكوميّة في السّجن. كانت واحدة من حريم گارنر، وتزوّجها بعد إطلاق سراحه.

2. العريف جَفال ديفز.

اعترف بالذنب ضمن تسوية قبل الظهور أمام المحكمة. حُكِم عليه بالسّجن لمدة ستة أشهر قضى منها ثلاثة أشهر تقريبا في السّجن العسكريّ.

3. لندي انگلاند.

حوكمت مرّتين ووجدت مذنبة وفق أربع مخالفات حُكم عليها بالسّجن 36 شهرا والفصل من الخدمة. أطلق سراحها بعد انقضاء نصف من مدة محكوميّتها. وهي واحدة من الحريم المحيط بالمجرم گارنر، وكانت تبدو حاملا وقت المحاكمة.

4. نائب الضابط إيفان فردرك الثاني.

حكم عليه بالسّجن 8 سنوات والفصل من الخدمة مع تخفيض الرّتبة. أطلِق سراحه بعد أن أمضى ثلاث سنوات في سجن عسكريّ.

5. چالز گارنر.

وجد مذنبا وفق 9 من أصل 10 تهم. حُكِم عليه بالسّجن لمدة 10 سنوات وتخفيض رتبته إلى جندي وحرمانه من التّقاعد وفصله من الخدمة العسكريّة. قضى في السّجن 6 سنوات

تقريبا من محكوميته. كان هذا من أقسى المعذبين وأحاط نفسه بحريم من المجندّات الأمريكيّات، ظهر معهن في «حفلات التعذيب». عمل قبل التحاقه بالجّيش حارسا في أحد السّجون المدنيّة، وعُرِف عنه ساديّته وعنصريّته المكشوفة.

6. سبرينا هارمن.

وُجدت مذنبة وفق 6 من أصل 7 تهم. حُكِم عليها بالسّجن 6 أشهر وتخفيض رتبتها إلى جنديّة وفصلها من الجّيش بعد انقضاء مدة محكوميتها. وهذه واحدة أخرى من حريم گارنر.

7. الرئيس ستيفن جوردن.

هو الضّابط الوحيد الذي اتّهم بإساءة معاملة المعتقلين. لم تثبت عليه التّهم الثمانية، لكنّه اتّهم بمخالفة التّعليمات حول عدم الحديث عن مجريات التّحقيق، أو بالأحرى التعذيب، ووبّخ لذلك. تمّ في عام 2008 تبرئة ذمته ورُفعت كافة الإتّهامات والتّوبيخ من ملفه.

8. العميدة جنِس كارپنسكي.

خفّضت رتبتها إلى عقيد بأمر من الرئيس بُش نفسه. وُجّهت إليها أربع اتهامات ووجدتها لجنة التّحقيق مذنبة في تهمتين من أصل أربع تهم تتعلق بالتّحايل على اللجنة والسّرقة من أحد المتاجر!

9. العقيد تومَس پپاس.

وُبّخ وغُرّم وأزيح عن القيادة لاستعمال الكلاب داخل غرف التّحقيق.

10. الرئيس جَري فِلبوم.

وُبّخ وأزيح عن قيادة وحدة الانضباط العسكري رقم 32 لدورها في الفضيحة.

11. جَرمي سِفيتز.

أقرّ بذنبه وفق اتفاق مسبق جرى مقابل عدم إحالته للمحاكمة، شرط أن يشهد ضدّ العسكريّين الآخرين المتّهمين بالفضيحة. حُكم عليه بعدم مغادرة مبنى وحدته لمدة سنة وفُصِل بعدها من الجّيش لسوء سلوكه وخُفّضت رتبته العسكريّة[18].

وماذا عن ستيفن ستيفانوفچ، الذي تدرّب مؤلف كتاب (العواقب) على يديه وتعلم منه أساليب التّحقيق/التّعذيب وأجاد فيها باعترافه؟ أوصى اللواء أنتونيو تاگوبا، الذي انتدِب للتّحقيق في فضيحة (أبو غريب) وفي التّجاوزات في أفغانستان، بتوبيخ ستيفانوفچ وسحب بطاقة الأمن منه

وإنهاء عقد عمله. غير أنّ توصيات اللواء المذكور قد وُضِعت جانبا من قبل إدارة بُش / چَيني/ رامسفيلد، واستمر هذا الشّخص بعمله حتى تاريخ 26 أبريل من عام 2004. لم تتمّ إحالته إلى محكمة عسكريّة باعتباره مدنيّا متعاقدا مع شركة كاكي. وانسحب الأمر على كافة متعاقدي الشّركة المذكورة من المحققين.

يختتم المؤلف فصله الأخير بالدعم الذي وفرته أمريكا للإسلام السياسي، وهو أمر ليس بجديد فقد كانت أمريكا ودول الغرب عموما قد ساندته كجزء من سياسة الحرب الباردة ومقاومة الأفكار الشيوعية واليسارية التي تطالب بالاستقلال والتحرر والعدالة والحرية. إلا أنّ تلك المساندة صارت وباء على المنطقة في قارتي آسيا وأفريقيا. «ما من إقليم أو دولة دخلها الإسلام السياسي إلا واستحالت خراباً، انظروا إلى الجزائر وليبيا وتونس ومصر واليمن والسودان والعراق وسورية ونيجيريا ومالي وچاد وبنگلادش، ويمكن إضافة تركيا إلى القائمة، وغيرها[19].

د. محمد جياد الأزرقي

أستاذ متمرس، كلية ماونت هوليوك

قرية مونگيو، ماسَچوست، الولايات المتحدة

22/4/ 2019

mjiyad@mtholyoke.edu

إلى الزابث

مقدمة المؤلف

عشت العصر الذهبي للصحافة، وقت لم يكن مراسلو الصحف اليومية يتنافسون مع دورة الأخبار المتواصلة على مدى أربع وعشرين ساعة، وقت لم تكن الصحف متخمة بأموال الإعلانات، التي تنشرها، وقت كان بمقدوري أن أسافر إلى حيث أشاء وقت أشاء ولأي سبب، وأنا احمل بطاقة ائتمان باسم الصحيفة التي اعمل فيها. كان هناك وقت كاف لإرسال الأخبار الطازجة دون الرجوع المتكرر والدائم لمعرفة ما استجدّ على الموقع الإلكتروني للصحيفة.

لم يكن هناك وجود لدعوة «خبراء» ليقابلوا صحفيين في ندوات متلفزة حية على الهواء. تبدأ كلّ ندوة تقريبا بالجواب عن أيّ سؤال بعبارة قاتلة من كلمتين في عالم الإعلام، «أنا أعتقد...» لقد غرقنا بالأخبار الكاذبة والمعلومات الناقصة المُختلقة والتأكيدات الواهية، التي تقدّم بشكل مستمر عن طريق الصحف اليومية وبرامج التلفزيون ووكالات الأنباء على شبكة الإنترنت وشبكات التواصل الاجتماعي ورئيس الولايات المتحدة، نفسه.

نعم، الأمر فوضى! لا وجود لحلّ سهل ولا يلوح في الأفق مخلّص ينقذ الإعلام الجادّ. ستستمر الصحف الكبرى والمجلات ومحطات التلفزيون بتسريح مراسليها وتقليص هيئات العاملين فيها وتخفيض الميزانية المقررة لإرسال التقارير الجيدة، خاصة التحقيقات الصحفية التي غالبا ما تكون عالية الكلفة وذات نتائج غير متوقعة ولها القدرة على إغضاب بعض القراء، وقد تتسبب في إقامة الدعاوى بقصد التعويض المالي. تميل صحف اليوم إلى الإسراع في نشر القصص التي لا تزيد أساسا عن كونها معلومة سرية أو إشارة إلى شيء ضار أو وقوع جريمة. وبسبب ضيق الوقت والمال وافتقار الجهاز المهني، فإننا محاصرون بالإشاعات والأقاويل والقصص التي لا يكون فيها المراسل أكثر من ببغاء تردد ما تسمع. كنت اعتقد دائما أنّ مهمة الصحيفة هي أن تبحث عن الحقائق، وليس فقط نشر التقارير عن الخلافات. هل تمّ اقتراف جرائم حرب بحق اليمنيين؟ تعتمد الصحف هذه الأيام على تقرير للأمم المتحدة تمت مناقشته على مدى شهور. هل بذل الإعلام أيّة جهود جديّة لشرح لماذا لا يؤخذ تقرير الأمم المتحدة على محمل الجّدّ من قبل العديدين حول العالم؟ هل توجد تقارير تنتقد الأمم المتحدة؟ هل بإمكاني أن أسأل عن الحرب في اليمن؟ ولماذا رفع دونلد ترامب اسم السودان من قائمة البلدان التي يُمنع السفر إليها؟ هل سبب ذلك لأنّ القيادة في الخرطوم دفعت ببعض قواتها للمشاركة في قتال معارك اليمن؟

قامت مهنتي بكاملها على أهمية الإفصاح عن الحقائق المرغوب وعدم المرغوب فيها، وجعل أمريكا واحة للمعرفة. لم أكن وحدي في خلق هذا الاختلاف، فقد سبقني إلى ذلك ديفد هولبوستام وچارلي مولر ورَد جَست ونيل شيهين ومورلي سافر، وغيرهم من صحفيي الدرجة الأولى، الذين قاموا بالكثير لكي ينوّروا أفكارنا حول الجانب الوضيع لحرب فيتنام. أنا اعرف أنّ الأمر لم يكن سهلا بالنسبة لي لأتحرك دون ضابط في عالم الصحافة العالمية حتى فترة ما قبل عشر سنوات حين بدأت الأزمة المالية. إنّني أتذكر بوضوح اليوم، حين اتصل بي دَيفد رَمنِك، محرر مجلة نو يوركر عام 2011 ليسأل إن كان بإمكاني إجراء مقابلة مع مصدر هامّ عن طريق التلفون، بدلا من أن أطير مسافة ثلاثة آلاف ميلا لأقابل ذلك المصدر شخصيّا. إنّ دَيفد، هو الذي عمل كلّ شيء ممكن ليساعد على نشر تقريري عن الرعب في (سجن أبو غريب) عام 2004، ودفع ثمنا غاليا ليمكنني من نشر تقريري المذكور على مدى ثلاثة أعداد متتالية من المجلة. لقد رجاني بصوت خافت شاحب مُحرَج يكاد يكون همسا، أن اجري تلك المقابلة.

أين هي التقارير الصعبة اليوم حول عمليات القوات الأمريكية الخاصة وعن الصراع السياسي الذي لا نهاية له في الشرق الأوسط وأمريكا الوسطى وإفريقيا؟ لا شكّ أنّ التجاوزات مستمرة. الحرب دائما جحيم، غير أنّ الصحف وشبكات الإعلام لا تستطيع ببساطة أن تبعث مراسليها إلى الميادين. الذي يستطيع ذلك، هو في الأساس صحيفة نو يورك تايمز، حيث عملت لمدة ثمان سنوات في فترة السبعينات، حين كنت دائما خالقا للمتاعب. هذه الصحيفة عاجزة اليوم عن تأمين كلفة إنجاز تقرير على أمد طويل رغم الحاجة إلى الخوض عميقا في قضية الرشوة/الفساد في الجيش والمخابرات حول العالم. وكما سترون في الصفحات القادمة أنّني أمضيت فترة عامين قبل أن أكون قادرا على كتابة تقريري عن العمليات اللاشرعية لوكالة المخابرات المركزية للتجسس داخل البلاد في فترتي الستينات والسبعينات.

لا أدعي أنّني امتلك الجواب لمشاكل إعلامنا اليوم. هل يجب على الحكومة المركزية أن تتحمل كلفة هذا الإعلام، كما الحال في إنگلترا، حيث تتحمل نفقات هيئة الإذاعة البريطانية BBC؟ اسألوا دونلد ترامپ عن ذلك. هل يتطلب الأمر تمويل عدد قليل من الصحف الوطنية من الميزانية العامة؟ إذا كان الأمر كذلك، فمن يحق له شراء الأسهم لمثل هذا المشروع؟ لا شك أنّ الوقت قد حان لتجديد النقاش وتبادل الرأي حول كيفية المضي إلى الأمام. لقد آمنت وعلى مدى عدة سنوات بأنّ مثل هذا المشروع سيلاقي النجاح وأنّ فشل الصحف الأمريكية سيحلّ محله المدونات الإلكترونية Blogs وشبكات الأخبار الإلكترونية والمجلات الأسبوعية، التي ستتولى تغطية الأخبار المحلية والعالمية والوطنية. ورغم القليل من المحاولات الناجحة مثل فايسوبزفيد وپوليتيكو وترُثآوت، فإنّ قنوات الإعلام الأخرى مثل نَيشِن، فإنّها منحازة وحادّة اللهجة.

وعليه يجب النظر إلى هذه المذكرات على حالها، وهي أنّها قصة شخص جاء من الغرب الأوسط لهذه البلاد. بدأ حياته عاملا في قسم الاستنساخ في صحيفة صغيرة تغطي الجرائم والحرائق ومجريات المحاكم. وبعد مرور أحد عشر عاما أصبح مراسلا مستقلا في مدينة واشنطن يعمل لصالح وكالة صغيرة للأخبار مضادة للحرب. كانت وكالة معارضة متطرفة ضد الرئيس وشوكة في حلقه لنشر الأخبار عن المذابح الأمريكية الفظيعة، وحصلت على اعتراف بتميّزها في هذا

الميدان. لا حاجة أن تخبرني عن المعجزات والأمور المحتملة في أمريكا. ربّما ذلك هو السبب بأنّه من المؤلم جدا أن اعتقد بأنّني لم احقق ما حققته لو كنت اعمل في جو صحفي تسوده الفوضى ويفتقر إلى النظام، كما نرى في صحافة العالم اليوم.

وبطبيعة الحال، فإنّني لا زلت مستمرا في المحاولة.

الفصل الأول

البداية

نشأت في الجانب الجنوبي من مدينة شيكاگو، ولم تكن لي إطلاقا معرفة بأيّ شخص في ميدان الصحافة، ولم يكن لدي اهتمام في عالم ما بعد ساحة لعب كرة البَيسبول والمتنزه العام. لكنّني كنت أتابع أخبار الرياضة في صحف يوم الأحد وأتابع القصص الفكاهية المصورة comics. كان والداي مهاجرين، اسم والدي إسادور من لِتوَينيا واسم والدتي دَورَوثي من پولندا. وصلا إلى جزيرة ألِس في نيويورك خلال السنوات، التي أعقبت الحرب العالمية الأولى. وبطريقة أو بأخرى شقّا طريقهما إلى شيكاگو، حيث التقيا وتزوّجا. لا اعتقد أنّ الإثنين قد اكملا مرحلة الدراسة الثانوية حين وصلا إلى هذه البلاد. لم يعيرا موضوع إكمال الدراسة اهتماما لأنّه كان عليهما أن يكسبا قوتا لحياتهما وحياة أطفالهما الأربعة، الذين ولدوا كتوأمين متتاليين. وُلدت أختاي فِلِس ومارشا عام 1932، وبعد خمس سنوات وُلدت أنا وأخي ألِن. لم نعرف نحن الأطفال إطلاقا الأسباب التي دعت والدينا أن يتركا عائلتيهما ومكان ولادتيهما ويستقلا باخرة قطعت بهما المسافات البعيدة للوصول إلى امريكا. كان ذلك موضوعا لم يُذكر في الأحاديث العائلية، كما لم نتطرق أيضا إلى موضوع افتقار والدي إلى التعليم الرسمي.

تُعتبَر أسرتي من الناحية الاقتصادية في الدرك الأسفل من الطبقة المتوسطة. امتلك والدي محلا لتنظيف الملابس وكيّها عنوانه 4507 شارع إنديانا في وسط حيّ الزنوج الفقراء في الجانب الجنوبي من مدينة شيكاگو. تبدأ ساعات العمل في المحل من السابعة صباحا حتى السابعة مساء، تعقبها ساعة إضافية لايصال الملابس النظيفة وتسليمها إلى أصحابها. حين وصلت وأخي ألِن مرحلة المراهقة، كان متوقعا منّا أن نعمل في المحل حين يُطلب منّا، خاصة في يومي العطلة الأسبوعية وساعات المساء المزدحمة خلال أيام الأسبوع. كنت وأخي نخشى فورة غضب والدي السريعة. يوم الأحد بالنسبة إليه أن نصحو مبكرا ونذهب برفقته لننظف أرضية المحل، ثم يأخذنا إلى الحمام الروسي في الجانب الغربي من المدينة، والذي أغلق منذ زمن بعيد. كنّا نتعرّق ومن ثمّ ندلك أجسامنا بأغصان وأوراق شجر البتولا. يأتي بعده الوقت الممتع حين نذهب للسباحة في حوض عام صغير، يتبع ذلك غداء نتناول فيه سمك الرنكة herrings ونشرب البيرة الخالية من الكحول

root beer. كان والدي رجلا غامضا كتوما. وبعد ستة قرون على رحيله، علمت أنّه جاء أصلا من قرية سَدوفا الفلاحية، التي تسكنها غالبية من اليهود، وتبعد حوالي 100 ميلا عن العاصمة فِلنِيوس. في شهر أغسطس من عام 1941، كان مجموع سكان القرية من اليهود 664 شخصا بينهم 159 طفلا. اقتيد الجميع خارج القرية واعدموا رميا بالرصاص واحدا إثر الآخر على يد وحدة من الكوماندوز الألمان بالتعاون مع انصارهم من اللِتوانيين. لم يتطرق والدي في حديثه إلى المانيا النازية أو الحرب العالمية الثانية. إيسادور هيرش كان ناجيا من الهولوكوست وفي نفس الوقت ناكرا له.

وعلى أيَة حال، فإنّ والدي أخبرني أنّه كسب بعض المال بعد أن حطّ الرحال في أمريكا في مطلع العشرينات بتقليد غناء العصافير وهو يعزف على آلة الكمان. لقد كانت تلك قصة لبداية ضغط قوي عليّ وعلى أخي لنأخذ دروسا في تعلم العزف على الكمان عصر أيام الأحد على يد ديفد مَول، الذي أصبح بعد انتهاء الحرب عازفا للكمان في الفرقة السمفونية لمدينة شيكاگو. كنت أنا وأخي «نعزف» الكمان بملل لمدة ساعة، يقوم بعدها والدي ومَول بالعزف سويّة. كان والدي يجيد العزف، لكنّه لم يمارس ذلك ألّا قليلا وبصحبة مَول فقط. أتذكّر جيدا وقتا آخر نستمتع فيه مساء أوّل سبت من كلّ شهر بلقاء المهاجرين من قرية سَدوفا، الذين تمكنوا مثله أن يصبحوا رجال أعمال صغار جمعتهم الأقدار في شيكاگو.

لم يفهم والدي واقع الحال في أمريكا. حين كنّا أنا وأخي في السنة الأولى من المرحلة الثانوية، انتقلنا من شقتنا القليلة الأثاث وسط الحي اليهودي الكبير في شرق شارع رقم 47، إلى حيّ جديد في طرف الجانب الجنوبي من المدينة. لا بُدّ أن تكون الفكرة من بنات أفكار والدتي. كان بيتنا الجديد يقع في منعطف الشارع واشترينا أثاثا جديدة مغطاة معظم الوقت بالپلاستك وتوجد أمام البيت حديقة صغيرة جدّا يغطّيها الحشيش. لقد كرهنا البيت بالرغم من وجود حمّامين فيه، السبب هو لأنّنا ابتعدنا عن أصدقائنا ومعارفنا وساحات اللعب التي نعرفها جيّدا. كنت في أحد الأيام جنب والدي الهادئ المزاج دائما، حتى تحين لحظة الانفجار، نسقي حشيش الحديقة الصغيرة، حين تقدّم نحونا أحد جيراننا الجدُد تغطي وجهه ابتسامة عريضة. كان أيرلنديا بكل ما تعنيه هذه الكلمة، وقال بلكنة أيرلندية قوية إنّ اسمه مكارثي ورحبّ بنا في تلك الجيرة الجديدة. سأله والدي بكل صراحة، «هل أنت من اتباع الديانة اليهودية يا سيد مكارثي؟» لا زلت اشعر بالعار والإحراج كلما أتذكر ذلك اللقاء. أعرف أنّني أسرعت بالدخول إلى البيت راكضا. لقد صارعت أمي أيضا للتأقلم للحياة في أمريكا، لكنّها وجدت ملجأ لها في استحواذ رغبة الطبخ وخبز المعجّنات عليها. أصبح الطعام وسيلتها للتواصل معنا، نحن أولادها ووالدنا. ولكي أقول الحق، فإنّ أمّي كانت خبّازة رائعة في إعداد البسكويت والمعجّنات. لا زال طعم فطيرة التفاح لذيذا في فمي، رغم أنّني لا أتذكّر أنّني تحدثت معها بخصوص تلك المهارة.

كان والدي مدخنا شرها، ثلاث علب من السجائر في كلّ يوم. لعنت في سرّي سعاله الشديد أثناء الليل، وتمّ تشخيص إصابته بسرطان الرئة، وأنا لم اتجاوز سنّ السادسة عشر، وهذا ما جعلني أكره التدخين طيلة حياتي. اجريت له عملية غير ناجحة لأنّ السرطان انتشر خلال عام تقريبا في جسمه ووصل إلى دماغه. أصبحت مسؤولا عن العائلة لأنني كنت أخشى قليلا إزعاجه، رغم أنّه

كان يجلدني أحيانا بالحزام الذي يستخدمه لشحذ موسى حلاقة ذقنه كل صباح. من ذكرياتي المبكرة هي مراقبتي له وهو يشحذ ذلك الموسى المخيف. حافظ والدي حتى آخر أيام حياته على قلّة الكلام، إلّا أنّه في داخله كان مليئا بالغضب لقدره وقدرنا، كما هو متوقع. فارق الحياة وهو في سنّ 49 عاما، وكان ذلك في مطلع شهر يوليو عام 1954، بعد تخرجي وأخي من المرحلة الثانوية بشهر واحد.

لا أدري كيف تمكنت من اجتياز تلك المرحلة، خاصّة بعد تردي علاقتي بوالدي خلال مرضه. كنت دائما طالبا راغبا في التعلم وانتميت في عمر مبكر، حوالي الثلاثة عشر عاما، إلى نادي الكتاب الشهري، واستمريت بشكل مواظب على إرسال مبلغ دولار هو رسوم عضويتي الشهرية في ذلك النادي مقابل استلام كتاب غير قصصي كلّ شهر. في الغالب لم يكن كتابا مناهضا للشيوعية من اعداد أدگر هوفر أو أيّ من أنصاره ومن يتفقون معه في الرأي. كانت بينها كتب ممتعة حول تاريخ العاهل هايسبرگ ودراسات عن كنيسة الروم الكاثوليك والحملات الصليبية والقرون الوسطى. أضحت مرحلة الدراسة الثانوية ليست بذات أهمية في نظري بعد تردي صحة والدي وازديادها سوء. بدأت في ذلك العام اتغيب عن حضور الصفوف وأتجاهل عمل الوظائف المنزلية واختلق الأعذار أمام المدرسين واظهرت ميلا للعزلة وعدم الإختلاط بالآخرين، تعبيرا عن أزمة لم يلتفت إليها أحد لا في البيت ولا في المدرسة.

إتفقت مع أخي ألِن أن يكمل تعليمه الجامعي، وهو الذي اظهر على مدى سنوات عديدة ولعه بعلوم الضبط والدقة cybernetics، التي برز بها نوربرت وينر، في معهد التكنولوجيا في مَسَچوست MIT. وعليه فقد «هرب» أخي من اجواء شيكاگو والتحق بجامعة ألِنوي فرع إربانا-شامپَين، التي تبعد حوالي ساعتين بالسيارة جنوبا. كان الإتفاق أن ابقى في شيكاگو لأدير المحل واكمل دراستي هنا بشرط أن يتكفل ألِن برعاية أمّي بعد تخرجّه. درس أخي الهندسة الكهربائية وجعلنا، نحن أفراد العائلة نفتخر به حين ذهب إلى جامعة كاليفورنيا في مدينة لوس أنجلس وحصل على شهادة الدكتوراه في تخصص ديناميكية السوائل Fluid Dynamics.

لم اظهر أسفا أو حزنا، لأنّني كنت اصلا أكثر اهتماما من أخي بأمور محل التنظيف وكي الملابس والرائحة الخاصة التي تملأ المكان حين ينطلق البخار من مكائن كي الملابس. كنت شديد الرغبة أن يستمر عمل المحل وأنّني أستطيع رعاية أمي وتأمين احتياجاتها. ليس مهمّا أنّني وطالبين آخرين من مدرستي قد سجّلنا أعلى العلامات في اختبار قدرة الذكاء IQ في سنتنا الأخيرة من المرحلة الثانوية، وأنّ ذلكما الطالبين قد التحقا بجامعة هارفرد، وأنا لا اعرف ماذا اعمل سوى مواصلة نجاح العمل في المحلّ. «هربت» اختاي من البيت في وقت مبكّر، ولذلك بقيت أنا وأمي ومحل تنظيف الملابس وكيّها والبيت الجديد، الذي أكرهه. أن أكون ذكيّا في تلك المرحلة، مسألة ليست بذات أهمية، لكنّني شابّ امتلك قدري واختار ما يناسبني، حتى وإن كان من ضمنها العمل في شارع إنديانا.

تلقيت الدرس المبكر في أخلاقيات العمل بعد أسابيع قليلة من وفاة والدي من حاخام المعبد اليهودي في منطقة سكننا القديمة، واسمه بني روبنستاين. في الحقيقة لم يتردد أيّ من أفراد العائلة على المعبد، لكنّني وأخي التحقنا بصفوف تعلم اللغة العبرية فيه، ولأنّه اساسا قريب من ملعب كرة البيسبول لغير المحترفين. كان بني الذي نجا من المحرقة رجلا نحيفا في أواخر الثمانينات من عمره، وله أنف كبير ونبت الشعر الأشيب على كلتي أذنيه فغطاهما. كان الطقس حارا في أحد أيام منتصف الصيف، ولم يكن في شقته جهاز تبريد، حاله حال بقية الساكنين في ذلك الحي القديم. شعرت بالقليل من الرهبة وأنا اتقدم نحوه، حين مدّ يده في الهواء وأمسك ذبابة ورماها ميتة على الأرض. لا يمكن أن أنسى كلماته، التي ردّدها على مسامعي بلكنة اليدِش الكثيفة، «سيمور، أنت الآن ربّ العائلة ويجب أن تعتني بوالدتك. وعليه دعني اعطيك بعض النصيحة كرجل أعمال. اغلبهم قبل أن يغلبوك». لم أدر ما أقول حين ذكر كلمة fuck مرتين. هل كان يتكلم عن النازيين؟ أم الناس الذين أتعامل معهم كلّ يوم في المحلّ؟ غادرت الشقة بأسرع ما يمكن.

بعد شهر تبعت الطريق المتاح لي، اقصد هنا مسار صحفيّ يكره العلوم ويكثر من قراءة الروايات والأحداث التاريخية. التحقت بكلية أولية مدة الدراسة فيها سنتان وتقع على أطراف وسط مدينة شيكاگو. التعليم فيها مجّانيّ لا يكلف إلّا 45 دولارا في الفصل لقاء استعمال خزانة. كان اسم الكلية نيفي پِير، فتحتها جامعة اِلنوي بعد نهاية الحرب مستخدمة مبنى قاعدة بحرية للتدريب في لسان من اليابسة يمتد داخل بحيرة مشيگن مسافة نصف ميل. كان هدف تأسيسها فتح المجال أمام الجنود العائدين من الحرب، من الذين لا يمتلكون المال لكنّهم يرغبون في مواصلة التعلم، من تحقيق ذلك الهدف. بعد أن يقضي الطلبة فترة السنتين ينتقلون إلى الجامعة الأم في إربانا – شامپين للحصول على شهادة البكالوريوس.

كان جدولي الأسبوعي يقوم على فتح المحلّ الساعة السابعة صباحا، وحين يصل العامل المساعد ليحل مكاني اقود سيارتي مسافة اميال قليلة جنوبا لأصل إلى مبنى الكلية وحضور المحاضرات. أتذكّر أنّه كان يجب عليّ أن اقطع ممرّا طويلا خافت الإضاءة لأصل إلى الصفوف المبنية من الخشب، كانت اصلا تُستعمل لتدريب منتسبي البحرية على الإبحار والتنقل والمهارات الأخرى قبل أن يذهبوا إلى مناطق الحروب. كرهت بشكل خاص حصّة الرياضة الإلزامية، التي تتطلب من الطلبة أن يركضوا مسافة ربع ميل يوميّا بأقلّ من دقيقة. لم أعرف ولم أتعرف على أيّ شخص في تلك الكلية الأولية، وكنت حين افرغ من ذلك استقل سيارتي لأعود إلى المحلّ بسرعة.

ومع ذلك، فإنّ حياتي تغيّرت أو بالأحرى انقذت، بسبب ضغط قاومته لمدة ثلاثة عقود. بعد سنوات وبالذات الشهور الأولى من عام 1983 وفي الشهور التي تلت نشر كتابي المعنون (ثمن القوّة)، الذي انتقدت فيه هنري كِسنجر والدور الذي لعبه في البيت الأبيض. كنت أعمل في واشنطن العاصمة سعيدا بزواجي واطفالي الثلاثة، وكانت ذكريات كلية نَيفي پَير قد تلاشت تماما من خاطري. أثار كتابي المذكور امواجا من اصوات التأييد والقذف وسيلاً من الرسائل. كانت احداها مطبوعة بشكل جذاب من استاذ في جامعة اِلنوي إسمه برنارد كوگن، الذي قدّم نفسه بأنّه حصل حديثا على شهادة الدكتوراه في اللغة الإنكليزية من جامعة شيكاگو، وأنّه كان في خريف عام 1954 قد درّس مقرّرا عن الأدب الحديث في كلية نيفي پِير. كتب يقول، «عزيزي السيد هيرش، بالتأكيد

أنّك لا تتذكّرني». في الحقيقة أنّني لم اتذكّره حتى بعد أن شرح السبب في كتابة الرسالة. «لقد تدخلت خلال عملي المهني بحياة شخصين وقدّمت المساعدة لهما. الأول أصبح طبيبا جرّاحا أنقذ حياة العديد من الناس، والتدخل الآخر كان في حياتك، وأنا فخور جدّا بكليكما». لا أعرف بالضبط عمّ كان هذا الرجل يتحدث. ولكن حين اعدت قراءة الرسالة مرارا عديدة، إستيقظت الذاكرة فجأة فانسابت الدموع. قبل ثلاثين عاما تقريبا وحين انتهى أحد الدروس، كنت كعادتي اجلس متخفيّا في الصفوف الخلفية. هممت بالخروج من الصف حين صاح كوگن إسمي وطلب أن آتي إليه ليتحدّث معي. إعتراني القلق وتساءلت إن كنت ارتكبت خطأ. تقدّمت نحوه فبادرني بالسؤال، «ماذا تفعل هنا؟»

«ماذا تفعل هنا؟»أتذكّر أنّني فهمت بالضبط ما كان يعني. كان ذلك سؤال وجهته لنفسي لعدة اسابيع. في جوابي للإستاذ ردّدت وأنا اتلعثم شيئا عن وفاة أبي وأنّه لم يترك لي مجالا إلّا متابعة العمل في تأمين رزق العائلة من محلّ لتنظيف الملابس وكيّها. تذكرت الآن وخلال كتابة هذه المذكرات أنّه قبل اسبوع من حديث الأستاذ معي أنني كتبت بحثا قارنت فيه بين رواية للكاتب البريطاني سومرست موم مع رواية أخرى للكاتب الأمريكي سكوت فتزجيرالد. أعاد الأستاذ كوگن البحث وعليه الكثير من عبارات المدح والإطراء والتشجيع. أصابني الأستاذ بالذهول حين طلب مني أن التقي معه في مكتب القبول بجامعة شيكاگو باسرع وقت ممكن. وحين فعلت ما طلب مني، أدّيت في نفس اليوم اختبار القبول، الذي يتوجّب على كلّ متقدم أن يجتازه. تمّ قبولي فانتقلت مباشرة من كليتي لأبدأ فصل الخريف الدراسي الجديد، الذي بدأ لتوّه.

شعرت بالإرتياح في هذا الجو الأكاديمي الذي يركّز على التفكير الناقد وتعتمد مناهجه ليس على الكتب الدراسية المقررة، بل على الأعمال الأساسية للمفكرين المبدعين. وأهمّ من ذلك فإنّ الدرجة النهائية لأغلب المقررات الدراسية تقوم على امتحان تحريري أمده 4-6 ساعات. كنت دائما أرغب في الكتابة وافصح عمّا اريد قوله بشكل مباشر. ساعدتني قدرتي هذه على إنهاء مقررات الكلية بدرجات عالية، ربّما اكثر ممّا استحقه.

بالنسبة لأستاذي الرائع الدكتور كوگن، فإنّني بعد اسابيع قليلة من استلام رسالته، طرت إلى شيكاگو لمقابلته والقاء محاضرة بناء على طلبه أمام جمعية خريجي الجامعة، التي تأسست في السبعينات. درجت منذ تلك المناسبة أن ألبي طلبات من هذا القبيل، من ضمنها مناقشات داخل الصفوف في منطقة واشنطن العاصمة بدعوة من مدرّسي المدارس الثانوية ومناقشة السياسة الخارجية الأمريكية، سواء في الكليات أو المدارس الثانوية. تبادلت الرسائل مع الأستاذ كوگن، كانت آخرها عام 1998 أخبرني فيها أنّ المرض قد اشتدّ عليه. أتذكّر أنّه كتب لي في أواخر عام 1997 وعبّر عن قناعة تامة، «من الأمور الواضحة جدّا يا سيمور أنّك الآن لست ذلك الشاب الهادئ جدّا، الذي انتحيت به جانبا عصر أحد الأيام في الخمسينات». شكرا لكَ يا دكتور كوگن!

كانت فترة دراستي في جامعة شيكاگو ممتعة ومثيرة. ومن المؤكّد أنّ للجامعة نصيبا كبيرا من الطلبة غريبي الأطوار، اكثرهم أذكياء ومتمردين. بكل تأكيد لم أكن ماويّا ولا افلاطونيا ولا سقراطيا. لكنّني بوضوح كنت واحدا من غريبي الأطوار هؤلاء، وأنني ما زلت أجمع بين إكمال الدراسة والإستمرار في العمل في المحلّ والسكن مع والدتي, ومع ذلك وجدت الوقت للدراسة

والمشاركة مع فريق الجامعة لكرة البيسبول وانضممت إلى احدى الجمعيات الشبابية fraternity وحاولت فهم التعامل مع الفتيات والنضوج بشكل عام. ومن حسن حظي أن أمّي أخذت تساهم تدريجيا في إدارة المحلّ، علما بأنّ إيراده أخذ ينخفض تدريجيا، لكنّه كان كافيا لتغطية حاجاتنا نحن الإثنين.

لم أقم بأيّ نشاط صحفي، سوى مواظبتي على حلّ الغاز الكلمات المتقاطعة في صحيفة نيويورك تايمز ومتابعة العناوين الكبرى في الصحف، مع ازدياد مخاوفي من أيزنهاورو خروشوف والقنبلة الذريّة. في عام 1958 تخرجنا أنا وأخي، الذي التزم باتفاقنا المسبق. قبل منصب مهندس في مدينة سَن دياگو وانتقل مع زوجته إلى هناك، وتدبر الأمر بإيجار شقة قريبة منهما لتسكن فيها أمّنا. بعنا محل تنظيف الملابس وكيّها بثمن بخس لأحد عمّالنا. انتقلت إلى شقة في قبو منزل إيجارها 12 دولارا اسبوعيا، وتقع قرب متنزه هايد پارك في الجانب الجنوبي، حيث تقع الجامعة، وكانت شقة مريحة.

بشهادة في اللغة الإنگليزية دون تقدير شرف، لم اجد عملا مناسبا خلال الأشهر التالية. كنت شديد الولع بشركة زيروكس، التي كانت ستعلن خلال سنة واحدة عن تسويق أول ماكنة استنساخ. لا اتذكر من اعطاني تلك المعلومة، ولكن في نهاية الصيف بدا واضحا أنّ تلك الشركة لا ترغب في توظيفي. كان أحد اصدقائي المقربين في الكلية اسمه ديفد كري،الذي لعب معي في فريق البيسبول. كان والده برينرد استاذا معروفا متخصصا في القانون في جامعة شيكاگو. كان هو الآخر يهوى لعبة البيسبول، وكان يمضي الساعات يتدرب على ضرب الكرة مع ابنه ومعي. التحق ديفد بكلية القانون في جامعة هارفرد قبل سنة وعمل كاتبا في المحكمة العليا مع القاضي فِلِكس فرانكفورتر واستمر لفترة تزيد عن اربعة عقود يدرّس القانون في جامعة شيكاگو.

حين ذهبت لزيارة والده كي أشرح له واقع الحال في أواخر الصيف، أخبرته عن رغبتي للإلتحاق بكلية القانون في جامعة شيكاگو. حقق لي الأستاذ برينرد ذلك الطلب خلال ايام معدودة. يبدو أنّه مثل برنارد كوگن قد توسّم فيّ قدرات لم أكن واعيا بها.

اجتزت ثلاثة من الفصول الدراسية بدرجات معقولة، لكنّني وجدت أنّ دراسة القانون مملة وشعرت أنّ كلية القانون لا تروق لي، لأنّها تؤكّد على قراءة قضايا/دعاوى معينة وحفظها عن ظهر قلب. إنقطعت عن المواظبة في الحضور وتمّ فصلي من الكلية في نهاية العام بأمر من العميد، أدورد لفي، الذي ظهر في حياتي مرة أخرى بعد عقد من الزمن. لم اشعر بالإنزعاج من ذلك القرار لأنّني أعرف أنّ العميد كان على حقّ في قراره الصائب. أسفي الوحيد أنّ الأستاذ برينرد قد توفي عام 1965 ولم يشهد نجاحي في ميدان آخر غير القانون.

لم أكن اعرف ماذا سأفعل خلال الأشهر التالية. فكرت في اختصاص الأعمال وحضرت عددا من المحاضرات في كلية ادارة الأعمال. لم اقتنع بالفكرة ايضا. خلال وجودي في كلية القانون حصلت على عمل مؤقت لبيع البيرة والوسكي في صيدلية وولگرين في ضاحية افرگرين پارك في اقصى جنوب شرق شيكاگو. بدأت أعمل نفس العمل بدوام كامل لنفس الصيدلية في منطقة هايد پارك. في إحدى الإمسيات حضر كاتبان معروفان في شيكاگو وهما صول بلّو ورچرد ستّرن،

اللذان اعجبت بكتاباتهما، لشراء بعض المشروبات الكحولية. في الحقيقة كنت درست مع ستّرن في إحدى الحلقات الدراسية عن كتابة الرواية، وقت كنت في الكلية. كان يختار طلبته لذلك السمنار بنفسه. وكما حدث مع كوگن شعرت بالإحراج حين سألني «ماذا تفعل هنا؟»

دخلت في نوبة، «ماذا أفعل؟» طرقت في احدى الأمسيات حانة محلية والتقيت بشخص لا أعرف أين قابلته من قبل. إسمه بيتر لاس، الذي ذكّرني أنّه حاول التعرّف على فتاة كانت معي في إحدى الحفلات في السنة الماضية. كانت مثل تلك «السرقات» شائعة في هايد پارك، مثلها مثل ما يحدث لطيور المنطقة. ضحكنا لتذكّر القضية واستمرّ حديثنا ونحن نتناول قناني البيرة بتتابع. سألني ماذا اعمل فأجبته إنّني ابيع الوسكي في وولگرين. أخبرني أنّه يعمل حينها في مجلة تايم، أو أنّه ينوي أن يعمل هناك. بدأ حياته المهنية في الصحافة كمراسل يكتب عن الشرطة لصالح مكتب اخبار مدينة شيكاگو. أخبار المدينة، كما عرفت فيما بعد، قد أسّست في مطلع القرن من قبل صحف المدينة، إذ يُبعث المراسلون لتغطية اخبار محاكم المدينة ودوائر الشرطة فيها. يركّز المكتب على اخبار الجريمة في الشوارع، التي يوجد الكثير منها في شيكاگو، وأنّ ما يجمعه المكتب يصبح مادة للصحف الكبرى. وعليه كان هذا المكتب مصدرا لتوفير العمل للصحفيين الجدد الطموحين. نال مكتب اخبار المدينة شهرة لبعض الوقت لدى ظهور مسرحية الصفحة الأولى، التي تكرّر عرضها لسنوات وعملوا منها فلما سينمائيا، وهي من تأليف بِن هَشت وچالز ماكارثر.

ظهر لي حينها أنّ العمل في هذا المكتب أمر مُسلّ وممتع، لكنّ لاسي أخبرني أنه يوجد فريقان من العاملين في اخبار المدينة بسبب كثرة التبديلات في الفريق. كان نصفهم ياتي من جامعة نورثوسترن- كلية مدِل للصحافة، والنصف الآخر يمثله من يحملون شهادات جامعية اخرى. لا ادري إن كان الأمر كذلك، لكنّ ذلك هو ما صدّقته. ذهبت إلى مكتب اخبار المدينة وقدّمت طلبا غير مرفق بأيّة توصية، ولا هم طلبوها اصلا. اخبرني المسؤول عن قسم الإستنساخ بأنّهم سيتصلون بي حال وجود حاجة إلى خدماتي. انتقلت من شقتي إلى شقة أخرى دون أن اخبر المكتب المذكور بذلك ولا برقم هاتفي الجديد. مضت عدة أشهر وأنا ابيع الوسكي دون خجل، ما دمت مستمتعا بحريتي. وهي حالة لم أشعر بها قبل أن يُصاب والدي بالمرض القاتل. كان لدي وقت لقراءة مؤلفات وليم ستايرن ونورمن مَيلر وفِلِپ روث ونلسن الجرن وجَيمس فارل. كنت اسجّل على حدة كلماتهم وعبراتهم التي لم اعرفها من قبل. الرواية التي أعجِبت بها كثيراً كانت للمؤلف صول بلّو المعروفة بعنوان (مغامرات أوجي ماركب)، التي تدور احداثها حول حياة ولد من شيكاگو، لم يحالفه الحظ بعد.

في مساء أحد أيام الجمعة وبعد أن فرغت من عملي، دعاني آحد الأصدقاء للمشاركة في لعبة پوكر في شقتي السابقة، التي يشغلها الآن ثلاثة من طلبة الدراسات العليا الذين يجيدون اللعبة المذكورة التي لا اعرف شيئا عنها. وفي الساعة الثانية أو الثالثة صباحا اصابني الإعياء فألقيت نفسي على اريكة قديمة في تلك الشقة الحقيرة. في صباح اليوم التالي وفي حوالي الساعة التاسعة، وكنت لا ازال أغطّ في نوم عميق، رنّ جرس الهاتف قريبا من رأسي فتناولته وأنا لا زلت غافيا. كان المتحدث هو رايبگ من اخبار المدينة، يسأل عن هيرش، فأجبته أنا هو. سألني إن كنت لازلت راغبا في العمل كمراسل في قسم الشرطة بأجر قدره 35 دولارا اسبوعيا، وأنّه بإمكاني العمل مباشرة. وبطبيعة الحال أخبرته أنّني على أتمّ الإستعداد.

بعد اسابيع قليلة ازداد فيها اهتمامي بالأخبار، راقبت والتر راييگ المحرر في اخبار المدينة لخمسة عقود مضت وهو يذكر أنّه بحاجة إلى مراسل جديد. كان امامه كوما مكدّسا من الطلبات. يلقي نظرة على الطلب ويتصل برقم هاتف صاحبه، فإن لم يحظ بجواب، يضع الطلب في أسفل الكوم. بدأت حياتي المهنية بسبب لعبة پوكر خسرت فيها كل ما أملك من النقود.

الفصل الثاني

أخبار المدينة

كانت مهمتي الأولى في اخبار المدينة مذلّة. عُيّنت أولا كعامل استنساخ في وجبة العمل المسائية، التي تبدأ في تمام الساعة الخامسة مساء حتى صباح اليوم التالي. كان ما يُطلب منّي عمله كثيرا للغاية. أهم جزء فيه أن أنقل بسرعة نسخ البرقيات التي تصل إلى مقر الصحيفة باستمرار. المواضيع التي يتمّ تحريرها تُطبع على ورق معامل بالشمع، وكان عليّ أن ألفه حول ماكنة الطبع. ثمّ أبدأ بإدارتها بسرعة. النسخ التي انتجها تذهب داخل انبوب يدفع بها إلى قسم التحرير ومنه إلى محطات الإذاعة والتلفزيون. يكون الوضع مثيرا للجنون حين توجد اخبار هامة مثل اخبار جرائم القتل المزدوجة أو قرار المحلفين في قضية محاكمة جزائية. ولا هرب من أن يغطي الحبر الأزرق بدلة عملي بالكامل في نهاية وجبتي لأنّني استمرّ في ضخه إلى داخل الماكنة دون إبطاء.

واجبي الآخر كان أكثر سخافة. ما كان باستطاعتي أن أنهي نوبتي دون أن أكمل غسل الآلة كاملة بالماء والصابون الخاص، انصرف بعده إلى تنظيف طاولة لاري مولي، المحرر الصباحي، الذي ما زال يعمل في أخبار المدينة منذ أيام جون دلِنجر[20] وحوادث تبادل افراد العصابات النار بشكل علني في شوارع المدينة. وحتى لو كان بوسعي الحصول على ثلاث جوائز بوليتزر في الليلة الماضية، فإنّني سأفصّل من عملي في اليوم التالي إن لم أرتب طاولة مولي هذا وانظفها بشكل دقيق. كان يضع قفازا على يديه ويتلمس سطح طاولته لكي يتأكّد أن عامل الإستنساخ قد نظفها على أفضل ما يمكن، وإلا سيفقد وظيفته. غير أنّ الأكثر بغضا ضمن واجباتي كان عادة مساء يوم الجمعة، حين تصبح صحيفة اخبار المدينة المصدر المسؤول عن نشر نتائج سباقات كرة السلة بين فرق المدارس الثانوية ليطلع عليها القراء. كنت أمضي ساعات طويلة أسجّل نتائج تلك السباقات لقسم الرياضة الذي يشغله شخص واحد. وهو المحرر الرياضي، الذي يأخذ مسؤوليته على محمل الجدّ بشكل مبالغ فيه، كما علمت ذلك فيما بعد.

ومع ذلك فقد كنت مغرما جدّا بعملي. كان كافة المحررين والمراسلين يتميزون بالتعقل والسخرية، حول ما يمكن أن يوصف بأنّه طريقة شيكاگو. كان منتسبو الشرطة عنيفين مرتشين والعصابات تسيّر أمور المدينة على هواها. لم يلتفت مراسلو اخبار المدينة، باستثناء القليل منهم،

إلى الفساد المستشري وتجاهلوه مقابل حصولهم على منفذ يسهّل لهم الذهاب إلى مسرح الجرائم، ويكون باستطاعتهم إيقاف سياراتهم أينما شاءوا بشرط عرض لوحة تقول «صحافة» على الزجاجة الأمامية للسيارة. أمّا الطريق الخارجي السريع المحيط بالمدينة والذي يوصل بين الطريقين السريعين في شمال المدينة وجنوبها، فقد صوّره الكوميدي مورت سال بأنّه المكان الخارجي لعقد الصفقات الجماعية. ظلت الحانات مفتوحة إلى ما بعد الساعات المسموح بها، وكان رجال الشرطة يحصلون على المشروبات الكحولية مجانا، أكثر ممّا يحصل عليه المراسلون. كان لني بروس يقدّم وصلته على بعد عدة شوارع في نادي المستر كلي الليلي في شارع رَش. وكان بالإمكان سماع اصوات مايلز ديفز وجون كولترَين وثِلونيس مونك وانت تشرب البيرة في صالة سذرلاند في الشق الجنوبي من المدينة. كانت طموحات المراسلين الشباب العاملين في مراقبة اخبار المحاكم وتجاوزات رجال الشرطة تفوق فهمهم لمهمتهم بأن يعملوا وفق ما يسمح لهم به النظام ومحاولة مساعدة المدينة أن تنجز وظائفها. أمّا مراسلو اخبار المدينة، الذين يتابعون ما يجري في الشوارع، فكانوا كما اعتقدت، من أكثر الساخرين من واقع الحال. فهم يعتقدون أنّهم أكثر حكمة ويملأهم الغرور فيسخرون من الجميع، خاصة من عامل الإستنساخ الجديد. كانوا يعيشون للحظاتهم. أمّا أنا، الذي امضيت قسما كبيرا من حياتي وكأنّه ليس لي سيطرة على أيّ شيء، فقد كنت مبهورا بما يجري حولي.

كان حرصي أن استمرّ في عملي حتى تحين اللحظة التي اهرب فيها من تنظيف طاولة المحرر الصباحي وغسل ماكنة الإستنساخ بالماء والصابون الخاص، حين انطلق نحو الشوارع لأنقل عمّا يجري فيها. كان هذا الحرص مصدر ازعاج للعديد من المحررين، خاصة بوب بِلِنگ، المحرر المسائي، الذي تصادف نوبتي للعمل وجوده هناك. كان اغلب المراسلين يعملون خارج المكتب الرئيسي وطاولاته المتهالكة وارضيته القذرة وماكنات الطباعة القديمة وضعف الإضاءة فيه. كان يوجد فقط عامل الإستنساخ والمحرر وثلاثة أو اربعة اشخاص ممن يكتبون الأخبار الهامة، التي يوافي بها المراسلون المنتشرون في ارجاء المدينة، مركز الجريدة عن طريق الهاتف. كانت التعليمات المشددة لأولئك المراسلين هي التحقق من مصداقية الأخبار قبل إجراء المكالمات ونقلها إلى مركز الصحيفة. كان ارنولد دورنفِلد من المحررين القدامى، يسكن في الريف خارج المدينة ويلبس أحيانا حذاء مغطى بالوحل، وكان يستمتع بوضع حذاءه هذا على طاولة لاري مولي. وهو الذي ذكر لأحد المراسلين قولا مشهورا، «لو قالت لك أمك إنّها تحبك، فمن الأولى بك أن تدقق في صحة قولها». مراسلو الشوارع، الذين لا يتحققون من صحة الأخبار أو يسبقهم آخرون في نقلها، عادة ما يفقدون وظائفهم بسرعة. من واجباتي كعامل استنساخ، أن أقرأ كافة صحف شيكاگو اليومية بحثا عن قصص وتفصيلات أخفق مراسلونا في نقلها. كما كان منوطا بي أن اعلق نسخا من افضل التقارير على لوحة الإعلانات. أعترف بأنّني كنت استمتع بعمل ذلك، واراقب التغيرات المستمرة في قائمة المراسلين لأنّي كنت اطمح أن أحلّ مكان أحدهم.

كان هناك الكثير من الوقت للدردشة، التي تعجبني كثيرا. غير أنّ بِلِنگ كان يراقبني دائما بسبب ملله أو لأنّني كنت نموذجا جيدا للتنفيس عن إحباطه. مبدأيا كنت انظر إليه بأنّه شخص ضخم الجثة ذو فكّ مربّع ومبتذل في عمله. لعب ضمن فريق كرة القدم في جامعة إلِنوي وتحدّث بصرامة. كان الجميع يعرفون أنّه على علاقة غرامية بزوجة مدير شرطة المدينة. كانت هذه منفصلة عن

زوجها، وهذا ما جعل بوب من وجهة نظرنا في وضع رهيب يهدّد حياته، إذا اخذنا بنظر الإعتبار سمعة رجال الشرطة آنذاك. كان بوب في أواخر العشرينات من عمره وأوضح لي مرارا أنّه لا يتقبّل تماما أن يعمل صعلوك متمرّد punk ويهودي متخرج في جامعة شيكاگو معه، يعجز حتى أن يطلب شطيرة من مطعم قريب ويدفع نحوه نسخا متسخة غير واضحة من ماكنة الطباعة.

غير أنّني لم أعر قضيته انتباها وداومت قراءة صحف شيكاگو الأربعة الرئيسية، اضافة إلى نيويورك تايمز. كنت احيانا أشير إلى بعض الموضوعات، التي لم يستطع مراسلونا تغطيتها. وكنت أحمل معي دائما كتابا، رغب بوب معرفة ما كنت أقرأ. غالبا ما كان يعلق بصوت عال، خاصّة إذا كان الكتاب رواية، أنّ قراءة مثل تلك الكتب لن يجعل منّي مراسلا جيّدا. لم يكن صعبا أن أجزم بأنّ بِلِنگ كان أيضا قارئا جيدا، أكثر ذكاء وانفتاحا ممّا كان يرغب أن يعرف الآخرون عنه.

لا شكّ أنّ اهتمامه بوضعي ومراقبتي سبب لي نوعا من التعذيب. في ليلة تعيسة سقط فيها الثلج بكثافة على شيكاگو مصحوبا برياح مفزعة هبّت بشدّة من البحيرة وسبّبت انخفاض درجات الحارة لأقلّ من الصفر، كان هناك تقرير روتيني من الشرطة عن اندلاع حريق في شقة صغيرة على مسافة قريبة من المكتب. قفزت من مكاني، فسألني بوب إن كنت ارغب في كتابة تقرير لتغطية ذلك الحريق، وتلك كانت مهمتي الأولى خارج المكتب. لبست ملابس ثقيلة لأحافظ على دفء جسمي وانطلقت مسرعا نحو منطقة الحريق. عرضت على مسؤول وحدة مكافحة الحرائق هويتي الصحفية وشرعت أسجل في دفتر معلوماتي عمّا كان سيقول بعد أن سألته، «ماذا حدث؟» تعجّب الرجل من سؤالي، وقال، «إنّه مجرد حريق في شقة صغيرة. لم يُصب أحد وليس هناك قصة. ابتعد من هنا!» عدت إلى المكتب وأخبرت بوب بما جرى. سألني عن اسم رئيس وحدة مكافحة الحرائق، فإجبته إنّني لم أعرفه. طلب أن اعود إلى المكان واعرف اسم ذلك المسؤول، وهذا ما فعلته. حين عدت بادرني بوب بالقول، «أكتبْ تقريرك الآن». وهكذا فعلت. وصفت المكان بشكل جيّد ونقلت بالتفصيل ما أخبرني به نائب رئيس الوحدة. قرأ بِلِنگ التقرير واجرى عليه بعض التعديلات وطلب منّي أن اطبع عدة نسخ منه. وعندما فعلت ذلك وسلمته النسخ ألقاها جميعا في سلة المهملات، كما توقعت.

انتهت بعد اسابيع قليلة أيامي كعامل استنساخ. عُيّنتِ أولا كمراسل مسائي في مركز الشرطة الرئيسي في جنوب وسط المدينة. التكليف الجديد لا شكّ ترقية أوصى بها بِلِنگ، لا غيره. تعلمت خلال الأشهر التالية القليلة اصول العمل في مهنتي الجديدة، الصالح منها والطالح، مع استمرار تشبثي بالأمل.

جاء الدرس الأول سريعا. سمعت صوتا صادرا عن جهاز استقبال مكالمات دوريات الشرطة في المدينة وقت بزوغ الفجر، أنّ شرطيا قد اصيب في تبادل لإطلاق النار في شارع روزفلت، وهو شارع رئيسي جنوب وسط المدينة. كنت امتلك سيارة من نوع ستديبَيكر عمرها عشر سنوات وتتطلب صيانة كثيرة خلال فصل الشتاء. فمرور اربع ساعات من البرد كان كافيا لتجميد البطارية. وقد امضيت ليلة بعد أخرى اشغل محرّك السيارة كل اربع ساعات، سواء كنت في البيت أم في العمل. ولحسن الحظ اشتغل المحرّك فاسرعت لقطع مسافة ميل تقريبا للوصول إلى مكان الحادث.

سُمح لي بدخول منطقة الحادث التي عزلها رجال الشرطة، بعد أن عرضت بطاقتي باعتباري مراسلا صحفيا منتدبا إلى مركزهم. أخبرني أحدهم أنّ الضحيتين مفتشان في خدمات البريد الحكومية. كانت توجد سيارة sedan بأربعة ابواب لا تحمل أيّة هوية/علامة، يبدو أنّها توقفت عند ارتطامها بعمود النور. كانت الإطلاقات الكثيفة قد احدثت ثقوبا جمّة في ابواب السيارة وزجاج شبابيكها. وكان يوجد في داخلها رجلان اصابت منهما الإطلاقات مقتلا فمال رأساهما إلى الخلف وغطت الدماء الغزيرة ملابسهما بشكل مفرط. لقد شاهدت مرة واحدة من قبل شخصا فارق الحياة، وهو والدي الذي كان مسجّى بالتابوت قبل دفنه. لكنّ هذين الشخصين قد قتلا بعنف رميا بالرصاص. كان المسؤول عن الموقف عريف شرطة بدا عليه الغضب. تقدّمت منه وذكرت أنّني مراسل من اخبار المدينة. لم يتفوّه بشيء، فسألته إن كان الشخصان قد فارقا الحياة. أمسك العريف بسترتي ودفعني بقوّة نحو سيارته. «لا يمكننا التصريح حتى يتمّ الإعلان عن ذلك». ثمّ أضاف «يا غبي» (وقال كلمات أخرى ليس من اللائق تكرارها.) كان يقصد أنّ الإعلان عن مفارقة الحياة يأتي من قبل محقق الشرطة فقط. لم يكن هناك محقق للشرطة موجود عند مسرح الجريمة. ما العمل؟ طبعا كان لدي سبق صحفي، إذ لم يصل بعد أيّ مراسل آخر. هل كان عليّ أن أسرع إلى اقرب جهاز تلفون عمومي وانقل الخبر؟ بالتأكيد أنّ والدتي تحبّني، فهل يتوجّب عليّ أن أتأكد من ذلك؟

وعليه، انتظرت حتى وصل المحقق وأعلن وفاة الضحيتين. اتصلت بصحيفتي ووصفت المشهد واخبرت من ردّ على مكالمتي أنّ اسمي الشخصين غير معروفين مباشرة. في الحقيقة كانا شرطيين سريين بملابس مدنية. لم اقترب من عريف الشرطة، لكنّ المحقق كان لطيفا معي.

ما هو الدرس الذي تعلمته؟ أن تكون أوّل من يصل إلى مكان الحدث ليس كافيا أو مهمّا كأهمية أن تكون على صواب وتكون حذرا، حتى في مثل الموقف الذي مررت به. كان ذلك في أواخر عام 1959. الأخطاء التي ارتكبتها خلال الحقب الخمسة أو الستة التالية، ومن منّا معصوم من الخطأ، كان من الممكن تلافيها لو تذكرت ما قاله عريف الشرطة الغاضب عن انتظار المحقق ليعلن حقيقة الموقف.

حصل الدرس الثاني بعد اسابيع قليلة، حين كنت اقوم بتغطية مؤقتة امدها اسبوع أو اسبوعين للعمل في مركز شرطة هايد پارك قرب الجامعة. اصبحت العملية سهلة بشكل واضح تتطلب التواجد مع المراسلين الآخرين والتقرب من عريف شرطة المركز المشرف على مكتب تلقي الأخبار/الشكاوى، ودفع كلفة اكوابِ القهوة التي يطلبها مهما كان عددها، وتقديم المساعدة له إن طلب ذلك، خاصّة إذا كان يقوم بحلّ الغاز الكلمات المتقاطعة المنشورة في صحيفة نيويورك تايمز ليوم الأحد السابق، والانتظار حتى تسمع تقريرا يبثه راديو الشرطة. في أواخر إحدى الليالي، جاء تقرير عن حريق هائل في حي الزنوج الفقراء على مبعدة عدة أميال غربا، مع احتمال وقوع العديد من الضحايا، فانطلقت بسيارتي على الفور.

إندلع الحريق في هيكل بيت خشبي قديم يبعد حوالي 20 قاطعا إلى شمال محلّ والدي. لدى وصولي إلى مكان الحادث كان الهيكل قد تحول إلى كومة من الخشب المحترق. صفّوا على جانب الطريق عددا من جثث الضحايا، التي غطوها بالملاءات البيضاء حسب الأحجام، الأب والأم وثلاثة

أو اربعة من أطفالهما. أصِبتُ بحالة من الرعب من هذا المشهد. أخبرني مسؤول مكافحة الحرائق أو ربّما أحد رجال الشرطة بصوت حزين أن أفضل تخمين للحادث أنّ الأب أصيب بنوبة من الهيجان فاشعل النار في البيت وقتل زوجته واطفاله ونفسه، على فرض أنّ أولئك الضحايا هم فعلا زوجته واطفاله. طرحت على محدّثي هذا العديد من الأسئلة ولم احصل على معلومات أكثر ممّا ذكرت. غير أنّ شخصا آخر، ربّما كان أحد الجيران، اعطاني اسماء الضحايا وبعض التفصيلات عن العائلة، إذا كان فعلا افرادها هم من غُطيّت بقاياهم بالشراشف البيضاء، ووضعت على جانب الطريق.

قلت لنفسي، أيّة قصة هذه، لكنّني طبعا كنت اجهل الكثير من تفاصيلها. ومع ذلك اسرعت إلى التلفون العمومي واخبرت من ردّ على مكالمتي ما كنت اعرفه حتى تلك اللحظة. اعتقدت أن الخبر سيتصدر الصفحة الأولى. سمعت خلال مكالمتي صوت السيد دورنفِلد، ذي الحذاء المغطى بالوحل، وهو يدخل على الخط. هناك حوادث مأساوية تعلق في الذاكرة طيلة الحياة، واتذكّر بوضوح ودقة كلّ كلمة قالها، «آه يا عزيزي النشط الطيب السيد هيرش، هل الضحايا التعساء فقراء من صنف الزنوج؟» أجبت «نعم». قال، «خفّف من روعك وصدمتك!» بمعني أن تقريري إن ظهر في الصحيفة سيكون تحت العنوان التالي، «موت خمسة زنوج في حريق شبّ في الليلة الماضية في جنوب غرب المدينة». قد يذكر التقرير عنوان المكان.

اعتقدت أنّي بحكم عملي في محلّ والدي في منطقة يسكنها السود أنّ لي خبرة بقضايا العنصرية. غير أنّ دورنفِلد قد ذكّرني بأنّه يتوجب عليّ أن اتعلم الكثير.

هناك درس أخير كان عليّ أن اتعلمه قبل الإلتحاق بالخدمة العسكرية الإلزامية بعد أن قضيت حوالي سبعة اشهر أعمل في اخبار المدينة. كان أمرا مخجلا ولكن لا فكاك منه، وهو مشاركتي فيما يُسمّى الآن الرقابة الذاتية. عدت للعمل في الوجبة المسائية لتغطية اخبار مركز الشرطة الرئيسي في المدينة. سمعت من راديو المركز تقريرا من دوريّة تتألف من شرطيين أنّ لصا مشكوكا فيه قد اصيب بالرصاص عند محاولته الهرب وتحاشي القاء القبض عليه. كان الشرطيان في طريقهما إلى المركز لتسجيل الحادث كتابيا. ونظرا لكوني دائم الطموح ومحبّا للاستطلاع، فقد هرعت إلى موقف السيارات في قبو المبنى، بغية الحصول على بعض المعلومات الإضافية قبل إبلاغ مكتب صحيفتي بالحادث. كان الشرطي الذي يقود السيارة شخصا أبيض سمينا وإيرلنديا بكل معنى الكلمة، كغالب رجال شرطة شيكاگو في حينها. من الواضح أنّه لم يلتفت لوجودي حين أوقف السيارة. حين نزل منها سأله شرطي آخر كان قد سمع تقرير اطلاق النار، الذي سمعته. صاح هذا بصوت عال، «هل حاول الإفلات منكما؟» قال صاحبنا «لا، طلبت منه ألّا يقاوم وأنا أضع القيد على معصميه، ثمّ اطلقت عليه النار».

فكرت بالهروب من المكان قبل أن يشاهدني أحد، واتصلت بالمكتب وطلبت أن أتحدّث مع المحرر المناوب، ولم يكن بِلِنگ. سألته ماذا افعل؟ حثّني ألّا أفعل شيئا. ستكون إفادتي مقابل إفادة كافة رجال الشرطة المساهمين بكلّ ما يتعلق بالحادث، وسأتّهم بالكذب من قبل كلّ هؤلاء. كانت الرسالة أن أخفي القصة. ولكن كيف وأنا أعرف كنهها؟ انتظرت لعدة أيام ثمّ ذهبت إلى المركز وطلبت نسخة من تقرير المحقق عن الحادثة. كان الضحية قد فارق الحياة نتيجة إطلاقة واحدة في

الظهر. أخذت التقرير وعرضته على أحد المحررين، الذي لم يبدِ أيّ اهتمام به. لا أحد يريد أن يلتفت إلى ذلك التقرير عن الحادثة. ليس عندي دليل على أنّ جريمة قد ارتُكِبت، باستثناء ما قاله القاتل نفسه، وهو طبعا سينفي ما صرّح به.

وعليه فقد وضعت القصة جانبا. لم احاول أن أجرّي مقابلة مع الشرطي الذي تبجّح بإطلاق النار، ولم أحاول حتى الاتصال بالشرطي الآخر الذي كان مع القاتل في الدورية حينها. لم ارفع صوتي احتجاجا في مكتب الصحيفة، والتحقت بدورة التدريب العسكري الإلزامي، التي أمدها 6 أشهر، يملأني الحزن لضعفي وضعف مهنتي، التي قيّدت نفسها بالرقابة الذاتية بحجة المرونة. لقد كرهت هذين المفهومين منذ تلك اللحظة واخترت الطريق المغاير لذلك تماما. لقد وجدت هدفي وتعلمت بسرعة أنّه ليس بدون نقص، وكذا الحال بالنسبة لي.

الفصل الثالث

دروس وعبر اخرى

لم تكن تجربة الستة أشهر التي قضيتها في التدريب الإلزامي في الجيش الأمريكي ذات اثر عليّ أو غيّرتني بعض الشيء. إجتزت فترة التدريب الأساسي في صيف عام 1960 الحار في قاعدة لِنر وود في ولاية ميزورا. وهي قاعدة بائسة تقع على التلال القريبة من سلسلة جبال أوزارك. تبلغ المسافة بين القاعدة وعاصمة الولاية سنت لوي حوالي 150 ميلا.

حصلت على لياقة بدنية عالية وأنا اتدرب على المشي جيئة وذهابا لساعات واجري التمارين الرياضية والقفز كلّ يوم. كما تعلمت كيفية إطلاق النار باستخدام البنادق وتعلمت مهارة تفكيك اجزاء البندقية وتجميعها وأنا معصوب العينين. كانت هناك اشياء أخرى يجب تعلمها، ومنها فرض الإستحمام في حمامات جنود الخدمة الإلزامية، وكيف أنّ أولئك الأولاد القادمين من الريف ومن ذوي الثقافة المحدودة في وحدتي ممّن يرفضون الإستحمام اليومي أو غسل ملابسهم بعد انقضاء كلّ يوم من تلك الأيام الطويلة قاسية الحرارة، خاصة أيام التدريب على إطلاق النار الحيّ لساعات. ومع ذلك كانت هناك بعض الأوقات الممتعة، خاصة أثناء الليل حين يكون من الممكن الحصول على الوسكي المصنّع محليا والمتوفر للشراء خارج بوابات القاعدة.

نقِلت بعد إكمال فترة التدريب الأساسي بسبب عملي في صحيفة أخبار اليوم إلى مقرّ الفرقة الأولى في قاعدة رايلي في ولاية كنزس للعمل في قسم العلاقات العامة كصحفي. إنّ مقارنة هذا التكليف بساعات التدريب على القتال كان في رأيي منصبا متميزا. يبدأ يومي بشكل لطيف، حين ينطلق بوق النهوض في الساعة السادسة صباحا. حين كنت أفرّش اسناني صباح أحد الأيام، حضر جنديان أشعثا الشعر وما زالا يترنحان بسبب تناول الكحول في الليلة السابقة، ومن ثم انطلقا نحو قبو رئاسة القاعدة حيث توجد الحمامات الكبيرة. كان هذان من أكثر المستهترين في الوحدة. حين سُئلا عن سبب تأخرهما، قال أحدهما أنّه حضر لتوه بالسيارة قادما من مدينة توپيكا بعد قضاء ليلة في المدينة بصحبة فتيات كلفنهما مبلغا كبيرا من المال. أجاب ذلك الجندي دون أيّ تردد أنّه في البداية ذهب مع بعض زملائه إلى حانة تي تاون في توپيكا، وهي حانة يتردد عليها عادة المثليون، وانهما دفعا الكثير من النقد لقاء حفلة تمت فيها ممارسة (شيء لا يليق ذكره). اعتقدت في البداية أنهما كانا

يمزحان ولكنّهما حلفا بغليظ الأيمان أنّ ذلك هو ما حدث فعلا. لا زال يملأني العجب. هذا عالم جديد شجاع ينتظر مثل هذا الشاب وامثاله، من الذين لم يتعلموا الكثير.

لحسن الحظّ كان الجنود الذين عملت معهم في مكتب العلاقات العامة أقلّ اندفاعا نحو الرذيلة من الذين ذكرتهم في اعلاه، وأنّ خدمتي في ذلك القسم، التي استمرت لأربعة أشهر، قد أتاحت لي الفرصة لإقابل خبراء قليلين في المؤسسة العسكرية. وهي ماكنة لا تتوقف لإلغاء أيّ اختلاف أو عشوائية، تماما كفترة التدريب الأساسي لإلغاء شخصية الفرد. بعد تسع سنوات وحين كنت أبحث دون أمل عن الملازم وليم كالي، الأبن، الذي برز اسمه أولا باعتباره مَن قاد عملية القتل الجماعي في مذبحة ماي لاي في فيتنام، علمت أنّه كان متخفيّا في قاعدة عسكرية في ولاية جورجا. تعلمت أنّني إذا واصلت بحثي عنه في تلك القاعدة فإنّني سأجده، لأنّ اسمه لا بُدّ موجود في مكان ما في سجلاتها.

في نهاية عام 1960 جرى تسريحي من الخدمة العسكرية الإلزامية فرجعت إلى شيكاگو وأنا متحمس للعمل في صحيفة أخبار المدينة. كنت المراسل الوحيد على مدى عدة سنوات، أو ربّما للأبد كما اخبرني احدهم، أنّه لم يُعرض عليّ عمل بعد إكمال الخدمة الإلزامية. إنّني حقيقة استحقّ هذا الإهمال، لأنّني قبل يوم من التحاقي بالخدمة المذكورة إستهدفت المحرر الرياضي في الصحيفة لأردّ له الجميل! ذلك بسبب العديد من أمسيات أيام الجمعة، التي اضطرّني فيها لأتابع وأسجّل له نتائج سباقات مباريات كرة السلة بين المدارس الثانوية. اشتريت عددا من الصحف البريطانية والأيرلندية واقتطعت منها عددا من التقارير حول مسابقات الركبي والكرلنگ والكركت، ووضعتها على لوحة إعلانات المكتب، كما فعلت حين كنت عامل استنساخ بصدد القصص والتقارير التي اخفق مراسلونا في تغطيتها. أعتقد أنّني في تلك اللحظة اتهمت المحرر الرياضي بإهمال جسيم لواجباته والتقصير فيها بطريقة ساخرة. ومع ذلك، فإنّ ما قمت به كان نوعا من الإنتقام الذي لم تكن له ضرورة، وشعرت به حتى في لحظتها، لأنّ الرجل حريص على عمله كحرصي أو أكثر. وعليه فإنّني استحقّ موقف تجاهلي من قبل إدارة الصحيفة بعد إكمالي الخدمة العسكرية الإلزامية.

ونظرا لأنّه لم يكن لدي عمل وأعاني من قلة ما في اليد، عرضت عليّ أختي فِلِس، التي كانت تزوجت ولديها عدد من الأطفال، أن أسكن في قبو بيتها حتى أجد عملا جديدا. حاولت ذلك مع عدد من الصحف اليومية ومحطات الإذاعة دون جدوى. ثمّ التفت الحظ اليّ بعد أشهر قليلة. كانت احدى الصحف الأسبوعية الصغيرة، التي تصدر في ضواحي شيكاگو، بحاجة إلى محرر لقاء دفع 110 دولارات اسبوعيا. كان توزيع اعداد هذا الصحيفة يتمّ في منطقتي إفرگرين پارك وأوك لين، وهما من المناطق المزدهرة التي تشهد توسعا توسعا في محيطيهما. لقد عملت حين كنت طالبا في كلية القانون خلال عطلة الأسبوع وليلتين في منتصفه لبيع البيرة والوسكي لقاء دولار ونصف للساعة الواحدة في مجمع اسواق إفرگرين پارك. ذكرت هذه المعلومات للناشر حين قابلني. الذي كان واضحا أنّه لا يفقه شيئا عن تحرير الصحف، وكذا الحال بالنسبة لي طبعا. وافق على منحي الوظيفة في الحال، وادركت فيما بعد أنّ العامل الرئيسي لتوظيفي هو معرفتي العامة بأمور العمل، في نظر مديري الجديد. إنّ بيع الكحول في تلك المنطقة لا بُدّ أن يكون أكثر من كاف لاتخاذ القرار بتوظيفي.

كان عليّ أن اقطع مسافة بعيدة من قبو بيت أختي في شمال شيكاگو إلى اقصى الشطر الجنوبي منها، ولكن ذلك لم يكن عقبة كأداء. فأنا الشخص الوحيد المسؤول، لأنّني المراسل والمحرر الذي يعدّ محتوى ما يُنشر. وكذلك فأنا المسؤول عن تصميم كلّ صفحة في تلك الجريدة الأسبوعية التي تُطبع بآلة الأوفست. وبعد أن يتمّ طبع كل صفحة وتوضع العناوين تُحوّل إلى ماكنة الطباعة التي تتولى اعدادها بالشكل النهائي وطبع النسخ المقررة. كنت اقوم بذلك لوحدي منذ لحظة بدأي العمل «وحصلت عل شهادة دكتوراه» لإجادة هذه المهمة خلال الأشهر التاسعة القادمة. دكتوراه في إعداد وإخراج وطبع صحيفة مدينة صغيرة. وسرعان ما ادركت أنّني اصبحت رهينة لعالم قاس جدّا لطباعة صحيفة صغيرة في الضواحي، نموذج لمنطقة شيكاگو. منافسنا الرئيسي صحيفة أسبوعية مموّلة بشكل جيد ويعمل فيها جهاز من المتخصصين أسمها ساوثوسترن سَبَربَنايت، التي توزع اعداد جنوب غربي شيكاگو وضواحيها، بما فيها أفرگرين پارك وأوك لَين. الحقيقة هي أنّ الصحيفة المذكورة تمتلك الصحيفة التي اعمل فيها. إنّ صحيفتي موجودة لسبب واحد بسيط هو قطع الطريق على أيّ منافس يفكّر أن يصدر صحيفة ثالثة تقتطع جزء من توزيع صحيفة سَبَربَنايت، وتستحوذ على جزء من موارد الإعلانات فيها.

وبطبيعة الحال، لم أولِ تلك التفصيلات اهتماما. وباعتباري شخصا وُلد وتربّى في وسط المدينة، كنت اتطلع لمعرفة كيف تسري الأمور في الضواحي، فتعلقت بعملي. كانت تلك خصلة/ سمة تعلمتها من والدي، وهي أن ابذل قصارى جهدي. كتبت عن مجالس إدارة المدارس والمساعدة التي تتلقاها من المدينة ووجدت طريقة للعمل مع زمر المحررين الذين يتناولون القضايا الاجتماعية والإشاعات المحلية. وكان أكثرهم نسوة متزوّجات لهنّ اطفال ويملأنّ الصفحات بما كان يدور من الإشاعات. وجدت شابة ذكية تكتب عن الرياضة في المدارس الثانوية المحلية. وقمت بزيارات لمديري فروع المصارف وكذلك للحوانيت والمخازن التجارية، الذين كانوا يعلنون في صحيفتي. كنت دائما أكرر على مسامعهم بأنّهم يريدون صحيفة تغطي الشؤون العامة، وكلما ازدادت تغطية المواضيع كلما ارتفع عدد القراء. علمت نفسي كيف أعدّ صحيفة تسهل قراءتها قبل أن ادفعها للطبع، وكنت أولي العناوين أهمية كبيرة. كانت عصابات شيكاگو تحت سيطرة سام جيانكانا، الذي سيطر على اتحادات العمال الذين كانوا يبنون شبكات تصريف مياه المجاري في المنطقة. كتبت عن هذا الموضوع عدة مقالات أيّدت فيها آراء مصلح اسمه سمث، الذي ترشّح لمنصب في إدارة المدينة وتعهّد بمحاربة الفساد. وهنا ذقت طعم الحقيقة، على طريقة شيكاگو، حين تمّ اغتيال ذلك المصلح قبل موعد الانتخابات، بإطلاق النار الكثيف عليه وهو في سيّارته. كانت له عائلة، ولكن طبعا لم تُكشف جريمة اغتياله، مثلها مثل جرائم الاغتيالات على يد العصابات المتنفذة حتى هذا اليوم. (علمت المزيد عن جريمة اغتيال سمث حين عملت في صحيفة تايمز في أواخر السبعينات). لم يكن هناك وجود لتدخل في شؤون تحرير صحيفتي، التي يقوم عليها ناشر قليل الحظ وليس له تأثير سياسيّ يُذكر.

استعدت خلال تلك الأشهر صداقتي بالمحرر بوب بِلِنگ، الذي سخر منّي بلا رحمة لعملي في صحيفة اسبوعية لا يتذكّر أحد إسمها. كان كلانا يحبّ لعبة الگولف وكنّا نذهب في أيام عطلتنا لممارستها. أثار بوب معي بعد عدة اسابيع فكرة أن نصدر نحن الإثنان صحيفة إسبوعية في نفس الضواحي. وهي صحيفة تغطي أمورا خارج تلك الضواحي ويكون لها تأثير على آراء القراء، وهو أمر لا تحققه الصحيفة الإسبوعية التي أعمل فيها. كان لديه المال الكافي لنبدأ المشروع، رغم أنّه

كانت لديه بعض الشكوك حول استمرار صحيفتي في الصدور، بسبب قلة الإعلانات التي تَنشر فيها، وبالتبعية قلة دخلها. لديّ الخبرة في تحرير صحيفة اسبوعية وإنتاجها، إضافة إلى طلاقة لساني وقدرتي على التعبير عن وجهة نظري وإقناع الأخرين بها. كنت أعرف معظم مديري المصارف واصحاب الحوانيت في ضاحيتي أفرگرين پارك وأوك لّين، وكنت متأكدا أنّني قادر على اقناع العديد منهم على تمويل مشروع إصدار صحيفة إسبوعية هامة. لم يكن حديثي مع بوب أكثر من خيال حتى حان موعد الكرسمس. أعطاني الناشر بطاقة تهنئة بالمناسبة وارفق بداخل المظروف مبلغ 10 دولارات هدية. لم يتفهم هذا الرجل مدى الإهانة التي ألحقها بي، فكانت تلك هي القشة التي قصمت ظهر البعير. لقد حان الوقت لمواجهة الحقيقة، وأنّ تلك الصحيفة الأسبوعية لا أمل فيها. لذلك قرّرت الإستقالة واخبرت بوب بالأمر.

اصدرنا العدد الأوّل من صحيفتنا بعد شهر واطلقنا عليها اسم مرسال أفرگرين پارك وأوك لّين، وكتبنا لها افتتاحية طموحة. غطى إعلان أحد المصارف ومحل بقالة صفحة كاملة منها. كان ذلك وقت منتصف الشتاء حين بدأت الدراسة للفصل الثاني من السنة. أمضى رون گولدبرگ، وهو صديق اعرفه منذ ايام المرحلة الثانوية ومصور جيد لا يعرف الكلل، يوما طويلا بكامله ونحن نسجّل التحاق الصغار في رياض الأطفال بمنطقتنا للمرة الأولى. كنت وبوب متحمسين لإصدار صحيفة لا تتوانى عن طرح قضايا حساسة وفيها مادة هامة. غير أنّني تعلمت منذ سنوات العمل مع والدي في إدارة محل العائلة وسنوات عملي محررا، أنّنا يجب أن نكثر من الإعلانات ونزيد عدد القراء. وعليه فإنّ التركيز في العدد الأول كان على عدد لا بأس به من الصور الواضحة لعدد من الصغار الذين ملأهم الخجل والحماس معا وهم يدخلون صفوف مرحلة الروضة، تصحبهم امهات قلقات. حرصنا على ذكر اسماء كافة الصغار وامهاتهم. إنضمّ الينا، بعد توسلاتي العديدة، بِل هَنت. وهو زميل من جامعة شيكاگو، أصبح فيما بعد استاذا للغة الإنگليزية. وافق على مهمة استنساخ بعض الإعلانات من صحيفة ساوثوسترن سَبَربَنايت والصحف اليومية في شيكاگو ونعيد طبعها في الأعداد الأولى من صحيفتنا. أمضى كلّ منّا عددا من الساعات يوميا ونحن نتّصل بذوي الإعلانات ونخبرهم بأنّنا شاهدنا إعلاناتهم في الصحيفة الجديدة مرسال. وخلال شهر واحد استطعنا أن نغطي صفحتين كاملتين بالإعلانات، التي كانت لحدّ ظهور شبكة الإنترنت المصدر الرئيسي لمدخولات الصحف حول العالم. لقد تأكّد لي أنّه بإمكاني إصدار صحيفة ناجحة. أمّا الصحيفة الأسبوعية، التي كنت أعمل بها فقد توقفت عن الصدور في ربيع ذلك العام.

اقنع بِلِنگ البعض من زملائه الذين يعملون في صحيفة أخبار المدينة أن يساهموا بموضوع أو موضوعين لهما علاقة بضواحينا ونغطيها بشكل جيد من حين لآخر، خاصة اجتماعات مجالس إدارة المدارس وغيرها. من بين الذين ساهموا بشكل شبه مستمر ومجاني كان مايك رويكو، الذي حصل فيما بعد على جائزة پولِتزر لتعليقاته عام 1972 المنشورة في صحيفة شيكاگو ديلي نيوز، وكذلك لي كوارنسورم، الذي حقق نجاحا صحفيا مهنيا في كاليفورنيا، وانضم إلى فرقة كِن كَيسي. بعد نشر تقاريري عن مذبحة ماي لاي في فيتنام علق ساخرا أنّه لم تكن لديه فكرة أنّني «صحفي عظيم». تصحيحا لذلك، إنّ قصتي القويّة في حينها كانت وجدت طريقة لمدح من يضعون الإعلانات.

مشكلة التمويل كانت دائما مشكلة عويصة. أكثر من يودّون وضع الإعلانات يفضلون نشرها على دفع رسوم تلك الخدمات. وعليه أصبح جمع الديون المستحقة المترتبة على هؤلاء جزء من وظيفتي. كنّا نطبع أكثر من 10 آلاف نسخة مساء كلّ خميس، وكان عامل المطبعة يصر على أن يستلم مقدما شيكا مصدقا من المصرف قبل أن يباشر عمله أو يطبع نسخة واحدة. عيّنا سائقا مهمته توزيع النسخ صباح اليوم التالي على 150 ولدا من الذين اتفقنا معهم على مهمة ايصالها للبيوت. كان لا بُدّ أن نتعامل مع مشكلة غياب البعض منهم، حين يتصل الآباء والأمّهات ليخبرونا أنّ كذا وكذا مريض وغير قادر على التوزيع اليوم. يصبح ذلك من مهمتي واحيانا بوب لكي نوزع نسخ الصحيفة عصر اليوم.

ورغم ذلك بقيت المرسال تصدر بشكل منتظم رغم مخاوفنا. بعد أن أكملنا في فصل الربيع مراجعة الأعداد التي ننشرها اسبوعيا، بدأنا استلام إعلانات على المستوى العام من شركات صنع السيارات الرئيسية الثلاث. كان ذلك أمرا مفرحا، غير أنّني بدأت أشعر أنّني امضي الكثير من الوقت في مهمة بيع نشر الإعلانات وجمع رسومها، والإنشغال بقضايا دفع اجور العاملين وإيجار المكان ورسوم التلفون وكلفة الأمور اليومية الأخرى التي لا بُدّ منها. وجدت نفسي أنّني غير راغب في تملك صحيفة. أريد عملا في إحداها. وعليه استيقظت صباح أحد الأيام في أواخر صيف عام 1962 وأدركت أنّني لا أطيق ضواحي شيكاگو ولا صحفها الأسبوعية.

كان بلِنگ على حق لشعوره بأنّني خذلته في اتخاذ مثل هذا القرار المفاجئ، لكنّه عرف بأنّني كنت مَن جعل الإصدار يستمرّ. ولذلك عمل ما كنت أنا أعمله لو كنت مكانه. غادر المكتب قبل أن أغادره. حصل على وظيفة سكرتير صحفي لعمدة شيكاگو رچرد دالي، وهي وظيفة كرهها جدّا، واصبح محررا رياضيا لصحيفة شيكاگو ديلي نيوز، وهو عمل في اعتقادي أحبّه كثيرا. فارق بلِنگ الحياة عام 1998.

انطلقت متوّجّها إلى كاليفورنيا بصحبة الفتاة، التي تزوجتها فيما بعد. تركتها في بركلي لتلتحق بقسم الدراسات العليا، وأمضيت الأشهر التالية أتسكّع في الشمس متنقلا بين نوادي كرة الگولف. سرعان ما انفقت ما كان معي من المال، فتقدّمت للعمل في صحيفة لوس أنجلس تايمز، فلم يعيروا طلبي اهتماما. ركبت سيارتي وعدت ادراجي إلى شيكاگو. وبقدرة قادر استطعت مقابلة المحرر الرئيسي لوكالة اليونايتد پرس العالمية UPI، واسمه جين جيليت. أحببت جين كثيرا ولا زلت أتذكّر دفء اللقاء معه خلال المقابلة. لا بُدّ أنّه خاطر بتوظيفي، بالتأكيد ليس لسجلي المهني بل لأنّني طُردت من كلية القانون وفُصلت عمليا من قبل صحيفة أخبار اليوم، وتخليت عن صحيفة أسستها بنفسي، وأنّني تسكّعت في كاليفورنيا خلال الأشهر القليلة الماضية. ربّما يكون أحد محرري أخبار المدينة قد أوصى بتعييني. وعلى أيّة حال، كانت مهمتي الأولى هي تغطية اخبار الإجتماع السنوي للمجلس التشريعي في ولاية دَكوتا الجنوبية في مدينة پيير العاصمة، المنعقد لمدة ثلاثة أشهر. وهو الإجتماع الذي سيبدأ مع مطلع العام الجديد. اتفقنا أنّ راتبي الأسبوعي سيكون 85 دولارا، فغمرتني الفرحة لأنّني اصبحت أخيرا صحفيّا حقا. لا يهمّ أنّ سيارتي القديمة، التي أكل الّصدأ اجزائها قد تعطلت وأنا في طريقي إلى دَكوتا الجنوبية عند مدينة لاكروس في ولاية

وسكنسن. بعثت برقية إلى جيليت طلبت فيها أن يحوّل لي مبلغ 350 دولارا لإصلاح السيارة كجزء من مرتبي مسبقا. أرسل الرجل المبلغ على مضض، حسب اعتقادي.

وصلت إلى پيير مساء يوم الأحد في أواخر اكتوبر، وليس في ذهني هموم عن بيع الإعلانات والموازنة المالية ما بين المصروفات والمبيعات. سيكون الوقت هنا هنيئا. لا يهمّ أنّني الرجل الثاني في مكتب اليونايتد پرس UPI في مدينة صغيرة لا يزيد عدد سكانها عن عشرة آلاف شخصا. كان مديري رجلا لطيفا للغاية وبتقديري ذا كفاءة معقولة، ولكنّني عرفت سريعا أنّه ملتزم جدّا بالحدود المرسومة. كانت مهمته أن يغطي اخبار مكتب حاكم الولاية ومختلف وكالاتها، وكان يعدّ تقارير دقيقة جدّا عن النشاطات والقرارات التي تتخّذ هناك، ونقلها كما هي دون تعليق.

ظهر لي منذ البداية أنّ أكبر جزء في مهمتي هو أنّ أعدّ موجزا للأخبار وأرسله في الساعة 7 من صباح كلّ يوم، واتابع ما يستجدّ خلال اليوم وابعثه لمحطات الإذاعة والتلفزيون في الولاية، التي لها اشتراك مع وكالة اليونايتد پرس العالمية. لم توجد ميزانية لتوفير كلفة شراء جهاز إرسال teletypist، ولذلك كانت المهمة تقع على عاتقي. المصدر الوحيد للمعلومات هو الأخبار التي يتمّ تناقلها والصحف اليومية المحلية. كنت في البداية متهورا بعض الشيء لأنّي لم أميّز بين الأخبار التي تعني سكان المنطقة أو لا تعنيهم. كما أنّني واجهت صعوبة في الطبع بسرعة على الآلة الكاتبة. وهي مسألة لا تتلائم مع معدّي نشرات الأخبار، الذين يقرأون أكثر من 100 كلمة في الدقيقة. لا يمكنني أن أطبع بدقة بمستوى نصف السرعة المطلوبة! لجأت إلى حلّ لهذه المعضلة بطبع عدد من العبارات ثمّ أضع أصابعي على مفاتيح التوقف، وأنا أفكّر بماذا يجب ان أنقل عن صحيفة الصباح. لم يتطلب الأمر أكثر من بضعة أيام للقيام بهذه المهمة كي أدرك أنّها ليست ممتعة. فهي لا تتعدى نقل الأخبار عن الصحف المحلية وإرسالها إلى المشتركين.

وعلى أيّة حال، بدأت أتفهّم مزايا الحياة في المدن الصغيرة. أغلب صباحات الأيام كنت أدعى مع خمسة أو ستة من الصحفيين، الذين يغطون مكتب حاكم الولاية، لتناول القهوة وكعكة Donuts أثناء مقابلة آرچي گبرَود، حاكم الولاية الجمهوري الجميل المحيّا، والذي أعيد انتخابه للمرة الثانية عام 1962. كان گبرَود مزارعا قبل أن يطرق ميدان السياسة، وعاد إلى حقله بعد انتهاء مدة حاكميته المقررة. من أفضل منجزاته أنّه أسس دائرة للميزانية لأوّل مرّة بعد مرور 70 عاما على تأسيس الولاية. كان ساذجا لا يتظاهر منفتحا على أيّ استفسار أو سؤال بما فيها الأسئلة عن الطقس والسياسة. كان البطل الشعبي المحلي، ليس لاعبا في كرة القدم الوطنية ولا البيسبول، بل بطل في مسابقات رعاة البقر Rodeo واسمه كَيسي تِبس. وكما قيل لي فقد نشرت مجلة لايف تقريرا مصورا عنه. تنقسم ولاية دَكوتا الجنوبية إلى قسمين، الأرض الخصبة الغنية التي تمتد من شرق العاصمة پيير حتى حدود ولاية أيَوا ومِنسوتا. أمّا الشطر الغربي من العاصمة فهو ارض وعرة تكثر فيها مزارع تربية الماشية وتمتدّ حتى ولاية وايومنگ. وتُعتبر جنّة لرعاة البقر. بدا لي حينها وكأنّني أعيش فترة الخمسينات في افلام هوليوود، حيث الصّراع السياسي والإقتصادي على أشدّه بين المزارعين من جهة ومربي الماشية من الجهة الأخرى. يفصل نهر مِزورا بين العاصمة

بيير والمدينة المقابلة لها على الضفة الأخرى وهي مدينة فورت بيير، وبينهما اختلاف ساعة في التوقيت الزمني المحلي. من الناحية العملية، تبقى الحانات على الضفة الأخرى من النهر مفتوحة لمدة ساعة إضافية. على هذا الشاب القادم من شيكاگو أن يتعلم الكثير.

كما أنّ الحياة على ضفتي النهر مختلفة. من حسن حظي انّني ملتزم اتجاه صديقتي في كاليفورنيا، لأنّ السكرتيرات العازبات والعاملين في مكاتب الولاية الصغيرة يبدون وكأنّهم ذوي نزعة عشائرية ويحمون بعضهم بعضا. يعني ذلك من الناحية العملية، أنّه إذا غازل شخص فتاة أو خرج معها في موعد للعشاء والسهرة، فإنّ ذلك يُصبح أمرا واقعا وارتباطا أبديّا. تصادقت مع مجموعة من المحامين العزّاب، الذين يعملون في مكتب المدعي العام للولاية، ولم يكن لأحد منهم ميلا للمواعيد الغرامية dating إطلاقا، كما هو الحال بالنسبة لي. كنّا نقضي غالب الأمسيات في نادي لعبة البولنگ Bowling، نمارس اللعبة ونشرب الكحول. كان بين المحامين بعض المتزوجين، الذين دعوني للعشاء كلّ اسبوع تقريبا. اصبحت قريبا جدّا من عائلة دان پركِز، وهو شخص جميل المعشر كان يشغل منصب مدير مكتب بيير لوكالة الأسيوشيتد پرس AP. وهي طبعا الخصم اللدود والأكثر نجاحا من وكالتي، اليونايتد پرس UPI. كانت تجربة لطيفة وممتعة أن تخلق صداقات مع الخصم.

كما كان ممتعا أن اتعرّف على اعضاء المجلس التشريعي للولاية ومعظهم من رعاة البقر واصحاب المزارع لتربية المواشي في الشطر الغربي من الولاية بمساحاته الشاسعة المفتوحة، من الذين يعرفون الكثير عن العلاقات والصداقات ما لا يعرفه المزارعون القادمون من شرق الولاية. وحين اقترب موسم افتتاح المجلس التشريعي، بدأت الحفلات تتوالى للشرب وأكل لحم الغزال المشوي، الذي توفر بشكل يفيض عن الحاجة. سمع القادم من المدينة الكبيرة العديد من القصص الغريبة عن كيفية صيد الغزلان حين تفاجأها بضوء السيارة العالي فتتجّمد في مكانها. وكان يجلس في مؤخرة السيارة المفتوحة عدد من المسلحين ببنادق الصيد من اعضاء المجلس التشريعي لينهوا مهمة الصيد.

أخبرني أحد المحامين ونحن جالسين للشرب في إحدى الأمسيات، كيف حصل على عمله في مكتب حاكم الولاية. كان لاعبا مرموقا في فريق كرة القدم في مدرسته الثانوية، وضمنت له جامعة نبراسكا منحة دراسية لتغطية كافة نفقاته. كان فريق تلك الجامعة من الفرق التي يُحسب لها حساب. في فصل الخريف الدراسي من السنة الثانية، وهو في تلك الجامعة، إشترك مع فرقة الجامعة المسرحية لأداء دور في المسرحية المأساوية روميو وجوليَت. كان سعيدا للغاية للقيام بذلك الدور. حين أخبر مدرب فريق كرة القدم بأنّ تدريباته استعدادا لعرض المسرحية لا تتعارض مع تدريباته مع الفريق، فوجئ في اليوم التالي بأنّ منحته الدراسية قد ألغيت وبالتالي لم يعد طالبا مسجّلا في تلك الجامعة. وهو الأمر الذي اضطره للانتقال إلى جامعة حكومية في دَكوتا الجنوبية فأكمل دراسته هناك ثمّ نال فيها شهادة القانون وجاء إلى بيير وحصل على عمل في مكتب المدعي العام للولاية. هذه قصة لا يمكن سماع مثيل لها في جامعة شيكاگو.

استأجرت كوخا صغيرا من غرفة واحدة ويبعد مسافة قصيرة عن مبنى حاكمية الولاية. كانت التدفئة فيه تقوم على جهاز لا يوثق به يعمل بالغاز السائل. كان هناك احتمال كبير، على الأقلّ في ذهني، بأنني سأموت اختناقا خلال نومي إذا انطفأت الشعلة الصغيرة داخل الجهاز. وعليه كنت دائما أدقق في استمرارها مشتعلة، لأنّ الجهاز يعمل طيلة الوقت بسبب انخفاض درجات الحرارة دون الصفر في وسط ولاية دَكوتا الجنوبية. أمّا السيارة التي قدتها إلى مدينة پيير فهي مدفونة تحت الثلوج منذ مطلع شهر نوفمبر، وتركتها على حالها حتى أواخر شهر مارس من العام التالي.

شعرت بالوحدة، غير أنّ حقيقة توفر الوقت اعطتني الفرصة لأن اطالع الكتب التي فاتتني مطالعتها خلال مرحلة الدراسة الجامعية الأولية ومرحلة دراسة القانون القصيرة. أمضيت الكثير من الليالي وأنا منغمس في قراءة الكتب التي ألفها كارل ساندبَرگ عن لِنكِن ونستن چرچل والحرب العالمية الثانية. كما قرأت كتاب آرثر شلزنگر عن فرانكلِن وروزفِلت. وغالبا ما كنت أناقش موضوعات من تلك الكتب مع المدعي العام للولاية أي سي مِلر. وهو رجل كبير السّن ومتنوّر للغاية. سمعت في إحدى الأمسيات طرقا خفيفا على باب كوخي، وهو شيء لم يحدث إطلاقا منذ سكنت هناك، ولم يحدث بعدها. كان يقف عند الباب الرجل الأشيب، المدعي العام للولاية نفسه، وهو يعتذر عن إزعاجي ويحمل ملء ذراعيه مراجع هامة للغاية عن التاريخ والقضايا القانونية لهذا البلد. إقترح أن أقرأها بتمعّن إن توفر لديّ الوقت، وقمت فعلا بقرائتها جميعا.

بدأت الحياة تدبّ تدريجيّا مع افتتاح الدورة التشريعية في شهر يناير. كنت وبفعل حماسي وجدت الفرصة مواتية خلال أعياد الكرسمس والسنة الجديدة عام 1962 أن أجري بحثا، وكتبت بناء عليه مقالة من اربعة اجزاء حول التاريخ التشريعي لميزانية دَكوتا الجنوبية. كانت النقطة الجوهرية تركّز على فرض الولاية ضريبة على المشتريات لمعالجة النقص في تلك الميزانية. كتبت، «إنّ هناك ثلاثة خيارات أمام المجلس التشريعي المعالجة الأمور المالية في الولاية، وهي زيادة الضرائب أو تخفيض الميزانية المقترحة. أمّا البديل الثالث فهو عدم عمل شيء وترك الأمر حتى حلول عام 1964.»

لم يتوفر لدينا أنا ورئيسي، الوقت الكافي للعمل رغم وجودنا نحن الإثنين. كانت مهمتي أن أتابع باستمرار ما يستجدّ من المناقشات حول ضريبة المبيعات، وايضا إعداد خلاصة الأخبار خلال اليوم لراديو وكالتي UPI وكذلك محطات التلفزيون المتعاقدة معها. كنت في الغالب أحصل على الإفادات المكتوبة لمختلف الشهود وتعليقات اعضاء المجلس التشريعي، وأقوم بإعداد تقاريري اعتمادا على البيانات وابعثها للمشتركين مع خدمات وكالتي. كانت إفادات الشهود المرتجلة غير المسجّلة أصلا تُهمل في العادة. وغالبا ما كنت أمضي عطلة نهاية الأسبوع، التي ما كان يتوجب عليّ فيها العمل، في البحث عن مصادر أخرى إضافية ذات أهميّة في كافة انحاء الولاية عن المواضيع، التي لم اعطها حقها في التغطية بشكل جيّد. كان هدفي أن أقتصر على الحقائق وعدم الأخذ بالإشاعات، التي تدور في العادة خلال انعقاد دورة المجلس. وطبعا هناك عاملا الوقت والمجال، خاصّة في تناول القضايا المعقدة، التي للأسف لم يعرها العديد من المشتركين بخدمات وكالتي انتباها في عموم ولاية دَكوتا الجنوبية.

واظبت على عملي في عطل نهاية الأسبوع واستطعت بفعل أحد المواضيع التي تناولتها أن أحدِث فرقا يتعلق بوظيفتي، رغم أنّني لست متأكّدا أنّ الموضوع نُشِر بشكل واسع في ولاية دَكوتا الجنوبية. أبديت اهتماما بتاريخ بعض قبائل سكان البلاد الأصليين في تلك الولاية، بشكل رئيسي للوضع الشّاذ حسب اعتقادي في حينه. كانت ولاية دَكوتا الجنوبية الموطن الأصلي لحولي تسع قبائل من سكان أمريكا الأصليين، بما فيها قبيلتي شايان Cheyenne وأوگلالا سو Oglala Sioux المعروفتين بالزعامة البطولية مثل رئيس القبيلة كرَيزي هورس، محارب قبيلة سو العنيد، الذي قاد ببسالة الهجوم ضد الجنرال جورج آرمسترونگ كَستر ووحدة الفرسان السابعة، حين اعترضهم في منطقة لتل بگهورن في شهر يونيو من عام 1876. ومع ذلك يوجد عدد محدود من سكان البلاد الأصليين ممّن يعملون في عاصمة الولاية، وليس هناك اهتمام يُذكر للمجلس التشريعي للنظر في محنتهم، ويالها من محنة في أواخر عام 1962. كانت الأوضاع في مناطق تجميعهم القسري سيئة للغاية، إذ بلغت نسبة البطالة في بعض الحالات إلى ما يقرب من 90 بالمئة واشتداد الفقر وارتفاع حالات الإنتحار وكذلك ارتفاع نسب الإصابة بمختلف الأمراض، منها الإفراط في شرب الكحول. كانت المسألة تبدو لي ممارسة للعنصرية، وأنّ ضحايا هذا التمييز خلافا لواقع الحال في شيكاگو، بعيدين عن الأنظار. وعليه أجريت بعض المقابلات بمعونة من أحد أخذني بسيارته إلى مناطق تجمعاتهم. فعلت ما هو مطلوب من أيّ صحفي، ولكن حسب ما أتيح لي من الفرص والوقت. للأسف لم احتفظ بسجلّ للقصص التي كتبتها. كان من المستحيل أن أتصور أنّني في مطلع عام 1963 كنت أفكّر بكتابة مذكّراتي في يوم ما. لكنّني أتذكّر بكلّ بوضوح إحدى قصصي عن العقبات التي يواجهها افراد قبيلة أوگلالا سو، وهي القصة التي وجدت طريقها للنشر في صحيفة شيكاگو تريبيُن وهي من أكبر الصحف في المنطقة في حينها. كانت تلك لعبتي الأولى الكبرى في ميدان الصحافة.

في ختام جلسات المجلس التشريعي وبتاريخ الأول من مارس، ابلغت مكتب وكالتي في شيكاگو عن رغبتي في الاستقالة، فكان الردّ عليّ اقتراح بنقلي إلى مكتب الوكالة في مدينة أوماها في ولاية نبراسكا. لقد استمتعت بعملي هنا وتعلمت الكثير عن نفسي وعن عمل وكالتي، ولكن حان الوقت لمغادرة مناطق تلك السهول الشاسعة والانتقال إلى مدينة كبيرة والاستمرار بكتابة التقارير، التي اقدر على إعدادها. في رسالة بعثتها في منتصف الشتاء إلى بِل هَنت، صديقي في شيكاگو، الذي لا يزال يحتفظ بها. شكوت له فيها برودة الطقس وكيف أنّ درجات الحرارة كانت تحت الصفر لأسبوعين متتاليين. كما اشتكيت من جهاز التدفئة القديم وكيف أنّه يحرق المزيد والمزيد من الغاز. كما كتبت ايضا، «إنّني هنا منذ ثلاثة أشهر ولا أشعر بالإنزعاج. إنّني أحبّ الناس حولي ووطدت صداقات طيّبة جدّا. وهذا يشبه حالة أن تستمتع بذاتك ولا يتدخل أحدٌ في شؤونك لكنّ الأهمّ أنّني أشعر أنّني صحفي جيّد». لقد توقعت أن أحصل على عرض للعمل في مدينة كبيرة، وأكّدت لصديقي بِل بأنّني «سأترك هذا المكان خلال شهر أو بضعة أشهر.»

لقد سهّل دان برِكِز من الأسيوشيتد پرس AP عليّ الإنتقال ووعدني بأنّه سيعمل ما في وسعه في شيكاگو. وعليه قدّمت استقالتي من عملي وودّعت أصدقائي وانتشلت سيارتي القديمة من

تحت الثلوج التي تغطيها، وتوجّهت شرقا.

الفصل الرابع

شيكاگو ووكالة الأسيوشيتد پرس

عدت إلى شيكاگو في مطلع شهر إبريل من عام 1963، قبل أيام قليلة من حلول عيد ميلادي السادس والعشرين. لم يكن لديّ عمل ولا مال ولا مكان للسكن، ولا شيء سوى سيارة قديمة تحتاج إلى الصيانة بشكل دائم. وعليه لجأت ثانية للسكن في قبو بيت أختي. امضيت الأيام الأولى في النوم والاستمتاع بالوجبات اللذيذة التي تعدّها واللعب مع صغارها، حتى حانت ساعة البحث عن عمل. اعتقدت ببراءة أنّ ما نشرته ضمن نشاطاتي في وكالة الأنباء العالمية في صحيفة شيكاگو تريبيُن سيفتح لي الأبواب مشرّعة. ولكن لم تُظهر أيّ من صحف شيكاگو الأربعة الرئيسية إهتماما بما نشرت ولا رغبة في توظيفي. إتصلت هاتفيا بمكتب وكالة الأسيوشيتد پرس في شيكاگو فحددوا لي موعدا لمقابلة رئيس المكتب أل آورتُن. طلب منّي ملء بعض الإستمارات وتسمية اشخاص يمكن الإتصال بهم لأغراض التوصية، غير أنّ الرجل وظفني في الحال. غمرتني فرحة عامرة فشكرت دان پركِز كثيرا. كنت على ثقة أنّ رسالة أو مكالمة منه هي التي وضعتني على رأس المتقدمين للعمل، أو ربما لا. أخبرني أحد الزملاء فيما بعد أنّه قبل مقابلتي بقليل، قرّر أحد اعضاء المكتب القدامى أن يستقيل، دون سابق إنذار.

لم يتدخّل آورتُن بعمل غرفة الأخبار. تركز عمله على أن يحافظ على وكالة الأسيوشيتد پرس ويؤمن رضا مشتركيها من محطات الإذاعة والتلفزيون، إضافة إلى إيجاد عملاء جُدد لخدمات وكالة الأنباء ذاتها. مسؤولية غرفة الأخبار مناطة بالمحرر كارل آريموند،الذي يقود العملية بقلمه الحاد وسلوكه الهادئ. وهو يعمل في مكتب شيكاگو منذ عام 1937، وظلّ في وظيفته حتى تقاعد عام 1974. لقد شهد كلّ شيء، بما فيه الفضائح السياسية والجرائم الرهيبة، وأنّ صعلوكا متمردا مثلي يجب أن يُثبت وجوده في هذه المؤسسة.

كان اسبوعي الأول رهيبا. وضعوني أولا ضمن نوبة الموظفين الجدد، التي تستمرّ طيلة الوجبة الصباحية اعتبارا من يوم الثلاثاء لغاية نهاية يوم السبت، وأن اقضي الوقت، كما قضاه من سبقوني، جالسا إلى يسار آريموند، بحجة أن اتعود على إيقاع العمل في المكتب. ومن مفارقات القدر، أنّ مكتب الأسيوشيتد پرس يشغل نفس البناية التي تضمّ أيضا مكتب صحيفة أخبار اليوم في وسط المدينة، ولكنّ الوكالة تشغل بطبيعة الحال مساحة أكبر. فمثلا يوجد جناح خاصّ منفصل

لمحرر قسم التصوير والمصورين والعاملين إضافة إلى الغرف المظلمة لتحميض الصور وإظهارها بشكلها النهائي. كان المكتب كما بدا لي مركزا مكتظا بالمناضد والمراسلين والمحررين واجهزة استقبال الأخبار وإرسالها teletype، التي تطنّ دون انقطاع. كنت مبهوتا وأنا أجلس صامتا اراقب آريموند وهو يراجع قصص الأخبار واحدة إثر أخرى قبل أن تُرسَل للخارج. وبعد مرور يومين أو ما أشبه ذلك، دفع اليّ أربعة أو خمسة مقاطع عن حادثة سير مميتة، كما نقلت ذلك صحيفة محلية في جنوب إلينوي. طلب منّي إعادة صياغة الخبر لإرساله إلى المشتركين في وكالتنا في تلك الولاية. قال لي «اكتبه بشكل مختصر مكثف». قمت بما طلب منّي خير قيام واضفت إليه تعليقا لأحد رجال شرطة المرور المحليين. راقبت وأنا في حالة من القلق قلم آريموند وهو يشطب هنا وهناك. لقد بدأ بالمقطع الذي ذكرت فيه اسم أحد الضحايا، الذي «فقد حياته ذلك اليوم قرب مدينة سپرنگفيلد». لقد حذف كلّ شيء ما عدا كلمة أو كلمتين من كلّ مقطع واختصر كلّ ذلك في جملة من عشر كلمات. لم أقدّم أيّ شيء آخر إلى آريموند لما تبقى من ذلك الأسبوع.

ومع ذلك كنت لا أزال احتفظ ببعض الإثارة في عملي الجديد. لقد بدأ موسم كرة البيسبول، وكان فريق اليانكي من نيويورك سيلعب خلال النهار مباراة ضدّ فريق شيكاگو وايت سوكس، فريقي المفضل، على ملعب كومسكي في الشطر الجنوبي من المدينة. احتاج قسم الرياضة مراسلا ينقل اخبار المباراة شوطا بشوط. ولمّا كنت أحدث العاملين، فقد وقع عليّ الإختيار لتلك المهمة. ولذلك ذهبت مبكرا عصر يوم الجمعة إلى الملعب.

في رابع يوم منذ بدأت عملي. ذهبت بصحبة هَري هول، الذي غطى الأخبار الرياضية للوكالة لفترة 35 عاما. وأيّة متعة كانت تلك المهمة في ذلك اليوم! علمت فيما بعد أنّ هول هو الذي التقط صورة تاريخية خلال سنوات الحرب العالمية الثانية ظهر فيها سيوَل أفري، الذي كان حينها رئيس مجلس الإدارة لشركة مونتِگمري وهو يغادر مبنى الشركة عام 1944، محمولا عنوة من قبل جنديين، لأنّه تحدّى طلب واشنطن لإيقاف إضراب للعمال أدى إلى توقف الإنتاج الحربي.

ونحن في طريقنا إلى الملعب، عرف هَول أنّني امضيت أكثر ايام طفولتي العب البيسبول واذهب إلى المباريات في ملعب كومسكي. وهو الأمر الذي جعله يتخلى عن الفكرة السائدة عنّي في المكتب، فكشف لي عن إحدى تجاربه في تغطية لاعبي اليانكي حين لعبوا في شيكاگو. جرت هناك حادثة قبل سنة أو سنتين بعد أن تمكّن بَيب رَوث، وهو في أوج شهرته من تحطيم الرقم القياسي في ضرب الكرة لتصل خارج حدود الملعب hitting home run. وبطريقة ما غافل أحد الأولاد المراقبين واقترب من منصة تجمّع اللاعبين وتوسل من بَيب أن يضع توقيعه على كارت تسجيل نتائج المباريات، كان يحمله بيده. كان بعمر 12 عاما تقريبا، على حدّ قول هَري. يرتدي قبّعة من الجلد، وله مظهر الأولاد الفقراء. كرّر توسلاته وهو يحمل الكارت، «وقع عليه من فضلك... وقع عليه من فضلك»، بشكل لا يعرف الكلل. وبعد مضي حوالي نصف ساعة على تلك التوسلات، انزعج بَيب تماما وقال للولد أنّه لا يوقع إلّا على الكرات فقط». رمى الولد الكارت على الأرض واستعمل كلتي يديه وهو يُشير إلى وسطه ويقول مؤكّدا، «إن كان الأمر كذلك، فعندي كرتان! وقع عليهما إذن!» وحسب رواية هَري وقع بَيب على الأرض وهو يضحك ضحكا متواصلا. ولم يتوقف

عن الإبتسام كلما نظر إلى مكان وقوف الولد عصر ذلك اليوم. اضاف هَري أن بَيب العظيم سجّل 4 ضربات قياسية إضافية.

قلت لنفسي أنّه من المستحيل أن أسمع قصة من هذا القبيل في پيير. إنّ العمل في وكالة الأسيوشيتد پرس سيكون حافلا بالمفاجئات. قضيت سهرة ممتعة مساء يوم الجمعة ذاك إثر مباراة البسبول مع بعض اصدقائي من المرحلة الجامعية. إستيقظت صباح اليوم التالي لأجد نفسي في شقة في القسم الجنوبي من المدينة وقد مضت ساعة على موعد جلوسي المُفترض إلى جانب آريموند صباح ذلك السبت. ما زلت مخمورا وأنا ارتدي قميصا متسخا ورائحة الخمرة تفوح من جسمي! ملابسي النظيفة موجودة في قبو أختي، الذي يبعد حوالي 30 ميلا تقريبا. إستأجرت سيارة ووصلت إلى المكتب واتخذت مقعدي إلى جانب آريموند. كان من المستحيل تجاهل الرائحة، التي تفوح منّي، لكنّه فعل ذلك تماما. لم يقل لي شيئا خلال الساعات القليلة التالية، ولم أقل أنا بدوري أيّ شيء وتحاشيت النظر إليه مباشرة. انتظرت حتى حان موعد انصرافه لتناول وجبة الغداء، وهو الأمر الذي يحرص عليه دائما في الموعد المقرّر، فأسرعت لأتناول كوبا من القهوة. رجوت أنّه سيفهم أنّ هذا القندس beaver الصغير الجالس إلى جنبه طيلة الأسبوع، ليس منصرفا للعمل فقط أو ليس لديه وقت للمتعة، ومع ذلك فإنّه حريص أن يحضر إلى العمل مهما كانت الظروف. حدثت بيني وبينه خلافات خلال السنتين التاليتين. لقد درس في مدرسة يسوعية كاثوليكية وتعلم مبادئ تحريم عمليات الإجهاض وغيرها من الأمور الخلافية المثيرة للجدل. لكنّه، والحق يُقال، لم يفرض وجهات نظره المتدينة على جو العمل في غرفة الأخبار. احترمت كثيرا سلامة سلوكه وحقيقة أنّه لم يتدخّل إطلاقا بطرق عملي وتقاريري التي أعدّها، حتى وإنْ كانت المواضيع التي تناولتها مزعجة له. علمت فيما بعد أنّه أوصى بحماس حين كانت الوكالة تنظر في أمر نقلي لمكتبها في العاصمة واشنطن.

كانت مهمّتي الأولى في شيكاگو أن اكون محررا مسائيا لنشرة اخبار الراديو والتلفزيون. كنت مدَرّبا لأداء هذه المهمة خير تدريب، وكان من حظي توفر جهاز teletypist، غير أنّ الأمر تطلب شيئا من الإبداع. المطلوب منّي إعداد ملخص للأخبار على مدى الوقت وإرساله للمشتركين في خدمات الوكالة، ويتضمن اخبار ذلك اليوم وما يستجد من الحوادث الخاصة، التي تطلبت الإعلان عنها مباشرة. لم أردّد كالببغاء تقارير الصحف المحلية، كما كنت أفعل في پيير. واجبي الآن أن أراجعها والخصها وابعثها إلى محطات الراديو والتلفزيون في شيكاگو، التي تنقل في غالب الأحيان حرفيا ما أُرسله أنا من مكتب الأسيوشيتد پرس. لم يتطلب الأمر كثيرا قبل أن أبدأ بالتلاعب في اللغة ومحاولة تخطي الأنماط والصور التقليدية لرواية قصص الأخبار. لم تكن لديّ فكرة أنّ جهودي هذ ستكلل بالنجاح أو أن تعار أيّ اهتمام. لكنّني تابعت عملي بحماس لجعل صور الأخبار حيّة. لم يمضِ وقت طويل حتى تمّ سحبي من تلك المهمة واصبحت مراسلا للمهمات العامة.

تبدأ نوبة عملي الجديد في الساعة الخامسة عصرا حتى الساعة الواحدة من صباح اليوم التالي. أصبح من حقا الأسيوشيتد پرس في حينها أن تعمل ما تشاء في مواد الأخبار المنشورة في الصحف الأربعة الكبرى في شيكاگو. ولدهشتي أنّ معظم العمل يقوم على إعادة كتابة المواد مع

الإشارة إلى المصدر الأساسي، سواء كانت صحفا أم اخبارا من الراديو. باعتقادي أنّ المحرر الرئيسي للوكالة في نيويورك، الذي يشرف على الأخبار الوطنية والعالمية، كان ميالا لنشر المقابلات الجديدة والمعلومات عن الأخبار الرئيسية. عملت ما في وسعي لأوفر لهم ما يحبّون. ولماذا لا آخذ قصة معينة من فترة لأخرى من إحدى الصحف المحلية وادخل عليها بعض الإثارة والتشويق؟ وعليه حين هرب السندباد، الغوريلا الذي كان موضع الإهتمام في حديقة الحيوانات في شيكاگو من قفصه وسحق في طريقه كلّ شيء قبل أن يصيبوه بإطلاقات التخدير الفعال وإعادته إلى قفصه، أعدت كتابة القصة بأنّ «السندباد اليوم يعاني من صداع ومن آثار السكر hangover، ويتلقى العلاج لذلك، حاله حال من يطرق خمّارات المدينة». كما أعددت تقريرا آخر عن الجريمة في شيكاگو بعنوان «الجريمة حالها حال كلّ شيء تعصف بقوة في شيكاگو».

كان من المفترض أن نغطي بناء عمارة عالية قيد الإنشاء يكسوها نوع جديد من الفولاذ قابل للتأكسد ليتحول إلى لون جميل وسط رطوبة طقس شيكاگو ونسبة تلوث هوائها العالية. إخترت عنوان للمقالة، «وأخيرا وجدت شيكاگو منفعة في الضباب الدخاني smog ستضفي جمالا على مبنى مركز المدينة الجديد، الذي كلف 87 مليون دولار». تمّ أغلاق صالة للرقص كانت بُنيت في عشرينات القرن الماضي، وأقنعت المحرر المسائي أن يسمح لي أن أذهب لإلقاء نظرة على تلك البناية. كتبت مقالة مطلعها، «الألاف من ابناء شيكاگو وبناتها، من الذين تعلموا الرقص في صالة آراگون، عادوا لبعث ذكرى السنوات الخالية مساء يوم الأحد ليرقصوا على انغام اغنيات وَين كنگ الناعمة لآخر مرة». حظيت المقالة بانتشار واسع وتمّ نقلها في صحف عصر اليوم التالي.

وبعد محاولات أخرى من هذا النوع، اتصل المحرر الرئيسي للوكالة في نيويورك بمكتب شيكاگو وذكر تولي مقالاتي الإنتباه المطلوب. في الحقيقة أنّه طلب بأن تتاح لي الفرصة للعمل خارج المكتب، وكتابة مقالات وقصص تُنشر ضمن تقارير فترة المساء. أطلقت لي الحرية باختيار ما اشاء من المواضيع، ولكن ضمن الحدود المألوفة. شعرت بأنّني «أمتلك» المدينة!

وجدت بسرعة أنّ ما يراه المحررون قصصا ومواضيع تحضى باهتمام الناس موجودة أمامي بشكل واضح. إنتقلت من قبو أختي إلى غرفة بإيجار رخيص قرب مبنى جامعة شيكاگو. ذهبت في إحدى الأمسيات مع الفتاة التي تزوجتها فيما بعد، إلى مهرجان لعرض الأفلام اقيم في مبنى الجامعة. كنّا وسط حشد كبير من الطلبة، الذين ابدوا اعجابهم بالفلم الكلاسيكي لعام 1941 صقر مالطة الذي لعب فيه همفري بوگارت دور المحقق سام سپَيد في الرواية التي الفها داشيل هَمّت. كان الحماس ملفتا للنظربشكل استثنائي. حاولت الإتصال بالشخص المنظم لمهرجان الأفلام وعلمت منه أنّ بوگارت وافلامه تعبّر عن غضبة الطلبة في الكليات والجامعات الأمريكية في طول البلاد وعرضها. أجريت عددا من المكالمات وكتبت مقالة عن الموضوع لوكالتي وصفت فيها تلك الظاهرة، فأعيد نشرها في الصحف من المحيط إلى المحيط، بما فيها صحيفة نيويورك هيرالد تربيُن.

كما استفدت من خبرة السنوات التي امضيتها وأنا أدير محل والدي لتنظيف الملابس وكيّها في حي السود في شيكاگو. كتبت مقالة عن شعبية وحيوية وأهمية موسيقى الكنائس الإنجيلية في عموم البلاد. وحين أصيبت المغنية الشهيرة مهاليا جاكسُن عام 1964 بنوبة قلبية، إتصلت بها وهي على السرير في المستشفى، بعد أن مُنعت من زيارتها، وكتبت مقالة عن سيل الرسائل وباقات الورود، التي تلقتها وهي هناك. كان الكثير منها قد جاء من اوروپا، حيث وُجد لها معجبون كثار هناك. «تلقت الكثير من باقات الورود»، وقالت لي وهي تبتسم، «في ذلك الصباح، الذي صحوت فيه وكنت اعتقدت أنّني فارقت الحياة...» تحدثنا كثيرا عن مهنتي كشاب أبيض يحاول أن يكسب رزقه بإدارة محل لتنظيف الملابس في قلب حي السود. كما اخبرتها عن بعض عملاء والدي المفضلين، وكيف كانوا يجتمعون ساعة إغلاق المحلّ مساء يوم السبت، وأنا أحمل في جيبي دخل المحلّ الأسبوعي. كنت اعتقد أنّهم يجيئون للتحدث والثرثرة، لكنّني علمت فيما بعد أنّهم يحضرون في تلك الساعة من أجل حمايتي. وبعد أشهر وحين تعافت مهاليا من علتها، دعتني لتناول وجبة من الدجاج المقلي وخبز الذرة في بيتها في الشطر الجنوبي من المدينة. ذكرت لي أنّ اطبائها اخبروها أنّ بإمكانها استئناف مشوارها الفني. ذهبت للصلاة في كنيسة للروم الكاثوليك «وصليت للرب أن يشفيني من علتي ويمنحني القوّة. أنا من اتباع الكنيسة المعمدانية Baptist لكنّني مؤمنة بإله واحد». كتبت لوكالتي مقالة مطولة عن استعادة عافيتها وعن موسيقاها واستفدت من أحد الدروس التي تعلمتها. إنّ قصتي سهلة القراءة لأنّي تركت فكاهة مهاليا وانسانيتها وتواضعها تنساب كما تشاء.

لا بُدّ أنّ آريموند والمحررين الآخرين في شيكاگو قد انتبهوا لوجود موهبة فيما اكتب. وهم كالآخرين الذين احتككت بهم خلال سنواتي الأولى كمراسل أن يُطلقوا لي العنان. كتبت ما يقرب من ست قصص عن موضوعات اخترتها وأنا في شيكاگو وتسببت في خوف المحررين المشرفين عليّ لأنّني تناولت مواضيع حساسة مثل الفساد في جهاز الشرطة ومسألة الإجهاض ومشكلة التجاوز على الحقوق المدنية. إنّ شيكاگو في وسط الستينات، حالها حال المدن الكبيرة الأخرى، تعرّضت للضغط من قبل السود الأمريكيين المطالبين بمساواة الحقوق، بما فيها حقّ الحصول على السكن. كان يُقال للعائلات السوداء مثلا أنّه لا تتوفر شقق للإيجار، في حين يحصل البيض على شقق في نفس تلك البنايات. كتبت مقالة مطولة عن مثل هذا التمييز، أشرت فيها إلى «الدوائر المغلقة» في ميدان العقارات والأعذار الواهية لذلك التمييز. في عصر اليوم الذي نشرت فيه تلك المقالة، وحين حضرت إلى المكتب وجدت أنّ آريموند قد وضع على لوحة الإعلانات مخططا على شكل دائرة أعدها أحد الفنانين، ووضع تحتها عبارة، «دائرة الجهل، لإطلاع الزملاء». شعرت بالبرودة تسري في بدني.

بالرغم من تلك المناوشات وميولي ووقوفي إلى جانب معيّن دون سواه، عيّنتني الوكالة مع حلول العام الثاني من بدأ عملي فيها بأن اكون مراسلا خاصا بموضوع الحقوق المدنية في المنطقة. كانت تلك خطوة جيدة لأسباب لا تعرفها حتى الوكالة نفسها. لقد امضيت في العمل في محل والدي بشكل متقطع وفي النهاية بشكل مستمر ما يقرب من 12 عاما، ولدي علاقات وطيدة وجيدة مع كافة العمال الذين يعملون في المحلّ، وهي علاقة تفوق تلك التي كانت لوالدي أو والدتي معهم. كما أمضيت الكثير من أيام الأحد وأنا شاب أذهب إلى مباريات البيسبول لفريق الزنوج Negro

League مع الشاب الذي كان يعمل على ماكنة الكي في المحل، وكان مغرما مثلي بلعبة البيسبول. كنت على يقين ومعرفة بمدى الإحباط الذي يشعر به نتيجة للتقييدات، التي تحدد آماله وطموحاته بسبب لونه، ورفضه لقبول الواقع العنصري والتمييز، الذي بالتأكيد قد قيّد حياته.

لقد اتاحت لي مهمتي الجديدة فرص الإتصال واللقاء بالقس مارتن لوثر كنگ. كان ذلك خلال الأيام والليالي، التي جرت فيها تظاهرات صاخبة في الشمال ودعت للمقاومة. كان كنگ عبقريا في معرفة نوايا الصحفيين واستطاع أن يميّزني وغيري ممّن اظهروا الموالاة للقضية. كان داهية في تفهّم الإعلام ودوره، وعليه فالأسيوشيتد پرس وأنا في نظره مهمون. فالأخبار التي ابعثها تحتلّ واجهات العديد من الصحف الهامة، خاصة في المدن التي يوجد فيها توتر عنصري. في ليلة متوترة الأجواء في شيكاگو، تحدّث ووقع بصره علي، فقال «كم هو صعب؟» ولوى بإصبعه نحوي وقصد أن انتظره لأنّه يريد أن يفضي إليّ بالمزيد. كان يعرف أنّ تقارير كثيرة عن مسيرة تلك الليلة ستظهر في صحف صباح اليوم التالي. في الحقيقة بدأت الصحف تنشر نسخا أخرى لفترة ما بعد الظهر. وبعد حوالي عشر دقائق إنتحى بي جانبا واعطاني المزيد من المعلومات. ومن بعض تلك الإقتباسات اللاذعة، كان حول خيبة أمله بإدارة جونسُن من أجل أن يجعل شعلة القضية تتقد ليوم آخر.

كنت اقوم بواجبي وبنفس الوقت اتعلم اسرار مهنتي وعن تطور التعبيرات ومرونتها. وفي ليلة أحد حارة من ليالي اغسطس عام 1964. تمّ القاء القبض على امرأة حاولت أن تسرق قنينة صغيرة من مشروب الجن سعرها 2.69 دولارا من مخزن لبيع الخمور في منطقة دكسمور في إحدى ضواحي الطبقة الوسطى في جنوب شيكاگو ويبلغ عدد سكانها 3100 مواطنا غالبيتهم من السود. تمّ إلقاء القبض عليها من قبل صاحب المخزن الأبيض، وقيل أنّه رماها أرضا. تزايدت حدّة التوتر في الساعات القليلة التالية بعد أن انتشرت الشائعات بشكل مبالغ فيه أو أقلّ من ذلك، بأنّ صاحب المخزن قد اشبع تلك المرأة ضربا مبرّحا. تجمّع عدد من السود أغلبهم من الشباب. حضر رجال الشرطة وهم يحملون بنادقهم واطلقوا قذائف مسيلة للدموع لتفريق الحشد وتلقفت وكالات الأنباء أخبارا عن جرح حوالي 50 شخصا اغلبهم من البيض نتيجة لرمي الحجارة والحصى. أخبرني نائب رئيس مكتب الحرائق في دكسمور، وهو شخص أبيض، «دعني أقول لك، هؤلاء يتصرّفون كالوحوش». كان ذلك أوّل مجابهة مبكّرة للعديد القادم من المواجهات بين البيض والسود في المناطق الآهلة على مدى السنوات التالية.

ازدادت الأمور سوءا بشكل كبير في الليلة التالية، حين جرى نهب مخزن بيع الخمور والمخازن الأخرى وتم إحراقها من قبل مجموعات من السود أكبر وأشدّ غضبا واستعدادا للمواجهة. بعثني المحرر الصحفي لشؤون المساء بوب أولمستيد إلى المنطقة لإوافيه بالأخبار عمّا يجري. وقفت خلف صفوف رجال الشرطة على بعد ما يقرب من مائة قدم ممّا تبقى من مخزن الكحول المحروق. وحين اقتربت سيارة اطفاء الحرائق لعلع الرصاص، وهنا صاح بي وبالمراسلين الآخرين شرطي ابيض يحمل بندقية سريعة الإطلاق وقال، «ارجعوا إلى الخلف. بدأوا يطلقون النار نحونا». كان ذلك إنذارا بالخطر الداهم. أسرعت إلى اقرب تلفون عمومي والقيت بنفسي على الأرض، كما درّبوني في أيام الخدمة العسكرية الإلزامية، وأمليت على اولمستيد الخبر الهام، الذي نقله الشرطي بأنّ المتظاهرين اطلقوا الرصاص نحو رجال الشرطة. بعد أن استجمعت قواي

وراجعت الملاحظات التي دونتها، وكما يتطلب الأمر حسب تعليمات الوكالة، إتصلت ثانية بالمكتب ونقلت إليهم ما سمعت وما شاهدت وما قيل لي. ليست هناك تقارير إضافية عن مصابين أو قتلى نتيجة لإطلاق النار، واستطاع رجال الشرطة في النهاية من التقدم نحو المتظاهرين وتفريقهم، واستطاعوا القاء القبض على البعض منهم.

الفصل الخامس

وأخيرا في واشنطن

وصلت إلى واشنطن منتصف صيف عام 1965، فوجدت الامور تسري سريان مجرى الحياة كما مدن الجنوب، هادئة وبطيئة. غير أنّ مكتب وكالة الأسيوشيتد برس يعجّ بالسرعة والنشاط. قضيت سنتي الأخيرة في شيكاگو وأنا اتابع مجريات ما تنقله الصحف في العاصمة، ودُهشت للسرعة والدقة التي تميزت بها تقارير كلّ من الصحفيين فرانك كورمير ووالتر ميز وهاري كَلي، وهؤلاء اسماء غير معروفة في أيامنا هذه، لكنّهم هم الذين غطوا اخبار البيت الأبيض والكونگرس والسياسات القائمة في حينها. غالبا ما تصدّرت تقاريرهم الهامة نشرات الأخبار بفعل روعة ما قدّموه لوكالات الأخبار، الحقائق فقط ثمّ المزيد منها دون أيّ تحليل وباسلوب نظيف بعيد عن المبالغة. جعل هذا وكالات الأخبار تعطي أمريكا المعرفة الأولية بمجريات الأحداث الحيوية داخل الوطن وخارجه. كنت شديد الغيرة من هؤلاء المهنيين القدامى، وهم ينتقلون بسرعة إلى أقرب جهاز تلفون عمومي لينقلوا الأخبار الرئيسية ويغطونها بأقلّ من ألف كلمة.

أمضيت الأسبوع الأول وأنا اراقب بشكل إلزامي ما يجري داخل مكتب الوكالة في الطابق الأول من بناية تقع على شارع كنتِكت وتبعد حوالي ثمان تقاطعات للشوارع الفرعية قبل الوصول إلى البيت الأبيض. كان عملي الحقيقي عند طاولة التنقيح للفترة المسائية، الذي سيبدأ في الأسبوع الثاني من التحاقي في العمل. كافة تقارير الوكالة حول الحكومة نقلت من واشنطن لتغطية ما يدور في البلد وسُمّيت مهمة المستوى A. لقد أمضيت السنتين الأخيرتين لي في شيكاگو وأنا أطمح أن تكون مقالاتي ضمن مهمة المستوى A. وبطبيعة الحال كانت هناك اخبار البلدية والفرق الرياضية المهنية. لكنّ التقارير عن الأخبار السياسية المحلية والرياضة فاصبحت من اختصاص مهمة مستوى B. لقد بدأت هناك مهنتي كمراسل في واشنطن. كُلفت خلال الأسبوع الأول بتغطية مسيرة منظمة شراينرز، وهي تخترق شوارع العاصمة في طريقها إلى ساحة النصُب التذكارية الوطنية خلف البيت الأبيض. أعرف أنّ هذه المنظمة تقوم بخدمات قيّمة جليلة في إدارة عدد من مستشفيات الأطفال داخل البلاد. ولكنّ المسيرة مسيرة يجب تغطيتها في ذلك اليوم القائظ الشديد السخونة. كنت سعيدا بلقاء صحفي شاب اسمه لَنَرد داوني، الذي كان هو الآخر بدأ يومه الأول في صحيفة واشنطن بوست، فبعثوه لتغطية المسيرة أيضا. أنهى داوني حياته المهنية فيما بعد وهو يشغل منصب المحرر

التنفيذي لتلك الصحيفة وألف سلسلة من الكتب القيّمة التي تناولت مهنة الإعلام. أعددت تقريرا مبهجا عن المسيرة نُشر باسمي ولم يدخل عليه أيّ تعديل ضمن مهام المستوى B. وهو أول تقرير لي عن شؤون واشنطن العاصمة.

كما التقيت خلال الأسبوع الأول بمحرر اخبار اليوم دون ساندرز، الذي كان كمثل كارول آريموند، قد جعل طريقة عمله تعبيرا عن شخصيته. كان يكتب من حين لآخر تقارير لمراجعة النشاطات الفنية التي تجري في العاصمة، لكنّ خبرته في صياغة التقارير وتوقعاته للأخبار جعلته مرموقا في مكتب تحرير الصحيفة. كما بدا واضحا فيما بعد أنّه يشاركني الرأي حول زيادة التورط الأمريكي في حرب فيتنام.

كانت طاولة التنقيح والمراجعة هي المحطة الإخبارية لكلّ القادمين الجدد مثلي، من الذين تُعهد اليهم متابعة الأحداث اليومية في العاصمة، باعتبارهم صحفيين ميدانيين لاصطياد الأخبار كي تكون مادة للصحف الصباحية للبلد. وهم أيضا من يقدمون تقاريرهم في الساعة السابعة مساء، بتوقيت شرق البلاد ويعيدون صياغتها أثناء الليل لتكون جاهزة للنشر في صحف ما بعد الظهر. كان العمل سهلا إذا كانت هناك تطورات جديدة، حتى لو كانت شيئا واضحا من قبيل القول، «عاد الرئيس جونسُن ليلة أمس بعد زيارة مظفّرة...». ولكن إذا كان الوضع هادئا، يصبح الهدف التوصل إلى خبر جديد، مثلا الاتصال عن طريق الهاتف باعضاء مجلس الشيوخ وبالمسؤولين الكبار في الحكومة في ساعات المساء المتأخرة، لأنّه قد توجد لديهم احيانا قصص يمكن تداولها خلال سلسلة اخبار اليوم التالي. كان الطاقم يضمني كما يضمّ شخصا منقحا وآخر محررا لصياغة الأخبار، اقتنع بأنّ يرفع ما نعدّه إلى مستوى المهمة A. كان الوضع لا بأس به من هذه الناحية لمدة شهر أو شهرين، لكنّه تحول بسرعة إلى روتين خال من الإبداع يجعل الإنسان يشعر بالوحدة. كانت نوبة عملي المسائية تبدأ بمقدار ساعة قبل عودة زوجتي من عملها اليومي.

من الناحية الإيجابية، كنت في واشنطن وسط الهدوء والأمن والانفتاح في فترة وسط الستينات. في مساء يوم السبت من اسبوعنا الأول ذهبت مع زوجتي إلى مطعم إيطالي متواضع قريب من مكتب عملي. لاحظت مباشرة لدى جلوسنا عند إحدى الطاولات أنّ الشخص الجالس عند الطاولة القريبة هو أرل وارن، رئيس المحكمة العليا. تجرّات وقدّمت نفسي له واوضحت أنّني مراسل صحفي جديد في العاصمة وأنّ زوجتي الجديدة تعمل كمساعدة اجتماعية في عيادة للطب النفسي. قدّم وارن زوجته لنا وبدأنا نتحدث خلال تناول وجبتينا. كان الحديث معه وكأني وزوجتي نتحدّث مع جدّ لنا. أراد معرفة قصة توجهي للعمل في الصحافة، ولم أجرأ أن أسأله عن عمله. ومع ذلك شعرت بالإرتياح لأنّه حتى ضمن الطبقة العليا في المجتمع، يتصرف الناس في واشنطن بتواضع وعلى سليقتهم. فكّرت وأنا في تلك اللحظة أن استفيد من هذا اللقاء وأوظفه في مجال خدمتي.

استأجرنا أنا وزوجتي شقة صغيرة في منطقة حديثة البناء في القسم الجنوبي الغربي للعاصمة. كانت قائمة جيراني تضمّ ثرگود مارشَل، عضو المحكمة العليا، الذي دافع نيابة عن

المنظمة الوطنية لتقدم المواطنين الملونين NAACP في موضوع شكوى براون ضد المجلس التربوي Brown vs Board of Education. وهي القضية المشهورة عام 1954، التي قررت المحكمة بموجبها أنّ الفصل العنصري في المدارس الحكومية مخالف لأحكام الدستور. من جيراني الآخرين صحفي بريطاني معروف يعمل لصالح مجلة تايم كمراسل في مقر وزارة الدفاع، البنتاگون. وهو غالبا ما يقيم حفلات عشاء عامرة لا يُعلن عنها لكبار اعضاء حكومة إدارة جونسُن.

قررت فى نفس الوقت آن اتجاوز عملى المملّ واعمل وفق خطتى كما فى شيكاگو. خلاصة ذلك آن اجد موضوعا لم يتطرّق اليه أحد واشرع فى الكتابة عنه، مع الإستمرار باداء عملى المطلوب لمراجعة وتنقيح ما يرد إلى الوكالة من الأخبار في كلّ يوم. فى مطلع شهر أغسطس وبعد مرور ستة اسابيع أو نحوها لوصولي إلى العاصمة، تمكنت من مقابلة مارتن لوثر كنگ مساء اليوم الذي وقع فيه الرئيس جونسُن على قانون حقّ الإنتخاب لكافة المواطنين، والذي يُعتبر قمّة ما تمّ انجازه على يد تلك الإدارة. غير أنّ كنگ داهية ذلك العصر، اخبرني ولم يُخبر اعضاء المؤسسة السياسية في جنوب البلاد ولا في شمالها، أنّه تعهّد وخلال شهر واحد أن يقوم بتسجيل 900000 زنجيّا ليشاركوا في الإنتخابات لأوّل مرّة. كان قد أكمل لتوه جولة شملت شيكاگو وكليفلاند وفيلادلفيا وواشنطن. قال، «هذه هي المرة الأولى التي عملت فيها جاهدا في شمال البلاد. لقد شاهدت مئات الآلاف من الوجوه،التي تحمل علامات الأمل، رغم ظروف العيش القاهرة... وإنّي لا ارى أيّ نوع من البرامج الحيّة القوية في تجمعات الزنوج والفقراء في شمال البلاد لكي تتولى مصارعة مشاكلهم الضخمة». حلقت قصتي إلى المستوى المهني A، وانتشرت تصريحات كنگ في كافة انحاء البلاد. كما ظفرت بمقابلة مع بَيارد رَستن، منظر حركة الحقوق المدنية في أمريكا، والذي ساهم بشكل فعّال في تنظيم مسيرة شهر مارس عام 1963 نحو واشنطن، التي شارك فيها الآلاف من البيض والسود الذين تجمّعوا للإستماع إلى خطاب كنگ الشهير «لديّ حلم». أخبرني رَستن بأنّه سيرفع مطالب الحقوق المدنية إلى الكونگرس لأنّ مهمة دمج المدارس الحكومية وفتح مجالات العمل أمام الزنوج «تتطلب التصويت في الكونگرس والتخطيط وتوفير البلايين من الدولارات... إنّ اكبر المشاكل يجب أن نجد لها حلولا اخلاقية مدعومة بمساعدة مالية من قبل الكونگرس». حظيت هذه التصريحات باهتمام الجرائد التي وضعتها على صفحاتها الأولى.

أدّيت فى ذلك الصيف والخريف واجباتي في مكتب التنقيح والمراجعة، لكنّني في نفس الوقت تمكّنت من الوصول إلى لاعبين كبار ونشرت تصريحاتهم، التي تتعلق بتشريع القوانين والخلاف حول ميزانية مصروفات وزارة الدفاع، واشياء هامة من هذا القبيل. كان هدفي أن اركّز على تلك القضايا الهامة واضيف مادة أخرى للجدل حول الخلافات الجارية وكشفها وتحديدها تماما أمام المواطنين. كانت قمّة جهودي في اواخر شهر ديسمبر من عام 1965، بعد الإعلان عن وقف اطلاق النار في فيتنام لمدة 30 ساعة بمناسبة اعياد الكرسمس. كان اعضاء الكونگرس في عطلة تلك المناسبة، والعاصمة غادرها معظم مسؤولي الإدارة الكبار. كان لدي وقت يمكن أن امضيه في مكتب التنقيح والمراجعة، وانتهزت الفرصة لأبدأ جولة من المكالمات وأولها كانت مع نائب الرئيس هيوبرت همفري في منزله في مِنسوتا، على أمل أن أحصل منه على معلومات هامة واثير معه

فكرة تمديد وقف إطلاق النار حتى اعياد السنة الجديدة في فيتنام Tet. تبدأ هذه الأعياد في مطلع شهر فبراير من العام القادم، ممّا يعني أنّ وقف إطلاق النار سيمتدّ لفترة ستة اسابيع. كما قمت بمحاولات من أجل السلام أجريتها مع جون مككورمك ممثل ولاية ماسَچوست ومع رئيس مجلس الشعب جيرالد فورد، زعيم الجمهوريين ومع وِلفِرت سالتنسول، نائب رئيس لجنة الشؤون العسكرية في مجلس الشيوخ. استمتعت بتلك الإتصالات وحصلت على بعض الأخبار المفرحة، التي زادت من بهجة اعياد الكرسمس، لكنّ الحرب استمرّت.

حصلت نتيجة لجهودي المذكورة على ترقية في مطلع عام 1966، واعفيت من مهمات التنقيح والمراجعة المسائية واصبحت ضمن مسؤولي تغطية القضايا العامة. قمت بعدة جولات خارج العاصمة لحضور مؤتمرات تحدث في اغلبها بوبي واخوه تد كندي. كما عملت لمدة يوم أو يومين مراسلا لبعض الصحف المشتركة في خدمات الأسيوشيتد پرس لتغطية النقاشات الدائرة في الكونگرس حول بعض القضايا المحلية الهامّة. مجمل القول، غطيت إذا اقتضى الأمر الأوضاع السياسية ومجلس الشعب والحقوق المدنية. وكنت شديد الإهتمام بالمصاعب والأخطار التي يواجهها الناشطون في تلك الحركة، وعدم الإنصاف والقصور في قضية التجنيد الإلزامي. في الصيف وبعد مرور ما يقرب من عام على وصولي إلى واشنطن، أُخبِرتُ أنّ فرَد هوفمَن مراسل الوكالة في البِنتگون لوقت طويل قد كُلف بمهمة تستغرق ستة اشهر، وأنّني يجب أن أحلّ محله مباشرة، على أن التحق به لكي يدرّبني لبعض الوقت قبل انطلاقه في مهمته. اخيرا أتيح لي المجال لأكتب عن الإلتزامات الأمريكية، التي تتوسع بسرعة في فيتنام. كنت اشعر بقوّة في حينها أنّ الحرب خيار خاطئ لمحاربة الشيوعية السوفيتية، لكنّني على ثقة بقدرتي على الفصل بين وجهات نظري الخاصة، وبين المتطلّبات المهنيّة لعملي كمراسل.

كان اغلب المراسلين الذين يغطون اخبار البِنتگون قد عملوا هناك لحقبة أو أكثر واعتبروا أنفسهم خبراء في الشؤون العسكرية. السّر في هذا العمل سابقا ولاحقا هو الوصول إلى الشخص المهم، والمراسلون المخضرمون يعرفون الكثير من هؤلاء. كانت هناك لقاءات وديّة ودافئة مع وزير الدفاع روبرت مكنمارا، لكنّ ما يدور فيها غير قابل للنشر. كان هذا رئيسا لشركة فورد لصناعة السيارات، وكان نائبه سيرُس فانس، خريج جامعة ييل الحاصل على شهادة القانون فيها، وينحدر من أسرة معروفة. كانت هناك تصريحات إعلامية يومية تقريبا تقدّم للصحفيين على السنة الجنرالات الكبار والمسؤولين عن كافة القضايا اعتبارا من حرب فيتنام حتى الأمور الاجتماعية، وحظي الجيش الأمريكي بالمديح من قبل علماء الإجتماع لدوره التقدمي في التثقيف والدمج. وباعتباره مراسلا أقدما للوكالة في البِنتگون، كان فرَد هوفمَن يتمتع بأحقية القاء السؤال الأخير في المؤتمرات الصحفية. كان يتلقى إشارة من ضابط الإعلام بإلقاء سؤاله كإشارة لختام المؤتمر الصحفي. ورثت هذا الإمتياز باعتباري بديلا له.

تعجّبت بل اصابتني الدهشة حين دخلت غرفة الإعلام التي بدت كقاعة في ناد اجتماعي راق. كان مظهرها رصينا بشكل مذهل. كانت جدرانها مزينة بصور المراسلين الحربيين من الأوقات الماضية حتى الوقت الحاضر. ظهر معظمهم وهم يدخنون الغليون، أو هكذا بدا لي أو كما تصورت. تجمع المراسلون في ممرّ مزدحم امام القاعة القريبة من مكتب السكرتير الإعلامي لوزير

الدفاع، آرثر سِلفستر. كان يُطلق على القاعة «ممّر المراسلين». عبّر لِن دَوني عن تصوير ما يجري في قاعة الإعلام حين وصلت هناك في منتصف الستينات بالقول، «التقارير الرئيسية التي يعدّها مراسلو البِنتگون عن القضايا الوطنية ليست إلّا تعبيرا عن وجهات النظر الرسمية»، كما ورد في مجلة مكراكرز الجديدة. كان قوله ضمن دراسة تحقيقية حول تلك التقارير، نُشرت بعد مرور عام على نهاية حرب فيتنام. واضاف، «يمكن ذكر بعض الإستثناءات بأنّ تقارير البِنتگون، خاصة في الوقت الذي وصل فيه هيرش، نادرا ما تناولت الموضوع ووازنت تلك النظرة مع التقييمات الناقدة لبعض المخالفين في الرأي في صفوف المدنيين والعسكريين أو مع ملاحظات المراقبين الخارجيين.»

سيطرت على نفسي بالقدر المستطاع حتى حانت ساعة مغادرة هوفمَن. كانت الأمور تفصح عن توسّع التزام إدارة جونسُن بزيادة القوات والتخصيصات المالية اللازمة، وسط توفر الأدلة على أنّ الحرب لا تجري وفق ما توقعوا لها. وصل عدد الشباب الأمريكيين الذين سيقوا للخدمة العسكرية الإلزامية في عام 1966 ما يزيد عن 382000 رجلا، وكان عدد الجنود الأمريكيين في فيتنام في نهاية ذلك العام ما يقرب من 385000. بدأت اصوات الإحتجاج تتعالى في الأحرام الجامعية في طول البلاد وعرضها. علمت فيما بعد وأنا أعدّ تحقيقي الصحفي عن مذبحة ماي لاي في اواخر عام 1969، بأنّ قتل المدنيين الغاشم قد بدأ في وقت مبكر، بالضبط خلال أيام من وصول قوات مشاة البحرية الأمريكية لشواطئ دا نانگ في شهر مارس من عام 1965. ولكنّ لم يُنشر شيء عن هذا القتل.

تجاوزت الحدود المتعارف عليها بشكل مبكر، حين قام مكتب سِلفستر بتقديم جنرال كبير في البحرية عاد لتوّه من فيتنام بعد زيارة قصيرة ليتحدّث عن الوضع. أسهب الجنرال في الحديث عن النجاح الوشيك للعمليات الحربية، دون أن يكلف نفسه إثبات رأيه استنادا إلى الحقائق والأرقام. وبعد مرور 15 دقيقة بدا واضحا لي أنّ القصة الوحيدة التي سنخرج بها ستكون إدعاء انتصار آخر على لسان جنرال آخر. حين أكمل الجنرال عرضه وسأل إن كانت هناك بعض الإستفسارات، وقفت وقدّمت نفسي كمراسل أقدم لوكالة الأسيوشيتد پرس. شكرته على الوقت الذي خصّنا به للحديث عن الحرب، وتركت القاعة. الإنطباع الذي اعطيته هو أنّني لم اشعر بأنّي ساعرف شيئا آخر إذا طرحت عليه سؤالا، لأنّه سيعطي الإجابة المعروفة المألوفة. اعقبت مغادرتي لحظة من التردّد ثمّ تبعني زملائي الآخرون. من الطبيعي أنّ ردّ فعل مكتب سِلفستر سيكون حاسما وحامت إشاعات بإبعادي عن مبنى البِنتگون. غير أنّي أصررت في حديثي مع أحد معاوني سِلفستر أنّ ذلك المؤتمر الصحفي كان مضيعة للوقت وأنّ غالبية المراسلين عرفوا ذلك لكنّهم كانوا مهذبين جدّا ولم يفصِحوا عن آرائهم.

كانت هناك قصة هامة خفيّة، كغيرها من القصص الهامة الأخرى قبل أن تخرج إلى حيّز الواقع. دارت القصة حول المحافظة على أعداد طياري البحرية المشاركين في حرب فيتنام. كانت الولايات المتحدة تنفق ما يقرب من المليون دولارا لتدريب كلّ طيار كي يجيد محاولات الإقلاع من والهبوط على ظهر حاملات الطائرات. وحين بدأ معدل خسارة الطيارين باسقاط طائراتهم يتزايد، لوحظ أنّ الطيارين يطلبون احالتهم على التقاعد بشكل متزايد وغير متناظر مع سرعة اعداد من ينوب عنهم. ومعني هذا أنّ تدمير الأهداف الرئيسية ليست له فاعلية في الجهود الحربية. فمثلا أحد

الجسور البدائية الرئيسية في فيتنام الشمالية واسمه ثان هوا قد استهدِف لمئات من المرات من قبل طائرات البحرية منذ منتصف عام 1965. وبعد تقديم المزيد من الخسائر والتضحيات، تمّ تدمير ذلك الجسر تماما عام 1972.

إخترت موضوع التصريحات المتناقضة حول معدل الخسارة في الطائرات بعد وقت قصير من عملي في البنتگون، وحين أعلن مكنمارا زيادة مبلغ 700 مليون دولار لشراء طائرات مقاتلة يخصص اغلبها للبحرية. اقتبست نصّ توضيحه للأمر بأنّ معدل الخسارة في البحرية أقلّ من المتوقع. لكنّ عدد الغارات في تزايد، وعليه نرى الزيادة في عدد الطائرات التي يتمّ اسقاطها. دققت في تحليل مكنمارا بالرجوع إلى عضو في لجنة الخدمات العسكرية في مجلس الشعب. كان تقييمه مستندا إلى معلومات سريّة، واخبرني بشكل صريح ومباشر قائلا، «إنّنا سنخسر المزيد من طائرات البحرية يفوق ما كنّا نتوقعه». نشرت ذلك التصريح على الفور.

قادني اهتمامي بخسائر البحرية وفي ضوء تصريحات مكنمارا عن الموضوع إلى كليرنس هِل، وهو كابتن في البحرية كان يعمل على مشروع طويل الأمد بتكليف من مكنمارا حول قلة عدد الطيارين المتوفرين. كان جون پويندكستر ضابطا صغيرا متقد الذهن يعمل مساعدا لكليرنس هِل.وهو حاصل على شهادة الدكتوراه من معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا. (خسِر پويندكستر منصبه الرفيع بعد حوالي حقبتين من الزمن، وهو برتبة أدميرال جرّاء فضيحة إيران- الكونترا وقت إدارة ريگن) عرف هِل وأنا طبعا أنّ العديد من طياري البحرية على علم بأنّ اهدافهم في فيتنام لا تساوي المخاطرة بارواحهم، وأنّهم يودّون ترك الخدمة بأسرع وقت ممكن. وهذه قصة لا يريد أحد من القادة أن يسمعها أو كانت له الجرأة أن يبوح بها. غير أنّ مكتب هِل قدّم شهادته المعززة بالبيانات الإحصائية أمام أحدى أو اثنتين من لجان مجلس الشعب، وأنّه قد أشار عليّ بالذهاب إلى اللجنة المختصة بغية الإطلاع على الشهادات واستمع اليها.

تركّزت مجموعة المقالات التي نشرتها وكالة الأسيوشيتد پرس عام 1966 على مشاكل البحرية ومسألة المحافظة على أعداد طياريها، ووضعتني وجها لوجه مع بعض المسؤولين البنتگون وحتى البعض من زملائي الصحفيين، الذين اعتبروني ناشطا مناهضا للحرب. في الحقيقة أنّني تعلمت الكثير عن الشرف والنزاهة العسكرية من مارك هِل، الذي كان محافظا حاله حال أيّ عسكري عرفته في تلك الأيام حين يتعلق الأمر بالقضايا الإجتماعية. إعترض هِل على الرأي القائل بوجود عنصرية في صفوف البحرية الأمريكية حول تجنيد البحارة الفليپينيين ليقوموا بدور التغطية على الفوضى على ظهر السفن، وأنّه متأكّد أنّ السود الأمريكيين يمكن أن يكونوا طيارين ماهرين. لكنّه في نفس الوقت أصرّ على النزاهة وقول الحقيقة بقدر حماسه على تثقيفي بشأن الحرب.

في خريف عام 1966جرت معركة شرسة في جنوب فيتنام حين أوقعت وحدة من كوريا الشمالية وحدة امريكية في فخّ. ضمّت الوحدة حوالي مائة جندي وضابط من الأمريكيين المدرّبين خير تدريب. صدرت الأوامر بتوجيه قوة أخرى ودفعها لأرض المعركة، فتكبّدت هذه خسائر جسيمة ايضا، واخيرا استطاعت الطائرات الحربية المغيرة وطائرات الهليوكوپتر أن تحسم الأمر وابعدت القوات المعادية. كانت التقارير الصحفية عن المعركة سيئة. وباعتباري مراسلا أقدم للوكالة، دُعيت وقت الظهر للحديث مع مكنمارا وفانس، برفقة خمسة أو ستة من مراسلي وسائل

الإعلام الرئيسية الآخرين. أعطى هذان المسؤولان الأمريكيان صورة إيجابية عمّا جرى في تلك المعركة الشرسة. قالا إنّ عدد خسائر الجانب الآخر في الأرواح يفوق عدد خسائر الجانب الأمريكي، وأنّ قائد الوحدة المقاتلة قد رُقيّ من نجمة إلى نجمتين. أوضح مكنمارا أنّ اسمه واسم فانس ولا منصبيهما يجب الإشارة إليها في تقاريرنا بأنّهما حاولا التستر على احداث يوم سيء. جرى إثر ذلك نقاش قصير بيننا وبين هذين المسؤولين عن إدارة الحرب وعن افضل طريقة لنقل تقييمهما لتلك المعلومات. ظهر أنّ زملائي من المراسلين كانوا مستعدين لتقديم المعونة. كان ذلك اللقاء هو المناسبة التي جعلتني أطلع على حقيقة مكنمارا، لكنّني لم أتفوه بكلمة واحدة، كما أنّني قبلت أن افعل ما فعله زملائي بالقول، «نقلا عن مسؤول رفيع...»

نُشر تقريري ليكون ضمن الطبعة النهائية لصحيفة واشنطن ستار في عصر ذلك اليوم، ومن بعدها في صحيفة واشنطن بوست الأكثر غنى واحتراما. في أواخر عصر ذلك اليوم ظهر هِل في مدخل مكتب الإعلان في البنتگون فأشار أن اتبعه في الممرّ، وبعد أن قطعنا ذلك الممر الطويل، أراد أن يعرف كيف ومن أين حصلت على المعلومات التي نشرتها في تقريري. لم أتردّد لحظة وأخبرته أنّني حصلت عليها كاملة من مكنمارا وفانس، شرط ألّا اذكر اسميهما. صُعق هِل، الذي كان وقتها رئيس وحدة تحليل الأنظمة بتكليف من مكنمارا نفسه، لإخضاع المتطلبات العسكرية وغيرها من الأمور المتعلقة بها والعودة إلى تجزئتها الأساسية من أجل تحليلها وفهم فاعليتها. رأى بعض الضباط الكبار أنّ تلك المحاولة ليست سوى طريقة مناسبة لجأ إليها مكنمارا لتحاشي الإعتماد على المشورة العسكرية المهنية. علمت فيما بعد أنّ هِل قد رُقيّ إلى رتبة أدميرال، وهذا يعني في دوائر البحرية أنّ الأمر لا يتعدّى كونه قضية تجميل فقط، وأنّه كان ينتظر الفرصة المواتية ليحصل على رتبة أدميرال، حال توفرها. ولأنّ ذلك هو ما كان يفكر به، فإنّ ما قام به بعد ذلك قد تطلب منه شجاعة فائقة من جانبه وثقة كبيرة بي. بعد أن طلب منّي المحافظة على السّريّة، غامر هِل بترقيته وكشف أنّ الجنرال في تلك المعركة الخاسرة قد فُصِل بشكل سريع لأنّه رفض أن يفهم موضوع إمكانية ايقاع الفيتناميين للأمريكيين في شرك. كان ذلك بحدّ ذاته مشكلة، وهو الذي جعله يتخذ قرارا عقيما للإيعاز لوحدة ثانية بالتقدّم نحو ارض المعركة على أمل التخفيف من حدّة المذبحة، لتقع في نفس الفخّ وتتعرّض لخسائر فادحة. أخبرني هِل بأنّ التغطية على الكارثة تضمنت ترقية الجنرال الفورية ونقله إلى قاعدة عسكرية خارج فيتنام وفصلِه بعد ذلك. كان الأمر مهزلة محزنة.

اتذكّر أنّني شعرت بالغضب طبعا، وايضا بازدياد مخاوفي. ليست لدي فكرة عن المدى الذي يدير فيه هؤلاء الرجال الحرب، والذي يصلون فيه إلى الكذب من أجل حماية انفسهم. لقد اصبحت فريسة لحيرة لا شكّ عاشها المراسلون الذين يعملون بهمة وبغيرة وطنية عالية. أمريكا بحاجة لتعرف حقيقة ما يجري في حرب فيتنام. لكنّني اعطيت وعدا لضابط غيور، وطبعا اغلقت فمي ولم اتفوه بكلمة واحدة. لا بُدّ من التذكير هنا أنّ هِل، الذي تقاعد برتبة أدميرال بثلاثة نجوم في عام 1973، قد فارق الحياة عام 2011. وإن لم يحدث ذلك لكنت طلبت موافقته قبل أن أكشف عن دوره في تثقيفي كمراسل، وهي موافقة لا شكّ عندي أنّه سأعطانيها لو كان على قيد الحياة. لقد حصل هِل على التكليف الذي كان ينتظره قبل عدة اشهر من لقائنا في ذلك الممر ليصبح قائدا لحاملة الطائرات USS America. بقينا على اتصال خلال الحقب الأربعة التالية.

وحتى لو كان مارك قد اعطاني الموافقة في ذلك الوقت أن انشر ما صرّح به، دون ذكر اسمه طبعا، لكان من الصعب أن اقوم بذلك. لقد قمت بزيارات عديدة لمكتبه، وكان سِلفِستر قد أمر كافة الضباط الكبار والمسؤولين المدنيين في البنتگون أن يشعروه بأيّة زيارة يقوم بها أيّ من المراسلين. يعني هذا من الناحية العملية، أنّه لو ذهبت إلى جنرال معيّن في يوم الثلاثاء وحصلت منه على معلومات وكتبت عنها في اليوم التالي، فإنّ مكتب سِلفِستر سيكون على علم بذلك، سواء ذكرت اسم ذلك الجنرال أم لم أذكره، وسيعرف أنّه مصدر معلوماتي لكتابة تقريري. ولغرض حماية الجنرال أو مارك هِل، إن كان خولني استعمال المعلومات، لكان عليّ أن أزور عددا من الجنرالات والأدميرالات لعدة ايام باعذار واهية لغرض التعتيم على مصدر معلوماتي. إنّ أوامر مكنمارا/ سِلفِستر، كانت عاملا رئيسيا في عدم تشجيع أيّ استقصاء صحفي جدي، في الحقيقة أجبرت المراسلين على مزيد من المقابلات الرسمية، التي يتمّ التحضير لها مسبقا، والمؤتمرات الصحفية،التي كانت تبدو جاهزة لكلّ مناسبة وحدث. لقد رسم سِلفِستر طريقة سهلت مهمة الإعلام في البنتگون وجعلها محدودة للغاية. كانت هناك بالطبع طريقة واضحة للتغلب على خطط سِلفِستر ومكتبه، وهي الاتصال بالمسؤولين العسكريين والمدنيين رفيعي المستوى حين يكونون في بيوتهم خارج ساعات الدوام وفي عطل نهاية الأسبوع. كانت مثل هذه الاتصالات نادرة خلال السنة التي أمضيتها في البنتگون.

......

خلال الأشهر الثلاث الأخيرة من عام 1966، تعرّفت على صديق جديد هو آي أف ستّون. كان لقاءنا الأول أمرا مألوفا بالنسبة له. تأخرنا أنا وزوجتي عند خروجنا لسهرة في إحدى امسيات يوم السبت. رنّ جرس الهاتف مبكرا في صباح اليوم التالي، أعني قبل الساعة السادسة صباحا. خشيت أن يكلفني المحرر الرئيسي للوكالة في نيويورك بمتابعة خبر عسكري نُشر في مكان ما من العالم، وكان ذلك غالبا ما يحدث. بدلا من ذلك، كان المتحدث شخصا قدّم نفسه بأنّه إيزي ستّون وسأل إن كنت اطلعت على قصة مثيرة في احدى صفحات فيلادلفيا إنكواير أو بلتيمور سَن. علمت بسرعة أنّ إيزي قد استيقظ مبكرا صباح ذلك الأحد وقاد سيارته لأحد اكشاك بيع الصحف الداخلية والعالمية. كانت مكالمته تلك تعني إخباري بأنّه لاحظ شيئا في كتابة تقاريري، وأنّني قد أكون روحا مرهفة لتلقف اخبار الحرب في فيتنام. كان مولعا بالقيام بجولات مشي طويلة، وبدأنا نحن الإثنين نقوم بذلك سويّة. لقد تحدثنا بلا انقطاع عن تحسين كتابة التقارير الصحفية، وشعرت انّني بحضور معلم فائق الخبرة. وهذا أمر يجب أن يندى له جبين شبكات الإعلام العامة وزملائي من مدخني الغليون، الذين تزيّن صورهم جدران مكتب الإعلام في البنتگون، وكافة الذين رأوا في تقريره التحليلي نصف الإسبوعي، ليس إلا مصدرا للإزعاج.

حدثت الأزمة الجديرة بالذكر في بداية حياتي المهنية في نهاية السنة. في يوم 12 ديسمبر من عام 1966، وصل هاريسُن سولزبَري من مجلة تايم إلى هَنوي. كان أوّل صحفي امريكي يُمنح تأشيرة دخول للبلاد منذ غزو رجال البحرية لفيتنام. كتب بعد يومين عن مشاهداته لأدلة عن قصف أمريكي واسع لهَنوي، استهدف بشكل واضح المدنيين. كان ردّ البنتگون مباشرا وقاطعا بالإنكار التام لأيّ قصف داخل حدود مدينة هَنوي، وانطلقت إشاعات كرّرتها العديد من الصحف مفادها أنّ سولزبَري ومجلة تايم يقومان بدور العمالة الإعلامية للعدو. كنت في طريقي إلى مؤتمر صحفي

«لمسؤولين أمريكيين» في العادة شخص أو إثنان من رفيعي المستوى ذكرا فيه جهلهما بما تحدّث عنه سولزبَري، وأنّ الضرر الذي اصاب المنشئات المدنية ناجم عن سقوط الصواريخ المضادة للطائرات التي تطلقها دفاعات فيتنام الشمالية لاستهداف القاصفات الأمريكية. وهذه بطبيعة الحال كذبة يصعب «هضمها».

بعد مرور اسبوع أو ما شاكل ذلك، اعترف مسؤول في البنتگون على مضض، بعد أن نشرت تقريري عن المناطق المدنية في الشمال، التي دكّتها القذائف الأمريكية بذريعة أنّ المواقع العسكرية هي التي استهدفت. وفي نفس الوقت، بقي سولزبَري في فيتنام الشمالية لغاية مطلع شهر يناير، وتجوّل في انحاء البلاد وقدّم الدليل تلو الآخر عن قصف المناطق المدنية. كما افاد أنّه حتى في يوم الإحتفال بالكرسمس كان القصف الأمريكي ما زال مستمرا لعدة اشهر. تبيّن له في المناطق التي زارها أنّ ذلك القصف المتكرر قد خلف العديد من الضحايا المدنيين في هَنوي وغيرها «منذ بعض الوقت». بعد اربعة ايام بعث سولزبَري تقريرا من مدينة نام دِن، التي تقع على بعد 50 ميلا جنوب هَنوي، اشار فيه إلى أنّ المدينة تعرّضت للقصف لأكثر من سنة، ونجم عنه مقتل 98 مدنيا وجرح حوالي 500 شخصا وتدمير ما يقرب من 12000 مسكنا.

إفترضت بموجب ملاحظات مارك هِل، أنّه كان هناك الكثير من الحقيقة في تقارير سولزبَري وقليل منها في الإنكار الرسمي، وقد قمت بتسجيل صوتي لذلك التعليق. دُعيت إلى مؤتمر قبل عدة اشهر قليلة عن الإعلام والعسكر عُقد في كلية الحرب البحرية في مدينة نيوپورت في ولاية رود آيلند. تناولت العشاء مع ادميرال رفيع المستوى ويشغل منصبا حساسا في البنتگون. أدركت تضارب مشاعره حول الحرب، وعبّرت له عن مخاوفي من قلة الأمانة لدى القيادة في البنتگون. كان واضحا أنّه اتفق معي في الرأي، لكنّه لم يزد عليه.

بعد انقضاء عطلة السنة الجديدة امضيت اياما في مقابلة مختلف الضباط والمدنيين في دوائر البنتگون حول عديد من القضايا بقصد خلق تقارير وهمية للإيقاع برجال آرثر سِلفِستر وإرباكهم. ثمّ اتصلت بشكل سري بالأدميرال وطلبت إن كان بالإمكان اجراء مقابلة معه. وافق على طلبي، كما توقعت. كنت على علم أنّه يعرف ماذا ابغي. لقد ملّ هو نفسه من الأكاذيب. اخبرني أنّه توجد صور التقطت بعد قيام إحدى الغارات يسمّونها في البنتگون BDA لتقييم الأضرار، التي احدثتها الغارة وتظهر الخراب الذي لحق بالمواقع المدنية، التي كشفها سولزبَري في تقاريره. كما اخبرني أنّ مكنمارا قد وضع في ضوء تقارير سولزبَري دائرة حول مدينة هَنوي على الخارطة، واصدر اوامره لطياري البحرية والقوة الجوية لتحاشي الإقتراب من الدائرة لمسافة 5 أميال، وبالتالي منع قصف كافة منطقة العاصمة.

عرفت أنّ لديّ قصة هامة، لكنّني في نفس الوقت وددت أن يكون لديّ مصدر أخر لتأكيد الخبر. كان لا بُدّ من اجراء عدد من المقابلات الضرورية، ومن ضمنها اتصلت بجنرال شاب في القوة الجوية تعرّفت عليه من قبل وأحببته لأنّه صريح في آرائه وقناعاته بأنّ الغارات التي يقوم بها طيّارو القوة الجوية هي الأكثر تأثيرا على مجريات الحرب. أخبرته أنّ المعلومات المتوفرة لديّ هي عن اقتناع طياري البحرية بأنّ غاراتهم لقصف منطقة هَنوي هي الأكثر دقة في تدمير الأهداف،

بالمقارنة مع غارات طائرات القوة الجوية التي تلقي بحمولتها من القنابل وهي على ارتفاعات شاهقة. ذكر الجنرال الشاب إنّ تقييم الأضرار يوضح بشكل لا شكّ فيه أنّ طائرات البحرية لم تصب اهدافها داخل هَنوي وتسببت في إحداث اضرار جسيمة في المناطق المدنية. قام باطلاعي على صور أخرى لإثبات اقواله. يبدو أنّ المنافسة المهنية بين طياري الطرفين هي التي تقود إلى الحقيقة، وكنت مصمّما على تذكية تلك المنافسة لمعرفة المزيد.

ناقشت ما توصلت إليه من المعلومات مع دون ساندرز، المحرر الذي ابعث إليه تقاريري منذ انتدابي للعمل في البنتگون، فقال لي ببساطة «إنشرها!» كان كلانا يعرف أنّه سيترتب على هذا التقرير نوع من الردّ، ليس من قبل البنتگون فقط، بل أيضا من قبل المراسلين الآخرين العاملين هناك. أجّجت المشاعرُ اكثر حين نشرت دفاعا قويا عن سولزبَري وهاجمت أمانة مكنمارا أو بالأحرى عدمها في مقالة نشرتها صحيفة اسبوعية اسمها ناشنال كاثلِك ريپورتر، التي بدأت تحضى بتزايد انتباه الكاثليك وغيرهم من المعارضين للحرب بها. نشرت المقالة باسم مستعار بطلب من بوب هِوت، محرر الصحيفة المذكورة. إتصل بي قبل الكرسمس، بسبب تقاريري الّتي تنشرها الأسيوشيتِد پرس وعرض أن انشر ما أود في صحيفته. جاء عرضه في الوقت المناسب جدّا لأنّني كنت اشعر باحباط شديد لأنّني اكتب القصة تلو القصة حول الإنكارات الرسمية لتقارير سالِزبري، وهي إنكارات شعرت بقوة أنّها ليست سوى اكاذيب. كرهت بطبيعة الحال أن انشر شيئا باسم مستعار، لأنّني كنت وما زلت مؤمنا بأن ذكر أيّ شيء يستحق الذكر يجب أن يُقال بصوت حقيقي. لكنّني تعلمت في ذات الوقت أنّ ما قدمته للنشر في صحيفة هِوت سيخلق الغضب لدى زملائي، الذين سيعرفون في الحال من كتب تلك القصص، التي نُشرت باسم رچرد هورنر.

التقرير الذي نُشِر بتاريخ 4 يناير من عام 1967 قد خالف كلّ ما هو معروف عن سريّة ما يجري خلال اللقاءات مع مكنمارا ومسؤولي البنتگون الآخرين. ورد فيه:

مارس أحد مسؤولي وزارة الدفاع الكبار سحر شخصيته في حفلة كوكتيل في إحدى قاعات الوزارة المطلة على نهر پتومِك، وكان يتجمع حوله شلة من الصحفيين المأخوذين المستعدين لإطلاق الضحك العالي لأيّ تعليق خفيف يصدر عنه.

«وماذا عن الإتهامات بقصف هَنوي؟» سأل أحد الصحفيين خلال تلك الحفلة. كانت واشنطن ما زالت تنكر بقوّة اتهامات فيتنام الشمالية أنّ الطائرات الأمريكية قد قتلت أو اصابت اكثر من 100 شخصا خلال غارة على هَنوي جرت في يومي 13 و14 من ديسمبر.

ردّ المسؤول الحكومي بصوت عذب، أنّه تعلمّ شيئا واحدا خلال خدمته في الحرب العالمية الثانية وهو أنّ القنابل لا تصيب الأماكن التي تستهدفها. «الآن وبعد مرور 20 عاما وبعد التحسن الذي طرأ على تكنولوجيا السلاح، ما زالت بعض القنابل فقط تضرب المناطق المستهدفة!» اضاف ذلك القول وهو يبدي ابتسامة عريضة. ضحك بعض المراسلين، في حين غطى البعض ممن كانوا يتناولون الشراب افواههم عجبا، كي لا يغصّوا بما كانوا يشربون.

كان هناك سبب شخصي للغضب الذي اشعر به ازاء مكنمارا. في وقت مبكر من ذلك الشتاء، ذهبت أنا وزوجتي في عطلة نهاية الأسبوع للتزلج على الثلج في ولاية كولرادو. كان لدينا

القليل من المال وحاولنا أن نقتصد في مصروفاتنا خلال تلك الرحلة. فمثلا اقمنا مع صديق لنا كان قد استأجر شقة في مدينة فال، واشترينا بطاقة طيران رخيصة واستأجرنا سيارة صغيرة من شركة يقع مكتبها على طريق الحافلة ليس بعيدا عن مطار دنفر. وصلنا هناك وسط سقوط عاصفة ثلجية كثيفة، وهو أمر جيّد لمن يحب التزحلق وليس قيادة السيارة. في الحقيقة كنت وزوجتي الوحيدين الموجودين في الحافلة. وفي محطة وقوف الحافلة الثاني صعد إليها مكنمارا وزوجته وولداه المراهقان. صُعقت لذلك المشهد، وأنا ارى هذا الرجل المشهور يذهب مع اسرته في رحلة للتزحلق ويقتصد بنفقاته على هذا الشكل مثلي. ليست هناك طائرة پنتگون ولا حراسة ولا حتى مرافقا واحدا يساعده في وضع السلاسل حول أطر عجلات السيارة المستأجرة لكي تسهل قيادتها في مثل تلك الظروف. كنت متأكّدا أنّه يعرفني قليلا، لأنّني التقيت به بصحبة آخرين عددا من المرّات. قدّمت نفسي له بأنّني المراسل الجديد لوكالة الأسيوشيتد پرس، فهز رأسه بانحناءة خفيفة وانتهى الأمر. شعرت بالرعب من ميله الواضح لأن يكون زوجا وأبا جيّدا متفرغا لأفراد اسرته خلال تلك العطلة. كان من الصعب أن أتقبّل أنّ هذا الرجل، الذي يبدو مبجّلا محترما، كان مستعدّا أن يغضّ الطرف عمّا يجري في ميدان الحرب. زاد هذا من غضبي عليه للطريقة التي تعامل بها مع سولزبَري.

كنت أعرف أنّ نشر مثل هذه القصة في ناشنال كاثلِك ريپورتر كان من قبيل الإنتحار المهني، لكنّ القصة انتشرت وتمّ تداولها في اروقة الپنتگون، وطبعا بين رواد حفلات الكوكتيل، الذي عرفوا طبعا من طرح السؤال حول قصف هَنوي، وكلّ من عرف مكنمارا فهم أنّه قام بتحليل فاعلية القصف وكفائته، باعتباره قد خدم في سلاح القوة الجوية خلال الحرب العالمية الثانية. أنا سعيد للغاية في تلك اللحظة وحتى الآن، لأنّني تجرأت ونشرت تلك القصة.

وهنا يأتي ذكر نيل شيهان، الذي ترك وكالة UPI ليعمل في صحيفة تايمز اللندنية عام 1964. وبعد أن قضى سنة في فيتنام، عُيّن لأشهر قليلة مراسلا للصحيفة المذكورة في الپنتگون. لم يمضِ وقت طويل حتى توطدت العلاقة بيننا. ذكرت سابقا أنّه أحد الصحفيين الأبطال في نظري، وأنّه وجد فيّ شخصا يحاول أن يُذلل العقبات في طريقه. لم أكن اتصور مقدار ذهوله باعتباره مراسلا حربيا لا يخشى مجابهة تصرفات حكومته، حين وجد أن الصحفيين في قاعة اعلام الپنتگون ضعفاء متخاذلين. قمت بتقديم نيل لعدد قليل من الضباط والمدنيين، من الذين رغبوا أن يتعرفوا على من يشاركني الرأي حول فرص النجاح الأمريكي في فيتنام.

أتت الأزمة حين أكملت كتابة أول تقرير من اصل تقريرين لغرض تغيير أو إيقاف النقاش حول تقارير سولزبَري. الأول حول تقييم اضرار الغارات الجوية BDA، استنادا إلى الصور التي اطلعت عليها، والمقالة الأخرى حول اوامر مكنمارا حول عدم قصف هَنوي والمناطق المحيطة بها. اطلعت نيل على مسودة المقالة الأولى على أمل أن تُنشر في التايمز، التي نادرا ما تستعين بالأخبار والمقالات الحساسة التي تصدر عن وكالات الأنباء، وتعتمد على ما يوافيها به مراسلوها حول العالم. ذكر دون ساندرز أنّ تقرير الوكالة ليوم الأحد الموافق 22 يناير سيكون من الپنتگون ومخصصا لتغطية القصف الأمريكي في فيتنام الشمالية. تضمّنت قصتي، التي رفعت إلى المستوى A من الأهمية، واعتمدت على مصادر المخابرات، التي اشارت إلى أنّ الولايات المتحدة لديها

صور التقطت من الجو تظهر الدمار الشاسع للمنشئات المدنية في فيتنام الشمالية. كما اخبرت بشكل محدّد أنّ ما يقرب من 59 منشأة مدنية قريبة من خطوط سكك الحديد في نواحي هَنوي قد تمّ قصفها، مع توفر الأدلة بأنّ العديد من القنابل لم تضرب اهدافها المرسومة. أظهرت الصور أنّ ثلاث قنابل فقط قد سقطت داخل محيط محطة القطارات، كما اظهرت الصور وجود ما يقارب الأربعين حفرة خارج تلك المحطة. الإستنتاج الواضح هو أنّ أقلّ من 10 بالمئة من القنابل قد اصابت اهدافها المرسومة. كما أيّدت قصتي تقارير سولزبَري حول الأضرار التي لحقت بالمنشئآت المدنية في مدينة نام دِن.

كنت اعرف أنّه ستجري موجة من النشاطات في مكتب آرثر سِلفِستر منذ اللحظة التي ظهرت فيها اخبار تقريري. يوجد في مكتبه جهاز يلتقط مباشرة اخبار الوكالة. لم اسمع منه شيئا، لكنّني أخبِرت فيما بعد أنّه ذهب مباشرة إلى رئيسي وَس گالگر، المدير العام لوكالة الأسيوشيتد برس ليسجل شكوى ضدي. جاءني شيهان ليخبرني أنّه بعد انتشار الأخبار عن تقريري طلب منه قسم الشؤون الخارجية في التايمز أن يدقق في صحة اقوالي. علمت فيما بعد، عندما بدأت العمل فيها، انّه وفقا لمجريات الأمور في صحيفة التايمز، أنّ تدقيق شيهان المستقل، يعني أنّه سيكتب، بعد تأكّده، مقالة عن الموضوع استنادا إلى مقالتي ليُنشر في صحيفة يوم الأحد. وبدلا من ذلك، سألني شيهان وأنا لا استطيع نسيان كلماته، إن كانت المقالة التي نشرتها الوكالة قد خضعت لأيّ تعديل فأجبته بالنفي. قال إنّه سينتظر حوالي 20 دقيقة ثمّ أخبر بعدها قسم الخدمات الأجنبية للصحيفة أنّه دقق صحة المعلومات في تقريري، ويتوجب على الصحيفة نشره كاملا. وهذا ما حدث. كتبوا جملة واحدة لتقديم التقرير قالت، «جاءنا من وكالة الأسيوشيتد پرس»، وظهر التقرير على الصفحة الأولى للتايمز في صباح ذلك اليوم. وهذا أمر لا يتكرر في العادة. لم اسمع شيئا من مسؤولي مقر الوكالة الكبار في في نيويورك.

بعد اربعة ايام نشرت تقريرا مثيرا للغاية ذكرت فيه بوضوح أنّ مكنمارا، واستجابة لغضبه من تقارير سولزبَري قد اصدر اوامره لقادة القوات العسكرية المسلحة لمنع أيّة غارات على مدينة هَنوي وعدم الإقتراب منها ضمن دائرة محيطة بها على الخارطة يبلغ مداها مسافة خمسة اميال. إستقيت خبري من «مصدر مطلع» افادني أنّ تلك الأوامر هي النتيجة المباشرة لما تناقلته وكالات الأنباء. وهذا يعني أنّ الإعلام في هذه البلاد وغيرها بدأ يستند إلى ما يكتبه سولزبَري من التقارير. ذكر دون ساندرز أنّ الخبر سيُهاجم حال انتقاله إلى المستوى A من الأهمية. طرح اقتراحا ذكيا بأن ننتظر حتى الساعة الخامسة والنصف عصرا، وهو الوقت الذي تكون فيه صحف صباح اليوم التالي في دور الإعداد على الساحل الشرقي للولايات المتحدة، ونبعث إليها التقرير باعتباره «خبرا عاجلا». وهذا يعني أنّه سيُفسح لي المجال باعتباري المراسل في البِنتگون، ليتصدر ما اكتبه بقية مواد الوكالة. تناقلت وكالات الأنباء العالمية تقريري هذا على جناح السرعة، وهذا ما جعل سِلفِستر بنظراته المتوحشة يُسرع نحو قاعة الصحفيين ويُشير اليّ باصبعه وهو يتقد غضبا وقال، «نحن نعرف ماذا تفعل، يا ابن العاهرة!» لا اتذكّر بقية السباب الذي تفوّه به، لكنّني اتذكّر جيدا قوله إنّه سيتصل بكبار مسؤولي الوكالة في نيويورك ليضعوا حدّا لتجاوزاتي. كان سِلفِستر سيتقاعد من عمله بعد اسابيع قليلة. لم أغضب منه لأنّه صنيعة الرجال الأعلى منه مرتبة، مكنمارا وفانس.

في ذات الوقت كان تقريري المؤلف من 1200 كلمة قد طرق ارجاء المعمورة. حضر نيل شيهان إلى مكتبي وهو جامد الوجه وبادرني بعدد من الأسئلة أولها، «هل غيّروا شيئا في تقريرك قبل نشره؟» أجبت بالنفي. أخبرني للمرة الثانية أنّه سيتصل بالمحرر في لندن ليعلمه أنّه دقق صحة المعلومات الواردة في التقرير، لكي يتمّ طبعه على الصفحة الأولى للتايمز في صباح اليوم التالي. استيقظت في الصباح لأجد تقريري وقد احتل الصفحة الأولى تحت عنوان «أمريكا توقف الغارات على منطقة هَنوي». غير أنّ نشر هذا التقرير لم يوقف قصف فيتنام الشمالية لوقت طويل. كان مقرّرا أن يدلي مكنمارا بشهادة أمام مجلس الشعب حول تقرير البنتگون، وهو خلاصة للمشاكل التي قد تثار، وكالعادة فقد اجتمع مع ممثلي الصحافة قبل الإدلاء بتلك الشهادة. أنكر قصتي بالكامل قائلا إنّ الطائرات الحربية الأمريكية لم تُمنع من قصف هَنوي أو محيطها لمسافة خمسة أميال. كما اعاد إنكاره خارج مبنى مجلس الشعب بعد أن أدلى بشهادته المذكورة. شعرت بضغوط قويّة فبعثت برسالة لصديقي الأدميرال فجاءني رده بسرعة مؤكّدا صحة ما نشرته من المعلومات التي زوّدني بها، وهو أنّه فعلا هناك منع لقصف هَنوي ومحيطها لمسافة خمسة أميال. استطعت بذلك ان ألغي أيّة خطوة يمكن ان تقدِم عليها وكالتي باصدار أيّ تصحيح أو توضيح. لم اعرف الأساس الذي كان وراء إنكار مكنمارا حتى عام 1971 حين نُشرت أوراق البنتگون. لقد قامت البحرية فعلا برسم خط الخمسة أميال، لكنّ حاملات الطائرات والسفن الحربية الأخرى قد حسبت مساراتها كالعادة اعتمادا على الأميال البحرية. أما فروع القوات المسلحة الأخرى فاعتمدت على حساب الأميال القياسية. المعروف أنّ الميل البحري يزيد على الميل القياسي بنسبة 15 بالمئة. في تقريري الأصلي كتبت خمسة أميال دون تحديد نوعية تلك الأميال. وهكذا نال إنكار مكنمارا المصداقية، وهللت الصحافة في واشنطن، ولأسباب مختلفة، بعدم توفر الأدلة التي اعتمدها سولزبَري وصحيفة نيويورك المتعجرفة. لا عجب أنّنا خسرنا الحرب.

ما كان يجب أن أفاجأ بموقف زملائي الصحفيين. أعرف أنّ نيل شيهان استثناء للقاعدة. كنت على يقين ممّا سأقول حين دُعيت للمشاركة في لقاء في جامعة تفت، على ما اعتقد. شارك في اللقاء صحفيون ومراسل حربي رفيع المستوى لصحيفة معروفة. سأله أحد الطلبة الحاضرين عن رأيه في حرب فيتنام. «ليس لديّ رأي»، قال ثمّ اضاف موضحا إنّ واجبه أن يغطي الحرب بموضوعية. صُعقت من ذلك الردّ. طبعا لديه رأي لأنّه من مناصري تلك الحرب. وهذا نموذج كلاسيكي للكيل بمكيالين. إذا كنت تؤيد الحرب فأنت موضوعي، وإن كنت معارضا لها فأنت يساري وغير جدير بالثقة، مثل آي أف ستون.

بعد مرور اسابيع قليلة تمّ إشعاري بأنّ گالگِر قد أمر بتأسيس وحدة للإستقصاءات الصحفية الخاصة في واشنطن، وأن أكون من بين اعضائها. لم تعجبني الفكرة، لكنّ ذلك هو ماحصل. لقد عاد فرَد هوفمَن من مهمته ليمارس عمله كمراسل للوكالة في البنتگون. كانت تلك نهاية الأمر. تقاعد هوفمن من عمله عام 1984 وقت إدارة رَيگن، لكنّه سارع ليعمل في منصب رفيع في مكتب العلاقات العامة في البنتگون ذاته.

أمّا آرثر سِلفِستر فقد تقاعد في الأول من شهر فبراير عام 1967 بعد أن قضى فترة ست سنوات كمساعد إعلامي رفيع للوزير مكنمارا. بعد مرور عشرة اشهر، نشر مقالة في صحيفة ساترديَ إيفننگ پوست هاجم فيها بوحشية منتسبي جهاز الإعلام في البنتگون قال فيها، «لم اعرف

اطلاقا صحفيا خدم الحكومة كضابط معلومات في البنتگون ولم يكن منزعجا بسبب التصرفات الخسيسة من قبل أولئك الذين انتقصوا من كبرياء المهنة... (في الحقيقة مورست تلك التصرفات من قبل منتسبي مكتبه) لقد تابعت خلال ست سنوات التقارير الصحفية التي تغطي الصفحات الأولى ووجدت أنّها استسيغت بكل سهولة، وكنت اعتقد أنّها ستسبب غصّة مخيفة.»

لم تكن هناك إشارة إلى أنّ رجال البنتگون، الذين يديرون الحرب، يتعلمون من اخطائهم.

الفصل السادس

سموم وجراثيم وكتاب

كان يمكن أن يكون عملي في وحدة الإستقصاءات الصحفية حلما، لو لم أكن سُحبت من عملي الحلم في البنتگون. لقد خرجت من تجربتي القصيرة هناك كشبه تجربة مجند لديه ارتياب من ضباط وحدته. لكنّ الزملاء الجدد الذين عملت معهم كانوا إمّا في نهاية حياتهم المهنية غير المتميزة، أو أنّهم قد تخرجوا لتوهم من الدراسة وتنقصهم التجربة. الضباط الذين عملت معهم في البنتگون كانوا اكثر طموحا ولديهم فكرة عمّا يدور حولهم وحول العالم. لقد تعلمت خلال وجودي هناك كمراسل درسا سيبقى معي طيلة حياتي المهنية. يوجد الكثير من الضباط، بما فيهم الجنرالات والأدميرالات ممّن يعرفون جيدا أنّ القسم الذي أدّوه هو صيانة الدستور والدفاع عنه، وليس قسم ولاء للرئيس أو لمن هو اعلى رتبة منهم. إنّهم يستحقون لذلك احترامي وحظوا به. هل تريد أن تكون مراسلا حربيا جيّدا؟ أبحث عن هؤلاء الضباط.

بحلول نهاية عام 1967 كانت توجد شلة من المراسلين الشباب المتميز، الذين استحوذوا على تغطية القضايا الهامة في مكتب الوكالة في واشنطن. من بينهم اثنان هما گيلورد شو وجَيمس بَولك، اللذان تركا العمل في الوكالة وحصلا على جائزتي پوليتزر لما نشراه في الصحيفتين اللتين عملا فيهما خلال الحقبة التالية. أمّا الثالث فهو كارل لِسدورف، الذي أصبح المراسل السياسي الرئيسي في الوكالة، وانتقل ليبدأ مهنة متميزة كرئيس لشعبة الكتاب اليوميين لصحيفة دالاس مورننگ ستار. لم يكن هؤلاء ضمن فريق الإستقصاءات الصحفية في الوكالة في مطلع عام 1967. كان زملائي الجدد غرباء بالنسبة لي. غير أنّ ذلك الموضوع لم يكن يشغلني بشيء لأنّني أعرف نفسي بأنّني لا استطيع المشاركة في عمل جماعي، رغم أنّ مفهوم تأسيس تلك الوحدة مبني على ذلك المبدأ. كما أنّني اعتقدت أنّ المحرر الأول للمجموعة ليس كفؤا وبلا طموحات وغير مهتم وليس لديه استعداد للمجازفة بأيّ شيء، ولم ينجح في حياته فيما بعد.

اعتقدت أنّني سأجتاز تلك العقبات، إذا واصلت مسيرتي في البحث عن مشروع طويل الأمد، موضوع له علاقة بالعسكر، لكي استفيد من اتصالاتي بمن اعرف هناك. لقد اصبحت على معرفة تامّة في داخلي كوني صحفيا، أقرأ قبل أن اكتب. كنت متابعا لما يُنشر في المجلة الأسبوعية للإتحاد الأمريكي لتقدم العلوم AAAS. في وسط شهر يناير من عام 1967، كتبت صحفية موهوبة

اسمها ألِنر لانگر مقالة من جزئين حول مخاطر برنامج البنتگون لتطوير بحوث الأسلحة الكيمياوية والجرثومية CBW، الذي زيدت ميزانيته السنوية بنسبة 300 بالمئة بين الأعوام 1961-1964. عُهد للجيش بهذا البرنامج وكان مسؤولا خلال إدارة كندي عن الاستعمال المتزايد للمواد الكيمياوية التي تقتل الزرع وتجرد النباتات والأشجار من اوراقها في فيتنام الجنوبية. لم يكن معروفا أنّ لتلك المواد تأثيرات ثانوية بعيدة المدى، كما علمت خلال وجودي في البنتگون في ذلك الوقت. كانت بعض وحدات القوة الجوية، التي رشّت تلك المواد على الأحراش والغابات ومناطق الإشتباكات تردد بفخر شعار «نحن فقط نستطيع منع وجود الغابات!»

كنت على يقين أنّ تغطية السلبيات والإيجابيات في استعمال هذه الأسلحة الفتاكة سيكون أمرا يحظى بقبول المحرر الجديد. أكّدت له أنّ وكالة الأسيوشيتد پرس لم تكن السباقة في التعرّض لهذا الموضوع، لأنّ شخصا آخر قد كتب عنه ونُشر ما كتب في مجلة محترمة، وأنّه يوجد الكثير من شهادات الكونگرس السرية، التي اثيرت خلالها الأسئلة حول جدوى هذا البرنامج واغراضه. وافق على مقترحي فتوجّهت إلى البنتگون، ولكن ليس إلى قاعة المراسلين، بل إلى المكتبة الخاصة فيه. أعددت قائمة بالقواعد العسكرية التي توجد فيها العمليات الخاصة بهذا الموضوع، وبدأت البحث عن الصحف الإسبوعية المحلية، التي استعانت بها لانگر. في العادة تنشر تلك الصحف اخبار القواعد العسكرية. اتذكّر أنّني كتبت لأحدها حين خدمت في قاعدة فورت رايلي، واعرف أنّ كلّ حفلة تقاعد لأحد الضباط الكبار تُنشر اخبارها في تلك الصحف، وأين سيذهب ذلك الشخص المتقاعد للسكن. حصلت على اسماء وعناوين البعض منهم وبدأت اجراء بعض المكالمات مدفوعا بحماستي المعهودة.

أمضيت معظم الشهرين التاليين متنقلا وزرت بعض المتقاعدين والمدن الصغيرة، التي توجد فيها اسرار الأسلحة الكيمياوية والجرثومية، بمختبراتها وأماكن انتاجها. ونظرا لأنّ دخول القواعد العسكرية ذاتها ممنوع، فإنّ معرفة مواقع البرنامج والصحف المحلية هي محطتي الأولى. علمت بحالات وفاة لم تعلن لبعض العاملين في المختبرات وآخرين غيرهم ممن دخلوا مختبرا معينا عن طريق الخطأ أو في الوقت غير المناسب. كما اطلعت على حالة الحيوانات الصغيرة التي تتعرض أو تحقن بجراثيم الأمراض الفتاكة، وهروب البعض منها إلى خارج تلك المختبرات، كما حدث في إحدى المرات حين هرب حيوان/حيوانات إلى غابة مجاورة في منطقة جبال مريلاند، حيث يوجد منتجع كامپ دَيفد، الذي يقضي فيه بعض رؤساء البلاد عطلهم الأسبوعية. كما التقيت بعقيد تقاعد حديثا من الخدمة، وكان امضى حياته المهنية في وحدة الكيمياويات في الجيش الأمريكي USACCs. لم يمضِ وقت طويل حتى عرفت أنّ أمريكا ليست فقط تعدّ ابحاثا دفاعية في حالة هجوم روسي، كما يتكرر الإدعاء لإعداد اللقاحات المضادة والى غير ذلك، بل أنّه توجد دوافع قوية لتطوير الأسلحة الكيمياوية والجرثومية، التي يمكن أن تحدث تدميرا شاملا.

علمت فيما بعد أنّ قائمة العلماء الذين انخرطوا في هذا المشروع السري تشمل أفضل العلماء وابرعهم، مثل د. جَيمس واتسُن، استاذ جامعة هارفرد الذي حاز على جائزة نوبل، والذي

شغل مهمة المستشار الخاص للبنتگون في امور الأسلحة الكيمياوية والجرثومية. وهو الذي حصل على شهرة كبيرة فيما بعد لدوره الكبير في اكتشاف الإزدواج في تركيب الحمض النووي DNA.

انتهى الأمر بي لكتابة سلسلة من خمس مقالات لوحدة التحقيقات الإستقصائية في الوكالة، احتوت على ما يقارب 15 ألف كلمة تناولت فيها ما قامت به لانگر واضفت إليها ما عرفته من أولئك الذين عملوا في برنامج CBW، الذين اعتقدوا أنّ البرنامج تجاوز بعيدا اهدافه المرسومة لتأمين الدفاع ضدّ الهجمات السوفياتية. قدّمت سلسلة المقالات لمحرر الوحدة وارفقتها بخلاصة لما توصلت إليه وعن اهمية المعلومات الواردة في تلك المقالات. مرّ اسبوع دون أن اسمع أيّ ردّ وتلاه اسبوع آخر. تظاهرت خلال ذلك الوقت بأنّني منهمك في اجراء بحوث أولية لمشروع جديد، لكنّني في الحقيقة كنت أغلي في داخلي غضبا. ماذا في جعبة ابن العاهرة هذا؟ في الأخير دعاني إلى مكتبه ومدّ يده في درج طاولته واخرج الملف الذي وضعت فيه سلسلة مقالاتي، وقال إنّها طويلة. لم يكن هناك دليل على أنّه قرأ المقالات أو حاول أن يحذف أو يضيف أو يعلق عليها. لا ادري إن كان يتظاهر بذلك، أم أنّه عمل وفق أوامر من جهات عليا، أو أنّه كان يُظهر للمحررين الآخرين أنّه يعرف كيف يتعامل مع هيرش.

بالتأكيد كان مدير مكتب الوكالة وعدد آخر من زملائي ممّن يعملون هناك على علم بأنّني امضيت فترة شهرين وأنا ازور مواقع ومناطق ممنوعة، تصادفت مع فترة احتفال الفيتناميين بعامهم الجديد المحسوب بالأشهر القمرية، الذي يستمرّ اسبوعا. يُدعى الإحتفال Tet، وهو أكثر اهمية من الحرب الأهلية أو وقف اطلاق النار. استمرت لقاءاتي مع إيزي ستَون وخرجنا في جولات طويلة واحيانا التقينا على العشاء مع زوجتينا. غالبا ما لمّح ستَون إنّ كان بإمكاني مساعدته للإطلاع على ملفات الوكالة حول حرب فيتنام، بما فيها نصوص النشرات الإخبارية اليومية، التي تغطي المؤتمرات الصحفية في سايگون. استفسرت من الإدارة بلطف إن كان ذلك ممكنا، فأخبِرت أنّ الإطلاع على الملفات محصور على منتسبي الوكالة فقط. اخبرت إيزي بأنّ جدول عملي الدوري سيكون لمدة ثمان ساعات مساء يوم الأحد في منتصف شهر فبراير. سأكون برفقة شخص آخر مسؤول عن جهاز التقاط الأخبار. في العادة تكون الفترة هادئة وتقتصر على نشرة الأنواء الجوية، إلّا إذا استجدّ شيء مهم. أصرَ إيزي أنّ تلك الليلة ستكون افضل فرصة له للإطلاع على الملفات. فتحت له باب المكتب بعد وصولي بدقائق وامضى ما يقرب من 6 ساعات وهو يراجع ويدوّن ملاحظاته فرحا. يتميّز إيزي بمظهره الخاص، فهو قصير القامة كثير الحركة يلبس نظارات سميكة وشعر رأسه كث غير مرتب. كان يشكرني بين فترة أخرى ويؤكد لي أنّه ليس بحاجة إلى طعام أو شراب وأنّه يقضي وقتا سعيدا للغاية. كان لا بُدّ أن اشرح لزميلي المسؤول عن التقاط جهاز استقبال الأخبار من هو وماذا يفعل. نشر إيزي بعد ما يقارب من اسبوع في صحيفته الأسبوعية مقالا اشار فيه إلى أنّ الولايات المتحدة، التي تكرّر بحماس اتهاماتها لكوريا الشمالية بمخالفة الهدنة، هي نفسها التي استغلت فرصة اعياد السنة الجديدة لزيادة كميات تموين قواتها وتسليحها يوما بعد آخر عبر مطار سايگون العالمي، تان سون نات، لأنّ المطار لم يتطرق للقصف خلال فترة الأعياد، ولم تكن طائرات الشحن الأمريكية القادمة معرضة لأيّة مخاطر. كان المقال مماثلا لما نشره إيزي من قبل

خلال الحقب الماضية، والذي اعتمد على قراءة المصادر والتأكّد منها قبل الشروع بالكتابة. شعرت بفرح غامر لأنّني ساعدته في كتابة المقال، بفتح باب المكتب والسماح له بالتسلل إلى غرفة ملفات الوكالة.

في منتصف شهر إبريل، تحوّلت سلسلة مقالاتي حول CBW إلى قصة واحدة اقتصرت على ما يقارب ألف كلمة، دون التشاور معي. نُشِرت بعد منتصف ليلة يوم الأحد، وهو أسوأ وقت «لدفن» أيّة أخبار صحفية. كنت في سلسلتي الأصلية قد ذكرت أنّ أمريكا انفقت ما يقرب من 230 مليون دولار خصصتها لبرنامج بحوث الأسلحة الكيمياوية والجرثومية. ذكر الشخص الذي اعاد كتابة مقالتي بشكل موجز أنّ الولايات المتحدة قد خصصت ذلك المبلغ وهدفه مواجهة عدوان برنامج روسيا للأسلحة الكيمياوية والجرثومية. ليس لدي معلومات لتأكيد صحة ذلك الإدعاء، ولم يرد على لساني في مقالتي الأصلية.

طلبت نقلي إلى شعبة التقارير العامة. أدركت أنّ النهاية اقتربت وعملت على تسريعها. اجتمعت مع گلبرت هاريسُن وألكس كامپل، المحررين الرئيسيين لمجلة نيو ريپلك اللذين حظي موقفهما في معارضة حرب فيتنام بتأييد واسع. كتبت مقالة عن الأسلحة الكيمياوية والجرثومية ووضعت لها عنوانا مثيرا، «قطرة واحدة كافية للقتل». نشرت المقالة بتاريخ 6 مايو وضمنتها قائمة تحتوي على اسماء 52 جامعة ومركز بحوث حصلت على عقود عسكرية ارتبطت بحرب فيتنام. تحدثت عن امكانية وقوع كارثة في حالة حدوث شيء ما قرب مراكز تطوير وانتاج تلك الأسلحة الفتاكة. حرّكت مقالتي المشاعر فانطلقت تظاهرات الطلاب داخل الأحرام الأكاديمية للتنديد بذلك التعاون. وهو الأمر الذي جلب انتباه الكونگرس حول إثارة عديد من الأسئلة. طبعا كنت اعرف أنّني قد تجاوزت حدود التزاماتي مع الأسيوشيتد پرس، لأنّه ليس من المفترض أن انشر شيئا في صحيفة أو مجلة أخرى دون موافقة الوكالة، وأنّ عملي ذلك قد يؤدّي إلى فصلي منها. لكنّ الأمر بالنسبة لي كان ولا يزال أن أخبر القصة. وإحقاقا للحقّ، فإنّ قيادة الوكالة لم تُثِر معي كلمة شكوى واحدة عن ذلك التجاوز.

أدّت المقالات التي نشرتها في مجلة نيو ريپلك إلى حصولي على عرضين على الأقل لإعداد كتاب عن معضلة الأسلحة الكيمياوية والجرثومية. اخترت العرض الذي تلقيته من الناشر پول- مرل، وهو ناشر للكتب المدرسية، لأنّ المحرر الرئيسي في تلك الدار روبرت أوكين، الذي اتصل بيَ ممثلا عن الناشر المذكور، شخص لطيف وواسع المعرفة. كنت أعلم أنّ لرأيه وزن لدى مؤسسة پول- مرل. كنت وزوجتي ننتظر ولادة طفلنا الأول، وأنّ مبلغ 4 آلاف دولارا الذي تلقيته مقدّما، قد سهّل عَليّ الإستقالة من الأسيوشيتد پرس في شهر يونيو، والإنصراف للعمل على تأليف كتابي. لم تكن هناك ايّة محاولة من قبل الوكالة لِثنيي عن الإستقالة ولم تُقم لي حفلة توديع.

كتبت مقالة أخرى عن أسلحة الدمار الشامل CBW نشرتها المجلة المذكورة في شهر يوليو. ذكرت فيها أنّه تمّ الإتصال بي منذ نشر المقالة الأولى عدد غير قليل من محرري صحف الجامعات، حين واجهوا الإنكار من قبل إدارة الجامعات المعنية حول تعاون الأساتذة ومخاطر تطوير وانتاج الغازات السامّة والجرثومية. إتصلوا بي طالبين التأكّد من قائمة الجامعات ومراكز

البحوث المعنية بالقضية والتي تعاقدت مع الجهات العسكرية، فاخبرتهم بدقة المعلومات التي لا غبار عليها. لقد أدّى ذلك التأكيد إلى مزيد من الإحتجاجات والتظاهرات. ذكرت في مقالتي الثانية أنّه لم تبادر أيّ من الجمعيات العلمية إلى الإستنكار أو اتخاذ موقف ضدّ تطوير تلك الأسلحة وانتاجها. اتسعت دائرة النقاش حول اخلاقية مثل هذه البحوث إلى خارج الأحرام الجامعية، لكنّ وسائل الإعلام التزمت جانب الصمت. لم يفاجئني عجز الإعلام عن إدراك نوايا أمريكا في تطوير هذه الأسلحة وانتاجها وفق خطة ستراتيجية جديدة للتسليح، لم يُعلن عنها. لقد شهدت بنفسي خلال وجودي في البنتگون كيف رفض مراسلو الصحف والإعلام مواجهة الحقائق، التي كشفها هاريسُن سولزبَري في تقاريره من هّنوي. لقد كان من السهل عليهم تقبّل الإنكار الرسمي بدلا من الخوض في موضوع صعب ومثير لاختلاف وجهات النظر.

كان لدي العديد من الأسباب لإكمال إعداد الكتاب عن أسلحة الدمار الشامل بسرعة. وتمكّنت من انجاز تلك المهمة في مطلع فصل الشتاء. قام أوكين بما يترتب على المحرر الجيد أن يقوم به، حين أكّد لي على الإنتباه إلى وضع مخطط تفصيلي ومنظم، واخبرني أنّه يجب أن تكون لديّ فكرة واضحة عن النهاية، التي سأختتم بها ذلك الكتاب، قبل أن اشرع في عملية الإعداد. كان مقرّرا أن يظهر الكتاب في فصل الربيع التالي، وأنّه كان في طليعة كتب أخرى ألفتها فيما بعد. وهو الكتاب الوحيد الذي لم اشعر فيه بضغط مواعيد الإنجاز وعملت فيه براحتي ووفق جدول توقيتي. نقلت في الفصل الأخير قول ماثيو ميزلسُن، استاذ هارفرد الحاصل على جوائز عدة في ميدان تخصصه، حين حذر في مطلع عام 1967 قائلا، «لدينا هنا سلاح قليل الكلفة وقادر على مهاجمة اعداد كبيرة من السكان ويستند على فكرة الهجوم السريع المباغت... وهذا أمر يجب ألّا ترغب فيه الحكومة الأمريكية لأنّه يخالف فنون الحرب. ومع ذلك فإنّ حكومة هذه البلاد اصبحت بشكل واضح الرائدة في هذا الميدان». وُلد طفلنا الأول في الخريف، واخبرتني زوجتي أنّها ترغب أن تسمّيه ماثيو، فوافقت على أنّ اختيار ذلك الأسم مناسب للغاية.

الفصل السابع

حملة انتخابات الرئاسة

بعد أن فرغت من اعداد الكتاب، رجعت لجوهر مواضيع السياسة الخارجية في ذلك الوقت، حرب فيتنام. في الحقيقة اصبحت تلك الحرب حمام دم لكلي الطرفين في اواخر عام 1967. كانت حركة مناهضة الحرب تعمل جاهدة لتجد مخرجا من تلك المحنة بالوقوف في وجه انتخاب لِندن جونسُن عام 1968. من الأمنيات الخيالية هي انشقاق عضو مجلس الشيوخ عن ولاية نيو يورك روبرت كندي عن الحزب وترشيح نفسه كمعارض للحرب في الإنتخابات الأولية للحزب الديمقراطي في الولايات المتحدة. غير أنّه لم تكن هناك أيّة بادرة بأنّ كندي كان مستعدا لتلك المجازفة السياسية. وعليه فإنّ حركة «التافه جونسُن» بقيادة ألرد لونستين، الذي كان في طليعة حركة الحقوق المدنية، كانت تبحث عن مرشح في اواخر عام 1967، ولم يحالفها الحظ بعد.

قررنا أنا وزوجتي الانتقال إلى سكن أوسع فاستأجرنا بيتا صغيرا يقع في شمال غربي واشنطن، وكانت له ميزتان. الأولى، أنّه يبعد مسافة قصيرة جدّا عن المسكن الرسمي لسفير الهند. الأخرى، أنّ مَري مكگروري تسكن على الجانب الآخر من الشارع. كانت الهند حليفا قريبا لروسيا خلال فترة الحرب الباردة القائمة حينذاك. كما كانت لها سفارتان في هَنوي وبكين، وأنّ دبلوماسيها الكبار كانوا بالضرورة يعرفون بمدى التقدم الأمريكي أو عدمه في حرب فيتنام[21]. أمّا مَري فقد كانت صحفية ألمعية في واشنطن أيفننگ ستار. إتصفت بالشجاعة واتخاذ الموقف الأخلاقي ضدّ حرب فيتنام. أعجبتها التقارير، التي كنت اكتبها بصفتي مراسلا لوكالة الأسيوشيتد پرس في البنتگون. النقطة الهامة الأخرى هي كونها جارة طيبة. لقد أعدّت لنا الكثير من وجبات العشاء بعد ولادة طفلنا الأول وتناولنا قدحا أو قدحين من المارتيني خلال كلّ زيارة لها. أخبرتني في إحدى الأمسيات أنّ السناتور الديمقراطي من منسوتا يوجين مكارثي، الذي اثار العديد من الأسئلة حول الحرب، سيدخل حلبة المنافسة ضدّ جونسُن. كانت مَري قريبة من الرئيس كندي وشعرت بالخيبة لأنّ أخاه بوبي لم يرشح نفسه. قالت عن يوجين إنّه ذكي لكنّه صعب المراس ويحتاج مساعدة لإعداد خطاباته. سألتني إن كنت راغبا في تولي تلك المهمة. لم اعرف السناتور واجهل تماما إدارة جهاز صحفي لمرشح للرئاسة. شجّعتني على مقابلة مكارثي وقالت إنّها ستدبر أمر ذلك اللقاء وستخبره

بكل شيء عنّي مسبقا. قابلت مكارثي في اليوم التالي وتحدثنا لوقت قصير. كان واضحا أنّه لم يعرف عنّي شيئا ولكن بعد تجاذب الحديث، أخبرني أنّني ملائم للمهمة، وانتهت المقابلة. الكلمة الوحيدة الي كررها كانت «خجول». أمّا كلمتي فكانت في ذلك الحين «فزع». إنّ موقف الرجل الودي ازائي اعطاني انطباعا أنّه ليس مهتمّا بالكفاءة أو نصفها في إدارة حملة إعلامية. عملت خلال إعداد كتابي عن الأسلحة الكيمياوية والجرثومية مع موظفين من مكتبي عضوي مجلس الشيوخ من الديمقراطيين الليبراليين من ولاية وسكنسن، وهما السناتور گيلورد نِلسُن ووليم پروكسماير، وفهمت أنّ العضوين المذكورين كانا يوليان علاقتهما بالإعلام اهمية كبيرة. أخبرت مَري بانطباعاتي عن اللقاء فأخبرتني ألّا أتردد وشجّعتني على مقابلة بلير كلارك، الرئيس السابق لمحطة تلفزيون سي بي أس، الذي سيتولى إدارة حملة الترشيح. وبطبيعة الحال، كانت تلك الأخبار سريّة للغاية. لم تكن لديّ فكرة عن كيفية الإتصال بالمذكور كلارك. أعلم أنّه شخصية اجتماعية معروفة في نيو يورك، لكنّني اعرف إبنه تِمُثي، الذي يعمل مراسلا في واشنطن. لقد لعبنا كرة الگولف لعدد من المرات، فاخبرته عن رغبتي أن اكون سكرتيرا صحفيا. اتصل بوالده الذي اتصل بي مباشرة، واتفقنا أن نلتقي في فندق في واشنطن. احضرت معي ملفا يحتوي على مقتطفات ممّا كتبت وحول ما نشرت. كان بلير، كما كان شأن مكارثي، غير مهتم بما كتبت أو كُتِب عنّي واعلن في الحال توظيفي «إذا حصلنا على الموافقة». الموافقة المقصودة هي موافقة أبيگيل مكارثي، زوجة السناتور، التي علمت فيما بعد أنّها تدير كلّ شيء عن بعد وتراقب سير الحملة، التي هي مسؤولية بلير طبعا. كانت السيدة مكارثي تدين بقوة بالديانة الكاثوليكية وهي ذكية اكملت دراستها العليا بتفوق في جامعتي منسوتا وشيكاگو. لكنّها فضلت أن تبقى ربة بيت ومساهمة فعالة في حملة زوجها الإنتخابية. كان ذلك خليطا قاتلا.

كانت مكگروري على علم بملابسات حملة مكارثي، لكنها مع ذلك «رمتني للذئاب»، كما يقال. كانت حسنة النية وعلى ثقة بأنّني سأقوم بأداء جيّد. لم يكن يعنيني بماذا تفكر زوجة المرشح للرئاسة، لأنّني شعرت حينها باسباب وجيهة لقبول الوظيفة أصلا. أوّلا، لم يكن هناك أيّ ديمقراطي يرغب في منافسة جونسُن، وثانيا هو شعوري بأن أنخرط في الخدمة العامة بدلا من أن اكون صحفيا اعمل لحسابي الخاص أو لحساب صحيفة أو مجلة معيّنة. وقعت عقداً لأكون السكرتير الصحفي للحملة براتب سخي قدره ألف دولار شهريا. علمت فيما بعد أنّ أغلب مساعدي السناتور، بما فيهم جيروم إلر، رئيس مكتبه في مبنى الكونگرس لسنوات والسكرتيرات وبقية الموظفين الآخرين في ذلك المكتب، لم يرحبوا بأيّ تعاون مع فريق الحملة الإنتخابية. اجتمعت مع بلير في اواخر شهر نوفمبر من عام 1967، وبالذات في اليوم الذي أعلن فيه مكارثي ترشيحه في ولاية نو هامشر، كما جرت العادة في هذه البلاد. فوجئنا بأنّ ذلك الإعلان قد استقبِل ببرود، لأنّ مكگروري، وبعد حديث موجز مع السناتور كانت سرّبت خبر ترشيحه في مقالة نُشِرت لها قبل ذلك اليوم من الإعلان الرسمي. طُلِب مني أنّ مهمّتي الأولى هي أن استقلّ الطائرة مع السناتور والتوجّه إلى نيو يورك، لأنّه كان مقررا أن يلقي هناك خطابا أمام انصار جماعة مناهضة للحرب.

ألقى مكارثي الخطاب ارتجالا دون نصّ مُعدّ فأكثر التكرار. عارض الإفتراضات، التي كانت سائدة عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية حول سلطة الرئيس ليتدخّل عسكريّا أينما يشاء دون الرجوع إلى الكونگرس. أثار موضوعا لا يزال ذا علاقة بأيامنا هذه، وهو الإصرار على أنّ

المنصب لا يعود للشخص الذي يشغله بل إلى «الشعب». لدينا الآن سناتور رفيع المستوى وعضو عال في لجنة العلاقات الخارجية يُهاجم الرئيس، الذي ينتمي لنفس حزبه ويتهمه باتخاذ قرارات إنفرادية لتنفيذ حرب طاحنة. واكثر من ذلك أنّه مضى لتصوير تلك الحرب بأنّها لا اخلاقية، وهو شيء لم يدر بخلدي أن اسمعه من سياسي أمريكي. أنّه ملمّ بالتاريخ وله الشجاعة والقدرة العقلية ويمتلك الكرامة. لاحظت أنّه القى خطابه بهدوء وابدى ثقة بنفسه واحتراما لذكاء من كانوا يستمعون اليه. لم يُبدِ استبدادا في الرأي، فتبدّدت شكوكي وشعرت أنّني اقدمت على اختيار جيدٍ.

كانت تلك بداية التحدي. أعلِن عن تعييني في التايمز في خبر قصير من مقطعين. إتصل بي بعد قليل مراسل اسمه جاك كول، كان يعمل في صحيفة كبيرة في ميناپولِس، وسأل في اليوم الذي القى فيه مكارثي خطابه في نيو يورك، إن كان ممكنا تدبير مقابلة له من المرشح الجديد. إنّني الآن فعلا سكرتير صحفي. ذكرت الموضوع لجري إلر، الذي طار معنا إلى نيو يورك، ولن أنسى ما قال لي حينها. «أقول لك ماذا يجب أن تفعل. انتظر حتى تتلقى مائتي طلب للمقابلة وابعثها لي كي نتدبر الأمر». شعرت في تلك اللحظة بأنّه يجب أن اقوم بما يجب القيام به. شقيّت طريقي نحو مكارثي المحاط بعدد من انصاره والمعجبين به ووضعت يدي على كتفه وهمست في أذنه حول طلب المقابلة. سألته عن افضل وقت لعقدها واتفقنا على كلّ شيء. وهنا بدأت الحرب بيني وبين إلر والعاملين في مكتب السناتور وايضا مع زوجته. لكنّها كانت حربا ضروريّة. صحيح أنّ ألرهو المسؤول عن شؤون مكتب السناتور في الكونگرس، لكنّني أنا المسؤول حين يتعلق الأمر بالحملة الإنتخابية.

طرت بعد ايام قليلة بصحبة السناتور إلى كاليفورنيا، وهي منطقة رئيسية لمعارضي حرب فيتنام. اعطيته خلال الرحلة عددا من الكتب، التي نُشِرت حديثا حول انتقاد الحرب وأشرت له بعض الفصول والمقاطع المختلفة. كما قدمت له قائمة ببعض القضايا التي تخصّ الولاية، التي يمكن تضمينها في الخطاب الذي سيلقيه في جامعة كاليفورنيا فرع لوس انجلس. ظهر لي أنّ اعداد خطاب مسبق وتوزيعه على وكالات الأخبار والصحف المحلية لم يخدم اغراض الحملة كما نحب. لاحظت أنّ مكارثي كغيره من اعضاء مجلس الشيوخ يمرّون مرور الكرام على ما يُقدّم لهم من مواد. ضمّت المواد التي قدّمتها له بعض المقالات التحليلية عن الحرب ومذكّرة طويلة حول القضايا الدستورية التي اثارها الدكتور بنجامين سپوك، طبيب الأطفال المشهور، واربعة آخرون ينتظرون المحاكمة بتهمة التآمر لتقديم المشورة للشبان الأمريكيين لتحاشي الإنخراط في الخدمة العسكرية الإلزامية. تحدثنا عن المذكرة التي اعدّها مايكل تيگار، المحامي الموهوب في واشنطن. اصابني القلق لأنّني اعتقدت أنّ مكارثي مرّ مرورا سريعا جدّاعلى المواد التي سلمتها له. غير أنّه بعد أن تحدث امام حشد متحمّس ملأ نصف ملعب كرة السلة في جامعة كاليفورنيا فرع لوس انجلس، اجاب عن الأسئلة حول محاكمة سپوك، فشن هجوما لاذعا على لائحة الإتهام ضدّه معتمدا على تحليل تيگار ودفاعا عن مناهضي الحرب. وجد دفاعه عن سپوك طريقه إلى اجهزة الإعلام مساء ذلك اليوم.

اصِبت بالذهول للتفاوت الواضح بين ذكاءه وتألقه من جهة وبين الفوضى التي تعمّ مكتبه في الكونگرس. لم يحضر بتاتا إلى مكتب حملته في وسط مدينة واشنطن، وغالبا ما شعرت بالإحباط حين احاول أن اتصل به عن طريق التلفون فيتجاهل العاملون في مكتبه محاولتي، فاضطر أن استأجر سيارة واذهب إلى مقرّ مجلس الشيوخ لأتحدّث معه. غير أنّني كنت بجانبه حين نسافر

من مكان لآخر خلال الحملة الإنتخابية. في الأيام الأولى كنت المساعد الوحيد الذي رافقه في تلك الجولات، وكنت اعمل كالنحلة في توفير المواد له ليطلع ويتابع اخبار ما يجري في ساحات الحرب أولا بأول. لاشكّ أنّ حماسي ومثابرتي قد اربكاه بالتأكيد. لقد كان يتوقع أن ادفع له حزمة من المواد قبل أن نصل إلى كلّ اجتماع انتخابي. الذي سهّل مهمّة سفري، كانت فتاة ذكية سريعة الكلام شقراء تبلغ من العمر 23 عاما وعملت سابقا في وكالة UPI إسمها مَريلِوس أوتس، التي عيّنها ألرد لِونستين كسكرتيرة صحفية لزوجة السناتور، السيدة أبيگيل. أمضت أوتس عددا قليلا من الأيام في وظيفتها ثمّ جاءت واخبرتني أنّها ستستقيل لأنّها سمعت أبيگيل تبدي مخاوفها من كثرة عدد «العبرانيين»، الذين يعملون لحساب حملة زوجها. إنّ أيّ فرد يعرف الجانب السلبي من شخصية زوجة المرشح، يجب أن يستمر في الحملة الإنتخابية. ولذلك عيّنت أوتس نائبة لي، كما أنّني شعرت أنّ السناتور لم يكن معنيّا بخلفيتي الدينية.

أدارت أوتس مكتب الحملة في واشنطن وقامت بتعيين عدد من المساعدين وراقبت ما يجري «خلف ظهري» خلال الأشهر الثلاث التالية. كانت تميل وشديدة الإرتباط بالنشاطات الطلابية داخل الأحرام الأكاديمية، ضمن فعاليات الإتحاد الوطني للطلبة، الذي يضمّ اعضاء في الكليات والجامعات الحكومية يعدّون بالملايين. وهي على بينة واضحة من احتمالات وضرورة تنظيم الطلبة في طول البلاد وعرضها لينظموا إلى جهود مكارثي لإنهاء الحرب. قدمتني إلى سام براون وديفد مِكسنر، اللذين نظما حملة تحت شعار «اهتموا بمظهركم من اجل جين»، الذي وضعته أوتس نفسها، والذي كانت نتيجته أن قام الآلاف بحلق لحاهم وقصّ شعر رؤوسهم الطويل، ليظهروا بمظهر مقبول حين يمضون ليطرقوا على أبواب المواطنين في كافة انحاء البلاد لتعريفهم بالمرشح الجديد. كما نظم بروان ومِكسنر بعد سنوات وقادا تظاهرة مناهضة للحرب توجّه فيها الآلاف من الطلبة إلى العاصمة واشنطن.

كان للحملة محرر خطابات ممتاز، اسمه بيتر بارنز، الذي ذهب فيما بعد ليعمل في مجلة نيوزويك. كنت وبعض المتطوعين، الذين جمعتهم أوتس، نقترح اضافة بعض الأفكار لمسودة الخطب التي يعدّها قبل أن يسلمها للسناتور، على أمل أن تعجبه فيضيف إليها من عنده افكارا أو طروحات اخرى. لم تكن خطة جيدة لأنّ مكارثي كان بارعا حين يرتجل خطاباتِه. كما أنّه كان ذكيّا حين يراجع مسودة الخطابات التي تقدّم له، وغالبا ما أدخل عليها التعديلات. في بعض المناسبات من هذا النوع، كنّا نعدّ مسبقا نسخا من الخطب المزمع القائها ونوزعها على المراسلين ووكالات الأخبار.

كنت اعرف حدودي واعرف أنّ للسناتور قدرة عالية للتخمين، وكنت أعدّ دائما مقاطع قصيرة حول الأمور المتعلقة بالحرب وادفعها إلى مندوبي وسائل الإعلام، وبالضرورة كانت تحتوي على انتقادات للرئيس جونسُن. كنت حريصا على استحصال موافقة السناتور قبل نشر مثل تلك التعليقات. تجاهل أغلبها، لكنّه في بعض الحالات كان يتعرض لانتقادات قوية لأنّ فيها تجاوزا للحدود في نقد الرئيس وقت الحرب. كانت تلك الإنتقادات تؤخذ على مأخذ التحريض ومساعدة العدو. في مثل تلك الحالات، وخاصة بحضور الآخرين، كان يعاتبني بصوت حزين عن كيف كتبت ما كتبت من تلك المقاطع دون تفكير. كنت اتقبّل ذلك النقد منه والتزم الصمت. أنا على يقين أنّه

أحبني، وقدّر بشكل خاص رغبتي في العمل المستمر دون كلل، وجهودي لإطلاعه على ما يستجد من الموضوعات في الكتب والصحف والمجلات حول الحرب. كما فهمت مدى الإجهاد الذي اصابه حين يلقي خمسة أو ستة خطب في اليوم خلال لقاءاته مع انصاره والمواطنين الآخرين. كان يلتزم جانب الحذر لكي لا يصرّح بشيء يلحق الضرر بحملته أو يجبره على الإنسحاب من المنافسة للترشيح. كما أعرف لماذا كان ينأى بنفسه عن بعض ملاحظات الإعلام، الذي اعتبر حملته مبدأيّا وكأنّها نزوة عابرة وغير جادة. لكنّني لم استطع سبر غوره. لماذا حين يكون عليه أن يلقي خطابا هاما، لا يجلس دائما أو لا يجد الوقت للجلوس مع معدّ خطاباته والخبراء الآخرين ليناقش معهم ما يودّ أن يتطرق اليه، أو أنّه بطريقة ما ليس بادي الحماس حين يتكلم أو يعقد لقاءات صحفية مع المراسلين، الذين يثق بهم؟ هل يريد حقا أن يكون رئيسا؟

في مطلع الحملة الإنتخابية وبعد اسبوع مضنٍ امضاه مكارثي في مصافحة الأيدي والقاء خطب متكرّرة المرة تلو الأخرى، تلقيت مكالمة، ونحن في مدينة مانچستر في ولاية نو هامشر، من منتج برنامج قابل الصحافة، وهو برنامج تلفزيوني مشهور يُعرض صباح يوم الأحد. أخبرني أنّه وخلال آخر دقيقة ألغى شخص ما خططه ليكون ضيفا للبرنامج، وعليه فإنّ المجال مفتوح لصاحبي أن يحلّ محله. سألني إن كان مكارثي يرغب في أن يطير إلى واشنطن ليكون ضيف البرنامج؟ رفض مكارثي الفكرة وأصرّ أنّه متعب للغاية. ولكن كان من الطبيعي أنّه يجب أن يقبل الدعوة. أكّدت له بأنّني سألغي كافة التزاماته لليوم التالي. لا بُدّ أنّه عرف أنّني كنت أكذب. استقللنا الطائرة واجرى المقابلة، وكان عليّ أن ادفع ثمنا باهضا لذلك. كا ن يعرف حقيقة أنّني ومَريلِوس أوتس وآلاف من طلبة الكليات والجامعات، الذين يطرقون ابواب المواطنين، لا نعمل من أجله فقط، بل نريد وضع نهاية للحرب. لقد حظي بتأييدنا لخطبه الذكية وشجاعته، التي لم يظهرها بوبي كندي، بالإقدام على ترشيح نفسه. وهو يعرف جيدا مدى الإحترام والإعجاب الذي نكنّه لشخصه وأنّنا ملتزمون بالوقوف معه دون حدود. لكم رجوته أن يمضي بعض الوقت مع المتطوعين، لكنّه لم يستجب في غالب الأحيان.

من جهة أخرى كانت هناك أمسية في سان فرانسسكو في مطلع الحملة الإنتخابية، حين تقابل مع جري براون، إبن حاكم كاليفورنيا، پات براون، الذي حضر لزيارة مكارثي. كان الشاب براون كاثوليكيا ملتزما درس في دَير يسوعي، كما فعل مكارثي، ليكون راهبا. (أكّد صاحبي أنّ قناعاته الدينية منفصلة تماما عن حملته الإنتخابية). بدأ الاثنان يتحدثان عن المَريوانا. لم يدخّن أيّ منهما القّنب الهندي من قبل، ولم يكن سرّا أنّ بعض الطلبة من المتطوعين للعمل في نشاطنا الصحفي كانوا يفعلون ذلك. سألوا ما الغرابة في الأمر؟ تطلب الامر مني وقتا قصيرا لأحضر عددا من سجائر المَريوانا فأخذا بتدخينها، وانتشيا أو هكذا ارادا وهما يدخنانها لأول مرة. لم يتأثر مكارثي بمفعولها، كما ادعى، لكنّ براون كان منتشيا للغاية. خلال امسية أخرى في سان فرانسسكو ايضا، وبعد جولة من الإجتماعات والخطب المتكررة لاحظت أنّه مجهد للغاية. غير أنّه انتعش حين جلس لتناول بعض الكحول مع صديق له من ايام الدراسة الدينية في مِنسوتا. أصبح هذا الصديق كاهنا ثمّ اسقفا. طلب منّي أن اذهب إلى مكتبة في منطقة نورث بيد لأشتري كتاب شعر واحضر في طريقي زجاجة وِسكي. ومع مرور الوقت تحولت قراءة الشعر إلى قراءة العهد القديم. أخذ كلّ منهما يقرأ مقاطع من الكتاب بصوت عالٍ وكانا يطلقان الضحكات القوية ويعلق الأسقف، «هل تصدق أنّنا نؤمن بهذا الكلام يا جين؟ كان شيئا مسليّا أن تراقبهما وتتعلم شيئا من الخبيرين في دراسة الإنجيل.

اقترب موعد الإنتخابات الأولية للرئاسة في نيو هامشر. كان مكارثي مرشحا ضدّ الرئيس والمؤسسة، التي تقف خلفه. وعليه فإنّ مصير مكارثي وربما مصير الحركة المناهضة للحرب، سيتقرر يوم الإنتخابات بتاريخ 12 مارس. لقد بذل السناتور جهودا عالية أكثر ممّا توقعه اصدقاؤه. يبدأ يومه عادة في واشنطن قبل الخامسة صباحا. كان يسكن قريبا من بيتي ويحضر ليصطحبني معه في سيارته. يتمهّل احيانا لتناول وجبة سريعة من البيض المقلي يتحدث خلالها مع زوجتي. (كان دائما يفضل الحديث مع النساء) ثمّ نطير على أمل الوصول في الوقت المناسب لكي يصافح العمال في مصنع مانچستر قبل أن يبدأوا نوبتهم الصباحية.

جرت الحملة ببطء ولم يكن مكارثي معروفا، كما دللت على ذلك استطلاعات الرأي العام خلال شهر يناير ومطلع فبراير. لكنّنا حصلنا على دعم كان له تأثيره من قبل پول نومَن وروبرت رايَن، وهما نجمان في السينما، ممّن آمنا مثلنا بالمخاوف من الحروب وابديا استعدادهما أن يعملا كلّ ما في وسعهما لمساندة الحملة الوليدة. كان التزام نومَن متحمسا، وامضى العديد من الأيام وهو يتنقل ويلقي الكلمات في اماكن لم يعرفها من قبل في نو هامشر. بعد أن يفرغ من ذلك، كان يلتقي بي ويتحدث مع مَريلِوس أوتس، التي نقلت نشاطها لتكون ضمن جهاز الإعلام للحملة، ليناقش الأسئلة التي اعتقد أنّه لم يملك الإجابة الشافية لها. كان يودّ أن يتعلم. أمّا رايَن فكانت معلوماته مدهشة حقا. كنّا نتناول الغداء يوما وراقبني وأنا اضع الكاچپ على الهمبرگر، فسألني في أيّ حي من احياء شيكاگو نشأت. كيف عرف أنّني من شيكاگو؟ أخبرني أنّ والده كان أحد مسؤولي التنظيم في اتحاد العمال، الذي بسط نفوذه على المدينة. كما انضمّ إلى حملتنا روبرت لِول، شاعر أمريكا المتألق. كان تقارب افكاره مع المرشح واضحا. لم يكن مكارثي مناهضا للحرب في فيتنام، التي كرهها لِول، بل أنّه شاعر في خصوصيته. لطالما شدهني واحبطني أنّه كان يقرأ اشعار المفكرين من امثال جورج سَفرس وغيره بدلا من مطالعة خلاصة الكتب والتقارير عن القضايا المحلية، التي كنت أنا والعَاملين معي ندفع بها إليه دائما.

كان السناتور يلقي ست خطب أو اكثر يوميا خلال لقاءاته مع الناخبين في قاعات المدارس الثانوية والكليات والكنائس، لكنّه كان يستأنس بلقاء لِول بعد أن ينهي ركضه من مكان لآخر، كما شعرت أنا بذلك ايضا. كنّا نحن الثلاثة بصحبة سائق السيارة ننتقل من مكان لآخر ومن مناسبة لأخرى ونحن نحتسي الفودكا المثلّجة أو غيرها من المشروبات الكحولية، في حين كان المرشح والشاعر يعلقان بسعادة ظاهرة على الأفكار والإنتقادات اللاذعة، وقت كنت بلا جدوى أحاول أن اجعله يركّز تفكيره على ما سيقول للناخبين في المحطة التالية. وفي منطقة ما من الولاية طالعتنا على الطريق لوحة كبيرة تحمل صورة نِكسُن مرشح الحزب الجمهوري ومكتوب تحتها «نِكسُن هو المطلوب». علق مكارثي بأنّه ونِكسُن سيكونان أفضل مرشحين عن حزبيهما للإنتخابات. علق لِول قائلا «لنِكسّن كفاءة واضحة.»

وأنا استعيد ذكريات تلك الأيام، لماذا كان لتلك الجملة وقع مؤثر، لكنّها حقيقة كانت في حينها ضربة قاضية قبل بدأ الجولة الأولى تسَدّد للمرشح مكارثي من صديق، فأمضى ساعة وهو عابس الوجه. آثرنا نحن الثلاثة على السكوت وتحاشينا النظر لبعضنا البعض مخافة أن ننفجر ضحكا. لقد أحببت كال، كما كان يفضل أن نسمّيه، وكنت عل ثقة أنّه يعرف أنّني لا افهم شيئا في الشعر ولم أسأله اطلاقا عن حياته الخاصة، رغم أنّه سألني الكثير من الأسئلة عن حياتي خلال

الحملة، التي لا تكاد تنتهي، وغالبا حين نكون جالسين على انفراد. كان يود معرفة ماذا تعلمت من وجودي في البنتگون. أخبرني في احدى المرات، بعد أن تلقى مكالمة من زوجته حينذاك، الزابث هاردوِك، أنّه حين كان محررا في قسم مراجعة الكتب في صحيفة نيويورك تايمز، قد اشترى حقوق طبع كتابي عن الأسلحة الكيمياوية والجرثومية ونشر فصلين طويلين منه.

كان مكارثي شخصا ذا مزاج متقلب، ولا أحد يعرف ذلك أكثر من ابنته مَري، وهي الوحيدة من بين افراد العائلة، التي شاركت في حملة والدها علنا وأبدت مناهضتها للحرب في فيتنام. كانت حينها طالبة في كلية رادكلِف، والتحقت بنا خلال عطل الأسبوع. كنت دائما احرص أن تكون جنبه حين اقدّم له نسخ خطاباته المزمعة أو قائمة المراسلين، الذين يودون مقابلته. سألتها صباح أحد الأيام، كيف حال والدها، فقالت شيئا لا زلت اضحك كلمّا تذكرته، «نافر كعادته.»

حين يشعر مكارثي بالغضب فإنّه يصبّه عليّ، فيعيد على مسامعي بأنّ مهمتي ليست «جعل الصحافة تحبك، بل تحبني. لقد احاطوا بي وجلسوا في مؤخرة سيارتي». كان حريصا أن يوجّه نقده الشديد بحضور لِول أو أحد المتبرعين الكبار لحملته. أتذكر أنّه في إحدى الأمسيات علم في نهاية اليوم أنّني اصدرت تصريحا باسمه قائلا «أنا أعتقد». أعاد تلك العبارة مرة بعد أخرى وذكر «إنّ الجميع يعرف أنّني لا أتلفظ بتلك العبارة، أنا أعتقد». طبعا هو قالها، ولكن في تلك اللحظة تذكرت حنان أبي رغم ما بدر منه نحوي. بالتأكيد كنت أخشى إزعاج مكارثي ولطالما تشوقت لإسعاده، ولكن ليس كثيرا كما الآخرين.

كانت هناك مناسبة في اواخر الحملة، حين تأكد لي أنّني تجاوزت الحدود وسيلقى بي للخارج. كنا في طائرة تجارية متوجهة من واشنطن إلى مانچستر، حين اقترب مني الطيار ليخبرني أنّه تلقى نبأ أنّ جورج رومني، الحاكم الجمهوري المعتدل لولاية مِشيگن قد اعلن لتوه انسحابه من انتخابات الرئاسة. وزاد على ذلك أنّ عددا كبيرا من الصحفيين والمراسلين سيكونون في الإنتظار في المطار لدى وصولنا. لقد تعرّض رومني للسخرية المستمرة من قبل الإعلام بعد زيارة له لفيتنام الجنوبية حين ادعى أنّه تعرض لعملية «غسل الدماغ» عن طريق البيانات الإعلامية التي تلقاها هناك. كان انسحابه فرصة كبيرة لنا، لأنّ قواعد الإنتخابات الأولية في ولاية نو هامشر تسمح للناخبين المستقلين أو غير المسجلين أن يصوتوا لأيّ مرشح يختارونه، بغضّ النظر عن الحزب الذي ينتمي اليه. كما أنّ استطلاعات الرأي التي قمنا بها تشير إلى أنّنا سنحصل على بعض اصوات ممّن كانوا سيصوتون لصالح رومني، فكتبت مذكّرة مشفوعة بالإحصاءات حول الناخبين الجمهوريين الذين يمكن أن ينال اصواتهم. أخبرت السناتور أن يمتدح رومني لجهوده وحبه الكبير لخدمة الصالح العام. من المؤكّد أن مكارثي لا يحتاج أن يخبره أحد كيف ينال اصوات الناخبين، لكنّ الفرصة في رأيي جديرة بأن نستغلها. راقبته بهلع وهو يقرأ بعض صفحات مذكرتي وتوقف ثمّ بدأ يمزقها واحدة إثر أخرى. المشكلة قادمة. إنّني اخبرته كيف يفكر.

حين لامست طائرتنا مدرج المطار هرع الصحفيون لاستقبالها. كانت الطائرات في ذلك الوقت تقف على مبعدة من المبنى ويمشي الركاب نحو قاعة قدوم المسافرين. كان مكارثي أول من غادر الطائرة وأنا خلفه. كان يوجد عدد غفير من المراسلين وممثلي الصحف. ما حدث بعد ذلك كان امرا شاذا عن القاعدة. حين هدأ الجميع، افتتح مكارثي تعليقه بالقول أمام سيل الكامرات واجهزة

التقاط الصوت، أنّه قدر تعلق الأمر «بعملية غسل دماغ رومني، فإنّ عملية غسل طفيفة أخرى ستزيل أثر الأولى». فوجئ الجميع للحظة أو لحظتين، وبعد استيعاب ما قال ضجّ الحضور بالضحك. قفزت امامه وأنا الوح بذراعيّ لأخبر الجميع أنّ السناتور لا ينوي عقد مؤتمر صحفي. كما أنّني قلت كلاما آخر ربّما فسح المجال أمام المسافرين الأبرياء لكي يمرّوا ويتوجهوا نحو قاعة القادمين. نجحت الفكرة فتفرق الحضور من مراسلي الوكالات واجهزة الإعلام فرفعوا كامراتهم ومعداتهم الأخرى، وانتقلنا إلى غرفة داخل مبنى المطار. لم اصدق أنّ منتسبي جهاز الإعلام المتواجد في المطار قد سمحوا لصعلوك مثلي أن يدفع بهم جانبا بمثل ذلك الأسلوب.

راقبت جهاز التلفزيون وأنا في حالة رعب ذلك المساء. لم تتطرق أيّ من محطات التلفزيون إلى ما جرى حول انسحاب رومني. الصحيفة الوحيدة التي تطرقت للموضوع بسخرية هي لندن سَندي تايمز، التي اقتبست ما قاله مكارثي حرفا بحرف. لقد كان فريقهم للإستقصاءات الصحفية موجودا لتغطية اخبار الإنتخابات الأولية. شعرت أنّني فعلا حميت صاحبي من اسلوبه المشاكس ذلك اليوم. لم يقل لي شيئا حول ما جرى لكنّه عرف أنّني حميته من نفسه. إعتقدت أنّني اقوم بعمل سيء لأنّ تعليقه ذكي ومضحك في نفس الوقت، لكنّ مهمته في تلك اللحظة هي أن يحرز اصوات الناخبين في نو هامشر، بالذات من كانوا يؤيدون رومني. كان على السناتور أن يعرف أنّه لا يوجد طريق وسط حين يكون مرشحا للرئاسة وإنهاء الحرب في فيتنام.

بعد مرور ايام قليلة وخلال رحلة طيران أخرى بدأ فيها يتقوّل على مجلس الشيوخ، فتجرأت وسألته عن اصدقائه ممّن يحضرون احيانا لبعض المناسبات. أنا اعرف مثلا بطريق الصدفة أن توم مككوي هو مسؤول وكالة الإستخبارات المركزية في لاوس. اخبرني بذلك جار لي وهو فنان خدم بإمرته هناك. من الصعب أن تكره مككوي، الذي كان حاضر النكتة ويسخر من الجميع، بما فيهم نفسه وماذا يعمل ومع من. كان كاثوليكيا ملتزما، حاله حال مكارثي واعتقد أنّ علاقتهما قد توطدت عن طريق الكنيسة.

قلت له أنّني اعرف أنّ مككوي يعمل لصالح CIA، فكان ردّه «وما الغرابة في ذلك؟ كثير من الناس الخيرين انضموا للوكالة بعد الحرب العالمية الثانية على أمل دحر الشيوعية وجعل العالم أكثر أمنا». لقد قرأت كثيرا لأعرف أنّ حزب مكارثي السياسي، وهو حزب العمال والفلاحين الديمقراطي كان يتبع سياسة اجتماعية ليبرالية تعتمد على النقابات ومساعدة الدولة لخدمات السكك الحديدية والماء والكهرباء، إضافة إلى العداء للشيوعية العالمية. ثمّ اضاف من عنده، ودون أن أسأله، أنّه ممتنّ للوكالة لأنّها وقفت مع انتخاب كندي. ذكر لي القليل عن جاك كندي لكنّه كان شديد النقد في حلقاته الخاصة حين تكلم عن اخيه بوبي، وقال لي كما قال للآخرين أنّه أذكى وكاثوليكي أفضل من بوبي. واضاف أنّه حتى كلبه كان أكثر ذكاء من كلب عائلة كندي المشهور (برونو)! ذكر أنّه قام بتكليف من جون كندي بزيارات لقادة أمريكا اللاتينية الكاثوليك، خصوصا چلي، ومن ضمنها تدبير تسليم حقيبة تحتوي على 50 ألف دولار من ميزانية CIA لأحد القادة المناهضين للشيوعية. قام جِري إلر بتسليم تلك الحقيبة شخصيا. ذكر مكارثي، بما شعرت فيه تفاخرا أنّه لم يحضر إلى البيت الأبيض لزيارة الرئيس، بل التقى به في امكنة اخرى.

لقد ازداد انزعاجي أكثر من تلك الأقاويل، فمن جهة حرّض ضد جاك كندي لتجاوز سلطته الرئاسية والتورط في فيتنام. وبعد خمس سنوات أصبح هذا الموضوع عنصرا اساسيا في حملته ضدّ لِندن جونسُن. وبسبب ثقته العالية بي فإنّي قدّرت شجاعته ولم اعتقد في السابق ولا حتى الآن أنّ لوكالة المخابرات المركزية يدّ في حملته، وليس لها علاقة بقراره لمنافسة جونسُن. لكنّني طبعا على علم تامّ بما كانت تقوم به من عمليات القتل والتشويه في فيتنام. اعتقدت أنّ هناك الكثير ممّا يجب فضحه، ولكن ليس فقط خلال الحملة الانتخابية. (تقابلت حينها ومن خلال مكارثي بعدد من العارفين الذين ابدوا مساعدتهم الكبيرة لي لكتابة تقاريري عن وكالة المخابرات المركزية في السنوات التالية.) طبعا لم افصح له عن آرائي حول الوكالة، في الحقيقة لم نثر الموضوع اطلاقا خلال نقاشاتنا.

كان هدفنا ينحصر في اسقاط جونسُن وانهاء الحرب في فيتنام، وكان الوقت لا يزال اواخر شهر يناير. حصلنا في احدى الأمسيات حين كنا في مدينة برلين الصغيرة في عمق ولاية نو هامشر، على دفعة قويّة من التأييد. سمعت بعد يوم طويل طرقا خفيفا على بابِ غرفتي في نزل صغير. ولدهشتي حين فتحت الباب أنّ الطارق في تلك الليلة الباردة هو رچرد گدوِن. كانت هناك اشاعات في الصحف أن گدوِن المخضرم المعروف خلال إدارتي كندي وجونسُن، والمشهور باعداد الخطب عن الحقوق المدنية للرئيسين المذكورين، قد أصيب بالخيبة لأنّ بوبي كندي رفض أن يترشّح للرئاسة، وأنّه كان يفكّر في الإنضمامِ إلى حملتنا. وها هو الآن يأتي إلى غرفتي في مكانٍ قليل الأهمية بالنسبة للحملة. لقد روى رچرد گدوِن فيما بعد قصة مختلفة عن لقائنا ذاك. لكنّني اتذكّر كلماته جيدا كما اتذكر ما سمعته من آرنولد دونفِلد في مكتب صحيفة اخبار اليوم. لقد احضر معه آلة طباعة كهربائية وبحركة تمثيلية القاها على فراشي قائلا، «أنا وانت يا رجل وآلة الطباعة هذه سنُسقِط الرئيس!»

كان گُدوِن شابا عبقريا في رأي جاك كندي، فهو الذي تخرج على قمة صفه في كلية القانون بجامعة هارفرد، وعمل محررا في المجلة القانونية التي تصدرها الجامعة. وهو الآن يتطوّع للخدمة في حملتنا الفقيرة. تشاجرنا كثيرا، فقد كنت اغار منه لأنّ مكارثي كان يسعد بالحديث مع شخص ناضج يعرف كيف يكسب النقاط. لكم كان متعبا للسناتور أن يتحمل ما يبدر عن الهواة المستجدّين على الميدان السياسي من امثالي، الذين هدفهم الوحيد من الإنضمام لحملته والتطوع ليس قناعة به، كما ذكرت من قبل، ولا بنجاحه السياسي، بل هدفهم هو إيقاف الحرب. ثمّ كان هناك شيء حول دوافع رچرد. أحببته واعجبت به وتقاسمنا جناحا في فندق مانچستر وجعلناه مركزا للحملة الإنتخابية في نو هامشر. لكنّني تعبت بسرعة من سماع صوت تد كندي وهو يتصل تلفونيا وبشكل مستمر ليتحدث مع رچرد. أخذ لكثرة تكرار مكالماته يناديني باسمي الأول ساي. كان واضحا أنّه لو استطاع مكارثي نيل الأصوات باعتباره مرشحا اضاف الناخبون اسمه على قوائم الإقتراع في انتخاباتِ نو هامشر، فإنّ بوبي سيعمل نفس الشيء وستكون تلك الخطوة نهاية لحمل مكارثي. يعرف گدوِن كافة الأمور عن اسرار حملتنا، بما فيها ارقام استطلاعات الرأي العام وكمية الأموال المتوفرة للحملة، وكنت على ثقة أنّه نقل تلك المعلوماتِ إلى كندي. وعليه ايقظت مكارثي من نومه في صباح أحد الأيام في وقت مبكّر لأخبره بما كان گدوِن يفعل. رمقني بنظره ماكرة وهو ما زال في بجامته وقال، «لا ادري ذلك، لكنّه امر جيد أن يكون بين صفوفنا جاسوس ليجعلك دائم الحذر».

شعرت بالذهول للمرة الثانية، هل يريد صاحبي حقا أن يكون رئيسا؟ إذا لم يكن الأمر كذلك، فما أنا فاعل هنا؟

حدث شيء رئيسي غيّر مجرى الحرب في آخر يوم من ايام شهر يناير، حين شنّت وحدات من جيش كوريا الشمالية مدعومة بحلفائها في الجنوب من قوات الفيتكونگ، سلسلة من الهجمات المنسقة خلال عطلة رأس السنة، حين كان مقررا سريان وقف اطلاق النار. راقب الأمريكيون وعلى مدى الأسبوعين التاليين برعب وغضب، وهم يرون مواقع قوات فيتنام الجنوبية ومدنها تقع في ايدي المهاجمين، ووصل الأمر حدّ الإستيلاء تقريبا على مقر السفارة الأمريكية في سايگون. وفجأة اتضح الأمر أكثر بأنّه ليس بوسع أمريكا الإنتصار في تلك الحرب. ازدادت اعداد طلبة الجامعات والكليات المشاركين في التظاهرات المناهضة للحرب وازداد معها التأييد لترشيح مكارثي في ولاية نو هامشر وفي كافة انحاء البلاد. بدأت استطلاعات الرأي العام تتزايد بشكل متواتر واكثر ممّا سبق. وبدأت الدائرة الصحفية للحملة تتلقى مزيدا من الطلبات لغرض المقابلات الصحفية والتلفزيونية. شرعنا نفكر بالاستعداد للإنتخابات الأولية في ولاية وسكنسن، حيث يعرف سكانها إبن ولايتهم المجاورة منسوتا، جيدا.

استمرت الحملة، التي ينقصها التمويل، لكنّ هناك أمل بأنّنا سنحصل على البعض منه في وسكنسن. تمّ في عصر أحد الأيام استئجار طائرة خاصة، لم اعرف من كان وراء الفكرة ومن تحمل كلفتها، حين طرت مع مكارثي للقاء مجموعة من المتبرعين في مدينة ملواكي. أخبِرنا أنّ عددا من الأثرياء من مناهضي الحرب، اغلبهم من اليهود، يودّون مقابلة السناتور. جاء معنا على متن الطائرة هاري كلي، وهو زميل اعرفه منذ ايام وكالة الأسيوشيتد برس. كان ذكيا ساحرا وامضى هو ومكارثي وقتا ممتعا وهما يتحدثان عن الكتب والأفلام وتقلبات امزجة اعضاء مجلس الشيوخ وتغيّر ولاءاتهم، وغيرها من الأمور، دون الإشارة إلى الحملة أو اللقاء المرتقب. لم اكن راضيا عن ذلك، ولكن ماذا كان بوسعي أن افعل. إذا كان مكارثي يجد متعة في صحبة هاري، فلربّما يكون من السهل عليّ أن اجعله يمضي بعض الوقت مع المراسلين الآخرين.

حطت الطائرة في وقت يتناسب مع موعد اللقاء لجمع التبرعات، الذي كان مقررا له أن يبدأ في الساعة الثامنة مساء. في طريقنا من المطار إلى المدينة مررنا بدار للسينما كانت تعرض فلم يولِسيس المقتبس عن رواية جَيمس جَويس. طلب السناتور من سائق السيارة أن يتوقف وطلب مني أن اذهب لأستفسر عن موعد العرض. رجعت والفزع يتملكني لأخبره أنّ العرض سيبدأ بعد قليل. قال مكارثي وهو يفتح باب السيارة، «هيّا يا هاري، اعرف أنّهم يستعملون الكثير من الشتائم والكلام الفاحش!» فكرت لحظة ثمّ سألته وهو يغادر مقعده في السيارة عمّا سأقول لأولئك الذي حضروا واحضروا معهم دفاتر شيكاتهم. ضحك وقال، «إخبرهم أنّني استطيع أن أشقّ بعصاي البحر!» ومشيا صوب مدخل السينما.

كانت تلك المناسبة كارثة. تحدثت إلى الأثرياء الذين شعروا بالإهانة، رغم ابلاغي لهم عن مدى أسف السناتور لعدم قدرته على الحضور بسبب وعكة صحية طارئة. لم يبلغ مجموع التبرعات في تلك الأمسية القدر الكافي لتغطية كلفة استئجار الطائرة الخاصة، لو كان علينا دفعها. شعرت بالإحراج ولم اجد في نفسي الجرأة لأطلب مزيدا من التبرعات. قرّرت حينها أنّني سوف لن اذكر ما

جرى في تلك المناسبة، ولم افعل حتى كتابة هذه المذكرات. لقد تأكّد لي أنّ مكارثي مرائي في سلوكه بسبب وجود هاري، ولم افهم تصرفه بعدم حضور مناسبة جمع التبرعات الضرورية لزيادة فرصه للحصول على ترشيح الحزب الديمقراطي له في انتخابات الرئاسة. سوف لن نكون قادرين على مواجهة جونسُن في انتخابات نو هامشر، قدر تعلق الأمر بأموال حملته الإنتخابية. من المطلوب منّا عدم المغامرة ونحتاج إلى الكثير من الدعاية والإعلانات في الصحف والإذاعة والتلفزيون. وهذه تتطلب الكثير من المال.

كما كانت هناك عقبات أخرى. لقد بدأنا نحظى بتغطية اعلامية أكبر، ووجدت نفسي مضطرا لتوضيح اسباب حذف بعض المقاطع من الخطب المعدة التي نوزعها مقدما على مندوبي الإعلام، حين يلقي السناتور خطاباته المذكورة. من المقاطع التي تحاشى ذكرها مقطعا يظهر التزامه القوي بأن يصرّح علنا إنّه سيضمن قدرا معينا من الدخل السنوي لكلّ مواطن امريكي. وهذه فكرة جاء بها شاب من المتطوعين بعد أن اجرى بحثا عميقا عن الموضوع. كانت الفكرة اقتراحا من ستيفن كوِن، الذي ترك الدراسة في كلية آمهرست ليعمل مع قسم الإعلام في الحملة. سألته عن مصدر تلك الفكرة، فأخبرني أنّها كانت وليدة مكالمة هاتفية مع وِلبر كوِن، وزير الصحة والتعليم والضمان الإجتماعي في إدارة جونسُن. كانت فكرة مثيرة للإهتمام. لقد استطاع ستيفن بطريقة أو باخرى من معرفة رقم هاتف منزل كوِن الخاص، فاتصل به في إحدى الأمسيات واخبره أنّه أحد المتطوعين في حملة مكارثي الإنتخابية، وأنّه يسعى للحصول على بعض الأفكار من اشخاص شغلوا أو يشغلون مناصب هامة. لم تكن مثل تلك الخطوات الجريئة غريبة على المتطوعين الشباب العاملين مع أوتس. ومثله كانت نانسي لِيتُن، التي تجيد بمهارة عالية طباعة مسودة الخطب صباح كلّ يوم لتكون جاهزة حين التقي بالسناتور. اتذكّر أنّها جاءت إلى غرفتي في وقت مبكّر لتشكو من الأسلوب الغريب وكثرة الأخطاء في استعمال الفواصل والنقاط. كانت نانسي زميلة لابنة السناتور في كلية رادكلف وكانتا تتقاسمان نفس الغرفة في القسم الداخلي. (لاقى ستيفن كوِن ونانسي لِيتُن نجاحا كبيرا في الحياة الأكاديمية فيما بعد.) أصبح نشاط ستيفن جزء مهما من عملي وعمل مِريلِوس أوتس، وكنا نحن الثلاثة نسافر سوية. حدث في وقت متأخر في إحدى الأمسيات أن وجدنا انفسنا متعبين في غرفة واحدة، بعد أن طلبنا حجز ثلاث غرف منفصلة. لم يكن هناك مناص من النوم في تلك الليلة بملابسنا في غرفة في نزل مجهول في مكان ما من نو هامشر.

كان يجب أن اخبر مكارثي عن مصدر فكرة ستيفن كوِن، لكنّني خشيت أنّه سيحذف أيّة فكرة من بنات افكار الوزير وِلبر كوِن، حول الإلتزام بدخل سنوي لكلّ مواطن أمريكي. وعلى أيّة حال جاءني الخطاب معدّلا بعد ساعة، وكنت اخبرت قبلها عددا كبيرا من المراسلين أنّ السناتور لن يحذف شيئا من خطابه المعدّ، فأرسل هؤلاء التقارير إلى صحفهم. عبّروا عن انزعاجهم، وكان لهم الحقّ في ذلك الغضب. ذكرت لهم عذرا اعرج فحواه أنّني لم افهم قصد السناتور حين اعددت ذلك الخطاب. بعد أن فرغ مكارثي من القاء خطابه هذا ومرّ بجانبي وأنا أقف في جانب المسرح يملأني شعور قويّ بأنّه خذلني هذه المرّة ايضا. سألني، «ما رأيك؟» فكان ردّي، «إنّه خطاب ناقص!» حين وصلت إلى بار الفندق في ذلك المساء، اخبرني بعض مراسلي الصحف أنّني في طريق الصدام مع السناتور، وأنّني سأخسر وظيفتي. كنت على وشك القول، «إنّ تمردّه سينتهي»، لكنّني امسكت لساني.

أمسكت لساني أيضا عن ذِكر سلوك السناتور المحتقر إزاء موضوع جمع التبرعات وكذلك عن تلذذه بسماع قصص دِك گدون واحاديثه عن آل كندي. شكوت بحرارة لمن يعملون معي وكذلك أمام پول نومَن وكال لِول من السناتور وكان ذلك بدافع الودّ والإحترام، الذي أكنّه له، كما يعرف كافة هؤلاء. كما أنّني عبّرت عن ضيقي من شكوى مكارثي حول الشباب المتطوعين للحملة، ومطالبتي له بأن يقابلهم ويمضي بعض الوقت معهم. لم يستجب لذلك وحجّته أنّ من تركوا الدراسة لكي ينظمّوا للحملة ويذهبون لطرق الأبواب من بيت لآخر، ما فعلوا ذلك حبّا به، لكنّهم يستغلون الحملة للتعبير عن غضبهم من حرب فيتنام. كان سماع مثل هذه الأقوال مخيّبا للآمال فعلا.

كما تعرضت الحملة للمضايقة بسبب حقد زوجته أبيگيل وهواجسها. إتصلت بي في وقت مبكر من الحملة لتعترض على وجود صورة ابنتها على بعض إعلانات الحملة. هل هذه المرأة تمزح أمّ ماذا؟ اخبرتها أنّني لست السكرتير الصحفي لها، بل لزوجها. كان ذلك خطأ، ويبدو أنّها وضعتني على قائمة الأعداء إلى الأبد. يظهر أنّ قوّتها متاتية من خوف زوجها منها، وبالتالي خوف اعضاء مكتبه منها ايضا. (جدير بالذكر انّهما انفصلا في العام التالي) وكما عرفنا سريعا أنّ اثنين من المتبرعين الكبار للحمله قد ساهما بتوفير المال معزّة بها. كما أنّها أخافت كرِتس گانز، المسؤول السياسي للحملة، الذي كان يدعو دائما إلى اجتماعات كنت ارفض حضورها. رأيت في گانز ومساعديه نموذجا للسياسي الإنتهازي، الذي يضحي بالمبادئ من اجل نيل الأصوات, وشعرت أنّهم قلقون بشأن مستقبلهم في الحملة وفي البيت الأبيض، حين يسكنه مكارثي. كانوا بهذا يختلفون عنّي وعن المتطوعين معي لإيقاف الحرب. لقد عملت في مطلع الحملة من أجل أن يصبح الذكي هارولد آيك مسؤولا عنها في نو هامشر، غير أنّ ذلك لم يتحقق.علمت فيما بعد أنّ آيك اراد سيطرة كاملة لكنّ گانز وبلير كلارك لم يقرّا له بذلك. كنت دائما التقي به حين يحضر إلى نو هامشر في بعض المرات. كان يعجبني لسخريته المرحة مني حين يقابلني بتحية تشبه الغناء، «الصوص الصغير هنا وربّما سينقلب العالم رأسا على عقب». كان على حق، ولم يجد حاجة لقول ذلك خلف ظهري.

ظهرت قلة صبر مكارثي وحيلته أمام زوجته بشكل واضح في ليلة كنّا نقضيها في بوسطن. أعددنا كتيّبا صغيرا من 12 صفحة وضعنا فيه خلاصة لمقالات مهمة وتصدرته صورة جميلة لأسرة مكارثي. كان مقررّا أن نوزعه مع كافة صحف يوم الأحد في ولاية نو هامشر خلال آخر عطلة اسبوع قبل بدء الإقتراع. بعثت الدار التي تعدّ الكتيب في نيو يورك بنسخة فوصلت في ساعة متأخرة إلى الفندق حيث نقيم، قمنا أنا والسناتور بمراجعتها واعطينا قبل أن أذهب للنوم إشارة البدء بطبع مئات آلاف النسخ. بعد فترة وأنا اغطّ في نوم عميق، رنّ الهاتف فايقضني. طلب منّي السناتور أن احضر إلى جناحه. يبدو أنّ أبيگيل قد تسلمت نسخة من الكتيب بُعثت إلى بيت السناتور في واشنطن. كانت منزعجة للغاية من وجود صورة الأسرة وبعض محتوياته ولغته، التي ذكرت بأنّها ستزعج الناخبين الكاثوليك. كان السناتور في ملابس نومه. رفع سماعة الهاتف واخبرها أنّني موجود معه في الغرفة، أنا عدّوها اللدود جالس أمامه. أعاد على مسمعي شكاواها وكانت بطبيعة الحال تسمع ما يقول، ثم أمرني بصوت صارم أن اجري التغييرات التي طلبتها زوجته. قلت له «نعم، يا سيدي»؟ كان المفروض أن اقول له، «هل أنت مخبول؟» كان الكتيب في مرحلة الطبع ونحن نتحدث. سألها إن كان ذلك كافيا، فردت أنّها مقتنعة، فأقفل الخط. قام من كرسيّه وهزّ كتفيه وابتسم بشكل دافئ، وقال إنّه سيراني في الصباح. كنّا في تلك اللحظة قريبين جدّا من بعضنا البعض. لقد عرف أنّه رماني للذئاب، في هذه الحالة زوجته، وتصرف بطريقة جبانة، ترتب عليها

أن أدفع أنا الثمن. ذكرت أبيگيل لأصحابها الأثرياء المتبرعين أنّني تحدّيت زوجها بشكل مقصود. لقد اعطاني السناتور، أنا سكرتيره الصحفي، أمراً، وأنّني في عالم أبيگيل، قد كذبت عليه، بدليل أنّ الكتيب قد وزّع دون تعديل!

حقق مكارثي نجاحا مشهودا في نو هامشر بتاريخ 12 مارس، إذ حصل على نسبة 42 بالمئة من الأصوات باعتباره مرشحا من قبل الناخبين، الذين اضافوا اسمه إلى قائمة الإقتراع write-in candidate. أدرك جونسُن أنّ حياته السياسية قد شارفت على الإنتهاء، لكنّه انتظر حتى يوم 31 مارس ليعلن أنّه لن يترشح ولن يقبل به حتى لو كلفه الحزب بذلك. قفز عندها بوبي كندي إلى الحلبة وترك دِك گُدوِن حملتنا ليلتحق به. سيكون بوبي معارضا عنيدا للحرب، كما كان مكارثي، في حين كنت أنا افكّر بالعودة إلى ما كنت جيّدا فيه من قبل، وهو العمل كمراسل. عادت مجموعة المتطوعين، التي كانت تعمل معي، إلى واشنطن بقيادة جشوا لِسندورف. استأجرنا طائرتين من شركة أمريكَن أيرلاينز لنقل السناتور وجهازنا المتنامي وعددا من الصحفيين والمراسلين المحليين والأجانب، الذين رافقونا من مكان لآخر. طبعا، كان هؤلاء يدفعون اجور نقلهم بالطائرة. أخذ لِول استراحة من الحملة، وكذا فعل نومَن رايَن. اصبحت الآن اعمل وكأني وكيل في شركة سفر اجمع اجور نقل الصحفيين معنا بالطائرة. هل أنا حقيقة اصلح لعالم السياسة؟

ثم كانت هناك لحظة طغى فيها عليّ وأنا في مدينة ملواكي شعور اقنعني بأنّ مكارثي، بوجود بوبي في حلبة المنافسة، بدأ يشعر أنّه وقع في مصيدة حملة لن تكتب لها الحياة. ما زال الترشيح الرسمي للحزب مفتوحا، ولكن هناك الكثير من العقبات، التي لا بُدّ من تخطيها. لو كان مكارثي الكاثوليكي بطمح بالحصول على ترشيح الحزب، فيتعيّن عليه أن يتعاون مع رجرد دَيلي، عمدة مدينة شيكاگو. يقود دَيلي وفد ولاية إلنوي إلى مؤتمر الحزب، ومعروف عنه ميلة إلى أسرة كندي. حين كنت مراسلا لوكالة الأسيوشيتد برس، كتبت بشكل تفصيلي عن الفساد المستشري في جهاز شرطة شيكاگو، وصراحة كنت أكنّ للعمدة هذا احتقارا بالغا. ولكن على أيّة حال، اخبرني احدهم، لا اتذكّر بالضبط مَن، أنّ دَيلي سيكون مسرورا إن تلقى مكالمة من مكارثي. اعطيت رقم دَيلي الخاص وافضل وقت للإتصال به. كان عليّ أن اضع مشاعري حول الرجل جانبا، وأنقل رغبته للإتصال بالسناتور. وجدت مكارثي يتناول الغداء مع لِوِل، الذي استأنف التحاقه بالحملة مع الصحفية مَري مگرگوري واثنين من كبار المتبرعين. تقدمت نحوهم وانتظرت لحظة مناسبة لأهمس بأذنه فحوى الرسالة، غير أنّه تجاهلني. اضطررت لمقاطعة الجلسة ونقلت له الرسالة همسا. فاجأني بتصرف لئيم لم اعهده فيه من قبل، حين اعلن للحاضرين بصوت عال، «إنّ ساي هيرش جاء إلى هنا ليطلب منّي أن أتملق للعمدة دَيلي». وبطبيعة الحال، لم يقم بتلك المكالمة المرتقبة.

بعد مرور أيام معدودة، علمت أنّ مكارثي قد اقتنع بفكرة كرتِس گانز أنّه سيحصل على نسبة عالية من اصوات الناخبين البيض في وسكنسن إذا الغى سلسلة مخطط لها من اللقاءات والإجتماعات في الأحياء السكنية للسود في ملواكي. كان موضوع العنصرية قضية معقدة بالنسبة إلى السناتور. وهذا لا يعني إطلاقا أنّه عنصري أو متعصّب، فقد كان ثابتا في انتقاداته العلنية لقرار سياسي جديد في البنتگون في عام 1966 لتسهيل عملية الإلتحاق بالخدمة العسكرية. وهي سياسة وضعها روبرت مكنمارا ونجم عنها ازدياد نسبة السود ومن يتكلمون الإسپانية ليلتحقوا في الصفوف

الأمامية في حرب فيتنام. لقد عملت إدارة جونسُن على «تغيير الوان جثامين ضحايا الحرب». صرّح مكارثي واعاد القول مرّة إثر أخرى في خطاباته أنّ الإدارة تحاول أن تقلل عدد الجنود البيض من ابناء الطبقة الوسطى للحدّ من تصاعد حركة مناهضة الحرب. لكنّ السناتور بطريقته الخاصة لم يعرف أساسا اضفاء الطابع العنصري لصالح البيض في امريكا. ببساطة، إنّه لم يستطع ابداء أيّ ارتباط أو تفهّم لغضب السود الأمريكيين. في مطلع الحملة، استطاع شاب اسود من قادة الحركة العمالية في ديترويت إسمه جون كونييه، الذي أصبح فيما بعد عضوا في الكونگرس لفترة طويلة، أن يرتب لقاء للسناتور مع قادة الحركة المدنية للسود وبعض مسؤولي نقابات العمال، فكان لقاء كارثيا. تحدّث فيه مكارثي عن مشاركة طالب زنجي له في غرفة القسم الداخلي في مرحلة الدراسة. اضطررت أن أعدّ له مذكرة طويلة حول العنصرية، حاولت التأكيد فيها على نقطة فحواها أنّه ليس من الضروري أن يؤمن بوجود مشاعر عنصرية لدى المواطنين البيض، لكنّه يحتاج إلى الإعتراف بأنّ اعدادا كبيرة من السود يعتقدون ذلك. لقد جعلتها مهمة في عاتق مَري مكارثي، التي تعرف والدها جيدا أكثر من أيّ شخص آخر، أن تجعله يقرأ تلك المذكرة.

إنّ ذلك التاريخ المصحوب بقلة احترامي وثقتي بگانز جعلني ومَريلِوس أوتس واكثر العاملين معنا، نشعر بحالة من الهلع لدى سماعنا أنّ السناتور قد وافق على الغاء كافة لقاءاته المخطط لها لأحياء السود. لم اصدّق أذني حين سمعت الأخبار، فتوجّهت إلى جناحه في الفندق وكدت اشتبك بالأيدي مع الشخص المكلف بحراسته. حين خرج من الجناح اخبرته بما سمعت، وسألت إن كان ذلك صحيحا. أجابني ببرود أنّ الأمر لا يعنيني. وهنا انتهى كلّ شيء. إنّه مرشح للرئاسة وبالنسبة له تصبح القضايا الأخلاقية، كما اعتقدت، تحتل المرتبة الثانية بعد نيل اصوات الناخبين. لقد كشف ديمقراطيو أمريكا عن رأيهم في حرب فيتنام، وأنا قمت بواجبي في هذا الصدد. تركت الحملة عصر اليوم التالي، وكذلك فعلت أوتس. لقد امضينا معا ثلاثة شهور نحمي بعضنا البعض وندعمه، واصبحنا على قناعة أن لا شيء أهمّ ممّا فعلناه، رغم حالة الجنون، التي كانت طاغية.

اخبر أحد المقربين من أوتس مراسلا لصحيفة نويورك تايمز بأمر استقالتنا فأصبحت حديث الصحف والتلفزيون ليومين أو ثلاثة. ذكّرتني أوتس بعد سنوات أنّ إشاعة استقالتنا كانت سارية حين قفزنا فعلا من حافلة للحملة قبل الوصول إلى مكان تجمّع انتخابي في مدينة ستيفنز پوينت الصغيرة في وسكنسن. ركضنا في الشارع بصحبة عدد من المراسلين وشاهدنا روبرت لِول جالسا على الحشيش في انتظار موكب السناتور. لوّحنا له بالأيدي، وقلنا بفرح، «وداعا يا كَال لِول، وداعا ياشاعر نوبل!»

طرت إلى واشنطن وسلمت على افراد عائلتي وذهبت إلى فراشي لأنام. لم أردّ على المكالمات ولم ألقِ تصريحا صحفيا، واحتفظت بتجربتي عن السياسة الوطنية لنفسي. لقد ساعدت على التخلص من رئيس، لكنّني لم افلح في وقف الحرب. كان لديّ كتاب جاهز للطبع بعد اسابيع قليلة وعندي الكثير من الأفكار التي يمكن أن اصوغها في مقالات للمجلة. لقد قررت أن أضع السياسة الوطنية خلفي.

إتصل بي مكارثي بعد اسابيع قليلة. لم اعتذر له ولم اتوقع اعتذارا منه. بدلا من ذلك، كان يريد أن يعرف إن كنت ارغب بالعودة للحملة لأساعد في كتابة خطبه وأعدّ بعض الوثائق لشرح مواقفه. أخبرته بأنّني غير متأكد من ذلك. قال لي إنّه سيتصل بي أحد ما لنستمر في هذا الحوار، لكن لا أحد اتصل بي. لم تعد لي علاقات رسمية بالحملة التي استمرت حتى اغتيال روبرت كندي وانعقاد مؤتمر الحزب الديمقراطي في شيكاگو، وما صاحبه من العنف والفوضى، وانتهى بترشيح نائب الرئيس هيوبرت همفري. برأيي أنّ مكارثي أفضل منه بكثير.

ظهرت في أواخر الصيف فكرة حين اتصل بي آدم ولنِسكي أحد مساعدي الراحل بوب كندي، وطلب إن كان ممكنا أن أتصل بمكارثي لأعرف منه إن كان راغبا في تأسيس حزب رابع. كان جورج والاس، حاكم ولاية الباما ومرشحا في عام 1968 بهدف اسقاط كلّ من الديمقراطي همفري والجمهوري نِكسُن. وافق السناتور على الفكرة، فذهبت برفقة ولنِسكي وعدد آخر من انصار كندي إلى بيت السناتور. أخبرنا مكارثي أنّه يتوقع الفوز في اربع ولايات، هي منسوتا ووسكنسن ونو يورك وكاليفورنيا. وهذه كافية لضمان فوز والاس. كنت متأكّدا أنّه ما كان جادّا معنا.

لم يكن هناك مرشح رابع وفاز نِكسُن في الإنتخابات التي جرت في نوفمبر، واستمرت بفوزه الحرب. وكان حدث نفس الشيء لو فاز همفري فيها. بدأ مكارثي يبتعد تدريجيا عن تيار الحركة السياسية المعهودة. إنفصل عن زوجته أبيگيل عام 1969، لكن الكثير ممّن شاركوا في الحملة عرفوا أنّ تلك الزيجة قد انتهت منذ زمن، رغم أنّه لم يحدث طلاق بين الطرفين. أعلن مكارثي في عام 1970 أنّه لن يترشح لانتخابات مجلس الشيوخ. غير أنّه شرع في حملتين وهو غير متحمس لهما في عامي 1972 و1976، ولم ينل نتائج تذكر. جاءت الضربة القاضية حين ترشح في عام 1982 لمقعد مجلس الشيوخ عن ولاية منسوتا، وهو المنصب الذي تخلى عنه قبل أحد عشر عاما، فحصل على نسبة 24 بالمئة فقط من مجموع اصوات الناخبين.

بقيت وزوجتي على اتصال بالسناتور وكنّا نزوره بانتظام لتناول العشاء معا، وبقي على هذا المنوال حتى وافته المنية عام 2005. لم نتحدث عن الماضي إلا نادرا. أمّا ابنته الرائعة مَري فقد درست القانون واصبحت استاذة في كلية القانون بجامعة ييل، لكنّها للأسف فقدت حياتها وهي شابة ضحية لمرض السرطان عام 1990.

الفصل الثامن

تسليط الضوء على الأسلحة الجرثومية والكيمياوية

شعرت بالحرية وأنا بعيد عن الحملة الإنتخابية ولا عقلانيتها. ولكن توجد هناك كآبة بصدد الحقيقة المرّة، وهي أنّني الآن بلا عمل. نشرت مجلة نو يورك لمراجعة الكتب في NYRB في شهري ابريل ومايو مقتطفات مطولة من كتابي الذي سيصدر خلال وقت قصير، وعدت بعدها إلى ما اجيد عمله، وهو أن أكون صحفيا.

ظهر الكتاب في مطلع يوليو وكان مقرّرا نُشِر مقالة عمّا توصلت إليه في ذك الكتاب على الصفحة الأولى من صحيفة الواشنطن پوست الصادرة بتاريخ 6 يونيو من عام 1968. غير أنّ خبر اغتيال بوبي كندي في الساعات الأولى من صباح ذلك اليوم المشهود بتوقيت لوس انجلس، احتل الصفحة الأولى، واختفت المقالة من عدد ذلك اليوم. إنّ قتل كندي الذي تزامن مع القتل المتواصل للجنود الأمريكيين في فيتنام، وقبله اغتيال مارتن لوثر كِنگ، قد زاد من سعير المخاوف حول مستقبل مجتمعنا واستمرار حياته. إستمريوجين مكارثي، بحملته، لكنّه لم يفعل شيئا يزيد من ثقة الأمريكيين، فهو لم يتعوّد على مثل هذا الأسلوب.

أمضيت اسابيع عديدة القي المحاضرات عن كتابي حول الأسلحة الجرثومية والكيمياوية CBW في المكتبات وفي الأحرام الأكاديمية لأتحدّث عن البحوث التي تجرى حول تلك الأسلحة. كان موضوعا مثيرا للعواطف حين تطرقت لزيادة اعتماد القوات الأمريكية على رشّ السموم في فيتنام لتجريد الأشجار والنباتات من اوراقها، واتساع مساحة استخدام تلك السموم بشكل تدريجي. ساهم المئات من العلماء الأمريكيين من خلال بحوثهم الخاصة وجمعياتهم العلمية على رفع اصوات الإحتجاج ضدّ تطوير تلك الأسلحة واستخدامها. تمكنت في ذلك الحين من بناء صداقة وطيدة مع ماثيو ميزلسُن، استاذ الكيمياء الحيوية في جامعة هارفرد، الذي لم يكن متحمسا فقط لإجراء دراسة أخرى أو اتخاذ اجراء شكلي. كان يريد منعا مباشرا وكاملا في كافة انحاء البلاد لتطوير الأسلحة الجرثومية والكيمياوية وانتاجها. لقد تطلب ذلك جرأة فائقة من جانبه ليشهر مناهضته لتلك الأسلحة في الوقت الذي كان فيه مستشارا يحمل التصريح الأمني، ويعمل مع الوكالة الأمريكية للسيطرة على نزع السلاح USACDA. كان هدف موضوع نزح السلاح المباشر حتى ذلك الوقت هو

تجديد اتفاقيات جنيف لعام 1925، التي حُرّم بموجبها استخدام الغازات السامة والأسلحة الجرثومية في ساحات المعارك. كان موقف الولايات المتحدة، أن ذلك المنع لا يُغطي مبيدات الأعشاب الضارة والعناصر الكيمياوية المستعملة في قنابل الغاز المسيل للدموع المستعملة في حرب فيتنام!

انضمّت مجلة نو يورك تايمز للحملة. طلب منّي محرر هناك، لا يحضرني اسمه الآن، أن اكتب مقالة حول CBW لزيادة معرفة القراء بهذا النوع من الأسلحة. تملكني العجب أنّه منذ ذلك التاريخ لم تهتم التايمز اليومية بالموضوع ولا بكتاباتي. لا بُد أن يوجد سبب وجيه للصحف العامة أن تهتمّ بايّ موضوع. في منتصف شهر مارس جرت حادثة غامضة أدّت إلى نفوق أكثر من 6 آلاف رأسا من الأغنام في منطقتين قريبتين من حامية دِگوَي پروفنگ، التي تضم ما يقرب من المليون هكتارا من الأراضي المخصصة لاختبارات أسلحة CBW في صحراء نيفادا. شاعت الأخبار عن تلك الحادثة ونشِرت عنها تقارير في صحف صولت ليك سِتي ربطت فيها بين نفوق تلك الأغنام وبين «نوع من السموم». أصرّ القائد العسكري لحامية دِگوَي مبدئيا أمام الصحفيين بعدم اجراء أيّ اختبار في ذلك الأسبوع، وأنّ الجيش لا يتحمّل مسؤولية نفوق تلك الأغنام. كان ذلك موقفا منافيا للعقل، لكنّ القليل من رجال الإعلام، ممّن ليسوا ضمن العاملين في صحيفتي صولت ليك سِتي الصباحيتين، بدأوا يهتمون بالموضوع ومتابعته. وهكذا بدأت بكتابة مقالتي للمجلة حول نفوق الأغنام، وكيف أنّ الأمر تطلب شهرا كاملا قبل أن يعترف الجيش بمسؤوليته عن تلك الحادثة المروعة. لقد غيّر موقفه هذا بعد أن قدّمت قائمة بالحقائق لأحد ممثلي ولاية يوتا في مجلس الشيوخ، وقام أحد العاملين في مكتبه بتسريب تلك الوثيقة لأجهزة الإعلام.

أختتمت مقالتي بطلب المصارحة والكشف والإمتناع عن تصنيع أو استخدام تلك الأسلحة. فوجئت أنّ المجلة نشرت المقالة دون تردد.

يجب على البِنتگون أن يعيد التقييم المباشر للقيود المفروضة على نشر المعلومات عن الأسلحة الجرثومية والكيمياوية. لو كانت روسيا منغمسة في بناء ترسانة من هذه الأسلحة، فيجب أن يعرف الشعب الأمريكي ذلك مباشرة. إنّ انواع العناصر الكيمياوية وامكانية تأثيراتها المحتملة على المدى البعيد، والسياسة الوطنية بصدد تطوير هذه الأسلحة يجب أن تخضع للتقييم العام. الأمريكيون والروس يعرفون جيدا العواقب الرهيبة للهجمات النووية. وهذه المعرفة هي التي كانت الرادع الأساسي لإبقاء صواريخ ICBM الحاملة للرؤوس النووية كامنة في جحورها تحت الأرض. واذا عرف العالم أكثر عن الرعب المحتمل لغازات الأعصاب والجراثيم القاتلة، فإنّ الحركة لضبط استخدام هذه الأسلحة والتخلص منها ستزداد اتساعا. إنّ الولايات المتحدة باعتبارها أحد الأطراف في بحوث وتطوير CBW ملزمة أن تكون في طليعة من يباشر في هذه الجهود.

قضى نشر هذه المقالة على كافة المخاوف التي راودتني بأنّني سأوضع على القائمة السوداء وسأوصم في عالم الصحافة العامة بالشبهات لكوني ديمقراطيا شاركت في حملة الرئاسة المناهضة للحرب. إنّ ظهور كتابي ونشر مقالاتي في مجلة نو يورك تايمز، وجولتي للتحدّث عن

الأسلحة الجرثومية والكيمياوية في مختلف الأحرام الأكاديمية، قد فتحت امامي مجالا يتمنّاه أيّ صحفي، وهو مجال الحصول على المعلومات من مصادرها الأصلية. وجدت ضابطا كبيرا متقاعدا عمل في الوحدة الكيمياوية للجيش الأمريكي. وهو الذي أسرّ اليّ بالمعلومات عن البحوث وأماكن انتاج هذه الأسلحة، وهي بطبيعة الحال معلومات سرية لم يطلع عليها الرأي العام من قبل، علما أنّ بعض لجان الكونگرس على حيطة بالأمر. قادتني تلك المعلومات إلى شاب اجروا عليه، حين كان يؤدي الخدمة العسكرية في قاعدة فورت دِرِك، تجربة حول فاعلية الأسلحة الجرثومية. وهذه منطقة يُحرّم الدخول إليها ومخصصة لأسلحة CBW في مقاطعة فردرك في ولاية مَريلاند، وتقع على بعد 45 ميلا شمال العاصمة واشنطن. عرفت عن طريق الرسائل العديدة، التي بعثها اليّ ذلك الجندي، أنّه كان واحدا من بين العديد من الجنود الذين خضعوا لتلك التجارب.

إنّ ارتياحي لمعرفة وتبادل الآراء مع مختلف المواطنين، حسبما ادركت، نابع من كوني نشأت وتربيت في بيئة متنوعة الأعراق في شيكاگو. لقد نشأت وأنا أحاول جهدي أن اعرف بذاتي من أثق به ومن اعتمد عليه في الحيّ، الذي عشت وترعرعت وعملت فيه. ربّما كان ذلك محاولة منّي للتعويض عن النقص في تربيتي البيتية، التي لم تتعرض لمثل هذه الأمور. ولسبب أو لآخر، وجدت سهولة في الإنفتاح والتواصل مع العلماء وجنرالات الجيش والمشرعين الجمهوريين ومسؤولي المخابرات، وأنا انتقل في مهنتي من مرحلة لمرحلة اخرى.

غير أنّ تلك المهارة لم تسعفني في تغيير الحقيقة. إنّ المعارضة الأكاديمية بقيادة ماثيو ميزلسُن وكتابي ومقالاتي ومقالات ألِنِر لانگر ووميض التظاهرات في الأحرام الأكاديمية، لم تخلق موجة من الغضب الشعبي إطلاقا. ولكن لأنّ الجيش يحرص دائما على إبقاء اسراره طي الكتمان، فقد أفرط هذه المرة في ذلك. نظمّت دائرة العلاقات العامة في البِنتگون فرصة لمعد برنامج 60 دقيقة في محطة تلفزيون سي بي أس، مايك ولاس، الذي يتابعه الملايين من المشاهدين، لزيارة لم يُسبق لها مثيل بكامل جهازه، عدته وكامراته والعاملين معه لثلاثة مواقع للأسلحة الجرثومية والكيمياوية. عرضت المحطة حلقتين عن الجراثيم والغازات في نهاية شهر اكتوبر من عام 1968. أوضح ولاس في تقديمه للبرنامج، «إنّ الهدف هو أن نضع أسلحة BCW في مجال النقاش العقلاني- بمعنى تسليط الضوء عليها وتصحيح الأخطاء الشائعة بشأنها، شيء يشبه تعليم الأطفال بعدم وجود الأشباح». ثمّ عرضت المحطة شريط فديو عن معامل انتاج كميات كبيرة من جراثيم الأمراض من قبيل الجمرة الخبيثة والطاعون والتولارَميا. كما اظهرت اللقطات كميات كبيرة من الجراثيم المركزة محفوظة في قناني مرصوفة جنب بعضها البعض على خط الإنتاج قبل نقلها لمخازن التبريد والتجميد.

ساعدني اصدقائي الجدد من داخل عالم CBW لفهم ما عرضه برنامج 60 دقيقة، فكتبت مقالة لمجلة پروگرَسِف. لم تذكر محطة التلفزيون مَن صور المواقع ولا اماكن تواجدها، لكنّني ذكرت أنّ جزء من الفديو قد تمّ تصويره من قبل الجيش في مخزن العتاد في پاين بلف، وهو مبنى سرّي في ولاية آركِنسا. لم تشِر محطة تلفزيون سي بي أس أنّه يوجد على الأقل 251 نفقا تحت

الأرض للتجميد، وتَسمّى هذه الأنفاق «أكواخ» تقع في محيط منطقة پاين بلف، وتستعمل هذه «الأكواخ» لخزن العناصر الجرثومية وتجميدها. لم تخبرنا المحطة أيضا أنّه توجد اماكن أخرى لتجميع مئات القنابل زنة 750 پاوند خلال ساعات فقط لنشر الآفات المرضية حول العالم. كما انّها لم تخبرنا عن حدوث 3300 طارئا خلال فترة ثماني سنوات في قاعدة فورت دِترِك، نجم عنها حالة عدوى اصابت اكثر من 500 رجلا، توفي ثلاثة منهم، إثنان بمرض الجمرة الخبيثة. وأهم شيء في نظري، أنّ محطة سي بي أس لم تخبر مشاهديها أنّ أكثر من 50 مسؤولا حكوميا يمثلون 12 وكالة قد راجعوا محتويات برنامج 60 دقيقة قبل عرضه. اقترح هؤلاء المسؤولون تغيير «بعض الحقائق»، كما اعترضوا على ما ورد في تقديم البرنامج، ولم يؤخذ بأكثر ما جاء فيها.

تبع عرض برنامج 60 دقيقة مباشرة عرض برنامج آخر لمحطة تلفزيون أن بي سي، أشدّ انتقادا وعُرِض في مطلع شهر فبراير عام 1969 إسمه الثلاثاء الأول. اعترف معدّوه بقيمة برنامج 60 دقيقة، واخبر المشاهدين سلفا وبشكل مباشر أنّ هذا البرنامج لم يُعد بالتشاور مع البنتگون. عرض البرنامج شريطا يزيد القلب خفقانا عن مختبرات تُستعمل فيها الأرانب والفئران للتجريب. كما اظهر جرافات تدفع اغناما نافقة إلى حفر كبيرة لدفنها قرب حامية دَگوَي پروفنگ. الأكثر اهمية، أنّ برنامج الثلاثاء الأول كشف أنّ وزارة الدفاع قد دفعت ملايين الدولارات خلال فترة 6 سنوات إلى معهد سمثسونيان في واشنطن، لإجراء بحث حول نماذج هجرة الطيور إلى جزيرة بيكر، التي تمتلكها الولايات المتحدة. وهي جزيرة مساحتها حوالي الميل المربع تبعد مسافة 1700 ميلا إلى الجنوب الغربي من هَنَلولو. كان الهدف واضحا، وهو أنّ أمريكا تبحث عن مكان معزول في المحيط الهادي كي تستعمله ميدانا لاختبار فاعلية الأسلحة الجرثومية.

حدثت بعض التحركات عقب انتخابات الرئاسة عام 1968، التي اوصلت رچرد نكسُن إلى البيت الأبيض. في شهر ديسمبر طلبت الجمعية العامة للأمم المتحدة اعداد تقرير رئيسي حول الإستعمالات المحتملة للأسلحة الجرثومية والكيمياوية. القى السناتور گيلورد نلسُن، وهو لبرالي ديمقراطي من ولاية وسكنسن، خطابا عاصفا طرح فيه عددا من الأسئلة، التي نادرا ما تُثار في مجلس الشيوخ. «ماذا تعمل الولايات المتحدة لضمان أنّ هذه الأسلحة التدميرية الشاملة هي جزء من سباق التسلح؟... إننا نحتاج إلى مراجعة المدى الواسع وآثار الحرب الجرثومية والكيمياوية». أمّا في السّرّ فقد قام بعض العاملين المساعدين في مكتبه بتزويدي بمعلومات عمّا يجري ذلك الوقت وما هي شكوكهم. في شهر نيسان من عام 1969 دُعي ميزلسُن من قبل وليم فولبرايت، الديمقراطي من آركنسا ورئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ، ليوجز للجنة في اجتماع مغلق ماذا يعرف عن الموضوع. أعاد ميزلسُن دعوته لمراجعة سياسة أمريكا بصدد الأسلحة الجرثومية والكيمياوية، وترتب على تلك الشهادة أن كتب السناتور فولبرايت إلى الرئيس نكسُن يحثه على أن يرفع معاهدة جنيف لعام 1925 إلى الكونگرس لغرض المصادقة عليها. كما قدّم ميزلسُن التماسه بتحريم هذه الأسلحة إلى هنري كِسِنجر، مستشار الأمن القومي للرئيس نِكسُن. وجدير بالذكر أنّ كِسِنجر وميزلسُن عملا استاذين في جامعة هارفرد وسكنا في دارين متجاورتين.

كما جرت حركة مماثلة في مجلس الشعب. سُهّل لي الإتصال في مطلع عام 1969 بنائب ديمقراطي طموح رشح نفسه للإنتخابات في منطقة بفلو في نو يورك، واسمه رچرد مكارثي، الذي

عمل سابقا مراسلا لإحدى الصحف وطمح أن يصبح عضوا في مجلس الشيوخ. عرف أنّه يجب أن تكون لديه قضية، ويبدو أنّه شاهد برنامج الثلاثاء الأول بصحبة زوجته واطفاله واصيبوا جميعا بالذعر، ممّا اضطر الزوجة أن تدفع الصغار خارج الغرفة. كما أنّه اعاد إلى الأذهان ما ذكره في كتاب ألفه من قبل بعنوان «منتهى الرعونة» حول موقفه من الأسلحة الجرثومية والكيمياوية. قالت له زوجته، «أنت عضو في مجلس الشعب. ماذا تعرف عن هذا الموضوع». ردّ عليها، «لا أعرف شيئا!» إنّ إيقاف البحوث وإنتاج الأسلحة الجرثومية والكيمياوية سيكون موضوعا يعزّز حملته ويقوّيها لأنّه يخصّ عامة الشعب. كان مكارثي محظوظا بوجود مساعدين له في مكتبه، وهما وندِل يكمَن وپيتر رِدلبرگ، المطلعين على سياسة واشنطن الخارجية خير اطلاع. عمل يكمَن مع بوبي كندي حتى ساعة اغتياله. أمّا رِدلبرگ فهو إبن سفير معروف للولايات المتحدة عقب الحرب العالمية الثانية، وعمل مساعدا في لجنة الشؤون الخارجية لمجلس الشيوخ.

توطدت بيننا نحن الثلاثة صداقة متينة ونشاط تعاوني. اتيحت لي بذلك الفرصة كصحفي «اتصيّد» الأخبار من داخل قاعات الكونگرس، إضافة إلى مخبريّ الآخرين، الذين كانوا يوجهونني للحصول على المعلومات الدقيقة عن الأسلحة الجرثومية والكيمياوية، التي لا تريد الجهات المعنية أن يطلع عليها الجمهور. نشرت خمس مقالات مطولة عن هذه الأسلحة في الفترة الممتدة بين شهري مارس ويونيو من عام 1969، واستمريت في ذلك الوقت بجمع مزيد من المعلومات كلما تيسّر ذلك لي. أصبح مكارثي شديد الفعالية في حملته نتيجة للمعلومات، التي وفرتها له بالتعاون مع مساعديه، فازداد تأثيره على زملائه حول مخاطر تطوير تلك الأسلحة، تماما كما فعل گيلورد نِلسُن من جانبه في مجلس الشيوخ. في شهر يونيو بدأت مجلتي تغطي أكثر وتركز على موضوع الحرب الجرثومية، الذي اثرته ضمن تقاريري لوكالة الأسيوشيتد پرس حول كشف نتائج ما توصّل إليه هاريسُن سولزبَري في تقاريره من هَنوي. لم يخبرنا الجيش بحقائق الأمور وبأنّ برنامج أمريكا للحرب الجرثومية والكيمياوية كان في مرحلة متقدمة أكثر ممّا قيل عنه في السابق.

يجب أن أشير هنا أنّني لست متعصّبا أو شديد الاحتشام من الكذب، وإنّي على دراية بأنّ البشر يكذبون دائما. فمثلا أدركنا أنا وأخي مبكّرا أنّ أمّنا كانت تكذب حول قطع الحلوى، التي تشتريها من الخباز وتدّعي أنّها أعدّتها. الحقيقة، أنّ الأمر ليس مهما. لكنّني اعتقد، وربّما كان ذلك وليد السذاجة، أنّ الأكاذيب الرسمية التي تصدر من جهات مسؤولة حول التخطيط العسكري وانظمة الأسلحة وتقارير المخابرات، يجب عدم السماح بها أو التغاضي عنها. إنّني لا استطيع أن اشيح ببصري عنها متعمّدا.

لقد تحدّيت وبشكل مستمر مواقف البنتگون ودفاعه عن برامج الأسلحة الجرثومية والكيمياوية، وأنّ الولايات المتحدة تركّز فقط على بحوثها الدفاعية. كتبت عن مستودعات پاين بلف وذكرت في نهاية الستينات أنّ الولايات المتحدة تمتلك ذخائر جاهزة للإطلاق، وحتى قنابل يدوية محملة بجراثيم الجمرة الخبيثة والحمى القرمزية وتولارَميا. كانت توجد كميات هائلة من الكيمياويات المضادة للنباتات، بعضها معدّ خصيصا لتدمير المحاصيل الزراعية واشجار الفاكهة في كوبا، إضافة إلى العناصر الحيوية التي صُنعت وخُزنت في مستودعات للتبريد والتجميد تحت سطح الأرض. كما علمت أنّ هذا الأسلحة قد تمّ تجريبها ميدانيا قرب دَگوَي في ولاية يوتا وفي قاعدة

گرَيلي في الاسكا وفي منطقة انوتيك اتول في جزر المارشال في المحيط الهادي وفي جزر أخرى معزولة في ذلك المحيط. كما أكتملت البحوث عن هذه الأسلحة في مختبرات في مَليزيا واليابان وانگلترا وإيرلندا وكندا والسويد وقبرص واستراليا والمانيا وتايوان. كانت قاعدة فورت دِرِك هي المركز الأساسي لبحوث الأسلحة الجرثومية، حيث عمل ما يقارب من 120 عالما من حملة الدكتوراه في عام 1968، إضافة إلى 400 شخصا آخر بدرجات علمية أقل. كما كانت توجد وفرة من العلماء الشباب الراغبين في الحصول على منح من اكاديمية العلوم الوطنية للعمل في مشاريع بحوث غريبة في قاعدة دِرِك. وهذه أكبرقاعدة فيها مختبرات تستعمل الكثير من الحيوانات وتقتلها أثناء التجريب. اظهرت الإحصاءات أنَّ 720000 من الحيوانات التي تتفاوت بين خنازير غينيا والقرود قد قتلت خلال عمليات التجريب كلّ سنة. كما عرفت أنّ الآلاف من الجنود والمتطوعين قد خضعوا للتجارب منذ نهاية الحرب العالمية الثانية لمعرفة أثر العناصر الحيوية على البشر. ارسلت إحدى الكنائس السبتية Seventh-Day Adventist، 1400 متطوعا إلى قاعدة دِرِك لاختبارات حول انتقال جراثيم تولارَميا في الهواء. وهي عملية اطلق عليها اسم المعطف الأبيض، وكما علمت بشكل شخصي فإنّ بعض المتطوعين لم تكن لديهم فكرة عن سبب تطوّعهم ولم يوقعوا وثائق لذلك الغرض، وأنّهم اخبِروا بعد فوات الأوان انّهم تعرضوا لشيء ما. أتيح لبعض «المتطوعين» خيار للتدريب الأساسي قبل الذهاب إلى فيتنام باعتبارهم مساعدين للخدمات الصحية والإسعاف، أو الانضمام لبرنامج المعطف الأبيض. الجراثيم التي تعرضوا لها شملت تولارَميا والحمى الصفراء وحمى وادي رَفت والطاعون.

شعرت بالنشاط والحيوية واستمتعت كثيرا بما كنت اقوم به، لكنّني من جهة أخرى اعوزني المال. إنّ نشر مقالة واحدة شهريا في مجلة نو رِپلِك وپروگرَسِف ومجلة نو يورك تايمز لمراجعة الكتب، لم توفر لي دخلا كافيا، وأنا الآن والد لطفل يتعيّن علي دفع ايجار البيت وقسط السيارة. تحرّك بوب هِويت من مجلة ناشنَل كاثلِك ريپورتر لإنقاذي، ووافق أن ينشر لي مقالة شهرية تتعلق بالسياسة الخارجية، على أن اختار الموضوع بنفسي ومقابل أجر سخيّ. كما توفر لدي مصدر آخر للتمويل عن طريق جاري لما يقرب من 20 عاما، واسمه ديفد أوبست الذي كان ممثلا لوكالة رسالة واشنطن، وهي وكالة مناهضة ركّزت بشكل ناقد جدّا على حرب فيتنام. كان ديفد شخصا محبوبا ومثلي لا يطيق القواعد والشروط. وهو إبن مالك لأحد مخازن المجوهرات قرب لوس انجلس. ترك الدراسة في جامعة كاليفورنيا فرع بركلي وهرب إلى تايوان، حيث تعلم اللغة الصينينة، لهجة ماندرين ووقع في غرام فتاة جميلة. إلا أنّه هرب بحياته حين علم اولياؤها بتلك العلاقة. كان رياضيا بطبيعته، ولعبنا معا كرة السلة وكرة القدم قليلا، إلّا أنّه ليس شديد الميل للرياضة. وُلد ديفد ليكون بائعا واقنعني بسهولة أن اجعله ينشر مقالاتي في ناشنل كاثلِك ريپورتر، ضمن مقالات يوم الأحد في عدد من الصحف الرئيسية. إنّ مقالاتي التي كانت كلّ واحدة منها تدرّ عليّ 50- 75 دولارا، بدأت فجأة تظهر الصحف الكبرى مثل واشنطن پوست وبلتيمور سَن ومجلة پروفِدانس، وغيرها.

في شهر إبريل من عام 1969 وافقت مجلة رامپارتس، التي كانت واسعة الإنتشار بين اوساط الحركة المناهضة للحرب في فيتنام على دفع نفقات سفري بالطائرة إلى يوتا لأعرف المزيد

عن موضوع الأغنام النافقة حول قاعدة دَگوَي پروفِنگ. وهي نفس القصة التي اشرت إليها سابقا. لقد حاول أحد المقاولين المنتفعين من الجيش في حينه أن يكمّم الأفواه حول الموضوع خلال الأيام والأسابيع، التي تلت نفوق الأغنام. والآن وبعد مرور عام تقريبا أصبح الذين سكتوا راغبين في رواية قصصهم، وكانت قصصا مخيفة.

كان ضباط وحدة الكيمياويات في حامية دَگوَي في حالة إنذار يوم وقوع الحادثة. تمّ اختبار جهاز رشّ مادة الأرَسول في الطائرة وجرى تصوير التجربة بالألوان عن طريق كامرتين. لم يكن الغرض تجربة أثر غاز الأعصاب القاتل، ولكن عن كيفية انتشاره حين تطلقه طائرة نفاثة في موجات الريح التي تجري بسرعة 5- 25 ميلا في الساعة، في منطقة في شمال شرق مدينة صولت ليك سِتي، التي تبعد مسافة 8 اميال عن منطقة التجريب. يشير الفلم السري جدّا إلى ما جرى. انطلقت الطائرة النفاثة متجهة إلى المنطقة المحددة وهي تطير بسرعة الصوت وربّما أكثر من ذلك بقليل. تمّ فتِح مخزن الغازات وبدأ الرش للحظات ثمّ اغلِقت الفتحات مباشرة وانسحبت الطائرة من المنطقة. يبدو أنّ عطلا كارثيا قد حصل في تلك العملية، إذ استمر غاز الأعصاب يتسرّب من تلك الفتحات والطائرة ترتفع إلى علو 1500 قدما في الجو حيث تكون الرياح اشدّ سرعة ولا يمكن التنبؤ بمعرفة اتجاهاتها المتغيرة. لقد اخبِرت أنّ مدى هذا الغاز يبقى فعالا لمسافة 394 ميلا. لقد حالف الحظ ذلك اليوم سكان مدينة صولت ليك سِتي ومنتسبي القاعدة العسكرية هناك. غيّرت الريح مجراها بعد ساعة فكانت الأغنام هي الضحايا بدلا من المواطنين. كان عنوان المقالة التي نُشِرت لي في اليوم التالي، «جرّب الجيش رشّ غاز الأعصاب على 6400 رأسا من الاغنام، عن طرق الخطأ. إنّه غاز شديد الفاعلية.»

في شهر يونيو كتبت أيضا مقالة مطولة لمجلة نو ريپلِك ركّزت فيها على عضو مجلس الشعب مكارثي ونشاطاته. اخبرت القراء كيف أنّه قبل شهر مضى كسر الحصار المفروض على عدم اثارة موضوع الأسلحة الجرثومية والكيمياوية، ليكون المجتمع على دراية بشرورها, كشف مكارثي في جلسة لمجلس الشعب خطط البنتگون السرية للتخلص من 270000 طنا من المواد الكيمياوية والعناصر غير المجدية والعبوات، من بينها 12000 قنبلة محملة بغاز الأعصاب، وذلك برميها في المحيط الأطلسي. كان مفروضا أن تحمل 8000 عربة حمل للسكك الحديدية تلك المواد السامة والعناصر الكيمياوية وتنقلها إلى مخزن مؤقت بعد نقلها من دنفر في كولرادو إلى ميناء الِزابث في نو جرزي. كان مقررا للقطار وعرباته أن يمرّ عبر مدن انديانابولس ودَيتن ونوكسفيل وسنسناتي وفيلادلفيا قبل الوصول إلى الِزابث على المحيط. لم تتخذ أيّة اجراءات أمن احتياطية ولم تصدر إنذارات تحذير لمسؤولي المدن التي يمرّ بها قطار الموت في الطريق. أثار خطابه موجة من الهلع المصحوب بالغضب، واحتلت قضية الأسلحة الجرثومية والكيمياوية الصفحات الأولى. قوبل إجراء الجيش المزمع بصيحات استنكار عامة، فاضطر إلى الغاء تلك الرحلة، وبأنّ المواد سيتم تدميرها والتخلص منها محليا. وهكذا اشرقت شمس سياسية جديدة فوق الأسلحة الجرثومية والكيمياوية في امريكا.

بقيت هناك دفعة من المعلومات كشفت عنها في اواخر سبتمبر في مقالة عن أسلحة CBW في مجلة نو يورك تايمز تحت عنوان، »هل نجرأ على تطوير الأسلحة الجرثومية؟« اقتبست بعض ما ذكر ماكس مكارثي وگيلورد نِلسُن وهاجمت البِنتگون بقوة، لأنّه ما زال يجترّ الغازه بأنّ برامج

الأسلحة الجرثومية والكيمياوية قائم وفق اغراض الدفاع الذاتي الشرعية. السؤال الذي طرحته في نهاية المقالة استهدف جوهر الموضوع وعبّرت عنه بشكل موجز ومركّز أكثر من المقالة المماثلة، التي نشرتها في نفس المجلة قبل عام، وتساءلت «هل تحتاج الولايات المتحدة حقا أن تستثمر الأموال لتطوير سلاح قد لا يعمل ولا يردع؟ ما لم تعطِ الولايات المتحدة جوابا مقنعا أنّ أسلحة CBW هي تهديد حقيقي من عدو، كما تعتقد، فإنّ الجواب على ذلك هو بالنفي.»

توغّل الرئيس نِكسُن عميقا في اوحال فيتنام، ولمّح في شهر اكتوبر إلى وجوب اعادة النظر في السياسة الخاصة بهذه الأسلحة من قبل الوكالات المعنية المتعددة. أعلن بتاريخ 25 نوفمبر أنّ الولايات المتحدة ستتوقف عن انتاج العناصر الحيوية لأغراض الدفاع وستقوم بتدمير ما يتواجد منها في حينه، كما استنكر استعمال العناصر الكيمياوية المميتة أو التي تحدث العجز الدائم في ساحات الحرب. اعطى العهد لرفع اتفاقية جنيف للمصادقة عليها من قبل مجلس الشيوخ. كان تحت ضغط قويّ من قبل مِلفِن لَيرد، وزير الدفاع، الذي أكّد استمرارية رشّ المواد الكيمياوية، التي تسفط أوراق النباتات والأشجار، والمُبيدات الزراعية في فيتنام. كانت إدارة نِكسُن تدور حول الحرب. لقد هزم المرشح الديمقراطي هيوبرت همفري على اساس ما أخبر به الشعب الأمريكي، وهو أنّ لديه خطة لإنهاء الحرب. ظهر فيما بعد أنّ تلك الخطة تقوم على النصر ودحر العدو. لم يذكر نِكسُن في مذكراته أيّ تنديد بأسلحة CBW لكنّه اطنب في انتقاده لحركة مناهضة الحرب. جرت في خريف ذلك العام تظاهرات مناهضة في شهري اكتوبر ونوفمبر شارك فيها الملايين من المواطنين في طول البلاد وعرضها، بما فيهم 500000 متظاهرا ساروا في شوارع العاصمة في يوم واحد.

خرجت من دائرة تغطية هذه الأسلحة حين اتّصل بي في الخريف روبرت لومِس، محرر رئيسي في دار راندم هاوس للنشر. اقترح أن نجتمع على الغداء حين يأتي إلى العاصمة في القريب العاجل. بحثت فعرفت أنّه محرر وصديق للكاتب وليم ستايرن. نشر الأخير روايته الأولى بعنوان (قسط من الراحة في الظلمة)، التي سحرتني قراءتها حين كنت في المرحلة الجامعية. وهي تدور حول واقع الحياة في الجنوب الأمريكي، الذي لا اعرف شيئا عنه. لقد أخذ بشغاف قلبي لوصفه التفصيلي ومفرداته الجميلة الواسعة. غير أنّ بوب لومِس لم يكن كما توقعت رغم كونه دقيقا وحذرا ويدلي برأيه بشكل مباشر. طلب كأسا من الوسكي وأكل نصف كمية غداءه، واستمر يفعل ذلك طيلة المرات التي التقينا فيه على الغداء لعدد من الحقب التالية. قال إنّه اطلع على ما كتبت فاعجبه ذلك، وأنّ لديه فكرة عن تأليف كتاب تمنّى أن انفذها، وهي دراسة عن البِنتگون وقدرته على التأثير على المجتمع، فقفزت إلى ذهني مباشرة فكرة الكتابة عن مكنمارا، وليس غيره. زرت بوب أوكين في شقته في بروكلِن فوافق على الفكرة وشجّعني على العمل مع لومِس. عرفت حينها أنّ أوكين البالغ من العمر 34 عاما يعاني من مرض سرطان الدم، الذي تسبّب في وفاته بعد أشهر قليلة.

إنّني فخور للغاية بعملي الصحفي لتسليط الضوء على أسلحة CBW ودوري في تغيير السياسة الأمريكية بصددها. لم امارس ضغطا على أيّ عضو في الكونگرس ولا في في البيت الأبيض عن هذه الأسلحة. لكنّني ساعدت على احداث التغيير عن طريق النشر الدؤوب حول الموضوع وكشفه للرأي الأمريكي العام. بطبيعة الحال، كان هناك آخرون أكثر أهمية منّي، ساهموا

في هذ المجال ايضا، أذكر منهم ماثيو ميزلسُن، الذي استمر يضغط على هنري كِسِنجر ودفعه لإثارة الموضوع في المكتب البيضاوي. ومثله كان ماكس مكارثي وگيلورد نلسُن، وما قاما به في قاعات الكونگرس واروقته. وكنت أنا في الحلبة أيضا ولعبت دورا اساسيا. اعترف مكارثي في كتابه بما سمّاه «كلّ أولئك الذين سبقوني بعمل الكثير من خلال دراسات شاملة موثقة، وأخصّ بالذكر سيمور هيرش» لكنّ المديح الأهمّ في رأيي ورد على لسان عالمي الفيزياء البارعين وهما د.جِول پريماك من جامعة كاليفورنيا في سانتا كروز ود. فرانك هِپل من جامعة پرنستُن. وهما اللذان ألفا كتاب (النصيحة والمعارضة) عام 1974، عن دور العلماء في الميدان السياسي. تطرّقا في فصل خاص إلى دور ميزلسُن وسلسلة المقالات المنشورة عام 1967 في الصحف والمجلات حول الأسلحة الكيمياوية والجرثومية. ومضيا للقول، «إنّ تلك السلسلة تبعها ظهور كتب عدّة وكتاب سيمور هيرش عن الأسلحة الكيمياوية والجرثومية... الذي نُشِر عام 1968 كان بالغ التأثير ومعزّزا بالوثائق ونجح في إثارة ضجّة كبيرة.»

كنت في سن الثانية والثلاثين حين استسلم نِكسُن للواقع بخصوص الأسلحة الكيمياوية والجرثومية، ومضت على عملي في عالم الصحافة حقبة كاملة تقريبا. تعلمت فيها أنّ الجيش الأمريكي يختار الكذب والتغطية على مواجهة الحقائق المرة. تعلمت أنّ البعض من زملائي في عالم الصحافة اختاروا أن يشيحوا بابصارهم بعيدا كلما اقتضت الضرورة، بدلا من الكتابة عن الحقائق المرة الي لا ترغب الإدارة الأمريكية كشفها أو الحديث عنها. تعلمت أيضا انّ قاعات الكونگرس ملأى بالأعضاء ومساعديهم في مكاتبهم، ممّن يتمتعون بالكرامة والشجاعة، وكانوا على أتمّ الإستعداد للمجازفة كي يساعدوا صحفيا يحظى باحترامهم.

بدأت اجراء بحث أولي عن كتابي الجديد في أواخر شهر ديسمبر حين تناهى إلى سمعي خبر غيّر مجرى حياتي المهنية، عن جريمة مروّعة اقتُرِفت في قرية إسمها ماي لاي في جنوب فيتنام.

الفصل التاسع

العثور على الملازم الأول وليم كالي

بحلول فصل الخريف من عام 1969 كنت اعمل في مكتب استأجرته مقابل حوالي 100 في الشهر، يقع في الطابق الثامن من مبنى مركز الصحافة الوطنية وسط العاصمة واشنطن. كان جاري على مبعدة عدة ابواب في نفس الطابق الشاب رالف نادر، الذي كشف عن العجز في شروط سلامة صناعة السيارات الأمريكية، التي لم تعطِ اهمية لوضع حزام الأمن لصيانة حياة الركاب في داخلها. لا شيء أجمل في تلك الأيام من الذهاب مع رالف إلى المقهى في الطابق الأرضي لتناول الغداء. كانت صحبته ممتعة، ولو انّه كان أحيانا صعب المزاج.

جاء التلميح الأول يوم الأربعاء الموافق 22 اكتوبر، حين كنت اقوم ببحثي عن الكيفية التي يقدر فيها البِنتگون تكلفة مشاريعه. كنت وقتها ابحث عن مواضيع لطرحها في كتابي الجديد. تحدّث معي بالهاتف جفري كوان، وهو محام شاب عمل في حملة يوجين مكارثي وصديق قديم للصحفية مَريلِوس أوتس. كان يكتب مقالات ناقدة للحرب ينشرها في مجلة فِلِج فويس. قال إنّه عرف بقصة فاراد أن يطلعني عليها. كان الجيش يستعد لإجراء محاكمة عسكرية في قاعدة بَنِنگ في جورجا حول مقتل 27 مدنيا في جنوب فيتنام. ما كان كوان بحاجة أن يفصح أكثر عن القصة، إن كانت صحيحة، لكنّه رفض أن يخبرني عن مصدر معلوماته. ومع ذلك كان لكلماته صدى في نفسي، خاصّة أنّه تحدّث مع أحد المسؤولين، الذي كان يعرف أكثر ممّا يود الإفصاح به، أو أنّه يعرف شخصا آخر لديه معلومات أخرى.

وكما اوضحت سابقا، فإنّني تعلمت خلال وجودي في البنتگون أنّ هناك بونا شاسعا بين الحرب الجارية وما يصرّح به الرجال الذين يديرونها. كان الكذب غالبا هو الطاغي واحيانا حتى خارج حدود المعقول بأنّ الحرب تجري على ذلك المنوال. حتى أنّ البعض مثل مارك هِل، والذين ايّدوا الحرب مثله، وجدوا صعوبة في الإعتماد على معيار عدد القتلى من الجانبين لتقدير مسرى تلك الحرب. كان واضحا أنّ العديد من الضحايا، الذين ادّعى الجيش أنّهم جنود العدو، كانوا حقيقة مدنيين، ربّما كانوا متواجدين في الوقت الخطأ أو المكان الخطأ، أو ربّما في المكان الذي يعيشون فيه وعاش فيه اجدادهم من جيل لآخر. كانت محاضرتي عن اخطار الحرب الكيمياوية والجرثومية

قد مكنتني من الإتصال بقادة الحركة المناهضة للحرب في اماكن مختلفة من البلاد. وكنت على اطلاع على البحوث، التي أجريت على جرائم الحرب، وتمّ نشرها من قبل كنيسة الكويكرز Quakers، وغيرها من المؤسسات الكنسية.

من بين النقاد المغمورين للحرب استاذ إسمه سيمور مِلمَن، وهو اقتصادي في جامعة كولومبيا، واصبح خبيرا بقضايا جرائم الحرب في فيتنام. قاد فريق البحث المعنون (باسم أمريكا)، وهو خلاصة موسّعه لجرائم الحرب التي تمّ توثيقها ونُشِر في شهر يناير عام 1968 من قبل مجموعة اطلقت على نفسها اسم جمعية رجال الدين والمواطنين المعنيين بأمر فيتنام. إحتوى ذلك التقرير، الذي دفعه اليّ مِلمَن، على المئات من الصفحات التي شملت مقتطفات من الصحف والمجلات الأمريكية الصادرة بين العامين 1966 و1967 وصوّر تلك الجرائم، بما فيها القتل الروتيني لأسرى الحرب، وأولئك الذي قتلوا من النساء والأطفال والشيوخ برمي القنابل اليدوية عليهم بعد أن يفرّوا هربا ويلتاذون في اكواخهم. جرت تلك الفضائع ضمن المهام الأمريكية للبحث عن العدو وتدميره. كما شملت المقتبسات تقريرا نُشِر عام 1967 في صحيفة نو يورك تايمز عن عبارة باللغة الفيتنامية المحلية حول وصول دفعات جديدة من الجنود الأمريكيين لساحات المعارك، وكيف أنّهم سيكونون طعاما للأسماك في مستنقعات فيتنام.

بعد إلقاء محاضرة في بركلي عام 1969 تقدّم نحوي جو نيلاند، استاذ الكيمياء العضوية في جامعة كاليفورنيا، والذي سافر إلى فيتنام الشمالية عام 1967، وشارك في استجواب ثلاثة من العسكريين الأمريكيين في محكمة رَسِل حول جرائم الحرب، التي جرت ذلك العام في مكان قريب من ستوكهولم وكوپنهَيگِن. اعطاني نيلاند، الذي توفي عام 2008، نسخة مطبوعة من مجريات المحاكمة، التي استمعت إلى شهادات صادنمة ادلى بها العسكريون الثلاثة. كان احدهم دَيفد كِنِث تك من مدينة كليفلاند في ولاية أوهايو، وعمل مع وحدة العمليات الخاصة الرابعة في فرقة المشاة الخامسة والعشرين. أدلى بشهادته عن الهجمات التي تعرّضت لها القرى الفيتنامية، التي يُشكّ بأنّها مقرّات للشيوعيين الفيتناميين، أو الفيتكونگ. قال إنّه غالبا ما تكون هناك «لحظات جنون» شارك خلالها جنود امريكيون، بما فيهم مسؤولي المدافع الرشاشة المثبتة على الدبابات بإطلاق النيران على تلك القرى وصبّوا جحيما عنيفا من ادوات القتل «على كلّ شيء يتحرك في تلك القرى... لأنّه افترضنا وجود قوات الفيتكونگ بينهم، حتى يثبتوا عكس ذلك». تمّ اختصار شهادة تك العلنية من قبل وكالة الأسيوشيتد پرس، التي وزّعتها على العالم. غير أنّ عددا قليلا من الصحف الأمريكية كلفت نفسها عناء نشر تلك الشهادة، ولم أجد دليلا على أنّ الإعلام قد بذل جهدا لمتابعة ما ورد في شهادة تك وإتهاماته. الردّ المألوف هو الهجوم السامّ من قبل سي آي سولزبرگر، المعلق في قسم الشؤون الخارجية لصحيفة تايمز على محكمة رَسِل، الفيسوف وعالم الرياضيات الحاصل على جائزة نوبل والبالغ من العمر 94 عاما. كتب سولزبرگر، «إنّ رَسِل قد تجاوز عمر ضميره» بمعنى «إنّه مصاب بالخرف، هو واقرانه الذين نصبوا ما يسمّونه محكمة.»

يطرح الآخرون عليّ سؤالا المرة تلو الأخرى، وهو سؤال طرحته أنا على نفسي وفحواه، لماذا تابعت تلميح كوان. ما زرت في السابق فيتنام الجنوبية، ولم تكن هناك إشارة عامة ولا حتى تلميحا إلى وقوع مجزرة على مستوى ما ذكر كوان. جاء الجواب من ايامي في الپنتگون حيث يتمّ تجاهل مثل هذ الشائعات أو التلميحات من قبل الجميع، أو هكذا دار في خلدي دون تفكير بالموضوع

ثانية. سخر زملائي في اجهزة الإعلام من تقارير هَريسُن سولزبري المباشرة عن القصف، الذي تقوم به القاذفات الأمريكية لمناطق فيتنام الشمالية، وأنّ قسما منها قد توغّل بعيدا في عمق البلد. لقد عملوا ذلك بالتعاون مع روبرت مكنمارا وسَيرس فانس لتقويض تقارير سولزبَري وعدم الأخذ بها. إلّا أنّني من جهتي، بدأت اتابع تلميح كوان الغامض، لأنّني كنت واثقا أن لا أحد منهم سيولي التقارير الواردة من فيتنام الشمالية أيّ انتباه أو اهمية.

كنت على يقين بالعقبات، التي يتوجّب عليّ تخطيها. هناك فرق شاسع بين الشهادات، التي أدليَ بها أثناء اجراءات مناهضة للحرب وتلميح صدر عن شخص معين. إذا كان جفري كوان على حق، فإنّ مصادر الجيش الأمريكي، هي التي سجّلت الدعوى ضدّ جرائم القتل، التي لمّح عنها صاحبي. وإذا كان الأمر كذلك، فلا بُدّ من وجود تقرير في مكان ما ضمن سجلات المنظومة العسكرية. إنّ العثور على هذا التقرير يتطلب بضعة أيام من وقتي للبحث عنه.

جدّدت وثيقتي الصحفية، التي يُسمح لي بموجبها دخول مبنى البنتگون واستعمال مكتبته، لأنّ عقدي مع دار نشر راندم هاوس تطلبت ذلك. كانت الخطوة الأولى هي مراجعة كافة المحاكمات العسكرية التي جرت حديثا في كافة المعسكرات الأمريكية حول العالم، والتي اعدّت لوائح الإتهام فيها هيئة القضاة العسكرية ومحامو الجيش. لم اجد إشارة إلى قضية قتل جماعي. راجعت بسرعة كافة التحقيقات الجنائية، التي أعلن الجيش الأمريكي عنها، فلم أجد شيئا. إذا كان ما ذكره كوان صحيحا، فلا بُدّ أنّ اجراءات المحاكمة قد جرت بشكل سرّي. شعرت نفسي في وضع حرج، وأنّني اضيّع وقتي. وعليه رجعت ثانية لجمع المعلومات لكتابي الجديد.

ما جرى بعد ذلك كان ضربا من الحظ، إلّا أنّه نبع من احترامي لأولئك الضباط، الذين قاموا بواجباتهم كما تطلب القانون. ذهبت إلى مبنى البنتگون بعد ايام قليلة في طريقي لإجراء مقابلة حين لاقيت صدفة جنرالا في الجيش اعرف أنّه ذكر الحقيقة حين اعددت سابقا تقريرا عن التدريبات العسكرية، أيام عملت مع وكالة الأسيوشيتد برس. لقد ذهب إلى فيتنام وجُرح في احدى المعارك، فكان يعرج في مشيته حين قطعنا الممر. أخبرني وهو يشعر بالفخر أنّه قد سمع لتوه بترقيته لمرتبة جنرال. شاكسته قليلا حين ذكرت أنّ تلك ترقية تليق بجرح رصاصة احدثه لساقه، فضحك، وتابعنا حديثنا. سألته ماذا يعمل الآن، فأخبرني أنّه نُسّب ليكون مدير المكتب العسكري للجنرال وليم وستمورلاند، الذي رجع من فيتنام بعد أن قاد المعارك لبعض الوقت في فيتنام. غمرتني الدهشة الممزوجة بالفرح. لا بُدّ أن يكون من يعمل في ذلك المكتب يعرف عن حالة قتل جماعي في فيتنام. أتذكّر جيّدا كيف صكّ على اسنانه بغضب وهو يقول، «هل تريد اخباري أنّ شخصا ما قتل اطفالا وراح يدور ويدعي أنّه قتل افرادا من الفيتكونگ، وهو يعرف حقيقة ما فعله؟ لا بُدّ أن يكون مجنونا». حافظت على هدوئي ومشاعري لأعرف المزيد. «يا ساي، إنّ كالي شخص مجنون. لقد قتل افرادا بهذا الطول»، وضرب على ركبته اليمنى، التي أصابتها رصاصة. «أطفالا رضّع صغار»، وضرب على ركبته ثانية. «هذه ليست بطولة تستحقّ الذكر». لقد عرفت الآن اسم الشخص المعني. لم اعرف من قبل بمثل هذا التواصل والمصارحة بين ضابط شريف وصحفي يتصيّد الأخبار. إنّ كالي نموذج للإنحراف. اعتقد أنّه سيكون جزء من قصة لا بُدّ من اطلاع الناس عليها. تظاهرت بالهدوء، لأنّني ما كنت ارغب أن يطلع شخص في مكتب وستمورلاند أنّي مهتمّ بالقضية واتابعها.

تطلب الأمر منّي ساعات لمراجعة الصحف المسجلة على اشرطة التصوير، حتى وجدت ثلاثة مقاطع على الصفحة 38 من صحيفة نو يورك تايمز الصادرة يوم الإثنين الموافق 8 سبتمبر، أي قبل حوالي 6 اسابيع. نقلت الصحيفة معلومات عن ضابط استعلامات في قاعدة ببنِنگ في ولاية جورجا، وهي القاعدة التي ذكرها كوان، قد ذكر أنّ ضابط مشاة يبلغ من العمر 26 عاما إسمه وليم ل. كالي، الأبن من مدينة ميامي متهّم بارتكاب جرائم قتل وموت «عدد غير محدّد من المدنيين». لم يُثر أيّ من زملائي سؤالا عن الموضوع في ذلك الوقت، لأنّه لم يوجد صحفي، كما اعتقدت، مهتمّ بضخامة الحدث[22]. كانت الأخبار حول التهمة الموجهة للضابط كالي في مقدمة الأخبار المسائية لمحطة أن بي سي، التي قدّمها المذيعان هنتلي وبرنكلي وسجلت نسبة اعلى بين مشاهدي التلفزيون ذلك المساء، كما ورد على لسان مراسل المحطة في البنتگون، الذي ردّد كالببغاء الرواية الرسمية. اخبر الملايين من المشاهدين أنّ كالي متهم بالقتل العمد «لعدد من مواطني فيتنام الجنوبية وأنّ عملية القتل قد ارتكبت قبل عام تقريبا، وأنّ التحقيقات بشأنها ما زالت مستمرّة. لقد ازداد عدد مثل هذه القضايا حين سُلط الضوء عليها وأنّ الجيش لا يعرف كيف يتعامل معها.»

كان هناك عنصر شكّ حول اسم كالي وطريقة تهجئته عند الكتابة. ذكر جفري كاون أنّ جريمة القتل اقترفها جندي وليس ضابطا. اتصلت بالمكتبة الخاصة بصحيفة ميامي هيرالد، وهي افضل الصحف في ميامي، لاستفسر إن كانت تعرف شيئا عن كالي. كان يوجد خبر قصير مفاده أنّ كالي عمل في شركة سكك حديد الساحل الشرقي لفلوريدا، وأنّه القي القبض عليه عام 1964 من قبل شرطة مدينة لودردَيل بتهمة الإهمال لأنّه سمح لقطار حمل يجرّ 47 عربة أن يقطع الطريق العام خلال ساعة الإزدحام بانتهاء فترة العمل اليومي لمدة نصف ساعة. أطلِق سراحه بعد أن أسقِطت التهمة ضدّه.

تعود خطوتي التالية إلى ما تعلمته كمراسل لوكالة الأسيوشيتد پرس في البنتگون. كتبت عن التجاوزات المالية في تقدير الكلف وكذلك عن مسألة استمرار الطيارين في الخدمة العسكرية، وهما موضوعان حظيا بانتباه المتخصصين بشؤون الدفاع من اعضاء لجنتي الخدمات العسكرية في مجلس الشعب ومجلس الشيوخ.

كنت حينها وثيق الصلة بصديق عمل مساعدا في احدى هاتين اللجنتين، وكانت برئاسة عضو مجلس الشعب مندل رفرز، وهو ديمقراطي من ولاية كارولاينا الجنوبية وقضى فترة طويلة في هذا المنصب. كان معروفًا عنه مساندته المكشوفة لكلّ ما هو عسكري، بما في ذلك حرب فيتنام. خمّنت أنّ البنتگون ربّما قدّم له تقريرا سريا حول القتل الجماعي، إن كان جرى قتل جماعي في فيتنام. أمّا ملفِن لَيرد، وزير الدفاع الداهية، فقد خدم في مجلس الشعب، بمعيّة رِفرز لثمان دورات، ولا بُدّ أنّه كان يعرف الضرورة السياسية للإستمرار في كسب ودّ لاعب كبير مثل رِفرز باطلاعه على ما يستجدّ على الساحة، الجيّد منها والرديء.

تناولت كوبا من القهوة مع صديقي، الذي يعمل في مكتب رِفرز. تعلمت من ايام خدمتي في وكالة الأسيوشيتد پرس في البنتگون، أنّ الأشخاص الذين يحملون بطاقة الأمن القومي secret clearance كانوا يشعرون بالملل من الصحفيين، الذين يحاولون أن يحصلوا على معلومات منهم.

(مثلا، كان يوجين مكارثي يكره المقابلات الصحفية لأسباب مختلفة، لأنّه سُئِل نفس السؤال مرة تلو الأخرى). بدأت حديثي مع صديقي هذا ليس بالاستفسار منه بل اخباره بكلّ ما اعرف عن كالي والتهم الموجّهة اليه. لم يكن ردّه انكار القصة، بل تحذيري. «إنّها فوضى»، قال ذلك وهو يذكر كالي بالاسم. «ببساطة، هذا الولد مجنون. سمعت أنّه حمل مدفعه الرشاش وقتلهم جميعا. لا تكتب هذه القصة. إنّها ليست من مصلحة أحد». فهمت قلق صديقي هذا باعتباره مساعدا أعلى للنائب المحافظ جدّا رِفرز، لكنّني لم افكر اطلاقا بالتوقف عمّا تتطلبه مهنتي.

بدت القصة، التي شرعت في جمع خيوطها، صعبة على التصديق. ضابط شاب يقترف لوحده عملية قتل جماعي؟ ما حدث بعد ذلك زاد من ارتباكي. اتصلت بمكتب الإستعلامات في قاعدة بنِنگ، وسألت سؤالا بريئا عن الضابط المسؤول عن التوجيه في محاكمة كالي العسكرية. قال الشخص، الذي ردّ على مكالمتي بأنّه سيستفسر، ثمّ عاد بعد دقائق ليخبرني كذبة مفضوحة. قال إنّ الحادثة التي جرت للضابط كالي كانت اطلاق نار في احدى حانات سايگون، حيث وجد عدد كبير من السكارى، الذين افرطوا في الشرب. فهمت أنّ الرجل يؤدي واجبه فقط، وأنّه نقل اليّ ما أخبِر به. كالي هو بطل القصة والرجل الذي ابحث عنه. لكنّ شيئا آخر كان يجري.

تطلب الأمر منّي أن أجد المحامي الذي يدافع عن كالي. إنّ سجلات المحكمة العسكرية قد وضعت طي الكتمان، ولم احصل على معلومات من داخل البنتگون. في الحقيقة شعرت بالخجل جدّا للإستمرار في متابعة الموضوع، وفي نفس الوقت ما اردت ان يشمّ صحفي آخر ما كنت اقوم به. أنا بطبيعة الحال أحبّ أن اكون الأفضل في ميداني، وشعرت أنّ قصة وليم كالي، الذي اجهل مكان تواجده، سيكون لها تأثير على تغيير قواعد اللعبة. كنت عازما أن اكون أوّل صحفي يعثر عليه. توجهت، من شدّة يأسي، إلى جفري كوان، الذي علمت أنّه تخرج حديثا من كلية القانون في جامعة ييل، ولعب دورا اساسيا في تأسيس مركز الدراسات القانونية والإجتماعية، وهو في طليعة مكاتب المحاماة التي تعنى بالشؤون العامة. طلبت منه أنّني يجب أن اعرف اسم محامي كالي. لقد كانت صرخة يأس من اجل طلب المساعدة. إتّصل بي كوان بعد يومين واخبرني أنّ اسم المحامي هو لتمِر ولم يزد على ذلك شيئا. لم ارغب بعدها في اضاعة الوقت واتساءل ماذا يمكن أن يخبرني عن كالي، أو من أين حصل على معلوماته. وجدت اسم محام بذلك الإسم في واشنطن في دليل تلفونات العاصمة. أبلغني أنّه لا يعرف شيئا عن جريمة قتل لها علاقة بحرب فيتنام، لكنّه اضاف أنّ من المستحسن أن اتصل بشخص آخر اسمه جورج لتمِر، وهو قاض متقاعد في محكمة الإستئناف العسكرية، والذي مارس في وقت مضى المحاماة. انضمّ جورج لتمِر بعد تقاعده إلى مكتب محاماة في صولت ليك سِتي، واستطعت الوصول إليه عن طريق الهاتف. أخبرته أنّني اعرف أنّه يدافع عن كالي وزدت بكلّ أمانة بأنّ موكله ربّما اتهم جزافا (لم اذكر اطلاقا أنّني اعتقدت أنّه مجرم.) تحدّث لتمِر بأسلوب واثق، كما هي طبيعته، بأنّه فعلا محام للضابط كالي وأنّ قضيته إجهاض للعدالة. هذا ما أردت. اخبرت القاضي أنّني متوجه لزيارة الساحل الغربي للبلاد وسألت إن كان من الممكن أن اتوقف في صولت ليك سِتي لكي التقي به. اتفقنا على يوم معيّن في مطلع نوفمبر. طبعا، لم تكن لي حاجة بالذهاب إلى الساحل الغربي، لكنّني فكرت أنّه عذر جيد لإخفاء ما اتطلع إليه. أمضيت نصف يوم في البنتگون لأطلع على عدد من قراراته القضائية، وحصلت على خلاصة للبعض منها. كان ذلك تذكيرا لي عمّا كان يجب أن افعله في جامعة شيكاگو خلال سنة فشلي في كلية القانون.

كانت لديّ بطاقة ائتمان امريكن إكسبرس ولكن لم يوجد لدي رصيد كاف في المصرف لكي اشتري بطاقة واسافر في آخر لحظة لإجراء مقابلات. سمعت أنّ فِلِب شترن، مناهض الحرب المعروف في واشنطن كان يفكر في تخصيص بعض الأموال لمنح تستخدم لإجراء تقارير صحفية استقصائية. اتصلت به لذلك الغرض واخبرته بمشروعي فمنحني بعد خمس دقائق 1000 دولارا. شعرت بالإطمئنان لوضع هذا المبلغ في حسابي بالمصرف. في الحقيقة كنت مصمما على السفر إلى صولت ليك سِتي بمنحة أو بدونها. وضع شترن المبلغ في حسابي باعتباره منحة من مؤسسة الصحافة الإستقصائية. وهذه مؤسسة بالغة الأهمية، لا زالت تعمل حتي اليوم لتمويل التقارير الإبداعية التي تُنشر في الصحف والمجلات.

استقليت طائرة غادرت في وقت مبكر من اليوم، فوصلت إلى مكتب لتمِر المتواضع في حدود الساعة العاشرة. وكما توقعت فإنّ عمر القاضي المتقاعد، الذي هو أحد شيوخ كنيسة المرمن، كان في اواخر الخمسينات. كان واضحا منذ اللحظة الأولى أنّه لا يميل إلى السخرية ولا النزوة. حاولت تغطية قلقي بأن اخبرته أنّني راجعت عددا من قرارات الإستئناف التي اصدرها، وسألته لماذا فعل ما فعل في تلك الحالات. شرح لي مبررات قراراته، موضوع المناقشة. كان ذلك مثالا نموذجيا للقواعد التي يتبعها هيرش. إيّاك أن تبدأ مقابلة بطرح سؤال اساسي. أردته أن يأخذ عني انطباعا بأنّي ذكي وامتلك القدرة على التفكير المجرد، وطمحت إلى أن يُعجب ويثق بي.

وصلنا إلى موضوعنا الأساسي فأخبرني لتمِر أنّ الإجراءات المتخذة ضدّ موكله تجاوزت على العدالة كثيرا، لكنّه ملزم بموجب القانون العسكري أن يتقبّل قرار المحلفين، واعتذر عن مناقشة التفصيلات. ذكر أنّ الجيش قد عرض على كالي فرصة للإعتراف مسبقا بالذنب **plea bargain** مشروطا بذكر الحقيقة كاملة لتخفيف فترة الحكم بالسجن، لكنّ كالي رفض العرض. كانت القضية واضحة واعتقد أنّهم جعلوا موكله كبش فداء لخطأ قد يكون ارتكِب من قبل ضابط/ضباط اعلى منه رتبة خلال ساعات الإشتباك الحامية. كان واضحا أنّه يتحدّث مع كالي بالتلفون بشكل منتظم داخل المحكمة وخارجها. وفي تلك اللحظة ولسبب لا اعرفه حتى الآن، لكنّه قد يتعلق بمشاعر لتمِر أنّ الجيش البس موكله مسؤولية ما جرى. أخبرت لتمِر بأنّي فهمت أنّ كالي متهم بقتل 150 مدنيا خلال هجوم الجيش على قرية ماي لاي. في الحقيقة الرقم الذي اعرفه هو 75 شخصا، حسبما ذكر كوان. لكنّ الضابط الكبير الذي تحدثت معه في البنتگون والمساعدين في مكاتب الكونگرس تحدثوا عن اطلاق نار كثيف مصحوبا بحالات جنون طائشة. كما عرفت أيضا من خلال الإطلاع على مجريات محكمة رِسِل وغيرها من التقارير المناهضة للحرب بأنّ ذلك القتل، الذي لا معنى له ولا مبرّر والذي شمَل المئات، هو الأمر الشائع في الهجمات الأمريكية على القرى الريفية المعزولة البعيدة في فيتنام الجنوبية.

جعل العدد الذي اختلقته لتمِر في حالة من الغضب الشديد فمشى نحو خزانة للملفات واستلّ عددا من الأوراق من ملف كالي ووضعها على الطاولة حيث جلسنا متقابلين. كانت لوحة اتهام الجيش للملازم الأول وليم ل. كالي، الإبن، بالقتل المتعمد لمائة وتسعة اشخاص من أصل شرق آسيا **oriental**. وحتى في لحظة ابتهاجي عرفت أنّ تلك المذبحة ستنتهي الحرب وسأنال الجوائز الفخرية

لتقريري عنها. كان أمرا صعبا حين شاهدت رقم الضحايا، الذين اتهم كالي بقتلهم، ووصفهم بأنّهم من أصل آسيوي شرقي زاد من ألمي. هل قصد الجيش أنّ حياة شخص من شرق آسيا أقلّ قيمة من حياة أمريكي ابيض؟ لقد استعملوا صفة بغيضة للإشارة إلى أولئك الضحايا الأبرياء.

مدّ لتمِر يده وسحب الأوراق نحوه. لا أتذكّر بالضبط بقيّة ما دار بيننا من حديث إثر ذلك، لأنّني امضيت ما يقرب من 20 دقيقة وأنا ادوّن بعض الملاحظات. لكنّ ما عملته حقيقة هو محاولة قراءة اللائحة، التي وضعت عكس مجلسي، بشكل بطيء متأنّ واستنساخ ما امكن من نصّ التهمة. قطع بعدها لتمِر المقابلة، ورفض الإفصاح عن مكان تواجد كالي، عندما سألته كيف استطيع الوصول اليه. أنا على ثقة بأنّ القاضي شعر أنّه كشف أكثر من الازم خلال مقابلتنا تلك، ولم اجرأ أن اطلب منه نسخة من لائحة الإتهام، خوفا من أن يقول لي أنّه غير مسموح لي بنشر ما ورد في مقابلتنا هذه. شكرته عند الباب على قضاء الوقت معي ذلك الصباح، وافترضت أنّ كالي لا يزال في قاعدة بنِنگ، ينتظر قرار المحكمة العسكرية. إنّني يجب أن أبحث عنه هناك. أضفت قائلا أنّه إذا كنت مخطئا، فالرجاء أن يخبرني بذلك. تطلع اليّ لحظة ولم يقل شيئا. طرت عائدا إلى واشنطن يتملكني شعور بأنّه يجب أن اعثر على كالي والمكان المحتمل هو قاعدة بنِنگ.

شعرت لدى عودتي إلى واشنطن بأسف عميق. كيف فاتتني الفرصة ولم اطلب من لتمِر نسخة من لائحة اتهام الجيش؟ إنّ قصة هامة مثل هذه ينقلها صحفي مثلي، لاعب ثانوي معروف عنه مناهضته للحرب، يمكن أن يكون لها صدى لو ابرزت لائحة الإتهام. تخيّلت عمّ كان سيحدث لو كنت مراسلا لصحيفة واشنطن بوست أو شيكاگو سن تربيون واتصلت بالمحرر لأخبره عن المقابلة التي اجريتها مع لتمِر ولائحة الإتهام، التي اطلعني عليها. لا بُدّ أنّه سيكون سألني عن نسخة تلك اللائحة. وحين اخبره أنّني لم احصل عليها، سأكون كتبت قرارنقلي إلى صفحة النعي، لعدم قدرتي على انجاز عمل جيّد.

خشيت أن اذهب إلى صحيفة نو يورك تايمز أو أيّة صحيفة رئيسية لينشروا قصتي. كنت سأكون وحيدا امام جمع من الصحفيين المهرة، الذين يعملون مع المحررين هناك. لم أرَ في نفسي انّ لديّ سبق صحفي، رغم أنّها كانت قصتي. رغب صديقي القديم ديفد أوبسِت من وكالة اخبار دِسپاچ في نشرها، لكنّه عرف أنّني اطمح لصحيفة كبرى. اتصل قبل شهر محرر رئيسي في مجلة لايف، وهي مجلة امريكية اسبوعية واستفسر إن كنت راغبا في كتابة تقرير/ تقارير للنشر في تلك المجلة. اخبرته أنني اعمل في كتابة قصة قد تغيّر مجريات حرب فيتنام. هل هم مهتمّون بهذا الموضوع؟ وبطبيعة الحال، كانوا مهتميّين للغاية. تركت الأمر عند تلك النقطة، وانطلقت صباح يوم في مطلع نوفمبر متوجّها إلى كولومبس في ولاية جورجا، وهي أكبر مدينة بالقرب من قاعدة بنِنگ. بدأت البحث عن كالي هناك.

وكغيرها من القواعد الأمريكية، فإنّ قاعدة بننِگ منطقة مفتوحة. واجهت صعوبة في معرفة مدخلها الرئيسي وعجبت من مساحتها. إنّها بحجم مساحة مدينة نو يورك بكاملها تقريبا، أي حواي 285 ميلا مربعا، وفيها مدرج للطائرات ومساحات واسعة منفصلة لأغراض التدريب على الرمي بالذخيرة الحيّة ومبان لإيواء الجنود والعاملين هناك، يسمّونها القرية السكنية. وهذا مجال رحب للغاية لإخفاء كالي، كما رغب الجيش في ذلك. لكنّني لم اتراجع ولم تخفت همّتي. تتبّع أثر

بعض الأفراد الذين لا يحبّون أن يُعثر عليهم، هو أمر حيوي لمهنتي وكنت أجيده. لقد القي القبض عليه ووضع قيد الإحتجاز بتهمة القتل. وهذا يعني أنّه موجود داخل سجن تحت الحراسة. كما يعني أنّه تحت تفوذ السلطة القضائية، التي يمثلها قائد موقعه كموقع رئيس الشرطة في المدينة. خمّنت أنّ الكثير من الضباط الكبار في القاعدة على علم بقضية كالي، ولذلك بدأت مهمتي بالذهاب إلى مركز القاعدة. أبدى الجنود العاملون هناك المساعدة فراجعوا سجلاتهم ولم يعثروا على اسم وليم كالي كمعتقل تحت الحراسة. ربّما يوجد كالي مخفيا في بناية أخرى من العديد من البنايات المنتشرة داخل القاعدة.

حصلت على خارطة جيدة للقاعدة وبدأت ادور على سجونها من سجن لآخر. كان الروتين متشابها، أوقف سيارتي المستأجرة في المكان المخصص للضابط الأعلى المسؤول، وهو في العادة مكان شاغر، ثم امشي نحو السجن وأنا ارتدي ربطة عنق واحمل حقيبة، واخبر العريف عادة بشكل واضح للغاية، «إنّني ابحث عن بل كالي، احضره لي من فضلك في الحال». لم يكن هناك وجود لأيّ شخص إسمه بل كالي. تطلب الأمر ساعات وقطع مسافة 100 ميلا تقريبا وأنا اتنقل بين البنايات المتفرقة وبدأت اشعر بضيق الوقت. كانت الساعة بعد الظهر قليلا حين عدت لنقطة البداية.

وجدت جهاز تلفون عمومي ودليل تلفونات خاص بالقاعدة في الكافتيريا. اتصلت بنوادي القاعدة، بما فيها السباحة وكرة التنس والصيد والمشي لمسافات طويلة. لم أجد اسم كالي كعضو في أيّ من تلك النوادي. راجعت حتى محطات تزويد الوقود في القاعدة إن كان احدها قد ملأ خزان سيارة الملازم بل كالي. راجعت أيضا دليل الضباط في قاعة المشاة، وهي المسؤولة عن اعداد الجنود والضباط قبل ارسالهم إلى فيتنام. لم يوجد اسم الضابط كالي في فنادق الجيش لإيواء الضباط الصغار مؤقتا في قاعدة بنِنگ. بعد مضي ساعات من الإحباط، لم أجد اثرا لوجود كالي أو أنّه قد مرّ من هنا. شعرت بالجوع والنهار يقترب من نهايته، وقررت المجازفة بالذهاب إلى مركز الإدعاء العسكري، الذي توجد فيه مكاتب المحامين، الذين ترافعوا ضد كالي، إن كان موجود حقا في القاعدة. كان المركز خاليا، باستثناء عريف كان هناك لوحده. كان لطيفا للغاية حين قدمت له نفسي بأنّني صحفي من واشنطن واحتاج إلى مساعدة. إختفت الإبتسامة من على وجهه حين اخبرته أنّني ابحث عن وليم كالي. طلب منّي أن انتظر دقيقة، وحين سألت عن السبب اخبرني أنّه يجب وفق الأوامر أن يتصلّ بالعقيد مباشرة، إذا سأل أحد ما عن كالي. أخبرته أن لا بأس عليه أن يتصل كما يجب، واستدرت وبدأت امشي. لكنّ العريف بدا عليه الإضطراب واخبرني أنّني لا استطيع مغادرة المكان. ركضت باقصى سرعتي إلى خارج المكتب باتجاه الشارع، لأنّني ما كنت أرغب أن يطردني العقيد من القاعدة قبل اكمال مهمتي. ركض العريف خلفي لعدة خطوات ثمّ توقف، وكان ذلك مشهدا من احد افلام ماركس برذرز.

زوّدني القاضي لتمِر حين قابلته في يوتا باسم المحامي العسكري الذي تولى حق الدفاع العام في محاكمة كالي، وهو النقيب كِنِث رابي. فكّرت أن ابحث عنه. لم يكن اسمه موجودا في دليل تلفونات القاعدة فقط، بل أنّ مكتبه يقع في بناية قريبة من إحدى ساحات التدريب. شحب لونه حين أخبرته أنّني صحفي واريد مقابلة كالي. أتذكر أنّه كان نحيفا طويلا وغاضبا جدّا من وجودي هناك. رفض أن يتكلم معي، ولكن ضمن لي مع ذلك، لقاء مع كالي، الذي كان موجودا في مكان ما من القاعدة، وأنا مصمّم على عدم العودة إلى بيتي حتّى أعثر عليه.

تناولت همبرگر وشربت كوكا في كافتيريا القاعدة. جلست وأنا افكّر في الخطوة التالية، التي وجب عليّ أن اقوم بها. تذكّرت ما قاله لي القاضي المتقاعد لتمِر بأنّ كالي، الذي كان ما زال على عداد الخدمة الفعلية في فيتنام، قد أمِر بالعودة إلى القاعدة في شهر اغسطس من عام 1969. تذكّرت أنّه خلال فترة عملي مع الأسيوشيتد پرس أنّ الپنتگون يجدد دليل التلفونات كلّ اربعة اشهر اعتبارا من شهر يناير. إذا كانت قاعدة بنِنگ تقوم بنفس الإجراء، ولماذا لا وهي في ظروف الحرب والقوات تذهب وتجيء، فإنّ دليل التلفونات الذي استعملته قبل ساعات لا بُدّ أن يكون قد جُدّد في شهر سبتمبر عام 1969، فكان كما توقعت. إتصلت بعاملة البدالة وطلبت منها أن توصلني بالمراقب، وحين فعلت سألتها عمّن أضيفت اسمائهم في شهر مايو وإن كان اسم الملازم وليم ل. كالي، الإبن موجودا في القاعدة، وبالضرورة فإنّ اسمه يجب أن يكون اضيف في نهاية الدليل. وبعد دقيقة تقريبا، عادت العاملة لتخبرني أنّها وجدت الأسم، الذي ابحث عنه وذكرت بسرعة رقم التلفون وعنوان المكان واقفلت الخط. لم افهم شيئا ممّا قالته بسبب لهجتها الجنوبية ولأنّي كنت على وشك أن أطير فرحا. عاودت الإتصال بها لعدم اضاعة الوقت الثمين. أخذت تتهجى اسم كالي وما هو رقم تلفونه وأين مكان تواجده في القاعدة. لم أكن أريد التحدث إليه في تلك اللحظة ولم اترك عندها رسالة له. إنّني بحاجة للمعلومات لكي اقابل الرجل وجها لوجه.

يبدو أنّه قد نُسّب إلى وحدة هندسية تشغل احدى بنايات قاعدة بنِنگ المطلة على ساحات التدريب وتقع على مسافة عدة اميال من مدخل القاعدة. تطلب الأمر منّي حوالي الساعة تقريبا للوصول إلى المكان المطلوب. المبنى هو المكان المخصص لسكن المتدربين ويتألف من قسمين وكلّ قسم فيه ثلاثة طوابق تربط بينها الدائرة الرئيسية. كان الوقت عصرا قبل نهاية ساعات العمل اليومية، وكنت على هاجس بأنّني سأجد كالي في مكان ما داخل تلك البناية. فكرت أن اذهب إلى الدائرة الرئيسة، التي كان بابها خشبيا من النوع الثقيل ومقسوم إلى قسمين، الأعلى منهما مفتوح. كان النقيب چالز لولِن هو الضابط المسؤول هناك. تقدمت نحو فتحة الباب العليا وانحنيت قليلا واخبرت الجندي الكاتب أنّني صحفي من واشنطن، وسألت إن كان النقيب موجودا. كان ذا كرش مدور وتغطي وجهه ابتسامة عريضة، غير أنّ تلك الإبتسامة اختفت وقت اخبرته أنّني ابحث عن كالي. ردّ بأنّه غير مخوّل للكلام عن كالي، ثمّ تناول التلفون وطلب التحدث مع العقيد وأنا واقف أمامه، وللمرة الثانية غادرت المكان مسرعا. لحق بي لولِن ليقول لي شيئا. في الحقيقة أنّه رجاني أن ابتعد عن المبنى. شرح لي أنّهم تجاوزوه عند الترقية ليكون ميجور (نقيب) عدة مرات، وأنّه سيحال إلى التقاعد إن حدث ذلك، أي إن وجدتُ كالي. «لا تضيّع علي الفرصة. إن كان لديك أيّ استفسار عن كالي، رجاء أذهب إلى مكان آخر.»

كان تصرف لولِن الغريب له علاقة بما جرى بتاريخ 16 مارس من عام 1968. كان في مركز مراقبة العمليات حين جرت مذبحة ماي لاي وقام بتسجيل وقائعها على شريط فديو، لم يقدمه إلى لجنة التحقيق طيلة ثمانية عشر شهرا. لم اعرف هذا الأمر من قبل، وفسّرت جهود لولِن لابطائي دليلا على وجود كالي في مكان قريب، ربّما في احدى المباني، التي لم اذهب إليها بعد. قلت بعض الكلمات لتطمين النقيب المسكين ومضيت في طريقي. بعد دقائق من المشاحنات مع نفسي، وصلت الباب الخلفي لاحدى البنايات المجاورة فدخلت ومشيت بين الصفوف المتجاورة لأسرة منظمة على جانبي قاعة النوم الفارغة تماما من البشر. صعدت إلى الطابقين الثاني والثالث مسرعا وأنا اتفحص الأسرة لعلي أجد الرجل الذي ابحث عنه. لا شيء. عبرت إلى البناية المجاورة وتجنّبت

النقيب لولِن وأنا ازحف علي يديّ وركبتيّ أمام نصف باب مكتبه المفتوح. وجدت في الطابق الثاني عسكريا شابا ببدلته الرسمية وشعره الأشعث الأشقر وهو يغط في نوم عميق. لا بُدّ أن يكون كالي نفسه. رفعت قدمي وضربت به الأرض بقوة عند السرير وقلت بصوت مهيمن، «أصحَ من نومك، يا كالي!» قال العسكري الشاب، الذي لم يبلغ بعد العشرين من عمره وهو يتثاءب، «ماذا تريد، يا رجل» لم اتبين الإسم الموجود على جانب قميصه سوى الأحرف الثلاثة الأخيرة «... سكي». كان واضحا أنّه ليس كالي. جلست تملأني الخيبة على السرير المقابل لسريره. ما حدث بعد ذلك يعود إلى خبرتي الأولى في التدريب العسكري ومشاركتي في فريق البيسبول في قاعدة لَنّرد. كنت اترك زملائي الجنود لأذهب للتدريب مع فريق البيسبول بعد الغداء مباشرة. عنى ذلك في وقته أنّني كنت اعود متعبا لألقي بنفسي على سريري وقت يكون زملائي قد عادوا إلى القاعة بعد انتهاء تدريبات فترة العصر. وعليه ووسط الخيبة التي تغمرني، بدر مني سؤال وجهته للعسكري، «كيف يمكن، بحق السماء، أن تكون نائما في سريرك في هذا الوقت من النهار؟»

إنّها قصة محزنة. لقد كان مقرّرا له أن يُسرّح من الخدمة قبل عدة أشهر، لكنّ اوراقه فُقدت ولا زال ينتظر. هو من اسرة فلاحية في قرية أتموا في ولاية أيَوا، وقد حلّ موسم الحصاد ويجب أن يشارك والده واخوته في تلك المهمة. قد يصدر أمر لتسريحه في أيّ يوم، وعليه فهو يمضي الوقت في النوم. اثار وضعه فضولي، وكيف يمكنني تجنّب ذلك؟ سألته إن كانوا نسّبوه لعمل ما. اخبرني أنّه «يصنّف رسائل البريد». سألته إن كان رأى رسائل معنونة إلى كالي. «هل تقصد الشخص الذي قتل العديد من الناس؟» «نعم، هو نفسه». أخبرني الجندي الفلاح أنّه لم يقابل كالي، بل طُلِب منه أن يجمع رسائل الملازم كالي، ويسّلمها لصديقه سمِتي، المسؤول عن البريد في مقرّ الفيلق. سرت الفرحة في أوصالي، لكنّني حافظت على هدوئي. سألته أين مقرّ الفيلق، فقال إنّه على مسافة ميلين تقريبا. «هل يمكن أن تأخذني إلى هناك». ردّ قائلا، «لا أستطيع. لقد فقد سمِتي رتبته كعريف لأنّه يشرب كثيرا، وهو ليس في مزاج يسمح له أن يتكلم مع أيّ شخص». خمّنت أنّ القضية سهلة، فالشاب بقي خاملا لأسابيع، وهذه فرصته ليتحرك قليلا. كانت الساعة تقترب من الرابعة. قلت له إنّني استأجرت سيارة فورد أوقفتها على بعد 100 ياردة تقريبا وسأذهب إلى الباب الخلفي للبناية وسأصل هناك خلال سبع دقائق، وسيقابلني هناك ليقدمني إلى سمِتي. كان هناك بانتظاري حين وصلت واستغرق ذلك منّي حوالي ربع ساعة كي أصل إلى مقرّ الفيلق. أصرّ صاحبي هذا أن اعيده إلى مكانه فأخذته بالسيارة ورجعت بسرعة إلى ساحة وقوف السيارات عند مدخل مقر الفيلق.

كان المقرّ في بناية قديمة، اعرف مثلها من أيام خدمتي العسكرية، وهي في العادة بناء خشبي له مدخل يغطيه سقف صغير. كان الباب مفتوحا وشاهدت عريفا اسود يجلس باسترخاء على كرسي مستمتعا بجو جورجا، وكان يضع مسواكا في فمه. اصلحت ربطة عنقي وتناولت سترتي وحقيبتي ونزلت من السيارة محاولا الظهور بمظهر محام. بادرته بالقول، «من فضلك يا عريف، احضر سمِتي إلى هنا الآن!» ابتسم العريف وتخيلته يقول لنفسه، «ماذا فعل الغبي سمِتي الآن؟» وفي تلك اللحظة جاء سمِتي وكان شابا بعمر الجندي من أيوا، الذي ينتظر تسريحه من الخدمة العسكرية. ما زالت خيوط رتبته العسكرية المرفوعة واضحة على سترته. قلت له، «تعال معي إلى السيارة»، فتبعني طائعا. حين لاحظت خوفه، طمأنته بسرعة واخبرته من أنا وماذا اريد. إعتذر سمِتي وقال إنّه لا يعرف الكثير عن كالي. بالتأكيد أنّه سمع أنّ الملازم قد اعدم العديد من الناس، لكنّ اتصاله به اقتصر فقط على جمع الرسائل المعنونة إليه وتسليمها له، لكنّه لا يعرف أين يسكن

كالي. قلت له بلا مبالاة، «إذن ليس للملازم كالي ملف في سجلات الفيلق؟» ردّ «لا، يوجد لكل شخص ملف يحمل رقم 201» اعرف أنّ الملف رقم 201 هو الملف الرئيسي لكلّ منتسب، لكنّني لم أقل شيئا. أضاف سمِتي «بإمكاني أن أسرقه». وبعد صمت طويل قلت «حسنا». فتح باب السيارة وانطلق مسرعا نحو البناية. نظر العريف الجالس على الكرسي ولم يحرّك ساكنا ولم يقل شيئا. عاد سمِتي وهو مفعم بالحيوية وفتح باب السيارة وجلس إلى جانبي. فتح ازرار سترته، التي خبّأ تحتها الملف الشخصي للملازم الأول وليم ل. كالي، الأبن. فتحت الملف فطالعتني نسخة لائحة الإتهام، التي عرضها عليّ جورج لتمِر في مكتبه في يوتا. قبل ايام. كما وجدت عنوانه في مدينة كولمبِس حيث يقيم. استنسخت بشكل متقن لائحة الإتهام فقرة فقرة واعدت الملف إلى سمِتي، الذي شعر بسعادة لأنّه ساعدني، وليذهب الجيش إلى الجحيم! غادر السيارة وتوجهت إلى منزل كالي الجديد.

وصلت هناك عند نهاية يوم العمل واستعنت بخارطة لشوارع المدينة بغية الوصول إلى عنوان سكنه. وصلت إلى مسكن صغير condo في منطقة حديثة البناء. لاحظت أنّ السيارة امامي قد استدارت نحو مدخل المنزل. نزل منها ثلاثة ضباط ببزّاتهم العسكرية، وكانوا جميعا برتبة ملازم ثاني. أوقفت سيارتي خلف سيارتهم وفتحت الباب وخرجت وقدّمت لهم نفسي بأنّني صحفي احاول العثور على بل كالي، الذي اعرف أنّه يسكن هنا. قالوا بصوت واحد أنّه انتقل. أخبرتهم أنّني قابلت لتوي محامي كالي وهو يعتقد انّ الملازم بريء من التّهم، وأنّه كان في المكان الخطأ في اللحظة الخطأ. دعوني للدخول وقدموا لي كأسا من البربن. أخبروني أنّهم تخرجوا في شهر يونيو من كلية وست پوينت العسكرية. وانهم جاءوا إلى بنِنگ لاستكمال مزيد من التدريبات قبل توجههم إلى فيتنام ليقودوا فصائل المشاة هناك. كانوا مؤدبين ومحبوبين للغاية. نعم، سكن كالي سكن معهم هنا لعدد من الأسابيع لكنّه انتقل. عرفوا جديّة الإتهامات الموجهة إليه، ولكنْ للقصة وجه آخر. تعرّض كالي والفصيل الذي قاده إلى وابل من النيران الكثيفة صوّبها نحوهم جنود متمرسون تابعون لكتيبة من الفيتكونگ الذين اوقعوهم في فخّ، حسب رواية هؤلاء الضباط. وحين كان الرصاص يتطاير من كلّ صوب، فمن الطبيعي أنّ بعض المدنيين سيقعون ضحايا، وهذه نتيجة حتمية للحرب. إنّها نفس القصة ونفس التسلسل الزمني، كما سمعتهما من جورج لتِمر. كان أولئك الضباط الصغار متحمسين جدّا للكلام، خاصة بعد أن شربنا المزيد من الكحول. قال احدهم، إنّ كالي يحضر احيانا لاستلام بريده. وبطبيعة الحال، هم يعرفون أين يسكن، لكنّهم لم يفصحوا عن ذلك ولم أطرح ذلك السؤال أنا ذاتي. اتصلوا بأحد المطاعم ليبعث لهم وجبة، ودعوني أن ابقى معهم واشاركهم تلك الوجبة. اعتذرت عن ذلك وقلت لهم إنّني ابغي الوصول إلى كالي. حلّ الظلام حين كنت استعدّ للمغادرة، فبادر احدهم من ذاته ليخبرني عن مكان وجود كالي. إنّه في جناح الضباط العزّاب، وهو جناح مخصص لإقامة الضباط الكبار المنسبين للعمل مؤقتا في قاعدة بنِنگ. فوجئت بهذا الخبر كثيرا. ضابط صغير متهم بجريمة قتل جماعي متخفّ في جناح لسكنى كبار ضباط الجيش؟ سأظلّ قريبا من القاعدة حتى اقابل الشخص الذي ابحث عنه. ما كان في ذهني حقيقة أن ابحث عنه في ذلك الجناح. إنّه يشبه حالة أن أجد كالي في غرفة طوارئ لحالات الولادة. دوّنت العنوان وانطلقت صوبه.

يتكون جناح إقامة الضباط الكبار العزّاب من بناية من طابقين، وربّما ثلاثة يأوي كل منها أربعين ضابطا للسكن في شقق من غرفة واحدة مخصصة لكلّ منهم. ويطلّ الجناح على ساحة كبيرة لوقوف السيارات. وصلت هناك بحدود الساعة الثامنة مساء وبدأت اطرق ابواب الشقق واحدا إثر الآخر وأنا اصيح «بِل، بِل كالي؟» جاء الردّ من خلف الأبواب، «اخرج من هنا!» أو «لا أحد باسم بِل موجود هنا». أمضيت أكثر من ساعة وأنا اواصل طرق الأبواب حتى اصبت بالإعياء. لقد وصلت من واشنطن في الخامسة من صباح ذلك اليوم، وها أنّي متعب جائع. غير أنّ حماسي لم يهن للبحث عن صاحبي. يسكن كالي في هذا الجناح وأنّني لا بُدّ أن اجده لأجري معه مقابلة حتى لو تطلب الأمر منّي عدة ايام. فكرت أن استأجر غرفة في نزل motel قريب من القاعدة على الطريق العام، فأنام ساعة أو ساعتين لأعود واستأنف طرق ابواب الشقق.

كان الظلام يغطي ساحة وقوف السيارات الفارغة، باستثناء سيارة واحدة على بعد مئات من الأقدام. كان يعمل تحتها رجلان استعانا بسلك كهربائي طويل اوصلاه بالبناية بغية الحصول على الضوء. اتذكّر جيدا أنّه خطرت لي فكرة أن أسألهما ما دمت هنا. اقتربت من السيارة، واعتذرت للمقاطعة واخبرتهما أنّني ابحث عن كالي. سحب احدهما نفسه من تحت السيارة، وكان بتقديري في سنّ اواخر الأربعينات. شرحت له أنّني صحفي من واشنطن وسمعت أنّ كالي واقع في مشكلة عويصة، وأنّني اريد أن انشر قصته كما ترد على لسانه. طلب منّي أن انتظر لحظة ثمّ مسح يديه وقال، «كالي غير موجود الآن، ويمكنك أن تجلس في غرفتي وتنتظره، إذا كان ذلك مناسبا لك». تبادل مع زميله، الذي كان لا يزال تحت السيارة، بعض الكلمات ومشينا معا صوب الجناح. تقع شقته الصغيرة في الطابق الأول وتقع شقة كالي فوقها تماما في الطابق الثاني. حذرني أنّ انتظاري ربّما سيطول لساعات قبل أن يحضر كالي. لقد ذهب للنزهة في زورق ليمضي وقتا على سطح البحيرة، التي تبعد أميالا قليلة عن القاعدة. نزهة في زورق على سطح البحيرة؟ ذلك بالضبط ما فعل كالي ذلك اليوم، كما اخبرني صديقي الجديد. وهو ضابط كبير قاد الطائرات المروحية خلال المعارك الطاحنة في حرب فيتنام. كان يعرف أنّ كالي واقع في ورطة كبيرة.

جلسنا وتناولنا اقداحا من البربن. يبدو أنّ الجيش الأمريكي يوفر البربن بسهولة لمنتسبيه. أدرك صاحبي بسرعة موقفي من الحرب، واعترف بحزن أنّ حرب فيتنام قاتلة لا يمكن الإنتصار فيه. وهذا ما اضعف ولاءه للجيش، الذي علمه كيف يكون طيارا ماهرا. قال، «إنّ كالي لابُدّ كان خائفا وأنّ قصته حول تبادل اطلاق النار الكثيف يصعب تصديقها». أحببت هذا الطيار واعجبت بأمانته. (ارسل لي بطاقات تهنئة بمناسبة عيد الكرسمس لعدة سنوات.) وبعد مضي ساعة تظاهرت فيها بشرب البربن من قدحي، قلت له إنّني ذاهب لأنّني متعب احتاج أن انام. ودعته وتركت الشقة. كان البعوض لازال يدور حول المصباح الخارجي المعلق عند مدخل المبني. توجّهت نحو سيارتي، وبعد خطوات سمعته يصيح، «هيرش، ارجع إلى هنا. لقد حضر رَستي». لم اكن مستعدّا لمقابلة صديق آخر له. «لا، لا، اقصد كالي». يبدو أنّ بل كالي معروف للجميع باسم رَستي.

صافحته وقدمت له نفسي واخبرته أنّني جئت لأنقل قصته. ردّ وكأنّ بحثي عنه مسألة سهلة، «صحيح، اخبرني المحامي بأن اتوقع منك زيارة». صعدنا إلى شقته وناولني زجاجة بيرة وبدأنا الحديث. كنت أودّ أن اكرهه، وأنا وجها لوجه مع هذا الوحش الذي صرع بمدفعه الرشاش

الأطفال والشيوخ. لكنّني وجدت نفسي أمام شاب مهزوز خائف قصير القامة ونحيل شاحب الوجه، بحيث يمكن رؤية الأوردة الزرقاء على رقبته وعلى كتفيه. كانت قصته المبدأية صعبة على التصديق، بطولة للقتال في السلاح الأبيض وتبادل اطلاق نار كثيف مصحوبا بالقاء قنابل يدوية وقذائف مدفعية لدحر الشيوعيين الأشرار. في لحظة معينة، غادر مقعده وذهب إلى الحمام وترك الباب مفتوحا. استطعت أن اراقبه عن طريق مرآة كبيرة معلقة على الحائط الجانبي فشاهدته وهو يتقيأ دما قاني اللون. كان ذلك نتيجة لإصابته بقرحة المعدة، كما علمت فيما بعد.

قاربت الساعة الثالثة صباحا حين اصطحبني إلى مقصف القاعدة واشترى قنينة بربن وعددا من قناني النبيذ. محطتنا الثانية كانت محل بقالة للقاعدة مفتوح هو أيضا لمد 24 ساعة يوميا. اشترى شريحة لحم وبعض الخضر. ثمّ ذهبنا لنقل صديقته، التي كانت تعمل ممرضة في نوبة المساء في مستشفى القاعدة الرئيسي. بان عليها الانزعاج منه لأنّه قدّمها لصحفي غريب، لكنّها فتحت باب السيارة وجلست خلف المقود. عادت بنا إلى شقته وطبخت شريحة اللحم والخضر وشربنا المزيد من الكحول. حين أطلّ الفجر، إقترح أن نذهب إلى قاعة البولنگ bowling. غادرت الممرضة الشقة وقتها واعتذرت له قائلا إنّني متعب للغاية. لقد ملأت دفتر ملاحظاتي، وكانت اكثر الإقتباسات ليست من مصلحته. إنّ روايته لما جرى في قرية ماي لاي ازدادت تناقضا كلما اطنب في الحديث عنها. حين كنت على وشك مغادرة الشقة، كان الصباح جليّا. أصرّ كالي أن اقابل النقيب أرنست مدينا، الذي كان قائد الهجوم على ماي لاي. بالمناسبة، برّأت المحكمة النقيب المذكور من تهم القتل المتعمد أو العرضي والهجوم، بعد مضي سنتين على وقوع المذبحة. إلتقط مدينا سماعة التلفون بعد أن رنّ مرّة أو مرتين، وكان موجودا في القاعدة ويخضع للتحقيقات مثل كالي، الذي اوضح له أنّه يتحدّث مع صحفي حول ماي لاي وأنّه يريده أن يتحدث إليه أيضا ويروي القصة من جانبه، وأنّ ما قام به كان تحت امرة النقيب ذاته. سمعت صوت مدينا واضحا حين قال ببساطة، «لا اعرف عمّ تتكلم!» ثم اقفل الخط. صُعق كالي من ذلك الرّد وربّما شعر في تلك اللحظة بأنّه سيكون كبش فداء لجرائم القتل التي ارتكبِت في ماي لاي.

كان الوقت متأخرا أو ربّما مبكرا للنوم. قدت سيارتي صوب مطار كولومبس واستقللت أوّل طائرة مغادرة إلى واشنطن. شرعت خلال وجودي في الطائرة بوضع هيكل القصة التي سأكتبها. لديّ نسخة منقولة بالضبط من لائحة الإتهام ومقابلة مستفيضة مع اللاعب الرئيس. كنت على وعي بأنّه يجب أن اضع مشاعري الشخصية حول الحرب جانبا، حين اكتب قصتي هذه.

بطبيعة الحال، كنت قلقا حول المشاعر التي ستُقابَل بها قصتي، وخطر في ذهني وأنا أضع السطور الأولى منها، كيف أنّ عائلتي في السنوات الأخيرة من الحرب العالمية الثانية كانت تسكن شقة مقابلة لدار السينما في شارع رقم 74 في مدينة شيكاگو. كانت اختاي الكبيرتان تأخذاني وأخي لمشاهدة افلام الحرب البطولية. كان شبابنا يقودون طائرات P-15 في محور حرب جنوب شرق آسيا وكانوا يشتبكون في معارك جوية مع الطيارين اليابانيين، الذين كانوا يقودون طائرات Zeros الكريهة. كانت كابينات طيارينا مفتوحة ولا يلبسون خوذا، بل يقتصرون على لفّ أوشحة بيضاء حول رقابهم ويرفعون اصبع الإبهام، وهم مبتسمين إلى الأعلى، إشارة للنصر قبل انطلاقهم. أمّا

اليابانيون، وكنا نسمّيهم Nips، فكانت كابينات طائراتهم مغلقة وتغطي وجوههم نظرات عابسة، ويضعون على رؤوسهم خوذا سوداء من القماش الناعم تُشدّ أسفل الذقن (تشبه ما كانت تضعه الأمّهات على رؤوس الأطفال لحمايتهم من برد الشتاء.) ثمّ تظهر لقطة يندفع فيها أحد طيارينا لإنقاذ طيار آخر تعرّض لهجوم الطائرات اليابانية، فيفرغ ذخيرة مدفعه الرشاش في هيكل طائرة زيرو المغيرة. ثمّ نتابع باهتمام وفرح الطائرة اليابانية، التي ما عاد طيارها قادرا على التحكم بها، فتهوى بسرعة باتجاه سطح البحر. وقبل أن تلامس المياه تظهر لقطة الدماء تسيل من جانب فم الطيار الياباني، ثمّ ترتطم الطائرة بالماء وتتفجر، وكنا نصرخ ونصفق استحسانا لبسالة طيارينا.

سأحاول الآن أن اروي قصة تقول إنّ الأمريكيين لم يقاتلوا بشرف أو بتعقل افضل ممّا فعل اليابانيون والألمان في الحرب العالمية الثانية. لم أكن متأكدا ممّا سيحدث، لكنّني اعرف أنّها لن تكون قصة سهلة.

الفصل العاشر

عار امريكا

بحلول فصل الخريف من عام 1969 تكون قد مرت عليّ حقبة وأنا اعمل مراسلا، واستطعت بطريقة ما أن أجد افضل السبل لأروي قصتي/موضوعي، بغضّ النظر عن الأهمية ومستوى التعقيد. كان هدفي دائما أن اكتب عمّا اريد وانشر ما أكتب.

بدأت تقريري الأول عن ماي لاي بالقول، «الملازم وليم كالي، الابن البالغ من العمر 26 عاما، دمث الأخلاق وله مظهر صبياني شارك في حرب فيتنام، ويسميه اصدقاؤه رَستي. يقول الجيش أنّه قتل عمدا 109 فيتاميا خلال مهمة عسكرية للقتل والتدمير في شهر مارس 1968» حذفت كلمة «آسيويين» oriental من وصف هوية الضحايا، بعد أن تلقيت تأكيدات من مكتب وزير الدفاع، ملفن لَيرد، بأنّ الجيش سيحذفها من نصّ صيغة الإتهام العسكري الموجه ضدّ كالي. اصبحت والوزير صديقين قريبين بعد أن ترك منصبه. أجروا حذف كلمة oriental من وصف هوية الضحايا، لخوفهم من اضفاء صفة عنصرية على ما جرى. ربّما تكون له انعكاسات سلبية ضدّ الجنود الأمريكيين، الموجودين في فيتنام الجنوبية، من الذين ليست لهم علاقة بالمذبحة.

كتبت القصة بأفضل ما املك من مهارتي السرد والتعبير، واتصلت بعد أن فرغت من ذلك بصديقي المحرر في مجلة لايف كي اخبره أنّ القصة جاهزة، إذا كانت المجلة مستعدة لنشرها كاملة بسرعة. عاد المحرر واتصل بي بعد ساعات قليلة معتذرا عن قبول العرض. أخبرني أنّه فعل كلّ ما في وسعه، ولكن هناك اهتمام محدود للغاية على مستوى الإدارة العليا لنشر مثل هذه القصة. كنت قبل فترة على اتصال بمحرر آخر من مجلة لُك، وهي مجلة أسبوعية معروفة أخرى، وعرضت عليه إن كانوا يرغبون في نشر قصتي، طلب أن الخصها في صفحتين لعرضها على الإدارة. حين اتصلت به هذه المرة قلت له إنّ القصة أطول ممّا كنت توقعت وأخبرته عن مقابلتي مع كالي، فاعتذر هو الآخر عن النشر. شعرت بالألم يعتصرني للرقابة المشددة التي فرضها زملائي عليّ ويريدون إلزامي على الإقرار بها. من جهة أخرى، خشيت من أخذ قصة ماي لاي إلى صحيفة معينة لأنّ هناك مجازفة بأن يعطي المحررون هناك قصتي للمراسلين العاملين معهم، فتتحول إلى حبكة شائعات عابرة صعبة التصديق. وعليه، شعرت بالحاجة إلى محام ليراجع ما كتبتُ خوفا من

أن يقيم عليّ أحد دعوى ويجرجرني إلى المحاكم مطالبا بتعويضات مالية. لديّ زميل من ايام دراستي التي لم تكتمل للقانون في جامعة شيكاگو، واسمه مايكل نوسبَوم. كان طالبا متقد الذكاء ومثابرا، عكس ما كنت عليه في تلك الكلية. لكنّنا اصبحنا صديقين، وهو الآن شريك في مكتب محاماة مشهور في واشنطن. أصبح خبيرا في التقاضي أمام المحاكم وناقدا صريحا لحرب فيتنام، وأعدّ كتيبا حول تجنب الخدمة العسكرية الإلزامية بالطرق القانونية.

وصلت متأخرا مساء احد الأيام لبيته الصغير الواقع في منطقة جورجتاون في وقت كان فيه العازب مايكل يودّع سيدة عند باب البيت. قرأ القصة التي كتبتها وسألني العديد من الأسئلة ذات العلاقة واقترح ادخال بعض التعديلات الطفيفة، واخبرني في النهاية أنّ مكتب المحاماة سيقف إلى جانبي إذا تعرضت لأيّة مشكلة قانونية. لم نتحدث عن الأجور المطلوبة ولا الإلتزامات. لم يكن مايكل جديدا في عالم المادة الأولى المعدلة من الدستور حول حرية الكلام والرأي، إذ تضم لائحة الأشخاص، الذين يدافع مكتبه نيابة عنهم، رالف نادر وعدد من صحفيي واشنطن پوست. توفي مايكل عام 2011 لإصابته بالسرطان، بعد أن دافع عني بنجاح خلال سبع دعاوى طيلة حياتي المهنية. حين نعيته في مجلة نيويوركر، اخبروني عن اقتراحه الذي سهّل نشر تقريري الأول عن ماي لاي بخمسة اجزاء. قلت في ذلك النعي:

لست متأكّدا كيف طُرِح الموضوع، لكنّه كان واضحا أنّ مايكل لدى اطلاعه على مقابلتي مع كالي، أنّ اقوال الأخير ستكَون كارثية في نظر القانون، لأنّها تميل إلى مناقضة ما أدلى به مسبقا لمحققي الجيش. نصحني بالعودة إلى جورج لِتمِر، محامي كالي واطلاعه على كافة ما اخبرني به.

فعلت ذلك واتصلت بالقاضي المتقاعد، الذي قابلني بذهول، وكيف أنّ مايكل على حقّ بأنّ تصريحات كالي امامي تتناقض مع ما ادلى به في شهادته تحت القسم خلال التحقيقات العسكرية، التي اجريت معه.... أضاف لِتمِر أنّه إذا نشرت نصّ المقابلة على حاله، فإنّي أكون بذلك اضيّع فرصة كالي وحقه الدستوري في الحصول على محاكمة عادلة. إقترح عليّ فكرة، بأنّه إذا تمكنت بطريقة ما أن أتحاشى القول إنّ تصريحات كالي لي كانت مباشرة... وأن يطلع على التعديلات المقترحة سطرا سطرا وتصحيح «الأخطاء الحقيقية» حسب ما يراه... الخ. وهكذا قضيت مع جورج لِتمِر وقتا طويلا ونحن نتحدّث بالتلفون. قام بتصحيح بعض التواريخ وعدّل بعض المقاطع والعبارات، ودوّن كيفية كتابة اسماء الآخرين، الذي ساهموا في الهجوم...الخ. كان دقيقا للغاية، لحدّ أنّي علمت بعد سنوات حين قدمت طلبا للحصول على معلومات، وفق قانون حرية المعلومات، أنّ محللي الجيش، الذين دققوا مقالتي الأولى عن ماي لاي، التي نشرت في خمسة اجزاء، كانوا على قناعة أنّني لا بُدّ اطلعت على اكثر ملفات الجيش المتعلقة بالقضية.

كان له فضل آخر عليّ. أخبرني لِتمِر أنّه بإمكاني إشعار المحررين والمراسلين الآخرين أن يتصلوا به، إن احبّوا ذلك، وأنّه مستعد لاخبارهم أنّه راجع ما كتبت، وقدر تعلق الأمر به، فإنّ كلّ ما ذكِر عن موكله كالي صحيح لا شائبة فيه. إلتزم الرجل بما وعد، رغم أنّه وكالي لم يتحدّثا معي بعد نشر القصة.

أستمرّ ديفد أوبست يلحّ على أن تتولى وكالته الإخبارية الصغيرة نشر قصتي، خاصة بعد تراجع مجلة لايف ومهزلة مجلة لُك، لكنّني ما كنت مقتنعا برأيه. حافظت على اتصالي مع آي أف ستون وشرحت له متاعبي الأخيرة، فاستجاب لحالة اليأس التي اعترتني. ذكر أنّه يعرف بوب سِلفِرز، محرر مجلة نو يورك لمراجعة الكتب، وأنّ الأخير مستعد لنشر قصتي في الحال.(نشروا لي مقالة أو مقالتين بعد أن نشروا كتابي عن الأسلحة الكيمياوية والجرثومية على شكل حلقات.) هاتفت سِلفِرز، وكان ذلك في اليوم الذي أوقفوا فيه نشر المجلة نصف الأسبوعية. طلب منّي أن أملي القصة على احد العاملين هناك. برزت المجلة تحت قيادة سِلفِرز لتكون صوت الحركة المناهضة للحرب. حين تكلمت معه، أخبرني أنّه توّاق لمعرفة محتوى القصة وأنّه يخطط لأن يعمل ما عمله مرات قليلة في تاريخ المجلة، بأن يضع العنوان على غلاف المجلة. طلب مني أمرا واحدا فحواه إن كان بالإمكان أن اكتب مقطعا قصيرا اضعه في بداية القصة واشرح فيه معنى المذبحة، ضمن اطار الأعمال الوحشية التي ترتكب كلّ يوم من ايام الحرب. كنت طبعا على وعي بأنّ المحررين يرغبون دائما أن يضيفوا «نكهتهم» للقصة الجيدة. ضحكت وقلت له بأنّ من المؤكّد عدم وجود حاجة لأخبر القراء عن الأهمية السياسية للقضية ضدّ كالي. لكنّ بوب اصرّ على الطلب، فرفضته رفضا تاما. قال بأنّه لن ينشر القصة دون إضافة الكلمات، التي ارادني أن اكتبها. ودّعته وانتهى الأمر.

كنت مصرّا على الرفض لأنّني اعرف من خلال سنوات انغماسي في مواضيع الحرب وعاملي العنصرية والخوف، اللذين يدفعان بها، وأنّ جرائم القتل الجماعي للمدنيين يتكرر حدوثها أكثر ممّا نعلم به. لكنّ الأمر المهم هو وجود محاكمات لهذا الغرض. لدينا الآن قضية فحواها أنّ الجيش يريد أن يضع حدّا لمثل تلك الممارسات، ويقول كفى وأنّه لن يسكت بعد الآن عليها. لن اسمح، ولو من خلال مقطع واحد أن تصفع الحركة المناهضة للحرب وتندسّ في تقريري الواضح المباشر عن جريمة قتل جماعي كتبت عنها، حتى لو كان سيُنشر في مجلة مناهضة للحرب.

إنّ اختلاف وجهة نظري مع سِلفِرز، وهو الذي أخذ جانبي دائما، أظهر لي أنّه لا مجال أنّني سأتمكن من نشر قصتي كما هي وحسب رغبتي، ما لم أجد طريقة ما لتحمّل مسؤولية نشرها. لقد بدأت العمل في ميدان الصحافة وأنا في سنّ 25 عاما، وأنّ حقيقة وجود نوسبَوم ومكتب محاماته في واشنطن للدفاع عني في حالة وقوع مشكلة، هو البداية الجيدة. اتصلت بصديقي دَيفد أوبست واخبرته أنّ بإمكانه نشر قصتي بشرط عدم ادخال أيّ تعديل على نصّها. أخبرته أنّ وكالة انباء دسپاچ هي صاحبة حقوق الطبع والنشر والتوزيع لقصة ماي لاي، وأنّها بالتالي تتحمّل المسؤولية الكاملة عنها. إتفقنا أنّ أيّة صحيفة ترغب في اعادة نشر القصة يجب أن تدفع مبلغ 100 دولار لذلك الغرض، مهما كان حجم توزيعها وتتحمّل أيضا مسؤولية النشر. وبطريقة ما كانت لدي ثقة بأنّ ذلك الشاب البالغ من العمر 32 عاما، والذي اوقع نفسه بمشاكل كثيرة وخرج منها سالما، سيكون قادرا على انجاز المهمة.

كانت توجد اسباب عديدة لإثبات خطأي. جاب دَيفد شوارع شيكاگو مشاركا في تظاهرات انعقاد مؤتمر الحزب الديمقراطي عام 1968، وكان ضمن الناشطين الصلبين في التظاهرات المناهضة للحرب، والتي جرت في بَركلي في كاليفورنيا. وكان في نفس الوقت قد خبر التأثيرات الرديئة وغير الرديئة للمخدرات في الشوارع. سيكون دَيفد هذا قادرا على التعامل مع المحررين

الكبار في الصحف الرئيسية في البلد! وهؤلاء هم نفس الذين تجاهلوا الحركة المتنامية لمناهضة الحرب. في السنوات التي تلت ذلك، ذهب لمساعدة دانييل الزبرگ لنشر كتابه المعنون (أوراق البنتگون) واصبح الوكيل الأدبي لكلّ من جون دين وبوب وودورد وكارل برنستين، الذين نالوا الشهرة خلال فضيحة ووتر گيت. أصبح بعدها شريكا في دار نشر راند هاوس، وحتى أنّه لعب دورا في فيلم «إنتقام الأذكياء الإنعزاليين» Revenge of the Nerds، وهو فلم ذاع صيته في فترة الثمانينات. لكنّ إقناع المدراء التنفيذيين للصحف لنشر قصة عن جريمة قتل جماعي في فيتنام، فكان أمرا آخر.

ما فعله دَيفد معجزة بحدّ ذاتها، كمعجزة وصولي للعثور على كالي في قاعدة بنِنگ. في مذكّراته التي نشرها عام 1998، تناول الطريقة التي تمكّن بواسطتها أن «يبيع» قصة ماي لاي، وكان ذلك صباح يوم الأربعاء الموافق 12 نوفمبر من عام 1969.

حصلت على نسخة من كتاب عنوانه (سوق الأعمال الأدبية) الذي احتوى على اسماء وارقام هواتف كافة الصحف الصادرة في الولايات المتحدة. فتحت الصفحة الأولى واتصلت بدأ بالحرف A وحين وصلت إلى الحرف C لاحظت اسم صحيفة هارتفرد كَرِنت في ولاية كَنَتِكَت. قالوا إنّهم يرغبون في نشر القصة وطلبوا نسخة منها... لم افكّر حقيقة كيف أوصل لهم النسخة المطلوبة. ما رغبت أن اقوم باستنساخها وبعثها لهم، كما فعلت مع وكالتي. يتطلب الأمر مدة ثلاثة أيام لكي يستلموها. سأفكر في ذلك فيما بعد. يجب أن ابيعها لهم أولا!

استمرّ ديفد في عمله وعبّر المزيد من المحررين عن رغبتهم لنشر القصة، بسبب أنّه قد تمّت مراجعتها من قبل المحامي نِسبَوم وأنّ جورج لِتمِر، محامي كالي، قد اطلع عليها واشاد بدقتها. شرح أحد المحررين الذين صادقه دَيفد، بأنّ من الممكن ارسال قصة كالي المؤلفة من 1500كلمة عن طريق التلكس Telex، الذي يضمن وصولها إلى أيّ محرر خلال ساعة واحدة. ولأنّه ليس لدينا مال كاف فقد تمّ ارسال القصة عن طريق التلكس، على أن يدفع المستلم الرسوم المطلوبة.

أمّا جهودي الشخصية لبيع القصة فقد انتهت خلال يوم كارثي واحد. كنت صديقا مقربا من لاري ستَرن، وهو محرر متفوق في مكتب صحيفة واشنطن پوست. دعاني نِسبَوم لمقابة بن برادلي، المدير التنفيذي الشديد الجاذبية. وصلنا بعد الغداء واجتمعنا في مكتب محرر الشؤون الخارجية فِل فُويس. وزّعت نسخة من قصة كالي على المحررين والمراسلين الخمسة، الذين تجمعوا حولي. ساد المكتب صمت لبعض الوقت ليقرأ الحاضرون القصة. ثمّ رمى برادلي الغاضب أربع أو خمس صفحات من القصة في الهواء وقال، «اللعنة... عندي 600 مراسلا يعملون في صحيفتي، وتأتي هذه القصة من شخص خارجي... انشروها فهي تبدو صحيحة». كان هذا قبل سنوات قبل أن يتقلد برادلي وسام البطولة بنشر فضيحة ووتر گيت. شعرت في تلك اللحظة أنّ أمام المحررين خياران، إمّا أن يُعجبوا بهذا الرجل أو يتركوا العمل في صحيفة (امضيت أيام الأحد معه بلعب الشطرنج خلال فترة الثمانينات، وعرفت شخصيته، ولماذا يكنّ له العديد من المراسلين في صحيفته التقدير والمودة).

بالرغم من اعجاب برادلي بقصتي، فقد عهد إلى أحد المحررين مهمة مراجعتها وتدقيقها وإعادة كتابتها، مخالفة لشروط الإتفاق. نُشِرت القصة مقطعة تتخللها تحذيرات وبيانات انكار من البنتاگون، ولكن القصة مع ذلك طبِعت على الصفحة الأولى. وُزّعت النسخ المبكرة في الصحيفة قبل منتصف الليل. كانت محاولة وضيعة، خاصّة وأنّ الشخص الذي عُهِد إليه مراجعتها وإعادة كتابتها هو بيتر برستزَپ، الذي اتصل بي قبل ساعات من بزوغ الفجر ليقول لي إنّني إبن عاهرة كاذب. لا يمكن أن يقتل عسكري واحد 109 مدنيا، لأنّ هذا أمر مستحيل. اعتقدت أنّه مخمور، ولكن ربّما لم يكن. لم أستطع بعدها العودة إلى النوم، لأنّني حقيقة لم اطلع على شريط فديو أو صور فوتوغرافية، لتأكيد وقوع المجزرة الجماعية. شعرت فيما بعد أنّ قصة ماي لاي قد صدمت العديد وجعلتهم لا يفكرون بطريقة عقلانية. كان رقم هاتفي موجودا في دليل التلفونات، وترتب على ذلك أنّني تلقيت خلال الأشهر التالية سيلا من المكالمات والشتائم والتهديدات الرخيصة من اشخاص غاضبين، ربّما كانوا ضباطا أو جنودا خدموا في فيتنام، وفي العادة كانوا مخمورين. كان برستزَپ أكثر الغاضبين واشدّهم حدّة، وله العذر خاصّة بعد أن عرفت تاريخه. لقد كان ضابطا في البحرية واصيب بجرح بليغ في حرب كوريا، وعُيّن بعدها مدير مكتب صحيفة واشنطن بوست في سايگون. من الواضح أنّني كنت اتوقع ردّ فعل غاضب وقوي من العديد من موظفي الحكومة والعسكر، لكنّ موقف برستزَپ حذرني أنّ الإستياء يمكن أن يصدر أيضا من قبل زملائي في المهنة.

كنت على ثقة أنّني ساجتاز النقد الموجّه لي من قبل برستزَپ وغيره. دارت في ذهني الآن صور تلك الصباحات الباردة العاصفة الممطرة والمثلجة، وأنا في سنّ الشباب المبكر، حين كنت افتح محل والدي، الذي توفي منذ زمن، الواقع في شارع انديانا. كنت افتح المحلّ في الساعة السابعة صباحا فأضيء المصابيح ويحضر العمال ونستعد ليوم عمل في تنظيف الملابس وكيّها. كنت استرق بعض الوقت للقيام بواجباتي المنزلية استعدادا للذهاب إلى أحد صفوفي في جامعة شيكاگو. لقد اجتزت تلك المحنة وأنا شاب صغير، وأنّني لا شكّ سأصمد في وجه الانتقادات لقصة كنت اعرف أنّها حقيقية. لقد منحتني شيكاگو نوعا من الصبر وعلمتني الصمود، الذي بقي معي ولازمني خلال مهنتي في عالم الصحافة وجعلني احافظ على توازني ولا اسقط ضحية الضغينة، حين تتمّ معاملة ما اكتب بطرق وحشية، كما حدث في بعض المرات.

لم تكن لديّ ولا لدى أوبسِت فكرة، إن كان محررو الخمسين صحيفة في البلد، ممّن اشتروا حقوق القصة قد نشروها فعلا. كان ذلك طبعا قبل ظهور شبكة الإنترنت، ويجب الإنتظار إلى ما بعد ظهيرة اليوم التالي، حين تصل الصحف إلى الموزعين والباعة في الشوارع. تُبعث القصة من مبنى الصحافة الوطنية، حيث يوجد مكتب وكالة دسپاچ. لقد حقق دَيفد معجزة حين قامت صحف كبرى مثل شيكاگو سن تايمز وفيلادلفيا بُلِتِن وسَنت لِوي دِسپاچ بنشر قصة كالي على صفحاتها الأولى في اليوم التالي وكُتب عنوانها بخط عريض ملوّن. لم تظهر صحيفة نو يورك تايمز رغبة في شراء القصة، لكنّ صحيفة نو يورك بوست اشترتها ونشرتها بشكل ظاهر.

لم تُعِر شبكات التلفزيون القصة أيّ انتباه، بسبب أنّ البنتاگون تصرف بفطنه ولم يعطِ أيّ تعليق عنها. كما أنّني لم أتلق سيلا من الطلبات، كما تصورت، من الصحفيين الناشطين أو من جنود وضباط خدموا في فيتنام، ولديهم قصص مرعبة أخرى عمّا جرى خلال خدمتهم ويريدون نشرها واطلاع الناس عليها. وبعد مضي عدة ايام تذكّرت مسألة المراقبة الذاتية، التي يبدو أنّها اخذت تحكم

قبضتها على التغطية الإعلامية للحرب. وبدلا من أن يكلف بعض المحررين مراسليهم ليتابعوا أو يكشفوا ما جرى، اتصلوا بصديقي أوبسِت كي يعرفوا إن كان هناك المزيد من الأخبار لمتابعة القصة. ولشدّ ما اثار غضبي أنّ أوبسِت قد وعدهم بنشر المزيد.

جرت مناقشة حامية في البرلمان البريطاني حول جرائم كالي، التي توسعت مجلة تايمز بنشرها والتعليق عليها. في الحقيقة أن تايمز كانت المنبر الإعلامي الوحيد الذي أوفد مراسلا اسمه هنري كام، وهو مراسل خبير في القضايا الخارجية، لزيارة قرية ماي لاي والقرى المجاورة لها، التي كانت قبل الحرب منطقة حقلية زاهية بتجمعاتها الفلاحية على ساحل بحر الصين الجنوبي. يبدو أنّه نقِل بالطائرة إلى منطقة لتجميع الناجين من المذبحة، وكتب تقريرا مطولا نُشِر يوم الخميس الموافق 13 نوفمبر، أتى فيه على شهادات الناجين، الذين اكّدوا مقتل 567 ضحية من الشيوخ والنساء والأطفال على يد القوات الأمريكية. برزت شكوك واسعة في الإعلام حول قصتي اثارتها بعض الصحف بما فيها واشنطن پوست، التي أتت على المصاعب الجمّة التي يواجهها الجنود الأمريكيون، وهم يخوضون حرب عصابات ضدّ عدو يتظاهر بأنّه يضم فلاحين خلال النهار ومقاتلين في الأوقات الأخرى. كانت الرسالة «المستترة» هي أنّ الجنود الأمريكيين غالبا ما وجدوا انفسهم في مواقع تتطلب إطلاق النار أوّلا، أو أن يصبحوا هم الضحايا. مّن أنا حتى يمكنني أن أحكم على مجريات تلك الحرب؟

حدث الإنفراج في ليلة يوم الأحد. ذكر أوبسِت في مذكراته ما يلي:

حضر ساي إلى بيتي وجلسنا نتباحث حول الخطوة التالية، التي يتوجّب القيام بها، وكيف نتابع الموضوع. لم يحدث للقصة صدى كبير، كما توقعنا. لقد تجاهلتها مجلة نيوزويك ومجلة تايم. راجعنا الوسائل، التي اتبعتها الصحف، التي اشترت حقّ نشرها... وفجأة لمح ساي قصة أخرى في صحيفة واشنطن پوست، عن شخص اسمه رونلد رايدِنأوَر، الذي أعلن أنّه مسؤول عن كشف الخيوط الأولى لمذبحة ماي لاي. وهذا ما دفع الجيش لفتح التحقيق حولها. قفز ساي من مقعده وهو يصيح، «الولد، الولد، الولد». فجأة تبدّى كلّ شيء واضحا أمام ساي، الذي طالما تساءل لماذا نشر الجيش غسيله الوسخ عن الجريمة. لماذا وجّه الجيش اتهامه للملازم كالي؟ الجواب عند رايدِنأوَر. اسرع إلى التلفون وبدأ يستقصي عن هذا الشاب. خطط أن يستقل أوّل طائرة متوجهة إلى لوس أنجلِس لمقابلة رون، الذي يدرس في ذلك الحين في كلية كلَيرمونت.

لم يذكر دَيفد أنّ الخبر عن رايدِنأوَر قد ورد فى مقطع قصير عن قصة نشرتها وكالة الإسيوشيتد پرس مصدرها مدينة فِنِكس في أريزونا، ووردت في نهاية تقرير لصحيفة واشنطن پوست حول المخاطر، التي يواجهها الجنود الأمريكيون في الحرب. وصلت يوم الإثنين إلى القسم الداخلي لكلية كليرمونت حيث سكن رون. يقع مبني الكلية على مبعدة 35 ميلا شرق مدينة لوس أنجلِس. ذهبنا سويّة لتناول الغداء. من المدهش، وربّما ليس من المدهش، أنّني كنت أوّل صحافي يقابله وجها لوجه. لقد تحدث معه بالتلفون شخص من مجلة تايم وآخر من وكالة الأسيوشيتد پرس، ولكن لم يكلف احدهم عناء قطع مسافة 35 ميلا لمقابلته. أعني هنا العاملين في صحيفة لوس أنجلِس تايمز، وهي أكبر صحيفة في الساحل الغربي. تحدثنا لمدة 5 ساعات. لم يكن مشاركا في الهجوم

على قرية ماي لاي ولم يساهم في المذبحة، لكنّه امضى سنة من الخدمة العسكرية في حرب فيتنام مع وحدة في المواقع الأمامية، وتسمى LRRP، التي تقوم بدوريات استطلاع للمراقبة الطويلة المدى. ذكر أنّه كان في طائرة مروحية حامت حول منطقة ماي لاي في اواخر شهر مارس من عام 1968 ولاحظ خرابا غير معهود. كتب فيما بعد فقال، «لم أسمع تغريد طائر واحد». لم يعرف رون ما جرى حتى نهاية شهر ابريل، حين اخبره جندي من مفرزة كالي أنّ القليل، وربّما لا أحد من القرويين في ماي لاي قد نجا من المذبحة. رغب رون أن يعرف المزيد لكنّه أدرك خطورة متابعة طرح الأسئلة عمّا جرى. أخبرني أنّه لم يدون أيّة ملاحظات، وهو يجمع المعلومات سرّا، لخوفه على سلامته، إذا أمسِك به وهو يفعل ذلك.

انتهت مدة خدمة روني الإلزامية في فيتنام في شهر نوفمبر عام 1968. توفرت لديه معلومات مباشرة عن الجريمة حصل عليها من خمسة افراد من فصيل كالي، الذين أكّدوا له صحّة تلك المعلومات. عاد في شهر مارس من عام 1969 إلى مدينة فِنِكس في ولاية أريزونا. كتب رايدِنأوَر رسالة مفصلة من ألفي كلمة ضمّنها اسماء ورتب الضباط والجنود، الذين ساهموا في ارتكاب المجزرة، وبعثها إلى اكثر من 30 مسؤولا في واشنطن. منهم الرئيس نِكسُن و15 عضوا في مجلس الشيوخ و5 أعضاء يمثلون ولاية أريزونا في مجلس الشعب والى وزارة الخارجية والبنتگون ورئيس أركان القيادة الموحدة ووزارة الجيش. كما بعث نسخة من رسالته إلى ثلاث آخرين من اعضاء مجلس الشعب بما فيهم مندِل رِفَرز. انكرت مكاتب 22 مسؤولا ممّن ذكروا اعلاه استلام رسالة رايدِنأوَر، لكنّ الرسالة فعلت فعلها. اخبرت وزارة الجيش رايدِنأوَر في شهر ابريل أنّها بدأت تحقيقا، وطلبت من الجندي السابق أن يتحلى بالصبر لأنّ المطلوب أولا أن يدققوا صحة المعلومات، التي زوّدهم بها، وقد يتطلب الأمر عدة شهور.

خشي رايدِنأوَر من أن يتمّ تغطية الجريمة والتستر عليها، لأنّه فهم من كافة الذين تحدث معهم عنها وكانوا مشاركين فيها أنّه لم تكن لديهم دوافع ليدلوا بكلّ شيء صراحة أمام المحقق العسكري. قرّر في اواخر شهر مايو أن يذيع اخبار المذبحة بنفسه. إتصل بوكيل أدبي ساعد على نشر الرسالة في مجلة لايف ومجلة لُك ومجلة هارپر، وفي صحيفة واشنطن پوست. لم يستجب مالكو مجلة نيوزويك لنشر الرسالة. حين تحدثت معه، استعاد رايدِنأوَر اسم محرر مجلة لايف. وهو نفس الشخص الذي اتصلت به تلفونيا قبل اربعة اشهر فاعتذر عن نشر قصتي. وها هو يعود بعد ذلك لينشر تقريرا موجزا عن المذبحة. لو كانت توجد جهنم خاصة للصحفيين، فإنّ مكان ذلك المحرر محجوز فيها.

كان روني صريحا بصدد نقص خبرته الصحفية، واشار صراحة إلى شعوره بالفخر لمقابلة مراسل حقيقي استقصى فتوصل إلى العثور على كالي وقابله وجمع الأدلة على أن الجيش كان يعدّ العدّة لإدانته. أدركنا كلانا أنّ الموضوع الآن ابعد بكثير عن كالي وأن اغلب الرجال في وحدة چارلي قد شاركوا في عمليات القتل والتغطية عليها. أعطاني روني اسماء وعناوين الشهود، الذين تحدّث معهم، فلربّما لديهم معلومات أكثر يودون البوح بها. والأهمّ من ذلك معرفة وجبة عيد الشكر التي اعدّت خاصة لوحدة چارلي في عام 1967، حين كانت تتدرب في هوايي قبل التحاقها بحرب فيتنام. اخبرني الأسماء الحقيقية لضباط الوحدة ورتبهم وكيفية تهجئة اسمائهم واسماء

جنودهم. اقترح عليّ أن أقابل أثنين من هؤلاء، وهما مايكل تَري ومايكل بَرنهارت. تسرّح تِري من الجيش ويسكن الآن في ولاية يوتا، ألا أنّ بَرنهارت ما زال جنديا في الخدمة الفعلية في قاعدة دِكسي في نو جرزي. ودّعته وتمكنت من حجز مقعد على طائرة ستغادر في وقت متأخر من ذلك المساء إلى صولت ليك سِتي. أدركت أنّني عثرت على صديق مدى الحياة، شجاع وكريم أسمه رايدِناوَر، الذي أصبح فيما بعد صحفيا ونال جائزة جورج پَولك عام 1987، بعد أن امضى سنة كاملة يستقصي فضيحة ضريبية في مدينة نو أورلينز، مدينته الأصلية. توفي صاحبي هذا عام 1998 وهو في سن58، وذلك سنّ مبكّر، لكنّ نوبات القلب لا تتقيّد بالأعمار.

حملت عنوان مايك تَري، لكنّني لم استطع الاتصال به هاتفيا. كان الوصول إلى مدينة أورم على مبعدة 45 ميلا إلى جنوب مدينة صولت ليك سِتي سفرا نحو الجحيم. هبّت عاصفة ثلجية شديدة وأنا اقود سيارة استأجرتها في المطار على طريق مظلم متعرج تغطيه الثلوج في منطقة جبلية لا اعرف عنها شيئا. حين وصلت إلى المدينة بعد جهد جهيد كانت الأضواء مطفأة. بلغ عدد سكانها في ذلك الحين 25 ألفا. قدت سيارتي على غير هدى حتى عثرت على محطة تعبئة وقود، فحصلت على معلومات حول كيفية الوصول إلى العنوان، الذي ابغيه. كان بيت تَري الخشبي متواضعا جدا، وكان الوقت منتصف الليل تقريبا حين طرقت الباب، ففتح صبي سألته عن اخيه الأكبر، الذي حارب في فيتنام. دعاني للدخول دون أيّ سؤال ولاحظت وجود مدفأة نفطية اعادت إلى ذهني مدفأتي النفطية في مطلع عملي الصحفي في مدينة پيير. وبعد لحظات جاء تَري وهو يرتدي بجامة. يبدو أنّ حضور الزوار في ساعات الليل المتأخرة جدا أمر مألوف في أورم. قدّمت نفسي وذكرت له زيارتي إلى كالي ومقابلتي مع رايدِناوَر، وسألته ماذا يتذكّر عن ذلك اليوم المشهود. بادرني بالسؤال «هل تريدني أن أخبرك ما أخبرت به العقيد؟» نعم. ذكر لي رايدِناوَر، أنّه بعد أن بعث برسالته إلى المسؤولين المختلفين، اتصل به محقق جنائي عسكري اسمه العقيد وِلسُن، الذي حثه بشكل مستمر بأن يمتنع تماما عمّا يقوم به تَري الآن أمامي، وهو التحدث عن الموضوع. كان تصريح تَري لي قد تصدّر السطور الأولى على الصحف حول العالم. قال، «يمكن القول أنّني كنت شيئا أشبه بجندي نازي». قال ذلك وهو يصف الخندق الذي رموا فيه النساء والأطفال والشيوخ وبدأوا بإطلاق النار عليهم وإبادتهم جميعا. سجلت ملاحظاتي لفترة ساعات، وهو يستعيد ما جرى صباح ذلك اليوم الحزين.

شكرته وغادرت بيته عائدا إلى منطقة مطار صولت ليك سِتي على أمل أن اتوقف في نزل قربه لأغفو ساعة أو ساعتين قبل أن استقل الطائرة التالية. تحدثت مع أوبسِت واخبرته أن يعلن للعالم من خلال وكالة انباء دِسپاچ أنّ لدينا الأن فصلا آخر عن شهود المذبحة نعدّه للنشر قريبا. طرت إلى فيلادلفيا واستأجرت سيارة من المطار وتوجّهت إلى قاعدة دِكسي في نو جرزي، التي تبعد حوالي ساعة بالسيارة. الهدف أن استقصي اخبار مايكل بَرنهارت لعلي أحظى بمقابلته. اخبرني أنّه شهد أكثر ممّا كان يُطيق، وكذّب، كما فعل مايكل تَري قبله، قصة رَستي كالي المفبركة حول هجوم مزعوم. كشف رايدِناوَر وتَري وبَرنهارت تفاصيل مرعبة لحالات جنون اصيب بها الجنود وضبّاطهم وهم يجدون متعة بتمزيق اجساد الأطفال الغضة بحراب بنادقهم الحادة جدا، واستعمال القنابل اليدوية الشديدة الانفجار، التي تبعثر أشلاءهم المتطايرة في الهواء. ذكر بَرنهارت أنّها كانت المرة الأولى، التي ساهم فيها بمهمة القتل والتدمير ضمن فعاليات الجيش الأمريكي. أضاف قائلا، «يبدو أنّني ربّما تغيّبت ليوم أو إثنين عن التدريبات، فهذه هي الطريقة التي يجب أن نقاتل بها العدو.

لكنّ أحدا لم يخبرني بذلك. لقد كانت شيئا يشبه النكتة. فاتك أن تتعلم وأنت في الصف الثاني الابتدائي كيف تتهجّى. أمّا الآن فافتح عينيك واسعا لتشاهد كافة العسكريين يساهمون في قتل المدنيين جميعا.»

نشر أوبسِت خبر قصتي الجديدة القادمة، كما اقترحت عليه، وحظيت باهتمام كبير في لندن، خاصّة بعد انعقاد جلسة البرلمان لمناقشة قضية ماي لاي. نشرتها الديلي ميل تحت عنوان رئيسي يقول، «القصة التي صدمت امريكا». أمّا لِوس هيرن، المحرر الأمريكي لعدد شهر أغسطس من صحيفة تايمز اللندنية، والذي امتدح جهودي لإعداد كتابي عن الأسلحة الكيمياوية والجرثومية وكتب عنه مقالة احتلت الصفحة الأولى، فقد اثار من خلال التايمز ضجّة حول مقابلتي مع تّري وبَرنهارت، فوضعت لها الصحيفة عنوانا من ثلاثة سطور، «يقول الجنود الأمريكيون، شاهدنا المذبحة بأمّ أعيننا. نساء واطفال أعدموا بالرصاص». تحاشت نو يورك تايمز للمرة الثانية دفع مبلغ 100 دولارا. ولذلك بعنا قصة شهود العيان، كما فعلنا في المرة الأولى إلى صحيفة نو يورك پوست. اتصل المحررون من مختلف الولايات المتحدة الأمريكية بمكتب أوبسِت يسألون عن موعد صدور قصة هيرش التالية. وإذا اخذنا بنظر الاعتبار مشكلتي في الطبع البطيء على الآلة الكاتبة، لم أفاجأ بأن لا أحد من هيئات الإعلام الأمريكية يهتمّ حقا بنشرها، باستثناء بعض المراسلين العاملين في صحيفة تايمز، الذين يتابعون الموضوع بجديّة.

كنت على ثقة أنّه توجد قصة أخرى، كما اعتقدت ستضع حدّا لمقاومة الحقيقة حول ما جرى في ماي لاي حين تحدثت مع تّري وبَرنهارتعن اعضاء الفصيل الآخرين، ورد اسم جندي آخر، هو پاولو ميدلَو، وهو ابن عائلة فلاحية من مكان ما من ولاية انديانا، والذي افرغ مخازن رصاص بندقيته الأوتوماتيكية مرّة تلو أخرى بأمر من كالي، في اجساد النساء والأطفال الذين تمّ تجميعهم على الطريق الفاصل بين حقول الرّز، ثمّ تمّ الإجهاز عليهم جميعا. تحرّك فصيل كالي في اواخر عصر نفس اليوم باتجاه منطقة ساحل بحر الصين الجنوبي، التي تقع على مبعدة أميال قليلة شرقا. داس ميدلَو في صباح اليوم التالي على لغم تسبب في بتر قدمه اليمنى. وحين كان ينتظر اخلاءه من المنطقة ونقله للعلاج، كان يولول، «لقد انتقم الربّ منّي سريعا وسينتقم منك أيضا يا ملازم كالي، على ما امرتني لفعله». كان كالي مرتبكا مهزوزا وهو ينادي مطالبا بإرسال مروحية لإجلاء المصاب. اعرف كيف اتهجّى اسم پول من خلال اسم وجبة عيد الشكر، التي تحدّث عنها رايدنأوَر. امضيت ساعات طويلة وأنا اتصل بمكتب معلومات ولاية إنديانا. بدأت بمدن الشمال بحثا عن اسم ميدلّو، فوجدوا اسما مشابها في قرية نو گرشِن القريبة من مدينة تير هاوت. إتصلت بالرقم مباشرة فتبيّن فعلا أنّه منزل ميدلّو، وأنّ المرأة التي ردّت على مكالمتي هي أمّه. تحدثت بلهجة جنوبية فيها حشرجة، وقالت إنّها لا تمانع أن أحضر لزيارتهم، لكنّها لم تكن عندها أيّة فكرة عمّ سيفعله إبنها.

لا اتذكر كيف وصلت إلى هناك. اعتقد أنّني طرت إلى إنديانَپولِس عن طريق شيكاگو وقدت لمدة ساعتين سيارة استأجرتها وتوجهت شرقا. وصلت إلى حقل ميدلّو في منتصف النهار تقريبا. كان البيت قديما جدّا تهاوت أركانه، واسنِدت جوانبه بالواح خشبية رخيصة، وقربه قنّ دجاج قديم هو الآخر ويحوم حوله دجاج كثير. لا شكّ أنّ البيت والقنّ بحاجة لعملية اصلاح كبيرة. حين اوقفت سيارتي أمام الباب تقدمت والدة پول واسمها مِرتِل، وهي في الخمسينات من عمرها لكنّها

بدت أكبر من ذلك بكثير. قدّمت نفسي لها واخبرتها إنّني جئت لزيارة پول. اشارت إلى كوخ خشبي صغير على مقربة من بيتها وقالت إنّه لا بُدّ موجود داخل ذلك الكوخ. اضافت تلك الأمّ، التي تعذبت كثيرا رغم أنّها لا تتابع الأخبار وتعرف القليل عن حرب فيتنام، «أرسلت لهم ولدا يافعا غِرّا، فجعلوا منه قاتلا.»

بدأت حديثي مع پول، وسألته إن كان ممكنا أن أرى موقع بتر قدمه. خلع حذائه وسحب القدم الإصطناعي، الذي ركّبوه له، وتحدّث بحماس عن المعاملة التي تلقاها ميدانيا في فيتنام وعن فترة النقاهة الطويلة، التي قضاها في مستشفى عسكري في اليابان، ثمّ استمر فوصلنا إلى اليوم الذي جرت فيه المذبحة. في الحقيقة أخبرني پول بقصته دون اظهار عواطف واضحة، وبدا لي وكأنّه آله تبدأ الحركة بالضغط على زرّ وتتوقف بالضغط على الزرّ ثانية. قال إنّه أمِر بمراقبة مجموعة كبيرة من النساء والأطفال والشيوخ وكانوا جميعا في حالة ذعر مطبق بعد أن نجوا من المذبحة وشاهدوها بأمّ اعينهم، ثمّ دفعوهم إلى خندق جانب الطريق. وحين وصل كالي إلى الخندق، طلب منه ومن جندي آخر أن يعدموهم جميعا. قال إنّه قتل العدد الأكبر وافرغ مخزن بندقيته، الذي يحتوي على 17 إطلاقة أربع أو خمس مرات، حتّى خيّم الصمت على كلّ من كان في الخندق. ثمّ سمع فجأة صوت طفل يبكي، وراقب جنود كالي طفلا في الثالثة أو الرابعة من العمر حمته أمّه بجسدها وغطته حتى لا تصيبه الإطلاقات. زحف الطفل الباكي المغطى بالدماء وخرج من الخندق فتلاقت عيناه بعيني ميدلَو وبدأ يركض في حقل الرزّ. طلب كالي من ميدلَو أن يرديه، لكن ميدلّو، الذي اغرورقت عيناه بالدموع حين رأى الطفل وجها لوجه، رفض الأمر. ركض كالي خلف الطفل وأطلق النار عليه من مسدسه فتفجّر رأسه وخرّ صريعا في أوحال الحقل.

إتصلت بصاحبي أوبسِت واخبرته أن ينقل للمحررين أنّ لدينا قصة أخرى تصلح أن تحتل الصفحات الأولى ليطلع عليها العالم. إنّها شهادة عن المذبحة على لسان أحد منفذيها. قضيت الليلة في بيت پول وزوجته وابنه الصغير. رسمت بذهني هيكل القصة التي سأنقلها على لسان بطلها وأنا متمدّد على أريكة قديمة، كي أغفو لساعات قليلة. اخبرتني زوجته كيف أنّ الحياة اصبحت اكثر صعوبة لدى عودة پول من الحرب، وقد فقد قدمه وجاء ليشاهد ابنه الصغير، الذي ما شاهده من قبل. لم يتحدث كثيرا عن تجربته في فيتنام، ومن الواضح أنّه لم يشعر بالراحة حين يكون الولد بقربه. قالت إنّه بعد رجوعه من فيتنام، استيقظت في احدى الليالي على صراخ طفلها الهستيري فاندفعت إلى غرفته، ووجدت پول ممسكا به وهو يهزّ الطفل المرعوب هزّا عنيفا. ذكرت أنّ ذلك حدث أكثر من مرة. لا أدري إن كانت والدته مِرتِل تقصد ذلك حين اشارت إلى عنف أبنها مع حفيدها، واشارت أن فيتنام قد حوّلت ولدها إلى قاتل.

إستطاع أوبسِت في نفس الوقت أن يقنع الإعلامي الألمعي وولتر كرونكايتفي محطة تلفزيون سي بي أس أن تدفع المحطة مبلغ 10 آلاف دولارا إلى وكالة دِسپاچ مقابل اجراء مقابلة شخصية مع ميدلَو في الليلة التالية، وذلك قبل ساعات من نشر قصتي الجديدة عن ماي لاي. دار نقاش في مكاتب المحطة عمّا إذا كان ميدلَو موافقا على المقابلة، وثانيا اعتبار دفع المبلغ عملا لا اخلاقيا في عالم الصحافة، بأن تغري أحدا ما بدفع المال. يجب عدم دفع المال مقابل الحصول على معلومات عامة من حقّ الشعب أن يطلع عليها أصلا. لست متأكّدا أنّ أوبسِت قد وعى تلك النقطة، لكنّني على قناعة تامة بها. سألت پول إن كان يرغب في اجراء مقابلة على التلفزيون دون مقابل،

وشرحت له بوضوح أنّني ووكالة دِسپاچ سنحصل على مقابل جراء ذلك. كان هناك نوع من الإغراء بأنّ سي بي أس ستتولى دفع اجور الطائرة لنقله وزوجته إلى نو يورك وتأمين إقامتهما كاملة في فندق جيّد. لم أفاجئ حين وافق پول على العرض في الحال. لربّما ادرك بطريقة ما أنّه قد حان الوقت لينفتح. طرت صباح اليوم التالي برفقة پول وزوجته بالدرجة الأولى إلى نو يورك على حساب محطة تلفزيون سي بي أس.

ذكر أوبسِت في مذكراته إنّه استطاع أن يتستر على حقيقة أنه التزم بأن يُقدّم ميدلَو إلى سي بي أس، قبل أن نحصل على الإتفاق النهائي، وكانت خطوة سحرية.

باعتباري من ابناء هذا الجيل، فإنّي اعرف بالفطرة أن لا شيء يكون حقيقيا في أمريكا قبل أن يظهر على شاشة التلفزيون. إتصلت بقسم الأخبار المسائية بمحطة تلفزيون سي بي أس، واخبرتهم أنّ لدي قصة يودون الإطلاع عليها بشكل ملحّ. حين ذكرت لهم أنّه يجب تغطية نفقات جهودنا، تردّد مدير تحرير اخبار المساء في المحطة المذكورة وقال، «نحن لسنا إعلاميين من هواة كتابة الشيكات». سألته بلطف إن كان يعرف رقم هاتف محطة تلفزيون أي بي سي، فجاء ردّه سريعا وسأل أين اريده أن يبعث ذلك الشيك.

أحضر ساي معه پول ميدلّو إلى نيويورك. وفي الطريق كان قد أعدّ جزء من القصة فبعثناها إلى الصحف والوكالات الأخرى مع اطلالة اليوم التالي.

جاء ساي إلى المكتب... رنّ جرس الهاتف بعد لحظات من وصوله. كان المتحدث أيب روزنثال، المدير الرئيسي لصحيفة نو يورك تايمز. طلب أن نبعث اليهم نسخة من القصة فتأكد لدينا أنّ ليس لديهم خيار سوى نشرها. لقد كانت قصة كبيرة ليس من السهل تجاهلها باعتبار أنّ صحيفتهم هي اكبر صحيفة في البلاد. كان في منتهى اللطف حين تحدّث معي. أسبغ علينا جميعا أنا ووكالة دِسپاچ وسيمور هيرش المديح لمتابعة القصة وكشف خيوطها... واستمر في مديحه، وسأل بطريق عرضي باعتبار أنّ التايمز لها شهرة واسعة، بأنّه يرغب أن يبعث أحد مراسليه لمقابلة شاهدنا الأساسي عن المجزرة. إختطف ساي سماعة الهاتف من يدي.

«يا سيّد روزنثال، معك ساي هيرش. اسمعني جيدا. هل ترغبون في اجراء مقابلة مع پول ميدلَو؟ حسنا، إنّه في مكان ما من نو يورك. حاولوا أن تجدوه». ثم صفق السماعة. نظرت إليه برهبة. لقد اقفل الخط بوجه الرجل الذي بإمكانه أن «يأمر بطبع ما يراه مناسبا».

رنّ الهاتف بعد لحظات فالتقط ساي السماعة. صاح أيب روزنثال، «يا سيّد هيرش، هل تعرف من أنا؟».

ردّ هيرش ببرود، «نعم». ثمّ اقفل الخط ثانية.

استحوذ ظهور پول ميدلَو على الأخبار لمحطة تلفزيون سي بي أس ذلك المساء. أجرى المقابلة معه مايك وَلاس وأجابه پول بهدوء بارد ليخبر أمريكا صراحة كيف أنّه أعدم النساء والأطفال والشيوخ بأحد الخنادق المحاذية لقرية ماي لاي، فسرت قشعريرة في جسد امريكا.

نشرت نو يورك تايمز نصّ مقابلة مايك وَلاس مع ميدلَو على صفحتها الأولى في اليوم التالي، امتدحت فيه محطة التلفزيون للحرفية العالية، التي غطت بها الحدث الجسيم، دون الإشارة إليّ أو إلى وكالة انباء دِسپاچ. وهذا امر غير مهمّ بالنسبة لي. لن اسمح لمدير تايمز روزنثال ولا لصحيفته أن يحوّلا قصتي عن ميدلَو إلى قصتهم عن ميدلَو. اعتقدت أنّ الأمر يناسبني. ومنذ ذلك اليوم ولحقبتين تاليتين من الزمن، ظلت علاقتي بالتايمز ومديرها روزنثال مشوبة بالحدّة والغضب. لقد غيّرت اعترافات پول ميدلَو أمريكا، بالطريقة التي كنّا أنا ودَيفد أوبسِت نريدها. ظهر پول على شاشة تلفزيون سي بي أس بتاريخ 24 نوفمبر. وفي نفس اليوم أعلن البِنتكَون عن التهم الموجهة إلى كالي بقتل 109 مواطنا فيتناميا بالعمد. اختار نِكسُن أن يعلن في نفس اليوم أنّ أمريكا ستتوقف من جانبها عن استعمال الأسلحة الجرثومية، حتى في حالات الردّ الانتقامي.

لقد وضعت شهادة ميدلَو المرعبة لما جرى حدّا للنقاش، إن كان يوجد فعلا نقاش حول ما جرى في ماي لاي، وفتحت الباب على مصراعيه لتقارير صحفية أذيعت صباح كلّ أحد حول المذابح الأمريكية والممارسات الوحشية، التي شاهدها الصحفيون في فيتنام. القصة التي أزعجتني أكثر هي التي كتبها المراسل الخبير في الشؤون الخارجية لوكالة الأسيوشيتد پرس حول تفاصيل حادثة جرت عام 1965 بعد مضي أيام قليلة على وصول أول وحدة مشاة بحرية إلى شواطئ دَنانگ في فيتنام الجنوبية، بأمر من الرئيس جونسُن. ذكر المراسل المذكور كيف أنّ مجموعة من مشاة البحرية قاموا خلال حالة هيجان بملاحقة عدد من الفلاحين، الذين لاذوا بالفرار إلى أحد الكهوف القريبة. القى الجنود في داخل الكهف عددا من القنابل اليدوية، ثمّ أتوا على القرية فأحرقوها. اعترف أحد الجنود، في مرحلة ما بعد اعترافات ماي لاي قائلا «ووش، لقد أصبحت قاتلا اليوم. قضيت على اثنين قبل أن يدخلا الكهف». صاح جندي آخر، «اقتلوهم جميعا. لا أريد شيئا يتحرّك». كان ردّ فعلي الغاضب هو، لماذا لم تُنشَر تلك القصص والتقارير في أوقات حدوثها. لو كان تمّ ذلك لأصبح بالإمكان إنقاذ حياة آلاف الفيتناميين. لقد حصلت أنا نفسي على قصص مرعبة عن الحرب وقت كنت أعمل في الأسيوشيتد پرس. تحدثت عن القصف الأمريكي لفيتنام الشمالية والكذب على المستوى الرسمي العالي بصددها. ما تطلب الأمر منّي كثيرا حين نشرت قصصي وتقاريري المثيرة للجدل وأنا في مكتب بعيد عن فيتنام. إنّ نشر قصة من موقع الحدث عن قتل المدنيين غير المبرر في أواسط عام 1965 نُظِر إليه وكأنّه إشارة لعدم الإخلاص للبلد، وتجاهلته بشكل مباشر العديد من الصحف الكبرى.

ثابرت على التحرك في الولايات المتحدة حتى شهر ديسمبر واستمريت في ملاحقة الذين اسهموا في مذبحة ماي لاي أو كانوا شهودا عليها. نشرت من خلال وكالة دِسپاچ مقالتين عن المذبحة وما ترتب عليها. كان هناك شيء يتجاوز العذر المتكرر «حالة جنون طارئة». اتفقت أن أتناول العشاء في اليوم التالي لعيد الميلاد مع أحد المساهمين بالمذبحة، الذي يسكن في منتصف ولاية نو جرزي على بعد سبعين ميلا تقريبا على الطريق السريع من نو يورك. احتفلت مع أسرتي بالمناسبة وكنّا ضيوفا في ذلك اليوم لدى والد زوجتي ووالدتها، اللذين يسكنان في ضواحي نو يورك. هبّت عاصفة ثلجية كثيفة منتصف فترة ضحى اليوم التالي وبحلول العصر تجمّع ما يقرب من القدمين من الثلج على الطرقات والمنازل. استعرت سيارة والد زوجتي الجديدة وانطلقت لتناول العشاء مع الشاهد المرتقب. ما كان الأمر سهلا أن اقود السيارة وسط الثلوج المتراكمة على الطريق

السريع. لكنّني وصلت في الموعد المحدد تقريبا. اجريت مقابلة رائعة مع هذا الجندي السابق المتحمس ليفصح عن حقيقة ما جرى. وهو كغيره من افراد وحدة چارلي، اسنِدت إليه مهام فردية ما تطلبت أيّ تعاون أو احتكاك بافراد الوحدة الآخرين. رجعت إلى نو يورك والطريق ما زال مغطى بمزيد من الثلوج، فوصلت بيت اهل زوجتي بحلول ساعات الفجر الأولى، وقد احرقت كلچ clutch السيارة الجديدة.

كنت بطبيعة الحال ما زلت على اتصال بالصديق بوب لومِس منذ اللحظة التي عثرت فيها على الملازم كالي، ولم يكن هناك أدنى شكّ بأنّ دراسة طويلة ستكون على هيئة كتاب أعدّه للنشر حول ماي لاي. لحسن الحظ، لم اكتب من قبل كتابا عن البِنتگون، ومن الضروري أن أجد طريقة ما لبلورة هذا المشروع. كان دَيفد أوبسِت يحاول جاهدا أن استمر العمل في وكالته دِسپاچ بشكل دائم، وبدأ يتحدث في نهاية العام مع عدد من الصحفيين الآخرين والصحف المختلفة، ومعظمها من الدرجة الأولى، حول تطوير دِسپاچ وجعلها وكالة مستقلة للأنباء. ما كانت تلك الفكرة ترزق لي. أمضيت الأشهر التالية اكتب واتابع الذين ساهموا في ماي لاي، وفي نفس الوقت القيت عددا من المحاضرات المناهضة للحرب في الكليات والمناسبات السياسية في طول البلاد وعرضها.

لم يكن ذلك الأمر سهلا دائما. في لحظة ما وحين كنت أعدّ فصول كتابي المبني على المقابلات مع الذين ساهموا في المذبحة أو كانوا شهودا عليها، كتبت إلى بوب لومِس رسالة حزينة.

سيدّعي البعض أنّني حاولت استغلال بعض السّذّج ممّن تسرحوا من الخدمة العسكرية ويكثرون الكلام عمّا جرى أثناء تأديتهم الواجب. غير أنّ عددا قليلا منهم قد وُجّهت إليهم اتهامات القتل... والموضوع ليس «ذكر الأسماء واستعادة ما جرى». في الحقيقة أنّ أحد العوامل الإيجابية القوية هو أنّ القراء الأذكياء يدركون مقدار المعلومات التي توفرت لدي، ولم اذكرها كلها. أنا متأكّد أن ذكر اسم المدينة أو القرية التي انحدر منها جندي ساهم في القتل والاغتصاب في ذلك اليوم المشهود، أو عن احدهم الذي قطع رقبة طفل رضيع بحربته الحادة، لا يخدم مصلحة نشر الكتاب. إنّه كشف حساب، ولكن ليس لأفراد وحدة چارلي فقط. لقد سلطت الضوء على أمر في غاية الأهمية... وهو عن القاتل والضحية في فيتنام، الفلاحين الذين جرى إعدامهم دون سبب، والجنود الذين تعلموا واصبحوا يعتقدون أنّ حياة المواطن الفيتنامي أقلّ قيمة من حياة زوجاتهم، أو حياة أخواتهم أو أمهاتهم.

آمنت بتلك الكلمات في الماضي وأومن بها اليوم، وأنّ هذا الإيمان وليد جهود حثيثة. أخبرني أحد الجنود، الذي اطلق رصاصة على قدمه ليخرج من ورطة ماي لاي عن توحش زملائه، فهل كان هو نفسه أحد المتوحشين؟ لقد مارس هؤلاء التوحش ضدّ أطفال في سن الثانية والثالثة. استعمل أحد الجنود حربته المثبتة على رأس بندقيته ليطعن ظهر طفل بشكل متكرر ويقذفه في الهواء، وربما ما زال حيا، ويتلقفه بحربته ويرميه ثانية إلى الأعلى. كان عمر ابني سنتين، فتناولت الهاتف وتحدثت معه ومع زوجتي لأطمئن عليهما. مرّت عليّ أيام عصيبة وأنا استعيد صورة المشهد، الذي وصفه الجندي، فتنتابني نوبة من البكاء والنحيب تصعب السيطرة عليها لبضع دقائق حتى أستريح. إنّه بكاء من أجل أولئك الأطفال؟ من أجل أولئك الضحايا؟ بكاء من أجل نفسي لأنّني اعرف الكثير؟

لم أتطرق إلى هذه التفصيلات خلال محاضراتي، إلا ما ندر. كان مقررا أن القي محاضرة في جامعة تولين في مدينة نو أورلينز في فصل الشتاء. نشرت صحيفة پيكايون تايمز، صحيفة المدينة الصباحية على صفحتها الأولى مقالة وطبعت عنوانها بالحبر الأحمر، إشارة إلى المتعاطف الشيوعي، الذي سيلقي محاضرة بعد أيام. وطبعا اعتبرت ذلك رسالة احتجاج ضد مجيئي للجامعة المذكورة. في الحقيقة، زادت تلك المقالة الاهتمام بمحاضرتي كثيرا، ووجدت نفسي أتحدث إلى «بحر من المستمعين»، الذين ملأوا ملعب كرة السلة. لاحظت بينهم عددا من محاربي فيتنام، لأنّهم لبسوا سترات عسكرية فاقعة اللون تحمل شارات VVAW (مقاتلون سابقون مناهضون للحرب في فيتنام). كنت في حينها قد تعلمت أكثر فأكثر عن الحرب الجوية في فيتنام الجنوبية، وكيف خرجت على كافة القيود والتقاليد والأخلاق. وبطبيعة الحال كنت منزعجا من مقالة صحيفة پيكايون تايمز، فخطرت لي فكرة اعتقدت أنّ من مصلحة الحضور أن يعرفوا ما جرى.

بدأت حديثي بطرح سؤال إن كان أحد الحاضرين جندي سابق، واعني خدم في وحدة الطائرات المروحية في معارك فيتنام خلال العامين 1968 و1969 بالقرب من كوانگ گاي، العاصمة الإقليمية التي تقع على مسافة قصيرة من قرية ماي لاي. رفع عدد من الحضور أيديهم، فطلبت من احدهم أن يأتي ويقف جنبي على المسرح ليجيب عن بعض الأسئلة. جاء وصعد إلى المسرح وصافحته وقلت له أنّني لا أريد معرفة اسمه. اخبرني أنّه كان مسؤولا عن المدفع الرشاش المخصص لحماية الطائرة والمثبت عند أحد أبوابها. لكلّ باب رشاشان. كان دائما جاهزا في المكان المناسب وفي الوقت المناسب.

- قلت له، هناك اسئلة تصعب الإجابة عنها.

- قال، لا بأس هاتِ ما عندك.

- لا شكّ أنّ اليوم كان يمضي بنقل القتلى والجرحى الأمريكيين من مناطق الاشتباك.

اتّفق مع ذلك.

- قلت، وبعد يوم عصيب في أداء هذه المهمات، ماذا كنتم تفعلون أحيانا للتعبير عن غضبكم، وانتم في طريق العودة إلى قاعدتكم؟

- قال، لم افعل ذلك شخصيا، لكنّني اعرف ماذا تقصد.

- أليس حقيقة أنّ بعض طياري المروحيات في ذلك الوقت، وبعد إنجاز مهامهم، يبدأون بملاحقة الفلاحين العاملين في حقولهم؟ وإذا شاهد طيار واحدا من هؤلاء، هل يبدأ بالطيران المنخفض؟ وطبعا سيبدأ الفلاح المرعوب الهروب من الحقل، وتطير المروحية على ارتفاع منخفض جدا أكثر فأكثر، ويحرف الطيار زاوية طيرانها قليلا لكي تقطع رِيَش/أذرع المحرك رأس ذلك الضحية؟

خيّم على الحضور صمت مطبق.

- قال، لم افعل ذلك أنا نفسي.

أكّدت له أنّ سؤالي ليس عنه، بل عمّا تفعله الحرب بالناس الخيرين أحيانا.

- قلت، هل لديك فكرة عمّن يمسح رِيَش المحرك ويزيل الدم عنها قبل الرجوع إلى القاعدة؟

بدأ الرجل يعطي جوابا تفصيليا.

- كان الطيار يهبط بالطائرة خارج القاعدة حيث يُغسَل الدم من الريّش.

- من يقوم بعملية الغسل والتنظيف؟

لا أدري إن كان اعطاني الجواب أم أنّني مضيت لأقول،

- يدفع الطيار أو مساعده بعض المال لأحد الفيتناميين لمسح الدم من الريّش.

ما احببت اطلاقا حواري مع ذلك الجندي السابق، الذي كان بالغ الأمانة. لكنّني أردت بطريقة ما أن أكيل الصاع صاعين لمن كتب المقالة عني في صحيفة پكايون تايمز.

ماي لا 4: تقرير عن المذبحة وما تلاها، هو كتابي الثاني، الذي صدر بتاريخ 1 مايو. غير أنّ نشر هذا الكتاب من قبل دار راندم هاوس، قد غطت عليه مجلة هارپر، التي اقتبست منه 30 ألف كلمة وطبعتها بورق مختلف النوعية والحقتها بعددها لشهر مايو، الذي وُزع قبل اسبوع تقريبا من نزول كتابي إلى الأسواق. كنت على علم بأنّ وِلي مورس، المحرر الذكي للمجلة المذكورة قد اشترى حقوق طبع الملحق الموجز من وكيلي روبرت لِجَر، ولم تكن لدي فكرة عن تحديد مورس لمعنى «مقتبس» ولم يكن الأمر واضحا امام وكيلي الأدبي ايضا. ولكي يرفع من سبقه الصحفَي، وضع مورس لمجلة شهر مايو عنوانا وسمّاها «هارپر+» غير أنّ صدمتي خفت بحقيقة وجود اعداد كبيرة من القراء وهم يقفون في صفوف خارج محلات بيع المجلة المذكورة. لاشكّ أنّ مورس قد اختطف من دار نشر راندم هاوس فرصة كبيرة لبيع الكتاب وضيّعها عليهم. لكنّ فكرته حول أهمية القصة كانت محفزا مهما لحركة مناهضة الحرب.

كانت هناك خطوة ايجابية اخرى. إتصل بي بعد ايام قليلة بعد نشر الملحق كرگ وهو الابن الأكبر لوزير الدفاع روبرت مكنمارا. كان هذا الابن مناهضا للحرب، وقال لي أنّه ترك نسخة من ملحق هارپر، واسم ماي لاي يغطي غلافها الخارجي في غرفة جلوس والده. أخبرني أنّه وجد فيما بعد بقايا الملحق محترقة في موقد التدفئة. (بعد مضي ثلاثين عامان أخبرني ضابط كبير في البنتگون أنّ مكنمارا كان منزعجا للغاية عام 1967 بسبب تقارير الصحف والمجلات عن الأعمال الوحشية الأمريكية في فيتنام، وطلب من مكتب التحقيقات الجنائية العام في البنتگون أن يدرس الموضوع. تألفت الدراسة من 208 صفحة اظهرت أنّ غالبية العسكر في جبهات القتال لم يعرفوا مسؤولياتهم بموجب معاهدة جنيف، التي وضعت شروطا للمعاملة الإنسانية لأسرى الحرب. وصل

التقرير إلى مكتب مكنمارا بتاريخ 15 اغسطس من عام 1968، أي بعد مرور سبعة اشهر من طلبه لإعادة كتابة ما جرى في ماي لاي. لكنّ نصّ التقرير الكامل لم يُنشر.)

إنّ مقالاتي الخمسة حول المذبحة هي التي رشحتني لنيل جائزة پولِتسَر لعام 1970 لأهمية التقارير العالمية. وهو امتياز نادر لأيّ صحفي مستقل. كما حصلت على جائزة جورج پَولك، التي اسبغها عليّ فريق من زملائي لتميزي في ميدان الخدمة الصحفية. كما حصلت على جائزة ورث بِگِم. وهكذا نلت الشهرة ومعها نلت المزيد من المال، الذي مكّنني من دفع مقدمة لشراء بيت صغير في واشنطن، فتخلصت العائلة من نير الإيجارات. لكنّني ما زلت ابحث عن عمل في إحدى الصحف، لأنّ لديّ المزيد ممّا اريد أن اقول عن مذبحة ماي لاي وكيف تمت تغطيتها وعن النواقص العديدة في تحقيق لجنة الپنتگون ومأساة انتهاء عملها في منتصف شهر مارس من عام 1970. تابعت ذلك التحقيق، الذي اطلقوا عليه اسم لجنة پيرز، لأنّ رئيس فريق التحقيق هو الفريق وليم ر. پيرز، الذي شرع في مهمته في شهر ديسمبر عام 1969.

لا زلت اعاني من نفس الحيرة حتى بعد حصولي على جائزة پولِتسَر. أين انشر ما اكتبه، واين اجد عملا؟

الفصل الحادي عشر

العمل في مجلة نو يوركر

اشرت في الفصل السابق إلى أنّني عاملت أيب روزنثال بشيء من الإحتقار، لأنّ المراسل، الذي اراد ارساله «لضبط دقة معلومات» بول ميدلو، كان دون كري. وهو من العاملين الكبار في التايمز. هل اعتقد روزنثال أنّني ساذج إلى تلك الدرجة؟ كان كوري يبغي أن يقابل بول ليكتب قصة للصفحة الأولى في جريدته ويضع لها عنوانا على هواه. إنّ آخر ما يمكن أن يفكّر به هو تدقيق صحة معلومات قصة أخرى لمراسل آخر.

لكنّ أيب هو المحرر التنفيذي لصحيفة نو يورك تايمز، وكنت ابحث عن عمل في أواخر شهر ديسمبر عام 1969، أي بعد أن فرغت من كتابة مقالاتي عن ماي لاي ونشرتها وكالة انباء دِسپاچ. بعثت له رسالة قصيرة اقترحت فيها أن نلتقي، إن كان ذلك يناسبه من اجل فنجان قهوة أو تناول وجبة غداء يوم 26 ديسمبر، لو كان موجودا في مكتبه ذلك اليوم. تلقيت القصاص العادل، حين كتب روزنثال ردّا «بأنّ الأمر يتطلب منه أخذ يوم إجازة». ثمّ أضاف يقول، «هل يمكنك أن تتصل بمكتبي يوم 26؟ وإذا كنت موجودا فلربما نستطيع أن نتناول فنجان قهوة». فهمت من ذلك أنّه عاملني بمثل ما عاملته به، حين طلب مقابلة مع بول ميدلو. سيكون أيب في نو يورك، وعليّ أن ابحث عنه لأجده. وبطبيعة الحال، فإنّي لم أتصل، ولا هو عبّر عن أسفه.

حين تمّ طبع كتاب ماي لاي4 في ربيع عام 1970، عاودت البحث عن عمل في التايمز أو واشنطن پوست. أنا حاصل الآن على جائزة پولِتسَر وغيرها من الجوائز ونشرت كتابين. بالتأكيد سيكون لذلك أثر في تحسين فرص ايجاد عمل، كما اعتقدت. قابلني في صحيفة الپوست محرر الشؤون العلمية، الذي اختار أن يركّز على مقالة نشرتها حين كنت اعمل في وكالة الأسيوشيتد پرس قبل اربع سنوات. تطرقت فيها إلى قضية سرية تخص البنتگون، وذكرت في نهايتها أنّ للولايات المتحدة القدرة على مراقبة تطبيق معاهدة منع الإختبارات النووية المعقودة مع الإتحاد السوفياتي. كان موقف البنتگون المتشدد ازاء تلك المعاهدة مبنيا على أنّ باستطاعة السوفيت الخداع وبإمكانهم أن يجروا تجارب اسلحتهم النووية تحت الأرض في منطقة سيبريا أو غيرها من أراضيهم الشاسعة. اتذكّر دهشتي وانزعاجي لأنّ الپوست لم تنشر مقالتي في حينها، علما بأنّ صحيفة واشنطن ستار، منافستها الأشد في العاصمة، وضعتها على صفحتها الأولى.

أخبرني ذلك المحرر الأسباب. ذكر أنّه اتصل بمتحدث كبير باسم البنتگون في حينها فأخبره أنّه قد جرى تضليلي من قبل مصادري الخاصة حول توصيات الدراسة السرية. ولو أنّي كنت اتصلت بالمحرر في حينها لكان اطلعني على السبب ولكنت ادركت الحاجة إلى أن اتعمق في استقصاء الموضوع أكثر! لا أدري إن كان عليّ أن اضحك أم ابكي، لأنّ هذا المحرر تجاهل أو اختار أن يتجاهل الإقتباسات العديدة المباشرة، التي ضمنتها في تلك المقالة. وبطبيعة الحال لم أشِر بشكل ظاهر أنّ لديّ نسخة من التقرير السري للغاية، الذي اعده أحد علماء البنتگون، وهو خبير في القضايا الجيولوجية. وهو من قام بالبحث وكان غاضبا وربّما خائفا من ردّ فعل ذلك التقرير على رئيس الأركان العامة. لقد كان كبار ضباط الجيش ولسنوات عديدة ضدّ معاهدة تحريم اجراء الإختبارات النووية مع السوفيات، على اساس أنّ المراقبة ستكون مستحيلة من الناحية الفنية لمعرفة التزامهم ببنود تلك المعاهدة. اوضحت دراستي الجديدة أنّ منع التجارب يمكن مراقبته بوضع اجهزة كشف متطورة على طول الحدود الروسية. وبعد تقديم تقرير عن ذلك فوجئ الجنرال أرل ويلر، قائد الأركان العامة بموقف العلماء المعنيين، لأنّه وزملائه اعضاء القيادة، كانوا سيسقطونَ اعتراضهم على المعاهدة لأسباب فنية. لقد كان مصدر معلوماتي على ذلك المستوى الرفيع.

بطبيعة الحال، لم اخبر ذلك الشخص، الذي قابلني أنّه كان ضيق الأفق بصدد الموضوع، لأنّ قلبي حقيقة كان ميالا للعمل في التايمز، رغم حدة طبعي بما يتعلق بقصة ميدلو. ذهبت إلى مكتب التايمز في نو يورك ولخيبة أملي لم يقابلني روزنثال ولا أحد المحررين الرئيسيين في الصحيفة. كان الذي اجرى المقابلة معي محرر على وشكَ التقاعد، ذكّرني بزملائي من كبار السنّ في الأسيوشيتد برس. اشاد بما كتبت ونشرت ونصح بأن أجد عملا في صحيفة على المستوى الإقليمي مثل واشنطن پوست أو بوسطن گلوب، وأن اعود بعد سنوات من الخبرة للتقديم على عمل في نو يورك تايمز. قرّرت أن اتخلى عن قضية العمل في الصحف وأن اتفرغ لتأليف الكتب، فعندي الآن فكرة عن كتاب جديد.

إتصل بي في مطلع عام 1970 ضابط كبير شارك في التحقيق الموسع، الذي طلبه الجيش حول مذبحة ماي لاي. كان مقتنعا بوجود تستر على الجريمة، وأنّ بإمكان منتسبي فصيل كالي أن يعطوا تفاصيل أكثر عن الأهوال، التي يصرّ العقداء والجنرالات في خط تسلسل الرتب العسكرية الأعلى لفصيل كالي، على إنكار معرفتهم بحصول المذبحة. أخبرني هذا الضابط أنّ لديه شكّ قليل بأنّ التحقيق المبدأي الذي اعقب المجزرة كان حافلا بالأكاذيب، التي تمّ قبولها دون إثارة أيّ سؤال على كافة مستويات الفرقة العسكرية، وأنّه يريد أن يفصح عن الحقيقة.

لقد تمّ وضع ما توصلت إليه هيئة پيرز للتحقيقات في 40 مجلدا من الشهادات والاستنتاجات وسُلمت في شهر مارس من عام 1970. وُضعت تلك المجلدات تحت السريّة ولم يُسمح لأحد بالإطلاع عليها. قرّر أحد اصدقاء هذا الضابط أنّ يأتي اليّ بتلك المجلدات من مكتب الطباعة في البنتگون. كانت زوجته تأتي بسيارتها للعمل في مكتبها وسط مدينة واشنطن، ونقلتها اليّ خلال صباحات بعض ايام العمل الأسبوعية في الأشهر القليلة التالية. كانت تنقلها لي جزء فجزء حسب تسلسلها الرقمي. كنت التقي بها في أحد الشوارع فتسلمني اياها. وكلما كانت تعطيني جزء كنت اعيد لها الجزء الذي تسلمته منها من قبل. اتفقت مع مكتب للطباعة والإستنساخ في مبنى الصحافة الوطنية، حيث يوجد لي مكتب هناك، بأن استأجر منهم ماكنة استنساخ، وكنت اقوم

باستنساخ تلك الأجزاء واحدا إثر الآخر. فعلت ذلك في نفس الوقت الذي كنت اكتب فيه تقاريري واراجع مخطوطة كتاب ماي لاي 4.

طغت تفاصيل المذبحة على مشاعري حين قرأت المقابلات وازدادت مشكلتي لأنّ الأدلة واضحة والمحققون لم يقوموا بواجبهم عند اطلاعهم على المذبحة التالية بعد 16 مارس 1968 مباشرة. كانت وحدة چارلي بقيادة مدينا واحدة من ثلاث وحدات تكونت منها فرقة برافو للعمليات السريعة بقيادة باركر، والتي كانت نشطة ذلك اليوم. صدرت الأوامر لتلك الفرقة بمهاجمة قرية ماي خي4، التي تبعد اميالا قليلة عن قرية ماي لاي4. حلّ بهذه القرية دمار مثل ما حلّ بالتي قبلها. ولكن على مستوى أقلّ. احرق جنود هذه الفرقة واغتصبوا وقتلوا كيفما شاءوا، رغم أنّه لم تكن هناك أدلة عن وجود قوات معادية في القرية أو في محيطها. بلغ عدد القتلى في تلك القرية 100 ضحية من المدنيين. كانت الآثار المترتبة على ذلك هي اظهار الطريقة التي يجب اتباعها في خوض الحرب في تلك المنطقة. وهي نفس الآثار التي حاول تقرير الجيش عن ماي لاي التستر عليها. كتبت اقول، «لقد كانت ماي لاي غير عاديّة، لكنّها لم تكن حدثا معزولا». وأضفت، «وعلى أيّة حال، فإنّ ما جرى في ماي خي4 هو الآخر عمل وحشي حاولوا التستر عليه بعد أن بانت دلائله، عند اجراء التحقيق حول ماي لاي4». قلت ذلك مشيرا إلى هيئة الجنرال پيرز والقيادة المدنية للجيش. «حتى افضل الجنرالات في الجيش وأعلى المدنيين الرسميين فيه كانوا في لحظة معينة مثل الفيتناميين في ماي لاي4 وماي خي 4، فهم ضحايا ايضا.

وحين اروي قصتي كاملة حول محاولة تغطية جريمة ماي لاي والتستر عليها، فإنّها ستكون كتابا آخر. ليس لي حاجة في البحث عن عمل في التايمز أو البوست. إنّني اعرف بوب لومِس في دار راندم هاوس للنشر، وسيوافق في الحال على توقيع عقد معي، وسأمضي في وضع الكتاب فصلا فصلا. بقيت مشغولا باعداد كتابي عن التستر cover up، وكنت في ذات الوقت أعدّ خطبا لمناهضة الحرب، واجريت بحثا قصيرا ونشرت مقالتين طويلتين بناء على طلب من ديفِد أوبسِت ووكالة انباء دِسپاچ. كان اعضاء مصادري في الجيش عن الأسلحة الجرثومية والكيمياوية غاضبين جدا لأنّ تنديد رچرد نِكسُن بتلك الأسلحة بقي حبرا على ورق. كانت الحكومة الأمريكية ولحدّ شهر سبتمبر من عام 1970 تحافظ على مخزونها من تلك الأسلحة.

وفي الحقيقة أنّها زادت ميزانية الپنتگون لإجراء مزيد من البحوث والتجارب لتطويرها. كتبت مقالة طويلة حول الأمر في اواخر فصل خريف ذلك العام نشرتها في دِسپاچ. كما نشرت مقالة ثانية في شهر يناير من عام 1971، بعد شهر من البحث والإستقصاء. أظهرت أنّ الهجوم العلني الأمريكي الفاشل على ما كان يُعتقد أنّه سجن في كوريا الشمالية، قد وُضعت الخطط له اعتمادا على معلومات مخابراتية قديمة، وأنّه تمّ التلاعب بها من أجل اغراض تبرير ذلك الهجوم والتخطيط له من قبل الجهات العسكرية. لربّما كان لصحيفتي التايمز والبوست شكوك حولي، لكنّ المزيد من الموظفين الرسميين داخل المؤسسات الحكومية، كانوا يتحدثون معي بالسرّ، وأنا اعرف جيدا أنّني سأنقل المعلومات التي يوافوني بها بأمانة وصدق مع التزامي بالمحافظة على هوياتهم وحمايتها. تمّ نشر المقالتين بالكامل في العديد من الصحف، التي نشرت مقالاتي السابقة عن ماي لاي، بما فيها صحيفة التايمز اللندنية.

لم اكن في المكان الذي اريد أن اكون فيه، أي في نو يورك تايمز، حيث تنشر مقالاتي في الحال، لكنّني ما زلت مثابرا على الإستقصاء والكتابة. اتصل بي نيل شيهان قبل أشهر عدّة وسألني لماذا لم احاول الإستفسار عن امكانية العمل في التايمز، اخبرته بقصتي المحزنة، فقام بدوره بترتيب لقاء على الغداء مع ماكس فرنكِل، مدير المكتب والمراسل الأقدم للصحيفة في واشنطن. كنت قلقا بعض الشيء من هذا اللقاء مع فرنكِل لأنّه نُقِل عنه أنّه منزعج لمشاركتي في «بيع» قصة ماي لاي، في الوقت الذي كنت فيه وأوَبسِت نفعل ذلك بالضبط. كما أنّ جَيمس رِستن، مراسل التايمز لوقت طويل ويكتب فيها عمودا، قد اثار في وقت معين سؤالا حول جدوى متابعة تفصيلات ما جرى في ماي لاي بهذا الحماس، علما بأنّ لتلك التفصيلات مردود عكسي على امريكا. غير أنّ فرنكِل كان لطيفا للغاية خلال تناول الغداء وعبّر عن مؤازرته لما عملت، فشعرت بالغبطة حين اخبرته انّني لا اريد شيئا آخر سوى أن اكون مراسلا للتايمز. اخبرني أنّه لم توجد فرص للتوظيف في واشنطن في ذلك الوقت، وأنّه سيتصل بي مباشرة حال توفر الفرصة.

ما زلت عاطلا عن العمل. بعد أن القيت كلمة أمام الناشرين والمحررين والصحفيين، الذي ساهموا في تظاهرة مناوئة للحرب في ربيع ذلك العام في المتنزّه المركزي في مدينة نو يورك، واتتني الفرصة أن اهاجمهم بدافع الشفقة على الذات، ولكن ليس إلى الحدّ الذي آمل فيه أن اجد عملا بينهم. قمت بزيارة وكيل اعمالي بوب لِجر، الطيب القلب، الذي سامحته على الإشكال الذي خلقه بالتعامل مع مورِس، رغم أنّ العديد ممّن كانوا في رانِدُم هاوس، لم يغفروا له تلك الفعلة. يعمل بوب في ذات الوقت وَكيل اعمال للعديد من العاملين في مجلة نو يوركر، وسألته إن كانت فكرة العمل ممكنة هناك. طلبت منه أن يتصل بمحرر المجلة الأسطوري وليم شَون ويستشف منه إن كان بالإمكان تدبير لقاء معه. قال بتأكيد قويّ أن لا افكّر بهذا الموضوع، لأنّني افتقر تماما للخبرة المطلوبة للعمل في تلك المجلة. في الحقيقة، ذكّرني بوبأنّني لم اعمل في أيّة صحيفة معروفة، ومن المستحيل أن أرقى لمستوى مجلة نو يوركر.

تركت مكتبه وتوجّهت إلى اقرب تلفون عمومي واتصلت بمكتب المجلة المذكورة. طلبت التحدث مع السيد شَون، فأوصلتني عاملة البدالة بسكرتيرته. اخبرتها باسمي وقلت لها إنّني اسكن في واشنطن، لكنّني موجود في ذلك اليوم في نو يورك، واريد التحدث مع مديرها. سألتْ إن كان اديّ موعد مسبق معه، فاخبرتها بالنفي، وسألتُ إن كان موجودا في المكتب. اجابت بالإيجاب فرجوتها أن تخبره بأنّ سيمور هيرش قد اتصل ويريد أن يحضر لمقابلته. تردّدت لحظة ثمّ قامت بما اخبرتها به وعادت بسرعة لتسألني إن كنت قادرا على المجيء الآن فأخبرتها، «سآتي في الحال».

كان شَون نحيلا أنيقا، وكما يقولون في العسكرية، له حضور ملحوظ. كان يجيد الإنصات وراقب تعبيرات وجهي وأنا أروي له ما اريد قوله. اخبرته أنّني على علم بوجود محاولة للتستر على مذبحة ماي لاي. أنصت لي باهتمام وبدون أيّة مقاطعة وأنا اسرد على مسامعه تحفظاتي ومؤاخذاتي على التقرير الداخلي للجيش بصدد المذبحة المذكورة، وأنّ بحوزتي نسخة منه. وبعد ما يقرب من خمس دقائق رفع يده إشارة لي كي اتوقف عن الكلام. قال شيئا سأتذكره ما دمت حيّا. «يبدو ذلك موضوع جيّد. ياسيد هيرش هل 500 اسبوعيا كافية؟» قلت، «500 ماذا في الأسبوع؟» اوضح أنّه يعني التمويل المادي لتغطية نفقات السفر والبحث والمعيشة خلال فترة متابعة موضوع التستر. صافحني واتصل بالسكرتيرة لإجراء ما يلزم. اخذتني إلى مكتب مجاور لملْ بعض

الاستمارات والتوقيع عليها قبل مغادرة المبنى. أتذكّر أن آخر شيك تسلمته من وكالة الأسيوشيتد برس كان حوالي 150 دولارا اسبوعيا. أمّا الآن فإني اعمل لصالح مجلة نو يوركر بأجر مضاعف لثلاث مرات. كانت مكالمتي الأولى، التي اسفت عليها، مع وكيل اعمالي لِجِر. اخبرته بما حدث وقلت له إنّه لا يصلح أن يكون وكيلا لأعمالي بعد اليوم. لقد كان رأيه عنّي غير مصيب، والأكثر اهمية كان رأيه عن وليم شَون أشدّ خطأ. اعتقد أنّه تفهم موقفي.

سُرّ بوب لومِس بمعرفة أنّه إذا سارت الأمور على ما يرام مع مجلة نو يوركر، فإنّ مقتضبات من كتابي عن التستر ستغطي غلاف المجلة. لم يكن واضحا ماذا سأجد في تلك المجلدات، وإن كان الرأي العام الأمريكي يهتمّ حقا بالموضوع، خاصة إذا كان ذلك يعني خسارة الجهود الحربية. لكنّ ما دفعته لي دار رانْدُم هاوس مقدما ومدخولي الأسبوعي من نو يوركر سيؤمنان لي دخلا كافيا. أصبح لي مدير اعمال جديد هو ستِرلِنگ لورد بتوصية من ديفِد وايز، الجار وصديق العائلة، الذي وضع أثناء عمله في وكالة المخابرات المركزية في فترة الستينات الأسس حول كيفية اجراء التحقيقات الإستقصائية حول نشاط المخابرات الأمريكية.

أمضيت الشهور التالية وأنا احاول استيعاب محتويات الأجزاء الأربعين من تقرير هيئة پيرز. عن ماي لاي، التى لم يطلع عليها الرأي العام بعد. استطعت التوصل إلى بعض الاستنتاجات المرعبة بعد التمعّن بأكثر من 400 شهادة أمام الهيئة المذكورة. أوصت الهيئة بتوجيه تهم إجرامية بحق 14 ضابطا، بينهم اللواء صَموئيل كَستر، قائد الفرقة الأمريكية الحادية عشر، فرقة برافو باعتباره مسؤولا عن تصرف القوات التي بإمرته، بما فيهم النقيب أرنست مدينا قائد وحدة چارلي. رُقيّ كَستر واصبح قائد الأكاديمية العسكرية في وست پوينت، وقت بدأت انشر تقاريري في وكالة دِسپاچ، وأنّ مشاركته في الفضيحة قد زادت من الكابوس الذي عاشه الجيش والپنتگون والرئيس نِكسُن، الذي استمر في تصعيده للحرب. الضابط الوحيد الذي حوكم عسكريا وحُكم عليه وفق قرار محلفين من اقرانه وقضى وقتا خلف القضبان هو الملازم وليم كالي. لقد فشل نظام العدالة العسكرية، لأنّ عددا من الجنرالات الذين اصابتهم شرور الفضيحة استمروا في الخدمة واستمرت حرب فيتنام بعنفها الذي استهدف المدنيين واستمر احصاء عدد قتلى الجانبين كمؤشر على نجاحها.

كانت هناك قواعد خاصة بالإشتباكات الحربية، وكان افراد القوات المسلحة المقاتلة في فيتنام قد أبلغوا بها[23]. ذكر الجنرال كَستر في شهادته امام هيئة پيرز وأنّ مكتبه قد نشر 7 صفحات احتوت على «معايير استخدام الأسلحة النارية واستعمالاتها في مناطق تواجد المدنيين». غير أنّ اصدار تلك التعليمات لم يكن أكثر من تمثيلية سمحت للنظام أن ينظر إلى القتل والاغتصاب وحرق الممتلكات وغيرها من جرائم الحرب، كمخالفة للتعليمات فقط. اختار القادة في ماي لاي وغيرها من مناطق فيتنام سلوكا واحد تكرّر المرة تلو الأخرى خلال تلك الحرب. وهو النظر إلى قتل المدنيين ليس باعتباره جريمة وبدأ التحقيق باعتباره جريمة حرب وتحمل المسؤولية المهنية عن تنفيذها، بل النظر إلى المذبحة باعتبارها مخالفة لقواعد الإشتباك، ومعاقبة من يرتكب مثل هذه الجرائم الكبرى على أنّها مخالفة لتلك القواعد.

لقد جرى توضيح هذه السياسة المجنونة في ربيع عام 1971، حين اتصل بي محارب سابق في فيتنام بعد أن القيت محاضرة في جامعة ساوث دَكوتا في مدينة فرمِليون في اقصى جنوب شرق الولاية. شغل وظيفة جندي كاتب في مقر الفرقة الأمريكية في شهر يوليو عام 1969 حين هاجمت اربع طائرات مروحية أمريكية قريتين في منطقة اشتباك محدودة تبعد حوال 10 اميال إلى الشمال من مقر الفرقة فقتلت 10 مدنيين وجرحت 15 آخرين. إدّعى الطيارون أنّهم رصدوا إطلاق نار من إحدى القريتين. غير أنّ المعروف هو أنّ الحرب، ولسبب ما، لم تصل إلى تلك المطقة الهادئة، التي تضم قرى صغيرة للصيادين في غرب بحر الصين الجنوبي. وصلت شكوى من الجانب الفيتنامي إلى اللواء لويد رمزي، القائد العام للفرقة. كان التقرير الرسمي مفعم بالشهادات المتناقضة حول التهديد الذي تعرضت له الطائرات. وفي النهاية اصدر اللواء رمزي ثلاث رسائل توبيخ لثلاثة من الطيارين الأربعة. لقد ارتكب هؤلاء مخالفة للتعليمات، وتوصل اللواء المذكور إلى استنتاج بأن تحفظ رسائل التوبيخ المذكورة في ملفات الطيارين المعنيين حتى نهاية مدد خدمتهم في الفرقة. وإذا لم يرتكب أيّ منهم مخالفة أخرى فيجب رفع التوبيخ من الملف وإتلافه.

شعر الجندي الكاتب بالاحتقار لقرار رمزي بالنظر في أمر تلك الهجمات غير المبررة على القرى الآمنة، باعتبارها مخالفة للتعليمات، خصوصا وأنّ علاقة تلك الفرقة بتاريخ مذبحة ماي لاي معروفة. وهو الأمر الذي جعل هذا الجندي يستنسخ محتويات الملفات الخاصة بأولئك الطيارين ويحملها معه إلى ولاية ساوث دكوتا. في شهر مارس من عام 1971 وقبل زيارتي إلى فِرمليون، رُقي رمزي إلى رتبة مارشال. كانت تلك الترقية مهمة قدر تعلق الأمر بهذه القصة التي سأكتب عنها. أصبح الآن هو الضابط المسؤول عن عمليات الإنضباط العسكري في كافة وحدات الجيش الأمريكي. اعطاني الجندي الكاتب نسخ الملفات المذكورة، وتمنى لي حظا سعيدا. اتصلت بصاحبي شَون من دَكوتا الجنوبية واخبرته بما توفر لديّ من معلومات وحصلت على موافقته لمتابعة القضية.

تطلب الأمر منّي عدة اشهر لأصل إلى الجنرال رمزي وبعض الطيارين، الذين شاركوا في الهجوم. كتبت مقالة من 12 ألف كلمة لمجلة نو يوركر. ختمت المقالة باقتباس من محام عسكري رفيع قال بأنّ ضباطا من قبيل رمزي قد وجدوا انفسهم اسرى «نظام للقواعد والتعليمات ليس لها علاقة بما يجري في فيتنام. إنّها تشبه شيئا مثل الوصايا العشرة، هي موجودة ولكن لا أحد يريد أن يعيرها انتباها... لقد وقعنا في فخ نظام وضعناه لأنفسنا.»

إتصلت بالمحرر شَون واخبرته أنّني أكملت المقالة واعتذرت لكونها طويلة. ردّ قائلا، «لا بأس يا سيد هيرش، لا يهمّ أن تكون القصص طويلة جدّا أو قصيرة جدا، مثيرة للإنتباه أو مدعاة للملل». لقد أمضيت عشر سنوات في هذه المهنة، وكان يُقال لي دائما أنّ مقالاتي طويلة جدّا. كان المحرر المسؤول عني في المجلة هو پات كرو، شاب ذكيّ من ولاية آركنسا يلبس الجين وحذاء الكاوبوي حين يأتي للعمل في المكتب. لم يكن لديه وقت يمضيه في «الدردشة» chit-chat التي كانت هوايتي المفضلة. كانت تلك الأيام في مجلة نو يوركر، حين يكون الكاتب معروفا وأنّ للمحرر وجهة نظر أخرى حول مقطع أو هيكل المقالة، أو هناك حاجة لرفع جزء منها...الخ، فإنّ المحرر لا يفرض ارادته على اجراء التغييرات المقترحة. يسعى لمناقشتها ويشرح اسبابه لطرحها أمام كاتب المقالة أوّلا. تعلمت بسرعة أنّ الأمر سيكون انتحارا إذا تمّ تجنّب المنطق الذي قامت عليه اقتراحات

كرو. إنّه كما بوب لومِس، نموذج للطف والرقة. كان ضبط دقة المعلومات سهلا لوضوح المصادر، وبسُرعة دُفعت المقالة للنشر. اتّصل كرو وأنا في واشنطن فذكر أنّ شَون يريد أن يقرأ المقالة بشكلها النهائي قبل النشر. أكّد لي أنّ ذلك الإجراء أمر مألوف في المجلة قبل نشر أيّة مقالة لكاتب جديد.

جاءني اشعار التعديلات بعد اسابيع قليلة، وكانت اسابيع طويلة من الإنتظار، على شكل صور الواح الطبع galleys من مجلة نو يوركر. احتوى كلّ لوح على ما يقرب من 400 كلمة واستلمت أكثر من 30 لوحا، وهي تغطي قصتي المؤلفة من 12000 كلمة، فكان ذلك شيئا حسنا. بدأت مراجعة محتويات صور الألواح. لم يُدخل شَون تعليقا على اللوح الأول.عظيم! يبدو أنّه أحبّ مقدّمة المقالة. لم يكن هناك تعليق على اللوح الثاني، لكنّ الثالث احتوى على رسمٍ دائرة وضعه شون حول عبارة تقليدية cliché. ثم كان هناك سهم أشر على عبارة أخرى وشيء كُتب بقلمه، «يا سيد هيرش، من فضلك استعمل كلمات اخرى.»

نُشِرت مقالتي تحت عنوان «التوبيخ» في عدد المجلة لشهر اكتوبر عام 1971، الذي تكون من 200 صفحة واحتوى على مقالات كتبها دونلد بارثلِم ووتني باليت وكالفِن ترلِن وپولين كايَل. لقد وصل كاتب التقارير عن الشرطة في الجانب الجنوبي من شيكاگو إلى منطقة برودوَي في نو يورك، لكنّ الحرب ما زالت قائمة، وأنّني سأظل متابعا لها.

نشرت نو يوركر بعد ثلاثة اشهر مقتضبات من كتابي عن التستر على ماي لاي في عددين، غطى كلّ منهما حوالي 25 صفحة من صفحات المجلة. كان شَون بالغ الحذر بأن لا ترد كلمة واحدة تحوّل جنديا بريئا إلى قاتل. تمّ تدقيق صحة المعلومات سطرا بسطر من قبل فتاتين في مقتبل العمر، انتقلتا إلى واشنطن لذلك الغرض. لقد علمتني تلك التجربة أن اكون متواضعا وأدركت أنّني ارتكبت عدة اخطاء، اكثرها كان خلال تلخيصي لبعض المواد التي نُشِرت أو طُبِعَت في امكنة اخرى. فهمت من جهد هاتين المدققتين أنّ التفصيلات الأساسية وغيرها، لها اهمية بالغة. لم يتسبب نشر مقالتي في نو يوركر ولا كتابي، الذي تكلفت نشره دار راندُم هاوس أيّه شكوى أو دعوى قضائية، ولا تهديدات من أيّ صنف، ولم تعد حاجة للناشر أن يقوم بأيّ تصحيح. اصبحت الحاجة إلى تعيين مدقق/مدققة لضبط الحقائق fact-checking مسألة لا بُدّ منها منذ ذلك الحين.

استرعت المقالتان انتباه أحد العاملين في التايمز، وكذلك انتباه داگ روبِنسُن، وهو مراسل مكتبها في واشنطن. حصل على نسخة مبكرة من عددي نو يوركر وامضى بعض الوقت يتحدّث معي بالهاتف، وكتب بدوره مقالتين عن التستر. في وسط هذه النشاطات، أبلِغت أنّ طلبي للحصول على تأشيرة دخول إلى فيتنام الشمالية، الذي قدمته منذ عدة سنوات، قد تمت الموافقة عليه. واكون بذلك أوّل صحفي غربي يُسمح له بالدخول إلى هَنوي منذ زيارة هَريسُن سولزبَرگ في اواخر عام 1966. فرحت للغاية وكان شَون شديد الحماس. اخبرت روبِنسُن بأمر تأشيرة الدخول، ولا شكّ أنّه نقل اخبارها لصحيفة التايمز. وعلى أيّة حال، تلقيت في وقت ما من شهر فبراير مكالمة من جَيمس گرينفيلد، محرر الشؤون الخارجية في التايمز. امتدح ما نشرته لي نويوركر، وسأل إن كنت راغبا

لكتابة شيء للتايمز حين اذهب إلى فيتنام الشمالية. كما أنّه سألني إن كنت ارغب في مقابلة أيب روزنثال. كان ذلك أمرا غريبا. ألا يعتقد روزنثال أنّني لن اقبل دعوة لمقابلته؟ علما أنّني أعرف تصرّف في بشكل فجّ معه، حين اغلقت خطّ التلفون بوجهه مرتين.

أطلعذت شَون على أمر المكالمة فشجعني أن أتحدث مع مسؤولي التايمز واقابلهم. عملت بنصيحته. استقبلني گرينفيلد وقدّمني إلى أيب، الذي اخذني بسرعة إلى قسم ملحق بمكتبه، اعتقدت أنّه مصمم على طريقة غرف شرب الشاي اليابانية. علمت فيما بعد أنّه قد عمل في اليابان مراسلا للتايمز وأنّه سُحِر بتجربة العيش في ذلك البلد. لماذا لم اتقدم من قبل للعمل في التايمز؟ ماذا قلت؟ ربّما فهمت أنّه نسي الرسائل، التي تبادلناها قبل سنتين، وربّما لم يعرف أنّه قد قيل لي خلال مقابلة أجريت معي قبل عام، أن أعمل في مكان آخر لكي احصل على خبرة إضافية. ولكن من المؤكد أنّ ماكس فرنكِل قد اخبره عن لقائه بي، حين افاد أنّه لا توجد وظائف شاغرة في مكتب التايمز في واشنطن، بناء على تعليمات من الرجل الجالس قبالتي. علمت فيما بعد أن فرنكل قد كتب إلى أيب قبل أكثر من عام، بالضبط في يوم 9 ديسمبر من عام 1970، أنّني ارغب في الإنضمام إلى جهاز العاملين في التايمز وأنّ ماكس مقتنع بأنّ، «الموهبة والطاقة والمصادر، التي يملكها هذا الرجل، يجب أن توظف لمصالح التايمز... وإنّ قدرته قد تجلب علينا الكثير من المنفعة». كما أنّ ماكس يعرف جيدا انحيازاتي الشخصية السياسية الواضحة، فكتب يقول، «بالرغم من آرائه حول هذه القضية أو تلك، فإنّه مراسل من الدرجة الأولى. أعتقد أنّه يدرك تماما الأسس والمبادئ التي تقوم عليها التايمز في الموضوعية وعدم التحيّز. وفوق ذلك فإنّ عمله في ماي لاي قد دلل على قدرته في تسخير الأدلة الحقيقية وتجنب التحيّزات الذاتية». لقد كان ذلك تقييما كريما من رجل له صفات مناقضة دائما لصفاتي.

وعلى أيّة حال، في اللحظة التي اعتقدت أنّها أجمل لحظات حياتي، قلت لمدير التحرير التنفيذي روزنثال لا ادري لماذا لم اقدّم للعمل في التايمز من قبل. بدا في تلك اللحظة أنّ الحقيقة لا قيمة لها. كانت خلاصة ما اخبرني به أنّ مجلة نو يوركر صرح متميز، لكن لا شيء يعادل قيمة التايمز. يجب أن اذهب إلى فيتنام الشمالية وارسل له تقاريري، ثمّ أعود وسنتكلم حينها عن انضمامي لمكتب الصحيفة في واشنطن. اخبرني گرينفيلد بعد ذلك أنّه إذا وافقت أن ارسل لهم التقارير من الشمال، فإنّ التايمز ستزودني بمبلغ 10 آلاف دولارا احملها في حزام خاصّ معدّ لذلك الغرض. شرح بأنّ هناك حاجة ماسة للنقد لأنّ كوريا الشمالية تصرّ أن ادفع دولارا مقابل كلّ كلمة ابعثها بواسطة جهاز البرق عندهم، وستتولى الأسيوشيتد پرس نقل البرقيات إلى نو يورك، فوافقت على الخطة. كانت تبدو خطة غامضة ورائعة في نفس الوقت، ولكن ماذا سيقول شَون عن ذلك؟

كان شَون مذهلا. حثّني على الذهاب والعمل مع التايمز لأسباب وجيهة. إنّ طاقتي أكثر ممّا تحتاجه مجلته. ذكر أنّه لا يستطيع أن ينشر كلّ ما اكتب. كنت قلقا بعض الشيء بصدد مساهمتي السابقة في حملة انتخابات الرئاسة وآرائي المناهضة للحرب، وسألته إن كان الأمر لا بأس به أن اعمل في التايمز. ردّ، «ستكون على أفضل ما يكون». فهمت ماذا قصد من تلك الجملة. إنّني مراسل أؤمن بالجهد المتواصل وكشف الحقائق ونشرها واعرف الفرق بين الغثّ والسمين. كما أنّه كان مقتنعا وشاركته الرأي بأنّني سألتزم بالمواعيد المقررة لتقديم المواد إلى التايمز.

طرت إلى هَنوي في اواخر شهر فبراير حاملا المال معي، عن طريق بانكوك وفينتيان في لآوس، حيث كان مقررا أن التقي بمسؤول فيتنامي سيؤمن لي مقعدا على طائرة من لآوس إلى هَنوي. كانت رحلة الخطوط الجوية اللاوسية من بانكوك لا مثيل لها. الطائرة قديمة من نوع DC.3 وحمولتها من الماعز والحيوانات الأخرى والركاب جالسون على ارضية الطائرة. والأدهى من ذلك أنّ أحد المحركين اصابه عطب فتوقف عن العمل حين تسلقت الطائرة فوق سلسلة الجبال المحيطة بالمطار. كانت المدة المقررة للتوقف في مطار فينتيان قصيرة، لكنّها استمرت لأيام، لأنّه وكما علمت فيما بعد، وجود تناحر بين صفوف قيادة هَنوي حول توقيت الزيارة في مارس. كان الإستعداد للهجوم يجري على قدم وساق، وكانوا يخشون أن اطلع على ذلك. ما كانت لهم حاجة لذلك القلق لأنّ مراسل الشؤون الأجنبية «البارع» لصحيفة نو يورك تايمز قد امضى مدة اكثر من اسبوعين في الشمال دون أن يعرف معنى استمرار تدفق العربات باتجاه الجنوب.

لم اتوقع أنّني سأجري مقابلة بالغة التأثير على مجريات الحرب مع فو نيون جَب، وزير الدفاع والقائد العام لقوات جيش فيتنام الشمالية، ولا مع تي دك تو، عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المكلف بالتفاوض مع هنري كِسِنجر في باريس. لم تتهيا للصحفي هَريسُن سولزبَري مثل تلك الفرصة، ولو أنّه كتب تقارير بالغة الأهمية عن آثار الحرب على فيتنام الشمالية. في الحقيقة، كان هدفي الطموح هو أن اكتب عن الحرب غير المتكافئة واوضح كيف أنّ شعبا صغيرا ليس لديه قوة جوية يقف وجها لوجه ضدّ دولة عظمى ويحقق عليها انتصارا.

كان مرافقي ها فان لو عقيدا عسكريا سابقا، وكما علمت فيما بعد فإنّ دوره كان في الميدان السياسي، إذ كان ضمن الوفد الذي تفاوض في باريس حول ايقاف الحرب. أخذني إلى فندق ريونيفيكَشن الحكومي الذي شهد اياما جميلة في الماضي وموقعه قرب متنزه المدينة ومطل على بحيرة هوان كيم. تطلب الأمر بعض الوقت لأحصل على الماء الكافي للإستحمام. قابلت المترجم، الذي تكلم الإنگليزية بطلاقة عالية وكان برفقة رجل أمن، وهو ضابط عسكري ضخم البنية لم يتكلم إطلاقا واعرف اسمه فقط، النقيب بو. تصورت كثيرا أنّه قتل أثناء المعارك في الجنوب عددا من الجنود الأمريكيين. كان شيئا غريبا أن اكون برفقة عدو واكون تحت سيطرته. وضعت آلاف الدولارات في حساب في دائرة بريد هَنوي وتساءلت إن كانت دولارات التايمز هذه ستذهب لشراء اطلاقات قد تقتل فيما بعد عددا من ابناء وطني في معركة قادمة.

طُلِب منّي أن استريح لأنّ المقابلات والإجتماعات ستبدأ في اليوم التالي. لم اقتنع بتلك التعليمات، فاصطحبت المترجم وانطلقنا نكتشف معالم المدينة. كان ذلك في مطلع شهر مايو وكانت هَنوي منظرا صادما لهدوئها. لم اشاهد عددا كبيرا من نقاط التفتيش على الطريق في هذا المجتمع الذي تسيطر عليه اجواء الحرب. كانت توجد ملصقات كتبت بخط كبير تدعو إلى الحيطة واليقظة وتُبشّر بالانتصار. لكنّ شوارع وسط المدينة كانت مزدحمة بالدراجات الهوائية والنارية والأطفال والنساء الفيتناميات الجميلات. لقد حُذرت من سطوة الحزب الشيوعي وتحكّمه، ولكن بمساعدة مترجمي ذهبنا إلى بعض المحلات التي تعدّ الوجبات السريعة في شوارع هَنوي الجانبية. لم اشاهد مطاعم بل مقاعد على الطريق ونسوة يحضرن للزبائن وجبات حساء المعكرونة الفاخرة. ثمّ دخلنا محلا لبيع الكتب وقابلنا هناك شابا يسير على عكازتين وقد بُترت احدى ساقيه. أخبرني أنّه شارك

في حصار قوات فيتنام الشمالية لحامية خي سان في فيتنام الجنوبية، حيث استطاعت مجموعة من مشاة البحرية الأمريكية المقاومة لمدة ستة اشهر قبل الإنسحاب. تحدثت معه وأنا اشعر بالغضب، حقيقة كنت ارتعش، حين علمت أنّ هذا الجندي الفيتنامي الشاب عرف اسم مقدم البحرية، الذي قاد الوحدة التي اوقعتهم في شرك فوقعت معركة فقد ساقه نتيجة لها. كان صعبا عليّ أن اتصور انّ الملازم كالي أو غيره من قادة الأفواج والسرايا والوحدات يعرفون اسماء أحد من الضباط من الجانب الآخر من خط التماس. كتبت مقالة في صباح اليوم التالي وبعثتها إلى التايمز عن طريق وكالة رويترز وموضوعها الجندي ذو الساق المبتورة. غير انّ المحررين قرروا بشكل عاقل موزون أنّ هذا الموضوع ليس من النوع الذي يجب أن أبدأ فيه تقاريري من العاصمة هَنوي.

وهو الأمر الذي اعادني إلى ضرورة الالتزام بجدول المقابلات وزيارة المتحف والأماكن التاريخية في المدينة. لم يكن للأجانب أيّ حضور في العاصمة هَنوي إلا نادرا. كان من السهل رصدي وانا انتظر خارج الفندق وصول المترجم. كان ذلك من قبل مجموعة من الفتيان اليافعين وهم في طريقهم إلى مدرستهم. تعودوا منذ ذلك اليوم وهم يمرّون أن يبتسموا ويقهقهوا قائلين، «أسعدت صباحا، يا سيدا!» وكنت اردّ لهم الابتسام واقول، «طاب يومكم جميعا!» لقد شرعت أن اكون هناك صباح كلّ يوم وقت ذهابهم للمدرسة. كنت احيانا انطلق لوحدي، رغم أنّني كنت اعرف أنّ هناك من يراقب تحركاتي ويتابعني. ومع ذلك شعرت بأن لا أحد تدخل أو قاطعني، فأنا ذلك الصحفي الذي كتب عن ماي لاي. اعددت قائمة باسماء الدبلوماسيين الموجودين في هَنوي وبدأت زيارتهم. السفير الهندي هناك، كان قد عمل في بكين وموسكو، وكان سعيدا أن يخبرني برأيه عن فيتنام الشمالية واحتمالات الحرب ومحادثات السلام في باريس. كان لديه طباخ ماهر والأكثر اهمية العديد من روايات الكاتب أف أس نيبول. أمّا السفير السويدي جين- كرستفر أوبرگ، فقد كان عالما متعمقا في شؤون جنوب شرق آسيا، وعرض أمامي خلفية الصراع ومحتواه، اللذين يجب أن يطلع عليهما كلّ مراسل اجنبي، خصوصا من جاء مثلي بمثل هذه السرعة الفائقة فنزل في وسط الأزمة. يجب أن أكون على بينة ممّا يدعيه كلّ من يستضيفني في مقابلة. كان أوبرگ، الذي توفي عام 1992، له إحساس بما يجري خلال الحياة اليومية في هَنوي. اخبرني خلال تناول الغداء ونحن نحضر لعبة ابنه مع فريق كرة القدم في المدرسة فاكتشفت ما تتمتع به الجالية الدبلوماسية. إنّ أية ركلة يسددها ابن السفير نحو الهدف لا يعترضها المدافعون ولا حامي الهدف! حثني أوبرگ والسفير الفرنسي على أن لا اقبل دعوة لزيارة اسرى الحرب الأمريكيين أو مقابلتهم. كانت لديهم اسباب وجيهة، لأنّ بعض المحتجزين في «فندق هَنوي» قد عوملوا معاملة سيئة للغاية.

تناولت عشاء صاخبا مع مجموعة من الجنود الكنديين الموفدين إلى هَنوي ضمن بعثة للسلام. استطعت فجر اليوم التالي أن اعود للفندق بعد أن امضيت ليلة في السكر والعربدة ومشاهدة الأفلام الخليعة وتعلمت لا شيء عن الحرب ولا هَنوي. حين قابلت ها فان لو ذلك الصباح سألني بالإنگليزية، «كيف كانت ليلتك؟» ثمّ تمتم قائلا «إنّ الكنديين أكثر يانكية من اليانك انفسهم!» أحببت أن أقنع نفسي أنّ مراقبة الفيتناميين الدقيقة لي هدفها حمايتي من أيّ سوء، خاصة على ايدي بعض الكنديين. لكنّها بطبيعة الحال كانت أكثر من ذلك.

كانت مقالتي الأولى، التي نشرتها التايمز عن افتتاح ابواب متحف هَنوي الجديد. تحدثت فيها عن غزو فيتنام الجنوبية الأول الناجح للجارة لاوس في مطلع عام 1971، والذي اعتبر نقطة

تحول في حرب فيتنام. وهو انتصار اعتبِر «اختبارا ناجحا» لسياسة إدارة نِكسُن في فيتنام، وجعل الحرب في عهدة جيش فيتنام الجنوبية. استطعت تدقيق ذلك التقديم الدعائي على لسان «دبلوماسي غربي» مجهول، الذي أُقتبِس عنه قوله إنّه متفق على أنّ ذلك الانتصار قد جاء في «وقت حرج» بالنسبة لحكومة هَنوي. كان توقيعي على المقال باسم صحفي يعمل لحسابه الخاص يقيم حاليا في فيتنام الشمالية.

استمررت في ارسال التقارير خلال الأيام التالية وأنا اتحرك تحت مراقبة عيني النقيب بو الصامت. قطعت مسافة 95 ميلا شرقا لزيارة مدينة تعرّضت للقصف الشديد واسمها هو گي، وهي منطقة استخراج الفحم الطبيعي واخبرت كيف أنّ السكان المحليين ابتكروا عددا من الطرق للاستفادة من هياكل الطائرات المبنية من الألمنيوم وغيرها من المعادن ومحركات الطائرات الأمريكية المغيرة التي تمّ إسقاطها. استخدِمت المواد في تصليح الدراجات وعمل اجهزة الطبخ واستعمل قسم منها حتى في صنع الحلي. وبعد إلحاح كثير أخذت إلى جسر ثان هو الشهير الذي صمد امام قصف الطائرات الأمريكية التي استهدفته لمدة خمس سنوات وأدى إلى خسائر فادحة لكلي الطرفين. أخبروني أنّه تمّ اسقاط 100 طائرة امريكية وهي تحاول اصابة الجسر اصابة مباشرة. يربط هذا الجسر فيتنام الشمالية بفيتنام الجنوبية. وصلت إلى هناك عصر أحد الأيام وشاهدت حطام الجسر الذي تخللت هيكله الثقوب واصبح لونه فاحما من شدة دخان المتفجرات. ومع ذلك استطاعوا بطريقة أو بأخرى من الاستمرار في استعماله للأغراض اليومية. لقد تعلمت عن هذا الجسر وقصته الأسطورية، التي دونتها في تقرير بعثته لوكالة الأسيوشيتد پرس.

في إحدى جولاتي لمناطق شرق هَنوي على طريق دمرتها القذائف واحدثت فيها حفرا عميقة تجمعت فيها المياه، شاهدت بأمّ عيني صورة الحرب غير المتكافئة. قصفت طائرات البحرية الأمريكية خطا لسكك الحديد قرب هايفونگ قبل ساعة من وصولي هناك، فشاهدت فريقا من العمال يملأون الحفر ويصفّون خطا جديدا، لأنهم كدّسوا المواد والمعدات على طول الخط استعدادا للقصف والتدمير. كان على الطيارين الأمريكيين اجتياز اجواء محروسة ببطاريات من المدافع المضادة للطائرات المرة تلو الأخرى ليدمروا خط سكك يُعاد بناؤه حتى لو كانت الغارات ناجحة.

كان ذلك هو اليوم الأسود الذي تصادمت فيه مع النقيب بو. كنّا ننتظر أن يفتحوا لنا الطريق بعد حصول الغارة، فبدأت التقاط بعض الصور لسلسلة جبال اناميس المنخفضة، التي تمتد من لاوس لغاية بحر الصين الجنوبي. سمعت بو يقول شيئا للمترجم، ثمّ أخذا يضحكان معا. ما المضحك في الأمر؟ قال المترجم، «لا شيء، لا شيء». سألته ثانية فهزّ كتفه وظلّ صامتا. انزعجت من الموقف لأنّني لا اعرف اللغة الفيتنامية واعرف قدرا محدودا من اللغة الفرنسية ويجب أن تكون عندي ثقة بهذا الرجل. عدت فسألت مرة أخرى فقال، «النقيب بو يعتقد أنّك مصور رديء للغاية». ضحكت لأنّ ذلك كان شيئا حقيقيا وارتحت أنّ هذا النقيب القوي الصامت يمكن ان يصدر منه تعليق ساخر. أضف إلى ذلك أنّ المترجم أحسّ بأنّي غاضب، وهذه طريقتي في التعامل مع موقف كهذا.

بدأ ولعي بفندق يونيفيكشُن يزداد بمرور الوقت رغم اثاثه المتهالك وحمامه القديم وسرير النوم الذي تغطيه شبكة تحمي من لدغ الناموس. جعلني ذلك أحلم بفيتنام خلال أيامها الأثيرة التي صوّرها گرام گرين، وغيره من الكتاب الفرنسيين. كنت واعضاء وفد صيني وبعض المواطنين

الروس، النزلاء الوحيدين في ذلك الفندق. بعد ايام من وصولي هناك، نزلت إلى المطعم في صباح أحد الأيام لأتناول فطوري فوجدت هناك گيت سيگر، المغني الشعبي المشهور المناهض للحرب ومعه زوجته توشي. عملت زوجتي مرشدة في مخيم في شمال ولاية نو يورك مخصص لأطفال مدينة نو يورك ليحضروا هناك ويمضوا عدة اسابيع في الغابات خلال فصل الصيف. كان بيت سيگر قريبا من المخيم، الذي احبّه كثيرا، وغالبا ما حضر في الأمسيات ليقود الأولاد وهم يغنون معه اغنياته الشعبية. في صباح اليوم التالي وجدت سيگر قد جمع كافة الندل والطباخين، ومن خلال المترجم اخبرهم عن آلة موسيقية عجيبة تصنع يدويّا وقام بالعزف عليها. كانت شيئا يشبه الناي لكنّها تصدر ألحانا واصوات أكثر جمالا. لم يفهم الحاضرون شيئا ممّا شرح سيگر، الذي قام بتقليد صوت الناي بصوته. كانت لحظات تنمّ عن عبقرية موسيقية أمام جمهور صغير ضمّني وعددا من الفيتناميين المبهورين.

حلت بعد ايام الذكرى الرابعة لمذبحة ماي لاي في 16 مارس. وهي الذكرى التي رفضت فيها بشكل متكرر أن اتحدث لمحطة راديو فيتنام الشمالية. أخبرني سيگر ونحن نتناول الفطور أنّه سيناقش مشاعره حول الحرب في مقابلة إذاعية في ذكرى ذلك اليوم. طلب رأيي في الموضوع فأخبرته أنّ وجهات نظره المناهضة لكافة الحروب بما فيها حرب فيتنام معروفة، وأنّه إذا كان يرغب في اداء اغنية ضدّ الحرب فتلك فرصته. غير أنّه سوف لن يؤثر على مجرى الحرب حين يخبر الجمهور الفيتنامي في الشمال بأنّه ضدّ تلك الحرب. والأكثر من ذلك أنّ الآلاف من الشباب الأمريكي، الذين يشارك بعضهم آراءه عن الحرب، كانوا يَقتلون ويُقتلون على بعد عدة مئات من الأميال في جنوب فيتنام، ومن المتوقع أنّه سيُتّهم بأنّه مناصر للعدو. شعرت بالذنب حين اخبرت شخصا شديد الإيمان بما هو مقتنع به ألاّ يجري تلك المقابلة. أخبرني بعد أيام، وفي صوته نبرة من الإستياء، اعتقدت أنّها موجهة لي، بأنّه لم يذهب للمقابلة الإذاعية. لم اشاهده بعد ذلك.

لم يُنشر لي مقال على الصفحة الأولى من نو يورك تايمز حتى تركت هَنوي وعدت عن طريق بانكوك. كانت المقالة عن حالة سجناء الحرب الأمريكيين من خلال الحديث مع اثنين منهم. أشار احدهما إلى التحسن الكبير في المعاملة وإلغاء الحبس الإنفرادي. كنت بالغ الحذر، لأنّه حتى ها فان لو، «لم يبدُ عليه أنّه كان قادرا على ادراك أنّ مقابلة عدد محدود من الطيارين تمّ اختيارهم بطريقة سرية، قد اظهر حقيقة ما يجري من تلك المعاملات.»

كنت اعرف الروتين الذي يجري لنشر أيّة مقالة. لقد قرّر أيب روزنثال توظيفي، دون أن يقوم بذلك رسميا، ودون أن يناقش معي تفاصيل مثل مكان عملي وكم سيدَفعون لي. عرفت أنّه، وبدون أن يعلن ذلك، ارادني أن اعود إلى واشنطن لأكتب مقالات سيكون لها صدى وتأثير.

رجعت إلى مكتب صحيفة التايمز في واشنطن وسلمتهم عدة افلام صورتها خلال وجودي في فيتنام الشمالية، ووافقت أن اباشر عملي في مكتب الصحيفة اعتبارا من يوم 1 مايو. كتبت مقالة طويلة تعود إلى ايام وجودي في هَنوي، ونشرت في مارس عمّا قارب 15 ساعة وأنا اناقش ها فان لو وهوانگ تونگ،محرر صحيفة الشمال الرسمية والذي انضم إلى صفوف الثوار وهو في سن 17 عاما، وجهة نظر هَنوي حول محادثات السلام في باريس. لم يكن هناك تظاهر بأنّهما زوّداني باقتراح جديد للسلام، بل حقيقة اعطياني معلومات مباشرة. كان ها فان لو ضمن الوفد لتلك

المفاوضات وذهب وعاد ليشترك في المفاوضات مباشرة مع الوفد الأمريكي برئاسة هنري كِسِنجر. فحوى ما علمته هو أنّ الحكومة الفيتنامية في الجنوب، التي ترأسها في حينه نِگون فان ثو، يجب أن تسقط قبل الشروع بأيّة مفاوضات جادة حول السلام. أعطتني المناقشة فهما ممتازا لطلبات الجانب الآخر الأساسية.

نُشِر كتابي الثاني عن مذبحة ماي لاي وعنوانه التستر في مطلع ابريل من عام 1972 من قبل راندم هاوس. ركّز قبله القسمان، اللذان نُشرا في مجلة نو يوركر في عددين متتابعين على التستر خلال ساعات المذبحة وايامها، كما وردت في تقرير هيئة پيرز. لكنّني مع ذلك اجريت عدة مقابلات اضافية من أجل كتابي هذا. كانت خلاصة جهدي هي ما لم يلتفت إليه ضباط هيئة التحقيق بالذي جرى يوما إثر يوم من غياب التواصل بين صموئيل كستر، قائد الفرقة والرجال الذين بأمرته في الميدان، وهم الذين ارتكبوا عمليات القتل.

يتباهى ضباط الجيش عادة بالوجبات الغذائية، التي تقدم في وحداتهم... لا شيء افضل من وجبة جيدة لتغيير مجرى الحديث عن فوضى قرارات الجنرال كَستر...تُعتبر وجبة العشاء تقليدا مفضلا، حيث يرتدي الجنود النُدل السترات البيضاء. كان يقدمون النبيذ ويضعون الطعام على صحون بلورية تحمل شعار الفرقة الأمريكية. كانوا يقدمون احيانا وجبات فرنسية مع اجود انواع النبيذ. غير أنّ الغالب هو شرائح اللحم المشوي وجراد البحر lobster. يبلغ عدد الحضور عادة 15 شخصا بما فيهم الجنرال نفسه ونوابه ومساعديه في مركز الوحدة، واحيانا بعض الضيوف، في الغالب ممرضات من الصليب الأحمر. بعد انتهاء الوجبة تعتّم انوار القاعة، ويشاهد من يحب البقاء عرضا خاصا لبعض الأفلام... يبدو من متابعة الجدول الاعتيادي للجنرال كَستر ومساعديه وحياتهم الإجتماعية أنّ هناك علاقة محدودة جدّا بواقع حرب العصابات، التي تجري على مبعدة أميال قليلة. يسكن الجنرال في بيت مكيّف من اربع غرف يقع على تلة مجاورة لمعسكر الفرقة... ويقف على خدمته طيلة الوقت ضابط شاب، وعلى مقربة من البيت يوجد موقع محصّن ومزوّد بكافة وسائل الاتصال، في حالة حدوث طارئ. يقضي الجنرال معظم ساعات يوم العمل متنقلا بطائرة مروحية ويزور متفقدا الكتائب والوحدات التي بإمرته... وحتى في هذه الزيارات، كان الجنرال بعيدا عن المشاكل والمخاوف التي يعيشها جنود المشاة... وكلّ من تحت إمرته. وحين يرد ذكر لمشكلة أو شكوى، كان مساعدوه يسرعون للتكتم عليها حتى لا يسمع بها الجنرال.

تعقبت أثر الشهود، الذين تسرحوا من الخدمة العسكرية، وهم الذين كانت شهاداتهم أمام هيئة پيرز قد اثارت شكوك المحققين. من بين هؤلاء شهادة القس كارل إي كروسوَل، من الكنيسة الأسقفية، والذي كان يعمل مع الفرقة الأمريكية وقت جرت مذبحة ماي لاي، والذي استقال من منصبه بعد تلك المذبحة. أخبر هيئة التحقيق قائلا، «لقد اصبحت على قناعة أنّ القضية، قدر تعلق الأمر بالجيش الأمريكي، لا يوجد شيء حول قتل مدنيين فيتناميين. أنا آسف لأنّ هذا الإدعاء مدعاة للسخرية. ولكن هذه هي الطريقة التي يجري عليها النظام.»

كان القس لا يزال غاضبا حين التقينا وتكلمنا عن الموضوع في ابرشيته في مدينو إمپوريا في ولاية كانزس. أخبرني أنّه نُقِل في اواخر عام 1967 للعمل مع كتيبة مشاة كانت في طريقها إلى

ساحة الحرب في فيتنام على ظهر سفينة حربية. اضطرت السفينة أن تخفف من سرعتها بسبب الأمطار الغزيرة والرياح العاتية. نادى العقيد المسؤول عن الرحلة القس كروسوَل وقال، «أبانا، لماذا لا تطلب من صاحبك أن يفعل شيئا حول هذا الطقس؟» ضحك الضباط الذين كانوا حوله. تذكّر القس ما قال في حينه، «لا اعتقد أن الربّ في عجلة ليساعدنا أن نسرع في الوصول إلى فيتنام كي نقتل البشر». أطبق الصمت على الحاضرين، وفي ذلك المساء رفعوا اسم كروسوَل من قاشمة الحضور إلى مائدة العقيد القائد لتناول العشاء.

قام عدة اشخاص معروفين بمراجعة كتابي، كان افضلها عندي المراجعة، التي نشرتها واشنطن پوست، وكانت من اعداد رون رايدِنأور، الذي عمل أكثر من أيّ شخص آخر لفضح ما جرى في قرية ماي لاي. كتب يقول، «أثار التستر اسئلة حول جوهر الجيش كمؤسسة، وطرح اسئلة حول كرامة القيادة العسكرية والمدنية وأمانتها، إضافة إلى اسئلة حول نوع العدالة، التي تؤمّنها هذه المؤسسة». اختتم رايدِنأور مقالته بالقول، «إنّ السنوات التالية ستأتي باستفسارات عمّا سبب تجاهل هذه الأسئلة الحيوية التي طرحها الكتاب، ولماذا تُرِكت دون إجابة أمام هذا الشعب، الذي عانى من تلك الحرب.»

كان رون علي حقّ بخصوص ملل المواطنين من الحرب، وبالتأكيد أنّهم اداروا وجوههم عن مسألة التستر. لم تُبع نسخ كثيرة من الكتاب، رغم أنّه نُشر منه مقطعان كبيران في عددين متتاليين من مجلة نو يوركر وكانا مصحوبين بآراء المعلقين. بالتأكيد لم اساعد جيش فيتنام الشمالية على المبادرة بشنّ هجوم رئيسي بعد الهجوم الناجح بتاريخ 1 أبريل والتقدم داخل الجنوب يوما إثر يوم، حين فشلت قوات فيتنام الجنوبية بشكل مثبط ايقاف الهجوم أو القتال، رغم المساعدة العسكرية الكبيرة، التي كانت على شكل وحدات مقاتلة وغارات جوية متتالية.

أسفت لقلة عدد نسخ مبيعات الكتاب، لأنّني كنت آمل أن تزداد اعداد المواطنين المطلعين على جنون تلك الحرب، ومسألة القيادات العليا لدفع الجنود لمزيد من الإقتتال، الذي أوقع بهم وبشكل اكبر في الجانب المقابل خسائر كبيرة، وأنّ تلك القيادات لم تحسن في أدائها في غالب الأحيان. كلّ ذلك جعل من موعد مباشرتي للعمل في مكتب نو يورك تايمز في واشنطن بتاريخ 1 مايو يوما مغريا.

وكما سنرى، فإنّ عملي مع التايمز بدأ بهدير مدوّ في مباحثات السلام في باريس.

الفصل الثاني عشر

العمل في صحيفة نو يورك تايمز

كان يوم الإثنين 1 مايو 1972 هو أول يوم لي للعمل في نو يورك تايمز وامضيته في مقر الصحيفة في غرب شارع 43. كان عليّ أن امضي الأسبوع في قاعة الأخبار في الطابق الثالث واللقاء مع المحررين والمراسلين الآخرين لمعرفة ما يجري في الداخل ومقدار الطاقة التي تُبذل لإعداد الصحيفة كل يوم. ما كنت في قاعة الأخبار منذ هربت من وكالة الأسيوشيتد پرس عام 1967. كنت في قسم الأخبار الخارجية في صباح أحد الأيام، وأنا استمع إلى المحررين وهم يراجعون ما كتبه المراسلون من مواضيع لِغرض تشكيل الصورة التي ستظهر بها اخبار ذلك اليوم. حافظت على هدوئي، ولم اتكلم إلّا حين طُلب منّي. كانت تجربة بعيدة تماما عن تلك التي غطيت فيها اخبار الحرائق خلال فصل الشتاء في شيكاگو بطلب من بوب بلِنگ في صحيفة (اخبار المدينة الجديدة.)

الأخبار القادمة من فيتنام مدعاة للتجهم، فقوات فيتنام الشمالية وقوات الفيتكونگ، وجناحها السياسي المعروف جبهة التحرير الوطني NLF مستمرة في احراز التقدم طيلة شهر الهجوم واتمت بنجاح اكتساح الطريق السريع رقم 1، وهو الطريق الرئيسي، الذي يوصل الشمال بالجنوب باتجاه العاصمة سايگون. دخل أيب روزنتال القاعة مسرعا قبل ظهر ذلك اليوم وسأل إنْ كنت احمل جواز سفري معي. أخبرته إنّني بطبيعةَ الحال لا احمل جوازي معي طيلة الوقت. كان جوابه كمشهد من مسرحية بِن هِشت، «اذهب إلى البيت واحضره واحزم حقيبتك واذهب إلى باريس وتحدّث مع وفد فيتنام الشمالية المشارك في مفاوضات السلام واعرف ماذا يجري، بحق السماء!» اخذوني إلى غرفة أخرى وزوّدوني ببطاقة إئتمان أمريكن إكسپِرس وبطاقة سفر عالمية وقائمة تحتوي على ارقام هواتف، يتعين عليّ الإتصال بها إذا وقعت في ورطة.

كان واضحا أنّ أيب قد افترض أنّ تقاريري عن ماي لاي والوقت الذي امضيته في هَنوي سيؤمنان لي طريقا للاتصال بالفيتاميين. لم أكن متأكدا من ذلك، لكنّني فعلت ما طلبه منّي بالضبط. السفر إلى باريس ذلك المساء يعني أن استقل طائرة تقلع في وقت متأخر واحجز مقعدا في الدرجة الأولى من واشنطن إلى باريس وانزل في فندق ذي خمسة نجوم هو كريلون دي لا كونكورد، وأن

ازور مكتب التايمز هناك. كان لقائي الأول مع صحفيين لامعين هما أنتوني لِوِس وگلوريا إمرسِن. اصطحباني لتناول الغداء في مطعم قريب من سوق باريس المفتوح وتحدثنا عن الحرب وعن الصحيفة وعن باريس طبعا. أخذتني گلوريا في مناسبة أخرى لتناول الغداء مع مَري مككارثي، الروائية الشهيرة المناهضة للحرب، وكذا كان موقف گلوريا، التي كتبت عن تلك الحرب بتفصيلاتها. اصبحتْ وتوني صديقين عزيزين لي ورفيقين في السلاح ضدّ الحرب داخل صحيفة التايمز. لم يدر بخلدي أنّ حياتي ستكون اطول من حياتيهما.

يبدو أنّني أثرت أو تركت انطباعا على شخص عرفته ضمن وفد هَنوي إلى مفاوضات الأمم المتحدة خلال رحلتي إلى باريس. بعد وصولي بقليل دُعيت إلى تناول غداء سرّي، بموجب التزام مقدس في مهنتي، مع نگوِن كو ثاچ، النائب الأول لرئيس الوفد الفيتنامي لو دُك ثو، الذي يتفاوض مع كِسِنجر. بدا أنّه كانت هناك اسباب وجيهة لمقابلة صحفي امريكي قد رجع لتوّه من هَنوي. كنت متأكدا من تفصيلات اسباب توقف المفاوضات حاليا، والتي لا يعرف عنها أحد ما. وعلى الأقل سأكون قادرا بشكل خاصّ أن انقل ذلك إلى روزنثال ومكتب الشؤون الخارجية، كما يراها الجانب الآخر. وبطبيعة الحال، فإنّ التايمز من جهة أخرى كانت على تواصل مستمر مع كِسِنجر، وكان ثاچ واعضاء وفده على علم جيّد بذلك. كما أنّي ضمنت أنّه في لحظة معينة سيكون هناك لقاء رسمي معلن مع رئيس الوفد المفاوض في باريس. وممّا عرفته من ثاچ أنّه سيكون بإمكاني طرح أسئلة هامة ومباشرة.

ما زال الخلاف العلني دائرا بين واشنطن وهَنوي حول اصرار الأخيرة على استبدال الرئيس الجنوبي ثيو قبل البدء بأيّة مفاوضات جادة. الحقيقة هي أنّ قوات فيتنام الشمالية وقوات الفيتكونگ كانت قد كسبت الحرب عمليا وأنّه لا قيمة للمساعدات ولا للغارات الجوية، مهما تكثفت واشتدت وتيرتها كي تنقذ جيش فيتنام الجنوبية من الهزيمة. إنّ تلك المساعدات والغارات لن تؤثر على تغيير الواقع السياسي. اعتقد قادة فيتنام الشمالية ومعهم قادة الفيتكونگ أنّ الشعب سيقف صامدا في وجه الغارات الجوية وأنّه سيكسب الحرب. إنّ مناقشاتي الحامية مع ها فان لو وهوانگ تونگ في هَنوي قد تركت لديّ انطباعا راسخا عن استعدادهم للتضحية من أجل تحقيق النصر.

عملت بحماس طيلة وجودي في باريس. توجد في المدينة اقلية مهاجرة من المواطنين الفيتناميين يبلغ عددها حوالي 20 الف شخص، ساعد بعضهم أحد الجانبين دون الآخر، وأنّ قادة هذه الجالية لهم اتصالات بالوفدين المتفاوضين. استمتعت بأكل وجبات لذيذة من الطعام الفيتنامي بضيافة عدد من هؤلاء القادة، ممّن احبوا لقائي وزودوني بقصص عن حياة هذه الأقلية في المنفى والانقسام الظاهر بين افرادها. وقبل مغادرة باريس تمكنت من مقابلة مسؤول فيتنامي شمالي مهم في مقر إقامة وفده في إحدى ضواحي باريس. كان شيئا لطيفا أن استمع إليه وهو يتحدث واسمع في ذات الوقت قأقأة الدجاج في فناء الدار. إلّا أنّ ما كتبته لم يصلح لشروط مكتب الأخبار الخارجية. إنّ قصتي عن هذا اللقاء والتفاصيل الجديدة حول أسباب توقف المفاوضات، ستكون كُتبت بعناوين عريضة واحتلت الصفحات الأولى، لو كنت ذكرت اسم ذلك المسؤول الذي تحدثت معه، لكنّ التقرير دُفع إلى الصفحات الوسطى من الصحيفة. كنت في حاجة إلى لو دُك ثو أو أيّ شخص بمستوى مسؤوليته ليزودني بالمعلومات الداخلية من السجل الرسمي. تناولت قبل أيام قهوة مع شخص لديه معلومات جيدة بحكم عمله في محطة وكالة الإستخبارات المركزية في باريس، وهو

عمل سرّا هناك تحت غطاء موظف في القنصلية. إنّ الحصول على معلومات من مصدر كهذا يُعتبر امتيازا تتفرد به التايمز. اخبرته بما اعتقدت، وبالمقابل عرف أنّني سوف لن أنقل عنه علنا ما ذكر أو اعتقد. أعطاني وجهة نظر صريحة وسلبية حول احتمال التوصل إلى حلّ وسط في تلك المفاوضات. طلبت بدوري مقابلة مع كِسِنجر أو أحد مساعديه إلى مفاوضات السلام، ولم احصل علي موافقة بهذا الشأن.علمت فيما بعد أنّ كِسِنجر قد اختار أن يتحدث بكثرة مع الصحفيين جَيمس رستَن وماكس فرنكِل.

بتاريخ 8 مايو أعلن الرئيس نِكسُن ردّه على انتصارات قوات فيتنام الشمالية والفيتكونگ بتوسيع الغارات الجوية على الشمال وحذر من أنّ أمريكا ستضع الألغام البحرية في كافة موانئ فيتنام الشمالية وستتخذ الإجراءات الكفيلة بايقاف السفن التي تحمل المساعدات العسكرية القادمة من الصين وروسيا. كما أنّه دعا في نفس الوقت إلى وقف إطلاق النار المباشر في كافة مناطق جنوب شرق آسيا واطلاق سراح اسرى الحرب الأمريكيين مقابل الإلتزام الكامل بانسحاب كافة القوات الأمريكية خلال فترة امدها 4 أشهر. شعرت بأنّني سأحظى بما اريد قبل أن اجري مقابلة علنية بعد يومين مع السيدة نِكوِن ثي بينه، الرئيسة الكاريزماتية لوفد الفيتكونگ إلى مفاوضات السلام في باريس. هاجمت مدام بينه،كما كانت تسمى، نِكسُن وقالت، إنّ خطابه «خطاب حرب» وهزأت بالشروط التي وضعها، في وقت كانت فيه قواتها تحقق النجاح تلو النجاح في هجومها، واضافت «إنّ عرضه هذا أكثر إفلاسا من عرضه السابق.»

لم يتصف نقد مدام بينه بأيّ لين، وكذلك كانت المقالة التي بعثتها في ذلك اليوم. لم أشِر إلى العبارات المألوفة التي كررها كِسِنجر ولا غيره من مسؤولي البيت الأبيض، بالإدعاء أنّ اقتراح الرئيس يفتح طريقا للسلام. احتلت مقالتي مع تصريحات مدام بينه عناوين رئيسية، «الفيتكونگ يرفضون خطة السلام.» ولم يحاول المحررون تخفيف لهجة الهجوم اللاذع للمتحدثة على نِكسُن. كتبت عددا من المقالات الأخرى عن محادثات باريس، بما فيها تحليلا عن فرص السلام المتوقعة. كانت تلك المقالات تعبيرا عن وجهات نظري ولم تكن قائمة على اخبار معينة، كتبها صحفي لم يكمل بعد فترة اسبوعين من عمله في التايمز. لقد جعلت حضوري ملموسا في اجواء الصحيفة بطريقة لم تألفها من قبل، وكان ذلك بفضل الفرصة، التي اتاحها لي أيب روزِنثال. إنّ تغطية التايمز للحرب ذاتها وعدم حصول تقدم في مفاوضات السلام قد قامت بها مجموعة من الصحفيين في مكتب نو يورك بقيادة دَيفِد هِلبرستام ومساعدة نيل شيهان وچارلي مَور وآخرين من الأشخاص الأذكياء المتشككين السريعي الانفعال. وكان روزِنثال يرغب بالمزيد من ذلك من مكتب واشنطن. شعرت أنّ موقفه بدأ يتغيّر نحو مناهضة تلك الحرب وأراد مكتب واشنطن أن يتولى مسؤولية ذلك، وأنّه قد اختارني لأكون وسيلته في هذا التغيير.

وصلت اخيرا إلى تحقيق حلمي في وسط شهر مايو في مكتب التايمز في واشنطن. كانت المدينة تطنّ بأخبار الرئاسة السياسية، وكان معظم المراسلين خارج العاصمة. خُصّصت لي طاولة مؤقتة إلى جانب طاولة مراسل للصحيفة عمل فيها طويلا، ويوجد القليل من هؤلاء في مكتب واشنطن. تلقيت عددا من الرسائل ورزمة كبيرة من الكتب، ارسلها لي أرِك أريكسُن،عالم النفس والمحلل النفسي المعروف، الذي ألف كتابا شهيرا بعنوان (الطفولة والمجتمع، بمفاهيمه وأزمة

الهوية فيه). تبين أنّ تلك الكتب تشغل نصف ما كان مقررا لي دراستها في جامعة شيكاگو. كان أريكسُن يعدّ لألقاء سلسلة محاضرات في جامعة هارفرد وطلب موافقتي كي يقتبس ما ورد في الفصول الأولى من كتابي عن ماي لاي، وكيف سقطت أمريكا في الجحيم تدريجيا. لم يكن مفاجئا أنّ أريكسُن كان قادرا على ادراك ما حاولت أن افعل، بمساعدة حكيمة من زوجتي، التي اصبحت فيما بعد محللة نفسية، وكيف أنّي توصلت دون أن استعمل لغة طبية أو نفسية، أن أدرك وأصف كيف أنّ مجموعة من الفتيان الأمريكيين قد فعلوا ما فعلوا في ماي لاي. اقتبست اقوال گرِگوري أولسِن من پورتلاند في ولاية أوريگن، وهو يصف الصدمة، التي تعرض لها حين شاهد هو وزملاؤه «جنودا امريكيين في سيارة نقل عسكرية وقد علقوا على سلك لاقط الصوت في مذياع السيارة antenna، حواي 20 أذنا بشرية. كان منظرا يصعب تصديقه. لقد وضعوا الآذان البشرية على ذلك السلك». كتبت بعد اسابيع قليلة، «إنّ جنود الفصيل كانوا يضربون اسرى الحرب ولم يميّزوا بين من كان عضوا في وحدات الفيتكونگ أو فلاحا بريئا. كما اقتبست بعض اقوال مايكل بَرنهارت، الذي نشأ في ضواحي مدينة نو يورك، بأنّ ضباط الفصيل اعتقدوا، «أنّ كلّ شيء يتحرك ولا يرتدي بزة عسكرية هو من محاربي الفيتكونگ.» لقد تطلب الأمر من جنود الملازم كالي ثلاثة أشهر وهم يمارسون العنف ضدّ الأسرى والمدنيين دون عقاب، قبل أن يُقدموا على ارتكاب جريمة ماي لاي. وفي الوقت الذي كان فيه أريكسُن يتوقع وصول ردّي، قام بإهدائي عدد من كتبه التي نُشرت. شعرت حينها بالتواضع اللامحدود أنّ شخصا مثل أريكسُن يطلب أن يقتبس شيئا ممّا كتبته.

كانت واشنطن تعيش اجواء حرب لا يساندها الشعب ورئيس مكروه وشائعات تطبق عليها من كلّ صوب. وبعد مرور اسابيع قليلة، وجدت نفسي وسط واحدة منها. تحيّر العديد من قادة الجيش واعضاء الكونگرس في مطلع شهر يوليو لفصل الجنرال جون لافِل وتخفيض رتبته العسكرية. كان مسؤولا عن غارات القوة الجوية في حرب فيتنام، ومن النادر أن يُفصل جنرال باربعة نجوم وقت الحرب، خاصة وأنّ الپنتگون، الذي اصدر الأوامر قد رفض الإجابة عن اسئلة عضو مجلس الشعب أوتِس پايك، وهو ديمقراطي من ولاية نو يورك. خدم پايك قبل تولي هذا المنصب طيارا في قوة مشاة البحرية وكان عضوا في لجنة القوات المسلحة في المجلس المذكور. استمتعت بالقوة التي تحظى بها التايمز حين اتصل بي پايك الذي كان مقتنعا بانّ قضية الفصل والتخفيض هذه خلفها قصة اطول. لم اعرف هذا النائب، الذي حثّني أن ابحث عن لافِل لأعرف منه الحقيقة، بعد أن اختفى عن الأنظار.

لم يتمكن أحد من العاملين في الميدان الإعلامي من مقابلة لافِل، وأنّ المسؤولين في إدارة نِكسُن قد التزموا الصمت. الإجراء الذي اتخذ ضدّ الجنرال لم يكن له مثيل في التاريخ العسكري الحديث للبلاد. لقد فُصِل وخُفِضت رتبته العسكرية بسرعة وبدون أن يُحال لأيّ نوع من التحقيق أو المحاكمة العسكرية. لست متأكدا أنّ أحدا من مؤسسات الإعلام في واشنطن قد تعامل مع موضوع كهذا. كان الصيف على الأبواب ومن السهل تعقب اثر الجنرال المختفي. من المعروف أنّ لكلّ جنرال مساعد أو مساعدان، وعادة ما يكون هذا الشخص ذكيا طموحا وبرتبة نقيب. ونظرا لأنّ لافِل جنرال بأربع نجوم، فلا بُدّ أنّه خدم في عدة مواقع في واشنطن وفي الخارج، وأنّ اسمه لا بُدّ موجود

في دليل الهاتف. أعرف اهمية دليل الهاتف العسكري من خلال تجربتي في اعداد التقارير عن ماي لاي. ولحسن حظي، وجدت اسماء عدد من النقباء، الذين عملوا مساعدين له خلال سنوات خدمته، وأنّ أحد هؤلاء يحمل الآن رتبة لواء يعمل في البنتكون. اتصلت برقم هاتفه المنزلي وأوضحت له أنّني مراسل لصحيفة التايمز وأحاول أن أجد الجنرال لافِل لأعرف جانبه من القصة. تعلمت من اتصالاتي أنّك حين تطلب شيئا مباشرا فإنك تحصل على جواب مباشر. كان هذا الضابط مثل أوتِس بايك يودّ معرفة ما جرى لرئيسه السابق. اعطاني عنوان بيت الجنرال ورقم هاتفه. تبيّن أنّه يسكن في ضواحي مريلاند.

إتصلت بالجنرال صباح اليوم التالي. بالمناسبة، شكا لمؤرخ متخصص بالقوة الجوية بعد 6 سنوات أنّه «خُدِع» لإجراء المقابلة. وبطبيعة الحال، ما اتذكره عن تلك المكالمة يختلف تماما عن تصويره لها. فالجنرال ذو الأربع نجوم لا يمكن أن «يُخدع» أو يُدفع لإجراء مقابلة صحفية. في الحقيقة أنّه رحّب بالفكرة وابدى استعداده لمقابلتي في نفس اليوم في نادي محلي للگولف. وجدته هناك بصحبة ولديه يلعبون الگولف فانضممت اليهم. وبعد وقت طلب منهما أن ينتظراه في السيارة، ودعاني لشرب كأس من البيرة في مبنى النادي. اتذكّر أنّه كرع بسرعة ما في قنينة ملر هاي لايت. طرحت عليه سؤالا فحواه كيف امكن فصله وتخفيض رتبته دون محاكمة عسكرية؟ لن انسى جوابه لي وهو يبتسم، «منذ متى كان جنرال باربع نجوم يقف امام محكمة عسكرية؟» أجبته منذ تلك اللحظة! قال إنّه سيخبرني بكلّ شيء، شرط ألّا اقتبس نصوص كلامه مباشرة، لأنّه قد تمّ تحذيره بعدم الإدلاء بأيّ تصريح علني خوفا من أن يؤثر ذلك على المجهود الحربي. وبسبب ذلك فإنّه لن يستطيع أن يخبرني بأيّ شيء إذا استعملت جهاز تسجيل صوتي أو اقتبست أقواله مباشرة. وافقت على شروطه، وإنّي سعيد بذلك الإلتزام، لأنّ الحقيقة كانت صادمة. ذكر أنّ الحرب لم تكن جارية بشكل جيد فاعتمد على استعمال اكثر للناپالم في الجنوب والتوغل اعمق في اجواء الشمال. لقد فُصِل لأنّه أمر الطيارين بضرب اهداف ستراتيجية داخل فيتنام الشمالية، ما كانت ضمن قائمة الأهداف المطلوب تدميرها. أضاف أنّ كلّ ما فعله كان معلوما لدى تسلسل القيادة العسكرية العليا، الذين غضّوا الطرف، حتى انتشرت اخبار الغارات ووصلت إلى الحكومة. ذهب عندها ليناقش الأمر مع السلطات العليا المسؤولة عن خطط الحرب. أخبرته أنّني لا بُدّ أن اطرح عليه سؤالا عن «السلطات العليا» وذكرت حين نشرت مقالتي عن المقابلة أنّه أمِرَ بالإغارة على الأهداف غير القانونية بطلب من شخص يحتل منصبا عاليا في إدارة نِكسُن. كان جاك لافِل على علم بأنّني كنت اشير إلى هنري كِسِنجر.

نُشِرت مقالتي على الصفحة الأولى للتايمز يوم الأحد، واعيد نشرها في الأيام التالية تحت عنوان «الجنرال يغير على اهداف في الشمال قبل صدور الأوامر من الرئيس.» استهدفت غارات الجنرال لافِل شبكات الدفاع الجوي ومخازن الوقود، التي كانت محدودة من قبل. كان يوجد تفويض للطيارين أن يردّوا بقوة إذا استهدفت طائرتهم بصواريخ مضادة وهم في اجواء فيتنام الشمالية أو إذا كانت اجهزة الرادار تؤشر على مواقعهم، خاصة وأنّ شبكات فيتنام الشمالية الدفاعية مزودة الآن بصواريخ ارض- جو دقيقة. كان ذلك يُعرف بالإجراءات الحمائية. لقد استمر طيارو لافِل في مخالفة التعليمات لمدة 3 أشهر بالقصف سواء أكان هناك استفزاز من مواقع العدو أو لم يكن، حتى تمّ الكشف عن تلك الممارسات. كان ذلك في الوقت الذي اصبحت فيه كافة العمليات الجوية فوق الشمال تحت المراقبة المستمرة. بطبيعة الحال، كان هناك شيء مريب في قصة لافِل. كتبت مقالة

طرحت فيها سؤالا هو، «كيف يمكن لقائد عمليات عسكرية أن يستمر في مخالفة التعليمات بشكل مفضوح ولم يتمّ رصده لمدى 3 أشهر؟»

عادة ما يتحرك المراسلون للعمل معتمدين على الغريزة، وكنت على قناعة أنّ هذا الرجل صادق معي. ما كان من الممكن له أن يستمر في مخالفة التعليمات بشكل مفضوح، إذا لم يكن يعرف أنّه يعمل وفق ما تريده السلطات العليا. وبحسب اعتقادي، فإنّ مهمتي الآن هي أن أجد ذلك الشخص «في المكان الرفيع» الذي دفع لافِل ليخالف التعليمات. طرت إلى نو يورك صباح يوم السبت لكي اراجع الشكل النهائي لمقالتي عن لافِل ولكي أؤكد له أنّني ما اقتبست منه قولا مباشرا في القصة التي ستظهر في اليوم التالي. لم يوجه أيّ اعتراض على ما ورد في القصة. في الحقيقة أنّه اضاف إسما آخر لقائمة الأهداف غير الشرعية، وادعى أنّه نسي أن يذكر ذلك خلال مقابلتي معه. أخبرني أنّه لا يشعر بالخزي أو الذنب لكشف هذه الحقيقة للتاريخ.

شعرت انّني رجل أيب روزنثال الموثوق به لإنجاز مثل هذه المهمات. وعليه أحببت أن أجعل من قصة لافِل عذرا لأفعل ما أريد. كتبت سبع مقالات أخرى عن الموضوع خلال 11 يوما من الأيام التالية، وساعدني في اعدادها ثلاثة افراد ممّن عملوا في سلاح القوة الجوية ولا زال احدهم مستمرا في الخدمة. كانوا ممّن عمل تحت إمرة لافِل، وحصلت على اسمائهم ومعلومات أخرى عنهم من طيار كان لا زال في الخدمة في منطقة جنوب شرق آسيا. كما أنّ عريفا سابقا إسمه مايكل لِوِس، الذي التحق فيما بعد للدراسة في جامعة مِشِگن، كان يعمل في تفسير الصور الفوتوغرافية التي تلتقطها الطائرات قبل كلّ غارة وبعدها لتقييم مدى ضرر الغارات التي تدار من مقر قيادة لافِل. وصف لِوِس الغارات بأنّها كانت اكثر من تغطية للمخالفات الواضحة في الحرب الجوية. قادتني تلك القصة إلى محلل آخر للصور الفوتوغرافية، قال إنّهم اشتركوا في التغطية على اكثر من 20 غارة في الشهر خارج الأهداف المشروعة في فيتنام الشمالية. اتصل بي بعض الديمقراطيين من اعضاء لجنة الخدمات العسكرية في مجلس الشيوخ واستفسروا، كما تساءلت أنا نفسي، إذا كان نِكسُن وكِسِنجر لهما علاقة بتلك المخالفات. أقام ملازم طيار محبط لا زال في الخدمة، دعوى امام محكمة عسكرية ضدّ لافِل، وعقد مؤتمرا صحفيا في واشنطن عبّر فيه عن غضبه لمخالفة التعليمات وممارسة الغش في تطبيقها. حظيت القصة وقتها بتغطية كبيرة في الصحف ومحطات التلفزيون. ضمّ مجلس المحررين في التايمز صوته إلى الأصوات الأخرى للتحقيق في اتهامات الطيار المذكور في اليوم التالي ومطالبة الكونگرس بأن «ينظر في الأمر بجدية وعمق» فيما يخصّ تلك القضية.

مكنتني طبيعة عملي من الإتصال بعضو مجلس الشيوخ الديمقراطي المنعزل والمحافظ جون ستِنِس من ولاية مَسَسِپي، الذي كان يرأس لجنة القوات المسلحة في المجلس المذكور. لم اعرفه من قبل ولكن كان لديّ إحساس أنّه لم يتقبّل الغشّ والخداع القائمين حينه، لكنّه تكتم على تحفظاته لنفسه، كما كنت خمّنت بشكل صحيح قبل سنوات أنّ مَندِل رفرز، الرئيس المحافظ للجنة الخدمات العسكرية في مجلس الشعب، سينزعج عمّا جرى في ماي لاي. قيل لي أنّ ستِنِس يحضر مبكرا إلى مكتبه في العادة بحدود الساعة 7 صباحا. وعليه فإنّني اتصلت في أحد ايام الأسبوع بمكتبه فردّ بنفسه على المكالمة. ذكر أنّه يتابع مقالاتي وبدأنا نتحدث في ساعات الصباح الأولى واستمرت مكالماتنا لسنوات. قال في البداية إنّه سيتحدث عن قصة لافِل وتفاخري بالكتابة عنها إذا

حافظنا على سريّة مكالماتنا هذه، وسُررت جدّا لمعرفتي أنّ ستِنِس كان منزعجا من سلوك لافِل في السيطرة والتحكم، لأنّه كما ذكر لي في أحد الصباحات أنّنا في حرب واعتقد أنّنا يجب أن ننتصر فيها. أخبرني أنّه سيطالب بعقد جلسة لمناقشة الموضوع وأراد أن اعرف بأنّ قصصي في التايمز، ولا انسى كلماته تلك، «ستخرّب البِنتگون.» شككت في ذلك الحين أنّه يعرف أنّ لافِل قد مُنح السلطة للقيام بالغارات. كان من الصعب قليلا أن أسبر غوره، خاصّة وأنّ له سمعة للدفاع عن كل أمر يتعلق بالعسكر. لكنّ ستِنِس شجّعني وبشكل متكرر أن أكتب الحقيقة التي اعرفها.

ظلت قصة لافِل تحوم في الأجواء لغاية نهاية ذلك العام. عقد مجلس الشيوخ جلسة علنية في الخريف واعترف لافِل اخيرا خلال شهادته امام اللجنة المذكورة أنّه تلقى تعليماته من السلطات العليا. وعنى بذلك كافة الذين كانوا اعلى منه رتبة في تسلسل القيادة العسكرية، بمن فيهم قائد القوة الجوية والجنرال العسكري المسؤول عن الجهود الحربية ووزير الدفاع مِل لَيرد، وانهم على علم بما جرى. أنكر وزير الدفاع في شهادته امام نفس اللجنة فيما بعد علمه بأية معرفة بنشاطات لافِل.

ظهرت القصة الحقيقية بعد مرور عدة سنوات في اشرطة تسجيل الصوت في البيت الأبيض، فكانت قصة قبيحة. في شهر فبراير من عام 1972 أمر نِكسُن جنرالاته من خلال كِسِنجر أن يوسعوا الحرب ويضربوا شبكات الدفاع المضادة للطائرات في الشمال على هواهم. كان نِكسُن وكِسِنجر في حينها على علم بغارات لافِل على تلك المواقع، دون اصدار الأوامر بذلك ولعدة اشهر. بتاريخ 14 يونيو 1972 وبعد يومين من نشر مقالتي الأولى عن هذا الموضوع، كان نِكسُن منزعجا من تسرّب انباء الغارات غير القانونية ففصِل لافِل. قال لمستشاره كِسِنجر، «لا أريده أن يكون كبش فداء.» وبعد مرور 12 يوما على نشر التقارير الأولى حول جلسة استماع مجلس الشيوخ، عبّر نِكسُن عن الذنب وأخبر كِسِنجر ثانية، «أنا لا أحبّ دفعه لذلك العمل وأن يتحمل هو وحده المسؤولية عنه.» نصحه كِسِنجر بأن لا يتدخل في الموضوع، ويبدو أنّ نِكسُن اتفق معه فقال بصوته المسجّل، «أريد الإبتعاد عن الأمر قدر ما استطعت، لكنّني لا اريد الحاق الأذى برجل بريء.» قال ذلك وكأنّه لا يمتلك السلطة للتدخل. وهكذا أحيل لافِل على التقاعد بطريقة غير عادلة.

لم اتصل بعدها بالجنرال جاك لافِل، الذي توفي عام 1979. غير أنّ أرملته واثنين من اولاده، بما فيهما واحد من اللذين كانا يلعبان الگولف معه حين التقيت به، واللذين طُلب منهما أن ينتظرا في السيارة. في اواخر اكتوبر عام 1972 وحين بدا واضحا أنّه لم تعد لوالده فرصة بالعفو، كتب لي إبنه الأكبر رسالة احتفظت بها منذ ذلك الحين. كتب يقول، «من العجب كيف يمكن خلط القضايا في الصحافة الحرة. اعتقد أنّ الأمر ينطبق على حرية التخلص من التدقيق والسماح باتهام الأشخاص ووصفهم بشتى النعوت. لم يطلب الجنرال لافِل الرأفة من أحد وأصرّ على الأمانة والصدق. كنتَ عادلا وامينا... لم تركب موجة الخلق العسكري ولم تتضمّن مقالاتك أيّة اتهامات. باسمي وباسم اسرتي أشكرك كثيرا... لعملك الجاد غير المتحيز.» رسالة كهذه يتمناها أيّ صحفي خلال حياته المهنية.

إنتهت مقالاتي عن لافِل في اواخر يونيو، أي في الوقت الذي بدأت فيه قصة فضيحة ووترگيت بالظهور في صحيفة واشنطن پوست. انتقلت حينها إلى مكتب السياسات الخارجية وكانت طاولتي مقابلة لطاولة برنارد گورزِمن، المراسل الدقيق في القضايا التي تخصّ هنري كِسِنجر

ومجلسه للأمن القومي NSC. كان بَرني يقوم بإجراء يومي فوجئت به. في الكثير من الأيام وفي حدود الساعة الخامسة عصرا، تتصل به سكرتيرة ماكس فرنكِل وتخبره أنّ ماكس يتحدث بالتلفون مع «هنري» وأنّ المكالمة ستتحول إليه بعد قليل. وخلال دقائق يبدأ بَرني بتدوين ملاحظات وهو يستمع إلى كِسِنجر. كانت فترة استماعه اطول من فترة كلامه بكثير، والحاصل قصة عن السياسة الخارجية ستظهر على الصفحة الأولى للتايمز في اليوم التالي على أنّها منقولة عن مصدر حكومي رفيع المستوى. وبعد أن تابعت تلك الظاهرة لمدة اسبوع أو اسبوعين، سألت بَرني الصادق الصريح إن كان يدقق ما يخبره به كِسِنجر بالرجوع إلى بل روجرز، وزير الخارجية أو مِل لَيرد، وزير الدفاع في البِنتگون. كان ردّه، «لا، لا طبعا. إن فعلت ذلك، فإنّ هنري سوف لن يتكلم معي ثانية.»

لم يعرني مدير المكتب فرنكِل الانتباه ألا قليلا لكنّني واظبت على عملي بالتعاون مع بوب فِلِبِس، نائب رئيس المكتب والمحرر البارع، الذي بدأت أثق به تماما. واصلت التركيز على كافة الأخطاء والمخالفات التي جرى ارتكابها خلال الحرب، وظهر أنّ فرنكِل ليس معنيا بها. كتبت ذلك الصيف عدة مقالات احتلت الصفحات الأولى عن وكالة المخابرات المركزية، والإتهامات بأنّها تدير شبكة لتهريب المخدرات كجزء من مهامها السرية في جنوب شرق آسيا. وردت تلك الاتهامات في كتاب معدّ للنشر من تأليف الفرَد مككوي، الذي كان وقتها طالب دراسات عليا في جامعة ييل. إنّ نشر كتاب أكاديمي شيء، ولكن أن تفسح التايمز المجال لتغطية ما ورد في الكتاب على هيئة سلسلة مقالات، فأمر غير متوقع وشكّل صدمة لوكالة المخابرات المركزية. نتيجة لذلك، زارني مسؤول رفيع في مديرية العمليات السرية، وهو الاسم الذي تطلقه الوكالة على عملياتها المخادعة. ذكر هذا أنّه لا يفهم السبب وراء نشر معلومات عن قصص، خاصّة وأنّ الوكالة قد انكرتها جملة وتفصيلا. تحققت ممّا ذكر مككوي بإعارة اطروحته إلى ضابط سابق في الوكالة قضى سنوات طويلة يعمل فيها وله خبرة طويلة بما كان يجري في فيتنام. افاد مصدري هذا أنّ «10% ممّا كُتِبَ مغرض و90% معلومات ثمينة يمكن أن تخطر ببالي.» ظهر واضحا، من وجهة نظر وكالة المخابرات المركزية، أنّني اقوم بعمل تخريبي مُفسِد[24].

كتبت في مطلع شهر يوليو مقالة قادت إلى نشر أوراق البِنتگون عن موضوع لم يتمّ التطرق إليه من قبل، وهو برنامج تكوين الغيوم في جنوب شرق آسيا، بهدف خلق العواصف، كما أمِل الجيش، وعرقلة حركة القوات المعادية واخماد النيران المضادة للطائرات. ظهر، كما كتبت فيما بعد، أنّ وزير الدفاع، مكنمارا قد اصدر في عام 1967 أمرا بإيقاف ذلك البرنامج، الذي لم يُعرف أثره على البيئة على المدى الطويل. وعلى أيّة حال، استمر البِنتگون في برنامج تكوين الغيوم برش المواد الكيمائية في الجو حتى نهاية عام 1971. ثمّ كانت هناك سلسلة من المقالات خلال فترة الصيف حول الإتهامات بأنّ غارات الولايات المتحدة تستهدف الآن السدود في فيتنام الشمالية. في الحقيقة، بدأ هذا القصف حين وُضعت بطاريات الصواريخ المضادة للطائرات لحماية تلك السدود. في أواخر شهر يوليو، نُشِر المزيد من المقالات على الصفحات الأولى اعتمادا على شهادات جنود وضباط سابقين افادوا أنّهم كانوا على علم باستهداف الغارات لمستشفيات فيتنام الشمالية والفيتكونگ. كتبت مقالة طويلة لمجلة نو يورك تايمز مبنية على شهادة نقيب طيار كان قد

امضى 18 شهرا في مطار سري في لاوس انطلقت منه الغارات السرية نحو فيتنام الشمالية. كانت المجلة، حالها حال الصحيفة، في موقف مساند تماما لما كنت انشر. كان عنوان مقالتي «كيف نقوم بغارات جويّة سرية انطلاقا من لاوس.» في نهاية الصيف، صرت هدفا مطلوبا للجيش، والأكثر أهمية لأولئك العاملين داخل وكالة المخابرات المركزية، الذين ازعجهم ما كانوا يعرفون.

لقد حققت السعادة للمحرر التنفيذي روزنثال واكثر قليلا من الحرص على آرائي السياسية. في وقت ما من ذلك الخريف وخلال زيارته لمكَتب الصحيفة في واشنطن، وقف خلفي وأنا جالس عند طاولة الإجتماع وعبث بشعري هامسا، «كيف حال شيوعيّ الصغير؟» ثم أضاف بصوت مسموع، «ما عندك اليوم لي من الأخبار؟» كانت تلك هي طريقته ليعرف أنّني لا اسمح لآرائي السياسية أن تتدخل في عملي الصحفي. كان دائما يوجد قلق حول البعض منّا من العاملين في الصحيفة بسبب مناهضتنا للحرب. في وقت ما في منتصف السبعينات وحين كانت سايگون على وشك السقوط بأيدي الثوار، كنت ذاهبا للغداء في نو يورك مع گلوريا أمرسُن وتوني لِوس ورچرد إيدر، الزميل الذكي الذي شاركنا مشاعرنا حول الحرب. إلتقينا صدفة برئيسنا أيب ومعه صديقه المقرب آرثر گلِب، فعلق الأخير قائلا، « أهّا، الخلية ذاهبة لعقد اجتماعها!» الحقيقة أنّ امتعاضي من حرب فيتنام لم يكن وليد ايديولوجية معينة، بل كان ممّا عرفته وقرأته من التقارير عنها، أي أنّني تعلمت ذلك خلال ممارستي لمهنتي.

أشغلت نفسي وابتعدت تماما عمّا يتعلق بفضيحة ووترگيت فأنا لا اعرف ما يجري في البيت الأبيض ولا ساكنه نِكسُن ولا مساعديه، الذين يعملون هناك. كان الشابان الساحران بوب وودوَرد وكارل برنستين، في صحيفة واشنطن پوست، اللذان لم يتجاوزا بعد سنّ 30 في عام 1972، بينما كنت حينها في سن 35 عاماء، يتابعان الموضوع بحماس منقطع النظير. اعتقدت أنّهما سيُسقطان رئاسة نِكسُن. أخلى مكتب التايمز في واشنطن الساحة لصحفية اليوست لتتفرّد بها. بدا فرانكِل ومحرروه رابطي الجأش وكأن الأمر لا يعنيهم، في حين استمرت اليوست بإثارة الضجيج العالي حول الفضيحة. أخبرني گورزمن أكثر من مرة ذلك الصيف أنّ فرنكِل وغيره من كبار اعضاء المكتب قد تلقوا تطمينات منَ كِسِنجر بأنّ واشنطن پوست ترتكب خطأ كبيرا بدفع القضية، التي اثارها الصحفيان الشابان. «لا حقيقة للأمر وأنّ اليوست ستُحرِج نفسها.»

كان التوتر بين مكتب واشنطن والمكتب الرئيسي للتايمز مثار إشاعات داخل الصحيفة والمجلة، خاصّة بين المراسلين الذين عملوا فيهما أكثر من حقبة. لكنّني لم اعرف عمق تلك المشاعر حتى عام 1980 حين كتب هارسُن سولزبَري، الذي امضى فترة 25 عاما يعمل في الصحيفة وألف كتابا بعنوان (بدون خوف أو محاباة) عن تاريخ الصحيفة، الذي وصفه بأنّه تاريخ عنيد. في نهاية يوم السبت الموافق 17 يونيو من عام 1972 تمّ التسلل إلى مكاتب اللجنة المركزية للحزب الديمقراطي في فندق ووترگيت في واشنطن خلال ساعات الصباح الأولى. ذكر سولزبَري أنّ اليوست كلفت 8 مراسلين لمتابعة القضية، ولكن في مكتب التايمز في واشنطن...

لم تُقرع أجراس التحذير... أغلب العاملين في المكتب وعددهم 40 شخصا كانوا لا يعملون خلال أيام السبت. إنّها نوبة يودّ كلّ منهم أن يتجنبها. فضلوا قضاء عطل نهاية الأسبوع في بيوتهم في تلال غرب فرجينيا وفي سلسلة الجبال الزرقاء في ولاية فرجينيا أو في سواحل ولاية مَريلاند

الشرقية. وبعد منتصف شهر يونيو يتّجهون إلى مارثا فِنيَرد وننتَكِت في ولاية مَسَچوسِت، حيث يمضي معظم العاملين اجازاتهم الصيفية... لا شيء أكثر ازعاجا من البقاء في واشنطن الوضيع نِكسُن خلال العطل الأسبوعية في أيّة فترة من 15 يونيو إلى 15 سبتمبر. لا أحد يملك قدرا من الأهمية يكون موجودا في المدينة ذاك الوقت.

بطبعية الحال، بالغ سولزبَري في وصف الوضع، وكانت كلماته اللئيمة غير دقيقة، لكنّ جوهرها صحيح. عيّن فرنكِل مجموعة مراسلين شباب من الدرجة الأولى وضمهم للجهاز العامل معه. من بين هؤلاء والتر رِگبَر وجون كرودسُن وكرِستفر ليدَن، الذين عُهِدَ اليهم متابعة فضيحة ووترگَيت، لكنّ البوست كانَ لديها مصدر خاصّ تكتَمَت عليه بحرص شديد. شعر أيب روزنثال بالغضب والإحراج بسبب نجاح غريمته ومنافسته الرئيسية في كشف الفضيحة. التغييرات قَادمة وأنا لا اعرف مثيلا لها.

في ذلك الخريف وبعد عطلة عائلية شملت زيارة الصديق أرِك أريكسُن وابنه كاي، اعقبتها فترة تدريس قصيرة في جامعة ييل، بدأت علاقتي الطيبة مع التايمز تَتَعقد أكثر. استمريت في الكتابة عن جلسات الكونگرس لمناقشة القصف غير المصرح به، وأنا اراقب بحزن جنرالا رفيعا إثر آخر وهم يبذلون جهودهم، التي تكللت بالنجاح، بالقاء المسؤولية كاملة لتنفيذ تلك الغارات على عاتق الجنرال جاك لافِل. كانت صداقتي في ذلك الوقت قد توطدت مع دانيَل إلزبَرگ، الذي نشر أوراق البِنتگون المعروفة. ونظرا لاعتباره من المستشارين الأوائل الذين عملوا مع هنري كِسِنجر، أخبرني أنّ البِنتگون ونتيجة لإصرار نِكسُن وكِسِنجر، كان يقصف كمبوديا بشكل سريّ منتظم لأكثر من عام، في محاولة لمنع الفيتكونگ من أن يحصلوا على موطئ قدم هناك ليكون ملاذا آمنا لهم. تحدثت مع مساعد كِسِنجر السابق، الذي كان يعرف قصة القصف غير الشرعي، الذي أصبح موضوعا لاتهام نِكسُن، ولكن لا أحد يريد أن يتكلم علنا عن الموضوع. كنت اعرف أنّه لا بُدّ من معرفة اسم المصدر لكي تتمكن التايمز، دون البوح به، أن تدفع قصة مهمة كهذه للنشر قبل شهرين من انتخابات كان من المرجح أنّ يفوز بها نِكسُن بشكل مؤكّد.

دُعيت لوجبة عشاء اقامها أحد المقربين الأيرلنديين الكاثلِك من المرشح يوجين مكارثي في حملة انتخابات الرئاسة عام 1968. كان هذا ضابطا متقاعدا رفيع المستوى في وكالة المخابرات المركزية. كنت قبل ذلك الوقت قد اجريت اتصالات مع عدد من ضباط الوكالة السابقين والحاليين للتحدث عن قصة هنا وقصة هناك. الحقيقة أنّني كنت قادرا على نشر قصص هامة في التايمز كانت عاملا محفزا بتوجه هؤلاء نحوي. سألت مضيفي في لحظة معينة ونحن نتناول العشاء إن كان يوجد احد من رجال الوكالة السابقين حاضرا بيننا، ممّن يعرف عن خطط الوكالة السرية لاستخدام سفينة لرفع السفن الغارقة تعود إلى هَوَرد هيوز لغرض رفع غواصة سوفيتية تحمل ثلاثة رؤوس نووية موجودة في قاع المحيط الهادي. ثمّ ذكرت الرقم السري لعملية الانتشال هذه. تجمّد كافة الجالسين حول طاولة العشاء، وطلب مضيفي أنّه يأمل أن امتنع عن نشر اخبار هذه العملية حتى تكتمل.

كان جليا أنّ واشنطن تصرفت بشكل غريب، لكنّ التأكيد الذي حصلت عليه وأنا جالس حول طاولة العشاء تلك، شجّعني أن اعود إلى مصادري من الوكلاء السابقين، الذين اسرّوا اليّ بالكثير من المعلومات المزعجة، وعزّز ثقتي بدقة معلوماتهم الداخلية، وخلق لدي خوفا لا فكاك منه

لأيّ صحفي ينتقد سياسات الحكومة وزوّد باخبار كاذبة بقصد وضع نهاية لحياته المهنية. كنت مصمّما منذ البداية ألّا انقل اخبارا من مصدر داخلي ما لم ادقق صحتها مع مصدر آخر، حتى لو أصرّ المصدر الثاني أنّني يجب أن اتظاهر بأنّه لا وجود له. أثار أيب روزنثال نقطة غاية في الأهمية وهي أنّه، بعد أن عُينت في التايمز وبدأت اكتب مقالاتي للنشر، طلب أن اتحدّث معه شخصيا واخبره باسماء جميع مصادري، بما فيهم أولئك الذين لم اقتبس من اقوالهم مباشرة. وبطبيعة الحال، لم اتردد في تزويده بكلّ ما طلب. في بعض الحالات، كان يوجد مصدر غير مذكور ربّما موظف رفيع في البيت الأبيض أو احيانا في وكالة المخابرات المركزية. قادتني المعلومات من مصدر لآخر وتبين لي وجود ثلاث قضايا خلقت خلافات داخل الوكالة، التي كان على رأسها رچرد هِلمز، الذكي المعروف الذي دخل شبكة المؤسسة الحكومية في واشنطن. كان عارفا بموضوع رفع الغواصة السوفياتية من قاع المحيط في عملية خُصص لها مبلغ 750 مليون دولار، في الوقت الذي كانت فيه الحكومة تستقطع من ميزانيتها المبالغ المخصصة لتوفير الحليب لطلبة المدارس العامة. المسألة الأخرى هي جهود وكالة المخابرات المركزية الحثيثة لتقويض حكومة سلفادور أيندي في چِلي، وهو اشتراكي لم يخّف من نقد سياسات واشنطن الخارجية. والمسألة الثالثة عن وجود عملية اسمها عملية الفوضى، وهي مشروع سري وافقت على تنفيذه الحكومة عام 1967 لجمع المعلومات الشخصية عن المتظاهرين المناهضين لحرب فيتنام، وغيرهم من المنشقين. ومثل هذا النشاط يتعارض مباشرة مع مهمة وكالة CIA وميثاقها، الذي يمنع بشكل واضح تدخلها في الشؤون الداخلية أو ممارسة أيّ نشاط لها داخل الولايات المتحدة.

تتطلب القصص بعض المرات وقتا طويلا حتى تكتمل. فهمت أنّ الخوض عميقا في نشاطات وكالة المخابرات المركزية سيكون بالغ التعقيد وأصعب من الكتابة عن جنرال جعلوه كبش فداء. لقد اعتمدت على بوب فِلِيس أن يُخبر فرنكِل بما كنت اقوم به، لأنّ الوكالة هدف خطير. وهو الأمر الذي جعلني أكتب مذكرة مطولة إلى فرنكِل حول القضايا الثلاث، التي اشرت إليها مسبقا. شرحت له ما اعرف عنها وماذا احتاج أن اعرف اكثر، وضمنتها شيئا عن مصادري. فاتني أن اتذكر سلسلة المقالات، التي كتبها فرنكِل في مطلع عام 1972 عن السياسة الخارجية المشتركة للثنائي نِكسُن- كِسِنجر. كان واضحا أنّه استقى الكثير من المعلومات التي وردت في مقالته، بمساعدة من كِسِنجر ذاته. كانت احدى الفقرات عن كيفية مقاومة نِكسُن للضغوط التي مارستها معه وكالة المخابرات المركزية ليكون اكثر صرامة في معارضة حكم أيَندي. وحتى لو كنت تذكرت سلسلة مقالات فرنكِل هذه لكنت بعثت مذكرتي المشار اليها. إنّه ذكي للغاية ومذهل، وقادر أن يعرف أنّ القصص يمكن أن تتطور وتتغير.

مرّ شهر دون أن اتلقى ردّا على مذكرتي. أشغلت نفسي بشيء آخر. تعرفت قبل فترة وبدأت اشعر بالإحترام للسيدة كورا وَيس، وهي ناشطة مناهضة للحرب تسكن مدينة نو يورك. استطاعت من خلال اتصالاتها بحكومة فيتنام الشمالية أن تبدأ بنقل الرسائل من سجناء الحرب في هَنوي إلى عوائلهم وبالعكس. لقد ملأت فراغا طبيعيا لأنّ حكومة الولايات المتحدة رفضت الاعتراف بحكومة فيتنام الشمالية. وعليه لم تكن هناك خدمات متبادلة للبريد بين البلدين. في شهر سبتمبر، طارت كورا إلى هَنوي ووافقت أن تتكفل بثلاثة سجناء من الطيارين الأمريكيين الأسرى

ممّن قررت الحكومة اطلاق سراحهم. رافقتها في الرحلة السيدة مِني لي گارتلي، وهي والدة ملازم البحرية الطيار مارك گارتلي، الذي كان أحد الثلاثة المحظوظين. توقفت الطائرة في طريق العودة من هَنوي في موسكو أولا، ومن هناك غادر الجميع على متن طائرة تجارية إلى نو يورك عن طريق كوپنهَيگِن. دعتني كارا أن التقي بهم في المطار هناك، ووافقت التايمز على الخطة. استطعت أن اقضي وقتا «مفيدا» مع الأسرى العائدين، ولكن شهدت موقفا متأزما جدّا في مطار جون كندي لدى وصولنا إلى نو يورك. بعد مغادرة الركاب الطائرة، كان مطلوبا من الاسرى العائدين أن يذهبوا مباشرة إلى اقرب مستشفى لاجراء الفحوصات وتقييم اوضاعهم الصحية. كما كان يوجد فريق من مسؤولي الپنتگون لمقابلة الأسرى، لأنّه اطلق سراحهم بعهدة كورا وليس الحكومة الأمريكية. صعد الفريق إلى الطائرة كي يبدأ عمليات الإستجواب الأولية. غير أنّ السيدة گارتلي اوقفتهم واصرت أن يذهب ابنها المتعب معها إلى البيت أولا لقضاء عدة ايام للراحة قبل الذهاب إلى المستشفى. أخبرها أحد عسكريي الپنتگون بغضب، أنّ الملازم، سواء كان أسيرا أم طليقا، طيار في البحرية الأمريكية ومطلوب منه أن يتبع الأوامر بالذهاب إلى أيّ مكان تعينه التعليمات. إنفجرت الأم باكية وقالت وهي تذرف الدموع، «لم أبكِ منذ اليوم الذي اتصلتم فيه بي واخبرتموني أنّ طائرة إبني قد أسقطت!» راقبت المشهد وأنا ادون ملاحظاتي، فاقترب مني عسكري آخر من الفريق وقال، «الپنتگون مصرّ أنّ الملازم يجب ألّا يذهب إلى البيت مع أمّه.» قلت له، «يجب ألا يفعلوا ذلك بهذه الأم المصدومة.» لم يستمع أحد لما ذكرت، فبدأت كتابة قصتي للتايمز كي تُنشر صباح اليوم التالي، وكانت السيدة گارتلي لا تزال تذرف الدموع بغزارة.

بعد مرور عدة ايام أخرى كتبت مقالة اكثر تفصيلا اعتمادا على المعلومات، التي حصلت عليها من الطيارين الأسرى السابقين ونحن في طريق العودة من كوپنهَيگِن. ركّزت فيها على أسس الالتزام القوي، الذي حافظ عليه السجناء في هَنوي، وكيف ابتكروا لأنفسهم رموزا للتواصل مع بعضهم البعض، خاصة حين كانوا في الاعتقال الانفرادي. تعاونت في اعداد تلك المقالة مع الپنتگون لأنّ المئات من الطيارين الأمريكيين ما زالوا معتقلين هناك ويتواصلون فيما بينهم بطرق سريّة لا يعرفها حراسهم.

كانت الأشهر الستة الأولى التي امضيتها في العمل مع التايمز مثيرة وكنت فخورا بما قدمته وما ساهمت فيه. لكنّني بذات الوقت مدرك أنّني ما زلت على الهامش، فيما يتعلق بالقصص الهامة. صحيح أنّ قصة جنرال في القوة الجوية اعطى الأوامر بغارات غير شرعية في عمق اراضي فيتنام الشمالية فجعلوه كبش فداء، ودموع أم للقاء ابنها الأسير، الذي تريد أخذه للبيت لتقتنع أنّه فعلا طليق، تصلحان أن تكونا مادة للقراءة. ولكن نما إلى علمي مستوى آخر من أعمال نِكسُن-كِسِنجر التخريبية في السياسة الخارجية. وفي الأثناء استمر وودوَرد وبرنستين باحتلال العناوين الرئيسية وهما يتابعان بشكل لا هوادة فيه ملاحقة حقيقة ما جرى في فندق ووترگيت. ما كنت أودّ الاقتراب من الموضوع. يوجد عالم خفي في واشنطن، وأنا أحبّ الكتابة عنه.

تلقيت اخيرا ردّ فرنكِل في اواخر فصل الخريف وكان على هيئة مقطع قصير فحواه أنّ القصص الثلاثة يُمكن أن تختصر في مقالة واحدة، مع الأخذ بنظر الإعتبار مسألة الأمن القومي وحماية المصالح الأمريكية ومراقبة التقدم التكنولوجي الذي يحققه السوفيت. ويجب أن نتأكّد من اطلاع «هَنري كِسِنجر ودِك هَلمز» على المقالة قبل النشر، كما ذكر فرنكِل. صُدمت واصبت بالهلع

ومن ثمّ أدركت أنّه إذا كنت لا استطيع أن أكتب ما اريده في التايمز، فإنّه يجب أن استقيل. يريدني أن اعرض ما اكتب على كِسِنجر وهَلمز؟ لقد كانا مَن خطط لتلك الأفكار الجنونية الإجرامية، التي أودّ الكتابة عنها. لم استطع أن اتصور أنّ محررا كبيرا ذكيا مثل فرنكِل لم يمكنه استيعاب ما كنت اطرحه، وأنّ ارتباكي قد اشتدّ بلامبالاة ماكس، الذي علمت فيما بعد، مقدار الضغط الذي كان تحته بسبب فشل مكتب واشنطن فيما يتعلق بالكشف عن فضيحة ووترگيت. إنّ قصصي كانت ستفتح له مجالا ليظهر لإدارة التايمز كيف أنّ مكتبه في واشنطن يستطيع فضح امور لا تقلّ أهمية.

لا أعرف بالضبط لمن شكوت وأنا في نو يورك، لأنّني كنت كثير الشكوى. لربما شكوت إلى بوب فِلِپس، وأنّ تلك الشكوى وصلت إلى ادارة الصحيفة. وعلى أيّة حال وفي وسط الركود تلك، تلقيت مكالمة من كلِف دانيل، المحرر الكبير في التايمز، والذي اعرفه أنّه زوج إبنة هاري ترومَن الذكية، مارگرِت. اتذكر خلاصة تلك المكالمة حين ذكر، «ساي، معك كلِفتِن دانيل. اعرف أنّك لست سعيدا، لكنّيَ أنصحك بأن لا تذهب إلى مكان آخر. سأصل خلال وقت قصير، وهذا سرّ لا أريده أن يُشاع، لأتولى رئاسة مكتب واشنطن لعدة اسابيع، وأعدك بأنّني سأنشر أيّ موضوع تكتب عنه.» أعلِن بعد ايام قليلة أنّ ماكس قد انتقل إلى نو يورك ليكون محررا لنسخة يوم الأحد، وهو العمل الذي اخرجه من واشنطن وفتح امامه المجال ليصبح محررا تنفيذيا فيما بعد. وهذا منصب يتمناه كلّ محرر في الصحيفة لأسباب لم استطع فهمها، ولا حتى الحلم بها. كيف يمكن لأيّ شخص أن يطمح أن يكون محررا ويترك مجال كتابة التقارير وما فيه من متعة؟ بقيت في مكاني.

إنحدر كلِفتِن من ولاية نورث كارولاينا وكان شخصا بالغ الأدب والكرم والأريحية. من الصعب ان تجد شخصا في الصحيفة، بل قل في المعمورة مثيلا له، وصفاته تناقض صفاتي تماما. كان دائما مرح الطباع متأنقا في ملبسه وساحرا في معاملة الآخرين. في حفل نهاية السنة لكافة العاملين وأسرهم، قدمت كلِفتِن إلى زوجتي، فقال وابتسامة عريضة تغطي وجهه، «آه، ياسيدة هيرش، تقبّلي تعازيّ القلبية!» بعد مرور عدة ايام دخل إلى قاعة الأخبار ووضع على طاولتي عددا من رزم الكارتون، التي تحتوي على قمصان بروكس برذرز وكنزات وقال، «إلبس بشكل افضل!»كنّا بطبيعة الحال نختلف في الأذواق، ولكن يوجد بيننا عاملان مشتركان. إنّنا نحب القصص عن نِكسُن - كِسِنجر، المصممين الفعليين للحرب، التي نكنّ لها الكره والإحتقار، وايضا أنّ لكلّ منّا طفلين في نفس العمر تقريبا، يحبّون تناول وجبات مَكدونلدز. وهذا ما جعلنا نلتقي في صباحات السبت لنأخذ اطفالنا إلى ذلك المطعم، ونذهب من حين لآخر لمشاهدة بعض افلام الأطفال الرديئة جدا. كنت طبعا البس قميص تي شرت وسروال كاكي مصنوع من القطن، وكان كلِفتِن يرتدي دائما بدلة، ثنائي غريب!

قبل نهاية عام 1972 وبعد فترة من فوز نِكسُن بفارق كبير في الإنتخابات على منافسه الديمقراطي الليبرالي جورج مكگفرن، الذي حظي بنسبة 37.5% من مجموع الأصوات فقط، كان الديمقراطيون في أوج شقاقاتهم. نقل لي كلِفتِن الأخبار السيئة أنّ أيب روزنثال يريد منّي أن اضع حدّا لاستحواذ فيتنام على تفكيري، وهو استحواذ اعتقدت أنّ أيب يشاركني فيه، وأحبّ أن أركّز بدلا من ذلك على ووترگيت. صحيح أنّ نِكسُن قد كسب الإنتخابات، لكنّ أيب مقتنع أنّ القصة لم تنتهِ بعد. سيجري تحقيق لم يُعرف مداه، وهو لا يريد أن يستمرّ بِن برادلي في إذلال مكتب التايمز في واشنطن، كما يعتقد الكثيرون من العاملين في مركز الصحيفة في نو يورك. اعترضت على الفكرة،

لكنّ أيب أصرّ أنّه يعمل شيئا من مصلحتي بأن يتيح المجال أمامي لأظهر للعالم الصحفي أنّ مهارتي تتجاوز مناهضة حرب فيتنام. لسوء طالعي، أنا لا اعرف شيئا عن البيت الأبيض ولا قصة ووترگيت، اكثر ممّا نُشِر عنهما.

خلال عطلة الكرسمس أقدم أيب على اتخاذ خطوة جذرية بتعيين لزلي گِلب ليكون مراسلا في مكتب التايمز في واشنطن. عرفت گِلب باعتباره الشخص الذي عمل مديرا لسياسة التخطيط والحدّ من التسلح في البنتگون، كما عمل مديرا لبرامج الأسلحة السرية للغاية ولمشروع أوراق البنتگون، بتصريح من روبرت مكنمارا. في وقت سابق وخلال وجوده كطالب دراسات عليا في هارفرد، عمل مساعدا للأستاذ هنري كِسِنجر. اجريت معه مقابلة حين كان يعمل في معهد بروكِنگز، وهو معهد لترويج القضايا الأيديولوجية في واشنطن، وتحدثنا عن مفاوضات السلام في باريس، التي كان على علم تام بها وشارك فيها. كانت خطوة تعيين گِلب في اعتقادي، خطوة نحو الوراء، خاصّة أنّه لم يعمل في أيّة صحيفة من قبل وكان مؤيدا للحرب.

وضعوا له طاولة تبعد اقداما عن طاولتي واكتشفت أنّه شخص ظريف للغاية أكثر من أيّ ممّن قابلتهم في حياتي الصحفية. كان ذكيا وليس مؤيدا لمواصلة الحرب وعميق الشكّ في سياسات كِسِنجر، رغم أنّه يكنّ لاستاذه احتراما كبيرا لذكائه وحيلته السياسية. كما أنّه يعرف روح البيروقراطية بطريقة لا يدركها حتى من امضى حياته كاملة في عالم الصحافة. وحين تصلني اخبار عن وثيقة غاية في السريّة، كان لِز يجدها خلال اسابيع قليلة. كان معجزة حقا واصبحنا صديقين قريبين ومخادعين نشِطين. إنّني أتمتع الآن برئيس مكتب يسند ظهري واضافة لذلك لديّ أفضل صديق.

كان المطلوب منّي هو أن اعرف كيف حصلت فضيحة ووترگيت، بعد أن كشفها بوب وكارل قبل 6 أشهر. كانت القصة في نهاية عام 1972 تبدو وكأنّها وصلت إلى طريق مسدود. في الحقيقة أنّها بدأت لتوّها.

الفصل الثالث عشر

فضيحة ووترگَيت وأكثر منها

كان لدي وأنا انسلّ إلى فضيحة ووترگيت شيء واحد فقط، وصلني عن طريق تلميح قبل شهر أو شهرين، ولم أعِره أيّ اهتمام. اخبرني صديق من عالم النشر في نو يورك أنّ كاتبا مستقلا اسمه أندرو سَينت جورج، الذي تربطه علاقة وثيقة بالمجموعة الكوبية المناهضة للرئيس كاسترو في ميامي، قد وزّع خلاصة كتاب عن سيرة فرانك ستُرگِس، وهو واحد من خمسة اشخاص قُبِض عليهم خلال عملية السطو على مكتب الحزب الديمقراطي في واشنطن.

كان ردّي المبدأي، «ما علاقة هذا الموضوع بحرب فيتنام؟» ولكن الآن وبفعل المهمة الجديدة المسندة لي، بدأت اتصل هاتفيا بغية الحصول على نسخة الكتاب الموجزة. الإتهامات الرئيسية، اعتمادا على ما ذكره سَينت جورج، مبنية على مقابلات مع ستُرگِس، وأنّ الأخير هو من قام بمراقبة مقر اللجنة المذكورة قبل حدوث عملية السطو، وأنّه كان واحدا من اعضاء فريق كان يجري مراقبة لتهريب المخدرات من بلدان قارة أمريكا الوسطى. تساءلت إن كانت المراقبة تعني المشاركة في عمليات التهريب. جرى كلّ ذلك بحسب ما زعم أنّه تحت إدارة هَوَرد هَنت، وهو ضابط سابق في المخابرات المركزية، وله ارتباط بقضية السطو في مبنى ووترگيت. إنّ سمعة سَينت جورج في عالم النشر في نو يورك كانت متقطعة، لكنّه حصل على جوائز في نهاية الخمسينات عن الصور التي نشرها عن الثورة الكوبية. ومن الواضح أنّه حصل على عقد لقاء مبلغ زهيد لنشر كتاب يستند على مقابلاته مع ستُرگِس. اتصلت به واجتمعنا واتضح لي أنّ سينت جورج كان متحمسا للغاية أن اكتب مقالة عن مشروع كتابه. أخبرته أنّ ذلك غير ممكن إذا لم يدبّر لي فرصة للقاء ستُرگِس، ويثبت لي أنّ العلاقة بينهما وثيقة كما إدّعى. بعد ايام أخبرني سَينت جورج، الذي توفي عام 2001، أنّه رتبّ لقاء مع ستُرگِس لنا نحن الثلاثة. ذكر أنّ بالإمكان تناول العشاء معه في مطعم جوز ستون كراب، وهو مطعم مشهور من الدرجة الأولى للمأكولات البحرية في ميامي بيچ.

إلتقينا وتناولنا عددا من كؤوس الشرب، واخبر سَينت جورج صديقه ستُرگِس المتجهم الوجه، أنّني صحفي مشهور ارغب في كتابة مقالة عن الكتاب، الذي يتعاونان على اعداده. لم تظهر على وجه ستُرگِس، الذي لوّحت به الشمس كثيرا، أيّ اهتمام بما ذكر صاحبه. قمت قبل هذا اللقاء

باجراء بحث عن خلفية ستَركِس، فعرفت أنّه قاتل في صفوف كاسترو في اواخر الخمسينات لإسقاط دكتاتورية باتِستا، الذي كانت الحكومة الأمريكية تدعمه كثيرا. غير أنّ ستُركِس انقلب على كاسترو فيما بعد، حين اعلن القائد الكوبي أنّه مؤمن بالفلسفة الشيوعية. في عام 1972، كان ستُركِس قد امضى اكثر من حقبة في النشاطات المعادية لنظام كاسترو بمساعدة من وكالة المخابرات المركزية واحيانا بدونها. استأذن سَينت جورج بعد فترة للذهاب إلى الحمام. نظر ستُركِس إليّ وسألني إن كنت استأجرت سيارة، وحين أشرت بالإيجاب، قال «دعنا نذهب،» وانسلّ من خلف الطاولة. كانت لحظة قصيرة لمواجهة الحقيقة، بالنسبة لي. هل يمكن أن اخذل سَينت جورج للحصول على القصة التي اريدها؟ اعطاني ستُركِس الجواب والعذر فتبعته، بعد أن وضعت عددا من الورقات من فئة 20 دولارا على الطاولة وانطلقنا مسرعين. جئت به إلى فندقي فتناولنا عددا من كؤوس الشراب ثمّ العشاء واخبرني بما حصل فعلا. لكنّ ذلك لم يدم طويلا، إذ اخبرني أنّه على موعد آخر مع شخص يجب أن يلتقي به، وسأل إن كان بإمكانه استعارة سيارتي المؤجرة. طبعا لم تكن سيارتي، وادركت حينها أنّ هناك طريقة واحدة للردّ على طلبه، إن كنت فعلا ارغب في معرفة قصته. قلت له «نعم» ووعدني أنّه سيعود صباح اليوم التالي لنتناول الفطور معا. كانت تلك مقابلة ساحرة مع لاعب في العالم المناهض للرئيس كاسترو في ميامي بيچ.

رجع ستُركِس صباح اليوم التالي كما وعد واستأنفنا حديثنا. أكّد لي أنّه والآخرين من اعضاء فريق السطو على ووترگيت قد استلموا اموالا كرشوة مقابل عدم الإدلاء بأيّ شيء خلال فترة اعتقالهم. طمح أن يحصل على اموال اكثر، لكنّه لم يستطع ذلك. ولربما هذا هو السبب، حسب ظني، الذي دفعه للحديث مع سَينت جورج، والذي جعله يخبرني الآن بما عرف وفعل. رجعت إلى واشنطن وأنا على علم بأنّ أندرو سَينت جورج سيكون غاضبا منّي، وبطبيعة الحال له كلّ الحقّ. لكنّني في المقابل حصلت على قصة جهنمية. كما أنّ لديّ معلومات تتعلق بالمساومة مع المحامي الذي يمثّل ستُركِس ورفاقه في عملية السطو من جهة، ومن جهة أخرى المساومة مع المحققين الفدراليين من مكتب الإدعاء الحكومي الفدرالي في واشنطن، الذين كانوا يقاضون المشاركين بعملية السطو المشار اليها.

أخبرني ستُركِس باعتقاده أنّ جون مِچل، المدعي العام في حكومة نِكسُن، كان على علم مسبق بالخديعة والألاعيب السياسية، التي استهدفت في عملية السطو على مقر الحزب الديمقراطي وشملت التجسس أو محاولات التجسس في عام 1971 على عضوي مجلس الشيوخ هيوبرت همفري وأدموند مُسكي، مرشحي الحزب الديمقراطي. علمت فيما بعد، ولكن ليس من ستُركِس، أنّ مبلغ 900 ألف دولار، وهو مبلغ أكبر ممّا كان يُعتقد، لا يعرف مصيره من قبل لجنة انتخابات نِكسُن عام 1972. ليس هناك دليل، وليس هناك شكّ في ذهني، أنّ بعض تلك الأموال المفقودة قد وصلت وبطرق ملتوية إلى أيدي اعضاء فريق السطو.

المقالة، التي كتبتها عن كافة هذه الأمور، كانت أول مقالة خاصة بالتايمز عن فضيحة ووترگيت، لكنّني واجهت صعوبة في دفعها للنشر في الصحيفة. برغم كلّ ما يملكه أيب روزنثال من الضغينة والحسد لمنافسه بِن برادلي وصحيفته واشنطن پوست، التي حققت السبق الصحفي الذي تمّ انجازه. دفعني محررو التايمز لحالة من الغضب لم يُسبق أن مررت بها عند نشر مقالاتي السابقة

عن حرب فيتنام. يبدو أنّ هناك حالة مرضية غريبة، حين يتعلق الأمر بالمقالات، التي تمسّ منصب الرئاسة.

أوضح بل كوفاك[25]، وهو زميل عرفته عام 1973، واصبح فيما بعد مدير مكتب التايمز في واشنطن، أنّ فترة تفرّد واشنطن پوست بقضية ووترگيت كانت من أشقّ السنوات بالنسبة له كمحرر. كتب يقول، «إنّ التحكم بالمراسل ساي مردّه العمل في صحيفة لا تتحمّل أن تتفوق عليها صحيفة أخرى، لكنّها لا تريد حقا أن تدفع نفسها إلى مقدمة الصفوف وتطرح قضية مدعاة للجدل تتحدّى مصداقية الحكومة.» واضاف كوفاك القول، «إنّ مثل هذا الموقف، الذي كان جزء من ثقافة المؤسسة، حاول ساي أن يهدمه. من الناحية الصحفية، رغب أيب روزنثال ومعه آخرون أن يكونوا بجانب ساي. كانوا يريدون أن يكونوا هناك. ولكن من الناحية التاريخية والثقافية والداخلية، كانوا يكرهون أن يُحشروا في تلك الزاوية... إنّ المناقشات والحوارات والتصارع حول أيّة مقالة قدمها ساي هيرش للنشر كانت لا حدود لها، ليس لأنّ ساي غير آبه بالنتائج، ولكن ما يقدمه من مواد جعل هؤلاء لا يُحبون أن يُظهروا انفسهم وكأنّهم يتخذون مواقف توحي بالمجازفة في النشر.»

استرجع سولزبَري في كتابه عن التايمز شيئا غاب عن ذهني، وهو أنّني اقترحت أساسا أن تُنشر مقالتي عن ووترگيت بثلاثة اقسام، لكنّ المعلومات التي جئت بها في مقالتي المذكورة قد تمّ توحيدها في مقالة طويلة نُشِرت صباح يوم الأحد الموافق 14 يناير من عام 1973 وتحت عنوان جانبي متواضع. استعملت كلمة «مصدر» بشكل متكرر دون أن اعطي اسماء الأشخاص المعنيين. من الطبيعي أنّ أيب يعرف اسماء تلك المصادر كاملة، لكنّني أصررت أن اكون متكتما لأقصى قدر ممكن. كانت تلك هي الخطوة الأولى لتسلق تلّ عال، وأنّني وددت أن يواصل كلّ من يهمه الأمر مواصلة الحديث. ذكر سولزبَري أنّه وجد موضوعا آخر يتعلق بتهديد جون مِچِل بإقامة دعوى ضدّ التايمز. كتب يقول، «ولكن في النهاية تمّ نشر المقالة بما فيها الدور الذي لعبه مِچِل. كانت صحيفتا التايمز والپوست تواجهان مشكلة تتعلق بمصادر المعلومات، التي لم تكن واضحة أو مكتملة كما تحبّها التايمز، ولكنّ هَيرش تذكّر أن يُخبر المحررين أنّه في نقطة ما يجب أن تصدقوني وتثقوا بي. أخبرني بهذه القصة عدد من الأشخاص. لقد وثقت التايمز بمراسلها هيرش... وفي النهاية فإنّ جهود الإستقصاء التي بُذلت في اعداد تلك المقالة والمراسل نفسه اصبحا شيئا مرتبطا، وحافظا على هذا الإرتباط طيلة استمرار فضيحة ووترگيت.»

كانت أول مكالمة تلقيتها صباح يوم الإثنين التالي من بوب وودوَرد، لم نتقابل أو نتحدّث وجها لوجه، لكنّه هنأني وشكرني على متابعة الموضوع. قال إنّ الپوست لا تستطيع وحدها تغطية القصة، وأنّها تحتاج أن تقف التايمز إلى جانبها. إنّ فوز نِكسُن بأكثرية ساحقة رغم الجهود الذكية التي بذلها هو وزميله كارل بِرنِستين قد اشارت إلى تلك الحاجة. لقد أحببت بوب واحترمته منذ تلك اللحظة، رغم اختلافنا فكريّا حول العديد من القضايا. ركّزت في الأشهر التالية على البيت الأبيض والرجال، الذين يديرونه، واستطعت من اجراء محادثات طويلة مع كبار المسؤولين في الحزب الجمهوري، الذين يساندون نِكسُن سياسيا. لكنّهم خشوا ممّا كان قد ارتكبه. صوّتت لجنة مجلس الشيوخ الخاصة بفضيحة ووترگيت في مطلع شهر فبراير بأغلبية ساحقة 77 إلى صفر، وكان ذلك إشارة للبيت الأبيض لا تحمَد عُقباها. تمكنت بعد ذلك من اجراء اتصالات مفيدة مع اعضاء مجلس

الشيوخ الكبار ومساعديهم، من كلي الحزبين الديمقراطي والجمهوري. كنت احاول أن افتّش عن الحقيقة في البيت الأبيض، الذي تموّه وتغطي عليه الأكاذيب واساليب الخداع والخوف. وباعتباري أحد العاملين في التايمز، فإنّ ذلك ساعدني في اداء مهمتي لأنّه لا تتمتع أية صحيفة أخرى في أمريكا بمكانة التايمز، لكنّ الحقيقة الواضحة هي أنّ مفاتيح الفضيحة لا تزال بيد بوب وكارِل.

كتبت عدة مقالات بهذا الشأن عن التضحية، التي لا فكاك منها، بالقاء المسؤولية على عاتق بعض المساعدين الصغار، من الذين عملوا مباشرة مع بوب هولدمَن، رئيس مكتب نِكسُن في البيت الأبيض. كان أولئك المساعدون يدفعون بغباء الأموال ويتبادلون الرسائل خلال السنة الماضية مع بعض الأصحاب من ايام الدراسة في الجامعة، من الذين عينوهم لأداء بعض المهام المشينة لصالح الرئيس. كنت مقتنعا أنّ هولدمَن وشريكه في الإرهاب في البيت الأبيض جون إرلِكمَن، مستشار الشؤون الداخلية، لا بُدّ أن يكونا قد عرفا بأنّهما هدفا للتحقيقات. كما قمت بإجراء اتصالات مع المحققين واعضاء مكتب المدعي العام الحكومي، الذي قاد التحقيق الفدرالي. لقد عملوا ما في وسعهم لإسقاط نِكسُن، أكثر مما اعطاهم التاريخ حقهم من التقدير. كما كان هناك البعض من الخيّرين في وزارة نِكسُن وفي البيت الأبيض، الذين ازعجهم كثيرا ما قام به الرئيس بطريقة أو بأخرى. واكثر هؤلاء اهمية في نظري هو إليوت رِچَردسُن، الموظف السابق في وزارة الخارجية الذي عُيّن فيما بعد وزيرا للدفاع في شهر يناير عامَ 1973 وشغل المنصب لمدة 4 أشهر فقط، قبل أن يتمّ تعيينه كمدع عام في شهر مايو من قبل نِكسُن اليائس الباحث عن مخرج من الأزمة.

توصلت إلى ما كنت اطمح إليه في منتصف شهر ابريل فيما يتعلق بمصادري داخل البيت الأبيض والكونگرس والمؤسسات، التي تقوم بالتحقيق في الفضيحة. وما بين 19 ابريل و1 يوليو نشرت 40 مقالة في التايمز تتعلق كلها بالمعلومات التي قرّبت مؤشر الإتهام نحو نِكسُن. ولكن لم تظهر على الصفحة الأولى إلّا مقالتان. أكثرها اهمية ما نُشر في مطلع مايو. خلال 6 أيام كتبت 4 مقالات احتلت عناوينها الجانب الأيسر في الصفحة الأولى. حين راجعت تلك المقالات وانا اسجّل هذه المذكرات ادركت كيف كنت «نصف مجنون» وأنا متعب قلق اعاني من قلة النوم. في يوم 2 مايو ظهرت مقالتي بعنوان «محققو ووترگيت يربطون امر التغطية بمساعدين يشغلون مناصب عليا وكذلك مِچِل» وتحت عنوان ثانوي قال، «ربّما وجّهت الإتهامات إلى 6 مسؤولين.» في يوم 3 مايو ظهرت لي مقالة بعنوان كبير «المحققون يعتقدون انّ محاولة التجسس الواسعة هدفها اضعاف مرشحي الحزب الديمقراطي لانتخابات 1972.» في يوم 5 مايو ربطت مقالتي ما بين محامي نِكسُن الرفيع ودوره في تخريب بيانات الانتخابات. بتاريخ 6 مايو وضعت نشاط وكالة المخابرات المركزية المشينة على الصفحة الأولى تحت عنوان «مسؤولو وكالة المخابرات المركزية قد استُدعوا لتوضيح دور الوكالة في خطة السطو لجمع معلومات عن ألزبرِگ[26]. في يوم 7 مايو وُضع عنوان بارز لمقالتي عن «قوات المشاة البحرية لها ارتباط بالسماح لوكالة المخابرات المركزية في عملية السطو لجمع معلومات عن ألزبرِگ.»

كانت تلك انباء متفجرة لا يمكن تخيلها، في وقت رمى فيه اصدقاء نِكسُن واعداؤه الرئيس للذئاب كي تنهشه. ومن المدهش أنّ كلّ هذا قد جرى قبل اكتشاف وجود اشرطة تسجيل البيت

الأبيض. كانت فترة سكينة وتجلي لاكتشاف الحقائق، تخللتها ايام لم يبدِ فيها المحررون في واشنطن أو نو يورك أيّ تردد في نشر مقالاتي. كما أنّني شعرت أنّني استجبت بشكل مناسب تماما وبطريقة مهنية لموقف نِكسُن، الذي اراد أن يصوره بأنّه بطولي وشجاع، قدر تعلق الأمر بمذبحة ماي لاي، ولمساندته الملازم وليم كالي، وعدم استعداده لحماية الجنرال جاك لافِل، الذي كان ذنبه تنفيذ أوامر الرئيس نفسه. أصبح مركز الصحيفة في نو يورك ومحررها دَيفِد جونز من افضل اصدقائي. كانت تردني مكالمات وسط النهار من أحد العاملين في المكتب ليسأل إن كانت لدي مقالة أودّ نشرها في اليوم التالي. وإذا كان جوابي بالإيجاب، يعود للاستفسار إن كانت تصلح أن تكون على الصفحة الأولى من الجريدة. كنت طبعا اقول لهم «نعم». وقد يتصلون في نهاية النهار ليسألوا إن كنت أحب العنوان في سطرين أو ثلاثة أسطر. بعد عدة سنوات اخبرت بوب تومپسُن من واشنطن پوست، الذي كتب مادة ممتازة لمجلة يوم الأحد، أنّه «سوف لن تكون هناك فترة مماثلة لهذه الفترة في الميدان الصحفي. لا أحد يعرف كيف ستكون عليه الأمور. انتبهوا يا شباب واسمعوا واكتبوا قصصا وانشروها في الصحف، دون أن تحدثوا صدمة...» كان سولزبَري دائم الكرم معي، خاصّة ما جاء في كتابه عن تقاريري حول ووترگيت المنشورة في التايمز حين قال، «يبدو أنّ ساي قد وُلد في هذه اللحظة لإنجاز تلك المهمة.»

كانت الأشهر التالية فترة لمراجعة الذات. كنت احصل على القصص لأنّني كنت أجدها واكتب عنها وعن أشخاصها في الحكومة والكونگرس، من الذين كانت لديهم معلومات اعتقدوا أنّها هامة وودّوا ايصالها لي. بطبيعة الحال، اصبحت قريبا من أولئك الرجال الشرفاء العاملين في ادارة غير نزيهة. فمثلا، كان بإمكاني أن اصل إليوت رِچَردسُن أو احد معاونيه الكبار كلما احتجت بعد شهر أو ما يقرب من الشهر منذ توليه منصب المدّعي العام. هناك قصة لي معه لم اكشف عنها من قبل. بعد اعادة انتخابه لفترة ثانية عام 1972، عيّن نِكسُن مساعدا له في البيت الأبيض إسمه مايكل كرَو وكيلا لوزارة النقل. كانت تلك قفزة كبيرة لموظف عمره 33 عاما ويفتقر إلى الخبرة في ميدان النقل. كان معروفا عنه أنّه عمل في قضايا سوء استخدام المخدرات وجهاز الأمن الخاص بحماية جون أرلِكمَن. لم انتبه لقضية تعيين كرَو إلى أن تلقيت مكالمة من مايكل پرچُك، وهو ديمقراطي متقد الذكاء يعمل كمستشار للجنة مجلس الشيوخ للقضايا التجارية والعلوم والنقل. أخبرني پرچُك أنّه وزميلا له كانا يتابعان موضوع المصادقة على تعيين كرَو أمام اللجنة المذكورة فاكتشفا شيئا. كان هناك شيء خطأ يتعلق بهذا الرجل. لا اتذكر بالضبط الكلمات التي استعملها، ولكن فحوى الرسالة أنّ ترشيح كرَو جاء من البيت الأبيض. لم يكن بالإمكان تجاهل تلك الإشارة، التي اطلقها پرچُك، الشخص الذي ترأس هيئة التجارة المركزية في إدارة كارتر. اتصلت بمكتب كرَو وطلبت لقاء معه قبل أن يجتمع مجلس الشيوخ للتصويت على تعيينه. كان لا يزال يعمل في البيت الأبيض. ذكرت أنّ الموضوع، الذي أودّ مناقشته معه يتعلق بمشكلة المخدرات العالمية. كان كرَو وزميل له عمل سابقا مساعدا للمستشار كِسِنجر، اسمه دَيفِد يونگ، قد سافرا معا إلى جنوب شرق آسيا في اواخر عام 1972 ليجمعا بعض المعلومات بشكل مباشر، فتكلمنا عن تلك الرحلة. سألته العديد من الأسئلة وخرجت بخلاصة منها أنّه لا توجد هناك خطة خفية لصاحبنا بَد، كما كان يُسمّى. بدا لي أنّه جدّي في عمله لكنّه غير سعيد به.

في أحد أيام الربيع عام 1973 إتصل بي كرَو وأنا في مركز التايمز وذكر أنّه يواجه مشكلة وطلب إن كان من الممكن أن التقي به في مكتب المحامي وِليَم ترَيدوَل وسط مدينة واشنطن. تبيّن لي أنّ ترَيدوَل مسؤول كبير في الكنيسة العلمية المسيحية CSC في واشنطن وأنّ كرَو عضو ملتزم فيها، وأنّه قد طلب مشورة ترَيدوَل. اضاف أنّه يعاني من «أزمة ضمير» لأنّه لم يخبرني الحقيقة كاملة عندما التقينا في وقت سابق. وبعد مناقشة مع ترَيدوَل، وجد أنّ افضل طريقة للتخلص من تلك الأزمة هي أن يخبرني الحقيقة كاملة بشهادة ترَيدوَل نفسه. وعليه وفي يوم مشرق في اواخر شهر إبريل أو مطلع مايو اصابتني دهشة لما اخبرني به. قال إنّه ودَيفِد يونگ كانا عضوين في جمعية سرية داخلية في البيت الأبيض. عرفت فيما بعد انّ اسمها لجنة التحقيقات الخاصة. وانّ الأعضاء عملوا بسرية تامة مع مجموعة السباكين عام 1971، الذين جنّدهم گوردِن لِدي وهو ضابط سابق في مكتب التحقيقات الفدرالية، وإدوارد هَنت، العضو السابق في وكالة المخابرات المركزية، وجمعوا فريقا لعمل ما، شرط أن لا تكون للبيت الأبيض علاقة بهم. كانوا يريدون معرفة ماذا يعرف دانيل إلزبرگ من القضايا، التي يمكن أن تلحق الضرر بإعادة انتخاب نِكسُن لولاية ثانية. قام فريق هَنت- لِدي بالسطو على عيادة محلل نفسي في لوس انجلس تردد عليه إلزبرگ. كما قام هذا الشخصان بتدبير قضية السطو في مبنى ووترگيت في شهر يونيو عام 1972. أخبرني كرَو أنّه عازم على الاعتراف أمام المحققين الفدراليين، وطلب الامتناع عن ذكر مقابلتنا هذه حتى يفعل ما عزم عليه. وبموجب ذلك الاتفاق، فإنّ القضية اصبحت بيني وبينه بشهادة ممثل كنيسته. كان هدفه أن يخلص نفسه من الوزر الذي رأى بِرچُك أنّه تسبب له في ذلك العذاب النفسي. وبعد أن امضيت ساعة أو ساعتين معه بحضور ترَيدوَل، اصبحت على معرفة أن فضيحة ووترگيت تبرز تدريجيا وتزداد قتامة، كما شاركني بَد كرَو الرأي. وتبع ذلك أنّه وافق أن يتعاون مع السلطات القضائية. حُكم عليه بالسجن لمدة 2-4 سنوات لدوره في السطو على عيادة المحلل النفسي في لوس أنجلس، امضى منها فترة 4 أشهر ونصف خلف القضبان[27].

إلتزمت بالوعد الذي قطعته وتعهدت به بحضور ترَيدوَل، لكنّني نقلت بشكل سرّي اغلب ما اطلعت عليه من المعلومات إلى أحد مساعدي رِچَردسُن إثر تعيينه مدعيا عاما من قبل نِكسُن في شهر مايو عام 1973. إفترضت أن نِكسُن قد عينه في ذلك المنصب اعتقادا منه أنّ رِچَردسُن سيحميه ويحمي كِسِنجر من الجحيم الذي شقّ طريقه نحوهما. ليس لديّ فكرة إن كانت المعلومات التي نقلتها إلى رِچَردسُن كانت ذات نفع. لكنني ورچَردسُن بقينا على اتصال وتحدثنا عدة مرات، دائما حول خلفية ما جرى خلال السنة التالية والأخرى التي لحقتها.

لقد عرف في وقت مبكر، كما عرفت أنا ذلك، أنّ ووترگيت ستزداد قبحا أكثر.

الفصل الرابع عشر

أنا وهنري

من القصص التي اتذكرها جيدا عن فصل الربيع تلك، التي جرت يوم الخميس الموافق 17 مايو 1973 وخلقت بلبلة واضطرابا داخل مكتب الأمن القومي برئاسة كِسِنجر، كما داخل مكتب صحيفة التايمز في واشنطن. ذكرتُ دون أن اكشف اسماء مصادري، أنّ كِسِنجر قد زوّد شخصيا مكتب التحقيقات الفدرالي باسماء أقرب مساعديه من منتسبي مكتب الأمن القومي وباسماء عدد من الصحفيين وبعض المسؤولين الآخرين لغرض التنصت على المكالمات التي تصلهم أو يجرونها. كان من بين هؤلاء هِلمُت سونتفولت، الذي ربّما كان من اقرب الأصدقاء إليه من بين موظفي المكتب، والذي تمّ تعيينه حديثا في منصب وكيل وزارة المالية، ففُتِحتْ كافة ابواب الجحيم.

قبلها بأيام، كشف وِليَم رُكِلشاوس، وهو رجل نزيه كان وكيلا لمدير مكتب التحقيقات الفدرالي، اسماء 13 من الموظفين الحكوميين و4 صحفيين ممّن تمّ ربط اجهزة التنصت الخاصة لمراقبة مكالماتهم الهاتفية وتسجيلها في اوقات مختلفة بين السنوات 1967 إلى 1971. وهكذا ايقظت القصة نشاطا جنونيا متوقعا لمعرفة من أمرَ مكتب التحقيقات الفدرالي لكي يقوم بتلك المهمة، واصبح جليا بسرعة أنّ عضوا من اقرب مساعدي كِسِنجر في مكتب الأمن القومي قد سُمِعَ صوته مسجّلا وهو يتحدث عن تلك المسألة. اعترف كِسِنجر، أنّه قد شاهد خلاصات مكتوبة لمكالمات هاتفية، لكنّه أنكر أنّه طلب وضع اجهزة التنصت ولم يوافق على ذلك مسبقا. كان حتى ذلك الوقت محبوبا لدى اجهزة الإعلام لسهولة التوصل إليه وأنّه تمكّن أن يفلت من كثير من الأعمال المشينة، التي قام بها الرئيس ومساعدوه الكبار، رغم عدم اتضاح مكيدة نِكسُن كاملة بعد، بما فيها ما يجب كشفه من التفويضات الخاصة بالسطو على مكاتب الحزب الديمقراطي، وفيما إذا كانت لذلك صلة بالفترة، التي سبقت الانتخابات، حول دفعه وكِسِنجر للحرب في فيتنام.

كنت في ذلك الوقت بعيدا كلّ البعد عن الموالاة للسيد كِسِنجر. الحقيقة هي أنّ شكوكي حول دوره في توريط جون لافِل وجعله كبش فداء، قد تزايدت خلال كتابة مقالاتي عن تلك القصة الطويلة الغامضة قبل عام. اجتمعت به مرة واحدة بعد عودتي من رحلتي إلى هَنوي في اواخر شهر مارس عام 1972. تحدثنا لمدة نصف ساعة أو بعضها بناء على دعوته لي في مكتبه في البيت الأبيض، بحضور جون نگروپونتي، مساعده لشؤون فيتنام ومحادثات السلام في باريس. كان أكثر

من لطيف، فهو عرف أنّني سأعمل في مركز التايمز بواشنطن وسأقوم باعداد تقارير استقصائية. وهو كان حينها مسيطرا على العلاقة بالمركز. لم يكن هناك موضوع خاص لتبادلنا الحديث القصير ذلك اليوم. سألني عن المعنويّات في هَنوي، فاخبرته بما كان هو على علم به، وهو أنّني لم اشاهد أيّ دليل على أنّ قنابل القاذفات الأمريكية B52 وغيرها من الغارات الجوية قد كسرت روح الصمود وخففت من التلاحم والتأييد الشعبي للمقاومة. خلق تعليقي لحظة غضب متوهج لديه، فاستدار نحو نگروپونتَي وقال، « لقد افادني هذا الصحفي الشاب بما يجري داخل فيتنام الشمالية، اكثر من كافة تقارير وكالة المخابرات المركزية، التي اطلعت عليه. لم أعِر قوله اهتماما فقد كان مزيجا من السخرية والتملق، واتذكر أنّني تساءلت في سرّي، كيف استطاع كِسِنجر أن يكون في مأمن من تبعات مثل هذا التملق الباهظ أمام مندوبي الصحف في البيت الأبيض. فكّرت أنّ المراسلين المعنيين لإداء تلك المهمة كانوا في قمة اللعبة، وقد لا يكون من السهل إسعاد المسؤولين، كما كان وضعي في البِنتگون ومكتبه الصحفي. كنت على خطأ وكان كِسِنجر على صواب.

بعد اعتراف رُكِلشاوس يوم الإثنين الموافق 14 مايو، بدأت اهتم بموضوع التنصت على المكالمات الهاتفية، وما فعلته لم يكن عملا ألمعيا في ميدان التحقيق الصحفي. دُعيت بعد وقت قصير من كشف رُكِلشاوس المذكور للقاء وِليَم سوليفن، مسؤول مكتب التحقيقات الفدرالي لوقت طويل، والذي فصله المستبدّ إدگر هوفر من منصبه في خريف عام 1971. كان سوليفن، الذي قابلته منذ سنوات، مسؤولا عن نشاطات مكتب التحقيقات الفدرالي، بما فيها قضايا التنصت. دعاني بِل، الذي قتِل في حادث صيد عابر عام 1977، إلى غداء متأخر في مطعم قريب من المكتب وسط العاصمة واشنطن. اعتقدت حينها أنّها دعوة بريئة ذات طبيعة اجتماعية، لأنّني كنت اعرف أنّ المطعم سيكون مكتظا في العادة خلال فترة الغداء وسيكون هناك موظفون كبار من المكتب. تبادلنا احاديث عامة، وأنا حقيقة متوثب للعودة إلى مكتبي لمتابعة فضيحة ووترگيت. في نهاية الغداء، أخبرني بِل أنّه سيغادر المطعم قبلي وسيترك لي شيئا صغيرا على كرسيه، على حدّ قوله. وفعلا، وجدت مظروف مانيلا اختطفته وأنا احاول جهدي أن احافظ على برودي. فتحت المظروف لدى عودتي إلى مكتبي مباشرة فوجدت 17 ورقة رسمية تحمل ختم البيت الأبيض لطلب التنصت على المكالمات، 16 منها تحمل توقيع هنري كِسِنجر. احتوت الأوراق على اسماء صحفيين تحدثت معهم باستمرار واسماء العديد من مساعديه في مركز الأمن القومي، وكذلك اسماء المساعدين الكبار لوزير الدفاع مِل لَيرد وقليل الحظ بل روجرز، وزير الخارجية. تنصت كِسِنجر على اصدقائه واعدائه، خاصة اعدائه داخل المنظومة البيروقراطية.

احتوى مظروف سوليفن على وثائق تشير إلى أنّ اجهزة التنصت قد وضعت أيضا على الهواتف المنزلية لنفس الأشخاص. تشير الأوراق إلى اسماء الفنيين، الذين قاموا بتلك المهمات. وجدت عددا منهم في بيوتهم أمسية ذلك الأثنين فاكّدوا لي بشيء من اللاأبالية أنّهم فعلا قد قاموا بتلك المهام. اتصلت يوم الثلاثاء بمركز التايمز في نو يورك واعلمتهم بما عندي من الأخبار، كما اتصلت بالمركز الصحفي للبيت الأبيض واخبرت من ردّ على مكالمتي أنّني عازم على أن اكتب عمّا اكتشفت وتركت رسالة إلى كِسِنجر كي يتصل بي. وبعد ساعات قليلة بدأت المشكلة. إقترب سكوتي رُستن الذي له مكتب قريب من مكتبي وسأل إن كنت فعلا سأستهدف كِسِنجر في مقالتي

التالية. كانت رسالته لي واضحة تماما ومباشرة. هل تعرف أنّك إذا اقدمت على نشر هذه القصة فإنّ هَنري سيستقيل؟ في الحقيقة لم اتعامل مع سكوتي، الجدير بالإحترام، من قبل، رغم أنّني اعرف أنّه تنرفز منذ فترة حين نشرت شيئا حول شهادة أمام لجنة محلفين سريّة. كان موقفه مباشرا جدّا، وخلاصته أنّ صحيفة نو يورك تايمز لا تتجاوز على حُرمة لجان المحلفين السرية. كان رأيه صحيحا إلى حدّ ما. ترددت التايمز منذ اسابيع عن نشر مقالة جيدة عن ووترگيت لأنّ مصدر معلوماتها شخص له ارتباط بهيئة محلفين كبرى. وبعد يومين نشر كارل وبوب نفس القصة، التي كان واضحا أنّها مستقاة من نفس مصدري، على الصفحة الأولى من واشنطن پوست. دُفِعت قصتي إلى الطبعة الثانية للصحيفة. بدا واضحا امامي أنّ أيّة قصة هامة عن ووترگيت تُنشر على الصفحة الأولى بعد تدقيق مصادرها. لقد اختفت القواعد القديمة[28].

لم يكن يعنيني امر حقوق كِسِنجر ولا عدم اخلاقيته ولا خداعه ولا سطوته، وكان في نظري هدفا مشروعا للنقد والمراقبة، كما اعتقدت. اتهمت صحيفة التايمز اللندنية صحيفتي نو يورك تايمز وواشنطن پوست بأنّهما تتدخلان في النظام القضائي «بنشر كميات كبيرة من المعلومات الضارة،» التي قد تقود إلى تطبيق قوانين غير عادلة خلال محاكمات المتهمين. ناقشت الموضوع في مذكرات متبادلة بيني وبين لِستر ماركِل، محرر التايمز المتقاعد الذي أسس مجلة يوم الأحد، التي زادت من ثقتي بنفسي كصحفي مستقل ونشرت مقالاتي التي قدمتها. كما أنّه كان وراء نجاح قسم «مراجعة الأخبار الأسبوعية،» الذي ساهمت فيه دائما وافسح المجال لي لتحليل المواضيع التي انشرها واطرح اسئلة لم يتسَنّ لي المجال لطرحها عند كتابة تقاريري. تقاعد مِركل من الصحيفة عام 1968، لكنّه استمر بمتابعة ما يُنشر فيها يوما إثر يوم. كما أنّه كان قلقا بشأن ما يمكن تسميته محاكمات من خلال الصحف، وأحب أن يجتمع معي ليسأل عمّا إذا كنت اطمح أن أكون بمثل طموح وودوَرد وبِرنِستين، واذا كانت الرغبة في التفوق قد حجبت الوازع لديّ. اعتقد أنّه كان على حق فيما يتعلق بنشر اخبار المحلفين السريين، ولكن عرفت أيضا أنّ ملاحقة الرئيس، كما كانت هيئة المحلفين تفعل، حدث غير اعتيادي يتنافس الجميع على كشفه. اعتذرت عن الاجتماع بالادعاء أنّني متعب جدّا وسأكون «ليس أكثر من استطرادي في مناقشة أيّ موضوع، دعك من الإستقامة في اتهام اناس (ربّما) يكونون ابرياء في كلّ يوم دون اعطائهم الحق لحمايتهم وفق القانون حتى تتمّ إدانتهم.» أضفت في احدى المذكرات القول، «لا اريد أن أكون مساهما في عملية قطع رأسي.» كنت على يقين أنّ روزِنثال ومعاونيه أرادوا أن اندفع لأنّهم بحاجة اليّ. لكنّني لم أحبّ أن اقوم بدور قاتل مأجور.

تحدثت مع كِسِنجر بالهاتف حول قضية التنصت قبل أن ادفع مقالتي للنشر. أصرّ على أنّ كافة ما جرى بيننا من حديث يبقى طيّ الكتمان، وإلاّ فإنّه لن يتحدث معي ثانية. وبطبيعة الحال، وافقت لأعلم بعد مرور حُقب من الزمن، من خلال اكاديميّ قدم طلبا للإستفادة من قانون المعلومات ووجد أنّ كِسِنجر كان يتسلم تقارير مطبوعة عن اتصالاتنا المتقطعة خلال ساعات أصرّ وقتها وفق السجلات أنّ غاياته للإذن بالتنصت «كانت شريفة، وأنّ ذلك التنصت قد جرى وفقا للمصلحة الوطنية، فاصبح اسلوبا لحماية الناس الأبرياء، وهو الصيغة التي تمت فيها تلك المراقبة.» ليس من الضروري القول إنّ أولئك الذين جرى التنصت على مكالماتهم لم ينظروا للقضية بهذا الشكل، فأحد

المساعدين واسمه مورتِن هِلپّرن، كان لديه سبب خاص للغضب من فعل كِسِنجر بوضع اسمه على قائمة المراقبة. كان من اقرب المقربين إليه ومن الموثوق بهم منذ مطلع عام 1969. وهو الذي وضع المسودات الأولى لكثير من قرارات مجلس الأمن القومي بطلب من كِسِنجر ذاته. قدّم هِلپّرن شكوى وطالب بتعويض مالي بسبب عملية التنصت، ولم يُسقط تلك الدعوى حتى حصل على اعتذار علني من كِسِنجر بعد مرور 20 عاما. كما حصل على نسخ من تقارير مكتب التحقيقات الفدرالي عن محتوى ما سجلته أجهزة التنصت، وهو علم في نهاية عام 1969 أنّ زوجته حينها أنّا قد سُمعت وهي تشكو من أنّ جهاز التلفون في البيت مراقب. أظهر تقرير مكتب التحقيقات الفدرالي أنّه بعد أن شكت الزوجة المذكورة عن وجود «صفير» beeping صادر من الجهاز، كتب العميل المكلف بمراقبة ذلك الهاتف وتسجيل المكالمات، أنّه لا يوجد «صفير» على الخطّ، وأنّ لدى أنّا عقدة بأنّ هاتفها مراقب.»

يجب الإعتراف أنّني لم ابتعد كثيرا عن التملق له قليلا خلال مكالماتنا، لكن تملقه فاقني بمراحل ودرجات. فمثلا كنت أبدأ مكالمتي، وأنا لم اعلم أنّه كان يسجّلها فاقول، «مرحبا دكتور كِسِنجر، اعرف أنّنا ندفع بك إلى حافة الجنون. كافة اصدقائك يقولون لنا أنّه إذا لم نتوقف، فإنّك ستترك منصبك. أنت بطبيعة الحال ذخر هامّ لهذا الوطن، واعتقد أنّنا جميعا نتفق على ذلك. اعرف أنّ سكوتي يشعر بذلك تماما.» ردّ، «إنّ الأمر يسبب لي بعض القلق بأن اقضي كافة وقتي وأنا اردّ على المكالمات.» قلت، «دعني اخبرك بالمزيد من الأخبار السيئة... الجميع يسرّب كلّ شيء، كما تعرف.» تحدثنا عن أولئك الذين كانوا على قائمة التنصت، فقلت «سوف لن تكون قصة جيدة.» واضفت فيما بعد بطريقة بريئة، لأنّني فعلا عنيت ما بحت به، «الروح الحقيقية هي قول الصدق، كما تعرف يا دكتور كِسِنجر، واننا جميعا نعمل من أجل ذلك.» كان جوابه مبتكرا إن لم يكن مجرّد... «إسمع، في هذه النقطة بالذات، الشيء الوحيد الذي نحتاج أن يقلقنا جميعا مهما اختلفت وجهات نظرنا، هو الشكّ بصدد النزاهة هذا البلد وأنّه يتمتع بالكرامة... لكي نعود إلى ما يمكن الإفتخار به... وهذه كما تعلم، هي طريقتي وهي ما احاول تحقيقه هنا.» من المؤكد أنّني كنت من جانبي اردد كلاما مزدوجا، لكنّه بممارسته للرياء، سبقني بشوط بعيد.

كان يعرف أنّ القليل يفهم دوافعه بالتنصت على مساعديه، بما فيهم البعض من المقربين اليه، مثل الكسندر هَيگ، نائبه المخلص احيانا. إتصل بي عدة مرات عصر ذلك اليوم ليسأل إن كانت القصة تربط بين رئيسه والتنصت، وإن كانت ستنشر صباح اليوم التالي. كان ردّي عليه بالإيجاب. تلقيت منه مكالمة مذهلة في حوالي الساعة السابعة مساء. «أنت يهودي، أليس كذلك يا سيمور؟» في محادثاتنا السابقة كان يدعوني ساي. قلت له «نعم.» «دعني أسألك سؤالا آخر،» اقترح هَيگ. «بكلّ أمانة، هل تعتقد أن هَنري كِسِنجر، اليهودي اللاجئ من المانيا، والذي فقد 13 فردا من افراد أسرته كضحايا للنظام النازي، يمكن أن يكون ضالعا في مثل هذه الممارسات، مثل التنصت على مساعديه الأقربين؟ إذا كان لديك شكّ، فالمطلوب منك باسم معتقداتك وشعبك أن تعطينا يوما واحدا لنثبت أن قصتك قائمة على أسس خاطئة.» اتذكّر أنّني حملقت بالتلفون بعد انتهاء المكالمة، وأنا في حالة ذهول. نُشرت المقالة صباح اليوم التالي، ولم يقدّم كِسِنجر استقالته.

عيّن نِكسُن مستشاره كِسِنجر في منصب وزير الخارجية في شهر سبتمبر، إضافة إلى استمراره بمركزه الأصلي كمستشار للأمن القومي. كانت مبادرة مزدوجة لا مثيل لها جعلت الأخير يمتلك تماما نواصي السياسة الخارجية. كما أنّها كانت إشارة من نِكسُن تدل على قناعته أنّ شعبية كِسِنجر لدى اجهزة الإعلام من شانها أن تساعده للتشبّث بمنصبه. إستمرت قصة كِسِنجر واجهزة التنصت عاما آخر. حين بدأت لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ جلسات الإستماع، فلت كِسِنجر كما فلت من قضية لافِل. ذكر للجنة انّه سيستقيل ما لم تُزال من وثائق الجلسة الوصمة التي وُضِعت حيال «شرفه العام.» جاء التهديد مباشرا في شهر يونيو عام 1974 خلال رحلة الرئيس نِكسُن إلى الشرق الأوسط، التي اعتبرها البعض آخر محاولة لوقف اجراءات اتهامه. إستمر زميلي جون كرودسُن، الذي عمل بخبرة متناهية مع والتر زِگابَر في تغطية تحقيقات ووترگيت. لقد نبّها البيت الأبيض إلى حقيقة أنّ التايمز ستنشر مذكرة داخلية لمكتب التحقيقات الفدرالي تربط مباشرة ما بين كِسِنجر وبين وضع اجهزة التنصت، وأنّ الغرض من العملية هو معرفة الأشخاص الذين يعملون في مجلس الأمن القومي، من الذين سرّبوا الأخبار. دعا كِسِنجر الصحفيين إلى مؤتمر حين كان في سالزبَرگ في النمسا، عشية رحلة نِكسُن، والهدف هو القيام بضربة إستباقية، ولم يكن في المؤتمر شيء جديد. «لا اعتقد أنّه من الممكن أن ندير سياسة الولايات المتحدة الخارجية تحت مثل هذه الظروف، خاصة حين تكون شخصية وزير الخارجية ومصداقيته هما موضوع المناقشة. وإذا لم يتوقف ذلك فإنّني سأقدّم استقالتي.» في رأيي، كان بقائه في منصبه أنجع وسيلة لدرء المقاضاة عن الحنث باليمين لدى أدائه الشهادة امام لجنة مجلس الشيوخ. الرجل يتنفس كذبا بل أسوأ من ذلك.

امضيت غالبية وقتي في صيف عام 1973 وخريف عام 1974 في متابعة ثلاث قضايا أخرى تحمل بصمات كِسِنجر، وهي القصف السري لكمبوديا ونشاطات فريق البيت الأبيض من السباكين، وعمليات وكالة المخابرات المركزية السرية ضدّ حكومة الرئيس أيندي في چلي. ساعدت في طرح هذه الموضوعات أمام الرأي العام، ووجدت معلومات جيدة تصلح لتكون عَناوين بارزة في الصحف ووضعت عددا من المسؤولين، الذين ارتكبوا اعمالا محظورة، أمام مسؤولياتهم. وهو ما ساعد على جعل إدارة نِكسُن غير قابلة على الاستمرار. لم ارجع إلى كِسِنجر لطرح أيّ موضوع على المستويين القانوني والأخلاقي، لكنّني حظيت بانتباهه.

نشرت في شهر يوليو من عام 1973 سلسلة مقالات حول المحاولات غير القانونية والمدهشة لوضع سجلات مفبركة عن الغارات الجوية، تمت المصادقة عليها من قبل المراكز العليا في ادارة نِكسُن، واخفاء مدة 14 شهرا من القصف الجوي باستعمال طائرات B52 لضرب مناطق كمبوديا. هدف القصف هو ايقاف تدفق السلاح والذخيرة إلى الفيتكونگ ومنع تسلل قوات فيتنام الشمالية داخل اراضي فيتنام الجنوبية، والذي انتهى عام 1970 حين غزت إدارة نِكسُن كمبوديا واعترفت أنّ حكومة الأمير نوردُم سيهانوك نظام محايد. لقد تمّ الكشف عن وجود تلك الغارات بشكل مباشر من قبل اجهزة الإعلام، لكنّ الحقيقة بقيت خفيّة عن وجود سجلات سرية سُمح لعدد من العسكريين والبيت الأبيض الإطلاع عليها ومعرفة أنّ القنابل كانت تتساقط ليس في اراضي فيتنام الجنوبية، كما كانت سجلات البِنتگون تزيّف ذلك، بل في اراضي كبوديا.

إنّ وجود مثل تلك السجلات المزيفة قد فَضِح بواسطة رائد في سلاح القوة الجوية تقاعد حديثا واسمه هال نايت. كتب هذا رسالة بهذا الصدد إلى عضو مجلس الشيوخ عن ولاية أيوا، هَرولد هيوز. وهو ديمقراطي مناهض للحرب، وكان عضوا في لجنة مجلس الشيوخ للقضايا العسكرية، التي لا زالت تنظر في قضية لافِل حينها. اصبحت وهذا السناتور صديقين خلال مجريات القضية المذكورة. تناول هيوز وجبة كبيرة من اللحوم على الغداء وبعث لي نسخة من تلك الرسالة، فظهرت على الصفحة الأولى من التايمز صباح يوم الأحد الموافق 15 يوليو. في مقابلة مع نايت، الذي خدم في مركز قيادة القوة الجوية الإستراتيجية للولايات المتحدة، أخبرني، إنّه بدأ يتلاعب بسجلات الغارات الجوية التي تقوم بها طائرات B52 إثر وصوله إلى فيتنام الجنوبية بقليل. ذكر أنّه إضافة إلى اسقاط القنابل كانت بعض تلك الطائرات تحمل رؤوسا نووية وتقوم بدوريات متتابعة على حدود روسيا والصين. كان طيارو B52 على اهبة الإستعداد بانتظار أن يتلقوا أمرا مباشرا من الرئيس لإطلاق جحيم من القنابل النووية على روسيا وبدأ الحرب العالمية الثالثة. «كانت طائراتنا حُبلي، ولو أنّ أحدا (من إدارة نِكسُن في البيت الأبيض) قد ادخل الرقم المطلوب وضغط على الزرّ المطلوب، لكنّا قصفنا الصين، بدلا من كمبوديا، لو احبوا ذلك.» إنّ فاعلية نظام الردع النووي الأمريكي قد تمت المغامرة بها من قبل الإدارة العليا في حكومة نِكسُن، التي اغرقتنا في حرب خاسرة وأمرت طياري قوة الدفاع الجوي الإستراتيجي بالكذب.

اتصلت بالوزير والمستشار كِسِنجر بعد الغداء مباشرة يوم 17 يوليو، وكما ورد في نصّ المكالمة التي سجّلها مكتبه أنّني سألت، «هل أصبح من الطبيعي أن نعود لهذه المسألة ثانية؟» ذكرت له أيضا ما اعرف ممّا تذكّره هال نايت. كنت آمل، ربّما بشكل عفوي، أنّه سيتحدث بشكل جدّي ويناقش الموضوع، إذا اخذنا بنظر الإعتبار خبرة الرجل في مفاوضات الحدّ من التسلح والمواضيع الأخرى المتعلقة به، غير أنّ ما حصلت عليه منه لم يكن اكثر من سلسلة من الأكاذيب. «الذي قرأته في قصتك اخبار جديدة بالنسبة لي. لا أفهم أيّ شيء من طريقة كتاباتكم التقارير.» ثمّ اضاف، «إنّني لا اعرف كيف اعطي الأوامر للتزييف، حتى لو اردت ذلك... لا ادري كيف تعدّون تقاريركم.» طلب منّي أن اتحدث مع أل هَيگ عن الموضوع ووعدني بأنّه سيطلب منه أن يتصل بي. ثمّ اضاف بنبرة حزينة، «أنت تعلم أنّ الكثير من الناس يحاولون أن يفعلوا الأشياء الجيدة، حتى الخلقية المطلوبة منها، واصبح من الصعب جدّا حين تتمّ مقاطعة كلّ شيء بعد 4 سنوات.» من النصوص القليلة التي حصلت عليها من مكالماتي مع كِسِنجر واحدة لمكالمة له مع أل هَيگ بعد ساعات قليلة من مكالمتي معه.

- سأل كِسِنجر مساعده هَيگ، «هل اخبرناهم (يعني مقر قيادة القوة الجوية الإستراتيجية) عن كيفية اعداد تقاريرهم عن الغارات؟»

- ردّ هَيگ، «لا طبعا.»

- قال كِسِنجر، «ذلك ما اعتقدت.»

- سأل هَيگ، «لماذا يتوجب علينا أن نتحدث عن الموضوع؟ لماذا يجب علينا أن نخبر سيمور هيرش بأيّ شيء؟»

- «حسنا يمكنك أن تتخذ هذا الموقف، لكنّني لا استطيع. إنّني اعرف بالعملية.»

لم أكن بحاجة للإطلاع على نصّ المكالمة المطبوع لأعرف أنّ كِسِنجر كان يكذب عليّ طيلة الوقت.

بدأت جلسات الإستماع للقضية في مجلس الشيوخ بطلب من رئيسه جون ستِنِس في صباح اليوم الذي تحدثت فيه مع كِسِنجر وقدمت له تأكيدا سريعا عن التقارير المزيفة للغارات، التي وردت على لسان وزير الدفاع الجديد جَيمس شلِزنجر، الذي حلّ محلّ إليوت رِچردسُن. بدأت الملهاة حين شرع كِسِنجر ولَيرد ومسؤولون آخرون، بما فيهم جنرال الجيش المتقاعد إرل ويلَر، الذي كان قائد هيئة الأركان المشتركة، إنكار تزييف سجلات الغارات الجوية، وأصرّوا أنّهم لا علم لهم بالأمر. كشفتُ، ونحن في وسط ذلك الإنكار، أنّ وزير الخارجية وِليَم روجَرز قد اخبر الكونگرس قبل ثلاث سنوات أثناء جلسة سرية، أنّ كمبوديا، هي إحدى بلدان جنوب شرق آسيا، «حيث تتسم أيدينا بالنظافة وقلوبنا بالطهارة.»

غير أنّ الحقيقة بدأت تتسرب تدريجيا ابتداء من مطلع شهر اغسطس، حين أصدرت لجنة مجلس الشيوخ مذكرة سرية للغاية أظهرت أنّ لَيرد وويلَر يعرفان عن تفويض لخلق سجلات مزيفة عن الغارات الجوية. ثمّ بدأ أولئك المسؤولون الكبار يخرجون إلى العلن ليذكروا المسؤولين في البيت الأبيض عن الموضوع. أخبرني لَيرد أنّ الأوامر بتزييف السجلات جاءت من كِسِنجر ومجلسه للأمن القومي ومن ويلَر، كما انكر شهادته السابقة حين قال للجنة مجلس الشيوخ أنّ نِكسُن قد أمر شخصيا بوقف الغارات « بطريقة بالغة السرية.» لقد استغرق الأمر حقبة أخرى، وحين كنت أعدّ كتابا عن كِسِنجر، قبل أن اعرف أنّ سريّة نظام التقارير المزيفة للغارات قد تمّ بمساعدة عقيد في القوة الجوية والجنرال هَيگ، وهو من الموثوق جدّا بهم في جهاز مجلس الأمن القومي، وبمعرفة كاملة من قبل كِسِنجر.

في خلاصة للقضية أعددتها للتايمز في ذلك الصيف، لم استطع مقاومة كتابة جملة الإفتتاح حين ذكرت، «إنّ المسألة تبدأ دائما بكتابة أول حرف.» كنت هنا أشير إلى ما كتبه رون راينأور عن مذبحة ماي لاي. تطلب الأمر اياما قليلة للإستماع إلى الشهادات أمام لجنة مجلس الشيوخ حتى بدأت تصريحات الإنكار بالإنهيار، بما فيها التلاعب بسجلات غارات قيادة القوات الجوية الإستراتيجية. أصبح تفويض نِكسُن للعسكر بالخداع والكذب لتغطية غارات B52 على كمبوديا الفقرة رقم 4 من بين فقرات لائحة الإتهامات الموجهة له، التي اعدتها اللجنة القضائية لمجلس الشعب في شهر يوليو عام 1974، أي قبل شهر من استقالته من منصبه، قبل أن يواجه تلك الإتهامات.

ظهر المزيد من الأدلة في اواخر السنة، التي تميزت بالفوضى العارمة وقلة الإحترام للقوانين داخل إدارة نِكسُن. نفذت اغلب دبلوماسية كِسِنجر بطريقة سرية بعيدة عن الأنظار تحاشت الإعلام. وفي نفس الوقت تلاشى كِسِنجر نفسه عن الأنظار فكان ما أشاع الفوضى. وهذه حقيقة بدت

وكأنّها قد دغدغت العديد من المجموعات الصحفية في واشنطن. اقتصرت معرفة ما يدور على عدد قليل من المساعدين، في حين كان صاحبنا يدير مفاوضات سرية في باريس، كما أنّه أعد المسرح بسرية تامة لزيارة نِكسُن إلى پكين عام 1972. ومن الجدير بالذكر أنّ الأدميرال توم مورر، وهو أحد الصقور المنحدرين من الجنوب وشغل منصب قائد هيئة الأركان المشتركة، لم يُشرك في الإعداد لتلك الزيارة. ومثله كان عدد من الضباط الكبار والمدنيين،ممّن وجب التشاور معهم وأخذ آرائهم بصدد تلك الزيارة الهامة، لوضع حدّ للقطيعة ما بين واشنطن وپكين.

كما تحاشى كِسِنجر ومساعده هَيگ المدنيين المهنيين الذين يقومون في العادة بتدوين محاضر الجلسات وعمليات الإختزال stenographers، خلال الرحلات السرية وتسليمها كوثائق يحتفظ بها الجيش لأغراض السرية. كان معروفا أنّ هؤلاء لا يُقدِمون على تسريب المعلومات. لقد توصل هذان المسؤولان الكبيران في مجلس الأمن القومي إلى أنّ الشخص الأفضل للقيام بتلك المهمة، ضابط بحري إسمه چالز رَدفَرد، الذي عمل لبعض الوقت في إحدى الغواصات ودوّن عمليات اختزال بالغة الخطورة. عُيّن الأخير للإلتحاق بمكتب كِسِنجر في اواخر عام 1970 واستمر في منصبه لغاية نهاية عام 1971. رافق رَدفَرد الوزير كِسِنجر لعقد مباحثات سرية في مطلع عام 1971 في إسلامباد مع الرئيس الپاكستاني يحيى خان، الذي كان حليفا للصين. جرت الترتيبات لزيارة نِكسُن لپكين في مطلع عام 1972 بشكل رسمي نتيجة جهود الرئيس خان وخدماته. كان لهذه السرية جانب مظلم، لأنّ خان كان أيضا قاتلا مستبدا اباد جيشه ما يقرب من 500 ألفا إلى 3 ملايين مواطنا لوقف عملية انفصال جرت في شهر مارس عام 1971 فيما كان يُسمّى پاكستان الشرقية (الآن بنگلادَش). لقد اهتز العالم لوحشية خان لكنّ نِكسُن وصاحبه كِسِنجر حافظا على صمتهما لأسباب لم تفهمها حتى وزارة الخارجية الأمريكية، كما بقية انحاء العالم في حينها. كان واضحا أنّ هدف الإثنين هو ابقاء خطّ التواصل حيّا مع القيادة الصينية. خصص كِسِنجر حوالي 80 صفحة من مذكراته، التي نشرها فيما بعد، وهو يطرح مبررات غير مقنعة لسكوته في وجه وحشية خان. وبطبيعة الحال، عرف رَدفَرد ذلك السرّ، وله ثقة تامة بالوزير كِسِنجر، الذي لم تكن لديه فكرة أنّ ضابط البحرية كان يعمل نسخا من ملاحظاته واوراقه، التي يعدّها للرئيس، ويبعثها له عن طريق أدميرال كبير يعمل في البيت الأبيض هو الأدميرال مورر.

يبدو أنّ بعض المعلومات الداخلية حول ما يعرف «انحياز» البيت الأبيض إلى جانب پاكستان بدأ بالظهور في شهر ديسمبر من عام 1971 في عمود نشره الصحفي المخضرم جاك أندرسُن في واشنطن. أدى تسرب معلومات من هذا القبيل عن الأسرار المحرجة إلى القيام بتحقيق أمن داخلي ترأسه دَيفد يونگ، وهو مساعد إيگل كرَو ضمن فريق السباكين. أشار التحقيق بسرعة إلى رَدفَرد. كان اندرسن من اتباع طائفة المُرمُن، وكذا الحال بالنسبة إلى رَدفَرد، الذي اعترف خلال الاستجواب أنّ له صداقة متينة بحكم الكنيسة بالصحفي أندرسُن. كان هناك شكّ قليل حول انغماس رَدفَرد بعملية تجسس وأنّه زوّد صاحبه الصحفي بمعلومات هامة هيأت له الفوز بجائزة پوليتزر عام 1972 لسبقه الصحفي وإناطته اللثام عن العديد من القضايا.

كان من الواضح أنّ على كَسَنجر الإجابة عن عدد من الأسئلة حول ذلك الموضوع، لأنّ يونگ، الذي حمل شهادة من جامعة أوكسفرد واخرى من كلية القانون في جامعة ييل، قد عمل لفترة أكثر من سنتين في مجلس الأمن القومي قبل الإنضمام إلى جون إلركمَن ومجلسه الداخلي ومن ثمّ مع مجموعة السباكين. كما جرى تحقيق آخر حول فضيحة جون ستِنِس، الذي قاد لجنة مجلس الشيوخ، وكذلك رَدفَرد وكافة العسكريين الكبار، الذين تعاون معهم وانكروا مبدأياً ما كان واضحا للعيان، أنّه توجد حلقة عسكرية منظمة للتجسس، شارك فيها 5 ضباط كبار، إضافة إلى رَدفَرد، ممّن استهدفهم سلوك كِسِنجر السريّ. ظلت هذه الفوضى الدنيئة مدفونة لغاية شهر يناير عام 1974، حين علمت أنّ البيت الأبيض قد اشعر لجنة مجلس الشيوخ، التي تحقق في فضيحة ووترگيت، أنّه اعتقد عن طريق الخطا بوجود تهديد ابتزاز من قبل دونلد ستِوارت، الذي كان حينها المفتش العام لخدمات التحقيقات الخاصة في وزارة الدفاع. كان ستِوارت قد عمل قبل ذلك ضابطا في مكتب التحقيقات الفدرالي، وأنّه قدمّ من قبل لشغل وظيفة رئاسة المكتب المذكور، وكان يوجد بعض الإداريين، ممّن خافوا أنّه كان ينوي تبادل المعلومات التي لديه عن التجسس في الجيش لقاء الحصول على مركز رفيع. سخر ستيوارت من تلك الاتهامات، التي لم تثبت صحتها، في مقابلة اجريتها معه. علمت فيما بعد أنّه ارتكب عملا عابثا حين ذهب إلى وزير الدفاع مكنمارا عام 1967، أي قبل سنة من وقوع مذبحة ماي لاي، وهو يحمل معه أدلة بأنّ الأمور قد خرجت عن نطاقها في حرب فيتنام.

انضم بوب وودوَرد لمتابعة الموضوع فقد كان عارفا به. بدأنا نلعب كرة التنس حين انتقلت ووترگَيت من مستوى الفضيحة إلى مستوى الإدانة وقاد ذلك إلى تناولنا البيزا في اواخر الليل عدة مرّات، وقررنا أن نواصل تعاوننا ونتبادل المعلومات بيننا لأقصى قدر ممكن لكي نشترك فيما توصلنا اليه[29]. كانت الفكرة أنّه من الأفضل ألا نتابع نحن الإثنان نفس القصة. وجدت من الأنفع أن نكتب مواضيعنا على انفراد وندفع محررينا أن يعطيا خلاصة لما قاله الآخر منّا. لقد حرّرنا مثل هذا الإتفاق لكي نعمل ما نحب، وأنّه ليس من الضروري أن تتطابق قصصنا تماما. من الطبيعي أنّنا لم نتبادل أيّة معلومات حول أيّة قصة حقيقية، في وقت ما زالت فيه فضيحة ووترگيت تترنح في مسيرتها ودخلت عامها الثالث. في النهاية أخبر بوب محرره بما اتفقنا عليه كما اخبره أنّني لم ادفع اجور اللعب في قاعة التنس الداخلية (وهذا ليس صحيحا.) كانت الصحيفة قد استأجرت القاعة لطيلة الموسم، من قبل كاثرِن گرام، ناشرة الواشنطن پوست والشخصية الإجتماعية المعروفة في اوساط منطقة جورجتاون. كنّا أنا وبن برادلي نطلق عليها بعض البذاءات. كانت، وكذا وودوَرد غير معنيين بالمنافسة الحامية بين التايمز والپوست، حين تطلب الأمر ذلك. في قمة فضيحة ووترگيت، دعتني إلى مكتبها في الطابق الأعلى من مبنى الصحيفة لأساعد في اعداد تقرير عن (التحقيق الصحفي الإستقصائي). كانت طيلة وجودي في مكتبها تشكو من حقيقة أنّ بن برادلي لا يتهاون اطلاقا مع اصحاب الإعلانات الكبيرة في الصحيفة حين يقعون في ضائقة مالية. كان من المستحيل على الفرد ألّا يُعجَب بصراحتها المباشرة.

قادت فضيحة التجسس العسكري إلى طرح سؤال هام، فكتبت: لماذا لا يصر الرئيس، الذي لا ينفك يتحدث عن قلقه حول الحاجة للأمن القومي، على اجراء تحقيق فعلي؟ إنّ الوثائق التي اشار

إليها رَدفرد خلال مقابلاتي معه تقود مباشرة إلى الأدميرال مورر وآخرين، لكنّه لم تجرِ ملاحقات أو محاكمات وبقي الجميع في مناصبهم. وبطبيعة الحال، كتبت عن الموضوع، لكنّني لم اتمكن من قول ما اعتقده لأنّ التايمز تدفع لي كي أنقل آراء غير معززة. كانوا يبغون تعتيم الموقف، وكنت على اعتقاد تام بأنّ البيت الأبيض سيخفي ايّة فضيحة، للخوف من أنّ الأشخاص المهمين، مهما كانوا، سيتم الكشف عنهم. بدأت التركيز ثانية على كِسِنجر، بسبب دوره في خلق الفوضى باتباع الطرق السرية، ولكن لأنّني أيضا مقتنع أنّ دَيفد يونگ الهادئ جدّا، كان يوافيه بالأخبار أولا بأول وربما بتفصيلات ومعلومات أخرى عن عملية تشبه عمليات السباكين، التي لا تزال غير معروفة.

اعتقدت ذلك لأنّ كِسِنجر كان مصرا على إنكاره بمعرفة أيّ شيء خلال عملية التصديق على تعيينه في مجلس الشيوخ قبل 4 اشهر ليصبح وزيرا للخارجية. «ليس لديّ علم بأيّة عمليات ربّما كان دَيفد يونگ قد اسهم بها،» حسب شهادته أمام لجنة الشؤون الخارجية. ثم اضاف يقول، «ليس لي علم بوجود مجموعة السباكين، بهذا الأسم أو بغيره. كما أنّني لا اعرف إن كان دَيفد يونگ مهتم بقضايا الأمن الداخلي.»

لقد كانت تلك أكاذيب واضحة صرّح بها، لأنّ دَيفد وكرَو كانا مسؤولين عن توظيف هَورد هَنت وگوردِن لِدي ضمن فريق السباكين، وأنّ الإثنين، كما ذكرنا سابقا، قد اشتركا في عملية السطو على مكتب المحلل النفسي الذي يتردد عليه إلزبَرگ في لوس انجلس وسط السبعينات، هذا اضافة إلى عملية السطو على مكاتب الحزب الديمقراطي في مبنى ووترگيت. لقد أعدّ دَيفد يونگ واشرف على نشاطات السباكين ووقف معهم أمام المحكمة لكنّه لم يقضِ وقتا خلف القضبان. ترك أمريكا وعاد إلى أوكسفرد حيث حصل على شهادة الدكتوراه، ولم يتحدث عن الموضوع إطلاقا، تماما كما فعل كِسِنجر، وكما اعتقدت في حينه. أمضت لجنة الشؤون الخارجية مدة ثلاثة أيام تسأل كِسِنجر عن معرفته بفريق السباكين فأكّد إنكاره، لكنه اضاف عنصرا جديدا حين ذكر،»إنّني لا اعرف حتى مكان مكتبه (يقصد دَيفد يونگ) ولا الواجبات المنوطة به، ولم يكن لديّ إتصال به.»

بعد مرور 10 سنوات على نشر مقالتي عن فضيحة التجسس، اسقط كِسِنجر تظاهره الكاذب عن علاقته مع دَيفد يونگ، فاعترف خلال مؤتمر صحفي قصير في وزارة الخارجية، أنّه في اواخر عام 1971 قد استمع إلى تسجيل صوتي سُمِع فيه يونگ وهو يتحدث مع ادميرال ليس برتبة رفيعة كان مساهما في تسريب الوثائق من مكتبه إلى البِنتگون. تناقض هذا الإعتراف مباشرة مع شهادته أمام لجنة النظر في تعيينه. كما علم أنّ ذلك ليس في مصلحته من وجهة نظر الحكومة والإعلام، اللذين وجدا أنّه يكذب بشكل متواصل. لقد عمل ما بوسعه للتشويش على القضية بأن ذكر مبدأيا أنّ جون إلركمّن هو الذي «جعلني اشاهد أو في الحقيقة أن استمع إلى عملية الإستجواب.» اعترف فيما بعد ونتيجة لإلحاح الصحفيين بطرح الأسئلة، أنّ من قام بالتحقيق هو دَيفد يونگ. لم يتوقف عند ذلك بل استمر ليقنع الصحفيين، «لا أحد يمكن أن يفترض أنّ دَيفد يونگ كان يقوم باجراء تحقيق،» لأنّه هو من قام بالمقابلة، وليس الأدميرال الشاب. لقد «افترض» أنّه قال إنّ يونگ قد كُلِف من قبل إلركمَن بأن يجري المقابلة. «إنّني أؤكد هنا كلّ كلمة ذكرتها أمام لجنة الشؤون الخارجية» (خلال جلسات التصديق على تعيينه وزيرا للخارجية،) واصرّ، «أنّها كانت مطابقة تماما وكافية للإجابة عن اتهامات المصادر المجهولة التي اثارتها أصلا.»

لقد اقتنعت بأنّ محاولة كِسِنجر هي محاولة أخرى ليوم آخر وكلها تحريف في تحريف. كنت ما ازال على اتصال مع ستنِس، الذي اشار بوضوح إلى أنّ عبث رَدفرد كان تحقيقا لا يقود إلى شيء، إذا أخذنا بنظر الإعتبار معاقبة الأفراد وفق مخالفاتهم. قال إنّها قصة أخرى تشبه قصة تحريف سجلات الغارات، التي تسترت على قصف كمبوديا، والتي كان يمكن أن تحطم سمعة البِنتگون. إستمريت مع وودوَرد في الكتابة عن الفضيحة، لكنّه ظهر لنا أنّ الجمهور عرف ما فيه الكفاية عن خداع البيت الأبيض. إنّ افعال نِكسُن المستمرة الطائشة وطرق كِسِنجر في ليّ الكلمات وتطويعها والتلاعب بها، اصبحت من الأمور المسلم بها في تلك الفترة. كما أنّ لجنة الخدمات العسكرية في مجلس الشيوخ، التي وقفت بثبات مع العسكر، عقدت عدة اجتماعات شكلية حتى ماتت القضية. في مقابلة جرت فيما بعد، اخبرني رَدفرد شيئا لم يذكره أمام اللجنة بشكل علني. قال إنّه سرّب ما لا يقل عن 5 آلاف وثيقة سريّة من مكتب كِسِنجر إلى البِنتگون خلال فترة 13 شهرا قضاها في البيت الأبيض.»

في مطلع عام 1974، ذكر لِس گِلب، الذي رأى أنّ البيت الأبيض دائما كمصدر للفكاهة، عددا من القصص. كان افضلها عندي ولم اكن اعلم مقدار صدقها من عدمه تدور حول فترة ازمة السباكين. حين كنت يائسا في الوصول إلى چالز كولسُن، مساعد نِكسُن، الذي كانت له يد في العديد من المخالفات التي جرت في حينها. تمّ اتهامه بعدد من القضايا، وكان كلّ شخص في الميدان الصحفي يأمل معرفة ما جرى. وكما ذكر لِس كان عندي رقم هاتف منزل كولسُن، إلّا أنّه لم يردّ أحد على الهاتف. أمضيت العديد من الساعات وأنا اتصل المرة تلو المرة في حين كنت اقرأ نصوص الشهادات أمام الكونگرس. أخيرا ردّت زوجته فقالت إنّه لا يستطيع أن يردّ على المكالمة الآن. سألتها، «هل أنّه لا يزال في واشنطن؟» ثمّ اضفت، « لو كنت زوجك لوضعت شاربا مصطنعا وطرت إلى أمريكا الجنوبية.» ضحكت ممّا قلت، فتجرأت واخبرتها كم أنا معجب به وبشجاعته وعدم هروبه. قالت إنها ستخبره أن يتصل بي، فاتصل فعلا.

عرف لِس بتعقيدات المفاوضات النووية وستراتيجيتها، وهذا شيء نادر في صفوف المراسلين الصحفيين. كان ذلك رصيده في التايمز. لقد عمل كِسِنجر جاهدا لإبقائه ضمن الفريق، وهو كان زميلا له في التدريس الأكاديمي. غالبا ما تحدّثا معا وترك ذلك سيلا من النصوص، التي تبيّن المشاعر الأخلاقية لدى كِسِنجر، ولربما الأدلة للقضاء عليه وعلى نفوذه. في وقت ما خلال عام 1974، كانت هناك مكالمة حول إحدى مقالات گِلب عن الحدّ من التسلح أظهر فيها خداعا مقصودا. أفاد أنّ تلك المكالمة سرية:

- «من الصعب... في واشنطن اليوم ألّا تصدق أنّ كلّ مسؤول حكومي لا يحاول أن يخدعك، بقول كلام في اذنك.»

حين سمع كِسِنجر كلمة «أذن»، اباح عن امر كان غير مكشوف. «أنا لا اتكلم عن التنصّت.» كانت تدور في ذلك الحين اسئلة حول مسؤوليته عن موضوع التنصّت أمام لجنة مجلس الشيوخ.

- ردّ گِلب، «انا اتحدث بشكل عام... بما فيه التنصّت.»

- قال كِسِنجر، «ساي هيرش يريد الإطاحة بي.»

- ردّ گِلب المخلص دائما، «كلّ الذي اريد قوله... أنّه لو تحدث معك، يمكنك توضيح جانبك من الحقيقة. سيكون ملتزما بذلك.»

- قال كِسِنجر، «سادافع عن جوهر القضايا. لوكنت اريد أن احافظ على مركزي الحكومي، يجب أن ادافع عن نزاهتي باستمرار.»

كان لِس بالنسبة لي منقذا، وسط الضغوط في مكتب الصحيفة في واشنطن، رغم أنّه كانت لديه صعوبة في رفض بعض خططه. مثلا دُعي إلى اجتماع في ضحى أحد ايام الشتاء في وزارة الخارجية لمراجعة نصّ تقرير موجز أعده كِسِنجر حول الحدّ من الأسلحة النووية. طلب مني أن ارافقه. وكما أخبر أحد الصحفيين أنّه سأل المتحدث باسم كِسِنجر، «إن كان من الممكن أن يأتي بصديق معه،» فكان الردّ بالإيجاب. وصلنا هناك وكان گِلب بالغ السرور. قدمني للمتحدث المذكور قائلا» «هذا ساي هيرش.» وكما تذكّر گِلب، فإنّ المتحدث بدأ يرتعش بشكل واضح وبدأ يحملق في وجهي، وكأنّه يقابل دراكيولا. أصبح الرجل شديد التوتر، فسارع لِس ليقول أنّه قابلني بالصدفة قبل قليل، وليس لي علاقة بالمهمة، التي جاء هو من اجلها. لكنّ ذلك لم يخفف من روع الرجل وارتعاشه. ضحكنا، أنا ولِس كثيرا في الأسابيع التالية ونحن نستعيد منظر ذلك اللقاء.

كان شيئا ممتعا أن تضحك هنا وهناك وأنت في المكتب، لأنّنا كنّا نتعامل في مطلع السبعينات مع رئيس فاسد يقاتل من اجل البقاء في منصبه ومستعد لعمل ايّ شيء من أجل ذلك الهدف. لقد تذوقت مرارة تسلط الرئيس والمسؤولية المعقدة لعملي كصحفي خلال الأسابيع القليلة التي اعقبت الكشف عن حلقة التجسس العسكري. لقد تمّ الكشف عن نظام التسجيل الصوتي الداخلي في الصيف الماضي، وكان المحققون الفدراليون يتعاملون مع مختلف القضايا المتعلقة بفضيحة ووترگيت بالرجوع إلى تلك الأشرطة. في مطلع شهر مايو زوّدني موظف في الحكومة المركزية اعرفه قليلا بعدد من الصفحات لمحتوى أحد الأشرطة، الذي تمّ جلبه لاستخدامه في المحكمة الجنائية ضدّ وزيرين في حكومة نِكسُن، وهما وزير التجارة موريس ستانز والمدعي العام السابق جون مِچِل[30]. سُجّل ذلك الشريط في احدى الأمسيات وكان نِكسُن ربّما يتباهى أو بعد أن تناول عدد من اقداح المارتيني. تحدّث بشكل غير لائق عن الأقليات واعاد كثيرا كلاما ذميما عن، «أولئك الأولاد اليهود» في هيئة تداول الأوراق المالية SEC، «الذين يريدون السيطرة على كلّ شخص، ولا أحد يستطيع إيقافهم.» كما كان هناك كلام مشابه عن «إيقاف اليهود في مكتب المدعي العام للولايات المتحدة،» في واشنطن، الذين يشاركون في الإجراءات الموجهة ضدّه. أشار إلى القاضي جون سِركا وسمّاه «الأجنبي» Wop. امضيت عدة ايام للتدقيق إن كانت لغة من هذا القبيل تُستعمَل بسهولة في المكتب البيضاوي. وكما ردّ البيت الأبيض فيما بعد، «إنّها استعمِلت بروح الفكاهة بين الأصدقاء، لا غير.»

نُشرت المقالة على الصفحة الأولى من التايمز وخلقت، كما توقعت، موجة احتجاج في البيت الأبيض وبين مساعدي الرئيس. هاجم عدد من مسؤولي البيت الأبيض بتحريض مقصود

معبرين عن مشاعر الرئيس الغاضب من التايمز، بما فيهم حتى كلِفتِن دانيل رئيس مكتب التايمز في واشنطن. كان كلّ ذلك متوقعا، إلّا أنّ ما حدث بعد ذلك لم يكن بالحسبان. سحب توم وِكر، المراسل الرائع والمحرر والكاتب في التايمز، كرسيا وجلس جنب طاولتي في غرفة الأخبار الصاخبة دائما، وسأل إن كانت لدي دقيقة من الوقت. وطبعا كان ردّي بالإيجاب. إقترب أكثر وقال إنّ مقالتي عن اللغة، التي يستعملها نِكسُن والإنكار التام من قبل البيت الأبيض وسط الهجمات عليّ شخصيا وعلى الصحيفة إنّما هو انعكاس لحالة نِكسُن غير المنطقية، ذكّرته بواقعة حدثت له ولم يكتب عنها. أصبح توم وِكر رئيسا لمكتب التايمز في واشنطن في عام 1964، وكان يغطي بتقاريره البيت الأبيض. في وقت ما من عام 1965، وكانت حرب فيتنام تزداد اشتعالا وتحولت إلى مأزق، كتب مقالا تحليليا عن الحرب ومخاطرها قبل يوم من سفره مع زملاء آخرين من الصحفيين العاملين في البيت الأبيض حين طاروا لزيارة الرئيس جونسُن في مزرعته قرب مدينة أوستن في ولاية تَكسَس خلال عطلة نهاية الأسبوع. كانوا في العادة يعطون موجزا للأخبار للصحفيين في ضحى يوم السبت. أخبِر الصحفيون أنّ «غطاء القدر» ما زال في مكانه، ممّا يعني أنّه سوف لن تكون هناك مناسبة رسمية لظهور الرئيس في ذلك اليوم. وفي ساعة ما ظهر الرئيس وهو يقود بسرعة سيارته اللِنكن البيضاء ذات السقف المتحرك واقترب من المكان، الذي تجمّع فيه الصحفيون. أوقف السيارة وفتح بابها من جهة اليمين وصاح «وِكر» ثمّ أشار إليه أن يقترب صوبه. اقترب وِكر فصعد وجلس على المقعد. إنطلق الرئيس بسرعة مخلفا زوبعة من التراب المتطاير، دون أن يقول كلمة واحدة. بعد دقيقة أو دقيقتين أوقف جونسُن السيارة قرب مجموعة من الأشجار وفتح بابها بعد أن ترك المحرك يشتغل ونزل من مقعده ومشى بضع خطوات صوب الأشجار ثمّ توقف. أرخى بنطاله وسحبه نحو الأسفل وجلس يتغوّط بشكل علني. وحين فرغ من ذلك مسح مؤخرته ببعض الأوراق والحشائش وقام وسحب بنطاله إلى الأعلى وشدّ حزامه وعاد إلى مقعده. ادار وجهة السيارة وانطلق مسرعا إلى مكان تجمع الصحفيين، ثم اوقفها واشار إلى توم أن ينزل ففعل. جرى كلّ ذلك دون أن ينبس بكلمة واحدة.

لا اتذكر طبعا كل كلمة تفوّه بها توم بالضبط لوصف ما جرى له ذلك اليوم، لكنّني اتذكّر الألم الذي طغى على وجهه وهويروي تلك الحادثة. لقد اعطى جونسُن ردّا واضحا لا شائبة فيه ازاء مقالة وِكر التحليلية عن الحرب. غير أنّ ما فعله الرئيس ضرب من الجنون، كما لغة نِكسُن واصراره من خلال مساعديه بأنّ كلماته حرّفت عن مقصدها الفكاهي، وليست كلمات مجنونة في ظاهرها. قال توم لي، «عرفت منذ تلك اللحظة أنّ ابن العاهرة ما كان يفكر اطلاقا بإنهاء الحرب.» ثمّ اضاف أنّه اعتقد في حينها ولا زال حتى لحظة حديثنا، بأنّه يجب أن نجد طريقة ما للكتابة عمّا يجري، خاصّة ما قيل عن إصرار نِكسُن الأعمى أنّه كان على صواب والآخرين، الذين لا يتفقون معه، على خطأ مقرف. وهكذا استمرت الحرب ما شاء لها أن تستمر.

كانت لدي تجربتي، التي تشبه تجربة وِكر، لكنّني لست آسفا على ما جرى خلالها. بعد أن غادر نِكسُن البيت الأبيض مكللا بالخزي بتاريخ 9 اغسطس 1974، عاد إلى بيته على ساحل المحيط في سان كليمنتَ في كاليفورنيا. اتصل بي بعد اسابيع قليلة شخص يعمل في مستشفى قريب، فأشار إلى أنّ زوجة نِكسُن، پات، قد أحضرت إلى غرفة الطوارئ بعد عودتها بأيام مع زوجها من واشنطن. اخبرتْ الأطباء أنّ زوجها قد ضربها. بإمكاني القول إنّ الشخص الذي تحدث معي عن الموضوع لديه معلومات دقيقة عن مدى الإصابات ومدى غضب الطبيب، الذي عالجها. لم تكن لديّ

فكرة عن الطريقة، التي كان يجب عليّ أن اتعامل فيها مع تلك المعلومات، لكنّني عدت إلى ايامي في صحيفة اخبار المدينة والقاعدة، التي تعلمتها هناك، «حتى لو قالت لك أمّك إنّها تحبّك، فيجب التحقق من ذلك.» اصبحت في منتصف عام 1974 على معرفة جيدة بجون إلركمَن، ولذلك اتصلت به وذكرت تفاصيل أكثر ممّا ادونه الآن هنا، عمّا حدث للسيدة پات نِكسُن في سان كليمنتَ. فاجأني إلركمَن بالقول أنّه عرف مناسبتين صفع فيهما نِكسُن زوجته. كانت الأولى عندما خسر انتخابات حاكمية ولاية كاليفورنيا عام 1962، حين اخبر الصحفيين بمرارة ظاهرة أنّ ذلك السباق السياسي سيكون آخر سباق له، وأنّه لن تتوفر لهم الفرصة في المستقبل «لركل رچَرد نِكسُن.» الصفعة الثانية كانت خلال وجودهما في البيت الأبيض. لم اكتب عن هذه القصة في وقتها ولا اتذكّر أنّني اطلعت عليها أحدا من محرري التايمز في واشنطن. فكرت أن اشير إلى الموضوع في المتن، حين ألفت كتابي عن كِسِنجر، لكنّني قررت ألّا افعل ذلك. أشرت إلى القصة خلال محاضرة لي عام 1998 أمام حشد من طلبة قسم الصحافة في مؤسسة نايمن في جامعة هارفرد. كان الموضوع عن المزج بين الحياة العامة والحياة الخاصة، اوضحت أنّه كان من الممكن أن اكتب عن موضوع تلك الاعتداءات وعمّا إذا كان اعتبارها امثلة عن سبب ارتطام حياة نِكسُن الخاصة بسياسته، لكنّه ليس هناك دليل على وجود الإرتباط بينهما. كما اضفت أنّها ليست قضية عن ذهاب نِكسُن ليبحث عن زوجته وهو ينوي ضربها/صفعها فلم يجدها، فأمر بدلا من ذلك بقصف كمبوديا! فوجئت بالغضب، الذي سببه منطقي بين زميلاتي في المكتب، اللواتي قلن إنّ «الهجوم» على الزوجة جريمة في نظر العديد من المحاكم، وتساءلن لماذا قررت ألّا أخبر عن تلك الجريمة. «ماذا فعلت لوكان ارتكب جريمة اخرى؟» وسألنني، «ماذا لو ذهب إلى مصرف وسرقه؟» كلّ الذي قلته في ذلك الوقت إنّني كنت جاهلا حول اعتبار الحادث جريمة. لم يكن جوابي مقنعا. لم افهم القضية كما فهمتها النسوة، اللواتي تحدينني، بأنّ ما فعله نِكسُن عمل اجرامي كان يتطلب اخبار الشرطة عنه في حينه. لكنّ خطوة كهذه كانت تتطلب مني فضح مصدر خبري.

في مطلع شهر سبتمبر عام 1974 سُرِّبت لي رسالة من مِچِل هَرينگتُن، عضو الكونگرس، احتوت على معلومات عن شهادة سريّة بالغة الأهمية. فحوى الرسالة أنّ وِليم كولبي، مدير وكالة المخابرات المركزية قد ادلى بشهادة قبل 5 أشهر عن النشاطات الإقتصادية والسياسية التي تمارسها الوكالة، والتي استهدفت التعرض لحكومة سلفادور أيَندي والإطاحة بها. أيَندي هو الرئيس الإشتراكي في چِلي، الذي تمّ انتخابه عام 1970. كان أيَندي قد اغتيل في شهر سبتمبر الماضي وفرض قائد الإنقلاب، الجنرال أوگستو پينوشَيه الأحكام العرفية في انحاء البلاد، وأخذ سياستها صوب اليمين المتطرف، وقتلت قواته وسجنت واضطهدت المعارضة اليسارية. أخبر كولبي الكونگرس أنّ معظم، إن لم يكن كافة، العمليات السرية لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية قد تمت المصادقة عليها من قبل لجنة الأربعين. وهي لجنة رفيعة المستوى في وزارة الخارجية لإدارة عمل المخابرات وترأسها هَنري كِسِنجر. صوّر كولبي خلال شهادته العمليات ضدّ أيَندي أنّها كانت اختبارا لاستعمال الأموال للإطاحة بحكومة كان يُنظر إليها بأنّها معادية للولايات المتحدة، وأنّ الميزانية لتلك العمليات بلغت 8 ملايين دولارا، حسب شهادة كولبي. سُئِل كِسِنجر خلال اجراءات المصادقة على تعيينه أمام لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ عمّا إذا كانت وكالة المخابرات المركزية قد ساهمت، بأيّ شكل من الأشكال، باسقاط حكومة أيَندي. لقد فعل ما

يفعله المسؤولون الأمريكيون في العادة وهو الكذب. قال بالحرف الواحد، «ليس لوكالة المخابرات المركزية علاقة بالإنقلاب، حسب علمي واعتقادي.»

تناولت القصة من كافة جوانبها خلال الشهر التالي واقتبست اقوال من كان يعنيهم الأمر وذكرت أنّ السياسة تعود إلى رِچَرد نِكسُن وأنّ كِسِنجر قد برز باعتباره المخطط الستراتيجي للحرب الإقتصادية ضدّ أيندي. كَانت هناك اتهامات متكررة حول الدور الأمريكي في الإنقلاب، الذي بدا واضحا من خلال اعتراف إدارة نِكسُن المباشر بحكومة پينوشَيه ورفض واشنطن التدخل لإيقاف جرائم القتل والتصفية، التي استمرت طغمة الإنقلاب بارتكابها ضدّ انصار أيَندي ومؤيديه. ذكرت رسالة عضو مجلس الشعب هَرينگتُن أنّ نِكسُن وكِسِنجر كانا يكذبان منذ سنوات باصرارهما على أنّ الولايات المتحدة لم تتدخل بشكل غير شرعي داخل چِلي. من المعروف أنّ عجز حكومة أيَندي في الحصول على قروض لم يكن سببه سوء الإئتمان في البلد، لكنّه نتيجة للسياسة الأمريكية. استطعت خلال اسابيع الحصول على وثائق سرية أظهرت أنّ نشاطات وكالة المخابرات المركزية قد ذهبت إلى ابعد من ممارسة الضغوط على الإقتصاد، إلى تمويل عنف الجماعات المتطرفة داخل چِلي، فهي التي نظمت اضرابات عديدة بهدف تعطيل اقتصاد البلد. كما كان هناك حديث عن اغتيالات، على الأقل لضابط رفيع المستوى في الجيش، كان معروفا عنه تأييده للرئيس أيَندي، وتمت تصفيته بسلاح تمّ تهريبه من قبل محطة وكالة المخابرات المركزية في العاصمة سَنتياگو.

كان واضحا أنّ بعض منتسبي وكالة المخابرات المركزية كانوا يتحدثون اليّ ويعملون أكثر من ذلك بالقول إنّ كِسِنجر لا بُدّ عرف السبب الرئيسي. إستمر الضغط على الوكالة كي تفعل شيئا حول أيَندي من قبل نِكسُن وعن طريق كِسِنجر. لقد تلقت الوكالة ضربة قوية في حرب فيتنام ودورها في فضيحة ووترگَيت، وأنّها لن تلتزم الصمت، قدر تعلق الأمر بِكِسِنجر، وكذا كان موقفي أيضا. كان كِسِنجر هدفهم وهدفي في نفس الوقت. لم يكن هناك شكّ حول دوافعي في أروقة وزارة الخارجية. كُتِبَت مذكرة إلى كِسِنجر بتاريخ 24 سبتمبر من عام 1974 تمّ الكشف عن مضمونها فيما بعد، وقام باعدادها إثنان من اقرب مساعديه وهما لَري إيگِلبَرگر، معاون كِسِنجر التنفيذي وروبرت مككلوسكي، المتحدث باسم وزارة الخارجية. حذرا في مذكرتهما،

نعتقد أنّ سيمور هيرش ينوي نشر اتهامات أخرى حول دور وكالة المخابرات المركزية بما جرى في چِلي. سوف لن يضع نهاية لهذه الحملة، وأنّك هدفه الأسمى.

أخبر بِل كولبي مساعد نِكسُن للشؤون العسكرية برنت سكوركروفت أنّ مقالات هيرش لهذا اليوم ويوم الجمعة الماضي ويوم السبت، كلها كاذبة، وانّه، أي كولبي، مستعد أن يعلن ذلك على رؤوس الأشهاد. نحن نعتقد أنّ إنكارا علنيا مباشرا من جانب كولبي هو انجع الوسائل لمجابهة هيرش.

قام نات دَيفز وهاري شلودمَن (وهما دبلوماسيان عملا في چِلي) باعداد المسودة المرفقة، التي تمثل الحقيقة كما يعرفانِها. وإذا وافقت على ذلك سنطلب من سكوركروفت أن يسلمّها إلى كولبي لتدقيق وتأكيد ما فيها تماما، كي يعلنها بشكل مبرر. الوقت مسألة اساسية، لأنّه إذا استمرت اتهامات هيرش دون مجابهة، فإنّها تصبح أكثر مصداقية. هل يمكننا أن نستمر في هذه المهمة؟

المقالات المشار إليها اعلاه تخص جزئيا التعليمات الداخلية لوكالة المخابرات المركزية، التي اطلعت عليها، وتتعلق بجهود الوكالة للحصول على التمويل لمساندة المتطرفين المناوئين للرئيس أيَندي مثل حزب التحرير، وهم جماعة رجعية تتباهى بشكل علني بجهودها العسكرية للانقلاب على حكومة أيَندي. لم يصدر عن كولبي أيّ إنكار.

كتبت بعد ثلاثة أيام مقالة عن التوبيخ المذهل الذي صدر من جانب كِسِنجر للسفير الأمريكي في چلي، پوپَر لأنّه اثار مع طغمة الإنقلابيين قضايا التعذيب والتجاوزات على حقوق الإنسان، خلال لقاء بطلب المعونة العسكرية من قبل ممثلي حكومة پينوشَيه. «قولوا للسفير پوپَر أن يكفّ عن القاء محاضراته في العلوم السياسية،» كما كتب على برقية استلمها من پوپَر. ذكرتُ أنّ پوپَر ودبلوماسيين آخرين في چلي وفي مكتب وزارة الخارجية لدى مكتب الشؤون الأمريكية الداخلية، وهو المكتب المسؤولُ عن الدبلوماسية في دول أمريكا اللاتينية، قد اصابهم الذهول والغضب للتوبيخ الذي صدر عن كِسِنجر بحق پوپَر.

عقد كِسِنجر اجتماعا في الحال مع المسؤولين الكبار في وزارة الخارجية لدى اطلاعه على ما كتبت، وقال صاخبا، وفق نسخة طبق الأصل من كلام محفوظ في ملفات وزارة الخارجية كي يطلع عليه المؤرخون:

أريد أن يعلم الجميع أنّ الحفلة قد انتهت. لا اريد أن اسمع من أيّ منكم اطلاقا أنّ ما اقوم به خطأ، وإن وُجِد أحد لا يعجبه عملي، فالباب مفتوح لتقديم الإستقالة... ببساطة، لقد طفح الكيل... الخدمة في وزارة الخارجية نفسها اصبحت عارا... لا يهمّني موضوع التسريبات لأنّي سأنهي مهمتي... أريد من پوپَر توضيحا عن دوره في توفير المعلومات لمقالات هيرش... لا اشعر أنّني مدين لأشرح مواقفي حتى حيال ما يكتبه هيرش... إذا كان وزير الخارجية كتب تعليقا على نسخة برقية فتتسرّب... عندئذ ليس لدينا خدمات خارجية، ولكن مكاتب يعمل فيها رعاع... إنّ هذه التسريبات تنمّ عن الجبن وعدم الإخلاص. لو كانت لديهم الجرأة، لو كان بينهم واحد له الجرأة، فليقدّم استقالته. عندئذ سيكون لكلّ حادث حديث. ولكن لا بُدّ من وجود عطل في هذا النظام، ويجب إيقاف التسريبات.

إنّ خطبة كِسِنجر المسهبة العنيفة أمام ثمانية من كبار موظفي الخارجية، إضافة للشخص الذي دون محضر ذلك الإجتماع، لم يتمّ تسريبها. اضحى دوره في احداث چلي، المسألة الرئيسية في عدد من التحقيقات التي جرت فيما بعد، بما فيها التحقيق الأهمّ والأعمق حول دور وكالة المخابرات المركزية وكافة مؤسسات جمع المعلومات، منذ ظهرت الوكالة للوجود إثر الحرب العالمية الثانية.

الفصل الخامس عشر

القضية الكبرى

مقالتي التي نُشِرت بتاريخ 22 ديسمبر من عام 1974 عن قضية تجسس وكالة المخابرات المركزية على المواطنين داخل البلاد، كانت اشد قنبلة تفجيرا طيلة سنوات عملي في نويورك تايمز. وُضع لها عنوان مثير للمخاوف من ثلاثة أسطر.

تقرير عن عملية كبرى لوكالة المخابرات المركزية

ضدّ القوى المناوئة للحرب داخل البلاد

وضدّ المنشقين خلال سنوات نِكسُن

لقد اثارت المقالة غضبا وفزعا واسعين في اوساط الشعب لممارسة وكالة المخابرات المركزية CIA عمليات تجسس داخل البلاد. وترتب على ذلك قيام تحقيقين كبيرين من قبل لجان الكونگرس للبحث عن ادلة جديدة لتلك التجاوزات. غير أنّ ضغوطات الكونگرس من أجل الإصلاح قد جوبهت بعناد حاد من قبل إدارة فورد، التي قادها مدير مكتب الرئيس دونلد رامسفيلد ونائبه دِك چيني، اللذان عملا ما بوسعهما لحماية الوكالة، التي مهمتها ممارسة نشاطاتها السرية للتجسس وجمع المعلومات حول العالم، منذ تأسيسها عقب الحرب العالمية الثانية.

ومع ذلك فإنّ تلك الجهود لم تثنِني عن عملي الجاد بصبر وتأنّ مسنودا بمساعدة من داخل الوكالة ذاتها لملاحقة عمليات التجسس اللاقانونية، فاستطعت الخوض داخل ما تقوم به. وجدت أنّ افضل طريقة لنشر أيّة قضية هي أن أدع الوكالة تقوم بذلك بنفسها.

بتاريخ 1993 قام هارولد فورد، مؤرخ الوكالة ومحللها، والذي بدأ حياته كمساهم في العمليات السرية، بنشر التاريخ السري للسيد وِليم كولبي، مدير وكالة المخابرات المركزية ومهنته المثيرة للجدل خلال سنوات ووترگيت. أنيط اللثام عن المعلومات السرية التي ذكرها فورد في كتابه عام 2011. ولكن كغيره من المؤرخين لم يحظَ عمله بانتباه كبير. كتب فورد، الذي لا اعرفه على

المستوى الشخصي، فصلا من 11 صفحة عنّي، وهو يستعرض تاريخ الوكالة. بدأ ذلك الفصل باقتباس من رَي كلاين، ضابط الوكالة لوقت طويل والذي خدم خلال فترة كِسِنجر كمدير للمخابرات في وزارة الخارجية. قال كلاين، «إنّني بشكل ما أحب ساي، رغم أنّه مغرور وابن عاهرة.... إنّه أحد الأشخاص الغريبي الأطوار وشديدي الإرتياب ومتمرد، تعجبه متابعة القصص الجيدة، وله حاسة شمّ قوية، وهو داهية في معرفة الأشخاص والأحداث، وهو الذي يقوم بمثل هذا العمل.»

لقد اتفق رَي، الذي توفي عام 1996، مع وجهة نظري بأنّ مكيدة كِسِنجر وغباء وكالة المخابرات المركزية الهائل قد استغرقا سبع سنوات منذ 1967 لغاية 1974 وهم يتجسسون على المواطنين الأمريكيين في مخالفة صريحة لميثاق الوكالة ذاتها. بودي الإعتقاد أنّ تقييم فورد التفصيلي المدهش المحايد عن تقاريري، أنّه رأى أيضا قيمة ما كنت اقوم به من ملاحقة الوثائق الداخلية السرية للوكالة، التي يطلقون عليها اسم «مجوهرات الأسرة،» أي النشاطات غير القانونية للوكالة. بدأ فورد فصله المذكور بالقول:

إتهامات هيرش ضدّ وكالة المخابرات المركزية CIA لم تسقط فجأة من السماء في نهاية شهر ديسمبر عام 1974. مرّت عدة اشهر من الجهود الصحفية قضاها بالبحث والإستقصاء قبل أن يوجه اتهاماته للوكالة. ظهرت أولا شكوك بأنّ الوكالة قد ساهمت في النشاطات اللاشرعية في السطو على ووترگيت. بدأ بحث هيرش يتوسع من خلال حصوله على معلومات بسيطة عن «مجوهرات الأسرة.» قامت اتهاماته بشكل واسع على تلك «المجوهرات» وبأنّ المفتش العام لنشاطات المخبرين ومدير الوكالة فيما بعد جَيمس شلِزنجَر، الذي قادها قبل كولبي، هو الذي أمر بوضع قائمة لجرد تلك «المجوهرات» في شهر مايو 1973 لدى الكشف عن ووترگيت.

كان هيرش فى شهر نوفمبر من عام 1972 قد اخبر لوسِن ندزي، رئيس اللجنة الفرعية للمخابرات في الكونگرس، أنّ لديه معلومات تشير إلى انهماك CIA في «عملية داخلية واسعة.» (لقد ذكرت هذا الموضوع من بين مجموعة من المواضيع في وقتها، حين بعثت ملاحظاتي عن القصص المتوقعة الى ماكس فرنكِل، الذي اهملها ولم يعرها أهمية.) في شهر فبراير من عام 1973 أصبح شلِزنجر على علم بأنّ هيرش يعمل في اعداد مقالة لنشرها في نو يورك تايمز، تتعرض لكشف عملّيات استخباراتية حساسة... في شهر مارس، طلب هيرش مقابلة مع شلِزنجر، لكنّ طلبه رُفِض. وعلى أيّة حال، طلب شلِزنجر في شهر مايو من كافة ضباط الوكالة أن يوافوه فيما إذا كانت الوكالة الآن أو في الماضي مساهمة في أيّة نشاطات غير قانونية. كانت تلك واحدة من عدد من الخطوات، التي قام بها شلِزنجَر وكولبي لتحديد ورسم ما أصبح يُسمّى «مجوهرات الأسرة»... شملت القائمة 693 صفحة من المخالفات المحتملة أو النشاطات الباعثة على التساؤل، قدر تعلق الأمر بنظام وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ذاته.

في الخريف التالي وبعد أن أصبح كولبي المفتش العام للنشاطات، أخذ سيمور هيرش يطرح تساؤلاته عن العمليات السابقة للوكالة. أمر كولبي عندها كافة المساعدين في الوكالة بعدم التجاوب مع طلبات هيرش لإجراء أيّة مقابلات... وبعد عدة أشهر أصبح الوضع هادئا، قدر تعلق الأمر بطلبات هيرش. (كنت حينها اكتب عن عمليات الوكالة في چلي.) غير أنّ هذا الصحفي اتصل

عن طريق الهاتف بالمفتش العام كولبي بتاريخ 9 ديسمبر واخبرَه أنّه مقدم على مشروع مقالات كبير يتناول نشاطات الوكالة غير الشرعية داخل الولايات المتحدة... في نهاية ذلك اليوم، أخبر كولبي رئيس لجنة الكونگرس ندزي عن تلك المكالمة، فعلم أنّ هيرش قد قابل عضو الكونگرس المذكور عصر ذلك اليوم واخبره بنفس القصة.

في هذه النقطة بالذات، لاحظ فورد وهو يروي تاريخ الوكالة أنّ اثنين من ضباط المخابرات المحترمين جدّا، وهما رئيس الخدمات السرية، المعروف باسم قسم «الخدع القذرة»، وأحد مساعديه قد اخبرا كولبي أنّني اتصلت بهما وحذرتهما أنّني مستعد للكتابة عن عمليات التجسس الداخلية، وأنّني اقتبست اقوال جَيمس جيزس أنگلتُن، رئيس قسم مكافحة التجسس المشهور، بأنّ الضابط المسؤول مخالف لنظام الوكالة والتعديل الدستوري رقم 4، الذي يمنع التفتيش غير المنطقي. كتب فورد بتاريخ 18 ديسمبر أنّ،»هيرش بدأ يزيد الضغوط. اعتقد أنّ لدي عشر الواحد من المائة من القصة التي تكلمنا عنها،» كما ذكر في رسالة تركها في مكتب كولبي عن طريق الهاتف. باعتقادي أنّ هذا اكثر من كاف ليسبب الكثير من الإنزعاج، وهذا ليس غرضي. أريد أن اكتب المقالة في عطلة الأسبوع. إنّني مستعد أن اتبادل معك. اتبادل معك يا جِم أنگلتُن مقابل 14 ملفا اختارها بنفسي. سأكون في مكتبي في التايمز خلال الثلاثين دقيقة القادمة.

لم يفهم فورد فحوى رسالتي الطريفة، لأنّني وكولبي تحدثنا أكثر من مرة باستعمال هاتفه المنزلي، الذي لم يوضع عليه جهاز رقابة للتنصت، عن المخاطر التي يمكن أن يسببها أنگلتُن. كان هذا شخصية اسطورية في وكالة المخابرات المركزية لاعتقاده بأنّ الروس قد اخترقوا بنجاح تامّ الوكالة، وأنّه مستعد أن يجري تحقيقا مع أيّ شخص، خاصة الجواسيس السوفيَت، الذين انشقوا عن النظام. كان التحقيق داخل البلاد مشروعه المفضل واجتمع من أجل ذلك بشكل مستمر مع رچَرد هِلمز، سلف كولبي لأخذ النصيحة والمشورة. ذهبت إلى أنگلتُن وأنا احمل معلوماتي، لكنّه فاَجأني ليس بالإنكار، بل لأنّه طلب المقايضة. إذا امتنعت عن نشر القصة، فإنّه مستعد أن يخبرني تفصيلات كثيرة عن عمليات التجسس الجارية في كوريا الشمالية وروسيا. بدا لي أنّه في حالة سكر واضحة وأنّ عرضه بشراء سكوتي لقاء اعطائي معلومات سريّة، بغض النظر عمّا إذا كان سيخبرني به حقيقة أم زيفا، مسألة لا تجوز، وإنْ كان الرجل عنى ما قال فتلك خيانة. إستقيت من ردّة فعل كولبي أنّه رأى خطرا في كلام من هذا القبيل، خاصّة إذا كانت تلك العمليات جارية في ذات الوقت. كان أنگلتُن يحاول أن يشتري سكوتي مقابل خيانة رفاقه في الوكالة.

ازداد الأمر سوءاً. اتصلت بالهاتف مرة أخرى بصاحبنا أنگلتُن وقت كنت أعدّ مقالتي ليوم 22 ديسمبر وكانت تتألف من 7 آلاف كلمة، وهي كافية لملء صفحة كاملة في الجريدة، فأكد هذه المرّة أنّه ليست له علاقة بأيّ شيء له صلة بالتجسس داخل الولايات المتحدة. أصبح البرنامج تحت مسؤولية أوبَر. وجدت أوبَر في المنزل فأخبرته بما ذكر أنگلتُن. لم يكن أوبَر نفسه بريئا، لأنّه ساهم في التجسس غير الشرعي على المواطنين الأمريكيين منذ بدء البرنامج عام 1967، لكنّني اعرف من مصدر موثوق أنّ أنگلتُن هو الذي يُعتبر العامل الرئيسي في تلك العملية. وعلى أيّة حال، أنكر أوبَر علمه بوجود عملية من هذا النوع تقوم بها وكالة المخابرات المركزية. وبعد ساعات عاد واتصل واخبرني أنّ أنگلتُن هو في الحقيقة رئيس العمليات المذكورة. (في كافة المكالمات مع مدير الوكالة كولبي ومع أوبَر، الذي ما زال يعمل ضابطا في العمليات السريّة، كان مفهوما بيننا، دون أن

يُقال، أنّني لن اقتبس اقوالهم والإشارة إلى اسمائهم.) بدأت في ذلك الوقت اشعر بشيء من التعاطف مع كولبي، لأنّه ظهر واضحا لي مدى الإحتقار الذي يكنّه كلّ من أنگلتُن وهِلمز للمدير كولبي، وانّهما كانا يعملان ضدّه لأنّه جاء إلى الوكالة وهو يهدف تنظيفها قدر تعلق الأمر بعمليات التجسس داخل البلاد وكان يعرف جيّدا مدى المخاطرة، التي ستواجهه. كانت علاقة أنگلتُن القوية مع هِلمز شخصية ومعروفة، علما بأنّ نِكسُن قد اقال الأخير وعينه سفيرا للولايات المتحدة في إيران. اعرف من شخص عمل مع هِلمز أنّه قد اتلف العديد من الملفات قبل سفره إلى طهران. وكلما ازدادت معرفتي بالوكالة، اصبحت على قناعة أكثر بأنّ مسؤولية نِكسُن عن عملية السطو على مبنى ووترگيت، ليست سوى ملاحظة هامشية في سجل إجرام حكومتي.

لاحظ فورد أنّ كولبي لم يردّ على مكالمتي بتاريخ 13 ديسمبر، وبدلا من ذلك اتصل بصاحبه ندزي، الذي كان يتحدث معي لأكثر من سنة حول التجاوزات المشبوهة للوكالة، وهو أمر لم يعرفه كولبي. اشارت المكالمة الهاتفية المسجلة بينهما إلى التالي:

- ندزي: تكلمت معه (يقصد هيرش) قبل وقت قصير واعتقد أنّ ذلك يتعلق بالرسالة (رسالتي التهكمية حول مقايضة أنگلتُن لـ 14 ملفا من سجلات وكالة المخابرات) من هو جِم أنگلتُن؟

- كولبي: هو رئيس قسم مكافحة التجسس، وهو شخصية اسطورية ما زال يعمل في الوكالة منذ 150 عاما تقريبا! إنّه شخص مرعب، وشهرته راسخة بالكامل على سريّة ما يقوم به. ولا أحد يعرف ما يقوم به فعلا. نحن نعرف ماذا يفعل، ورأيه من جهة أخرى قد فات زمانه، لأنّه يعتقد أنّه يوجد خلف كلّ شجيرة جاسوس سوفيتي.

- ندزي: لماذا يتحدث مع هيرش؟

- كولبي: لا اعتقد أنّه يفعل ذلك. اتصل به هيرش ورغب أن يتكلم معه، لكنّه رفض.

- ندزي: لقد اطلعني ساي على ملاحظات ادّعى أنّه سجلها حين قابله (أي أنگلتُن) وقال إنّه مخمور... وهذا يخلق مشكلة... فجأة يطلع علينا شخص (هيرش) ويذكر اشياء عن... تلك المقابلة، التي اطلعني عليها، وأنّه استعمل نفس العبارة «مجوهرات الأسرة.»

- كولبي: هيرش قال ذلك؟

- ندزي: نعم.

- كولبي: لا ادري كيف حصل على تلك العبارة. إنّها تستعمَل ومعروفة (فقط) بين عدد محدود من الأفراد هنا.

أضاف فورد يقول، «تمكّن هيرش من الوصول إلى كولبي عن طريق الهاتف واخبره أنّه يعدّ مقالة ستظهر يوم الأحد الموافق 22 ديسمبر... وهكذا اضطر للقيام بالخطوة القاتلة ووافق على اجراء مقابلة مع هيرش.»

أحببت كولبي قليلا، ومن عادة المراسلين أن يحبّوا المسؤولين، الذين يقبلون تلقي مكالمات منهم. لم يدرْ بخلدي أن اخبر كولبي بماذا اعرف بالكامل خلال المقابلة التي حدثت صباح يوم الجمعة الموافق 20 ديسمبر. كنت على علم بأنّ المقابلة في مكتب كولبي ستسجّل، لكنّ الأمر ما همّني، لأنّه من المستحيل أن ابوح باسماء مصادري، وكنت مهتما بعمليات وكالة المخابرات المركزية، وغيرها من النشاطات المخابراتية الأخرى، التي اتصفت بالغباء واللاشرعية.

صوّر فورد تلك المقابلة بأنّها «لقاء مصيري،» وأنّني اعطيت كولبي موجزا قصيرا بما كنت اعرفه، وأنّني كنت أعدّ مقالة عن دور الوكالة في عمليات التنصت الواسعة ضدّ الحركة المناوئة لحرب فيتنام وضدّ العناصر المنشقة والمتمردة بين المواطنين. كتب فورد أنّ كولبي، «أدرك أنّ تلك القصة حول قائمة (مجوهرات الأسرة) التي اعدّتها الوكالة ذاتها..... هدفها تصحيح إدّعاء هيرش المبالغ فيه... ماذا تعني عدة اخطاء هنا وهناك ارتكبت في الماضي، قبل أن يأتي كولبي ويقوم بتصحيحها... وهنا تنتهي القصة، أو هكذا اعتقد كولبي.» لقد اعتقد الرجل أنّه جرّدني من كافة اسلحتي، التي رأى أنّني سأعرضها في مقالتي القادمة.

لم يحاول فورد مقابلتي من أجل كتابه التاريخي. ولو كان فعل ذلك، فأنا متأكّد بأنّني كنت اخبرته أنّني لم اعرف كيف أنّ كولبي لم يدرك أنّ لديّ المزيد من المعلومات أكثر ممّا افترض. لقد قابلت افرادا عديدين داخل الوكالة ممّن انزعجوا من عمليات التجسس على المواطنين وغيرها من النشاطات الأخرى لسنوات، لكنّهم فضلوا أن يعملوا شيئا بصددها بعد أن فُصِل دِك هِلمز من قبل نِكسُن. اعرف أنّ كولبي ذو ذهنية صارمة وكان مسؤولا عن برنامج وكالة المخابرات للإغتيالات المسمى فِنِكس خلال حرب فيتنام، حيث تمت تصفية أكثر من 20 ألف مدني في جنوب فيتنام إثر اتهامهم زورا بارتباطات بالفيتكونگ أو فيتنام الشمالية.

لم يكن خداع الذات من صفات كولبي، كما افترضت. كان يعرف عن طريق ندزي أنّني اعرف كافة اسرار الوكالة المخبأة في كافة الملفات حول النشاطات غير القانونية داخل البلاد. لقد استشهد كولبي بعدد من المحادثات المسجّلة في حينه بينه وبين لاري سِلبرمَن، نائب المدعي العام، التي اوضحت بشكل ما أنّني كنت احصل على معلومات من مصادر داخلية، معلومات كثيرة. أعرف سِلبرمَن جيدا واحترمه كرجل أمين ملتزم بالقانون، كنت ابلغته بشكل موجز قبل وقت طويل من اعداد مقالة 22 ديسمبر وماذا توصلت إليه. لم يكلف أحد من وكالة المخابرات المركزية نفسه ليخبر وزارة العدل أو البيت الأبيض عن القنبلة الموقوتة المتعلقة بموضوع «مجوهرات الأسرة» أو عن حماسي حول هذا الموضوع. هل اعتقد كولبي حقيقة أنّ معلوماتي مبالغ فيها؟

افصح فورد في الفصول الأخيرة من كتابه عن مكالمة جرت بين كولبي وسلبرمَن في اواخر شهر ديسمبر قبل ايام من نشر مقالتي. كانت المكالمة حول معرفة اتفاقية مسبقة جرى التفاهم عليها منذ حقب عديدة من الزمن وإن كانت ما تزال سارية المفعول. اعطت تلك الإتفاقية للوكالة الحق لتقرر بنفسها إن كان يجب الإبلاغ عن وقوع جريمة. وكما كتب فورد فإنّ سِلبرمَن رفض صيغة الاقتراح قائلا، «ما هذا يا بِل؟ أنت محام وتعرف أحسن من ذلك.» وهكذا ذهبت ادراج الرياح 25 سنة من تغاضي الوكالة عن النشاطات الإجرامية دون قلق. كما أنّ سِلبرمَن اعطى كولبي تحذيرا حادا عن العمق الذي وصلت إليه تلك الممارسات داخل الوكالة. كان لقاء سِلبرمَن مع

كولبي قد تمّ بتاريخ 19 ديسمبر. وبعد يومين ومن خلال تسجيل لمحادثة أخرى بينهما، أخبر سِلبرمَن صاحبه ما لم يخبره به من قبل. كما كتب فورد بإنّ، «هيرش قد اتصل به مقدما قبل اجتماع كولبي مع سِلبرمَن بتاريخ 19 ديسمبر.

- كولبي: إنّني مندهش تماما أنّه عرف أنّني سألتقي بك.

- سِلبرمَن: إبن العاهرة هذا له مصادر لا يمكن مقارنتها بالغير.

- كولبي: إنّه يعرف عن هذا المكان أكثر ممّا اعرف أنا نفسي.

من الطبيعي أنّ كولبي قد بالغ في قوله اعلاه، ولكن بحلول يوم 22 ديسمبر نُشِرت المقالة، التي اقتبست فيها من مجموعات مختلفة من المصادر دون تسمية اصحابها. ذكرت أنّ شخصا ساهم في التحقيق الأولي، الذي قامت به الوكالة حول التجسس الداخلي، قد اشار إلى مسؤولين سابقين وحاليين في الوكالة وضباط مخابرات امريكيين برتب عالية (ليسوا على ملاك الوكالة،) واشخاص لهم معرفة مباشرة بنشاط الوكالة للتجسس الداخلي ومسؤولين داخل الوكالة ذاتها ممّن رفعوا «الأعلام الحمراء» للتحذير. كان بينهم مساعد سابق رفيع المستوى مقرّب من دِك هِلمز في المكتب التنفيذي للوكالة. باستطاعتي الآن أن أسمّيه، وهو بوب كِلي، الذي توفي في سنّ الثمانين في شهر اغسطس من عام 2016 نتيجة اصابته بمرض النسيان Alzheimer. كان كِلي من المع الشباب، الذين عملوا عن كثب مع هِلمز حين كان في عزّ ايامه مديرا للوكالة. تخرّج الفقيد من جامعة نوتِر دَيم وانضمّ إلى الوكالة عام 1963 وعمل متخفيا مع مجموعات الطلبة بتكليف من دِك أوبر، قبل أن يصبح مساعدا شخصيا في مكتب هِلمز. حين استقال غضبا من الوكالة عام 1970، كان حينها مديرا لعمليات التجسس في الوكالة ومساعدا تنفيذيا لمديرها هِلمز. كانت توجد في ذلك الوقت بعض الأسرار، التي لم يعرفها كِلي أو التي لم يستطع معرفتها. انتقل إلى بوسطن وبدأ يعمل مع عمدة المدينة كفِن وايت، واصبح في عام 1975 نائبا للعمدة وانيطت به مسؤولية اعادة تنظيم مؤسسة النقل العام في المدينة، التي كانت تعاني من قصور شديد. استطاع انجاز المهمة بنجاح، وكلِف في مطلع الثمانينات بنفس المهمة لإصلاح مؤسسة النقل العام في نو يورك. استمر بعمله الجيّد هناك حتى عُيّن في الخارج عام 2011 كمفوض للنقل العام في لندن، فحصل على شهرة عالية لتحقيق نتائج باهرة في المدن الثلاث المذكورة.

قدّمني أحد الأصدقاء العاملين في مكتب العمدة وايت إلى بوب عام 1972. قررت أن اتحدث بشكل علني عن علاقتي الطويلة الأمد معه، أوّلا كمراسل وبعد ذلك كصديق موثوق به، بعد أن طلبت منّي زوجته رونا أن أؤبنه في حفل تذكاري عُقد في نادي جامعة نو يورك بعد عدة اشهر من وفاته. لم يكن ولداه الكبيران على معرفة بأيّة معلومات عن الفترة التي قضاها في وكالة المخابرات المركزية، واعتقدت أنّهما على الأقل قد عرفا الأسباب، التي دعته أن يستقيل من الوكالة ولماذا قرّر أن يتعاون معي. في قناعتي انّه لم يناقش اسباب تركه الوكالة مع ولديه، لعله بسبب إيمانه العميق بأمريكا وبالوكالة ذاتها، رغم أنّه لم يكن مؤمنا بحرب فيتنام ودور الوكالة في التجسس

داخل البلاد. ذكرت فيما ذكرت في تأبيني فقلت، «ما كنت بحاجة إلى بوب كِلي ليطلعني على الأسرار، فقد كان يتوفر لدي الكثير منها. لكنّني كنت بحاجة لمن يعطيني سياقا لها context ولما يجري، ليخبرني من هم الأشخاص الجيدون داخل الوكالة وأيّ من برامجها يستحق الإبقاء عليه سريّا.» تناولت وإياه العديد من العشاءات المتأخرة في ليل بوسطن الجميل.

كان هناك آخرون ممّن لهم علاقة طويلة بوكالة المخابرات المركزية، ممّن ساعدوني خلال السنتين اللتين امضيتهما وأنا أعمل على موضوع التجسس. إنّ نوعية مصادري ونزاهتهم هي التي امدتني بالثقة أن أخبر كولبي بتاريخ 20 ديسمبر أنّني سأنشر مقالتي يوم الأحد التالي. لم أكن بدأت حينها في كتابة الكلمة الأولى.

عرف أيب روزنثال أنّني مشغول بإعداد ما أكدته له عن مقالة هامة عن المخابرات، ولكن لم يحدث ذلك حتى التقيتَ وامضيت بعض الوقت مع كولبي بتاريخ 20 ديسمبر. اتصلت بصاحبي أيب من هاتف عام قرب مركز الوكالة واخبرته أنّ المقالة ستكون عن نشاط وكالة المخابرات المركزية للتجسس داخل امريكا، وأنّني حصلت على مزيد من المعلومات من كولبي وسأشرع في كتابتها. وكما توقعت، أمرني أن اذهب إلى المكتب واباشر في المهمة. وعدته بأنّني سأكمل كتابتها قبل مغادرة المكتب ذلك المساء، فأخبرني أنّه سينبه محرري عدد عطلة الأسبوع بأنّهم سيتلقون قصة قوية عن وكالة المخابرات المركزية لتُنشر في عدد يوم الأحد.

تدخّل عامل الحظ في المسألة. لقد رتبت قبل عدة اشهر للقاء في مكتب الوكالة بين كولبي وأيب، بطلب من الأخير نفسه. وبطبيعة الحال رافقته إلى ذلك اللقاء. كان من المستحيل لنا نحن الأثنين ألّا أن ندرك مباشرة الشعور العدواني الذي اظهره مساعد في المكتب وهو يقودنا إلى المصعد المؤدي مباشرة إلى مكتب كولبي. لم يتوقف ذلك الرجل من النظر اليّ بسخط، على عكس كولبي الودود دائما. جلسنا نحن الثلاثة حول طاولة كبيرة. أخبر أيب المدير كولبي، بأنّه يكره الشيوعية وكلّ ما تقوم عليه، ويفتخر بأنّه طُرِد من بلده بولندا في اواخر الخمسينات بسبب تقارير كتبها عن الحزب هناك. ردّ كولبي ببرود وابتسامة عريضة تغطي وجهه فقال، «نحن نعرف ذلك يا سيد روزنثال، نحن نعرف ذلك جيّدا.» استمر أيب في كلامه بأنّه يكره أيضا الفاشية وكافة اشكال القمع التي تصاحبها. أراد أن يعرف لماذا يساعد بلده طغما حاكمة تعذب المعتقلين وتقلع اظافرهم، في فيتنام الجنوبية وكوريا الجنوبية واندونيسيا والفليبين، وغيرها من البلدان، التي سمّاها ولم أعد اتذكرها. أجاب كولبى ببرود بأنّه فى الأساس لا تقوم وكالة المخابرات المركزية باصدار احكام أو تقييم لقادة العالم المتحالفين معنا. تقوم الوكالة بتنفيذ ما يخبرها به الرئيس، فهي لذلك تساعد احيانا رؤساء رائعين من الذين يمثلون قيادات ممتازة، وفي اوقات أخرى تعمل الوكالة مع انظمة تعذب وتقلع الأظافر. انتهى الإجتماع بسرعة وبقي أيب صامتا ونحن نستقل المصعد إلى الطابق الأرضي بصحبة الموظف ذي العينين السوداويتين، الذي ما زال ينظر اليّ بشزر. انفجر أيب غضبا ونحن في سيارتي في طريقنا إلى واشنطن. كان مستاء للغاية لأنّ كولبي لم يميّز بين الحكومات الديمقراطية وتلك التي يرأسها حثالة مستبدّون. لا استطيع أن اتذكر كافة كلماته وهو يغلي غضبا، لكنّني لم أنسَ تعليماته الأخيرة لي، «واظب على الكتابة عن أولاد العاهرات هؤلاء.»

اعجبني كثيرا في تلك اللحظة، لكنّ الأمور بدأت تتأزّم بيني وبينه إثر استقالة نِكسُن في شهر اغسطس من عام 1974. كنت ما زلت اكتب ما اشاء حول الحوادث الحامية في واشنطن، لكنّني الآن في مكتب الصحيفة بين كافة زملائي، باستثناء كِلب. يعرف أيّ مراسل جيّد من يستحق تلك التسمية من بين ممّن يعملون بجدّ وحيادية وعدل، وفي نفس الوقت يتوصلون إلى لبّ الحقائق. تمّ تعيين دَني وولش بعدي بعدة اشهر، وله تاريخ حافل في الكتابة في مجلة لايف. لم يكن سريع الكلام ولا عجولا مثلي. كان ببساطة كاتبا رائعا حذرا دقيقا وله خبرة في تغطية عصابات المخدرات والفساد السياسي. كما أنّه لم يكن انانيّا. لقد عمل أكثر ممّا طلِب منه خلال الأيام الأولى لفضيحة ووترگيت، حين كنت اعرف عنها القليل واصارع لمعرفة المزيد. رتّب لي اتصالا مع صديق قديم له يشغل مركزا عاليا في إدارة نِكسُن. كنت سعيدا لوجود دَني معي كزميل وصديق. اعدّ في صيف عام 1974 مقالة عن الفساد السياسي، امضى اشهر عديدة في البحث والاستقصاء عنها. لكنّ المقالة أوقفت ولم تُنشَر، دون اعطاء أيّ سبب. لم نتمكن من سبر غور رفض النشر. تطوعت لمساعدة دَني كي يبيع المقالة إلى مجلة رئيسية اخرى. اتصلت بمحرر تلك المجلة، الذي اعرفه شخصيا وتمّت الصفقة. وفجأة أعلن ايب بشكل كاذب وبعد علمه بفعل دَني أنّه لم يمنع نشرها بل أجّل ذلك لوقت آخر. وبعد أيام قليلة فُصِل صاحبي من العمل وكتب أيب، الذي عرف بتعاوني مع دَني رسالة طويلة حنونة، قال فيها أنّه لا يعتبرني مسؤولا أو شريكا في ذلك «الحادث المؤسف» ودعاني إلى المجيء إلى نو يورك لنتحدث عن القضة وجها لوجه. وبحكمتي المشهودة رفضت الدعوة لاعتقادي أنّ أيب قد تصرف بطريقة مقيتة كعادته، ولأنّه ليس باستطاعتي فعل شيء لإعادة دَني إلى وظيفته.

القيت بعد عدة اشهر قليلة محاضرة عن البحوث الإستقصائية في مؤتمر عقد تحت رعاية معهد الصحافة الأمريكية، وهي منظمة غير ربحية تهتمّ بقضايا البحوث في الإعلام. تحدثت بأمانة عن الضغوط التي تعرضت لها كمراسل من جانب روزنثال، كما رأيت في حينه لإنقاذ صحيفة نويورك تايمز من نفسها، خاصّة في قضية فشلها لإدراك اهمية فضيحة ووترگيت. سألني احد محرري الصحف الكبرى إن كنت اتفق مع الرأي القائل بضرورة الحصول على مصادر متعددة للمواضيع الهامة. اتذكر أنّني ضحكت وقلت له شيئا فحواه، أنّه وخلال النوبة التي اصيب بها الإعلام جراء ووترگيت فإنّني لو سمعت وأنا في دورة المياه شخصا يذكر شيئا عن الفضيحة، فإنّ ما ذكره سيذهب مباشرة إلى الصحيفة. كنت بطبيعة الحال أمزح في ذلك القول، ولكن في الحقيقة في قولي عامل صدق. حين أبدأ في كتابة مقالة، كان من النادر أن يسألني أحد عن مصادرها، رغم أنّني أجبت عن كلّ سؤال طرحه روزنثال والمحررون الرئيسيون عن مصادري. بعد عدة ايام وإثر عيد الشكر عام 1974، بعث لي روزَنثال رسالة حزينة للغاية قال فيها أنّ أحد الزملاء الحاضرين في المؤتمر قد نقل إليه ما قلته، وأنّهَ مندهش للغاية أن يسمع مراسلا «يذكر علنا شيئا مدمرا عن صحيفته التي يعمل فيها.» كان هدفه من تلك الرسالة أن يسأل «إن كان هذا فعلا ما قلته وما اعتقده.» لقد آذيت مشاعره، وهو لا يستحق ولم اخبره بذلك. كتبت ردّا وسألت بطريقة طفولية إن كان حقا يريد معرفة «ماذا اعتقد.»

دار موضوع الخلاف الأساسي بيننا حول ولع أيب وتعلقه بكلّ ما يتعلق بالتايمز، إذ كان يريد أن اشاركه تلك المحبة وذلك الحماس. لقد اعاد على مسامعي كيف أنّني اغنيت الصحيفة بكتاباتي وأنّه ينظر للمستقبل و«لسنوات من المنافع المتبادلة» بين الإثنين. اعتقدت حينها أنّ الصحيفة قد افادتني كثيرا وشعرت بالفخر أن اكون ضمن العاملين فيها. لكنّه كان يدور كثيرا حديث

فحواه انّها تَعتبر الأولى في تغطية الشؤون الخارجية، وهنا اختلفت في الرأي وشعر أيب بذلك. لم استجب اطلاقا لدعواته الكثيرة لي أن اطير إلى نو يورك لنتحدث عن مستقبلي.

في إحدى المرات شجّعت برت هيوم، الذي ادّى عملا جيدا وهو يساعد جاك اندرسُن في مطلع السبعينات، أن ينتقل للعمل في التايمز. كان هيوم محافظا في افكاره السياسية، واصبح فيما بعد مقدّما متميزا للأخبار في محطة تلفزيون فوكس، ويعرف كيف يحصل على الأخبار. وهذه القدرة، في نظري، تتجاوز الأفكار السياسية للشخص. غير أنّه كان مرتابا من العمل في التايمز. لكنّني مع ذلك عرضت اقتراحي على أيب فوافق على مقابلته. تمّت المقابلة لكنّها لم تسفر عن عرض للعمل. سألت برت فيما بعد عمّا دار في المقابلة، وكان ما زال منزعجا منها. ذكر أنّ أيب اشترط على أنّ من يودّ العمل في التايمز أن يتعلم كيف يحبّها. ردّ برت على ذلك بالقول، «يا سيد روزنِثال أنا لا ابغي...... صحيفتك. إنّني فقط أودّ العمل فيها.» وانتهى الأمر عند ذلك.

كانت قصة هيوم خلفية لما حدث في صباح يوم 21 ديسمبر من عام 1974، وهو يوم سبت حين جرت قصتي المفضلة مع امهر محرر عملت معه. عدت إلى مكتب التايمز بعد أن قابلت كولبي وشرعت في كتابة مقالتي. كان يوجد لديّ فيض من المقابلات والمراجعات مع عدد من الأشخاص خلال سنوات مضت، وكنت أودّ أيضا الاتصال بعدد من الأشخاص للحصول على تعليقاتهم أو لطلب مزيد من المعلومات أو لتدقيق بعض الاقتباسات من الذين ورد ذكرهم في المقالة. اتصلت هاتفيا بالسيد ساندي بَرگر، المساعد الرئيسي للسناتور أدموند مَسكي، الذي كان حينها مرشح الحزب الديمقراطي للرئاسة عام 1976. كان ساندي، الذي أصبح فيما بعد مستشارا للأمن الوطني للرئيس بِل كلِنتُن، سياسيا محترفا يعرف قيمة المقالات القوية، التي تخلق اجواء للحوار الوطني على مستوى البلاد. سألت ساندي إن كان مَسكي يرغب أن يكون رئيسا يتولى اصلاح ما يجري في وكالة المخابرات المركزية. كان ردّ مَسكي «لا».

شرعت في الكتابة حتى المساء، ثمّ اسرعت إلى منزلي لتناول العشاء على عجل وعدت مباشرة إلى المكتب، الذي كان فارغا ممّا وفر لي الهدوء المطلوب لمواصلة كتابة مقالتي. يقول الروائيون أنّهم حين يباشرون الكتابة فإنّهم يجدون الشخصيات الرئيسية تبدأ بتطوير ذواتها وترفع اصواتها وتستحوذ فعلا على عملية الكتابة واسماع القصة للروائي ذاته. انتابني ذلك الشعور وأنا اكتب قصة التجسس الداخلي. لقد وضعت مقدما هيكل المقالة. وبعد كتابة عدة آلاف من الكلمات، كانت القصة تلاحق ذاتها. حان منتصف الليل، ولم يكن في المكتب سواي وواحد أو إثنين من عمال التنظيف. كانت الأضوية والتدفئة مفتوحة كحالها دائما. لم تكن تلك هي المرة الأولى التي بقيت فيها اعمل في المكتب حتى ساعات الصباح الأولى. في الحقيقة إنّني افضل الهدوء. كانت الموضوعات في تلك الأيام تطبع باربع نسخ وترسل الواحدة تلو الأخرى. أمّا في حالتي، فإنّي ابعث نسخة واحدة للمركز في نو يورك. وفي ساعة معينة بعد منتصف الليل اتصل المحرر المسائي إيفان جِنكِنز يسأل ماذا اريده أن يفعل. لقد ارسلت له ما يقرب من 5000 كلمة وما زلت اواصل الكتابة. قال إنّه لا يوجد مجال لنشر المقالة في عدد يوم الأحد إلا إذا اقتصرت على 2000 كلمة فقط. طلبت منه أن يراجع قراره، فأخبرني أن اقصى ما يستطع عمله هو أن يزيد 500 كلمة أخرى فقط، وهذا قراره الأخير. إمّا أن تنشر المقالة بهذا الشكل المقتضب أو انتظر لغاية إعداد الصحيفة ليوم الإثنين.

أصبت بحالة من الجنون! لا اعرف أيب على المستوى الشخصي، ولكن قابلت زوجته لفترة قصيرة وتذكرت أنّ اسمها هو آن. كنت اعرف أيضا أنّه يوجد في مكتب واشنطن دليل بارقام هواتف المحررين المنزلية، فوجدت الرقم الخاص بصاحبي هذا. أخذت نفسا عميقا وكانت الساعة قد جاوزت الثانية والنصف بعد منتصف الليل، فاتصلت بالرقم وبدأ الهاتف يرن ويرن، لكنّني لم اقفل الخط. أخيرا ردّت آن، فاعتذرت لها عن المكالمة في ذلك الوقت وأخبرتها من أنا وذكرت أنّني بحاجة ماسة إلى أن اتحدث مع أيب. ردّت والمرارة واضحة في صوتها أنّني طلبت الرقم لشخص غير موجود في ذلك المنزل. أضافت، «لقد تركني أيب ويجب أن تتصل به في منزل صديقته.» يبدو أنّني وطأت أرض دراما تصلح للتلفزيون. أتذكّر أنّني غمغمت شيئا ثم اقفلت الخط. لكنّني عاودت الإتصال بها وسألتها إن كانت تعرف اسم تلك المحظية. فاجأتني بالقول إنّها زوجة احد المحررين، وذكرت إسمه.

لا اتذكر تماما بمن اتصلت بعد ذلك، غير أنّه خطرت لي فكرة عن كيفية الوصول إلى رقم صديقة أيب، غير المسجل في الدليل. كانت الساعة قد جاوزت الثالثة صباحا حين رنّ التلفون عدة مرات ولم يردّ أحد. اتصلت ثانية فردت صديقة أيب. قلت لها بسرعة أنّه، «لا يهمّني ما يجري، ولكن يجب أن تخبري أيب روزنثال أنّ ساي هيرش يحتاج أن يتكلم معه بشكل عاجل.» لم اسمع ردّا لكنّها لم تقفل الخط. تابعت، «قولي له ذلك، من فضلك.» وبعد دقيقة جاء أيب وتحدث غاضبا جدا لكنّني لم آبه لذلك، فقاطعته بالقول إنّ الفوضى ضاربة اطنابها في جريدته، إذ اخبروني أنّه لا يوجد مجال كاف لنشر مقالتي حول تجسس وكالة المخابرات المركزية في عدد يوم الأحد.

- «كم من المجال تحتاج؟»

- «على الأقل 7 أو 8 اعمدة لتستوعب 7 آلاف كلمة أو اكثر بقليل.»

- «ما هو رقم تلفونك؟»

- «أيّ تلفون؟»

- «يا مغفل، رقم التلفون في المكتب، الذي تستعمله الآن.»

اعطيته رقم التلفون واقفلت الخط. وبعد لحظات اتصل ليقول:

- اريدك أن تعرف أنّ نويورك تايمز ستصدر غدا بورقة اضافية في كافة اعدادها البالغة 1.6 مليون نسخة. في جانب من تلك الورقة إعلانات وفي الجانب الآخر ستُنشَر مقالتك السخيفة.»

شكرته على ما ذكر، فعاد يقول محذرا.

- «أقول لك الآن بأن لا تخبر أحدا. اعني لا أحد على الإطلاق عمّا حدث هذه الليلة. هل تفهم؟»

قال ذلك واقفل الخط، ولم نفتح الموضوع ثانية. وبطبيعة الحال، اخبرت عددا من زملائي في التايمز حول تعليق أيب عن مكالمتي الجنونية في الساعة الثالثة صباحا، لكنّني اغفلت التفصيلات الأخرى.

لم افهم لحدّ الآن السبب لماذا رفض أد مَسكي أن يتدخل في قضية تجسس الوكالة داخل البلاد، لأنّ زملائه الديمقراطيين في مجلس الشيوخ قد اهتموا بالأمر. بدأت اسمع من بعض الأعضاء الليبراليين منهم خلال الأيام، التي تلت نشر مقالتي بتاريخ 22 ديسمبر وكان جليا أن فتح تحقيق رئيسي من قبل مجلس الشيوخ بات ضرورة لا بُدّ منها. لكنّ الموضوع بالنسبة لهم هو كيف يتم التأكّد أنّ التحقيق سوف لن يكون برئاسة السناتور المحافظ جون ستِنِس، باعتباره رئيسا للجنة المخابرات الفرعية المنبثقة عن لجنة الخدمات العسكرية التابعة لمجلس الشيوخ. ما كان بوسعي أن أشير علنا أنّ ستِنِس هو افضل خيار لأنّ أولئك الأعضاء لا يعرفون شيئا عن محادثاتي العديدة معه، والتي خلقت لديّ قناعة بأنّه ملتزم دائما باتخاذ الخطوات الصحيحة. في مطلع شهر يناير دُعيت لدى عودة الكونگرس من عطلته بمناسبة اعياد الميلاد والسنة الجديدة للقاء قصير مع عدد قليل من الأعضاء لمناقشة ما ورد في مقالتي، وما اعرفه من المعلومات الأخرى، التي لم تتضمنها المقالة. تحدثت قبلها حول مواضيع أخرى مع 5 أو 6 منهم، ومن بينهم هارولد هيوز من ولاية أيوا ووليم بروكسماير من ولاية وسكنسن. لم تكن اكثر من محاولات عابرة للإطلاع على الأسرار الداخلية. ناقشت المقالة مع كلِفتِن دانيل وبوب فِلِبس، اللذين اعتمدت عليهما في المكتب ولقيت منهما التشجيع للمضي في نشر المقالة. لم أكن اعلم شيئا عن محاولات وكالة المخابرات المركزية لاغتيال القادة الأجانب، وهذا جانب لم يُكشف النقاب عنه ضمن قائمة «مجوهرات الأسرة،» لكنّني علمت أنّ الوكالة قد سمحت باتخاذ ما يلزم لإجراء «أمر تنفيذي». وهذه هي العبارة التي تستعملها وكالة المخابرات المركزية في مذكراتها الداخلية، التي تعني تصفية أيّ عميل «يخون» الوكالة.

ذهبت في صباح أحد أيام الأحد لحضور اجتماع في شقة في مبنى ووتر گيت تعود للسناتور ألن كرانستُن، عضو مجلس الشيوخ عن ولاية كاليفورنيا وتحدثنا بشكل غير قابل للنشر off the record، كما افترضت، مع مجموعة من حوالي 8 اعضاء. سألوني أين سيقود تحقيق مفتوح، فاخبرتهم أنّه قد يؤدي إلى اغتيال محتمل لشخص/ اشخاص داخل الولايات المتحدة، لأنّ بعض مصادري من داخل الوكالة. أخبرتهم أيضا أنّ تقاريري نقل عن تلك العناصر واتصالاتي بهم ما تزال جارية. في صباح اليوم التالي وفي قاعة مجلس الشيوخ حثّ السناتور كرانستُن اعضاء المجلس الآخرين للتصويت على تحقيق شامل وادّعى مبتهجا أنّ ذلك قد يؤدي إلى قيام الوكالة باغتيال واحد أو اكثر من عناصرها. كان تعليقه هذا مبعث صدمة وغضب من جانبي. لقد تعلمت الدرس وادركت أنّ تعاونا على هذه الشاكلة ليس في تركيب جيناتي الوراثية/ طبيعتي. لم اجتمع بعدها بشكل خاص مع أيّة مجموعة من اعضاء مجلس الشيوخ، وقررت ألّا اكون شاهدا في قضية يحقق الكونگرس فيها.

لم اتوقف عن متابعة موضوع تجسس الوكالة داخل البلاد بعد نشر مقالتي لعدة اشهر، غير أنّني بدأت اشعر بمقدار من عدم الارتياح. لم تكن مقالاتي اكثر من محاولات لخدمة مصالحي الذاتية ودعم مقالتي الأساسية. لكنّ السبق الصحفي مهمّ. كنت أول من نشر عن فصل أنگلتُن، والذي تبعه

استقالة إثنين من مساعديه في قسم مكافحة التجسس في وكالة المخابرات المركزية[31]. كما كنت حصلت على تسريبات من داخل البيت الأبيض خلال إدارة فورد، فعلمت أنّ كولبي قد اعترف في مذكرة بعثها للرئيس بمناسبة السنة الجديدة أنّ الوكالة قد فتحت ملفات للآلاف من الأمريكيين، لكنّه أصرّ أنّ برنامج التجسس لم يكن «واسعا» كما نشرت. طرحت عددا من الأسئلة كردّ على ما أثاره كولبي، في مقالة نشرتها مجلة تايمز الأسبوعية، قلت فيها أنّه ما دام يوجد برنامج للتجسس الداخلي بعلم عدد من اعضاء الكونغرس والحكومة يشير إلى أنّ الوكالة قد ارتكبت عملا إجراميا، فلماذا تطلب الأمر مقالة في الصحيفة لكي يؤدي إلى فصل جَيمس أنگلتُن، والى اصدار توجيهات من البيت الأبيض لوقف تلك المخالفات، وعقد جلسة أو جلستين للإدلاء بالشهادة عن تلك الفضيحة؟

نهشني البعض من زملائي السابقين فيما يخص «بنغمة» الأمن الوطني، وهم الذين لم يُظهروا أيّ اعتراض حين كنت انشر باستمرار مقالاتي المناهضة للرئيس نِكسُن قبل عدة سنوات قليلة. لم أفاجأ حين ارتفع صوت واشنطن پوست، الخصم المنافس للتايمز، وهي تعترض بطريقة معوجّة بأنّ «اغلب نشاطات الوكالة يمكن تصنيفها بأنّها «تجسس داخلي»» وليس من الواضح أنّ تلك النشاطات قد مورست باعتبارها «مخالفة» لقانون تأسيس الوكالة ذاته، أم أنّها «غير قانونية.» صديقي لاري ستَرن، الذي غطّى موضوع المخابرات في اليوست، كتب يقول بأنّ الوكالة لم تحتفظ بملفات عن المنشقين أو الأمريكيين المشبوه بهم، وأنّ من قام بذلك هو مكتب التحقيقات الفدرالي. فتحت مجلة تايمز ملفا عنّي اختارت له عنوان «الجاسوس الخارق». قالت فيه إنّ معظم كتاباتي عن ماي لاي ونشاطات كِسِنجر للتنصت على الهواتف ومراقبتها، والغارات الجوية السرية على كمبوديا وغيرها، تبدو كوثائق تاريخية وخرائط تهتدي بها الأجيال القادمة. لكنّ الأمر لا ينطبق على كشف نشاطات تجسس وكالة المخابرات المركزية على المواطنين داخل البلاد. «هناك احتمال كبير بأنّ هيرش قد بالغ بقدر كبير في قصته عن الوكالة، وأنّ صحيفة التايمز قد ساهمت في تلك المبالغة لنشرها بشكل متكرّر.» حصلت على عدة جوائز عن قصة التجسس، ولكنّ جائزة پولِتزر لم تكن من ضمنها. شرح لي أحد حكام الجائزة أنّ بِن برادلي، عضو لجنة التحكيم، قد عارض بحماس منحي تلك الجائزة مدّعيا أنّ قصة التجسس ودور الوكالة فيها «كانت بشكل ما نُشِرت تكرارا وبولغ فيها، ولم يكن مستواها من الناحية الصحفية عاليا.»

بصراحة، لم أكن محبوبا لدى الجميع، حتى بين اقرب اصدقائي. فمثلا صديقتي الذكية گلوريا إمِرسُن، عبّرت باسلوبها الذي لا يُضاهى بالقول، «إنّ ساي لا يعرف الرّقة،» ذلك لأنّني شكوت منتقدا إحدى قصصها لدى لقائنا في باريس عام 1972. «إنّه لا يعطيك المجال لكي تحبه، لنترك الموضوع، رجاء.» ومن سخرية القدر أنّه تمّ «إنقاذي» بسبب أمانة بِل كولبي، الذي اعترف علنا أنّ وكالته قد ارتكبت فعلا المخالفات، التي كتبت عنها، لحدّ أنّها احتفظت بملفات تعود إلى ما يزيد عن 100 ألف مواطن امريكي.

قرّرت زوجتي، إلزابث، التي امضت حياتها حتى تلك اللحظة تشغل وظيفة عاملة اجتماعية في عيادة للطب النفسي، أن تصبح محللة نفسية. اقنعها الآخرون، وبينهم أرك أركسُن، المحلل النفسي المشهور بأن تلتحق بكلية الطبّ كخطوة أولى. وبعد سنة أو سنتين لدراسة المقررات المطلوبة لدخول كلية الطب، قُبِلت في الكلية المذكورة التابعة لجامعة نويورك. وهكذا بدأت اسرة

هيرش تخطط للإنتقال إلى مدينة نو يورك في فصل الخريف التالي. امضيت اشهري الأخيرة في مكتب التايمز في واشنطن وأنا أثير المشاكل حول عدة موضوعات تتعلق بوكالة المخابرات المركزية والقوة البحرية، ونجحت في خلق اعداء جُدد لي، بينهم رِچَرد چَيني، نائب دونلد رامسفيلد، كبير موظفي البيت الأبيض في إدارة فورد. إنّ قوة ذكاء چَيني ووجهات نظره المحافظة جدّا جعلته حتى في مطلع عام 1975، ذا نفوذ بالغ في البيت الأبيض.

الفصل السادس عشر

الانتقال إلى نو يورك

ترتبت على نشر قصتي عن التجسس، رغم اهميتها، نتائج غير متوقعة وايضا مؤسفة، فقد وضعت دِك چَيني في عالم الأمن الوطني. علمت ذلك فيما بعد خلال كتاب غنيّ بالمعلومات عن سيرته صدر عام 2007، حين كان نائبا للرئيس بُش الإبن وأعدّه ستيفن هَيز، محرر مجلة ويكلي ستاندرد. ذكر هَيز أنّ النائب في البيت الأبيض لم يعمل من قبل في مجال المخابرات. وكما يُشير چَيني إلى تلك الفترة فإنّ، «مقالة (هيرش) كانت لها تأثيرات بالغة على المدى الطويل حول مستقبل المخابرات المركزية الأمريكية والعلاقة بين السلطتين التنفيذية والتشريعية في البلاد.» كان هدف چَيني أصلا هو حماية وكالة المخابرات من الكونگرس، ومن بعدها التفرّغ لي.

لم تكن لديّ حينها فكرة عمّن يكون چَيني هذا أو أنّني كنت على قائمة أولوياته، فلدي مشاكلي الخاصة. ونظرا لأنّ القليل من هيئات الإعلام في واشنطن كان لديها اهتمام بإضافة شيء لما ورد في مقالتي عن التجسس الداخلي، فلم آخذ أسرتي لقضاء اجازة استراحة في نو يورك. بدلا من ذلك وخلال الشهر التالي، كتبت مقالة إثر مقالة، وهدفي غير المعلن طبعا، هو التأكيد على أنّ ألن كرانستُن وزملاؤه في مجلس الشيوخ سيتفقون على تأسيس لجنة خاصة للنظر في تجاوزات CIA. شعرت أنّني «امتلك» هذه القصة مثلما كشفت قبلها مذبحة ماي لاي، وتقبلت الضغوط والمسؤولية في منح مزيد من التوضيحات عن تلك القصة، رغم وقوعها تحت هجمات زملائي في المهنة.

في وسط كلّ ذلك شعرت بأنّي خُدِعتُ من قبل أكبر محرري التايمز. بتاريخ 14 يناير من عام 1975 دُعيَ أيب روزنثال وكلِفتِن دانيل وسكوتي رِستُن وآخرون بينهم توم وِكر لتناول الغداء مع الرئيس فورد في البيتَ الأبيض. لم أكن ضمن المدعوين ولم اعرف بأمر دعوة الغداء هذه. لم يكن واضحا مسبقا إن كان ما سيدور في ذلك الاجتماع/الغداء قابلا للنشر أم لا. كان فورد يستهدف إيقاف تحقيق لجنة مجلس الشيوخ، التي أعلِن أنّ نائب الرئيس نِلسُن روكفلِر سيتولى رئاستها، وفي عهدته مسؤولية أخرى أيضا هي اصدار تقرير عن الاتهامات الموجهة للوكالة. سيطر المحافظون عل تلك اللجنة. إطلعت بعد سنوات على مذكرة بعثها روزِنثال إلى الرئيس، أوضح فيها باعتباره

محررا مسؤولا عن نشر مقالاتي، وقال فيها إنّه «يجب أن أسال الرئيس لماذا اختار لجنة ملغومة بشكل واضح إلى هذا الحدّ؟» أجاب فورد أنّه احتاج أن يعين أولئك الأعضاء ليكون واثقا أنّ الأسرار ستبقى خفيّة. سأله روزنثال، «مثل ماذا؟» أجاب الرئيس، «مثل الاغتيالات،» واضاف يقول، «إنّ هذا موضوع غير قابلٍ للنشر.»

بقي الأمر على تلك الحال، رغم أنّ وِكر كان مقتنعا بعد تناول الغداء، وكما كتب في مذكراته عام 1978 بعنوان (على عاتق الصحافة،) «إنّ الأمر لا يُطاق لأنّ الحكومة تفرض رقابة على عدم فضح الأعمال الإجرامية التي لا يمكن الدفاع عنها، مثل الإغتيالات السياسية. وأنا لا أرى سببا يجعل نو يورك تايمز تحمي فورد من القضايا التي كشف هو عنها. إذا كان من حقّ المواطنين أن يعرفوا، فالأحرى بهم أن يعرفوا جرائم القتل، التي ارتكِبت باسمهم.» ذكّر روزنثال والآخرين، «أنّ الأمر لن يبقى بالتأكيد خفيّا. لماذا لا تعطون المعلومات إلى هيرش، ولا تخبروه عن مصدرها... دعوه يتولى الأمر بنفسه؟» لقد طلب فورد أنّه يجب عدم نشر تعليقاته، لكنّه فعل ذلك بعد أن كشف تلك المعلومات. بقي سؤال وِكر، «هل لنا حقّ أن نحتفظ بهذا السّرّ لأنفسنا» معلقا.

أشارك توم في مخاوفه عن اخلاقية المهنة، ولكن أضيف إلى ذلك وجود حجّة عملية. لو كان روزنثال وزملاؤه قد جاءوا اليّ لمناقشة الأمر لقلت لهم، إنّ فورد قد احاط نفسه بموظفين مساعدين مثل دِك هِلمز وبِل كولبي وهنري كِسِنجر، وهؤلاء هم ممّن امضوا حياتهم المهنية وهم يكرّرون الأكاذيب ويخفون الأسرار عمّن هو اعلى منهم في السلطة. لو كان اتيح لي المجال لمتابعة قصة الاغتيالات، لكانت الاحتمالات عالية بين رجال المخابرات وغيرهم من المواطنين، الذين ساعدوني في كشف فضيحة التجسس السري، بأنّهم سيستمرون في الحديث معي ليخبروني عن تلك العمليات، التي حُجبت عن الرؤساء وعن وزارة العدل. وعلى المدى البعيد، لكانت تقارير هذه العمليات قد ساعدت جيرالد فورد للكشف عن الحقيقة في وقت مبكّر ومنع البيت الأبيض من حماية وكالة المخابرات المركزية، كما حدث في قضية التجسس.

من جهة أخرى، كان من الممكن أنّ فورد قد عرف ماذا كان يفعل حين تحدّث عن الاغتيالات. أظهرت وثائق المحادثات الجارية في البيت الأبيض، التي رُفعت عنها السرية بعد عدة عقود، أنّ الرئيس ومساعديه الكبار كانوا مهوسين بالعواقب السياسية نتيجة نشر مقالتي، وعرفوا أنّ إدارة كندي كانت ضالعة للغاية في محاولات اغتيال كاسترو. وعلى أيّة حال، فإنّ ملاحقة الإدارة المذكورة لها اضرار جانبية. في اجتماع عُقد بتاريخ 4 يناير عام 1975، أخبر كِسِنجر الرئيس فورد، «إنّ ما حدث أسوأ ممّا جرى خلال ايام مكارثي. ستنتهي بوكالة مخابرات مركزية تقوم بإرسال تقارير فقط ولا تنفذ أيّة عمليات... ذكر هِلمز أنّ تلك العمليات هي فقط قمة جبل الجليد الطافي، وإذا ظهرت للعلن، فإنّ الدماء ستسيل. فمثلا، ادار روبرت كندي بشكل شخصي احدى عمليات اغتيال كاسترو.» وفي هذه النقطة بالذات، فإنّ الوثائق التي تمّ رفع السريّة عنها قد اشارت فقط إلى أنّ كِسِنجر «وصف بعض القصص الأخرى.» إنّه دائم الحذر حول صورة شخصيته العامة، كما ذكر للرئيس فورد. «إنّ الأمور التي تخصّ چلي، والتي لم تُنشَر في أيّ تقرير عام، فإنّ كشفها سيخلق نوعا من الإبتزاز الموجّه ضدّي... وقد يقوَد هذا إلى خلق وضع صعب، وأنت تحتاج أن يكون حولك رجال يعرفون ماهيّة الرئاسة والمصالح الوطنية. إنّ ما فعله كولبي (قصد الحديث معي) عار.»

كان الموقف الخاص للبيت الأبيض حول الشفافية محط سخرية، كما فهمه وِكر. لكنّه انطلى على كبار محرري التايمز، الذين التزموا بأن تبقى تصريحات الرئيس فورد حول الاغتيالات طي الكتمان ولم تُنشَر. بالمناسبة، اختتم وِكر مذكراته بطلب رفع الرقابة الذاتية وعدم الإلتزام بها.

اتصل روزنثال بي بعد يوم أو يومين من تناول الغداء مع الرئيس، طلب مني الاستمرار بمتابعة ما يجري داخل البلاد، لكنّه اقترح أن أفكّر اكثر حين أتناول «قضايا المخابرات الأجنبية.» لم تكن لديّ فكرة عمّا دار في خلده ليخبرني ذلك. مرّت دقيقة من الصمت بيننا، ثم عاد وقال، «حسنا، هذا لا يهمّ،» ثمّ اقفل الخط. لم يكن أيب، الذي عهدته، ولكن لكلّ شخص في مرتبة اعلى لحظة خاصّة به. بعد أيام قليلة، سحب وِكر كرسيا نحو طاولتي وجلس ليخبرني بما دار خلال الإجتماع/الغداء في البيت الأبيض وكيف جاء فورد على قضية الاغتيالات، وما دار بين المحررين الكبار المدعوين للغداء من حديث واتفاقهم على عدم ذكر الموضوع بحضوري. اجريت عددا من الاتصالات الهاتفية فعلمت للمرة الأولى أنّ فيدل كاسترو كان على قائمة المستهدفين، التي اعدّتها وكالة المخابرات المركزية. لكنّني لم استطع نشر ذلك واتجاوز القرار الذي اتخذه أيب والآخرون حول الالتزام بطلب فورد والمحافظة على سريّة الأمر.

جعلني ذلك أفكّر في مسألة الحب بلا مقابل. الجماعة الذين يديرون صحيفتي والذين غمروني لسنوات بالمديح والعلاوات المادية، هم اكثر اخلاصا لرئيس عيّن لجنة تحقيق تتصف بالجبن، من اخلاصهم لزميل انقذ سمعتهم المهنية من اوحال فضيحة ووترگيت وتخاذلهم وتأخرهم في تغطيتها. بالتأكيد، يمكن للمرء أن ينظر بعين العطف للورطة، التي اوقع أيب وزملاؤه انفسهم فيها، لكنّني صرت في حالة غليان، لا يمكن وصفها بغير ذلك، لأنّهم فرضوا عليّ رقابة. ليس امامي أيّ مجال أن استمر في كتابة قصة الاتهامات الهامة هذه في التايمز. لكنّ ذلك يتطلب منّي أن اعلن الأمر على رؤوس الأشهاد. ولذلك فعلت ما فعل توم وِكر. لقد سرّب لي الأخبار وسأسربها أنا بدوري إلى جار وصديق للعائلة هو دانيل شور، الذي كان يعمل في محطة تلفزيون CBS. إخبرت دانيل عن قضية الغداء مع فورد، التي حجبوا عنّي معرفة ما دار خلالها والجهود الخاصة للتخلص من كاسترو. اعرف أنّ دانيل له مصادره وأنّ المحطة المذكورة مكان مناسب لفضح الأخبار عن مساهمات وكالة المخابرات المركزية في عمليات الاغتيالات السياسية. لم يتوانَ دانيل لحظة عن إذاعة اخبار القصة فحقق فيها نجاحا باهرا.

عيّنت التايمز أخيرا نِكَلَس هوروك، وهو صحفي قدير كان يعمل في مجلة نيوزويك، ليتولى متابعة تغطية وكالة المخابرات المركزية. شعرت أنّ ايامي في غرفة الأخبار قد شارفت على نهايتها. لقد ولى نِكسُن وتغيّرت حركة البندول إلى ما كانت عليه حول مسألة الأمن القومي واختيار الرئيس لها كحجّة ليقطع الطريق على حقّ المواطنين لمعرفة ما يجري، واقنع المحررين والناشرين بذلك العذر الواهي.

امضيت اشهري الأخيرة في واشنطن للتمتع بعطلي التي استحققتها للسنوات الماضية، والتحقت بزوجتي وابنائي لاختيار المدارس المناسبة لهم، وايضا العثور على بيت للسكن في نو يورك. كما امضيت وقتا في لقاءات وداع مع مصادري في اجهزة المخابرات، الذين امدوني

بالمعلومات لكتابة مقالاتي. حاولت في فصلي الشتاء والربيع التاليين أن اكمل الثلاثية التي اخبرت ماكس فرنكِل عنها، والتي تدور حول چلي وتجسس وكالة المخابرات الأمريكية ومحاولات انتشال الغواصة الروسية الغارقة من قاع المحيط. في خريف عام 1973 إتصل بي كولبي، الذي كان حينها مديرا لوكالة المخابرات المركزية، يسأل إن كان من الممكن أن نلتقي. وطبعا كان من الممكن ان نلتقي، فحضر إلى مكتب التايمز. طلب منّي مباشرة أن أكفّ عن متابعة أمر الغواصة الروسية الغارقة. طلبت من بوب فِلِپس أن ينضم إلى اجتماعنا فوافق دون تردد، وليشهد مستوى واطئا من الإبتزاز. اعتقد كولبي دائما أنّني اعرف اكثر ممّا ابوح به. وعدته أن افعل ذلك، لكنّني اريد بالمقابل شيئا عن ووترگيت ووكالة المخابرات المركزية. لم يتردد كولبي، فاخبرني أنّ لوسِن ندزي، عضو لجنة المخابرات التابعة للكونگرس قد حصل قبل عام على معلومات هامة عن ووترگيت لم يعرها أحد اهتماما. إعتقدت أنّني حصلت على رأس الخيط لقصة جيدة.

لو مضينا قدما لشهر فبراير من عام 1975، لوجدنا أنّ صحيفة لوس انجلس تايمز قد كشفت عن وجود برنامج في وكالة المخابرات المركزية لانتشال غواصة وعن حقيقة كنت اجهلها في حينها. إنّ الوكالة قد تعاقدت مع شركة يمتلكها الرجل الغامض هَورد هيوز لبناء سفينة إنقاذ بكلفة عدة ملايين من الدولارات، اعتُقِد أنّها ستكون قادرة على انتشال الغواصة الغارقة وجلبها إلى سطح المحيط. كانت فضيحة ووترگيت قد انتهت وكنت نسيت قصة الغواصة. كنت اعيد النظر في خططي لمقالات المستقبل. لم اعد مهتما بتغطية فضيحة التجسس وشعرت بالغبطة أنّني امارس نشاطي ثانية. توفرت لديّ معلومات تغطي صفحة كاملة من الجريدة. كان يوجد الكثير من المعلومات التي لم تتطرق إليها صحيفة لوس انجلس تايمز، ومنها ما يتعلق بانتشال جثامين البحارة الروس الغرقى. كما علمت أنّ كولبي قد قام بجولة لزيارة مكاتب محرري الصحف في واشنطن حثهم فيها على عدم نشر ما يتعلق بعملية الإنتشال، فنجح في ذلك. تفاخر أمام المحررين والمراسلين أنّني والتايمز قد وافقنا على طلبه، دون أن يذكر، ولم يكن لديه دافع للإفصاح، عن المقايضة التي اتفقنا عليها. كما علمت، ويا لشدة خوفي، أنّ كولبي قد اقنع روزنثال أن نتخلى عن القصة تماما، فوافق الأخير دون أن يستشيرني. من المؤكّد أنّ أيب عرف بمتابعتي للموضوع. لماذا ذهب كولبي لمقابلة أيب؟ كتبت مذكّرة إلى كلِفتِن دانيل عبّرت فيها عن انزعاجي وطلبت منه ايصالها إلى روزِنثال لنقل شكواي وليخبره أنّني على علم بالخيانة المهنية، التي تتعلق بأمر الاغتيالات قبل شهر. كانت شكواي مريرة في تلك المذكرة، التي قدمتها بتاريخ 4 مارس من عام 1975 «خشية ألّا ابدو شجاعا فيما يتعلق بفضح الأسرار، الحقيقة هي أنّني اعرف تقريبا كافة عمليات الاستطلاع/ التجسس الجارية.. وكنت على تلك الشاكلة لسنوات. ولم اتحدّث عنها،» إلّا مع المحررين، الذين اعمل معهم، بطبيعة الحال. «ولكن حين يبدو احد البرامج مدعاة للمخاطرة والكلفة العالية الأكثر من اللازم، يصبح الأمر قابلا للنشر، وليس من المعقول عدم اطلاع الشعب الأمريكي عليه.» كنت اصوليا في تلك النظرة وذلك التبرير.

توقفت عن متابعة الموضوع بعد أن فهمت إذعان أيب لمطلب كولبي، وتجاهلت إصرار كلِفتِن بتشذيب ما اعددت بشأن قصة الغواصة لتكون جاهزة للنشر، إذا تقرر عدم الإلتزام بذلك الإذعان. كرر كلِفتِن اقتراحه ذلك فأخبرته أنّه لا مجال لذلك، «إذا كانت التايمز تحبّ أن تقبل شروط وكالة المخابرات المركزية، فذلك شأنهم، وليس شأني. لكنّ دانيل لم يطرق له جفن، فاتصل بزوجتي في البيت ذلك المساء واخبرها أنّني اتصرف كالأطفال، والمتوقع منها أن تواجهني وتخبرني أن

اتصرف كشخص ناضج! قامت بذلك فامتثلت للأمر، وبعد يوم أو يومين أكملت مقالة مطولة عن الغواصة وقدمتها فقاموا بمراجعتها وإعدادها للنشر.

بعد عدة اسابيع كسر جاك اندرسُن المقاطعة في احد برامجه المسائية وكشف عن تفصيلات كثيرة بصدد انتشال الغواصة. كما أنّه أشار في ذات الوقت إلى نجاح كولبي في اقناع عدد من محرري الصحف والناشرين بأن يتكتموا على تلك القصة. اتصل جاك بي قبل أن يظهر على الهواء مباشرة ليتأكّد إن كانت معلوماتي دقيقة كما طرق سمعه، وأنّ لديّ قصة اكثر تفصيلا جاهزة للنشر لكنّها اوقفت بسبب «الرقابة.» قلت له «نعم،» لأنّني كنت أحبّ جاك. كما أنّني كنت تواقا لقدرته في الحصول على الوثائق الهامة. إنّه ولِس كِلِب افضل من يستطيع اختراق البيروقراطية الفدرالية للحصول على المعلومات. اجريت معه اتصالات عديدة وطويلة خلال فترة اجراء بحوثي لإعداد كتابي عن هنري كِسِنجر. علمت فيما بعد من مصدر موثوق أنّه كان يزود المكتبة أولا بأول بوثائق البيت الأبيض المضللة.

أخبرت دانيل شور أنّ أندرسُن عازم ذلك المساء أن يفضح قضية الغواصة. كان برنامجه يبدأ في الساعة 9 مساء، وكما متوقع فهو وقت متأخر لتكون مادته جاهزة للنشر في صحف صباح اليوم التالي. إنتهك أندرسن المراقبة الصحفية المفروضة على المسألة، فطلِب مني أن اعيد النظر في مقالتي لتشمل ما ذكره اندرسُن. وهذا هو التعديل الثاني على المقالة التي ستنشر بعد ساعات. اظهرت سلوكا مشاكسا، حين اتصلت بصاحبي روزنثال وشكوت له أنّ جاك اندرسُن ليس اقوى موقفا من التايمز. لقد اخبروني أنّ قصتي بعد التعديل الثاني ستنشر في خمسة اعمدة وعنوان بثلاثة سطور في الصفحة الأولى من الجريدة. سألته إن كان اعتبار بِل كولبي القضية مسألة أمن وطني، أمرا سليما؟ إنّ عدد التايمز لشهر اغسطس قد أخِذ على محمل الجدّ من قبل موسكو، أكثر من كلام جاك اندرسُن، «أليس كذلك؟» ثمّ اضفت «لماذا ننشر المقالة؟» تجاهل أيب كافة اسئلتي وتأففي واجاب ببساطة أن «اصمت، واتابع إعداد الموضوع.»

لم يفدني إشفاقي على ذاتي في شيء، برأي دَيفد هلبرستام، الذي كانت تقاريره الذكية إلى التايمز من فيتنام في مطلع الستينات قد غيّرت مفاهيم العديد من الأمريكيين. لقد استطاع أن يخمّن بطريقة ما مشكلة أو مشكلتين بخصوص علاقتي بالتايمز. بدأ يكتب لي رسائل عن الوضع الكريه داخل الصحيفة وطلب منّي عدم الإفصاح عمّا ذكر لأيّ أحد باستثناء كِلِب فقط. أكثرها امتاعا ما كتبه عام 1974 حين قال، «تخبرني غريزتي أنّ الوقت ربّما صعب بالنسبة لك، وأنّ المحررين الجبناء الذين يقررون مصيرك.... يسببون لك ازعاجا شديدا. لكنّني آمل أن تتذكّر دائما اهمية ما تقوم به. أنت يا صديقي ذخر للوطن، وأنّني ارجو لك الخير.» ترك دَيفد التايمز بشكل مفاجئ عام 1969 ولأسباب غير واضحة ليبدأ حياته المهنية ككاتب سير ذاتية ومؤرخ.

استردت التايمز مكانتها عندي بعد عدة اشهر حين نشرت لي مقالة ملأى بالأسرار، التي كانت بلا شك مبعث ازعاج لوكالة المخابرات المركزية، خاصة وهي تأتي وسط جلسات لجنة مجلس الشيوخ للنظر في قضية التجسس. ذكرت في مقالتي أنّ البحرية الأمريكية كانت تنفذ عمليات تجسس داخل المياه الإقليمية للاتحاد السوفياتي طيلة 15 عاما على الأقل. كانت مهمتها المبدئية أن تتنصت على خطوط الاتصالات (الكيبلات) تحت سطح البحر ومراقبة تحركات غواصات

الأسطول السوفياتي. اتضح بعد سنوات أنّ جمع المخابرات كان يمكن أن يتحقق بطرق اسهل بواسطة عمليات الاعتراض الإلكترونية، وأنّ اساليب الوكالة المذكورة ومعها القوة البحرية فيها مجازفة باعتبارها مهام غير مصرح بها، واعتبرها العديد من المعنيين بالغة الخطورة لا يمكن تبرير استمرارها. أخبرني أحد وكلاء مكتب التحقيقات الفدرالي قبل مغادرتي لواشنطن ذلك الصيف أن التزم جانب الحذر و«أن اراقب خطواتي.» لقد استشاطت إدارة فورد وموظفو مكتبه في البيت الأبيض غضبا لنشري تلك المقالة، وأنّهم نووا ملاحقتي قضائيا. لم اعطِ ذلك التحذير أيّ انتباه، لأنّني اعتقدت حينها، أنّني اعرف الكثير عن برنامج التجسس هذا وكيف بدأ والإخفاقات التي مُنيّ بها وتمت التغطية عليها. فإذا تجرأوا على ملاحقتي قضائيا، فإنّ المزيد من القذارة سيطفو إلى السطح ويخرج للعلن.

وهنا يأتي دور چَيني. حاول الرجل جهده بعد نشر مقالتي أن يُنزل بي العقاب، ليس بسبب تجاوزاتي، حسب رأيه، ولكن أيضا ليمنع فضح تقارير عن مخالفات محتملة أمام لجنة المخابرات في مجلس الشيوخ، التي ترأسها فرانك چرچل، وهو ديمقراطي ليبرالي من ولاية أداهو. تمّ في عام 2000 الكشف عن العديد من مذكرات چَيني وملاحظاته، التي بقيت طي الكتمان واظهرت أنّه منذ تاريخ 29 مايو وبعد 4 أيام على نشر مقالتي، كان في طليعة الذين ارادوا تكميم فمي. اقترحت احدى مذكراته اتخاذ 5 خطوات للحصول على تفويض لتفتيش بيتي ووضع اليد على كافة مقالاتي وتأليف لجنة محلفين كبرى بغية توجيه اتهام مباشر لي وملاحقتي قضائيا. في النهاية قررت إدارة فورد ألّا تفعل شيئا من ذلك القبيل، لكنّني خلقت لنفسي عدوا مدى الحياة[32]. خلال المناسبات القليلة التي تقاطعت فيها سبلنا عبر العقود التالية، واحدها تلك التي قدّمني فيها دونلد رامسفيلد له فتجاهلني ورفض مصافحتي واشاح ببصره عنّي.

لا شك أنّ أيب قد ابدى بعض الشجاعة للموافقة على نشر مقالتي عن الغواصة ونشر مقالة أخرى في شهر يوليو، اعتقد انّها كانت آخر ما كتبته وانا في مكتب التايمز في واشنطن. إنّ تقريري عن نشاط البحرية للتجسس على تحركات الغواصات كان كافيا في حالة وقوع تصادم عرضي أو مشاكل من هذا القبيل، لكي تزوّر القيادة البحرية أو تحرّف سجلاتها الرسمية بقصد تحاشي وصول الأخبار إلى مكاتب السلطات العليا. إنّ هذه القصة، كغيرها من القصص، التي كتبتها وأنا اعمل في واشنطن طيلة 4 سنوات لم تحظ إلّا بقليل من انتباه زملائي.

كنت مستعدّا في نهاية شهر اغسطس أن اترك واشنطن متوجّها إلى نو يورك، التي كانت حينها تعاني من أزمة مالية حادّة. لقد استمتعت بكتابة تقاريري عن عالم القوات العسكرية والمخابرات، وأنا اتطلع الآن إلى دوري وكيف سيكون عليه للخوض في عالم وول ستريت واسواق المال.

الشيء الذي كان مثار قلقي هو القرب المباشر من المحررين، بما فيهم أيب. لقد جئت وأنا احمل معي صورة «الذئب المتوحد» lone wolf. خصّصوا لي مكتبا شخصيا، وهذا شيء نادر، لفصلي عن المراسلين الآخرين في الصحيفة. لكنّني لم أكن راغبا بهذا الدلع وهذه الطريقة الخاصة. كنت أودّ أن اكون ضمن الفريق المتابع لمسألة عجز المدينة عن جمع الضرائب الكافية لتمشية

الأمور، حين كانت بحاجة إلى مساعدة كبيرة من الحكومة المركزية لتغطية عجزها المالي. ماذا حصل بالضبط ولماذا لم يُكتب عن الموضوع؟ كان كتاب روبرت كارو الساحر عن حياة روبرت موزس قد نُشِر قبل عام، واقتنعت بوجود مواضيع عن المدينة يمكن تغطيتها. كما تذكرت أنّ هاريسُن سولزبَري قد عاد إلى نو يورك في الخمسينات بعد حصوله على جائزة پوليتزر عن تغطيته لروسيا، وتقرر حينها أن يُكلف بالكتابة عن اوضاع مصلحة تصريف المجاري في المدينة. كتب ثلاث مقالات حصلت على جوائز مهنية لأنّه تعمّق في تلك المقالات لمعرفة عجز المدينة عن المحافظة على شوارع نظيفة، رغم صرف ملايين الدولارات لجمع النفايات أكثر من أيّة مدينة أخرى في امريكا. هنالك قضايا عديدة في المدينة تستحق المتابعة الإعلامية.

شعرت منذ اليوم الأول لعملي في مكتب التايمز أنّ مهمتي ستكون متميزة. كانت هناك قضايا عائلية، وكان من المفترض أن التحق بعملي بعد عطلة عيد العمال عام 1975، غير أنّ معلمي المدارس كانوا في حالة اضراب عن العمل. كنا بحاجة أن نجد أحدا يهتم بطفلينا حين نذهب للعمل، لأنّ زوجتي كانت تخلفت لمدة اسبوع عن الإلتحاق بصفوفها في جامعة نو يورك، لكنّنا لم نوفق، فلم يكن أمامي حلّ سوى أن اصطحب الطفلين معي إلى مكتب الجريدة. كانا فرحين للغاية لأنّنا استقللنا قطار الأنفاق لأوّل مرّة في حياتهما. وصلنا نحن الثلاثة إلى قاعة المدخل الرئيسي في تمام الساعة التاسعة، وتصادف ذلك مع وصول أيب، الذين سألني عن الطفلين. شرحت له الموقف وأنّهما لن يكونا عائقا امامي لأنظم مكتبي خلال يوم أو يومين. قال «لا بأس،» وهو يحيي الصغيرين بانحناءة بسيطة. وبعد ساعات قليلة كنت خلالها اصنّف الملفات في مكتبي القريب من قاعة الرياضة في الدور الثالث من المبنى، كانت ابنتي البالغة من العمر 5 سنوات تشغل نفسها بالرسم في إحدى زوايا المكتب. أمّا ابني البالغ من العمر 7 سنوات فكان يركل كرة مع اثنين من محرري قسم الرياضة، ممّن شعرا في قلبيهما أنّهما في سن السابعة ايضا! سمعت ضجّة في باب المكتب فنظرت فإذا هو أيب وقد غابت عن وجهه الابتسامة. سأل، «سيمور، ماذا تعتقد أن يكون حصل قبل ألفي عام لو طلبت زوجة موسى منه أن يبقى في البيت ويرعى الأطفال؟ هل تعتقد أنّ البحر ما كان سينشقّ؟» نظرت إليه وفهمت أنّه كان جادّا. أتذكّر أنّني قلت، «لا ادري، يا أيب!» انصرف بعد أن سمع ما قلت. بالتأكيد، أنّ الرجل لا يستطيع اخفاء مشاعره. وجدنا بعد أيام امرأة تهتم بالطفلين وعدت للمكتب، فكتبت له ملاحظة في نهاية الأسبوع، لم اتطرق فيها إلى ذكر انشقاق البحر، وإن كان ذلك ممكنا أم لا.

حاولت جهدي خلال الأسابيع الأولى وأنا في نو يورك أن اجعل أيب يلحقني بفريق صحفي لمتابعة ازمة المدينة المالية ورفض إدارة فورد التدخل لإنقاذها من الورطة. الشخص الذي أصرّ أن استغل قدر الإمكان على استعمال مهاراتي للتعويض عن فشل التايمز لكشف فضيحة ووترگيت، ليس لديه اهتمام أن يحوّل تلك المهارات لمتابعة الأزمة المالية للمدينة. لقد نظر اليّ باعتباري رجل المهمات فيما يتعلق بالأمن الوطني. وعليه أخبِرت أنّ بإمكاني أن اطير إلى واشنطن متى احببت لمتابعة أيّ موضوع بذلك الشأن.

تجهّمت لسماع ذلك الإقتراح. ما زال لديّ اسابيع من الإجازات المستحقة، ولذلك بدأت امارس لعبة التنس كثيرا مع زملائي الجديد، الذين لهم نفس الهواية. ضمّت المجموعة جِيمس

گودَيل، المستشار العام للصحيفة والذي لعب دورا هاما في نشر أوراق البِنتگون. كان رياضيا ممتازا، لم يتردد في اخذ فترة غداء طويلة بعد اللعب. سافرت عددا من المرات إلى واشنطن وكتبت عدة مقالات حول الحماقات الجارية في تحقيق لجنة مجلس الشيوخ للنظر في قضايا تجاوزات وكالة المخابرات المركزية، أو لمقابلة ضابط سابق في الوكالة كتب كتابا عن حياته فيها. كانت مقابلات عابرة ليست بذات اهمية، إلى أن التقيت بالمحامي الذكي آدم وَلنسكي، الذي عمل مع بوبي كندي، حين كان عضوا في مجلس الشيوخ ومن ثم مدعيا عاما. لقد عرفني قليلا خلال أيام عملي في حملة مكارثي لانتخابات الرئاسة عام 1968. عمل وَلنسكي في ميدان مكافحة الجرائم المنظمة، حاله حال كندي، وشجّعني أن اكتب مقالة عن محام في لوس انجلس اسمه سِدني كورشاك، صوّره لي بانّه لاعب رئيسي في ميدان الجرائم المنظمة /العصابات. له علاقات عديدة مع العديد من القادة الفاسدين في نقابات العمال، خاصة نقابة سائقي الشاحنات، قبل وقت بعيد من تولي جَيمي هوفا لتلك المهمة. نشأ كورشاك في الجانب الغربي من مدينة شيكاگو. كان خارجا على القانون لكنّه وسّع نفوذه وسيطرته بعد أن دخل كلية القانون. عمل وسيطا ولكن لم يتمّ توجيه الإتهام له، رغم أنّ العديد من لجان المحلفين الكبرى قد ناقشت موضوعه. أخبرني وَلنسكي أنّني إذا تابعت موضوعه فمن الأفضل الإستعانة بشخص اسمه جَف گِرث، طالب دراسات عليا في جامعة كولومبيا لكنّه لم يكمل دراسته هناك. كان أفضل من كتب لمختلف وسائل الإعلام عن العصابات والمنظمات الإجرامية.

كانت إدارة التايمز بالغة السعادة أن يتحرك هيرش أخيرا ليكتب عن موضوع مثير. لذلك سمحوا لي أن افعل ما اشاء، واذا احتجت لمساعدة من شخص، فلا بأس في ذلك. ذهبت ابحث عن گِرث فوجدته يعزف على البيانو في منتصف عصر أحد الأيام في بركلي في كاليفورنيا. ادركت منذ الدقائق الأولى أنّ وَلنسكي كان على صواب. گِرث اصغر سنا ممّا تصورت وليس له ارتباطات ومستعد للسفر وبالغ الثقة في نفسه فيما يتعلق بالمعلومات الحقيقية عن عصابات الجريمة المنظمة. عرضت عليه العمل معي فوافق. إشتركنا في ميزة واحدة هي التوصل إلى الحقائق بسرعة وبطريقة مباشرة. استطعنا خلال الأسابيع الأولى من معرفة وجود ملف سري للغاية عن كورشاك في مكتب التحقيقات الفدرالية. أظهر هذا الملف كيف تحوّل صاحبنا هذا من محام صغير في شيكاگو ووسيط، إلى شخص له علاقات ولعدة عقود من الزمن مع شخصيات معروفة مثل لِو واسِرمَن، الوكيل الكبير للأعمال السينمائية في هوليوود، وزعيم الحزب الديمقراطي في الولاية. كان باستطاعة كورشاك أن يوقف اضرابا لسائقي الشاحنات العاملين في نشاطات هوليوود بمكالمة هاتفية واحدة. ولديه القوة لإنقاذ سمعة فرانك سيناترا المهنية واعطائه دورا رئيسيا في فلم (من هنا والى الأبد). كان في عام 1976 شخصا لا يمكن التعرض له. نُقِل عن صحفي التايمز الراحل جِمي برسلين قوله إنّ عصابات الجريمة المنظمة يقودها 9 ايطاليين ويهودي واحد.

يشير ملف مكتب التحقيقات الفدرالية إلى أنّ كورشاك قد ارتكب خلال حياته المهنية خطأ واحدا، فقد غدر باحد رجال الأعمال في شيكاگو بالشهادة ضده في قضية شكوى طلاق. يمتلك الرجل المذكور عدة مخازن في مدينة نو يورك، المدينة التي تمتاز بوجود نقابات عمال قوية، والذي استعان بصاحبنا هذا في الأربعينات ليقدم الرشاوى لنقابة سائقي الشاحنات. حصل قادة النقابة على المال وانخفضت كلفة نقل البضائع، ولم يحصل اعضاء النقابة الآخرين إلّا على الفتات.

أخذ رجل الأعمال المذكور يتعاون مع مكتب التحقيقات الفدرالية، لكنّه لم يقدم نفسه للشهادة أمام المحاكم عن نشاطات المتعاونين معه. اراد ضمانا مقابل تعاونه لتأمين طريقة آمن لفعل ذلك. إنّ خيانة قائد في عصابات الجريمة المنظمة ليس بالأمر الهين، لكنّني وجَف عملنا ما في وسعنا أن نغطي على هوية مخبِرنا، فقادنا إلى أشخاص آخرين مسّهم اذى كورشاك ورغبوا في التحدث عن ذلك الموضوع.

لم اعرف حتى تلك الساعة عن مدى تغلغل عصابات الجريمة المنظمة في المجتمع الأمريكي، حتى حلول تلك الأمسية من ربيع عام 1976 حين تلقيت مكالمة هاتفية من جون فان دي كامپ، المدعي العام لمنطقة لوس أنجلس، الذي كان يحاول مساعدتنا في قضية اعداد تقريرنا. كانت زوجتي تدرس الطب وكنت في البيت أعد وجبة همبرگر لطفلين غاضبين ارادا وجبة افضل. كانت رسالة فان دي كامپ موجزة، «اذهب إلى اقرب تلفون عمومي واتصل بي في الحال. الأمر خطير.» اعطاني رقم هاتفه الخاص. لا ادري ماذا قلت لطفلي ولكن يبدو أنّني شددت عليهما للبقاء داخل البيت دون حركة حتى اعود اليهما. كان يوجد تلفون عمومي في احد حوانيت البقالة في المنطقة. اتصلت بصاحبي جون من هناك. اخبرني أنّه علم من بعض المقربين من كورشاك أنّهم حصلوا على معلومات عن سفري وتنقلاتي وسجلا بارقام الهواتف التي اتصل بها من مكتب التايمز. وهذا يعني أنّ مصادري ومصادر جَف السرية قد تمّ كشفها وأنّنا جميعا في خطر. كنت استعمل بطاقة ائتمان من التايمز لدفع نفقاتي للسفر والتنقل والإتصالات الهاتفية. كانت القائمة الشهرية للبطاقة، والتي دفعتها الصحيفة تحتوي على كافة المعلومات المذكورة. وهذا يعني أنّه لو كان فان دي كامپ على صواب، فإنّ أيّ شخص تكلم معي أو مع جَف أصبح عرضة للإنتقام من تلك العصابات.

قمنا بتحذير كافة أولئك الذين شعرنا بضرورة اخبارهم لاتخاذ ما يلزم لحماية انفسهم. اكتشفنا أنّ احد العاملين في مكتب حسابات التايمز، وهو المسؤول عن استلام قوائم الصرف ومراجعتها وتسديدها، من شيكاگو وله ارتباطات سريّة بتلك العصابات فتقرر فصله ولكن ليس بشكل سريع، كما تمّ إشعاري. كما وجدوا طريقة أخرى لتغطية نفقاتي بدون استعمال بطاقة الائتمان تلك.

في الوقت الذي كنا فيه ننتقل من مكان لآخر داخل الولايات المتحدة لتقفي مصادر مقالتنا، كان محامو كورشاك في لوس انجلس يبعثون سلسلة من رسائل التهديد إلى أيب روزنثال ورفضوا طلبنا المتكرر لمقابلة « الرجل الكبير.» بدا أنّ روزنثال وبقية المحررين قد اخذوا جانبنا طيلة الوقت، رغم علمي أنّ الأشهر الستة، التي امضيناها أنا وجَف في متابعة بحثنا الإستقصائي لغرض اعداد المقالة، كانت مكلفة ماديا. خلال رحلتنا الأخيرة إلى لوس انجلس قبل نشر مقالتنا المكونة من اربعة اقسام، طرأت لي فكرة أن اجري اتصالا هاتفيا باستعمال رقم كورشاك المتوفر لدينا في مكتب التايمز. ردّ شخص على المكالمة فقدمت نفسي وطلبت أن اتحدث مع السيد كورشاك. مرّت لحظة صمت، ثم عاد المتحدث ليقول بصوت ناعم، «يا سيد هيرش، لقد شوّهت سمعتي في مختلف وسائل الإعلام في طول البلاد وعرضها.» ثمّ أضاف، «أنت شخص متخصص في الكتابة عن المذابح والخنادق الملأى بالدماء.» تحدّث لبضعة دقائق أخرى عن الدم والقتل والتعذيب والذبح، ولم

يفتني طبعا ما كان يقصد بذلك الكلام. لقد هدّدني دون أن يُفصح عن ذلك. هزّني كلامه وعجبت لجرأته.

تمّت مراجعة مقالتنا مرة تلو أخرى بسبب ما يمكن أن تثيره من القضايا القانونية. لم يوجه إليه اتهام من قبل، كما أنّ معاوني المحررين كانوا متحمسين للغاية لكي يظهروا أمام أيب أنّ سلسلة هيرش تضرب على وتر حسّاس. كانت تلك مشكلة لم اواجهها حين كنت في واشنطن، وأنّ اعادة صياغة مقاطع بأكملها قد دفعني في عصر أحد الأيام، وأنا في ذروة امتعاضي، أن ارمي آلتي الكاتبة عبر شباك مكتبي، والذهاب إلى البيت مبكرا. عدت في اليوم التالي لأجد أنّه تمّ تنظيف المكتب من قطع الزجاج كما جرى استبدال الشباك، ولم يقل لي أحد كلمة عمّا حدث. لم أرم بآلتي الكاتبة بعد ذلك أبدا، لكنّني كتبت مذكرة إلى أيب كي ابلغه شكواي وامتعاضي من اعادة كتابة مقالتي لمرات. استلمت رداً منه خلال أقل من ساعة، وجعلني اضحك ممّا ورد فيه.

فيما يتعلق بكتابة المذكرات، لربّما يهمّك أن تعلم في هذه اللحظة أنّ جزءا كبيرا من العمل في نو يورك تايمز متوقف الآن، لأنّ نائب مدير التحرير ومساعدة مدير التحرير والمحرر الوطني في الصحيفة، كانوا خلال هذا اليوم مشغولين، كما كانوا خلال الأيام الماضية، لجعل سلسلة مقالاتك قابلة للنشر. يبدو لي أنّني لوكنت مراسلا يحتاج عمله كلّ هذا الإنتباه لشعرت بالحرج وعبّرت عن مزيد من الإمتنان. غير أنّ أولئك الأشخاص، يتميّزون عنيّ وعنك، بكونهم مؤدبين ومتحضّرين.

وهكذا فاقني أيب واضحكني قوله، «يتميزون عنّي وعنك.»

اصبحت المقالة اخيرا جاهزة للنشر في يوم الأحد في مطلع شهر يونيو. وفجأة ودون سابق انذار أعلنت نقابة سائقي سيارات الشحن والنقل اضرابا مشكوكا في عصر اليوم الذي سبق النشر، فلم تصل نصف مليون نسخة من الجريدة إلى خارج نو يورك لعدة ايام. يبدو أنّ شخصا ما داخل التايمز ما زال على اتصال بتلك «الجماعة» وعرف بموعد النشر فاعلِن الإضراب. من سخرية القدر، أنّ ذلك العدد لم يحتوي على الجزء الأول من المقالة عن كورشاك، فقد سُحِب في اللحظة الأخيرة ليلقي مكتب أيب والمحامون عليه نظرة اخرى. نُشِر المقال بعد اسبوعين فبدأت المشاكل مع نقابة السواق.

شعرت أنّ أيب وكبار المسؤولين في الإدارة لم يعتقدوا أنّ تلك السلسلة من المقالة استحقت المال والوقت اللذين صرفا عليها، بما فيه وقتي ووقت المحررين الذين قاموا بالمراجعات المتكررة. لقد قمت أنا وگِرِث بواجبنا وغطينا كافة حالات الفساد السياسي والمالي ضمن الأجزاء الأربعة من مقالتنا، علما بأنّنا لم نسمع كلمة طيبة منذ بدأنا العمل في اعداد تحقيقنا الصحفي هذا. سمعت المديح الأول في يوم الاثنين التالي لنشر المقالة على لسان احد المحررين الكبار، الذي لم يسهم في المراجعة. دعاني للحضور إلى مكتبه وابلغني بمزيد من الحماس واللباقة أنّ «اللاعبين الكبار» في الشركات الإحتكارية ممّن يلتقي بهم عادة للعب التنس يوم الأحد في جنوب ولاية كنَتِكَت كانوا سعداء وأثنوا على المقالة، التي استهدفت إسقاط كورشاك. كان احد هؤلاء هو المدير التنفيذي لشركة كبرى تضمّ استديوهات هوليوود. كانوا يعدّون لإنتاج فلم فحدث نزاع مع نقابة العمال ادى إلى توقف الإنتاج. طلِب من الرئيس التنفيذي ابداء الرأي والمساعدة، فقام باجراء عدد من المكالمات

وفهم أنّ من يقدر على حل المعضلة هو كورشاك، الذي كان حينها موجودا في أحد النوادي الريفية خارج لوس انجلس. أخبر كورشاك بالموقف، فأخذ الأخير المعلومات من المدير التنفيذي ووعد بأنّه سينظر في الأمر. بعد ساعات قليلة اتصل جماعته من هوليوود ليعبروا له عن شكرهم لحلّ المعضلة. لقد قام بتحقيق معجزة خلال وقت قصير جدا، إذ الغت النقابة اضرابها وبدأ العمل بانتاج الفلم. اتصل المدير التنفيذي بكورشاك، الذي تحاشى السؤال عن الأجور المطلوبة. قال إنّ القضية بسيطة، واضاف أنّه لربّما يحتاج مساعدة من ذلك المدير في المستقبل ليردّ له الجميل. انتهى الأمر عند ذلك. غير أنّ كورشاك اتصل بذلك المدير التنفيذي بعد عام تقريبا ليخبره أنّه في نو يورك وبوده أن يزوره في مكتبه. وصل إلى المكتب برفقة ممثلة شقراء وهي تتأبط ذراعه. سأله المدير التنفيذي عمّا يحبّ أن يفعل له ردّا للجميل؟ قال كورشاك أنّه يحبّ أن يكون عضوا في مجلس ادارة الشركة. كان ذلك المدير التنفيذي يعرف بطبيعة الحال من هو كورشاك ومن يمثل، كما يعرف استحالة ضمّه لمجلس الإدارة. اصيب بالرعب، وفي النهاية بعث شيكا بمبلغ 50 الف أو 100 الف دولار، حسب قول المحرر، الذي لم يتذكرّ المبلغ جيدا، إلى الفندق الذي اقام فيه كورشاك. وكانت تلك نهاية القصة. لا شكّ أنّها قصة مهمة. سألت عن اسم ذلك المدير التنفيذي إلا أنّ المحرر لم يعطني إياه. أخبرته أنّ زميله في لعبة التنس قد خالف مجموعة من القوانين حول مكافحة الإبتزاز والقوانين المناهضة لرشوة النقابات، ويجب كشف ذلك. إنّ امتناعه عن ذكر الأسماء هو الذي مكّن متسكّعا من قبيل كورشاك أن يستمرّ في ابتزاز رجال الأعمال والناس الأبرياء. الفساد يعني الفساد ويجب كشفه وعدم التستر عليه. كانت لحظات حرجة ازدادت تعقيدا حين واصلت حديثي بالإصرار على طلبي، وهو الأمر الذي جعل المحرر أن يأمرني غاضبا بمغادرة مكتبه.

لقد غمرتني شخصيا سعادة بالغة لإعداد مقالتي عن كورشاك ونشرها. لقد كانت عن «امريكي قبيح» عرفه القليل ورغب عدد أقلّ لعمل شيء ما بشأنه. ما كنت اتابع ضابط مخابرات رفيع المستوى، بل شخصا مدفونا بعمق داخل الدوائر الرسمية في واشنطن، ولا يتوقف عند نشر موضوع ينتقده، بل يسعى لإيجاد طرق أخرى لممارسة نشاطاته. في الحقيقة، كان هدفي أبعد من كورشاك، صانع الصفقات لدى الشركات الإحتكارية، التي ساعدته ووفرت له الحماية. كنت آمل أنّ المقالة بأجزائها الأربعة ستحرج العاملين في مجال الإعلام في لوس انجلس، الذين لم يجرؤا على قول الحقيقة. الصحفيون، الذين تابعوا نشاطات عصابات الجرائم المنظمة عرفوا ما حققناه أنا وگِرِث. كتب سدني زايون، الصحفي من نو يورك والذي له معرفة بأنّ الوضع غير طبيعي، مقالة عام 1996 لصحيفة نو يورك دَيلي نيوز صوّر فيها كورشاك بأنّه شخص لا يمكن المساس به وسمّاه «رجل الغموض.» افاد زايون أنّ أحد منتسبي مكتب التحقيقات الفدرالية قد حذره مرّة من التعرض لكورشاك، «قام قبلك بوبي كندي ووزارة العدل والصحف ومجلس الشيوخ بمحاولات، فلم تثمر جهودهم شيئا. إنّ سدني كورشاك لديه مناعة، فلا تضيّع وقتك.» وصفني ومعي جَف بأنّنا «أول صحفيين قاما بملاحقته.» قال ذلك خلال حفلة في منزل لِو واسرمَن في لوس انجلس جرت في يوم نشر الجزء الأول من مقالة كورشاك.

لقد كشفت المقالة وجه كورشاك الملطخ بالدماء باعتباره لاعبا سريا في العالم الخفيّ، وكذلك لدوره المعروف في العروض السينمائية والفنية وفي حركة نقابات العمال ودوره السياسي والمالي.... تلقيت مكالمة من شخص كان... الحفلة وذكر، «لا احد يريد أن يتكلم عن قصة التايمز حول سدني لكنّ الحاضرين كانوا يتبادلون الهمس. وحين دخل سدني الباب فجأة، عمّ صمت مطبق

على المكان لحدّ أنّ باستطاعتك سماع صوت سقوط إبرة على الأرض. تقدم لِو واسرمَن نحو سدني وفتح ذراعيه واحتضنه بحرارة. تنفس عندها الحاضرون الصُعداء، واستمرت الحفلة.»

لربّما تناهى إلى سِمع المحررين الآخرين في الصحيفة أنّ كلفة ستة اشهر من العمل بلغت آلاف الدولارات، وأنّ ما كُتِب في اعمدة الرأي قد اصاب الحقيقة، حسب اعتقادي. اختتمت الجزء الرابع من المسلسلة بالقول، «إنّ المهمة الأساسية للصحافة في رأيي هي أن تطرح الأدلة حول جديّة التهديد للمصلحة العامة أمام المواطنين. وحين تظهر تلك الأدلة مشاكل مزمنة وضعف رئيسي وقصور في المؤسسات، فالمطلوب هو التغيير. إنّ المقالة عن كورشاك قد فعلت كلّ ذلك.»

غالبا ما نتحدث في الصحف عن المواضيع التي تثير وتكشف المزيد من المعلومات، حتى وإن تأخّر ذلك لبضعة اشهر. لقد حدث ذلك مرتين فيما يتعلق بمقالتي عن كورشاك. لم استطع أنا ولا جّف ولا مكتب التحقيقات الفدرالية أن نربط بينه وبين إحدى جرائم القتل حينها، رغم معرفة أنّه لو أشّر بابهامه نحو الأسفل، فإنّ ذلك يعني موت شخص ما. حاولنا أن نقنع إبنة أخيه أن تخبرنا شيئا عنه، بعد أن ساءت علاقتها بافراد العائلة وابتعدت عنهم. قدمت لنا القهوة، واكتفت بالقول إنّها لا تستطيع الحديث عن العم سدني، لأنّها تخاف على حياتها.

تلقيت بعد عدة اشهر على نشر المقالة مكالمة وأنا في منزلي من الفتاة المذكورة، واخبرتني قصة اعطت الإجابة الكافية عن كلّ الأسئلة في ذهني. حدثت القصة في خريف عام 1960 لأحد السياسيين المحليين، الذي كانٍ ذا توجّه إصلاحي. كنت قد كتبت عن اغتياله في المجلة الأسبوعية، التي عملت فيها في شيكاگو. قُتِل ذلك الشخص بطريقة العصابات. اخبرتني الفتاة أنّها تودّ اعطائي صورة عن نفاق عمّها وقساوته، بشرط أن اعدها بعدم النشر في حينها، وقد فعلت ذلك. جرت الحادثة قبل 25 عاما حين كانت في سنّ 12 عاما في مطلع فصل الخريف وخلال موسم اعياد رأس السنة اليهودية الجديدة في الطريق لحفلة جرت في بيت قريب لكورشاك في الضواحي الشمالية للمدينة. حضرت إلى الحفلة بسيارة كاديلاك كان العم سدني يقودها وهم متوجهين إلى بيت كبير العائلة، الذي عرفته بكونه شخصا خطرا. كانت تجلس في المقعد الخلفي مع ولدي سدني، اللذين كانا في عمرها. كان الأطفال يمرحون ورددوا اغنية عن «تعليق الزنجي من اصبع رجله». أوقف سدني السيارة في الحال والتفت صوبها وصفعها بقوة على خدّها قائلا، «لا نريدهم أن يتحدثوا عنّا بهذه الطريقة ولا نريد أن نتحدث عنهم بمثلها!» تقول البنت إنّها خافت وبكت بشكل هستيري. بعد الوصول إلى البيت، جلب احدهم جهاز التلفون للعم سدني، قائلا له إنّها مكالمة عاجلة. إستمع كورشاك لدقيقة وردّ «حسنا أنّكم انهيتم هذا الغوييم (واحد من الأغيار)!» إستمرت الحفلة، وطلعت صحف اليوم التالي وهي تحمل تقارير عن تصفية سياسي اصلاحي في جنوب غرب شيكاگو علي يد افراد عصابة مجهولين. أحببت أن اقتنع، وفي الحقيقة لدي قناعة، أنّ المغدور هو من كتبت عنه في حينها.

ورد اسم كورشاك بعد سنتين خلال وجبة غداء مع احد جامعي التبرعات للحزب الديمقراطي. عرف أنّني كتبت عن كورشاك، فاخبرني القصة التالية. لم تكن الأمور جارية حسب المطلوب في الانتخابات الأولية بالنسبة لأحد المرشحين، الذين كان يعمل معه. كانت هناك حاجة ماسة للتمويل بشكل سريع ومباشر. قيل له أن يتصل لذلك الغرض بشخص اسمه لِو واسرمَن في

لوس اجلس، الذي اعتقِد أنّ سيوفر التبرعات المطلوبة. لم يسمع جامع التبرعات هذا بشخص اسمه واسِرمَن، لكنّه اتصل به. اقترح عليه الأخير أن يتصل بشخص اسمه كورشاك واعطاه رقم هاتفه. كان حينها في لاس فَيگَس، واتفقا أن يلتقيا في اليوم التالي. اقترح جامع التبرعات الساعة 11:00 صباحا، فاجابه كورشاك متعجبا أن لا أحد في فَيگَس يلتقي في تلك الساعة المبكرة. وصل سدني عصر اليوم التالي في الساعة 4:00 إلى الفندق المقرر بصحبة عدد من الرجال الأوغاد thugs. سأل كورشاك، «أنت الشخص القادم من واشنطن؟» لم ينتظر جوابه فأشار إلى اثنين من مرافقيه «أن يهتما بالشخص القادم من واشنطن، لأنّه سيكون مشغولا مع بعض الأشخاص الآخرين.» اخذه الرجلان اللذان بدا كأنّهما من افراد عصابة إلى كازينو ملأى بالرواد ودفعا جانبا الأشخاص الموجودين حول احدى طاولات القمار. جلس الرجلان ومعهما جامع التبرعات والمرأة المسؤولة عن الطاولة. سألا صاحبنا القادم من واشنطن، «هل تعرف هذه اللعبة؟» أجاب، «لا»، فقالا، «لا يهمّ إفعل ما نطلبه منك.» طلبا من المرأة وضع ما يعادل 10 آلاف دولارا من الرّقاق chips على الطاولة، وقالا لصاحبنا أن يرمي الزهر على الطاولة roll the dice فتلقى منهما التهنئة بالربح. وفعل ذلك وفعلا لعدة مرات حتى تجمعت قطع الرقاق بشكل كثير امامه على الطاولة. قالا عندها لصاحبنا، «خذ قطعك هذه وصرّفها لدى أمين الصندوق في الكازينو!» فعل ذلك وعاد إلى واشنطن محمّلا بالمال الكافي لتغطية نفقات الحملة الإنتخابية لعدد من الأسابيع. كان ذلك درسا رائعا للديمقراطية حين توضع موضع التطبيق!.

جعلتني مقالتي عن كورشاك اكثر اهتماما بمتابعة التداخلات بين الجريمة المنظمة والسياسة والشركات الكبرى في هذا البلد، ومعهم طبقة العمال ونقاباتهم في فترة السبعينات. اصبحت شديد الولع لمعرفة المزيد عن هذه العلاقات المتداخلة. من الفرق الهامشية في عالم كورشاك، كانت شركة چالز بلودورن، الرئيس التنفيذي لها، وهي المسماة گَلف أند وسترن G&W. وهي واحدة من كبريات التكتلات الأمريكية، التي تضمّ دار نشر سايمُن أند شوستر وشركة افلام بَرامونت وشركة مادِسُن سكّوير گاردِن ومالكي فريق الهوكي في نو يورك ومالكي فريق كرة السلة ايضا. شركة G&W معروفة بكون نشاطاتها على حافة الأعمال، وفي مطلع عام 1977 خضعت لما يقرب من 14 عملية تحقيق من قبل لجنة الأوراق المالية والبورصات SEC. كان رئيس قسم فرض التعليمات في اللجنة المذكورة هو ستانلي سپوركن، وهو شخصية فدرالية كورزماتية لا تخشى نفوذ اللاعبين الكبار. كان في يده ورقة رابحة، فقد أدين أحد المرتبطين الرئيسيين بالرئيس التنفيذي بلودورن بالإختلاس، فأخذ يتعاون مع لجنة SEC بدلا من قضاء فترة العقوبة خلف القضبان.

كنت امضيت لحد الآن سنتين وأنا اسكن في نو يورك، وشملت اقامتي لعب مباريات في التنس من حين لآخر مع روبرت مورگِنثاو، المدعي العام في المدينة وعدد من مساعديه. كانوا جميعا يعرفون من هو اقذر اقطاب الجريمة في المدينة، وكان مكتب مورگِنثاو يجري تحقيقا حول ممارسات شركة G&W التي ازعجت سپوركن بشكل بالغ. إنّ التنافس بين لجان التحقيق امر نافع

بالنسبة للصحفيين، أضف إلى ذلك أنّ بعض العاملين في عالم النشر، باستثناء صحيفة وول ستريت جُرنال، قد تحاملوا على بلودورن، فقد كانت شركته هدفا واضحا. لقد ذهب مِل بروكس إلى حدّ أن اطلق عليها «شركة الحرق والإلتهام» في فيلمه الذي عنونه «الفلم الصامت.» وهو عباره عن كوميديا تهريجية بدأ عرضه عام 1976. كنت خلال ذلك اضغط داخل التايمز للحصول على ترخيص كي نقوم أنا وگِرث باعداد تقرير استقصائي عن الشركة المذكورة، خاصة بعدما علمت أنّ آرثر سُلزبَرگر، ناشر التايمز، داخل في علاقات صداقة مع بلودورن، من ضمنها مراجعة فلم ستعرضه شركة پرامونت في دار سينما يمتلكها بلودورن نفسه. تطلب الأمر منّي ومن گِرث عدة اشهر من البحث قبل أن يصبح بمقدورنا «مواجهة» المحررين الكبار بحقائق معينة حول مخالفات بلودورن المالية، حتى حصلنا على الموافقة وانطلقنا لنقابل الموظفين الكبار السابقين والحاليين من العاملين في شركة G&W. لقد دخلنا فترة جحيم استمرت 4 أشهر.

تدفق سيل من الرسائل إلى أيب روزِنثال وپَنچ وآخرين في الصحيفة مبعثها بلودورن ومارتن دَيفِز،نائب رئيس الشركة. اتهماني فيها بأنّني احاول تشويه سمعتهما وباستعمالي اساليب رجال العصابات في ذلك. وهذا اتهام عشته لمدة تقرب من 20 عاما، مردّه أنّ نجاحي كمراسل يقوم اصلا على التسلط والبلطجة للضغط على مصادر معلوماتي. سمّوني «المراسل الانتحاري» kamikaze، الذي ارعب الجنرالات ووزراء الحكومة وهددهم بالكشف عن اخطر اسرارهم. غالبا ما تساءلت لماذا صدّق زملائي في المهنة أنّني استطعت حثّ الجنرالات الذين خبروا المعارك والوزراء رفيعي المستوى لإطلاعي على الأسرار، بمجرد أنّي صرخت فيهم. نُقِل عني في احدى المرّات أنّني قلت بأنّي اسحق أمي في سبيل الحصول على قصة معينة! كان مثل هذا الكلام هراء وجب عليّ تحمله. وعليه لم يكن مفاجئا لي أنّ مسؤولي شركة G&W، وهم اسياد القدح والذمّ قد استغلوا الفرصة ليصوروني أنّني ارهابي بلباس صحفي. لقد عزّزت رسائلهم المذكورة تلك الفكرة. ومثال على ذلك رسالة دَيفِز إلى إدارة التايمز بتاريخ 6 مايو 1977.

نحن لسنا شركة تكتب لكي توقف نشر موضوع ليس في صالحنا... نحن فقط نريد أن نوقف هذه الهجمات الوحشية المتحيزة (التي اقوم أنا بها عليهم)، التي تتنكّر تحت اسم صحيفة معروفة حول العالم بنشرها المعلومات الجريئة المسؤولة. إنّ أسمكم يُضفي الشرعية والوزن والتأييد لهذه الهجمات الملتوية الكريهة الخبيثة... نعتقد أنّ من واجبكم أن تحققوا في أساليب السيد هيرش، بنفس الطريقة، التي نتوقع منكم فيها أن تحققوا في التقارير الأخرى.

احتوت الرسالة على قائمة بالتعليقات، التي نُسِبت اليّ عن المسؤولين السابقين والحاليين في شركة G&W، كما نقلها دَيفِز إلى إدارة التايمز.

- «من الأفضل أن تحضر لمقابلتي.... (قال إلى موظف سابق في شركتنا) وإلّا سيكون مصيرك السجن.»

- «لماذا تتصرف شركة G&W وكأنّها عصابة مافيا بحيث لا يستطيع موظف سابق أن يتحدّث الينا؟»

- «كل عملية تجارية يدخلون فيها، تقوم على الإحتيال الضريبي، في اذهانهم.»

- «أعرف الكثير عن بلودورن وكيف حنث بقسمه وورّط نفسه في قضية A&P.»

- «إنّني اعرف أنّ لفِنسُن (محامي ونائب رئيس G&W) قد اتلف بعض الوثائق.»

- «يحمل لِفِنسُن معطف بلودورن ويضيء الشموع في طريقه (دليلا على الذلة والضعف والنفاق.)

- «لقد كذب بلودورن عليّ.»

- «إنّ G&W ليست أكثر من كوم قمامة.»

لم اطلع على تلك الرسالة إلّا بعد مرور سنوات. لماذا لم يطلعني وجَف أحد عليها؟ يبقى ذلك سرّ. لم يعطنا أحد الفرصة لنردّ على اتهاماتهم، ولم يكن بمقدورنا الإشارة إلى تلك التعليقات، التي قد قيلت أمام اشخاص مجهولين نقلوها إلى إدارة G&W. لم تقدّم أدلة من قبل بلودورن ولا من قبل ابواقه أنّني هدّدت مسؤولا سابقا بأنّه سيقضي وقتا خلف القضبان، أو أنّني صوّرت الشركة بأنّها كومة نفايات، إلى آخره من الإتهامات السخيفة. لو كنت اطلعت على تلك الرسائل حال وصولها إلى دائرة التايمز، لأخبرت كلّ من يراسني أنّه ليس هناك شكّ أنّني شعرت بالإستياء إن كذب عليّ أحد أو حرّف اقوالي. لكنّني من المستحيل أن أهدّد أحدا بالقائه في السجن، لأنّه لا يود الحديث معي. ولم أقل لأحد عمل في شركة G&W إن شركته كومة قمامة. لقد تعلمت مبكّرا في مهنتي أنّ الطريقة لجعل أحد ما كي يصارحك القول أن تعرف أولا عمّ تتكلم وتطرح اسئلة في صلب الموضوع. إن الفكاهة وخفة الدم والإصرار على الإجابة عن الأسئلة قد تحقق بعض النتائج المطلوبة، كما حدث مع زوجة چالز كرلسُن، لكنّ التهديد والتخويف ما كانا من اساليبي إطلاقا.

لم نسمع عن شكاوى G&W العديدة عن التايمز، قبل أن نجتمع أنا وجَف لمدة ثلاث ساعات مع مارتن دَيفِز ومحام آخر للشركة، حين تعرضنا لسيل من الشتائم والتهديدات بالإجراءات القضائية لقيامنا بعملنا المطلوب، وهو كتابة التقارير. أخبرت سيمور توپنگ، مدير التحرير بما حدث وكتبت، «إنّها كانت اتعس مقابلة لي خلال 17 عاما في المهنة.» إنّ بعض التعليقات التي نُسبت لي ولزميلي جَف، لم تكن أكثر من كلام تافه يردده الصبية في ساحة المدرسة. إنّ مقالتي عن سدني كورشاك قد «اضرت بسمعتي،» خاصة وأنّ البعض من محرري التايمز قد اخبروا بشكل خاص مسؤولي G&W أنّها كانت دون مستوى الصحيفة من حيث «الإنصاف والدقة.»

وجّهت شركة G&W فيما بعد تحذيرا لي ولزميلي جَف بانّها ستقوم باجراء تحقيقات حول عائلتينا، وأنّهم يعرفون أنّ احدى عمات زوجتي كانت متعاطفة مع الحزب الشيوعي في فترة الثلاثينات. كما ذكروا أيضا أنّ والد جّف، الذي كان يعمل وسيطا في تجارة بيع الفولاذ في كلِفلاند، له ارتباطات مثيرة للشك. قام أحد موظفيهم الكبار بتسجيل مكالمة هاتفية لي معهم. لقد كذب علينا وكذب عمّا قال عنّا واستمر يمارس ذلك فيما بعد. بعث تسجيل المكالمة إلى سولزبرگر، الذي انزعج من الحوار المسجل، والذي اظهر أنّ المحادثة قد تلاعبوا بها فبدت متقطعة. كما انزعج روزنثال ممّا قام به ممثلو G&W بسبب تحقيقنا الصحفي حين أوصلوا الشريط المسجل إلى الناشر مباشرة بدلا منه. قال لي والإبتسامة تغطي وجهه، «إنّ G&W قد تجاوزته، وما كان لديه خيار سوى أن يدافع عنّي.»

استمر هذا الحال خلال فصلي الربيع والصيف حين استطعنا فيهما أنا وگِرث من تقديم تقرير ادانتنا المكون من 15 الف كلمة. حدث شيء جديد لم يبلغنا عنه أحد. احالوا تقريرنا إلى جون لي، محرر قسم الأعمال في التايمز، الذي غيروا اسمه إلى اخبار يوم العمل. ابتدعنا له اسما تهكّميا. لم نكن نحب لي أو نحترمه، وكنّا نكنّ نفس المشاعر لزمرته من المغفلين. وبطبيعة الحال كانوا يبادلوننا نفس المشاعر. كتب لي مذكرة سرية عنّا نحن الإثنين وجهها أصلا إلى توپنگ، مساعد أيبالرئيسي. هاجمنا في المذكرة بشدة دون أن يذكر اسمينا. اعترف لي بالقول «نحن» (ولم اعرف ماذا قصد باستعمال الضمير نحن.) «توفرت لنا الفرصة أن نتعرف على التفاصيل والممارسات، وهي جوهر تحقيق لجنة الأوراق المالية والبورصات SEC، فوجدنا أنّ المواد المتوفرة متطرفة وتفتقد إلى التنظيم. هناك حاجة ماسة للحصول على مصادر مقربة أكثر، والإقتباسات من اشخاص مجهولين ليست بذات نفع.» الجملة الأخيرة كانت نفاقا مفضوحا هدفه التقرب من أيب، لأنّ الموضوع هو مدار جدل بيني وبينه لسنوات. فهو يكره الإشارة إلى المصادر المجهولة وأنا أصرّ على النشر، دون الكشف عن اسماء مصادري، خاصّة وهو على اطلاع تام باسم كلّ واحد منهم. المصادر المجهولة هي التي توصلنا للحقيقة.

كان توقيت لي مناسبا للغاية، لأنّ قسم التنسيق في الجريدة كان مرتبكا بشأن رسائل بلودورن ودَيفِز ومذكراتي حول التهديد والمكالمات الهاتفية المسيئة، التي تلقيناها من الشركة والتجاوز الشديد، الذي كنّا ضحيته حين التقيت وجَف لإجراء مقابلاتنا مع بعض موظفي الشركة الكبار، الذين عوقبوا لتحدثهم معنا. ادركنا في النهاية، وكانت لدينا قناعة ثابتة، بأنّ كبار العاملين في G&W قد تمّ تحذيرهم بعقوبات مشدّدة إن تحدّثوا معنا. (دفعت تلك التحذيرات البعض منهم أن يتحداها ويتحدث الينا.)

تمت مراجعة مقالتنا بشكل جدّي قبل نشرها من قبل فريق من محامي التايمز. ومع ذلك استطعنا أن نخبر القراء ونثقفهم عن الشركات الاحتكارية، التي تلاعبت باصولها المالية بكلّ طريقة شرعية أو غير شرعية من أجل تحاشي دفع الضراب المستحقة عليها. ولكن تمّ اكتشاف تلاعباتها من قبل لجنة الأوراق المالية والبورصات SEC. كنت بشكل شخصي فخورا أنّني وزميلي قد

استطعنا عن طريق شهود مباشرين (ومجهولين) أن نظهر كيف أنّ مجموعة من موظفي شركة احتكار قد عملوا خلال ليلة واحدة في صيف عام 1968 ونقلوا كافة الوثائق الضريبية من وسط منطقة مانهاتن إلى مدينة ستامفرد في ولاية كَنَتِكَت المجاورة، حين اعتقد بلودورن وزمرته بأنّهم سيلقون معاملة افضل وأقل تمحيصا من قبل مصلحة المدخولات السنوية IRS، وما تقوم به من مراجعة تقارير تلك المدخولات وتدقيقها. نُقِل عن أحد موظفي شركة G&W الكبار، دون ذكر اسمه، أنّ شركته تخشى عملية تدقيق المدخولات السنوية التي تجريها IRS في مدينة نو يورك، لأنّها اكثر تطورا وتعقيدا. لا شكّ أنّ قراء صحيفة نو يورك تايمز يتفقون مع تلك الآراء، ولكن ليس بمقدورهم أن يغيروا اماكن تواجدهم تحت جنح الظلام للإفلات من تدقيق IRS لمدخولاتهم السنوية.

كنّا أنا وزميلي شديدي الفخر بسلسلة مقالتنا، التي حققت هدفها الرئيسي، الذي قطعناه لزميلنا روزِنثال بأنّها حول الطرق الملتوية التي تستخدمها شركة G&W «وستساعد على توضيح كيف تجري الأمور في هذا البلد.» في لحظة معينة خلال اجراء بحثنا الإستقصائي قرّر جَف لوحده أن يلقي نظرة على التقرير السنوي الذي تبعثه التايمز إلى SEC، وهذا ما جعلني أقرب اليه. اكتشف أنّ روزِنثال كان قد حصل على قرض بموافقة اعضاء مجلس إدارة الصحيفة بربح قدره 2.5% ليشتري شقة فاخرة في منطقة غرب سنترال پارك. كان پَنچ سولزبرگر ومجلس أدارة الصحيفة كثيري الكرم مع العديد من المراسلين والمحررين في منحهم قروضا باسعار ربح مخفضة. أنا نفسي حصلت على قرض من هذا النوع لتغطية نفقات نقلي من نو يورك إلى واشنطن. لكنّ الفرق هو أنّه ليست لدي مسؤولية أمام اعضاء مجلس الإدارة، كما هو الحال مع أيب. إنّه مسؤول عن قسم الأخبار والرجال والنساء العاملين فيه، والقرض الذي حصل عليه بموافقة مجلس امناء الصحيفة، يجعل تلك المسؤولية في موقف الضعف والمساومة. إكتشفت وجَف بعد اسابيع قليلة أنّ بلودورن كان قد حصل على قرض بقيمة ملايين الدولارات من شركة G&W بسعر فائدة رخيص حدّ السخف، واستعمل تلك الملايين لشراء اسهم في شركته قبل أسبوع من انشطار تلك الأسهم، بربح قدره دولار لكلّ دولارين. هذا العمل غير اخلاقي لأنّه مطلع على اسرار الشركة وحركة أسهم الاستثمارات فيها، والذي يدلّ على غبائه ووضوح جشعه. وعلى أيّة حال شعرنا أنّه ليس بمقدورنا متابعة ظاهرة الجشع هذه، لأنّ محررنا التنفيذي، الذي يُفترَض فيه أن يكون مستقلا عن مجلس امناء الصحيفة، قد تصرف بطريقة مثيرة للتساؤل.

شعرت بغضب بالغ حين اطلعني جَف على تقرير التايمز المرسل إلى لجنة SEC، والذي ظهرت فيه فقرة عن قرض أيب. توجهت إلى مكتبه فوجدته يتكلم مع روبرت (روزي) روزِنثال، وهو شخص محبوب يعمل في قسم الأخبار الخارجية. كان يتحدث معه حينها عن عمله كمراسل. (حصل روزي بعدها على وظيفة محرر في صحيفة فيلادلفيا إنكواير واصبح رئيسا لجمعية المراسلين في كاليفورنيا.) وصف روزي المشهد لي وأنا أعدّ هذا الكتاب، فقال إنّ ذلك جرى في غرفة الأخبار حين كان واقفا يتحدّث مع أيب، حين «اندفعت داخل الغرفة وانت اشعث الشعر وقد خرج نصف قميصك من بنطالك وكنت تلوح بعدد من الأوراق في يدك.... اعتقد أنّها تقريرك. جئت

إلى أيب وظهرت منزعجا للغاية من شيء. كان يتحدث معي حين قاطعته وانت تصرخ وتلوح بأوراق بيدك في وجهه. لا اتذكّر شيئا مّما قلته، لكنّي اتذكّر أنّك كنت بادي الغضب. وبعد أن انتهيت من صراخك نظرت اليّ وقلت أنّه مجنون وأنت تؤشر إليه وحذرتني قائلا، إيّاك أن تأتي للعمل في هذا المكان... ثمّ غادرت المكان على عجل!»

وكما اتذكّر، فإنّ تلك المواجهة جرت في مكتب أيب. اخبرته عمّا وجد جَف خلال بحثه، وكان روزي يراقب ذلك. سألت أيب، «كيف بحق السماء تأخذ قرضا بسعر مخفّض بموافقة مجلس أمناء الصحيفة. ردّ أيب وكأنّه يقتبس من اقوال ممثلي شركات الإحتكار، «طلبت المشورة من محاميّ الخاص، فقال لا بأس في ذلك.» سوف لن أنسى ما قلت. «هذا هو العذر، الذي يردده بلودرون وغيره من جشعي العالم. لهذا السبب لديهم محامون متخصصون بتلك الألاعيب.» ذكرت له أنّنا وبسببه سنحذف قسما مهمّا من تقريرنا. ذكرت له ذلك وأنا أشعر بالسمو الأخلاقي. استوقفني عند الباب وقال بصوت صارم، «سيمور،» (هكذا دعاني وليس ساي كالعادة).

- سألته «ماذا».

- هل تعتقد أنّ من حقك أن تحقق في أيّ موضوع ومع أي شخص في هذه الصحيفة؟»

- ترددت قليلا وقلت «لا».

- قال، «حسنا.»

ثمّ عاد ليستأنف حديثه مع روزي المسكين. حضرت سكرتيرته بعد اسابيع ووضعت على طاولتي مظروف مانيلا كبيرا ارسله لي أيب. احتوى المظروف نسخ اوراق قرض جديد من مصرف محلي بسعر الفائدة المطلوب، ومعها ملاحظة تقول إنّ ما يدفعه الآن شهريا قد تضاعف. كيف يمكن لأيّ أحد أن يحمل ضغينة ضدّ هذا الرجل؟

دعوني اترك مناقشة تقريرنا عن G&W لشخص آخر هو مارك أيمز، الصحفي المستقل، الذي كان يؤدي عملا متميزا في موسكو. قام عام 2015 بتحليل أثر مقالتنا عن تلك الشركة لصالح مجلة على الإنترنت. كانت استنتاجاته قاسية لكنّها مباشرة في كل نقطة غطاها.

مقالة هيرش عن شركة G&W كانت... وهي تتألف من 13 الف كلمة وتقع في ثلاثة اجزاء. كشفت متاهة تزوير شركات الاحتكار وتجاوزاتها وخططها لتحاشي دفع الضرائب المستحقة عليها، والقت الضوء على مخالفاتها، التي تشبه مخالفات عصابات الجريمة المنظمة. ومع كلّ الضجة التي اثيرت عنها قبل النشر، فهي لم تكن أكثر من تذمر. وهذا شيء لم يقدم عليه هيرش من قبل. يبدو ذلك واضحا من لغة المقالة الحذرة جدّا، وهذا أمر غير متوقع من هيرش. وكما ذكرت مجلة نو يوركر فإنّ ردّ الفعل نحوها كان تثاؤبا طويل الأمد.

وخلافا لمقالاته عن وكالة المخابرات المركزية والقوات العسكرية، فإنّ التايمز ظهرت هذه المرة أكثر خوفا واشد حذرا من عواقب مواجهة مع شركة خاصة قوية... ربما ستطالب بتعويضات مالية تضع الصحيفة في موقف الإفلاس والإختفاء من الوجود.. لقد اثقلت التايمز عاتق هيرش بفريق من المحررين والمحامين لمراجعة مقالته وسلب الحياة منها، بحث بدت غير قابلة للقراءة. إضافة إلى ذلك، فإنّ التايمز حذفت كافة الاقتباسات الهامة، التي وردت على السنة اشخاص مجهولين، بخلاف الذين كانت اقوالهم كالقنابل المتفجرة في وجه وكالة المخابرات المركزية... وهذا ما جعل مقالته عن الوكالة راسخة في اذهان القراء.

كان النقد لخضوع المقالة للمراجعة الجبانة مبررا، ولكن كانت للقصة أسس لم تدرَك مباشرة في ساعة نشرها. بإمكاني القول إنّ الرسائل، التي تلقيتها من خبراء عديدين لهم معرفة أعمق بممارسات الشركات الاحتكارية، ربّما أكثر من أيمز أو المحررين في مجلة نويورك، وحتى محرري التايمز، الذين كانوا على معرفة بمستوى الكشف الذي عرضناه أنا وزميلي. فمثلا كتب لي جون كِنِث گالبرَيث، استاذ الإقتصاد في جامعة هارفرد والذي شغل منصب سفير لأمريكا في الهند في عهد الرئيس جون كندي، «إنّ اجزاء المقالة حول شركة G&W ممتازة، اكثر ممّا يعرفه معظم القراء. إنّ استخلاص معلومات نافعة من تلك الشخصيات، ويمكنني القول بناء على خبرتي، أكثر صعوبة بمقدار عشر مرات، مقارنة بالحصول على معلومات من وكالة المخابرات المركزية» واختتم رسالته بالقول، «شكرا لكَ.» كما اخبرني چالز نِسّون عن طريق ملاحظة له، أنّ «اجزاء المقالة هامة للغاية... وبحسب علمي، فإنّها حاولت أن تعطي صورة للمواطن العادي عن المكائد المالية لأحد اقطاب الفساد، الذي ما زال يتمتع بمكانة عالية. ما زلت شديد الحيرة حول الجوانب، التي يتمّ الكشف عنها واخلاقيات العمل لدى هؤلاء الأقطاب ومحاميهم. لقد قمت بعمل فائق.» يعرف گالبرَيث ونِسّون ثمن الخوض في قضايا الإحتكارات الرئيسية ويشيران إلى الحذر، الذي يجب أن يؤخذ في الحسبان لدى مراجعة مقالات حول تلك القضايا والقلق البالغ من محاولات الانتقام، وهي العامل الرئيسي الذي جعل المقالة خالية من الجوانب التي تجعلها محببة للقراءة. ذكر بل كوفاك، زميلي في مكتب التايمز في واشنطن، والذي أصبح فيما بعد مديرا له، حين كتب مقالة طويلة عنّي عام 1991، فاشار إلى أنّ خلاصة الموضوع هي أنّني وزميلي جَف كنّا نكتب عن قوّة خاصة، مقارنة بكتاباتنا عن المواضيع التي تخصّ الحكومة. اضاف قائلا، إنّ الحقيقة هي كون مقالاتي في السابق كانت عن مؤسسات عامة، وعليه «فإنّها نُشِرت مباشرة، دون أي تعديل.»

كانت التجربة مثارا للإحباط وللإضعاف. استنفذت الكتابة عن الاحتكارات في أمريكا طاقتي وسببت لي توترا، كما سبب لي المحررون في صحيفتي الخيبة. لقد بدا لي أنّه ليس من المسموح به التعرض للاحتكارات في امريكا. وهكذا انتصر الجشع. إنّ الخصام القبيح مع شركة G&W قد هزّ الناشر والمحررين لدرجة أنّ المحرر والمشرفين على قسم الأعمال سُمِح لهم إبطال العمل الجيد، الذي انجزته أنا وزميلي جَف.

لا ادري إن كان أولئك المحررون على علم بالعلاقة الشخصية بين بلودورن وپُنچ. وعلى أيّة حال، كان واضحا لي ولزميلي أنّ الشجاعة التي اظهرتها التايمز في مواجهة غيظ الرئيس والمدعي العام خلال أزمة نشر أوراق البِنتـگونعام 1971، ما كان لها وجود حين فرض عليها رجال الاحتكارات الصمت، وقت كانوا يقاتلون من أجل حياتهم في وجه تحقيقات لجنة SEC، التي تعلمنا أنا وصاحبي گِرث منها الكثير ولم يُسمح لنا بالكتابة إلّا عن اليسير من المواضيع. لم يكن لأولئك الجبناء المغرورون، الذين ادارو شركة G&W الجرأة لكي يقيموا دعاوى للتعويض المادي ضدّ التايمز. لقد عرفوا جيّدا أنّني وزميلي قد اخترقنا بعمق جدار آثامهم، ولم يستطيعوا تقديم الأدلة أمام المحكمة، لأنّهم سيفضحون أنفسهم بذلك.

حين انتهت تلك التجربة، كنت مستعدا لترك العمل في نو يورك تايمز. وافقت زوجتي أن تنهي آخر سنة دراسية لها في كلية الطب بالانتقال إلى جامعة جوركتاون، وأن تعود الأسرة للسكن في العاصمة واشنطن.

قضيت الأشهر الأخيرة في نو يورك كمراسل متنقل بين العاصمة ونو يورك وكتبت عن إدارة كارتر وسياستها الخارجية الحافلة بالعقبات. حاولت منذ نشر مقالتنا عن كورشاك تقديم المساعدة لزميلي جَف بالضغط على إدارة التايمز لتعيينه على المِلاك الدائم، لكنّ محاولتي كانت دون جدوى. لم يقل أحد «نعم» ولم يقل أحد «لا». اخبرني جَف في نهاية ذلك الصيف أنّ أحد محرري واشنطن پوست الكبار قد اتصل به ودعاه للحضور لإجراء مقابلة. حين علمت بذلك، بالغت في الأمر قليلا وأخبرت آرثر گِلبعن مدى سعادتي لأنّ گِرث قد تلقى عرضا رائعا من الپوست. وفجأة أصبح گِرث صحفيا مرغوبا فيه للغاية وعُيّن في التايمز ليقضي بعدها 30 عاما في كتابة التقارير المثيرة.

اشغلت نفسي خلال الشهرين التاليين، اللذين شهدت فيهما الجريدة اضرابا نجم عنه اغلاق كافة الصحف فى مدينة نو يورك فى اواخر عام 1978، بكتابة مواضيع قصيرة لبرنامج «حديث المدينة»، الذي اعدّه السيد شَون. ومع ذلك ما زلت انظر لنفسي كصحفي وما زلت اشعر بالزهو لانتمائي إلى اسرة التايمز. اعتقدت حينها أنّ واشنطن ما زالت بالنسبة لي ارضا خصبة، لكنّ المدينة قد تغيّرت. لقد انتهت حرب فيتنام وكذا فضيحة ووترگيت. لم يُعاقب أيّ من مسؤولي وكالة المخابرات المركزية للجرائم التي ارتكبت ضدّ الشعب الأمريكي وخالفت دستور البلاد. رِچَرد هِلمز، كذب بوضوح امام لجنة الكونگرس عن دور وكالة المخابرات الأمريكية في چِلي، واشيد به كبطل وطني وسُمِح له أن يعلن براءته عام 1978 من اتهامات بارتكاب جُنح، رغم أنّه لم يكن صريحا تماما في شهادته عن نشاطات الوكالة أمام الكونگرس. حُكِم عليه بالسجن لمدة سنتين مع وقف التنفيذ وغرامة قدرها 2000 دولارا، واستقبِل بالهتاف والتصفيق من قبل جمهور متحمّس حين غادر قاعة المحكمة. ذكر الصحفي رِچَرد هَرس في تقرير له لمجلة نو يوركر عن قضية هِلمز أنّه شاهد بأمّ عينه سخف الإدعاء بعدم المسؤولية. «لقد اتهمت الحكومة هِلمز بأنّه ارتكب جرائم لم تحدّدها أو تثبتها، وأنّ هِلمز من جانبه رفض أن يعترف بأيّ ذنب، لكنّه تقبّل أن يُسجّل ضدّه حكم

بالذنب.» لا زلت اعاني من عدم تحرري من الوهم حول قضية G&W وأنّ تحليل هَرِس الذكي لحجّة هِلمز لم يساعدني في شيء.

ساء الوضع بالنسبة لي لأنّ محرري التايمز امتدحوا حجّة هِلمز، وشاركهم في ذلك العديد من محرري الصحف الأخرى، «لقد كان هِلمز في موقف حرج بين إطاعة القوانين وبين واجبه للمحافظة على الأسرار... ولذلك فإنّ الحكومة وجدت نفسها في موقف مماثل بين الحاجة لتطبيق القوانين ضدّ الكذب والحاجة المستمرة للتكتم على الأسرار.» بعبارة اخرى، إنّ منتسبي وكالة المخابرات المركزية، ممّن اقسموا يمين المحافظة على الأسرار، معفوون أو غير ملزمين بقول الحقيقة أمام الكونگرس. لقد اجتاز عالم المخابرات عاما من الحرب الخاطفة، التي شنّها الإعلام ولجنة چَرچِل، وعاد إلى الموقع، الذي يمكنه النماء فيه، وهو المنطقة الرمادية بين الخطأ والصواب، القانوني وغير القانوني، الشرف وعدم وجوده. اعتقد أنّ ذلك الموقع، هو الذي تتواجد فيه العديد من شركات الإحتكار الأمريكية.

لم اعد قادرا على العمل في مكتب التايمز في واشنطن. اتضح لي ذلك بعد اشهر قليلة منذ عودتي، حين اطلعني جون فِني، وهو صحفي قديم رُفع لمنصب محرر، على وثيقة سريّة وصلت إليه من قبل أحد المحررين، والتي تشير إلى تحيّزي ضدّ شركات الإحتكار الأمريكية. كان فِني منزعجا للغاية لسخف ما حوته تلك المذكرة والإهانة الموجّهة اليّ فيها. قدّمت استقالتي في الحال، دون ذكر الأسباب، وقبلت عرضا تلقيته منذ بعض الوقت لتأليف كتاب عن هنري كِسِنجر. قرّرت ألّا اقبل في المستقبل عملا دائما في أيّة مؤسسة صحفية.

الفصل السابع عشر

العودة إلى كِسِنجر والى مسائل أخرى

كان عرض تقييم سجل هِنري كِسِنجر السياسي في كتاب جديد، مطروحا لأكثر منذ سنة. قدّرت أنّ هناك حاجة ماسّة له، لكنّ الفكرة استهوتني بشكل خاصّ، لأنّها جاءت في الوقت المناسب على لسان جَيمس سِلبِرمَن الذي كان رئيس محرري دار نشر راندم هاوس، التي نشرت كتبي عن مذبحة ماي لاي. أصبح جِم يمتلك الآن دار نشر خاصة به اسمها سُمِت بُكس. وهو يمتلك أيضا غريزة خارقة للكتب الأكثر مبيعا.

لم اذكر في رسالة استقالتي من التايمز، التي بعثتها إلى أيب، السبب الحقيقي لإقدامي على تلك الخطوة، بالرغم من أنّه لا بُدّ عرف أنّني أثبِطت بسبب علاقتي الفاترة بالصحيفة مؤخرا، خاصّة فيما يتعلق بمقالتي عن G&W. لكنّني اشرت إلى الحاجة لدراسة تقييم لصاحبنا كِسِنجر. طلبت من أيب اجازة بدون راتب لأتفرغ لتلك المهمة، لكنّه رفض. لم يفاجئني ذلك الرفض، فإشاعات تركي للتايمز تتردد بين كتّاب اعمدة الصحف في نيويورك. ولا بُدّ أنّ الأمر قد ازعجه. شعر ايب أنّني لم احبب اطلاقا الجريدة، ولكن بحسب رأيه، أنّني استغليت وجودي فيها لأحصل على عقود لتأليف الكتب والمضي إلى الأمام، تماما كما فعل دَيفِد هالبرستام من قبلي.

الأمر الداعي للسخرية أنّه خلال الحقب التالية وحتى وقت استقالته من الصحيفة كمحرر تنفيذي عام 1998، نشرت الصحيفة لي عددا كبيرا من المقالات باعتباري صحفيا مستقلا، لكنّ ظاهرها أو الإنطباع عنها يوحي بأنّني ما زلت اعمل هناك. بدا وكأن الكلمات التي تبادلناها حين قدمت استقالتي لم يكن لها أيّ معنى. لقد كنّا مأخوذين بحبنا للصحافة الجيدة. نُشرت مقالتي الأولى في شهر اغسطس عام 1979، أي بعد مضي اربعة شهور على تقديمي للاستقالة. رجعت إلى هَنوي، عاصمة جمهورية فيتنام الديمقراطية لأقوم باجراء مقابلات تخصّ كتابي عن كِسِنجر، خاصة ما يتعلق بمباحثات السلام السرية في باريس مع نگوِن كو ثاه، التي أصبحت وزيرة للخارجية عام 1980. اخترت بعد استكمال كافة المقابلات أن ابقى في فيتنام لأكتب عن سايگون، التي وقعت في قبضة الشيوعية. حالي كحال زملائي في المهنة، كنّا مهووسين بحرب أمريكا الخاطئة هناك. كتبت ما يقرب من ست مقالات للتايمز عن الأوضاع في سايگون، التي أصبح اسمها

الآن مدينة هو چي مِنه بعد انتهاء الحرب. ركّزت مقالاتي على اعطاء صورة للمصاعب الجمة، التي واجهها أولئك الذين لم يستطيعوا الفرار من جنوب فيتنام حين سقطت بأيدي الثوار عام 1975. كانت احدى المقالات عن تفاصيل ازدهار السوق السوداء، والأخرى عن ازدهار صدور الصحف غير الشيوعية في سايگون. قابلت مسؤولين من الهلال الأحمر ومنظمة الأمم المتحدة في هَنوي وفي سايگون، وكتبت مقالة طويلة عن مأزق ما يقارب من المليونين من مواطني كمبوديا، الذين واجهوا المجاعة. بدا لي وقتها أنّني ما زلت اشعر بانتمائي إلى فريق صحيفة التايمز.

جرت مقابلاتي مع ثاه وآخرين من اجل كتاب كِسِنجر بشكل جيد، لكن قمّة ما حصل في زيارتي كانت خلال غداء في مطعم في اعلى طابق في فندق كارافيل، الذي ما زال مفتوحا في سايگون. كان هذا المطعم ملتقى المراسلين الأجانب خلال سنوات الحرب. استطعت تدبير لقاء مع أحد قادة جبهة التحرير الوطنية، الذي لم يكن ضمن ذوي المناصب العليا في مدينة هو چي مِنه.

تميّز ذلك اللقاء بلحظتين جديرتين بالذكر. حين علم النادل أنّني صحفي امريكي، اخبرني أنّه عامل زملائي خلال فترة الحرب بشكل متميّز. قرّر أن يمنحني تلك المعاملة الخاصة بالذهاب إلى المجمدة في المطعم ووجد فيها شريحة لحم مجمدة منذ الأيام الأخيرة للحرب عام 1975. وبعد تناول وجبات الطعام الفيتنامي الرائعة لمدة اسابيع عديدة، كان تناول شريحة لحم مجمدة لأربع سنوات، لذيذا للغاية. اللحظة الأخرى، كانت حين أخبرني الشخص الذي تناول الغداء معي، بعد أن تأكّد له أنّنا نتحدث بشكل خاص، أنّه فوجئ بأنّ مئات عديدة من ملايين الدولارات قد صرفها الأمريكيون على مشاريع البنية التحتية، بما فيها الطرق ومياه الشرب والمجاري، لمساعدة جيش فيتنام الجنوبية والمجتمع بشكل عام خلال الحرب. ذكر أنّ الروس الآن يقومون بالدور الأمريكي باعتبارهم شركاء ومستشارين للحكومة الجديدة، التي تسلمت المسؤولية إثر انتهاء الحرب. كان احد المشاريع الروسية المبكرة تأسيس مصنع للتعبئة والتغليف في مدينة هو چي مِنه. يتمّ فيه تصنيع الأدوية مثل الأسبيرين وغيره، التي تأتي على شكل مساحيق وتحويلها إلى حبوب تجري تعبئتها وتشحن إلى شركاء روسيا الإقتصاديين في اسواق اوروپا الشرقية. بدأت السفن الروسية تصل إلى موانئ المدينة المزدحمة وهي محملة بمساحيق الأدوية، وتغادر محملة بالأدوية المعلبة. كان ذلك المصنع دليل نجاح ألّا أنّ الحكومة الروسية لم تدفع اجور الخدمات. وبعد سنة أو سنتين تكونت لجنة لجمع الرسوم المستحقة، لكنّ المسؤولين في موسكو قالوا، بدون حياء، إنّ الحكومة الروسية يسعدها أن تخفّض مجموع الرسوم من مجموع الديون المستحقة على فيتنام لقاء الأسلحة والعتاد، التي زودت بهما فيتنام خلال سنوات الحرب. لم يكن امامنا الّا أن نهز اكتافنا عجبا من التقلبات السياسية لأمريكا وروسيا؟ ثمّ استأنفنا حديثنا.

حصلت حين كنت في هَنوي على معلومات هامة عن محادثات السلام. وهي معلومات تؤكدها المذكرات الداخلية المتبادلة، التي لم يكشفها الإعلام الأمريكي خلال الحرب، وهي تعبّر عن وجهات نظر فيتنام. الشيء اللطيف بصدد كتابي عن كِسِنجر أنّه لا يهمّ إن تحدّث معي أم لم يتحدّث. لقد اعطاني دون أن يشعر كشفا لوجهات نظره في الجزء الأول من مذكراته، الذي نشره عام 1979 بعنوان (سنوات البيت الأبيض.) تكوّن الكتاب من 1500 صفحة، وكان أكثر ممّا توقعته أو ما ادركه القراء، واستهدف فيه الردّ على كافة منتقديه. كان ذلك الكتاب كنزا للمعلومات عن القضايا الهامة (وغير الهامة) التي واجهها، إلى جانب قدر كبير من التحريف والأكاذيب المفضوحة.

امضيت عاما تقريبا وأنا أقرأ روايته لما جرى واقارن ذلك السرد بالمعلومات، التي توفرت لدي في ذلك الحين. كما كان بمستطاعي مقارنة رواية كِسِنجر بمذكرات الآخرين، التي نُشرت من قبل المطلعين من اعضاء الحكومة، بما فيهم رِچَرد نِكسُن، الذي كان أكثر امانة، وبذلك أشدّ كشفا لتاريخ رؤوساء امريكا.

كان عملا شاقا وتطلب بعض الوقت لاكمال مقالة من جزئين لصالح مجلة تايمز عن علاقة الجماعة في الايام الخوالي. إتصلت بعميلين لوكالة المخابرات المركزية شاركا في تزويد نظام معمر القذافي في ليبيا بالأسلحة والذخائر لقاء مبالغ كبيرة. أقنع إدوِن وِلسُن وفرانك ترپِل زميلا ثالثا لهما في الوكالة إسمه كَفِن مِلكَيهي، انّهما يقومان بعمل مشروع. استطاع مِلكَيهي هذا أن يصل إلى جوهر العملية، التي جنى منها وِلسُن وترپِل ملايين الدولارات، فجاء اليّ ليخبرني بتفاصيلها. حصلت مقالتي ذات الجزئين على جائزة پولِك للمرة الخامسة في عام 1981، بالإشتراك مع مراسلين من التايمز هما فِلِپ توبمَن وزميلي القديم جَف گِرث، الذي كتب أيضا عن قضية وِلسُن وترپِل. (أرسل اليّ رِچَرد ألِن، وهو مساعد سابق لصاحبنا كِسِنجر، والذي أصبح مستشارا للأمن القومي للرئيس رَيگَن، نسخة من المجلة، وقد كتب الرئيس على غلافها ملاحظة طلب فيها من ألِن أن ينظر في تلك الإتهامات.)[33] التناقضات في مذكرات كِسِنجر كانت بينة، وعلمت بالمزيد منها من خلال مقابلاتي، التي اجريتها في السنوات القليلة التالية. يقوم تأليف الكتاب غير الروائي على نفس المبادئ، التي التزمت بها خلال عملي الصحفي اليومي. أقرأ قبل أن اكتب وابحث عن الأشخاص الذين يعرفون حقيقة الأمر، وأدع تلك الحقيقة تروي القصة. كان يوجد البعض من منتسبي مجلس الأمن القومي برئاسة كِسِنجر، ممّن كانوا غير راغبين في الحديث معي، ألّا أنّ الأغلبية منهم تطوعوا للحديث معي ولدي تسجيلات تثبت ذلك.

كما أنّني استفدت من الشرور الرئيسية لسياسة نِكسُن- كِسِنجر. نجم عن تقاريري عن چِلي في عام 1974، وصول سلسلة من الرسائل، كتبها اشخاص مجهولون ساهموا في العمليات السرية ولديهم معلومات مباشرة عن رغبة الإدارة الأمريكية اعتبارا من نِكسُن وكِسِنجر وممّن هم دونهما، للتخلص من أيَندي. كانت تلك المعلومات مدهشة، بما فيها برقيات سرية جرى تبادلها ومخاوف سياسية تمّ التعبير عنها. لكنّ تلك الرسائل لم تغير من تصميمي على عدم نشر معلومات يزودني بها اشخاص لا يكشفون لي عن حقيقة هوياتهم.

من عناصر هوسي هو أن احتفظ بالمعلومات الخاصة بالضباط الكبار المتقاعدين كي اعود إليها متى شئت، واختياري بالذات للجنرالات والأدميرالات، الذين لم يصلوا إلى المراتب العليا، التي كانوا يتمنونها. فلا بُدّ من وجود قصص توضح اسباب تلك الإخفاقات، ولذلك كنت لذلك الغرض اتابع صفحة الوفيات في الجرائد. فوجئت بمقدار المعلومات فيها، خاصة عن وفيات منتسبي وكالة المخابرات المركزية، الذين نفذوا عمليات خارجية. من احدها خبر نُشِر في الواشنطن پوست عام 1979 عن ضابط للوكالة اسمه جون مورَي. استرعى الخبر انتباهي لأنّ مورَي قد خدم في بلدان أمريكا اللاتينية قبل تقاعده. ذكرت الصحيفة اسم ارملته وعنوان منزلها ورقم هاتفها. فكرت أن اتصل بها، وقمت بذلك بعد 6 أشهر. أكدت السيدة أنّ زوجها كان أحد الذين كتبوا لي دون

أن يذكر اسمه، وأنّه قام بذلك نتيجة غضبه واحباطه بسبب الوكالة ونشاطاتها الإجرامية في چلي. كما ذكرت أنّ زوجها احتفظ بصندوق وضع فيه بعض الوثائق، وهو موجود في قبو البيت. رحبت بفكرة زيارتي للبيت واستلام الصندوق وذكرت أنّه لا مانع لديها من ذكر اسم زوجها. لقد شعر الفقيد بالفزع من استعداد الوكالة لتنفيذ الأوامر الإجرامية، التي اصدرها نِكسُن وكِسِنجر[34].

إنّ نزعة كِسِنجر المتأصلة للخداع قد ساعدتني ايضا. كان لدى روجر مورِس الكثير من المعلومات عنه، إذ عمل معه كمساعد موثوق به في السنوات الأولى ولديه اطلاع كبير عن دور كِسِنجر في افريقيا وحول سلبيات وايجابيات استعمال الأسلحة النووية التكتيكية في اوقات الأزمات. كانت كلمة السرّ لها Duck Hook. احتفظ مورِس بنسخ من مذكراته بشأنها. من المعروف بين بعض العاملين في مكتبه، أنّ كِسِنجر يدّعي لنفسه الفضل لاعمال يقوم بها الآخرون. ولذلك يقوم هؤلاء بتهريب نسخ من الوثائق للاحتفاظ بها في بيوتهم، سواء كانت تلك الوثائق سرية أم غير سرية، لإثبات حقيقة مواقفهم. من هؤلاء دِك ألِن، الذي ترك العمل مع كِسِنجر في وقت مبكر وقبل وظيفة في مركز هوفر في جامعة ستانفرد، ممّا هيأ لي فرص زياراتي المستمرة له ورغبتي في ملاحقة التفاصيل، خاصة وأنّه امضى عددا من السنوات معه حين كان وسط الأحداث، وقت كان يطلع مساعديه على المعلومات السرية والأخرى المتعلقة بالأمن الوطني، في عام 1968 وسط حملة انتخابات الرئاسة بين نِكسُن وهيوبرت همفري. كانت النتيجة أنّه لو تمّ انتخاب أحد المرشَحين، فإنه سيختار كِسِنجر كمستشار للأمن القومي. تيقنت من صحة قول ألِن، وكان الفصل الذي اوردت فيه هذا الموقف في طليعة فصول كتابي.

غالبا ما تكون المذكرات الحكومية قضايا مروعة من أجل خدمة الذات وملأى بالأكاذيب وانصاف الحقائق. غير أنّ افضل ما كتِب من هذا النوع، مذكرات ادميرال متقاعد اسمه إلمَر زُموالت، الذي خدم بين الأعوام 1970- 1974 كقائد للعمليات البحرية، وهو مركز رفيع. ورد في مذكراته، التي نشرها تحت عنوان (واجب المراقبة) عام 1976، إنتقاد الأدميرال لرغبة نِكسُن المتهورة، كما اوضحها بشكل جلي لرئيس الأركان المشتركة، وكيف أنّ الرئيس تجاهل النص الواضح لاتفاقية السلام مع هَنوي عام 1972. اقتبس زُموالت قول نِكسُن، «سنحافظ على بنود الإتفاقية، إذا كانت تخدم مصالحنا.» اتذكّر أنّني اعجِبت بمذكرات زُموالت، لكنّني لا اتذكّر أنّني تحدثت مع الأدميرال بشأنها قبيل وفاته عام 2000. وما اتذكره أنّني تلقيت مكالمة في اواخر عام 1982 من زُموالت، الذي كان يسكن حينها في ملواكي، ودعاني لزيارته خلال عطلة نهاية الأسبوع. سافرت إلى هناك وأنا في غاية الإبتهاج، فوصلت إلى ضاحية على ضفاف بحيرة مِشِگن عصر يوم السبت. اخبرني أنّ لديه بعض الأوراق يودّ اطلاعي عليها. إحتجنا لهذا الغرض أن نبحث عن مكتب للإستنساخ. وجدنا احدها فدفعت لصاحبه اجور استخدام ماكنة الإستنساخ بعد انقضاء ساعات العمل الإعتيادية. وحين عمّ الهدوء، امضيت ساعة وأنا استنسخ ورقة إثر أخرى في حين كان زُموالت يسلمني إياها. شعرت بفرح غامر وامتنان كبير أنّ ادميرالا ًاربع نجوم يقوم بمساعدتي في هذه المهمة. بدا واضحا من تلك الوثائق أنّه وسط عام 1972 ومع تسارع جهود المفاوضات مع هَنوي في باريس، رغب زُموالت أن يعرف ماذا كان يجري داخل مكتب كِسِنجر للأمن القومي، فتوصّل إلى طريقة جديدة لتحقيق ذلك. كلف ضابطا صغيرا في البحرية ممّن يعملون

في مكتب أل هَيگ، ممّن يثق بقدرته على تسجيل الملاحظات ومراقبة المكالمات التلفونية للجنرال. كان معروفا أنّ الجنرال هَيگ يستخدم ضباطا حديثي الخدمة كمساعدين له، ألّا أنّه لم يعرف أنّ ضابط البحرية الشاب، الذي انضم إلى مكتبه عام 1972، كان يدون ملاحظات ويسجّل كافة مكالماته على اشرطة صوتية، يسلمها جميعا ومباشرة إلى زُموالت، الذي كان يكتب محتويات الأشرطة ويحتفظ بها. أستعنت ببعض الأسطر من محتويات تلك الأشرطة في كتابي عن كِسِنجر مخافة من افتضاح القضية ومعرفة هَيگ بمصدر تهريب نصوص مكالماته، اعني الضابط الصغير الذي ترك الخدمة في البحرية وانصرف ليشغل وظيفة في إحدى شركات الأعمال.

إنّ صورة مدى الجو الكامل للحقارة ونزعة الانتقام وجنون العظمة، الذي خلقه كِسِنجر، وهو يبحث عن اتفاقية سلام بمشاركة رئيس لا يتسم بالاستقرار بشكل مثير، بدت تلك الصورة واضحة أمامي وأنا اقرأ ما زودني به زُموالت من الوثائق. التأثير الإيجابي الرئيسي لكلّ من نِكسُن وكِسِنجر، والذي امتلكه الاثنان، أو اعتقدا أنّهما يمتلكانه، هو تخبّط محادثات السلام في صيف عام 1972 وانتخابات الرئاسة على الأبواب. بدأ قصف مكثف باستعمال طائرات B52. قيل لزُموالت إنّ ذلك يستمرّ لمدة 3 اشهر وكانت الأوامر بذلك صدرت في شهر يونيو، «واوقفت بعدها كافة الحملات الجوية.» وبعد عدة اشهر ومع عدم حصول تقدم في مباحثات باريس، قالوا له إنّ نِكسُن قد أصبح الآن في صفّ الحمائم... قال الرئيس أنْ يقبلوا أيّ شيء تتنازل عنه هَنوي، لأنّه صار يشعر أنّ الحرب ستضع نهاية لمستقبله السياسي. كما أنّ كِسِنجر كان خائفا أنّ سمعته ستهبط للحضيض.» بعد اسابيع أخبِرَ زُموالت أنّ نِكسُن، الذي شوّش فكره باقوال هَيگ، أنّ كِسِنجر يتعمّد إفشال المفاوضات، وأنّه أصبح لعبة بيد فيتنام الشمالية. اتصل هَيگ ليخبر كِسِنجر أنّ ذلك هو رأي الرئيس. غضب كِسِنجر وشرع بعمله الإنتقامي حين كان هَيگ خارج واشنطن. ذهب إلى الرئيس وقال له، «من المهم اعادة هَيگ إلى مهمته العسكرية لأنّه لا يوجد أحد لمراقبة إبرامز (يقصد كرايتن إبرامز رئيس أركان الجيش.)... ذكر هَيگ بعد ذلك معلقا، «لقد قام هنري بترقيتي كي أغادر البيت الأبيض.»

استمر هذا الجنون والتناحر الداخلي لغاية موعد التوصل إلى اتفاقية السلام مع فيتنام الشمالية، والتي تمّ اختراقها مباشرة من قبل كافة الأطراف، كما كان متوقعا. استمر الوضع على حاله بعد أن أصبح كِسِنجر وزيرا للخارجية إضافة لمسؤوليته كمستشار للأمن القومي. وحين كانت قضية ووترگَيت على وشك الإفتضاح الكامل بين عامي 1973- 1974، أخبِر زُموالت في حينه أنّ هَيگ، الذي أصبح نائبا لرئيس أركان الجيش،

كان متعاونا مع هالدمَن وإيرلِكمَن وعلى علم بعملية سطو السباكين... كان الرئيس يريد القول، فيما يتعلق بالتنصت على المساعدين وغيرهم،... إنّ ذلك هو كلّ ما فعله. كان يريد أن يبرر الدوافع وليس التصرفات ذاتها... إستمرّ كِسِنجر يدّعي أنّه ليست له يدّ في كافة ما جرى في ووترگَيت... وأنّه لم يعرف بعمليات التنصت... وأنّه تساءل فقط إن كان بالإمكان أنّ دَيفِد يونگ، الذي ادار بالإشتراك مع إيگل كرو، فريق السباكين بتكليف من إيرلِكمَن، لا يزال مخلصا له. كان يرغب أن يعيد يونگ للعمل في مكتب الأمن القومي... لا أحد يستطيع الوصول إلى الرئيس...

حاول البعض من مستشاريه السياسيين ذلك، لكنّه رفض أن يقابلهم... لقد جرت كل يوم خمس محاولات تقريبا للإنقلاب، فيما كانت مختلف القوى تتدافع لفرض سيطرتها.

كانت تلك بيانات موثوق بها وقد وضعَت يدي عليها وأنا على وشك الإنتهاء من تأليف كتابي عن كِسِنجر في البيت الأبيض خلال فترة حكم نِكسُن. إنّ مذكّراتيهما معا، اوضحت كما نشرت في نهاية كتابي، «أنّ كليهما لم يدركا العجز الأساسي في سياستيهما. نسيا أنّهما يعملان ضمن نظام ديمقراطي يقوم على دستور وأنّهما يقودان شعبا يطالب مسؤوليه أن يتحلوا بالمبادئ العقلانية ويتصفوا بالأخلاق والنزاهة... يبدو أنّ القتلى والمشوهين في فيتنام وكمبوديا وايضا في چِلي وبنگلادَش وبيافرا والشرق الأوسط، لم يدخلوا في حسابات الرئيس ولا مستشاره للأمن القومي وهما يقاتلان الإتحاد السوفياتي، وفي ذات الوقت غارقان في مفاهيمهما الخاطئة وسط اعدائهما السياسيين، وضدّ بعضهما البعض.»

استغرق الأمر اربع سنوات من المطالعة المستمرة والمقابلات والكتابة واعادة النظر فيها، حتى اكتمل الكتاب الذي عنونته (ثمن السلطة)، بناء على اقتراح من الصديق المخلص هالبرستام، ونُشِر في شهر يوليو من عام 1983. كانت ردود الفعل متوقعة. فأولئك الذين في الإعلام ممّن يدينون بنجاحهم في مهنتهم كليا أو جزئيا إلى قربهم من كِسِنجر، فقد كرهوا الكتاب. أمّا الآخرون فاعجبوا به. من بين هؤلاء نعوم چومسكي، الذي اعرفه قليلا واحترمه كثيرا. بعث لي رسالة تقول، «إنّه لأمر رائع، بالرغم من الشعور بأنّ المؤلف يجوب في اوحال القاذورات، كي يطرح مستوى جديدا بعيد المدى وتحليلا ثاقبا لوضع السياسة الخارجية، من الصعب أن تجد له مثيلا.» أمّا رُسِل بَيكر، الظريف دائما، فقد كتب في عموده في التايمز رأيا بعنوان «فحيح (الأفعى) هيرش»، جاء فيه:

من بين المجموعة المختارة من الأصدقاء الذين توجهوا إلى منزل سيمور هيرش، استطعت التعرّف على أنديكوت، الذي صاح، «تعال وانظم الينا. إنّنا جميعا ذاهبون للوقوف أمام منزل هيرش كي نبدأ الفحيح.» ما كان بحاجة لأن يُخبرني ماذا قصد بذلك. لقد عرفت أنّ هيرش قد اكمل لتوه كتابا من 698 صفحة... في الحقيقة لم اقرأه بعد، ولا ادري متى افعل ذلك لبعض الوقت...

ومع ذلك فقد قرأت في الصحف أنّ كتاب هيرش لا يطري على كِسِنجر، ونظرا لأنّي اعرف أنّ أنديكوت يعتبر كِسِنجر أعظم دبلوماسي منذ تاليران. (وزير خارجية فرنسا أثناء الحكم الملكي - المترجم) فلا عجب أنّه يكره أيّ رأي مخالف لذلك.

سألت الجماعة، «أليس من العيب أن نبرر الفحيح بهذا الشكل الجماعي، ونحن نقف أمام بيته؟» ردّ أنديكوت «أسوأ من ذلك! إنّه حفنة من الأكاذيب الرخيصة.» قلت، «هذا أمر فضيع. ما هي الأشياء التي كذب هيرش بشأنها؟» قال أنديكوت، «وكيف لي أن اعرف. لم يُتح لي المجال بعدُ لقراءة الكتاب.»

ورد ذكر رأي بَيكر في مقابلة جرت لي بعد ايام من نشر الكتاب مع مقدم برامج محطة تلفزيون أي بي سي، اسمه تد كُپل في برنامجه Night Line. وهو برنامج مشهور يُعرض في ساعات المساء المتأخرة. كان كُپل قد قابل كِسِنجر فى الأمسية التي سبقت مقابلتي فجاء على ذكر كتابي، وبالذات الفصل الأول منه حول الخداع، الذي غطته صحف ذلك اليوم. كان ردّ كِسِنجر وحشيا، وليس عندي شكّ أنّه تسبب في بيع آلاف أخرى من نسخ الكتاب. قال، «لم اقرأ الكتاب.» واضاف، «إنّ ما قرأته أنت ليس أكثر من كذبة قذرة.» لكنّه هو الذي كذب، حين سأله كُپل إن كان يعرفني ويعرف ما أكتب عنه. أجابه كِسِنجر، «أنا لا اعرفه على الإطلاق.»

إنّ تقديم كُپل لي في الأمسية التالية قد أعدّ المسرح لمقابلة قبيحة معي دامت ساعة. غير أنّها اولدت شيئا جديداً بالنسبة لي، وهو تعاطف المشاهدين معي.

كُپل: يعطي كتاب هيرش صورة وحشية لمطامح عنيفة لرجل لا مبادئ له. وهذه تهم استنكرها كِسِنجر ووصفها بأنّها «اكاذيب قذرة... » ما هي النقطة التي تودّ أثارتها يا سيد هيرش؟ وما هو الغرض الذي يخدمه هذا الكتاب؟

اتذكّر أنّني اعتقدت أنّ المقابلة ستكون سيئة. الجواب الأسهل هو «الحقيقة بالتأكيد... ببساطة، اوردت ما حدث خلال فترة إدارة نِكسُن الأولى.»

كُپل: الحقيقة دون أن تتكلم معه؟

هيرش: يكون الصحفي احيانا قادرا على أن يتوصل إلى الحقيقة دون أن يتكلم مع الأشخاص المعنيين مباشرة.

كُپل: استميحك العذر. أعتقد أنّ الجميع متفق على ذلك... ليس لأحد الوقت الكافي لكي يقرأ الكتاب بكامله... خرجت بانطباع لدى اطلاعي على بعض المقاطع الأولى بوجود ضغينة، خاصة حين تعرضت إلى فتح العلاقات مع الصين ومحادثات الحد من الأسلحة النووية. وليس هناك ما يستحق الذكر فيما تبقى من محتويات الكتاب.

إستمرّ كُپل يتحدث على هذا المنوال وأنّ الكتاب صوّر كِسِنجر «وكأنّه شخصية راسپوتِن، الذي كانت له المقدرة أن يخدع كلّ من حوله، حتى جاء ساي هيرش ومزّق القناع الذي يرتديه.» من المستحيل القول عمّا تعلمته عن سياسة كِسِنجر الخارجية، خاصة وأنّ كُپل ليست لديه فكرة عمّا في محتوى ذلك الكتاب، وليس له علم بدور شبيه راسپوتِن في ذلك البيت الأبيض.

إنظم ضيفان للبرنامج الذي استمر ساعة، وهما لاري إيگلبَرگر، وكيل وزير الخارجية كِسِنجر، الذي حذره أنّه كان «هدفي المطلوب» لدوره في الإطاحة بحكومة أيندي في چلي. أمّا الضيف الآخر فكان وِنستُن لورد، الذي عرفته قليلا حين لعبنا البوكر في منزل لِس گِلب. كان لورد من اقرب مساعدي كِسِنجر ممّن يثق بهم ثقة عالية. احترمته كثيرا لأنّه حافَظ على اخلاصه تماما وسط مجموعة كبيرة من الساخطين على الوزير/المستشار في مكتبه. كان بودي أن يتحدث معي هذا الرجلان حين كنت أعدّ الكتاب، لكنّهما رفضا طلبي.

بدأ إيگلبَرگر بالحديث أولا. في وقت معين من عام 1974، وحين كان يعمل مع كِسِنجر، دعاني لاري إلى مكتبه في وزارة الخارجية وقال بلهجة ساخرة أنّ «هَنرِخ» يريدني أن اطلع على بعض الوثائق السرية عن نشاطات وكالة المخابرات المركزية في چِلي، في محاولة منه ليثبت أنّ الضابط السابق في الوكالة، الذي زودني بالمعلومات عن الموضوع، قد لعب دورا هاما في الساعات الحرجة خلال تنفيذ العملية. تصفحت الوثائق بسرعة وادركت شيئا، ربّما لم يدركه لاري، أنّ تلك الوثائق هي خلاصة لاجتماع سرّي عُقِد في وقت مبكر وافق فيه كِسِنجر على القيام بعملية سرية شنيعة ضدّ حكومة أيندي. كتبت في اليوم التالي مقالة للتايمز عن تلك الوثائق. كنت سعيدا للغاية أن اسخر ثانية من احدى مناورات كِسِنجر، التي تظهر احتقاره المتأصل للصحافة. لم اتمالك نفسي من الضحك وأنا اتذكر ذلك حين قال لاري بحضوري، «ما يتوفر لدينا الآن شيء ينمّ عن الجهل التامّ، أو محاولة لتجاهل... حقيقة تلك السياسة العظيمة القائمة على الجهود الفكرية.... واعترف أنّني لم اقرأ الكتاب بعد.»

أمّا لورد فاندفع إلى مهاجمتي شخصيا. إعترف أنّه لم يقرأ الكتاب بعد، لكنّه رغم ذلك صورني بأنّني لا اعرف شيئا، وأنّني تجاهلت إنجازات كِسِنجر في قضية فتح العلاقات الدبلوماسية مع الصين وقضية الحدّ من التسلح ومحاولة إنهاء الحرب بطريقة مشرّفة. ثمّ تساءل بطريقة مسرحية، «أليس من حظنا وجود كِسِنجر الراسخ في ثباته كمرساة من أجل الشعب الأمريكي، بل من أجل العالم خلال ازمة ووترگيت؟» ثمّ اضاف، «نعم، سيكون ذلك حكم التاريخ عليه بعد أن ينزوي حاملو البلطات بالعودة إلى جحورهم.» لا بُدّ أنّ لورد كان يعرف أنّه تلاعب بالكلمات، حين اعاد إلى اذهان المشاهدين زيارة نِكسُن وكِسِنجر إلى الصين عام 1972. الوسيط، كما ذكرت سابقا هو يحيى خان، رئيس پاكستان. كما عرف لورد أنّ نِكسُن وكِسِنجر قد اشاحا ببصرهما حين كان جيش پاكستان يحصد ارواح اعداد لا تحصى من الأبرياء في بنگلادَش. كان معروفا عن لورد أنّه ضمن الدائرة الخاصة في تلك الأيام، وعلى علم بحجم الأكاذيب، التي تفوّه بها كِسِنجر حينها. استشهدت في كتابي بنصّ مقابلة مسجلة لما قاله هو ذاته عن تلك المذبحة واعترف أنّ كِسِنجر رفض أن يمارس ضغطا على يحيى خان بشأن هجمات جيشه في پاكستان الشرقية، رغم موجات الإحتجاج العارمة التي قامت في الولايات المتحدة تنديدا بذلك القتل. «لم تكن بادرة لشكر يحيى خان على مساعدتنا في قضية الصين، بل كانت تعبيرا مقنعا للصين بأنّنا بلد يمكن التعامل معه.»

كنت متأكّدا أنّ كَپل سيخفّ إلى نجدتي في تلك اللحظات، على الأقل باقتراح منه يطري فيه على ما انجزته سابقا كصحفي، وإنّي استحق دفاعه لكوني ضيفا على برنامجه لمدة ساعة. لكنّه لم يقل شيئا، وهذا ما دعاني إلى أن اقول لهم جميعا، «إنّني متعب من الكلام عن كتابي مع اشخاص لم يقرأوه بعد... إنّني آمل... أنه حين يكون السيد إيگلبَرگر والسيد لورد، وهما ضمن الجهاز الحكومي ألّا ينفذا السياسة الخارجية للبلد اعتمادا على ما يقرأنِه في الصحف.»

لقد تعرضت من قبلُ لهجمات من قبلِ مسؤولين في وكالة المخابرات المركزية ومن قبل سِدني كورشاك وچالز بلودورن وآخرين من السفاحين الأشرار thugs. لكنّ ذلك ما كان يشبه المعاداة المفضوحة المفتوحة وجها لوجه، التي خلقها كَپل وبرنامجه، الذي يتابعه الملايين من المواطنين. كنت اعرف أنّه معجَب ولوقت طويل بشخصيةَ كِسِنجر. كان صريحا بشأن ذلك خلال

مقابلة جرت معه عام 1989 حين ذكر، «أنّه واحد من بين اثنين أو ثلاثة من وزراء الخارجية العظام في تاريخ بلدنا.» في عام 2005، وبعد تقاعده من العمل في محطة تلفزيون أي بي سي، ذهب كُپل إلى ابعد من ذلك حين ذكر في حوار من اجل فلم توثيقي أنّ كِسِنجر، وبعد أن عيّنه نِكسُن وزيرا للخارجية، قد عرض عليه منصب المتحدث باسم وزارة الخارجية بدرجة وكيل وزارة. «كان عرضا سخيّا فكرت فيه لمدة ثلاثة أو اربعة اسابيع قبل رفضه،» كما ورد في نص مقابلته لاعداد حلقة وثائقية لبرنامج PBS Frontline.

لقد ادّى الكتاب دوره لكشف الحقائق عن كِسِنجر. جرت له بعض المراجعات الرديئة، لكنّ الأغلبية كانت جيدة. من المراجعات التي استرعت انتباهي تلك التي كتبها كرستفر لَيمَن- هاوپ، الذي يعمل في قسم مراجعة الكتب في التايمز، وهو زميل ليست لي به معرفة شخصية. كتب يقول:

تفاصيله شاملة وموضوعيته تبدو ظاهرة للعيان. وأهم ما فيه اطروحته النهائية. إنّ هذا الكتاب لا يقوم على الإشاعات والوشايات، بل يعيد صياغة بناء هيكل سياسة أربع سنوات من حكم نِكسُن من خلال مذكراته الرسمية، التي تتنافس مع التفصيلات، التي أتى عليها السيد كِسِنجر في جزئين من....

هذا كتاب يتجاوز من خلال كثافة حقائقه نغمة الغطرسة لأيّ صحفي استقصائي أو المُنظّر الذي يحمل فأسا يشذّب فيه ما لا يعجبه. في الحقيقة أنّ السيد هيرش بدا وكأنه مؤرخ وضع نصب عينيه هدفا اخلاقيا.

مضى لَيمَن - هاوپ يشرح الصعوبة الكبرى في تأليف كتاب من هذا الصنف. قال إنّه ليس كتابا سهل القراءة بشكل اساسي، «المعلومات التفصيلية فيه مركزة تختبر صبر أيّ شخص له المزاج أن يقرأ عن إدارة نِكسُن.» واضاف يقول، «الكتاب يسبّب الإكتئاب، خاصة لكلّ من اصابه الضجر من فضيحة ووترگَيت. كان من المفترض أنّ السياسة الخارجية وهنري كِسِنجر هما عاملا التعويض عن إدارة نِكسُن. لو كان السيد هيرش على خطأ، لكان هناك مجال لأخذ النَفَس والشعور بالراحة، ولكنّ إذا كانت دراسته المطولة لتلك الفترة ستصمد في وجه الفحص الدقيق في المستقبل، فإنّه لن يعود بوسعنا أن ننال العزاء.»

واجهت الجانبين السلبي والإيجابي لكتابي في صباح مبكر في صيف عام 1983 حين دُعيت وأسرتي للسباحة في حوض منظمة YMCA في ضواحي مَريلاند. لاحظت سيدة تقرأ كتابي وهي تتشمّس. وبعد حوالي نصف ساعة لمحت أنّها غفت وغطت وجهها بالكتاب.

الآن وقد انتهيت من موضوع الكتاب، اقترح صديقي لِس گِلب أن نشترك في كتابة عمود. لم يكن لدينا شكّ أنّه سيكون باستطاعتنا ايجاد عدد من الصحف لنشره. بالرغم من ذكاءه في الحصول على المعلومات الأساسية، الّا أنّه كسول بعض الشيء في الكتابة، بحيث أنّني انتهيت اكتب مسودة العمود تقريبا. لكنّني سرعان ما ادركت أنّ هذا المشروع لم يحفزني. إنّني اميل إلى مشاريع كتابة المواضيع الطويلة التفصيلية. أمّا كتابة ثلاثة اعمدة اسبوعيا بطول 700 كلمة لكلّ منها،

فتكليف لم اشعر نحوه بالحماس. في النهاية، تركت الأمر لصديقي لِس كي يتولاه بنفسه وقد أجاد فيه واصبح كاتبا للعمود في صحيفة التايمز [35].

حدثت في نفس الوقت في البيت الأبيض اشياء تبعث على الجنون. مثلا، لم يُنشر شيء عن نتائج عجز رَيگِن للسيطرة أو رغبته للتحكم في نشاطات وِليَم كَيسي، مدير وكالة المخابرات المركزية. كنت اعلم أنّ هناك عمل هام يمكنني انجازه لصالح التايمز، لو ارادت ذلك منّي. تحدثت بهذا الشأن مع أيب فتطرقنا إلى جرح مشاعره وجرح مشاعري وواقع الصحيفة، واتفقنا على أن ما جرى خطأ. كتب لي بعد ايام رسالة طويلة جاء فيها، «كان أمرا رائعا لو بقيت معنا أصلا وبنيت مشاريعك هنا. ولكن ولأنّ ذلك لم يحدث، فاعتقد أنّه من الأفضل أن نترك الأمور على حالها.» كان على صواب، رغم أنّه لم يتوقف عن نشر بعض القصص الهامة، التي كتبتها خلال السنوات التالية، منها ما يلي:

- ساعدت على ابعاد كِسِنجر من العمل في البيت الأبيض عام 1974 بعد أن كشفت لجنة ترأسها حول مستقبل أمريكا الوسطى وتوصلها لقرار هزلي فحواه أنّ الإتحاد السوفياتي يهدد للقيام «بانقلابات ستراتيجية» في المنطقة. لم يحدث أيّ من تلك الانقلابات، فانحلت لجنته وسط جدل حول استنتاجاتها الرئيسية. لقد سُرّبت لي نسخة من تقرير تلك اللجنة، فقمت بنشر جزء كبير منه في الصحيفة.

- فضحت تقريرا سريا للغاية عن أنّ العراق قد استعمل غاز الأعصاب في حربه مع إيران. كانت الولايات المتحدة حينها تأخذ جانب العراق وتساعده, ساعدت على شراء معدات مختبرية لإنتاج هذا الغاز في العراق من شركة في المانيا الغربية. قُدّمت المعلومات المخابراتية، التي جمعتها الأقمار الصناعية للرئيس رَيگِن ثلاث مرات خلال اسبوع واحد، ولم يكن هناك دليل على أنّه قرأ تلك التقارير. وهو الأمر الذي اجبر مسؤولي وكالة المخابرات المركزية أن يرسموا في تقاريرهم اليومية المقدمة للرئيس الخطوط الحماء التي تمّ تجاوزها. كان واضحا أيضا أنّه لم يقرأ تلك التقارير. أخبِرت حينها، ولكنّي لم أتأكد من ذلك، أنّ الوكالة قررت في النهاية أن تجعل تقاريرها اليومية المقدمة إلى الرئيس على شكل اشرطة فديو تُعرض امامه في المكتب البيضاوي على شاشة التلفزيون.

- نشرت تفاصيل العملية الپاكستانية الناجحة، التي استمرت 9 أشهر لتهريب ازناد المشغّلات النووية من الولايات لاستخدامها في برنامجها للسلاح النووي، الذي كان في طور الإعداد. شملت قصتي عن الموضوع لقاء مع عميل باكستاني ساهم في تلك العملية. تمّ الإعلان عن ذلك في برنامج فرونت لاين على محطة التلفزيون العامة PBS، من خلال عرض فلم وثائقي تعاونت فيه مع مارك اوبنهاوس، مخرج الأفلام المعروف في نو يورك.

- فضحت الدور السري للمخابرات الأمريكية في تزويد حكومة جنوب افريقيا العنصرية بالمعلومات عن قادة المجلس الوطني الأفريقي ANC في المنفى، الذي تكلل نضاله الناجح في اسقاط النظام العنصري ووضع نهاية له. إنّ تزويد الحكومة العنصرية بتلك المعلومات ادى أيضا

إلى اعتقال قادة المنظمة في داخل البلاد. توقف هذا التعاون بأمر من الرئيس كارتر، ولم استطع التأكّد عمّا إذا كان التعاون المذكور قد استؤنف في عهد ادارة رَيگِن.

المقالة المزعجة للبعض، التي نشرتها باعتباري صحفيا لا اعمل رسميا في التايمز، ظهرت في شهر يونيو عام 1986، واظهرت الإشارات المخابراتية الأمريكية الموجهة للجنرال مانويل انتونيو نورييگا، دكتاتور پنما، الذي خوّل اغتيال زعيم شعبي معارض له. كان نورييگا حينها يوفر المساعدة لإدارة رَيگِن لما كان يُقال بانّه معلومات مخابراتية حول وقف انتشار الشيوعية في أمريكا الوسطى. سمح نورييگا لقوات أمريكا العسكرية ومخابراتها للعمل بحرية وبشكل سرّي من قواعد اقيمت في پنما. وبالمقابل اشاح الأمريكيون بوجوههم عن دور الجنرال المفتوح في عمليات تهريب المخدرات والسلاح. نشرت مقالتي في الوقت الذي كان فيه نورييگا يستعدّ ليلقي خطابا في جامعة هارفرد، ممّا تسبّب له وللجامعة في نوع من الإحراج. تلقيت وقتها تهديدا بالهاتف في مكالمة إلى منزلي من مجهول، ليس ضدي فقط، بل ضدّ عائلتي بكاملها.

كما كتبت ثلاث مقالات أخرى تفصيلية خلال تلك الأيام لصالح مجلة نو يورك تايمز. كانت الأولى عن وحدة عسكرية سريه تفشى فيها الفساد بسبب المال وغياب المراقبة. المقالة الثانية حول وصف محاولة اغتيال معمر القذافي باستعمال طائرات F111، التي اقلعت من انكلترا. أمّا الثالثة فقد كانت حول فضيحة إيران- كونترا عام 1987، والتي جرت بموافقة البيت الأبيض السرية لبيع السلاح إلى ايران مقابل اطلاق سراح امريكيين محتجزين هناك. اعتمدت هذه المقالة على مقابلات مع اعضاء من مختلف لجان مجلس الشعب ومجلس الشيوخ، ومع آخرين ممّن اثاروا اسئلة حول رفض المشرعين الديمقراطيين والجمهوريين معا للخوض عميقا في دوري الرئيس رَيگِن ونائبه بُش في القضايا الدنيئة التي شوهت سمعة السنوات الأخيرة من فترة ادارتهما.

تطلبت مقالات الصحيفة والمجلة مقابلات كثيفة وكتابات مطولة ذكّرتني بقوة الصحافة واهميتها. غير أنّ مشاريعي في الحقبة التي تلت نشر كتابي عن كِسِنجر تضمنت تأليف كتابين آخرين واعداد فلم وثائقي لبرنامج فرونت لاين عام 1988، بالتعاون مع مارك أوبنهاوس. صور الفلم محاولات المخابرات العديدة واساليبها خلال غزو گرِنَيدا عام 1983. كما أنّني خلال تلك الفترة عدت للعمل مع دَيفِد أوبسِت، الذي تحوّل إلى عالم السينما، وساعدته في انتاج فلم انتقام المهووسين عام 1984. كما ألحّ عليّ دَيفِد بشكل مستمر واقنعني اخيرا أن اخصص عددا من ساعات وجودي في لوس انجلس لمتابعة كتابة تقاريري، لكي اذهب معه لزيارة مارتِن برگمَن، المنتج الناجح الذي كان آخر افلامه بعنوان عصر يوم قائظ، الذي قام بدور البطولة فيه شاب جديد اسمه أل پَچينو. كان الفلم رائعا، ولذلك وافقت أن اذهب لمقابلة منتجه.

كان من المقرر أن نناقش فلما يدور حول شخصية كِسِنجر، كما صورتها في كتابي. تحدث دَيفِد حوالي نصف ساعة وهو يقود السيارة في طريقنا إلى هوليوود. وبعد مرور حوالي عشر دقائق من الحديث مع برگمَن، فاجأنا بالقول «حسنا»، وطلب منّا أن نطلب من وكيلي اعمالنا أن يتصلا به. علمت فيما بعد أنَّ لقاءنا معه جرى في فترة رخاء قصيرة الأمد كانت فيها استديوهات السينما تدفع الأموال الطائلة على اساس اتفاقات تمهيديه دون تقديم نصّ/سيناريو مكتوب.

لم تجرِ الأمور مع برگمَن على ما يرام، لكنّني ودَيفِد حصلنا على عقد مع شركة وارنر برذرز، فكانتَ أيضا فرصة أخرى لأتعلم أمرا جديدا. انتهينا اخيرا بوضع خمسة نصوص/ سيناريوهات خلال السنوات الخمس القادمة لعدد من مخرجي الأفلام مثل أوليفر ستون وساره بلاك وتَد تَنِن. لم تعد لرحلاتي الأسبوعية بين واشنطن ولوس انجلس علاقة بالصحافة، وعلى حدّ وصف زوجتي الأفضل أنّني حققت ثلاثة امور هي الوصول إلى الساحل الغربي ولعب المزيد من التنس مع أخي وأخذ والدتي للعشاء بشكل متكرر. أضافت بأنّني لم اعد اشعر بالإحراج لعدم انجاز أيّ شيء. تعلمت إجادة كتابة نصوص الأفلام، من خلال ارتباطي باشخاص اذكياء طويلي الصبر مثل تَنِن، المدير التنفيذي لإحدى الإستديوهات، والذي لعب دورا مهما في انتاج واخراج سلسلة من الأفلام منها صياد الغزلان والكتابة الأمريكية على الجدران ونخبة الطيارين المقاتلين. وكما اعاد تَد على مسامعنا كثيرا فإنّ الأمر أولا واخيرا يتعلق بشخصية الفلم الرئيسية.

الفت كتابين آخرين بعد تأليف كتابي عن كِسِنجر. الأول عنوانه «تدمير الهدف»، الذي نُشِر عام 1986 وموضوعه الطائرة المدنية الكورية، التي اسقطها الإتحاد السوفياتي عام 1983 والمعروفة باسم (الرحلة رقم 007). أمّا الآخر فهو «خيار شمشون» عام 1991، وتناول الإذعان الأمريكي لقرار إسرائيل بامتلاك السلاح الذري وتصنيعه. قام بوب لومِس من دار نشر راندُم بمراجعة الكتابين قبل طبعهما وتوزيعهما.

القى الكتابان الضوء على كثير من الحقائق، التي بقيت خفيّة على العالم. تناول كتاب الرحلة 007 رغبة إدارة رَيگِن للإستنتاج مباشرة ودون أيّ دليل على أنّ روسيا اسقطت الطائرة حين دخلت مجالها الجوي رغم علمها بأنّها طائرة مدنية. اتضح لي أنّ دخول الطائرة لذلك المجال كان نتيجة خطأ ارتكبه الطيار، لكنّ أمريكا مضت مدفوعة بتشنج البيت الأبيض وهو يعاني من هستيريا الحرب الباردة فكرّر اتهاماته عن اسقاط الطائرة المتعمد. استطعت بمساعدة اللواء الطيار جَيمس فوتز، رئيس المخابرات الجوية أن اخوض عميقا في التقارير الأولية للقوة الجوية عن الأخطاء التي ارتكبت. من الملفت للنظر أنّ فوتز، الذي ساهم في كثير من الغارات في حرب فيتنام، كان ضابطا عنيدا. وهو الذي اضطر النظام أن يدرك بأنّ الإتحاد السوفياتي ببساطة، قد ارتكب خطأ لأنّه اعتبرها طائرة تجسس امريكية، من التي تطير قرب الساحل الشرقي الروسي لمراقبة اشارات الرادار وغيرها من النشاطات قرب ذلك الساحل. بدأ فوتز يثق بي لأنّني في تقاريري عن اسقاط الطائرة المنكوبة قد اكتشفت حقائق طلب منّي عدم نشرها في حينها، فأذعنت لطلبه. وبالمقابل ساعدني في الوصول إلى عدد من الأشخاص في المخابرات الأمريكية، من الذين عرفوا الحقائق فاطلعوني عليها. اختتمت كتابي بالقول، «خطا سوفياتي مأساوي ومتوحش، لم تعترف به موسكو فتطور إلى شرارة خطيرة قائمة على اساس عدم الفهم والمعلومات المخابراتية المحرفة، في حين أنّ وكالة الأمن القومي NSA، التي تعرف بالأمر، التزمت جانب الصمت واختارت ألّا تخبر الطيار ولا أحد في الحكومة عن حقيقة ما لا يريدون سماعه.» بيعت نسخ كثيرة من الكتاب في اليابان، الذي علم مواطنوه منه أنّ منظمة الأمن القومي لديها اجهزة لمراقبة الإشارات في المنطقة، ولا يعرف عنها الّا القليل من افراد السلطة العليا في اليابان، وأنّ تلك الأجهزة منصوبة على احدى الجزر النائية في اقصى شمال البلاد.

كتب الصحفي تومَس پَورز في ختام مراجعة الكتاب، التي نُشرت في التايمز ما يلي:

ليس للسيد هيرش مشكلة في جمع المعلومات المخابراتية، وهو معجب بشكل واضح بجدية وقدرة اولئك الأفراد الذين يجمعونها ويحللونها، ولم يحاول أبدا أن يحرّف شيئا من نشاطاتهم. لكنّه ذهب أبعد من ذلك فكشف المعلومات، التي ظلت سرية. الحقيقة هي أنّ المستفيدين من تلك المعلومات المخابراتية هم في العادة كبار المسؤولين في الهرم الحكومي، اعني سياسيين في غرائزهم وفطرتهم قبل أن يكونوا أيّ شيء آخر، ويستعملون تلك المعلومات لتحقيق اهدافهم السياسية. لقد تعوّدوا على فعل ذلك دون رادع، ثمّ جاء هيرش وامسك بهم وهم متلبسين باقتراف الجرم المشهود، فلم يحبّوا ذلك.

لم يكن مدهشا أنّ مراسلا وطنيا ذا خبرة طويلة قد ادرك ذلك وجعله جوهر كتابه، لكنّني كنت أكثر سعادة حين طلِب منّي أن اكون محللا للمخابرات في واحدة من أهم محطات جمع المعلومات السرية لصالح وكالة الأمن القومي في اليابان، مقابل اهداء عدد من نسخ كتابي الرحلة 007 تحمل توقيعي لكي تباع خلال معرض الكتب السنوي لغرض جمع التبرعات لبرامج خيرية في القاعدة. كما علمت أنّ كتابي هذا أصبح مصدرا يجب قراءته هناك، وفي كافة محطات وكالة الأمن القومي في الشرق الأقصى.

أمّا كتابي عن السلاح النّووي الإسرائيلي، فيدور حول ما عرفته عنه أمريكا مسبقا، إثر النجاح المدهش، الذي حققه مناحِم بَيكِن وحزب الليكود في الانتخابات الوطنية في إسرائيل عام 1977. إنّ اندحار حزب العمال، الذي برز للوجود عام 1968 بتحالف مع حزب ما پاي اليساري الوسط، عنى أنّ الليبراليين المعتدلين لن تكتب لهم السيطرة على الوضع السياسي في البلد لأول مرة منذ 29 عاما. وهذا أمر لا يحدث إلّا في إسرائيل.

كانت النتيجة أنّ الذين خرجوا من الحلبة السياسية بدأوا يتحدثون عن كيفية حصول إسرائيل على القنبلة الذرية، وكيف أنّ أمريكا لم تفعل شيئا لوقفها. ليس باستطاعتي ذكر اسماء اعضاء حزب العمال السابقين، الذين تحدثوا اليّ عن الموضوع هنا في أمريكا وفي امكنة اخرى، عن الأيام الأولى للحصول على تلك القنبلة، بنفس الطريقة، التي لا يمكنني فيها كشف هوية ضباط وكالة المخابرات المركزية، الذين اصيبوا بالفزع نتيجة معرفتهم بالمساعدة السرية، التي قدمتها أمريكا للبحوث الإسرائيلية في هذا الشأن. وكما يبدو فإنّني اقتحمت داخل مخطط يتعلق بدور روبرت ماكسويل، الناشر البريطاني المعروف وصاحب صحيفتي الديلي مِرر وصَنْدَي مِرر، بالتعاون مع نِكولاس دَيفِز، محرر الشؤون الخارجية في تلكما الصحيفتين المذكورتين، وعلاقتهما بجهاز الموساد للإيقاع والقبض على مردخاي فنونو، الذي عمل في البرنامج النووي الإسرائيلي، ونقله إلى إسرائيل للمحاكمة بتهمة الخيانة والتجسس. فنونوهذا، يهودي إسرائيلي ينحدر من اصول عربية، كان قد زوّد صحيفة بريطانية منافسة بتفاصيل عن البرنامج النووي الإسرائيلي واختفى عن الأنظار. لم يكن اليهودي ماكسويل جاسوسا يعمل لصالح الموساد، لكنّه كان من المناصرين المتحمسين المستعدين لعمل أيّ شيء من أجل إسرائيل. كما أنّني اوضحت في كتابي أنّ دَيفِز قد عمل احيانا في تهريب السلاح ولعب دورا اساسيا في القبض على فنونو ونقله سرّا إلى اسرائيل. أثارت هذه الإتهامات موجة انكار واستنكار وتوجيه اتهامات معاكسة، بحيث طلعت الديلي مِرر

بعنوان كبير «التزوير» حول إحدى الوثائق التي استعنت بها، ثم طلعت الصحيفة الأخرى بعنوان اكبر «أنت كذاب،» في حين أنّه ثبتت صحة وثيقتي.

قاد هذا الخِلاف إلى مزيد من العناوين الكبيرة خلال الأسابيع التالية، خاصّة أنّ جماعة المِرر قد شكتني مطالبة بتعويض مالي بعد أن وُجِد ماكسويل ميتا بشكل غامض في يخته عام 1991 في مياه جزر الكنَيري. رفضت المحكمة تلك الشكوى، فقدمت بدوري ونتيجة لنصيحة محاميّ مايكل نِسبَوم بشكوى معاكسة. تمّ التوصل إلى اتفاق في السنة التالية خارج المحكمة باصدار اعتذار علني وتعويضي بمبلغ كبير، لا استطيع البوح بمقداره، بموجب نصوص الإتفاق. كتبت صحيفة واشنطن بوست عن اتفاق التعويض قائلة، إنّ جماعة المِرر قد اعترفت أنّ اتهاماتها ضدّي وضدّ ناشري في بريطانيا فابَر أند فابَر، «كانت اصلا لا صحة لها، وما كان يجب أن تثار.» ذكر اعتذار جماعة المِرر أنّني «مؤلف ذو سمعة ممتازة ونزاهة عالية، من النوع الذي لا يكتب شيئا يعتقد أنّه غير صحيح، وأنّه في تلك اللحظة كان محقا فيما كتب.» شعرت بالحيرة من الجملة الأخيرة التي نشرتها البوست بصدد الموضوع، «يبدو أنّ محامي الصحيفة قد ذكر بالأمس أنّ هيرش كان على صواب.» في الحقيقة أنّه ليس عندي شكّ في ذلك.

كانت لدي آمال عالية بمبيعات الكتاب في امريكا، حيث أنّ ما كشفته حول حجم ترسانة إسرائيل النووية أصبح القصة الرئيسية في صحيفة التايمز منذ أن نزل الكتاب إلى الأسواق في خريف عام 1991. لكنّه سرعان ما أصبح واضحا أنّنا نواجه قوة إسرائيل ونجابهها، لإنّ نظرة تحليلية لدور أمريكا منذ رئاسة دوايت أيزنهاور ومن جاء بعده من الرؤساء، هو الإذعان وتحاشي مجابهة إسرائيل بخصوص سلاحها النووي السري. خبت جذوة الإقبال على شراء الكتاب في الجانب الغربي من نو يورك، حيث محل سكنى العديد من اليهود، بعد أن اتضحت الرسالة التي يعبّر عنها الكتاب. وهي رسالة لا يريد أن يسمعها إلّا النادر من اليهود. غمرتني موجة من الدعوات للحديث من مختلف الأكنسة/المعابد اليهودية، بمختلف الوانها ونزعاتها. كانت زياراتي لها والتحدث إلى من حضر إليها مخيبة للآمال. كان من أسوأها حديثي في كنيس في ضواحي مدينة كلِفلاند، الذي أصبح مشهدا من الفوضى، حين انطلق العديد من الحاضرين بالصراخ استنكارا لوجودي، خاصة حين ذكرت كيف أنّ رؤساء أمريكا قد تغابوا واحدا إثر الآخر واشاحوا بابصارهم بعيدا كي لا يروا كيف بدت إسرائيل تنتج الرؤوس النووية. لم تكن النقطة، التي اثرتها ضدّ امتلاك إسرائيل لهذا النوع من السلاح، ولكن ما عنيته هو نفاق أمريكا ومساعدتها المكشوفة في طول الشرق الأوسط وعرضه، وهي تدعي أنّها تحاول منع انتشار الأسلحة النووية وامتلاكها من قبل باكستان وغيرها من البلدان، التي لم تعلن عن طموحاتها في هذا الميدان. اشتدت عدوانية الحاضرين وأنا مستمر في كلامي ممّا اضطرني في النهاية أن اقطع حديثي واستميح الحاخام عذرا، كي اغادر قبل دقيقتين من نهاية اللقاء، واسرع إلى سيارتي المستأجرة، التي أوقفتها في ساحة المعبد.

من غير المفاجئ أنّ مراجعة الكتاب اعتمدت على تفاوت مشاعر الأشخاص ازاء إسرائيل وعلاقاتها بجيرانها العرب. فأولئك الذين يساندونها بلا شروط ولا حدود، ادعوا أنّ اعتمادي على مصادر مجهولة جعلهم يرفضون ما جاء في الكتاب جملة وتفصيلا. لقد اصروا على هذا الموقف، رغم أنّ التايمز وغيرها من قنوات الإعلام الرئيسية تعتمد على مصادر مجهولة بين المسؤولين الذين يعلقون باستمرار على السياسة الخارجية. كما أنّ الكتاب هيّأ لي نظرة تبصّر في واقع العالم

العربي. ظهر كتاب «خيار شمشون» قبل ايام من انعقاد مؤتمر مدريد في شهر اكتوبر من عام 1991. كان انعقاده فكرة مبتكرة باشراف الولايات المتحدة والإتحاد السوفياتي بقصد تجديد محادثات السلام بين إسرائيل والفلسطينيين. تمت دعوة سوريا والأردن ولبنان للمشاركة في ذلك المؤتمر، بموافقة الرئيس جورج بُش الأب. لقد اعطى كتابي الفرصة المباشرة للشعوب العربية، كي تفكر وتناقش العواقب العسكرية والسياسية المترتبة على امتلاك إسرائيل لترسانة نووية، وهو أمر ترفض إسرائيل ومساندوها التطرق إليه في أيّة محادثات للسلام، رغم أنّ لإسرائيل ترسانة نووية لا أحد في الشرق الأوسط يمتلك مثيلا لها. تسلمت عددا من الرسائل والمكالمات من العالم العربي وفيها دعوات للزيارة والتحدث عن هذا الموضوع. كان جوابي بأنّه يسعدني أن احضر واتحدث عن كتابي في مكان واحد يختارونه في الشرق الأوسط. ليس لدي وقت أن اناقش الموضوع في خمس أو ست عواصم عربية. اقترحت أن يتفقوا على مكان معين احضره لأتحدث عن كتابي. لم يحدث ذلك رغم اهتمام العديد من الشرق الأوسط بالموضوع. وعليه لم اسافر إلى هناك. الدرس الذي تعلمته، أنّه سيتحقق سلام في العالم في وقت ما بين البيض والسود وبين روسيا وامريكا وبين الأغنياء والفقراء، قبل التوصل لاتفاق بين العرب والإسرائيليين.

بيعت نسخ كافية من الكتابين الأخيرين غطت المبالغ، التي دُفعت لي مقدّما من قبل دور النشر. لكنّهما بقيا على قائمة افضل المبيعات لوقت قصير. بيع الكتابان في الخارج وتمت مراجعتهما والحديث عنهما في الصحف وندوات التلفزيون والمقابلات الإذاعية معي. غير أنّ مبيعات النسخ ذات الغلاف المتين في الولايات المتحدة لم تصل إلى العدد الذي حققه كتابي عن كِسِنجر «ثمن السلطة».

تساءلت مع نفسي إن كان الوقت قد حان لكي اضع جانبا تأليف الكتب واعداد الأفلام الوثائقية للتلفزيون وعمل الأفلام السينمائية، لأعود ثانية لمجالي في الصحافة اليومية. لقد دعاني قبل سنوات كرَگ وِتني، رئيس مكتب التايمز في واشنطن، للعودة للعمل فرفضت. ثمّ حلّ ماكس فرَنكِل محلّ أيب كمحرر تنفيذي عام 1989. وهو أكثر حذرا من أن يفسح المجال أمام من لا يعمل في الجريدة أن ينشر فيها على الصفحات الأولى. قيل لي أنّ روزنثال قد شرح ظاهرة استمرار نشر مقالاتي على الصفحة الأولى، بأنّه ما كان في حاجة أن يشتريَ بقرة ما دام يحصل على حليبها من خارج سياج الحقل. تمنيّت أنّه قد قال ذلك فعلا، أو شيئا من هذا القبيل، لأنّ ذلك الترتيب كان من صالح كلي الطرفين. وهكذا لم يعد بوسعي نشر موضوع في التايمز اليومية بخلاف مجلة التايمز ليوم الأحد. كنت متحفزا لنشر مقالة حول فشل مجلس الشيوخ للتحقيق في فضيحة إيران- كونترا. كنت حينها منغمسا تماما في اعداد كتابي عن اسقاط الطائرة الكورية. انتشرت اخبار ذلك الفشل بين الصحف اليومية، التي لم تقم هي الأخرى بدورها كما فعلت في فضيحة ووترگيت، ولم تركّز على دور الرئيس رَيگِن أو نائبه جورج بُش. كان من المستحيل الإقتناع بأنّ بُش، الذي شغل منصب مدير وكالة المخابرات المركزية ويعمل الآن برفقة رئيس مشوّش، لم يلعب دورا اساسيا في تلك الفضيحة. لقد خرج رَيگِن ونائبه بُش سالمين من الفضيحة ودون أن تلحق بسمعتهما أيّة لطخة. وحسب اعتقادي، فإنّ ذلك يعود إلى فشل المحققين في مجلس الشيوخ. امضيت عدة اشهر بتكليف من المجلة بين عامي 1990 و1991 وأنا احاول أن اعرف كيف حصل هذا. في طليعة الأشياء التي توصلت إليها أنّ اعضاء مجلس الشيوخ المساهمين في التحقيق كانت تعوزهم الجرأة والشجاعة كي يلاحقوا رَيگِن قانونيا.

لقد اتصف تحقيق مجلس الشيوخ بالفشل والمستوى الهابط. وعليه كتبت، «بعد مضي ثلاث سنوات من التحقيق والإجراءات الجنائية، لم يودع أحد السجن. كما أنّ فضيحة إيران - كونترا لبيع السلاح من اجل الحصول على الأرباح من قبل مجموعة متمردة من المسؤولين داخل البيت الأبيض، لم تنجم عنها أيّة اصلاحات دستورية أو قانونية.» إنّ العم رونلد رَيگِن، الواهن العقل، قد سلم من أيّة مسؤولية.

الفصل الثامن عشر

الاقتصاص من مجلة نو يوركر

غمرتني الفرحة حين علمت أنّ تينا براون قد عُيّنت مديرة تحرير مجلة نو يوركر عام 1992، خاصة حين دعتني لمعاودة الكتابة للمجلة. اعرف أنّ زوجها هَري إيفَنز، كان يشجع الصحافة الاستقصائية حين كان يدير صحيفة صنديَ تايمز في لندن. وهناك اعتقاد أنّ تينا تشاركه نفس الميل.

جاءت مكالمتها في الوقت المناسب جدا. لقد ابرمت السنة الماضية اتفاقا لمهمة يتمناها أيّ صحفي، عرضها عليّ جو للِفَلد، نائب ماكس فرنكِل. احترم جو كثيرا، فهو مراسل من الدرجة الأولى، وكان قد رغب أن اعود للعمل في التايمز في مهمة خاصة، وهي أن احاول فكّ اللغز المحيّر حول فشل الرئيس جِمي كارتر للحصول على ولاية ثانية عام 1980. كان السؤال يدور حول عمّا إذا كان الجمهوريون قد تفاوضوا سرّا مع الإيرانيين للإبقاء على الرهائن الأمريكيين البالغ عددهم 52 رهينة في السجن، واطلاق سراحهم بعد دقائق من انتهاء الرئيس المنتخب رونلد رَيكِن من القاء خطاب التنصيب في مطلع عام 1981. الرهائن الأمريكيون، الذين كان اغلبهم دبلوماسيين، قد القي القبض عليهم داخل السفارة الأمريكية في طهران في شهر نوفمبر عام 1979، أي بعد مرور تسعة شهور على سقوط نظام الشاه رضا پهلوي. راجت شائعات مفادها أنّ وِليَم كَيسي مدير حملة رَيكِن الإنتخابية، والذي أصبح مدير وكالة المخابرات المركزية في الإدارة الجديدة، قد قام بما سُمّي مفاجأة اكتوبر، بالطلب من الإيرانيين بالإبقاء على الرهائن محتجزين حتى نهاية حملة الانتخابات الرئاسية عام 1980. وهو ما ادّى إلى ضياع أيّة فرصة لإعادة انتخاب كارتر.

امضيت عدة اشهر وانفقت الكثير من اموال صحيفة التايمز، وأنا اسافر إلى اوروپا جيئة وذهابا لأعود خالي الوفاض من الحصول على تأشيرة لدخول إيران، وربّما الحصول على جواب. إنّ مساعدة أمريكا لنظام صدام حسين في العراق بالسلاح والمعلومات المخابراتية خلال حربه القاتلة التي شنها على ايران ودامت 8 سنوات، لم تساعدني في شيء. تركت مكتب التايمز في واشنطن بعد اكثر من 5 أشهر من تكليفي بالمهمة دون أن احقق أيّ نجاح. أولا، لم اتوصل إلى سرّ

مفاجأة اكتوبر، إن كان لها سرّ. الأمر الآخر أنّني نسيت اسم مورين دَوود، كاتبة العمود المتميزة في الصحيفة، والتي يجاور مكتبها مكتبي. أمّا القصة الأكثر اهمية في حينها فهي التي كشفت فيها أنّ شركة تِركس Terex، وهي شركة امريكية لها مصنع في أيرلندا يُنتج عربات شحن كبيرة ويصدرها للعراق، لكي توضع عليها مستلزمات تحويل كلّ منها إلى قاعدة متنقلة لإطلاق صواريخ سكود Scud. نتج عن المقالة تقديم شكوى ضدّي، وليس ضدّ التايمز، والمطالبة بتعويض مالي. كان هناك أخذ وردّ مزعج قبل موافقة الصحيفة على تكليف مايكل نُسباوم ليعمل بالتعاون مع مكتب محاماة ممتاز في واشنطن ليتولى الدفاع عنّي. كان هدف دعوى الشركة للمطالبة بالتعويض المادي، كما اعتقدت، هو منعي ومنع الآخرين أن نكتب المزيد عن نشاطات الشركة المذكورة في أيرلندا. تمّ التوصل إلى تسوية، رغم اعتراضي الشديد عليها، فاصدرت التايمز توضيحا يقول إنّه ليس لديها أيّ دليل على أن شركة تِركس تصدّر معدات عسكرية للعراق. كان مصدري الرئيسي للقصة رجل اعمال امريكي له علاقاتٌ طويلة وارتباطات بالشرق الأوسط وبوكالة المخابرات الأمريكية. مُنِع هذا الشخص من الإدلاء بشهادته، لأنّ وزارة العدل قد نبّهت إلى الخطر الذي تلحقه تلك الشهادة بوكالة الأمن الوطني الأمريكية. طرحتْ مبدأ المحافظة على سرية المعلومات لتحاشي الكشف عن معلومات سرية للغاية. مرّت حقبة من الزمن قبل أن تظهر الحقيقة واضحة للعيان، وهي أنّ حوالي اكثر من 100 شركة ومؤسسة غربية كانت تبيع العراق الأسلحة والمعدات العسكرية، بما فيها مواد ممنوعة من التي يمكن أن تُستعمل لصنع الأسلحة الذرية. كان الكشف عن هذه المعلومات أمرا محرجا للشركات والحكومات، التي ساهمت في حرب الخليج الأولى ضدّ العراق، والتي بدأت في اواخر صيف عام 1990[36]. كان المبلغ الذي عُرض لتعويض المحامي مايكل طفيفا، وجاء على لسان القسم القانوني في الصحيفة عند نهاية شهر ديسمبر من عام 1991، حين اقترح «عبقري» في ذلك القسم، لدى الإتصال بالمحامي أن تدفع الصحيفة له 60 سنتا عن كلّ دولار. كان نُسبَوم وقتها مشغولا بقضية كبرى تخص شركة لويد في لندن، فتجاهل ذلك العرض الرخيص. لم تُدفع له اجوره المطلوبة حتى بعد مرور 20 عاما، ولم يحاول هو من جانبه أن يطالب بها حتى وافته المنية.

كانت دعوة تينا لي تعني العمل مع پات كرَو، الذي راجع فقرات من كتابي عن ماي لاي وكتب عنها ملاحظات ذكية. كما أنّني كنت على معرفة به حين عمل في مجلة نو يوركر ضمن فريق ضبط دقة المعلومات وصحتها fact-checkers. تشاركت مع كرَو في تجربة فريدة من نوعها قبل سنة تقريبا حين أصبح روبرت گوتلِب محررا للمجلة. حصلت على معلومات داخلية حول الصراع الدائر في الپنتگون خلال التخطيط للغزو الأمريكي لپنما عام 1989 واسقاط نظام مانويل نورييگا. وهو الغزو الذي خلف مئات القتلى ودمر احياء بكاملها في العاصمة پنما سِتي. اتصلت بصاحبي پات والتقينا مع گوتلِب، الذي يحبّ الكلام كثيرا ولديه الغزير من المعلومات ولا يتقيّد بالرسميّات. عبّر لي عن سروره أنّني سأكتب مقالة للمجلة، واستمع اليّ باهتمام وابلغني بموافقته على المضي في اعدادها. وحين كنّا على وشك مغادرة مكتبه، علق قائلا، «ساي، بودي أن تعلم أنّني لا أحبذ المواضيع المثيرة للجدل.»

مشينا إلى المصعد ونحن سكوت. ضغطت على زرّ النزول ونظرت إلى پات وقلت «أراك فيما بعد.» افترضت أنّه كان أيضا في حيرة من الأمر، كما شعرت أنا نفسي. لم اسمع شيئا آخر من گوتلِب.

تحدث المخرج والكاتب السينمائي أوليفر ستَون إلى وسائل الإعلام مبديا رغبته لعمل فلم حول غزو پنما، فبعثت له بعض المعلومات عن طريق أستر نوبرگ، وكيلة اعمالي المتميزة، التي اعمل بنصائحها على الدوام[37]. كانت الخطوة التالية هي زيارة ستَون في مكتبه في مدينة فِنِس في كاليفورنيا. لم اقابله من قبل لكنّني كنت معجبا جدا بفلمه المفرزة Platoon، الذي صور فيه شدة حرب فيتنام. بالمناسبة اخذت إلزبرگ معي لمشاهدة الفلم، وكان دان، الذي غامر بحياته بشكل متكرر في فيتنام، يذرف الدموع خلال مشاهدة مناظر المعارك. أخبرت ستَون بما اعرفه من المعلومات حول غزو پنما، وبعد لحظات لوّح لي بيده كي اتوقف، وقال إنّه منذ اعلانه عن خطته للفلم عن پنما، اتصل به عدد من وكلاء المخابرات. قال لي، «لست راغبا في الحديث معك لكي نتكلم عن هذا الموضوع. أريد أن اعرف منك إن كنت تعتقد أنّ وكالة المخابرات المركزية قد وضعتني نصب عينها.» كنت في ذلك الوقت على صلة باجواء هوليوود وكان العديدون يعتبرونه يغرّد خارج السرب نوعمّا. لكنّ سؤاله لي ضرب من الجنون. هممت بترك مكتبه، وقبل أن أصل إلى الباب قال، «إخبر وكيلتك كي تتصل بي حتى نتوصل إلى عقد.» وهذا ما حصل بالفعل. امضيت ودَيفِد أوبسِت اسابيع عديدة في القواعد العسكرية الأمريكية الموجودة في پنما ونحن نبحث عن مادة لكتابة نصّ الفلم.

في الحقيقة أنّ ستَون اعجِب بما كنا نقوم به ونعدّه وبذل اقصى جهوده لكي نتوصل إلى صياغة نهاية مناسبة. أصرّ أن اكون معه في عملية اختيار الممثلين حين قابلهم، وكان في طليعة هؤلاء جِمي سمِتس وراؤول هوليا.تطلب الأمر منّي احيانا أن احضر إلى لوس انجلِس ولو ليوم واحد. لم يكن لدي اعتراض على مهنية أوليفر ولا رغبته للعمل. طار في عصر أحد الأيام إلى واشنطن لنتناول العشاء في منزلي ولكي نفكر في وضع نهاية قوية لنص الفلم. ناقشنا ذلك لوقت قصير فقط، لأنّه كان اكثر ولعا بطرح تفصيلات نظريته، التي حولها إلى فلم فيما بعد حول مؤامرة وكالة المخابرات المركزية ودورها في اغتيال الرئيس كندي. بدا الإختلاف واضحا بيننا صباح اليوم التالي حين اخبرته أنّ نظريته خارجة عن المألوف. فوجئ بقولي وردّ أنّه كان على معرفة أنّني وكيل اعمل لصالح المخابرات المركزية. انتهى مشروع اعداد الفلم عن پنما في تلك اللحظة. شرحت فيما بعد عمّا اعرفه عن نوريیگا في مقالة وضعت لها مجلة لايف عنوانا على غلافها. كان أمرا غريبا أن اكتب لمجلة رفضت مرتين أن تنشر قصتي عن ماي لاي، لكنّ المحررين هذه المرة كانوا مشجعين للغاية.

كانت الحياة في مجلة نو يوركر تتسم بالنشاط والحيوية وأقلّ تعقيدا ممّا كانت عليه تجربتي في التايمز. ناقشت احدى المقالات الأولى، التي قدمتها لرئيسة التحرير تينا الأزمة النووية عام 1990 بين العدوين الدائميين، الهند وپاكستان. باستطاعتي أن اعترف الآن أنّني في ذلك الوقت لم اكن على علم بأنّ إيّ من الجانبين كانت تتوفر عنه لدى وكالة المخابرات المركزية معلومات عن

الشؤون النووية الحقيقية من داخل المؤسسة النووية الپاكستانية. إنّ عدم اهتمامي لفضح الدور المدهش، الذي قامت به وكالة المخابرات المركزية، والذي كان عنصرا اساسيا في تلك الأزمة، وهو ما اقنع إثنين من المسؤولين الأمريكيين، اللذين كانا يراقبان الموقف عن كثب وهما روبَرت گيتس ودِك كِرَ، لكي يتحدثا معي عن الموضوع بصراحة. كانت لدى گيتس كلّ المبررات لتحاشي الأضواء، فقد كان نائبا مخلصا لمدير وكالة المخابرات الأمريكية بِل كَيسي في مرحلة الثمانينات، حين كانت فضيحة إيران- كونترا تطوي آخر صفحاتها. كما أنّه سحب ترشيحه ليحلّ محلّ كَيسي مديرا للوكالة بعد أن أصبح واضحا أنّ مجلس الشيوخ لن يوافق على تعيينه بذلك المنصب. وبعد أن تسلم الرئيس جورج بُش الأب مقاليد الحكم، عينه مساعدا لقضايا الأمن الوطني. في الحقيقة تمّ تعيينه مديرا لوكالة المخابرات بعد سنتين. أمّا كِرّ الكتوم، فقد كان ضابطا يستحق الإعجاب في صفوف الوكالة وعمل نائبا لمدير وكالة الأمن الوطني حين بدأت الأزمة.

تجدّد العداء الدائم بين الهند وپاكستان إثر اعلان تقارير مخابراتية تحريضية من كلي الجانبين عام 1990 حول منطقة كشمير المتنازع عليها. خشيت پاكستان أنّ الهند تعدّ العدّة لغزو اراضيها. وردت تقارير تشير إلى توتر نووي في ذلك الحين، إذ اشارت صحيفة صندَي تايمز في لندن وصحيفة لوس انجلس تايمز، إلى النفي الرسمي غير الدقيق، واعتبرتا ذلك النفي صحيحا. كانت إدارة بُش الأب تخشى أن تخترق القوات الهندية الحدود وتهاجم محافظة السند في پاكستان، وأنّ الأخيرة سترُدّ باستعمال الأسلحة النووية لوقف ذلك الإختراق. نقل لي أحد مصادري في وكالة المخابرات المركزية أنّ طائرات F16 «الپاكستانية قد وُضِعت على أهبة الاستعداد وهي محملة بالرؤوس النووية، وكان طياروها موجودين داخل كابيناتهم.»

لم يتكلم كِرّ معي عن تفصيلات الموقف، التي يمكنني نشرها، لكنّه اتفق على ما نُقِل عنه، «إنّ الموقف نووي خطير لم نقابل مثيلا له منذ بدء عملي في الحكومة. لقد كنا على وشك أن نشاهد تبادل استخدام السلاح النووي. كان الموقف أكثر رعبا من ازمة الصواريخ الكوبية.» في المقابل، حصل گيتس على احترام كبير داخل مؤسسات المخابرات لدوره الهادئ في التوسط جيئة وذهابا بين العاصمتين، نو دلهي وإسلامَباد لنزع الفتيل وتحاشي وقوع الصدام المريع. اخبرت گيتس عمّا اعرفه عن مدى تغلغل المخابرات المركزية داخل پاكستان، واوضحت له انّني لست بصدد الكتابة والتدخل لإيقاف سيل المعلومات وتدفقها من هناك، ولكن هناك قصة يجب روايتها. كنت على ثقة أنّ صراحتي معه جعلته يقرر أن يتحدّث معي وجها لوجه. وعليه حضر إلى مكتبي المتواضع وسط العاصمة واشنطن في مطلع احدى الأمسيات وبعد تأكّده أنّ البناية قد خلت من العاملين، كي يجيب عن بعض اسئلتي وليتيقن أنّني لم اتجاوز بعيدا في نشر المعلومات الحساسة. أخبرني أنّه عرف في ذلك الوقت أنّنا قريبون جدا من وقوع محرقة. «التحليل الذي قدّمناه كان يقوم على التذكير بما حدث في صيف عام 1914،» حسب قوله، حين اندلعت الحرب العالمية الأولى. «كانت الهند وپاكستان مربوطتين إلى حلقة لا يمكن لأيّ منهما الفكاك منها. وكنت على قناعة، أنّه لو بدأت الحرب، فستكون نووية.»

قام كرَوّ بتدقيق صحة المعلومات ووافقت تينا على نشر مقالتي بعنوان «على شفا هاوية الحرب النووية» التي غطت 17 صفحة من المجلة. حظيت المقالة بانتباه كبير في منطقة جنوب

آسيا، لكنّه لم تحصل أيّة ردود فعل بصددها في الإعلام الأمريكي. كنت آمل أنّ اقتباساتي عن گيتس وكِرّ ستدفع بعض زملائي للتعليق والمتابعة. لكنّني اعرف أيضا من خلال سنوات عملي في التايمز، أنّ القليل من الصحفيين من الذين تتوفر لديهم المعلومات والمصادر لكتابة تقاريرهم عن مواضيع الأمن القومي، لا يميلون إلى متابعة ما ينشره الآخرون، لأنّ لديهم مواضيعهم وقصصهم الخاصة، التي يودّون متابعتها. اعرف هذه العملية، لأنّني حين كنت في التايمز، وجدت من المستحيل أن أضيف إلى أيّة قصة كتبها غيري قبلي. تعلمت الحقيقة مجدّدا في اواخر شهر نوفمبر حين تحدّيت الحقائق والأسباب التي طرحها بِل كلِنتُني مطلع ادارته للبيت الأبيض وقت صادق على اطلاق صواريخ توماهوك على مركز مدينة بغداد في شهر حزيران من عام 1993 ردّا على مؤامرة مزعومة دبرها العراقيون لاغتيال الرئيس السابق جورج بُش الأب خلال زيارته للكويت في شهر ابريل من ذلك العام. كان بِل كلِنتُن أول رئيس امريكي منذ الحرب العالمية الثانية يضرب مدينة رئيسية في الشرق الأوسط بالصواريخ، التي بلغ عددها 23 صاروخا. انحرف 3 منها عن اهدافها المرسومة واصابت مبنى للشقق السكنية في بغداد ممّا ادّى إلى مقتل 8 اشخاص، احدهم فنانة ذات شهرة عالمية. بالرغم من الخسائر والموت، اعتُبِر ذلك اليوم من افضل ايام إدارة كلِنتُن، الذي اعتُبِر رئيسا لا يخشى استخدام القوة دفاعا عن القيم الأمريكية.

كنت حينها اجري بحثا عن زيارة بُش للكويت في شهر ابريل. اعتُبر الرئيس السابق بطل تحرير في نظر الكويتيين، فهو الذي انقذ بلدهم من الاحتلال وشنّ حرب الخليج الأولى في شهر اغسطس عام 1990 لطرد قوات نظام صدام حسين منها. كما اعتبر هذا الإنتصار أول حرب خارجية ناجحة منذ حرب فيتنام. دُعي بُش ليقوم بزيارة انتصار، فطار إلى الكويت في شهر ابريل برفقة وفد خاص تحملت الكويت نفقاته كاملة، وضمّ عددا من مساعديه السابقين وافراد عائلته والمعلقين والصحفيين، الذين قوبلوا بهدايا ساعات رولِكس الذهبية. وبطبيعة الحال، كانت هناك اهداف خفيّة أخرى تتعلق بمنشاءات النفط الكويتية التي طالها الخراب خلال الحرب، وعُهِد لوزير خارجيته جَيمس بيكَر مهمة الحصول على عقود لاعادة بنائها بكلفة بلايين الدولارات، وأن تقوم شركة أنرون، التي يشغل عضوية مجلس ادارتها بالمهمة. كما أنّ ابن الرئيس مارفِن بُش، شارك بتمثيل شركتين في ولاية تكسَس متخصصتين في بناء اجهزة الحفر، واستعملتا اسم بُش للحصول على عقود يسيل لها اللعاب. اخبرني أحد كبار المسؤولين في البنوك الأمريكية حين زرت الكويت بعد زيارة الرئيس بالقول، « شعرت بمزيد من الإحراج لأنّ الكويتيين كانوا يضحكون سخرية بعد انتهاء وليمة العشاء الفاخرة. إنّنا غالبا ما نتخذ مواقف تلتزم بعزّة النفس في معاملاتنا الخارجية. لم نسمح لأسرة الرئيس بعقد صفقات خاصة، كما أنّنا لم نقبل بقشيش من أحد، بخلاف ما جرى من وجود ابناء الرئيس ووزير خارجيته في الكويت لتقبّل الصدقات...»

إنّ قلة حكمة كلِنتُن في قراره لضرب بغداد بالصواريخ، صاحبها سيل من التقارير حول خطة اغتيال الرئيس بُش المزعومة ودوافع صدام حسين الإنتقامية لتنفيذها. عرفت خلال وجودي في الكويت بأنّ الخطة المزعومة فيها «ثقوب» فقررت أن اسبغ غورها. استمررت تينا براون بتشجيعها المتواصل لي، فاتصلت في صباح أحد الأيام وقت كنت ألاحق قصة حول مأدبة عشاء اقيمت في نيو يورك وحضرها الجنرال كولِن پاوِل، رئيس الأركان العامة للقوات المسلحة. أخبر الجنرال تينا أنّني صحفي كذاب افتقر إلى الأمانة واختلق القصص. ضحكتُ وقلت لها إنّ تلك من اجمل الصفات التي يمكن أن يحصل عليها صحفي استقصائي. إنّها في الحقيقة وسام شرف لشخص

لم تتمّ دعوته لحضور حفلات البيت الأبيض، ولا يرغب في حضورها أصلا. أنا متأكّد أنّه ذكر ذلك متعمدا أمام لينا وأنّها لم يعجبها أن تسمع ذلك، لكنّها لم تواجهه بالحقائق.

اصبحت قصة اتهام البيت الأبيض لنظام صدام أمرا مقدّسا من خلال تسريب في شهر مايو لصحيفة واشنطن بوست، التي وضعت القصة على صفحتها الأولى اشفعتها بعنوان بارز حول الأدلة المتوفرة لمؤامرة العراق لاغتيال بُش. كانت رواية البيت الأبيض كما ذكرتها الصحيفة تقوم على ثلاثة عناصر، أولها الشكوك بوصول فريق مكلف يحمل معدات تفجير بعد عبور الحدود العراقية الكويتية. ثانيا، إنّ صاعق القنبلة، التي كان من المفترض أن تستهدف موكب الرئيس بُش، كان من التعقيد بحيث لا يمكن تصور المحاولة دون اسهام الحكومة العراقية بدور فيها. ثالثا، إنّ المتفجرات التي كان يُفترض استعمالها في تفخيخ السيارة، التي كانت ستنفجر لدى مرور موكب الرئيس، قد «أمكن تقصي اصولها.» عرفت بسرعة من مسؤولين في البيت الأبيض من إدارة كلِنتُن أنّ تلك الإتهامات الثلاث مزيفة لا صحّة لها. ثمّ جرى تسريب آخر لصحيفة التايمز فحواه أنّ بقايا السيارة المفخخة، التي قيل أنّها اعدّت لتنفيذ المهمة ضدّ حياة بُش، «هي بالضبط» بقايا سيارة متفجرة استعملها النظام العراقي خلال حرب 1991. اتضح أنّ القصة واهية أيضا ولا صحة لها. التسريبات التي حصلت عليها البوست والتايمز قد سهلت على إدارة كلِنتُن وصحف واشنطن العديدة لإهمال القصة، التي نشرتها صحيفة بوسطن گلوب فيما بعد والتي كان مصدرها صحفي استطاع الحصول على تحليل سري لوكالة المخابرات المركزية، وهو من شكّك في مصداقية رواية الاغتيال المزعومة. أشار ذلك التحليل إلى «أنّ حكومة الكويت قد طبخت تلك القصة،» لتجديد الادعاء باستمرار التهديدات القادمة من العراق. أهمِلت قصة بوسطن گلوب أيضا لأنّها تخالف رواية البيت الأبيض.

انتهت آمالي بالحزب الديمقراطي، رغم كوني عضوا فيه مدى حياتي، وبأنّ إدارة كلِنتُن ستكون اكثر انفتاحا وموضوعية، حين اعددت آخر مقابلة صحفية لي لمسؤول في البيت الأبيض هو ساندي بَرگر، نائب مستشار الأمن الوطني. كان ساندي نزقا غاضبا، كما توقعت من تفنيدي لمؤامرة اغتيال بُش المزعومة. هدفي من المقابلة هو أن احصل على التقرير، الذي اعده بعض المحللين والذي توصل إلى الاستنتاج بأنّ العراق مسؤول عن تلك المحاولة. لم يكن ساندي مستعدا لتزويدي بنسخة من التقرير. في الحقيقة، أنّه سألني لماذا امضيت وقتا طويلا للنظر في هذه المسألة الجانبية. قلت له إنّها ليست قضية جانبية، وقد ذهب ضحية القصف 8 قتلى مدنيين. الأمر الذي ازعجني أكثر قوله، «إهدأ يا ساي! كانوا 8 اشخاص فقط.» اشتدت حدة تبادل الكلام بيننا، ممّا دعاه أن يطلب منّي مغادرة البيت الأبيض... في الحال. لم اذكر تفاصيل ما دار بيننا من حوار في المقالة التي نشرتها بعد حوالي شهر تقريبا.»

توقفت في اواخر عام 1994 عن كتابة التقارير لصالح مجلة نو يوركر، رغم أنّ تجربتي للعمل فيها كانت ممتعة. السبب هو أنّ جَيمس سِلبِرمَن، الذي حفزني لتأليف كتابي عن كِسِنجر، عاد ليهمس إليّ اشياء عن كنَدي. اعتقد جَيمس أنّه لا تزال هناك قصة جديرة بالذكر عن سيرة كنَدي، كما اعتقدت حينها بوجود مادة كافية لقصة خفية عن علاقته بوكالة المخابرات المركزية. بدأت بحثي بالرجوع إلى لجنة مجلس الشيوخ والتركيز على العضو الذي ترأسها فرانك چَرچ. هي اللجنة التي تمّ تشكيلها بعد تشر مقالتي عام 1974 حول عمليات التجسس داخل الولايات المتحدة على يد

وكالة المخابرات المركزية ضدّ المواطنين الأمريكيين في فترتي الستينات والسبعينات. السياسي الذي كان أكثر تحمّسا لمراقبة نشاطات اجهزة المخابرات الأمريكية هو مايك مانسفيلد، عضو مجلس الشيوخ عن ولاية مُنتانا. في الحقيقة، كان رئيسا هادئا للأغلبية في مجلس الشيوخ، وكان آنذاك مكتئبا لعدة حقب بسبب عجز الكونگرس وعدم رغبة اعضائه لوضع رقابة فعالة على نشاطات اجهزة المخابرات. تمّ انتخابه لعضوية مجلس الشيوخ عام 1952 بعد أن قضى فترة 10 سنوات عضوا في مجلس الشعب. اقترح خلال سنته الأولى تشريعا بتشكيل لجنة دائمة في الكونگرس مهمتها وضع الرقابة على صرف الأموال المخصصة لوكالة المخابرات المركزية ومراقبة النشاطات، التي تقوم بها. فشل مشروعه هذا كما فشلت محاولات أخرى والتعويض عن اللجنة المقترحة بتبادل الأحاديث العابرة بين اعضاء المجلس ومدير الوكالة. لقد أعتُبِر هذا كافيا للتعبير عن مراقبة مجلس الشيوخ لنشاط الوكالة منذ تأسيسها عقب الحرب العالمية الثانية.

جاءت قضية التجسس الداخلي في وقتها المناسب لإحداث التغيير المطلوب. لقد تحولت أمريكا تدريجيا وبشكل مؤكد ضدّ حرب فيتنام، خاصة بعد أن وصلت ارقام القتلى إلى ما يقرب من 58 ألف عسكري، وتمّ الكشف عن عمليات القسوة المرعبة التي جرت خلال تلك الحرب، واخيرا الهزيمة على يد قوات متدربة على حرب العصابات وينقصها السلاح المطلوب. في نفس الوقت اجبرت فضيحة ووترگيت الرئيس نِكسُن على الاستقالة من منصبه وبدء تحقيق، ولو لفترة قصيرة، عمّا جرى. ظهرت للعلن قصص حول التنصت غير الشرعي على المكالمات الهاتفية للمسؤولين في واشنطن، والأكاذيب الرسمية، التي تمّ فضحها بنشر كتاب أوراق البِنتگون، والعمليات السرية لوكالة المخابرات المركزية في چِلي وفي افريقيا. أثارت هذه القضايا العديد من الأسئلة حول نزاهة أولئك الذين يديرون الأمور في واشنطن ومستوى كفاءتهم. إستيقظ الكونگرس أخيرا ليدرك أنّ الحرب في فيتنام قد انتهت بالخسارة، وأنّ التحالف بين الديمقراطيين وبعض الجمهوريين المعتدلين ضروري لتشريع بعض القوانين، خاصة ما يتعلق بمحاولات لوضع حدّ لسلطات الرئيس لإعلان الحرب في المستقبل. غير أنّ تلك المحاولات لم تفلح بالنجاح.

توجّه مانسفيلد في بداية الأمر إلى فِلِپ هارت، وهو ديمقراطي لِبرالي من مِشِگَن قاتل في الحرب العالمية الثانية ويحظى باحترام كبير بين زملائه في الكونگرس، ليكون رئيس لجنة مجلس الشيوخ ومهمتها النظر في أيّة تجاوزات ومن يرتكبها في وكالة المخابرات المركزية. اعتذر هارت لزميله واوضح له أنّه يخضع للعلاج من مرض السرطان، وانه سوف لن تكون لديه القدرة على تحمل رئاسة اللجنة المذكورة، إلّا أنّه وافق أن يكون في عضويتها. تعرض مانسفيلد للضغط من قبل چَرچ، الذي ترأس جلسات استماع لشهادات تتعلق بالرشاوى الخارجية والفساد في دوائر شركات الاحتكار متعددة الجنسية. كانت شخصية چَرچ متألقة لكنّه ما كان نِدّا لقامة هارت. في الحقيقة، كان يُنظر إليه بازدواج من قبل كبار اعضاء لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ، التي سيطر عليها لوقت طويل عضو ديمقراطي من ولاية آركِنسا اسمه وِليم فولبرايت. كانت وجهات نظره المرتابة حول الشهادات عن حرب فيتنام قد وضعت أسسا جديدة لعمل لجان الكونگرس في المستقبل. أعتُبِر چَرچ متباهيا شديد الطموح ومستعدّا، رغم صوته القوي علنا، أن يقبل بانصاف الحلول في السرّ، خاصة ما يتعلق ببعض التشريعات الرئيسية.

رغبت أن اتقرّب إلى چَرچ لأنّه كان رئيسا للجنة الفرعية المنبثقة عن لجنة الشؤون الخارجية، التي حققت في نشاطات بعض الشركات متعددة الجنسية في مطلع السبعينات. بدأ العاملون في مكتبه كشف الرشاوى التي تدفعها الشركات الأمريكية للحصول على العقود الأجنبية. في الحقيقة، أنّ مدى هذا الفساد، الذي كشفته اللجنة الفرعية كان معروفا لدى وكالة المخابرات المركزية. قام جَري لِفِنسُن، مدير مكتب اللجنة الفرعية، باطلاعي على المعلومات الداخلية بموافقة چَرچ على أمل أن اقوم بتدقيق صحتها ومن ثمّ نشرها في التايمز، الأمر الذي سيجلب لصاحبنا هذا وللجنته الفرعية التقدير الذي يستحقونه. كشفت احدى الشهادات أمام لجنة چَرچ عملية سرية لوكالة المخابرات المركزية لتقويض حكومة أيندي في چلي. كان هناك مقدار من الضغط الداخلي من جانب بعض زملاء چَرچ كي يخفف من لهجته ويتراجع قليلا حين يتعلق الأمر بالوكالة. طلب منّي لِفِنسُن، الذي أصبح صديقا لي، في احدى المرات أن اتصل بالسناتور كي اخبره عن اهمية ما يقوم به وكيف أنّي وصحيفة التايمز سنقف إلى جانبه. فعلت ذلك دون تردد. كانت لجنته الفرعية متجهة صوب منحى مختلف عن اتجاه الكونگرس، قدر تعلق الأمر بمراقبة نشاطات وكالة المخابرات المركزية. كان دوري في كلّ ذلك فريدا فلدي معلومات وطرق للحصول على مزيد منها، أكثر ممّا يتوفر للجنة الفرعية، وكان ضروريا أن تطلع تلك اللجنة على المعلومات التي بحوزتي. تأكدت أولا أنّ محرري الصحيفة على علم بما أودّ الإقدام عليه. الذي لم ادركه في ذلك الوقت، هو أنّ چَرچ كان يطمح أن يكون رئيسا. وهذا الطموح هو الذي دفعه للقيام بمجازفة فضح الفساد السياسي والمالي الأمريكي في خارج البلاد[38].

وعلى أيّة حال، فقد عرف مانسفيلد بنوايا چَرچ. تمّ في اواخر شهر يناير من عام 1975 التصديق على تشكيل اللجنة. وقبلها بتاريخ 17 يناير دعا مانسفيلد چَرچ لمقابلة حول رئاسة اللجنة الفرعية وحضر المقابلة فولبرايت وبَري گولدووتر، عضو مجلس الشيوخ الجمهوري عن ولاية أرزونا، باعتباره رئيسا للأقلية في اللجنة. حضر الاجتماع أيضا مساعد من مكتب الحزب الديمقراطي. وبعد عشرات السنين وحين توفي كافة الحاضرون، شعر هذا المساعد بالحرية لكي يخبرني بكلّ شيء ونحن نتناول العشاء، خاصّة عن الطلب غير المتوقع الذي وجهه مانسفيلد. «إذا تمّ تعيينك رئيسا للجنة فيجب أن تعرف أنّه سوف لن يتمّ ترشيحك لرئاسة البلاد.» وافق چَرچ في الحال واخبر مانسفيلد أنّه قد ناقش الأمر مع زوجته، وكان معروفا أنّ الإثنين يتخذان القرارات المشتركة. فهم السناتور أنّ طموحاته للرئاسة يجب أن توضع جانبا.

حصل چَرچ على منصب رئيس اللجنة الفرعية فدعاه معدّ برنامج التلفزيون Face the Nation، الذي تعرضه محطة سي بي أس لمقابلة صباح يوم الأحد التالي. كنت ضمن من وجّهوا له الأسئلة بالمشاركة مع الزميل دانيل شور. سألته إن كان ينوي، حسب الإشاعات، ترشيح نفسه لانتخابات الرئاسة القادمة، فأنكر ذلك جملة وتفصيلا، وقال، «لندع هذا الأمر جانبا الآن.» كان قد اخبر كافة المتطوعين للقيام بالحملة الأولية للانتخابات أنّه لن يساهم في أيّ نشاط سياسي، ما دام رئيسا للجنة. قال مؤكّدا، «ليس في نيتي أن اخلط بين انتخابات الرئاسة مع أيّ شيء آخر هام، كأهمية هذه اللجنة.»

لقد كذب چَرچ، وليس هناك جملة أكثر وضوحا من ذلك. بعد مرور أكثر من عشرة اعوام على وفاته سنة 1984، عثرت الأستاذة كاثرن أولمستد خلال بحثها لإعداد كتاب عن فضائح وكالة المخابرات المركزية، على رسائل تعود اليه. وهي رسائل ضمن مجموعة وثائقه الرسمية، التي اصبحت بحوزة جامعة بَويس الحكومية. اشارت تلك الرسائل إلى أنّ چَرچ ظلّ على اتصال دائم مع جوزِف نايْلِتن، وهو ناشط ماهر عمل في انتخابات الرئاسة لكلّ من جاك كنّدي ولِندِن جونسُن وهيوبرت همفري. اظهرت الرسائل أنّ چَرچ كان عازما على الترشح للرئاسة عام 1976 وفق نصيحة من نايْلِتن، وأنّه حاول عام 1975 أن يُسخّر اجتماعات اللجنة المفتوحة لكسب التأييد له في الحملة القادمة، والتظاهر بالحماس للنظر في مخالفات وكالة المخابرات المركزية ومكتب التحقيقات الفدرالي.

وعلى أيّة حال، فإنّه في نهاية الصيف كانت طموحات چَرچ للرئاسة قد وقعت في ورطة كبيرة. لقد خاض حملة خلال تولي رئاسة اللجنة في مطلع العام، وكان الاعتقاد السائد أنّه سيركّز على عمليات التجسس داخل البلاد، وغيرها من المخالفات في إدارتي نِكسُن وجونسُن وهوسهما بملاحقة الناشطين المناوئين لحرب فيتنام. بحلول فصل الربيع، برز عنصر آخر من خلال تقارير تحدثت عن نوايا جاك كنَدي بالتعاون مع وزير العدل، أخيه بوبي ومحاولاتهما المستمرة لاغتيال فيدل كاسترو، بسبب الذكاء الذي اظهره لإفشال خطط الرئيس واخيه في حملة غزو خليج الخنازير Bay of Pigs.

كان چَرچ يعتبر كنَدي مثله الأعلى، لكافة الأسباب التي امتلكها الرئيس القتيل. ألقى چَرچ خطابا مؤثرا في افتتاح مؤتمر الحزب الديمقراطي عام 1960، الذي تمّ فيه ترشيح كنَدي ممثلا للحزب في انتخابات الرئاسة. كما قام چَرچ وزوجته بدعوة تد كنّدي للقيام بسفرة إلى افريقيا عام 1961، أي قبل سنة من فوز الشاب كندي بمقعد أخيه كعضو في مجلس الشيوخ عن ولاية ماسَچوسِت. كانت لديه كلّ المبررات أنّه وبسبب اخلاصه وتفانيه وصداقته في السنوات الأخيرة ستؤمن له تأييد أسرة كنّدي في السباق لنيل منصب الرئاسة.

كان ذلك نموذجا لصراع المصالح. إنّ اجراء تحقيق شامل بشأن مخالفات حدثت فى مطلع الستينات ستكلف الشاب تَد كنَدي خسارة مالية وسياسية كبيرة فى عام 1976. كما أنّ توابع المصيبة قد لحقت بصاحبنا چَرچ. لقد قارن في مطلع التحقيقات بشأن اغتيال كندي فوصف سلوك وكالة المخابرات المركزية بكونها «تصرفات فيل غاضب ومتمرد خرج عن سلطة مدرّبه.» ذهب إلى ابعد من ذلك حين واجه وِليم كولبي باتهام اختراع بندقية الكترونية قادرة على قذف سهام كالإبر تحمل مواد سامة قاتلة لاغتيال الضحايا. ادّعى چَرچ أنّ الوكالة قد أمِرت قبل حقبة سابقة بتدمير كافة المواد الخاصّة بهذا النوع من السلاح، لكنّ الوكالة اختارت أن تخالف أوامر الرئيس. أثارت مثل هذه المعلومات موجة من عناوين الصحف والتغطية التلفزيونية، كما توقع چَرچ، ليعطي الانطباع أنّ الرئيس لم يعد قادرا على وقف خطط الاغتيالات.

ازعجت مواقف چَرچ هذه عام 1974 ممثل ولاية كولورادو الديمقراطي في مجلس الشيوخ، گري هارت، الذي عينه مايك مانسفيلد عضوا في اللجنة. ولم يكن مضى اسبوع على هذا الإختيار حتى بدأ العضو الجديد يأخذ مهمته على محمل الجدّ، خاصة بعد أن كشف محقق جمهوري

اسمه دَيفِد بوشونگ أدلة تظهر أنّه خلال وجود جاك كنّدي في البيت الأبيض كانت له علاقة بعشيقة اسمها جودِث أكسنَر، التي كانت عارضة ازياء في لوس انجلس. كانت هذه المرأة تعاشر في نفس الوقت شخصا آخر أسمه سام جيانكانا، زعيم المافيا السيء الصيت. أخبرني هارت فيما بعد عن مدى دهشته حين كلفه چَرچ، وهو العضو الجديد، أن يلتقي مع تَد كنَدي لينقل إليه تلك المعلومات، التي ستغير قواعد اللعبة. ذكر هارت، «ابلغت تَد بالأمر فشكرني ولم يزد على ذلك شيئا آخر.» كانت العلاقة بين أكسنَر وكنَدي معروفة لدى أدگر هوفر، مدير مكتب التحقيقات الفدرالي. غير أنّ هذه المعلومات لم يُكشف عنها النقاب أمام لجنة وارن، التي حققت في ظروف اغتيال الرئيس كنَدي في مدينة دَلاس بولاية تَكسس.

استمر هراء چَرچ عن تفصيلات تتعلق بتهورات الرئيس الجنسية ينصبّ أكثر فأكثر، فقضى على فرصتي الضعيفة أصلا للحصول على تعاون هام من قبل الأعضاء الجمهوريين في اللجنة الفرعية. وللمرة الثانية أتاح لي عملي في قضايا التخابر لصالح التايمز واستمراري في الحصول على المعلومات للنفاذ إلى داخل اللجنة. اجريت عددا من اللقاءات الخاصة في اللحظات الحرجة مع عدد من الأعضاء الديمقراطيين والجمهوريين، وكذلك مع عدد من الموظفين الكبار في مكاتبهم. بحلول ربيع عام 1975، كان چَرچ، باعتباره رئيسا للجنة الفرعية قد عمل ما بوسعه لحماية اسرة كنَدي، وأن يُسخّر في ذات الوقت شهادات الإستماع للتمهيد لترشيح نفسه للرئاسة. حين اقتربت التحقيقات من نهايتها، عُقِد اجتماع خاص بين كبار اعضاء مجلس الشيوخ وهم مانسفيلد وفولبرايت وچَرچ وگولدووتر، ليقرروا كيفية التعامل مع مسؤوليات رئيس البلاد. حضر بعض موظفي مكاتب هؤلاء الأعضاء الاجتماع ايضا. وهم الذين اخبروني بعد سنوات ما لم يخبرني به چَرچ في وقته. قال گولدووتر بصراحة، «نحن نعرف ما قام به الرئيسان،» مشيرا إلى أيزنهاور وكنَدي، وكيف وافقا على اغتيال الزعماء الأجانب. ثمّ اضاف گولدووتر بلهجة لم تغب عن اذهان الموظفين الذين حضروا الاجتماع، «إذا كان ذلك التفويض لما قامت به الوكالة رئاسيّا، فمن مسؤوليتنا أن نقرر إذا كانت تلك المصادقة تتفق مع الدستور أم تخالفه.» الموضوع هو معرفة إن كان ما تقوم به الوكالة جزء من «سلطات الملك،» كما اقترح رِچَرد هِلمز في احدى المرات، أو إذا كان العاملون في الوكالة أشخاص، حالهم حال المواطنين الآخَرين في كافة المؤسسات الحكومية، خاضعون للمراقبة والمحاسبة وفقا للقانون والدستور.

في النهاية تركت اللجنة صلاحيات الرئيس على حالها، وأشارت إلى أنّها غير قادرة «على التوصل إلى براهين أنّ خطط الاغتيالات قد تمت المصادقة عليها من قبل الرئيسين أو الأفراد، الذين كانوا على رأس الوكالات الحكومية.» كان عنوان تقرير اللجنة، «الاتهامات في اغتيالات القادة الأجانب.» وهذه كلمات يمكن وصفها بأنّها «مُسكّنة» بلغة أهل الطب.

وجدت اللجنة أنّ نظام تنفيذ الأوامر والسيطرة عليها كان مبهما، بحيث من الصعب التأكّد من معرفة مدى مستوى نشاط الاغتيالات، ومن قام بالمصادقة عليها. لقد خلق هذا الموقف احتمالا مزعجا أنّ مسؤولي الحكومة ربّما قاموا بتنفيذ خطط اغتيالات دون أن يكون واضحا بشكل لا يقبل الجدل أنّه توجد مصادقة من قبل الرئيس. كما أنّه من الممكن أنّه توجد محاولات ناجحة «للإنكار المعقول» بأنّ الرئيس قد صادق لكنّ ذلك أصبح الآن مشوشا... يجب الاعتراف بوجود شدّ وجذب بين ما توصل اليه اعضاء اللجنة.

أخبرني گري هارت بعد سنوات عن حقيقة أنّ الديمقراطيين في اللجنة قد تراجعوا. «كان دوري أن اتابع القضايا التي لا يودّ الآخرون معرفتها. الذي لم نستطع العثور عليه هو أيّ شخص في إدارتي الرئيسين أيزنهاور وكنَدي يعترف بأنّه هو الذي أمر بذلك أو أنّه عرف مَن أمر بذلك. كان هناك الكثير من غياب المصارحة والكلّ يقول من يخلصني من هذا الإلحاح المزعج؟ لم يأتِ أحد الشهود ويقول فلان قد أمرني، وأنّ اللجنة قد تستّرت على الأمر. ببساطة، لم نستطع الوصول إلى شخص اعترف بأنّ الرئيس قد أمر بتنفيذ أيّ اغتيال، ولكن في الحقيقة، الجميع قد عرفوا بما كان جرى.»

بعد أن تحدثت مع هارت، شرعت في متابعة دَيفِد بوشونگ، المحقق الجمهوري الذي عمل مع السناتور بَري گولدووتر. أخبرني هذا أنّ السناتور كان مقتنعا بوجود أدلة بسيطة تثبت أنّ الطريق للحصول على مصادقة الرئيس لا بُدّ أن مرّ بمكتب بوبي كنَدي. «لم نتهم جاك كنَدي مباشرة بالتصديق على الإغتيالات (الأوامر المباشرة باغتيال كاسترو)، لكنّنا اشرنا إلى بوبي في المساهمة والتصديق على محاولة اغتيال خلال اجتماع سرّي،» حسب ادعاء بوشونگ. «كان بوبي منسقا للعمليات السرية في كوبا وساهم بشكل متفرد في اجتماع لاستخدام عصابة جيانكانا، للحصول على حبوب سامة لقتل كاسترو. كما أنّ لدينا معرفة أنّ هوفر قد حذر الرئيس أثناء تناول غداء معه من قضية تسجيل المكالمات الهاتفية التي يجريها مع جودي أكسنر، وقت كانت لها ارتباطات بعصابة جيانكانا المذكورة. قطع كنَدي إثر ذلك التحذير كافة اتصالاته مع أكسنر. وبعد 6 اسابيع صدّق بوبي على امر الحصول على الحبوب السامة لاستخدامها في كوبا. تجمعت هذه المعلومات لديّ على شكل قضية قوية ضدّ تصديق الرئيس، وعرضتها على مجلس الشيوخ.»

النتيجة التي لا مفكّ منها، هي فقدان الثقة الشديد في قمة وكالة المخابرات المركزية، حتى بين أولئك الذين اعترفوا أنّ اخطاء قد وقعت، لأنّ هِلمز وغيره من مسؤولي المنظمة الكبار وجدوا أنّه من الصعب أنّ فرانك چَرچ واعضاء مجلس الشيوخ الديمقراطيين لم يفهموا أنّه حين تعلق الأمر بالإغتيالات، فإنّ الوكالة نفذت ما أراد الرئيس، بدون أمر مكتوب. بطبيعة الحال، أنّ مدى احتقار الوكالة لرئيس اللجنة الفرعية چَرچ، إنْ كان بحق أم لا، قد ظهر خلال كتابة تاريخ فترة إدارة كولبي، الذي اعده هارولد فورد وجون وولتر، الذي أصبح فيما بعد مفتشا عاما في الوكالة. أكّد هذا في مقابلة مع فورد، «أنّ چَرچ ما كان مهتما بالأمر. ووفق رأينا المتواضع أنّه كان يعدّ العدة لحملة انتخابات الرئاسة... بصراحة ما كان سوى عاهرة ذات توجّه سياسي، ولم يكن يبحث عن الحقيقة.» أمّا رچَرد ليمَن، وهو ضابط مخابرات قدير، أصبح فيما بعد رئيس مجلس الأمن الوطني، فصرّح أنّ لجَنة داخلية وضعت تحليلا طويل الأمد ووصفت چَرچ بأنّه، «إبن عاهرة يدّعي التهذيب ومنافق أسمه فرانك چَرچ... وأنا متأكد أنّه قفز ليحتل منصب رئيس اللجنة على أمل أن تصبح له عربة يركبها للوصول إلى البيت الأبيض.»

نظر لاطلاعي على لجنة چَرچ ومعرفتي باعضائها وكبار موظفي مكاتبهم، لم يستغرق الأمر طويلا قبل أن أجدّد اتصالاتي واحصل على ما أودّ من المعلومات. وصل إلى مكتبي صباح أحد الأيام صندوق كبير حملته لي خدمات فدإكسپرس لا يحمل اسم المُرسِل. كان الصندوق مليئا بوثائق سريّة للغاية تتعلق بوكالة المخابرات المركزية، ولم يُكشف عنها النقاب خلال جلسات

استماع اللجنة الفرعية. وبطبيعة الحال، عرفت من قام بارسالها. أوضحت الوثائق الضغط المستمر لاغتيال فيدل كاسترو وجاء ذلك الضغط من جاك كنَدي. كما أنّها كشفت أنّ كنّدي قد عرف بالضبط ماذا كان نِكسُن يخطط في ذلك الخريف ضدّ كاسترو، وهو غزو للجزيرة يقوم به المنفيون الكوبيون المتواجدون في فلوريدا. كان التخطيط لما سُمّي غزو خليج الخنازير يُعدّ سِرّا حكوميا عالي الأهمية. غير أنّ مسؤولا رفيعا في الوكالة وهو خريج جامعة من جامعات الصفوة Ivy League، كان قريبا من الناحية الاجتماعية إلى حلقة كنَدي، قد نقل المعلومات إلى المرشح في مطلع ذلك الخريف. أغضب كنَدي، حاد الذكاء دائما، منافسه نِكسُن، وممّا لا شك فيه حصل على الأصوات الضرورية للفوز في فلوريدا، حين سأله خلال مناظرة جرت بينهما في الفترة الأخيرة من حملة انتخابات عام 1960، لماذا لم يعمل «ما هو كاف ضدّ كاسترو؟» لم يُفشِ نِكسُن بالسّر فخسر الانتخابات.

أخذت كلّ ما اعرفه عن القاسي كنَدي إلى سام هَلپَرن، الذي كان في طليعة حملة اقتلوا كاسترو في الوكالة، والذي تقاعد بعد سنوات من العمل المباشر مع رچَرد هِلمز. سألته، لماذا اقدم كنَدي على مغامرة كبرى، حتى في اواخر عام 1963 بالضغط على الوكالة أن تفعل بعدوه كاسترو ما عجزت عن فعله من قبل؟ جاء جواب هَلپَرن مذهلا. «إذا كنت تريد أن تفهم تهوّر كنَدي، فاذهب إلى وكلاء حراسته الخاصة.» فعلت ذلك بالضبط واستطعت الوصول إلى 4 منهم، وكانوا من المجموعة المكلفة بحمايته الشخصية، أي أولئك المستعدين للتضحية بحياتهم من اجل المحافظة على حياته. طلبت منهم أن يتحدثوا عن تهوره في مسألة العلاقات الغرامية، رغم معرفتهم بأنّ الحديث عن هذا الأمر سيجلب عليهم سخط، وربما أكثر من سخط، زملائهم في مهمة حماية الرئيس وقتها.

كانت أقوال وكلاء الحماية السرية جانبا مهما من كتابي، وكان هناك في نفس الوقت عامل مهم سلبي، ظهر بشكل ساذج. كان يتصل بي خلال سنوات عملي كمراسل، أشخاص يخبروني اشياء وطلبوا في ذات الوقت أن احقق في صحتها، وكان لزاما عليّ أن اقوم بذلك. لا اتذكر أنّني نشرت قصة دون أن يكون هناك دافع من هذا النوع. ومع ذلك، فأنّني تعرفت على ناس ذوي سحر خاص. من بين هؤلاء رجل اعمال محبوب إسمه هال كاس من مدينة أناپْلِس في ولاية مَريلاند، الذي كان قد احتيل عليه عدة مرات خلال صفقاته الخاصة، ولم اتطرق لذلك في كتاباتي. لم يتأثر كاس أو يشكو لقلة اهتمامي بقضايا الاحتيال تلك. كنا احيانا نلتقي لتناول وجبة وقت تواجده في واشنطن. كان من اهتماماته جمع الوثائق التاريخية. ونظرا لأنّه عرف أنّني أعدّ كتابا عن كنّدي، فقد تطوّع ليخبرني أنّه على علم بمجموعة غير معروفة من الوثائق، وهي ملاحظات ومذكرات كتبها كنَدي بخط يده، وانّه عُرضت عليه وعلى ثري آخر مهتم بجمع الوثائق من قبل وسيط يعمل لصالح لورَنس كوساك. قمت بتَدقيق الخبر فعرفت أنّ كوساك معروف بين اصدقائه باسم لَكس. وهو ابن محام بارز في نويورك، من ضمن موكليه ابرشية الكاثوليك في نو يورك وگلادِس بَيكر ألي، والدة مارلِن مونرو. يعمل كوساك في مكتب والده للمحاماة. الوثائق، التي بحوزته مليئة باشياء مدمرة مكتوبة بخط كنَدي عن المافيا والعلاقات الغرامية، بما فيها رسائل عشق متبادلة له مع مارلِن مونرو. أكد كوساك لي أنّ الرسائل قد تمّ تحليلها وانّها موثوق بها من قبل افضل خبراء تحليل الكتابة اليدوية، الذين أكدوا صحتها وأنّها غير مزورة. لم تكن لدي في ذلك الوقت فكرة عن تحليل الوثائق المكتوبة باليد. فرحت بالفكرة، التي طرحها هال كاس علي أصلا بأن يقدمني إلى كوساك

ووسيطه. تطلب الأمر شهورا حتى وافق كوساك أن اصوّر دفعة منها، وطبعا تقبلت تلك المماطلة لأهمية الأمر.

لم اتردد في اطلاع مارك أوبنهاوس، معدّ الأفلام الوثائقية، على خبر تلك الوثائق. فاتحت مارك حول عملنا سوية لإعداد فلم عن كنَدي، في اللحظة التي بدأت فيها الاتصال بوكلاء حمايته الخاصة. تبيّن لي أنّ بعضهم مستعد لأن يتحدث عن الموضوع أمام الكامِرا. كانت وثائق كوساك ذات نفع اضافي، بعد التأكد من صحتها طبعا، ولم نحصل على ذلك التأكيد إلّا بعد مرور سنة. كنت مقتنعا أنّها وثائق حقيقية، وكذا كان مارك بدرجة أقلّ. غير أنّ ما ازعجنا هو أنّ كوساك ووسيطه للبيع كانا يدفعان لنا بمزيد من الوثائق كلما أثرنا سؤالا. لقد جرى كلّ ذلك بأجواء من السريّة التامّة.

استمررت في بحثي ومراجعتي للفصول التي انجزتها من كتابي حول كنَدي، في الوقت الذي كنت فيه ومارك وفريق العمل معه قد حصلنا على عقد لإعداد فلم وثائقي أمده ساعتان لصالح محطة تلفزيون أي بي سي. قمنا باجراء مقابلات في كافة انحاء امريكا، وكنّا نعلم أنّ لدينا مادة ممتازة كافية لفلم الرئيس، حتى بدون وثائق كوساك. اخبرَنا رجال الحراسة الخاصة ما شاهدوه وخضنا عميقا في قصة غزو خليج الخنازير من وجهة نظر الذين شاركوا في الغزو من افراد وكالة المخابرات المركزية، الذين شعروا أنّ كنَدي قد خذلهم.

كان كتابي عن كنَدي جاهزا للطبع في خريف 1997 من قبل دار نشر لتل أند براون، وكانت حصيلة المبيعات المقدمة منه عالية جدا حيث بلغ عدد نسخ الطبعة الأولى 350 ألف نسخة، دون معرفة بحقيقة وثائق كوساك. إستمرينا جميعا، أنا ومارك وجهاز العاملين معه، النظر في تلك الوثائق التي كنّا نود أن نعلن عنها. لكنّه تولدت لدينا شكوك حول قضية مصداقية كتابات اليد. صرف أُوبنهاوس عشرات الآلاف من الدولارات خلال سنة كاملة على خبراء تدقيق كتابات اليد، الذين اكدوا لنا أنّ وثائق كوساك لا تشوبها شائبة. غير أنّ حرص مارك دفعه إلى العثور على مسؤول متقاعد عمل في مكتب التحقيقات الفدرالي اسمه جَري رچَرد، الذي وجد بعض الاختلافات بين بعض تلك الوثائق وأثار أسئلة جادة بشأنها. وفي نفس الوقت توصّل أد گرَي، احد مساعدي الإنتاج في فريق مارك، الذي كان واجبه متابعة موضوع صحة الوثائق ودقتها إلى امر خطير. اكتشف أد أنّ رسالتين ممّا قيل أنّهما تعودان إلى كنَدي وأنّه كتبهما في عامي 1961 و1962 كانا مرسلتين من منطقة رمز بريدي Zip Code لا وجود لها في ذلك الحين. أمضى أد صيف عام 1969 بالعمل في مصلحة البريد وتذكّر أنّ الرمز البريدي المؤلف من 5 ارقام قد اعتُمِد داخل البلاد في عام 1961.

كان ذلك كافيا لإثبات أنّ الرسالتين مزورتان. كانت الخطوة التالية هي أن نبلغ المسؤولين الكبار في محطة تلفزيون أي بي سي بالأمر، على أن تتولى المحطة ابلاغ مكتب التحقيق الفدرالي بقضية التزوير، ثمّ الإعلان العام عن وجود هذه الوثائق/الرسائل وفتح التحقيق مع كوساك. وجدته المحكمة الفدرالية في نو يورك مذنبا في 13 قضية، وحكمت عليه بالسجن لمدة 10 سنوات. وحتى في غياب وثائق كوساك، كان الكتاب والفلم الوثائقي عن جون كنَدي مليئين بالمعلومات والآراء عن ادارة الرئيس وفترة توليه الحكم. رغبت، كعهدي دائما بالعمل مع أوبنهاوس، أن أكتب مقالة للتايمز

لأوضح فيها كيف استطعنا كشف عملية تزوير كوساك. استطاعوا في الجريدة إقناعنا أن نستبدل نشر المقالة باجراء مقابلة مع محطة تلفزيون أي بي سي ضمن برنامج 20/20. كم كنت ساذجا لقبول الإقتراح! كانت المقابلة محاولة ناجحة للتشهير بي. لقد صرفت المحطة حوالي 3.5 مليون دولار لإعداد الفلم الوثائقي بطول ساعتين عن كنَدي وكان مقررا أن يُعرض في نهاية العام. أصبت بالرعب بأنّ المحطة ستكون متهمة باستخدام وثائق مزورة عن كندي خلال اعداد الفلم. اعترفت علنا أنّني في البداية وقعت في شراك محتال، ولا صحة للادعاء بأنّنا أثناء عملية كتابة التقارير واعداد الكتاب والفلم لم ننتبه لما جرى. الحقيقة هي أنّ أوبنهاوس وفريقه وكذا أنا نفسي كانت لدينا شكوك حول وثائق كوساك، لكنّ ذلك لم ينفع وتركز الحديث حولي، أنا الصحفي الذي فضح مذبحة ماي لاي قد خُدِعتُ.

ما تلى أمر الفضيحة حول زور الوثائق المتعلقة بالرئيس، أصبح مادة للصحف الرخيصة وموضوعا لمن أحبّ أن يؤلف كتابا جديدا عن كنَدي وتُرِكت هدفا سهلا للطعن والتجريح من قبل محبّي الرئيس القتيل. أصبحت وكأنني في حرب شرسة مع شبح شخصية كامِلوت Camelot. لم أكن اريد تلك الحرب واعلم يقينا أنّني لن انتصر فيها. جدير بالذكر أن الفلم الوثائقي الذي عُرض في نهاية العام لم يحمل العنوان الأصلي، وهو «الجانب المظلم من شخصية كاملوت» بل بعنوان آخر هو «السنوات الخطيرة».

خلال اجراء بحثي لمادة كتاب كنَدي، تعلمت حالي كحال العديد من الصحفيين الآخرين، أنّني لم انصف إدورد كوري، الذي عمل سفيرا للولايات المتحدة في چِلي بين الأعوام 1967 إلى 1971. ظهر حينها أنّه من أشدّ منتقدي الحكومة الإشتراكية في چلِي، والتي اسسها أيَندي بعد انتخابه رئيسا للبلد عام 1970. في عام 1974 وإثر نشر مقالاتي الأولى حول الدور القذر، الذي لعبته وكالة المخابرات المركزية في تلك البلاد، جرى اتهامه بشكل علني، إلى جانب رِچَرد هِلمز وموظفين إثنين من وزارة الخارجية، بالإدلاء بشهادات مضللة أمام إحدى لجان مجلس الشيوخ. أصرّ كوري، الذي تقاعد من الخدمة الحكومية بعد مغادرة چلي أنّه لم تكن لديه في ذلك الوقت معرفة بالإنقلاب العسكري أو التخطيط له. ركّز على ذلك في شكواه عن المقالات التي نُشِرت في التايمز. كان صديقا لصاحبنا أيب روزنتال في وقت ما خلال ممارسته الوظيفة، فذهب بشكواه مباشرة اليه. أوضحت لصاحبي أنّني كتبت مقالة حول تقرير روتيني للجنة مجلس الشيوخ، وتطرقت إلى چلي، وليس هناك سبب للإعتقاد بأنّ كوري لم يكن له ارتباط بخطط وكالة المخابرات المركزية المناوِئة للرئيس أيَندي. فوجئت بعد 6 سنوات بمعرفة أنّ كوري ما كان يثق برئيس مكتب الوكالة في چلي، وأنّه لذلك السبب قد حُجِب عليه الإطلاع على ما سُميّ المسار الثاني لنشاطات الوكالة من أجَل اسقاط حكومة أيَندي. اتصلت بأيب واخبرته أنّني والجريدة ما انصفنا السيد كوري، فطلب مني أن اكتب مقالة عن الأمر كي تُنشر على الصفحة الأولى.

غيرَ أنّه تمّ وضع اليد على المقالة المؤلفة من 2300 كلمة لعدة اسابيع. أراد أيب أن تكون على الصفحة الأولى واحتاج يوما هادئا لتظهر كما ارادها، وحان الوقت لنشرها في مطلع شهر فبراير عام 1981. شعرت وأيب أنّنا وفينا كوري حقه علينا، لكنّ ردود فعل زملاءنا كانت مشوبة بالسخرية والتهكم. طلعت علينا مقالة في التايمز تحت عنوان «تصحيح التايمز لمقالة 2300 كلمة.»

كان القصد منها القول أنّني وأيب والجريدة قد صححنا خطأ بطريقة سطحية، وهو شيء نادر في عالم الصحافة ولا يُعترف به. كان نشر المقالة بعيدا كلّ البعد عن تصحيح خطأ، لكنّه توضيح كيف أنّ جريدة اعتمدت على تقرير من الكونگرس لنشر قصص خاطئة. قرأ أيب تلك المقالة وسألني في حيرة «كيف استطيع مواجهتهم مرة أخرى؟» إنزعجت كثيرا لأنّ المجلة تشعر بالمرارة لحدّ الإعلان خطأ أنّ المعلومات التي عرفتها من وثائق من داخل وكالة المخابرات المركزية، وكلها سرية للغاية «ما زالت حية في الأذهان لعدة سنوات.» كما كان هناك اقتراح شائع في دوائر الإعلام دفعه كوري لاسباب لم افهمها، أنّني اخبرته بأنّني سأصدر تصحيحا بشرط أن يخبرني بأيّة معلومات عن كِسِنجر. تمّ نشر مثل هذا الادعاء على نطاق واسع وبشكل متكرر، دون أن يكلف أحد نفسه مشقة الإتصال بي. ولو كان لأطلعته على رسائل استلمتها من كوري حثني فيها على الحضور لمقابلته كي يتحدث عن كِسِنجر. لقد نُشِر تلميحه المدحوض باعتباره حقيقة ثابتة المرة تلو الأخرى، دون طرح سؤال عن اعتراف كوري، أنّه لو كانت اتهاماته صحيحة فذلك يعني أنّه استسلم للابتزاز.

حين طُرح كتابي المعنون «الجانب المظلم من شخصية كامِلوت» في الأسواق، أصبح في الحال الأكثر مبيعا، ولكن لاسباب خاطئة. القضايا الجديدة، التي كشفتها حول معرفة جاك كنَدي المسبقة بغزو خليج الخنازير وتوظيفه سياسيا لكافة المعلومات، سبّبت ضجة. ركزت الأخبار الأولى عن الكتاب على الوثائق المزورة، التي لم تُنشر في الكتاب، وعلى اعترافات رجال حماية الرئيس عن القضايا الغرامية. وبعد أن هدأت الضجة أجرت مجلة أتلانتِك معي مقابلة، فاستطعت اخيرا أن أجد شيئا جيدا لأذكره عن رسائل كنَدي المزورة. «اشعر أنّي سعيد للغاية بطريقة مضحكة... إن فضيحة الرسائل قد حدثت وانتهت. لو اخذنا بنظر الاعتبار الاستقبال غير الودي على المستوى العالمي للكتاب، فإنّي اشكر الربّ أنّني امتلك تلك الأوراق، لأنّه بدونها لكنت اتهمت باختلاق كل شيء... لقد تعرضت للنقد عن كافة ما كتبته طيلة حياتي منذ ماي لاي ونشاطات وكالة المخابرات المركزية في الداخل والخارج. ولكن هذه المرة انصبّ النقد على ما اعتقده... القضية هي أنّني لم انشر تلك الوثائق المزورة... لا أفهم جريرتي لملاحقة قصة اكتشفت فيما بعد أنّها ليست حقيقية، وقلت ذلك بنفسي صراحة.»

اقتنع القليل من الصحفيين بما ذكرته في اعلاه. فمثلا، ظهرت مقالة في مجلة التايمز في قسم مراجعة الكتب، حيث انتقدني توم پاورز لما دعاه «ولعي الكبير والدائم» في قضايا التزوير. ثمّ ذهب للقول بأنّه ما دامت الوثائق المزورة لم تجد طريقها للنشر في الكتاب، فإنّ «مواد أخرى كثيرة قد ظهرت فيه. والسؤال المطروح هو ماذا نستنتج منها؟ ثمّ اضاف قائلا:

الشيء الأول الذي يجب ذكره عن «الجانب المظلم من شخصية كامِلوت» هو أنّ مؤلف الكتاب صحفي وليس مؤرخا. وما فيه حقيقة هو ما توصل إليه هيرش. ذكر المرة تلو الأخرى، أنّ «فلانا قال في مقابلة من أجل اعداد هذا الكتاب.» أو «اخبرني فلان» أو أنّ بعض الوثائق، التي تمّ الحصول عليها من أجل هذا الكتاب «تنشر هنا لأول مرة.» بدت المرات الأولى وكأنها نوع من التبجح والتضخيم، لكنّنا سرعان ما تعودنا على تلك العبارات، واصبح جليّا أنّ هيرش قد بذل جهده ليتوصل إلى ما يبحث عنه. وهو لم يحاول أن ينقل اشياء من كتب اخرى. حاول منذ البداية أن يخبرنا ماذا وجد. وهذا ما سهّل على القراء واعداء المهنة مهمة اصدار الأحكام. قسم الملاحظات

عن المصادر «ثقيل» بعض الشيء، ولكن بالمقارنة مع الصحفيين الاستقصائيين، الذين لا يذكرون أية ملاحظات عن مصادرهم، فإنّ عمله رحمة. جعله هذا يقف في صفّ إدورد گيبَون[39].

إرتحت كثيرا لوضع كتاب كنَدي ورائي والعودة لاجواء العمل العقلانية السعيدة في مجلة نو يوركر. لقد تقاعد پات كرَو وحلّ دَيفِد رَمنِك، مراسل الواشنطن پوست، الذي لم اعرفه شخصيا، محل تينا براون. كانت أستر نوبَرگ قبل سنوات بعثت لي نسخة لم تُطبع بعد من كتابه المعنون «ضريح لِنِن،» الذي حاز به على جائزة پوليتزر في الأيام الأخيرة من عمر الإمبراطورية السوفياتية. وهو نموذج افضل للكتاب غير الروائي، كما كتبت في تعليق لي على غلاف الكتاب. بدا لي أنّ تعيين دَيفِد لرئاسة تحرير مجلة نو يوركر مناسب للغاية. رحّب بي حين التقينا بعودتي للمجلة ترحيبا حار وبدأت بيننا صداقة مهنية.

اصبح جون بِنِت هو المحرر المشرف على ما اقدّم للنشر. وكحال بقية المحررين في المجلة وقتها، رأى أنّ مهمته تنحصر في فهم ماذا يريد المراسل أن يقول ويقوم هو بدور المساعد لإنجاز المهمة. نشرت مقالتي الأولى تحت إدارة رَمنِك للمجلة عام 1998، وبدأت من حيث انتهيت قبل اعوام بتحدي المنطق والمبرر العام الذي ادّعته إدارة كلِنتُن لضرب مركز بغداد بصواريخ توماهوك عام 1993. كان هدف البيت الأبيض هذه المرة تدمير مصنع للأدوية في ضواحي الخرطوم عاصمة السودان. إدّعى البيت الأبيض أنّ المصنع ينتج أسلحة كيمياوية إلى جانب تصنيع العقارات الطبية العامة منخفضة الكلفة generic، التي توجد لها حاجة ماسة بالنسبة لسكان البلاد. أعلن كلِنتُن عن ضرب المصنع وقت كان يقضي عطلة صيفية في شهر اغسطس عام 1998 في جزيرة مارثا فِنيارد، وذكر أنّ استهداف المصنع راجع لكونه «يشكل تهديدا وشيكا» للأمن الوطني الأمريكي. جاء قراره هذا إثر إفادته امام محلفين فدراليين كبار بيومين حول علاقته الغرامية بالمتدربة مونِكا لونسكي.

كان كافة الضباط الكبار ومسؤولي المخابرات، الذين اعرفهم ما زالوا في مناصبهم، خلال السنوات الأربعة الماضية التي قضيتها وأنا اصارع في اعداد كتابي ومن ثم الفلم الوثائقي عن جون كنَدي. شعرت بوجود غضب بينهم، دون استثناء لقرار كلِنتُن بدك المصنع بالصواريخ. تعوّدنا على استعمال كلمة «مصادر» في الصحف العالمية إشارة لمن يزوّدنا المعلومات التي نحن بأمسّ الحاجة اليه. برأيي أنّ استعمال هذه الكلمة غير دقيق. لطاما تناولت افطاري في الساعة السادسة صباحا مع «مصادري» كما تناولت أيضا وجبات الغداء والعشاء حين كانوا يعملون خارج واشنطن. تمّ بعض هذه اللقاءات في خارج البلاد. أصبح هؤلاء المطلعون على خفايا الأمور بسرعة أكثر من «مصادر.» اصبحوا اصدقاء وظلوا كذلك حتى بعد أن تركوا الخدمة الحكومية.

وكما حدث في القصف الصاروخي لمركز بغداد في صيف عام 1993، برزت اسئلة عديدة حول المعلومات المخابراتية التي ربطت بين تدمير مصنع الأدوية، الذي ربما كان المصنع الوحيد لهذه الغاية في السودان، بمسألة صنع عناصر الأسلحة الكيمياوية. كما برزت اسئلة جادة وهامة عن استعداد كلِنتُن وبيته الأبيض لتنفيذ مهمة القصف. من القضايا الهامة أنّ 4 من اعضاء قيادة الأركان العسكرية الأمريكية قد استُبعِدوا من مهمة التخطيط للهجوم حتى آخر لحظة. إقتصر

الأمر على جنرال واحد فقط إسمه هِيو شَلتَن، قائد الأركان العامة المشتركة، الذي كان على علم منذ بداية التخطيط للعملية. عرفت أنّه تلقى التعليمات من ساندي بَرگر، مستشار الأمن الوطني للرئيس كلِنتُن. وبناء على تعليمات بَرگر، لم يُبلغ شَلتُن قادة الأركان الآخرين ولا وكالة المخابرات العسكرية بالخطة. اشرف بَرگر على العملية وتعاون في الخفاء مع أدميرال ذي رتبة منخفضة مغمور، كوفئ في نهاية فترة ولاية كلِنتُن الثانية، فأثارت المكافأة العجب بين القليل من مسؤولي البِنتگون. رُقيّ هذا الأدميرال المغمور وعُيّن بمنصب قائد القوات العسكرية الأمريكية لما وراء البحار.

فاحت رائحة الشكوك وفهم الضباط رفيعو المستوى والمسؤولون في الجيش والمخابرات أنّ العملية كانت بفعل تطلعات بَرگر، الذي توقع أن يصبح مدير مكتب الرئيس قبل أن تشرف مرحلة ولاية كلِنتُن على نهايتها. كانت عملية الخرطوم بالضبط ما اراده كلِنتُن، وينطبق عليها قول «هزّ ذيل الكلب» Wag the Dog. أنهيت مقالتي باقتباس تصريحات موظف سابق رفيع المستوى في الخارجية الأمريكية. شرح الأمر بأنّ كلِنتُن كان منشغلا وقتها بمشاكله الشخصية والمهنية، التي نجمت عن علاقته الغرامية مع لونِسكي، وقت عملت متدربة في البيت الأبيض. «إنّ نجاته من المحنة كانت أهم شيء يشغل باله دائما،» حسب قول الموظف المذكور، الذي اضاف، «لو لم يكن كلِنتُن واقعا في تلك الورطة لما أقدم على تلك المغامرة.» قصد بذلك المصادقة على الهجوم باستعمال صواريخ توماهوك. «إنّه اذكى من ارتكاب مثل هذا الفعل.» رفض بَرگر أن يقابلني حين كنت أعدّ مقالتي عن الموضوع، بالرغم من توسلاتي.

فعل رَفنِك ما يفعله المحرر الجيد، في الوقت الذي اخذت فيه القصة طريقها إلى المكاتب البيروقراطية. اتصل بفريق ضبط الحقائق بالمجلة، الذي قام بواجبه مستقلا عن أيّ تأثير وطرح عديدا من الأسئلة قبل نشر المقالة. وإذا كان رَفنِك تلقى بعض اللوم من البيت الأبيض بعد النشر، فإنّه لم يطلعني عليه.

انتقلت من موضوع السودان إلى موضوع إسرائيل، وكتبت مقالة في مطلع عام 1999 عكست فيها وجهة نظر مخالفة لأجهزة المخابرات الأمريكية، عن القرار المحتمل، الذي قد يصدر عن كلِنتُن بالاستجابة إلى طلبات إسرائيل المتكررة بالعفو عن جَنَثن پولارد وإطلاق سراحه. عمل پولارد ضابط مخابرات في البحرية الأمريكية، والقي القبض عليه عام 1985 وهو يتجسس لصالح إسرائيل، وحُكم عليه بالسجن مدى الحياة. توقع كلِنتُن أنّ قرار العفو سيواجه بتهديدات كبيرة من الجهات العليا في البِنتگون ووكالة المخابرات المركزية بتقديم استقالات جماعية. كان السؤال الواضح عن سبب هذا الحقد، بين رجال المخابرات ونساءها ازاء قضية پولارد.

حين بدأت طرح الأسئلة، دعاني أحد مسؤولي المخابرات بالحضور إلى أحد مراكز الوكالة للتحدث عن الموضوع. لقد أجريت في السابق مقابلات كنت أنا هو من يُلحّ في طلبها، وكانت الوكالة حينها تحت إدارة جورج تِنِت، لكنّ الدعوة ما صدرت عنه. حين وصلت إلى المركز أخذني مسؤول اعرفه بالاسم فقط إلى غرفة اجتماعات صغيرة في الطابق السابع، حيث يوجد مكتب المدير تِنِت. لم نتحدث من قبل معا، لكنّه سألني ماذا أحب أن يُضاف إلى قهوتي بعد أن دعاني إلى

الجلوس. عاد مضيفي بالقهوة وحمل أيضا مجّلدا ضخما، وقدّم الإثنين لي معا، قائلا شيئا ما يُشبه، «أتمنى لك وقتا سعيدا» ثمّ اغلق الباب خلفه.

احتوى المجلد على مواد سرية مختومة للحفظ لم يطلع عليها أحد بأمر من القاضي الفدرالي، الذي تولى محاكمة پولارد، بينها خلاصة لكافة الوثائق السرية المحفوظة في مكتبات مدينة واشنطن، التي صورها واعطاها لمن جنّده وأوكل إليه المهمة من منتسبي المخابرات الإسرائيلية. الأمر الذي اذهلني هو أنّه كان واضحا أنّ سرقة پولارد كانت للوثائق المتعلقة بكيفية تجسس أمريكا على خصمها الإتحاد السوفياتي. الأمر المستدرك من ذلك أنّه ليس تجسسا على أمريكا وفق خطة من وجّهوا پولارد في اسرائيل. وكما كتبت فيما بعد فإنّ اغلب الوثائق التي اطلعت عليها لم تتعلق باسرار المخابرات الأمريكية وتقديراتها وتوقعاتها، لكن ركزت فقط على كيفية حصول أمريكا على ما حصلت عليه من معلومات يطلق عليها مجتمع المخابرات اسم «المصادر والوسائل.» هناك سلسلة من من الوثائق التي حصل عليها پولارد تكشف كيف استطاعت وحدة الإشارات البحرية السرية في منطقة البحر الأبيض المتوسط من متابعة الغواصات السوفيتية وتحركاتها داخل مياه البحر المذكور منذ اجتيازها لمنطقة مضيق جبل طارق. تكشف وثائق أخرى كيف استطاعت وحدة الإشارات من التقاط الإشارات السوفياتية بشكل عام. وهناك وثيقة سرية مطولة تتألف من 6 اجزاء عنوانها الدليل الأمريكي لالتقاط إشارات الراديو في الاتصالات اللاسكية RASIN. احتوى الدليل، الذي لم تكن لديّ فكرة عن وجوده، على معلومات عن مدى وبعد وعمق أيّة اشارة لاسلكية للأصدقاء والخصوم، فاطلقت عليه اسم «الكتاب المقدس لالتقاط الإشارات.» اخبرني أحد العاملين السابقين في وكالة الأمن الوطني NSA أنّ الدليل يعطي المعلومات عن كيفية جمع الإشارات اللاسلكية في أي مكان أو بقعة حول العالم.

أعرف اشخاصا وودت مقابلتهم لتأكيد معلومات حصلت عليها أو سُمح لي الإطلاع عليها. لكنّني كنت مترددا حين وُضِعتُ في موقف غير مألوف. أنا الذي بذلت جهدي المهني في مطاردة الأسرار، وضعوا الآن الأسرار في متناول يدي. الموظف رفيع المستوى في الوكالة «الذي قادني إلى الماء» لم يتكلم معي ثانية، رغم محاولاتي العديدة لسنوات. تمكنت من ضبط مصداقية المعلومات التي وُضعت في متناولي، وفضلت أن اعتقد أنّ أولئك، الذين مكنوني منها، قد افترضوا أنّني لن اذهب بعيدا فاكشف كافة ما وضعوا امامي. لقد اتاحوا لي الفرصة للاطلاع على وثائق فريدة حصل عليها پولارد وسلمها إلى الإسرائيليين. كانت كلّ صفحة تقريبا قرأتها مليئة بالملاحظات، التي تدل على أنّها بالغة الأهميّة.

رسمت الوثائق التي اطلعت عليها امامي بوضوح صورة غضب رجال الوكالة والپنتگون ونسائها، لأنّهم اعتقدوا أنّ حكومة إسرائيل كانت تتبادل المعلومات، التي يوافيها بها پولارد مع موسكو، لقاء سماح الدوائر المعنية هناك لليهود السوفييت بالهجرة، خاصّة من ذوي الكفاءات والاختصاصات والخبرة، التي تحتاجها إسرائيل. لم يظهر أيّ تأكيد لذلك الاعتقاد، لكنّه كان شائعا بين كافة الذين قيّموا ما فعله پولارد وشاهدته بأمّ عيني.

رجعت مرة أخرى لكتابة مقالات عمّا كنت أحبّ أن اكتب عنه، خاصة ما يتعلق بنشاط المخابرات المركزية خلال فترة أواخر التسعينات، حين قامت لجنة الأمم المتحدة التي سموها UNSCOM بعملها في العراق. كانت مهمة اللجنة هي النظر في قضية أسلحة التدمير الشامل، الكيمياوية والنووية، التي ما زالت في حوزة نظام صدّام حسين. الهدف المناقض هو تظاهر الوكالة باهتمامها المشترك مع بعثة الأمم المتحدة للحصول على معلوما حول سلاح صدام. في الحقيقة كانت الوكالة تجمع المعلومات التي ستسهل عليها اغتيال القائد العراقي. كان عنوان مقالتي، التي اقرّها رَمنِك هو «أفضل أصدقاء صدام: كيف سهّلت وكالة المخابرات المركزية على صدام إعادة تسليح قواته.» شعرت بالقناعة، أنّني اعود ثانية واكتب عن موضوعات لا تحبّ حكومتي لأحد أن يطلع عليها. لديّ عمل أفضل من أيّ عمل في العالم، واعمل لصالح أروع مجلة لها محررون شجعان وتقدميّون يتمتعون بأفضل مستويات العمل الصحفي، ولي الحرية أن استقصي أيّ موضوع ذي قيمة بمساندة رَمنِك وموافقته.

تمّ اشعاري مرة تلو أخرى من قبل أولئك الذين عملوا معه، عن السلوك الشاذ لجنرال اسمه بَرّي مككافري. وهو شخص جريء قاد وحدة عسكرية في حرب الخليج الأولى عام 1991. حين تقاعد من الخدمة عام 1996، عيّنه بل كلِنتُن مديرا لمكتب البيت الأبيض لمكافحة المخدرات. استمر سلوك مككافري الزئبقي الصورة حتى في البيت الأبيض. تناولت في أواخر عام 1999 قهوة صباح أحد الأيام مع جنرال ذي اربع نجوم قبل أن نبدأ هرولتنا الصباحية لمسافة 5 أميال، فتحدثنا عن سلوكية مككافري كشخص مدني. أخبرني صديقي هذا، الذي قاد هو أيضا وحدة عسكرية في الحرب المشار إليها في الكويت، أنّ القصة الحقيقة كانت تتعلق بتدمير رتل دبابات عراقي منسحب إثر انتهاء الحرب، وبعد تلقيه تأكيدات بسلامة المرور، وهو يغادر الكويت في طريق العودة إلى بغداد.

تطلب الأمر شهورا ومئات من المقابلات المسجلة كلها تقريبا، ولدي قصة لا يرقى إليها الشكّ عمّا جرى. لدي نصوص محادثات الراديو بين المراكز الحربية خلال وقوع الهجوم على رتل الدبابات بعد اتفاق وقف اطلاق النار. شعرت أنّ عندي تعليقات مدمرة من عدد من الجنرالات من زملاء مككافري ومن هم أعلى رتبة منه. كان رَمنِك الذي راقبني لمدة 6 أشهر وأنا أعدّ المقالة، قد طلب منّي الحصول على مزيد من الانتقادات لسلوك مككافرن العسكري، واعتبرت ذلك الطلب انعكاسا قويّا لمبادئ عملية التحرير الصحفي. أمضيت أسابيع أخرى وأنا أتفاوض لأجل التوصل إلى صيغة مخففة من الانتقادات لسلوكية مككافري، وفق وجهات نظر زملاءه ورؤساءه. بدا وكأنّه يريد أن يترك له أثرا بارزا في رمال الصحراء العربية كبطل، فعل ما فعله الجنرال الألماني أرون رومل في صحراء شمال افريقيا عام 1942 من اعمال ترقى حقيقة إلى مستوى جرائم حرب.

تألفت المقالة من 24 ألف كلمة وضعت لها عنوان «القوة المفرطة». كانت في مرحلة ضبط الحقائق وتدقيقها حين علمت أنّ مككافري، الذي رفض أن يقابلني وشجع زملاءه وتابعيه أن يحذو حذوه وفق حملة استباقية، قد اصدر بيانا من خلال محاميه. هاجمني في ذلك البيان وشكا أنّني أجريت مقابلات «بقصد تشويه سمعته، ولأسباب شخصية حاقدة.»

نجحت خطة الجنرال المتقاعد وتلاقفت وسائل الإعلام وكتبت عن مهاجمته لي. جرى كل ذلك قبل نشر المقالة.

نالت مقالتي الكثير من الانتباه، ألّا أنها لم تؤثر لدفع الحكومة لإجراء تحقيق رسمي بشأن الموضوع. إنّ تحقيق النصر على صدام عام 1991 كان يُنظر إليه على أنّه نهاية وصمة العار التي لحقت بالجيش الأمريكي في هزيمة حرب فيتنام. ولم تكن هناك نيّة لتخريب فرحة العسكر المنتشين بذلك الإنتصار الرخيص. لم يذهب مككافري إلى المحكمة ليطلب منّي تعويضا ماليا، بالرغم من شكواه المريرة منّي. تُركت وحدي اصارع الانطباع أنّ أمريكا لا يعنيها القتل غير المسوغ للمدنيين والأسرى والجنود العراقيين العائدين إلى بلادهم بعد توقيع اتفاق وقف النار. ذكّرني ذلك بقاعدة جرى اتباعها في فيتنام، «هم فقط گوك!» كان الأمريكيون يطلقون اسم گوك على الفيتناميين. واذا اغتيل أحد أو اغتصِبت امرأة، فلا يشكل ذلك جرما أو انتهاكا للقوانين أو الاستخفاف بها «هم فقط گوك!» الحقيقة أنّني ادركت تلك القاعدة ولمستها منذ عقود ماضية حين كنت انقل اخبار حريق نجم عنه موت 5 اشخاص سود في شيكاگو، لصالح جريدة اخبار اليوم.

كانت آخر مقالة لي قدمتها لصاحبي رَمنِك قبل هجوم 11 سبتمبر، تدور حول سلسلة من نشاطات الفساد والرشوة، التي ارتكبتها شركة موبل للنفط. وهي شركة عملاقة استفادت كثيرا من سقوط النظام الشيوعي والإتحاد السوفياتي، حين انخفضت اسعار النفط إلى درجة غير مسبوقة أو معقولة خلال فترة الفوضى التي سادت البلاد. قدمت موبل رشاوى كبيرة للمسؤولين السوفييت السابقين، الذين كان بينهم عدد كبير من مسؤولي المخابرات، من الذين تمكنوا أن يضعوا أيديهم على بلايين الدولارات. استغرقت مراجعة المقالة عدة اشهر وكانت هناك تهديدات من محامين معروفين في نو يورك، وكلتهم الشركة المذكورة وغيرها من المؤسسات الاحتكارية الأخرى، التي ارادت الإنقضاض على اقتصاد البلاد وتحويل شركاته وخدماته للقطاع الخاص. ما زلت اتذكّر الاجتماع الذي انبرى فيه المستشار القانوني الجديد لمجلة نو يوركر حين اعلن بصراحة أنّه يجد صعوبة في تصديق ما اوردته في مقالتي من اتهامات ضدّ شركة موبل وقيامها بنشاطات تخالف القوانين بشكل مفضوح. قمت من شدة يأسي من تعليقاته ومشيت نحوه وربّت على خده قائلا، «أنت ولد بالغ اللطف!» (ظهر فيما بعد أن ذلك المحامي صار حجر عثرة امام نشر المقالات في المجلة.) غير أنّ رَمنِك تشبّث بموقفه وشعر بقليل من الارتياح بعد أن قمت بإدخال تعديلات وفق النصيحة القانونية. ظهرت المقالة في شهر يوليو من عام 2001، فكانت صعبة على القارئ لأنّها معقدة وفيها معلومات عن الكثير من المعاملات التجارية غير المعهودة والعديد من الأسماء الأجنبية غير المألوفة. لكنّها حظيت بانتباه الحكومة الفدرالية، التي فتحت تحقيقا مباشرا للنظر في الاتهامات الواردة في المقالة.

بالرغم من صعوبتها وقلة التشويق فيها، فقد نُشِرت تحت عنوان «ثمن النفط.» لقد وضعني نشرها في دائرة انتباه العديد من تجار النفط وخبراء الطاقة في اوروپا والشرق الأوسط، وهذا ما سهل جزء من مهمتي إثر احداث 11 سبتمبر.

الفصل التاسع عشر

حرب أمريكا ضدّ الإرهاب

كنت في منزلي صبيحة يوم 11 سبتمبر من عام 2001، وشعرت كما بقية أغلبية المواطنين بالمخاوف والقلق، إثر تدمير البرج الأول. جاءت المكالمة الهاتفية، كما توقعت، حتى قبل تدمير البرج الثاني. لا أتذكر بالضبط كلمات دَيفِد، لكنّ الرسالة كانت واضحة. «أنت الآن مكلف بشكل دائم لتغطية أكبر قصة في تاريخك المهني.» لم يكن يتحدث عن ردود فعل مدينة نو يورك إزاء الهجمات، إذ سيكون العدد التالي من المجلة مخصصا لذلك، لكنّه اعتمد عليّ أن أحاول الإجابة عن الأسئلة التقليدية التي يطرحها المحررون في هكذا أوقات. وهي أسئلة من قبيل مَن فعل ذلك وكيف تمكّن من فعله ولماذا؟

اعادني ما حدث ذلك الصباح إلى لحظة حدثت عام 1972 في صحيفة التايمز، حين أصرّ أيب روزنثال أن اتوقف تماما عن كتابة التقارير عمّا اعرفه جيدا عن حرب فيتنام، وانصرف بدلها كما ينبغي إلى فضيحة ووترگَيت. كانت له ثقة بي كالثقة التي اظهرها دَيفِد، لكنّ هذا التكليف اصعب بكثير. كانت ووترگَيت قضية داخلية تخص واشنطن وسياساتها، وعرفت حينها أنّ لدي فرصة ممكنة للعثور على بعض اللاعبين فيها. أمّا هجمات نو يورك، فقد وضعت امامي تحديا كبيرا. في الحقيقة، أنّني لم اتناول من قبل وبشكل عميق حركة الإرهاب الإسلامية، وما وضعت لي قدما من قبل في افغانستان، حيث يوجد مقرّ ابن لادن. ولكن من جهة أخرى، كتبت عن پاكستان لصالح مجلة نو يوركر واعرف أنّ نشاطات المخابرات الپاكستانية ISI لها يد طولى ودور عميق خفي مبهم في افغانستان.

كما عرفت أيضا أنّ هجمات 11 سبتمبر ستكون فرصة العمر لقصة تتطلب اعتمادي على مصادر جديدة في واشنطن وفي منطقة الشرق الأوسط. لقد استطعت فعل ذلك من قبل، وعليه لم يتملكني العجب حين علمت بوجود البعض داخل مؤسسة التايمز، بينهم توم فريدمَن، الذي اقترح اعادة توظيفي في صحيفة ومجلة التايمز مباشرة. تلقيت رسالة هاتفية مسجلة من أحد المحررين الكبار في المؤسسة، الذي بدا مترددا في التعامل معي ثانية. لم اردّ على تلك المكالمة، وما سمعت منه بعد ذلك. الأمر لا يهمّني فأنا موضع ثقة دَيفِد رَمنِك.

بدأت مهمتي بمطالعة كل ما وقعت عليه يداي من المعلومات حول المنطقة واستغرق ذلك بضعة اسابيع. قمت خلالها بالتحدث مع أولئك الذين اعرفهم في وزارة الخارجية وداخل وكالة المخابرات المركزية، ممّن خدموا في جنوب آسيا. كان هدفي هو أن تتشكّل لديّ معرفة أولية عن افغانستان وپاكستان وحركة الإرهاب العالمية. تتبعت أثر بعض المتخصصين بشؤون المنطقة من الأكاديميين في امريكا، ممّن عرفوا اساليب حركة طالبان، التي يتكون اعضائها من قومية البشتون، وهي اكبر مجموعة عرقية في افغانستان. شعرت بالخوف حين علمت عن ثقافة البشتون، التي لا تطلب الثأر مباشرة بل تتريث، وقد يأتي الطلب بعد اشهر وربّما سنين، حين يتعرض أحد افراد القبيلة/العائلة إلى عنف من قبل شخص آخر. كنت على ثقة أنّ جورج دبليو بُش ونائبه دِك چَيني سيلجأن إلى العنف في افغانستان دون أن يفكرا في مغبّة قرارهما، وذلك سوف لن يقتصر على ابن لادن، بل سيتعداه إلى الحكومة التي استضافته، طالبان.

قادتني تقاريري عن جَنْتْن پولارد في عام 1998، وكذلك الغارة بالصواريخ على مصنع الأدوية في الخرطوم وتدميره، إلى عدد من مسؤولي مكتب التحقيقات الفدرالي الكبار. جازفت صباح أحد الأيام باجراء مكالمة هاتفية لمنزل احدهم بعد ايام قليلة من حدوث هجمات 11 سبتمبر. حاولت كعادتي أن اكون صريحا ومفتوحا ومباشرا مع موظفي المخابرات الكبار لأقصى حدّ ممكن. كان الجيدون منهم، وهم الكثرة ممّن يحظون باحترامي، يقابلونني بالمثل ويستجيبون بنفس الطريقة. كانت الأمور حامية، كما ذكر هذا المسؤول، لكنّ الشيء الواضح امامه وأمام زملاءه، أنّ الإنتحاريين التسعة عشر، سواء كانوا تحت سيطرة ابن لادن أم لا، لم يكونوا من الفئة الرائدة، كما خشي البعض اساسا. ولكن سيتبع ذلك موجة من الإرهاب داخل امريكا. كان التسعة عشر ارهابيا فقط، الفريق الذي اختير للعبة كاس العالم في كرة القدم! سيأتي بعدهم آخرون أشدّ تحمّسا. ربّما ما كان بإمكان اجهزة المخابرات الوصول إلى حقيقة الهجمات، كما ذكر. غير أنّه كان على ثقة أنّ ما ساعد هؤلاء على تنفيذ عملهم الإجرامي، هو قلة التعاون المزمنة بين اجهزة المخابرات في البلد.

عقدت اجتماعات مع من كانوا والذين ما زالوا يعملون في وكالة المخابرات الأمريكية، من الذين ساعدوني في كتابة مقالاتي منذ ايام حرب فيتنام. العاملون السابقون عادة ما يكونون قادرين على جمع معلومات مدهشة من زملائهم الذين عملوا معهم. دُعيت اخيرا مع عدد من العاملين في الفترة التي تلت 11 سبتمبر لتناول الغداء في مطعم صيني في ضواحي فرجينيا. كان الخلاف على اشدّه حين تتابعت الشكاوى حول الوكالة لزيادة البيروقراطية الجامدة فيها وغياب حرية المبادرة والتقييدات المالية، من وجهة نظر الحاضرين. اجمعوا أنّ فشل وكالة المخابرات في التصدي للخطة الإرهابية لم يكن بفعل تقصير منتسبيها في قسم العمليات السرية، ولكن في صفوف القيادة المتذبذبة. وفي النهاية انقلب الحديث إلى الاعتقاد السائد في الوكالة بأنّ منتسبيها متفوقون على نظرائهم في ميدان جمع المعلومات المخابراتية. نظرت إلى صديق قديم عمل مديرا لإحدى محطات الوكالة في الشرق الأوسط، ويعرف الكثير عن الإرهاب افضل منّي. سألته عن سبب وجود احتقار كبير لمكتب التحقيقات الفدرالي، حتى بعد حدوث هجمات 11 سبتمبر. أذهلني جوابه حين قال، «ألم تدرك ذلك يا ساي! مكتب التحقيقات الفدرالي قادر على الإمساك بمن يسرقون المصارف، ونحن نسرق المصارف.» ثم اضاف، «ومكتب الأمن القومي؟ هل تتوقعني حقا أن أتحدث أو أثِق بمن يهتمون فقط بمظهرهم ويطيلون التحديق بأحذيتهم بنيّة اللون؟» صُدِمت بل دُهشت من ردّه الساخر، وضحكت كثيرا لذكر الأحذية بنيّة اللون.

تركت المطعم وأنا على قناعة تامة أنّ تبادل المعلومات والتعاون بين الأجهزة الأمنية سوف لن يتحقق، حتى بعد كارثة 11 سبتمبر. لربّما نجح الإرهابيون التسعة عشر بفعل هذا التناحر داخل مؤسسات التخابر.

كانت مجلة نو يوركر متحفزة لنشر أية مقالات عن هجمات 11 سبتمبر، وكان هدفي الأول أن أكتب وأتعرض بالتفصيل إلى ماذا حدث بالضبط. لماذا فشلت أمريكا في اقتناص الصبية، الذي اختطفوا الطائرات، وقد تعلموا هنا يوما بعد آخر على كيفية قيادتها، ولم يكونوا حقا حريصين في التكتم على نواياهم، وهم يتهيأون لتنفيذ عملياتهم الإرهابية؟ كنت أتصيد أيّة معلومات داخلية وأيّ تقييم للمخابرات استطيع أن أضع يدي عليه. كانت فكرتي أن اجعل أولئك الذين يعرفون بخفايا الأمور يثقون بي ويُثبتون مصداقية ووصف العمليات السرية جدّا وأن لا اهمل أثرا يمكن أن يدلني لمصدر موثوق به. لقد اتبعت هذه الطريقة حين عملت في وكالة الأسيوشيتد برس للأنباء والتايمز أيضا، لأنّ من يعرفون المعلومات من الداخل ولهم وجهات نظر متعارضة عن حرب فيتنام وعن وكالة المخابرات المركزية ونشاطاتها، نظروا اليّ باعتباري منفذا للتنفيس عن همومهم وشكاواهم، دون أن يشكّل ذلك خطرا عليهم. ولذلك فإنّي خلال الأشهر الأولى التي تلت الهجمات الإرهابية، تمكنت من الكتابة عن استطاعة مكتب الأمن الوطني من اعتراض معلومات هامة حول التناحر بين افراد عائلة حاكمة في إحدى دول الشرق الأوسط للحصول على حصصهم من الأموال. كما حصل المكتب على معلومات جديدة حول بروز باكستان كدولة تمتلك ترسانة من الأسلحة النووية، مع العلم بعدائها الدائم لجارتها الهند. كما أشار المكتب المذكور إلى مخاوف أمريكا بصدد إيران والقرار الذي يمكن أن تتخذه القيادة الشيعية كي تتجه نحو التسليح النووي لمواجهة التهديد، الذي تمثله باكستان النووية على حدودها الشرقية. لم تتطرق مقالتي إلى هجمات 11 سبتمبر مباشرة، لكنّها رسمت صورة للتحديات التي يمكن أن تواجهها أمريكا في المنطقة. لقد تمّ تدقيق مقالاتي في الفترة الأولى التي تلت الهجمات الإرهابية على نو يورك تدقيقا شاملا، نتيجة وضع رَمنِك تلك المهمة على عاتق فريق من أشدّ المتحمسين لضبط الحقائق والتحقق من صحتها.

وكما هو متوقع مضى بُش وچَيني في خططهما لشن الحرب على افغانستان في مطلع شهر اكتوبر. كشفت في مقالة نشرتها بعد اسابيع قليلة من ذلك أنّ 12 فردا من القوات العسكرية الخاصة المسماة قوة دلتا Delta Force، قد اصيبوا بجراح بعضها خطيرة بسبب قرار متهور اصدره الجنرال تومي فرانك، القائد المسؤول عن تلك الحرب. كانت المفرزة من القوات الخاصة تتحرك ليلا وتنام في الحفر خلال ساعات النهار، ومهمتها تعقب والقبض على أو قتل أحد قادة طالبان الكبار. اقتربت المفرزة من مكان اقامته، الذي تحيط به حراسة مشددة، حين أمر فرانك وحدة من مغاوير الجيش Army Rangers تحملها الطائرات المروحية لتقديم العون والمساندة. فطنت قوات طالبان لما يجري في محيطها وبأنّ هجوما يعدّ لاختراق صفوفها، فوضعت كمينا للإيقاع بتلك المفرزة. وصف لي أحد قادة العمليات الخاصة المشتركة أنّ «أوامر فرانك كانت لعنة هوجاء.» أعيد نشر قصتي في الصحف الأخرى لبساطة لغتها وسهولة فهمها. كان موضوع وقوع الجرحى بين قوات النخبة وبعضها خطير، وكما هو متوقع، قد قوبل بالإنكار وبالتالي الاستنكار في اخبار برامج صباح يوم الأحد على لسان الجنرال فرانك، نفسه ووزير الدفاع دونَلد رامسفيلد وكوندوليسا

رايس، مستشارة الأمن الوطني. تلقيت عصر ذلك اليوم مكالمة هاتفية وأنا في منزلي من جنرال ذي اربعة نجوم اقترح أن يزودني بصور التقطتها الأقمار الاصطناعية لحذاء وجزء من ساق أحد جنود النخبة، الذي كان واحدا من جرحى المفرزة، التي اتينا على ذكرها قبل قليل. شكرته على العرض وأكّدت له أنّني والعديد من زملائي على علم بالكارثة التي تسبب بها الجنرال فرانك حين تدخل في مهمة المفرزة الخاصة. ثمّ اتصل بي ضابط آخر ذو علاقة وثيقة بقيادة وحدة دلتا للعمليات الخاصة، وعبّر عن استيائه لأنّ إدارة بُش تكذب بشكل علني ودائم. حافظت على استمرار علاقتي مع هذين الضابطين للسنوات 15 القادمة.

ما زلت منزعجا من فشل الإعلام الرئيسي في البلد لمتابعة مقالاتي، التي غالبا ما تعلقت بسوء استخدام المعلومات المخابراتية، في الوقت الذي تزداد فيه حرب أمريكا على الإرهاب شدّة. اتصل بي وأنا في منزلي مساء جَيمس رايزِن بعد نشر احدى مقالاتي. وهو من افضل المراسلين الاستقصائِيين في مكتب التايمز في واشنطن. أخبرني أنّه وعدد آخر من المراسلين قد استدعوا إلى اجتماع طُلِب منهم فيه أن يعدّوا مقالات على غرار ما نشرته. لم يجدوا أحدا من إدارة بُش ممّن رغب أو كانت له دراية كافية بالأمر كي يقدم المساعدة لهم، كما ذكر رايزِن وهو يضحك. لم يرد ذِكر لمقالتي في نو يوركر في صحيفة التايمز لليوم التالي. اضاف رايزِن، «ما كان بوسعي أن استوعب طريقة التفكير تلك. خلال فضيحة ووترگيت، كان هناك تعاون بيني وبين بوب وودورد، رغم شعورنا بوجود منافسة بين صحيفتينا حول هذا الموضوع. لقد تبادلنا المعلومات وأبدينا الملاحظات حول مقالات كلّ منّا ومقالات لوس انجلز تايمز وغيرها من الصحف والمجلات. بذلنا ما في وسعنا لإضافة ما نعرفه إلى مجمل المعلومات المنشورة.

ومن سخرية القدر أنّ التايمز وهي تتجاهل مقالاتي، وجدت الوقت المناسب في عام 2001 كي تنشر مقالة عن الخصومة المتجددة بيني وبين وودورد، التي بدأت أيام ووترگيت. «إنّ أكثر المعلومات المذهلة المثيرة للجدل، التي برزت خلال الأزمة قد اظهرت خصومتهما القديمة،» كما ورد في التايمز التي اضافت، «إنّه منذ ثلاثة عقود وحين تصارعا لكشف فضيحة ووترگيت... يعودان ثانية لتأجيج ذلك الصراع. تمّ تصوير وودورد بأنّه «مؤدب ورقيق وحريص على الشكليات.» أمّا أنا فإنّني، «قذر غير متزن وعنيد وصاخب... يكمن سحره في أنْ لا سحر له.» يبدو أنّ مفاتيح النجاح في واشنطن تتمثل في غياب السحر وكثرة المطالعة والمتابعة والاطلاع وإجراء المقابلات العديدة مع القليل من المصادر الجريئة. وهذه امور لم يلتفت إليها مَن كتب مقالة التايمز.

أصبحت في مطلع عام 2002 قادرا على الحصول على المعلومات الداخلية من البيت الأبيض ومن داخل احدى قيادات الجيش الرئيسية. اصبحت مهمتي في حماية مصادري أكثر تعقيدا بتزايد سلطة چَيني. وكالعادة كنت اعرف اشياء لم اقدر على الكتابة عنها في حينها، خشية انكشاف مصادري من قبل العاملين في داخل الحكومة. اعرف على سبيل المثال، أنّ قرارا قد اتخِذ في اواخر عام 2001 بدفع من الجمهوريين من المحافظين الجدد في داخل الحكومة وخارجها بسحب العديد من القوات الخاصة العاملة في أفغانستان، والتي مهمتها تصيّد ابن لادن. السبب هو الاستعداد لبناء القوات العسكرية من أجل غزو شامل للعراق. الحجّة التي دفعت لذلك القرار هي أنّ صدام حسين أصبح يمثل خطرا مباشرا لأنّه اصبحت لديه القدرة على انتاج قنبلة نووية. وطبعا كان ذلك هراء

سخيف. اعرف من تقاريري عن لجنة الأمم المتحدة لتفتيش العراق UNSCOM، بأنّ الفريق المناط به تلك المهمة للكشف عن أيّ سلاح للتدمير الشامل في العراق، لم يتوصل إلى أيّ شيء بصدد ذلك. أعرف أيضا أنّ القصف الأمريكي للعراق في حرب الخليج الأولى قد دمّر البنية التحتانية لمشروع السلاح النووي العراقي، ولم تحاول حكومة بغداد اعادة بناء المشروع منذ تلك الفترة. نشرت خلال 15 شهرا القادمة، وحتى بدأت أمريكا حرب الخليج الثانية في شهر مارس عام 2003، المقالات الواحدة تلو الأخرى حول تشويه المعلومات المخابراتية والتلاعب بها والأكاذيب الرسمية عن أسلحة الدمار الشامل WMDs في العراق. وهي التهمة التي مهدت لغزو العراق.

بدأت ادرك أنّ 8 أو 9 افراد من المحافظين الجدد، الذي كانوا خارج إدارة بِل كلِنتُن قد نفذوا انقلابا سهلا وسيطروا على حكومة الولايات المتحدة بيسر. كان امرا مذهلا أن اشهد بنفسي كيف أنّ الدستور هَشّ إلى ذلك القدر. كان قادة هذه المجموعة دِك چَيني وپول وُلفووِتز ورچَرد پَرل، الذين لم يخفوا توجهاتهم الأيديولوجية ولا إيمانهم بسلطة الجناح التنفيذي من الحكومة، وقدّموا انفسهم للمواطنين الأمريكيين بصفات الهدوء الشامل والثقة العالية بالنفس، التي قنّعت نزعات التطرف لديهم واخفتها. امضيت العديد من الساعات إثر هجمات 11 سبتمبر وأنا اتحدث مع پَرل، وهي الأحاديث التي ساعدتني لفهم ما سيحدث في المستقبل القريب. لقد تناقشنا منذ مطلع الثمانينات، لكنّه قطع تلك العلاقة عام 1993 لنشري مقالة في مجلة نو يوركر عن حماسه المنقطع النظير لإسرائيل وعن سلسلة من الإجتماعات عقدها مع رجل اعمال عربي للحصول على عقد بمليارات الدولارات في بلد ذلك الرجل. ردّ پَرل في وقتها بتهديدي بإقامة دعوى ضدّي أمام المحاكم الأمريكية، واطلق عليّ لقب صحفي إرهابي، علما بأنّه تراجع عن ذلك التهديد.

في خلال ذلك، برز چَيني كقائد لنخبة من الليبراليين الجدد ابتداء من 11 سبتمبر، وعمل كافة ما بوسعه لتقويض رقابة الكونگرس على الحكومة. علمت بالمزيد من المعلومات من مصادري الداخلية حول مدّ سيطرته على البيت الأبيض، ولكن للمرة الثانية كانت قدرتي محدودة للكتابة عمّا اعرفه لخوفي على سلامة مصادري، وهو عبء أثقل كاهلي. أصبح اتصالي بمصادري أشدّ صعوبة إثر هجمات 11 سبتمبر، وهم الذين لديهم معرفة بخفايا الأمور ولم يشعروا بالتردد في أخباري عن العمليات والتخطيط لها، أو تلك التي كانت في مرحلة التنفيذ. وهنا اتحدث عن تلك العمليات المخالفة للقيم الأمريكية، أو ما تبقى منها. اصبحت على علم بهدف چَيني، وهو السيطرة على اهمّ عملياته العسكرية والمخابراتية، والحدّ إلى اقصى قدر ممكن كي لا يعرف الكونگرس عنها أو يتدخل فيها. كانت تلك المعرفة عجيبة وهامة، وأنا اتابع چَيني، وهو يستحوذ على السلطة تدريجيا، وهو نائب رئيس. أصبح من المستحيل التحقق من مصداقية المعلومات، دون الإقدام على مخاطرة بكشف مصادري، من خلال الأسئلة التي اطرحها، لأنّه سيعرف من أين حصلت على تلك المعلومات أصلا.

اصبحت على علم بتفاصيل ما يمكن تصنيفه بوجود مشروع/مغامرة مخالفة للقوانين تعشعش في البيت الأبيض، لكنّني لم استطع أن اخبر احدا عنها. لربما سيصدر كتاب بعد حقبة من الزمن ويتناولها، كما اعتقدت. ولكن على المدى القريب، فإنّ كافة ما أخبِرتُ به وما اعتقدته هو

صورة قاتمة لإدارة بُش/ چَيني في البيت الأبيض واقتنعت، كما حدث في فضيحة ووترگيت، أنّ القادم سيكون أسوأ.

حدث شيء من التوتر في علاقتي مع رَمنِك خلال الأشهر التي سبقت غزو العراق. رأى دَيفِد أنّ تهديد أمريكا بغزو العراق يتيح لإدارة بُش الفرصة، كما كتب في المجلة حينها، «لدفع عملية السلام والإصلاح السياسي في الشرق الأوسط.» اعتقدت أنّه يخدع نفسه، فآفاق السلام والإصلاح السياسي مستقبلا في العراق، إذا اخذنا بنظر الإعتبار تطرف السياسة لشن الحرب، ستكون صفرا. أنا متأكد أنّ دَيفد اختلف معي حول شكوكي بإمكانية وجود بقية من أسلحة الدمار الشامل في ترسانة العراق. والحق يُقال، أنّه لم يوقفني عن الكتابة عمّا يوافيني به مصادري في داخل الإدارة والمؤسسات المخابراتية، بأنّ إدارة بُش تختلق التقارير المخابراتية وتتلاعب بما يتوفر منها. لكنّ دَيفِد أصرّ أن اشير في كلّ مقالة عن امكانية حصول صدام على أسلحة الدمار الشامل.

جرت الحرب بشكل سيء، كما عرفت بأنّ العاملين في داخل الإدارة كانوا مقتنعين بذلك، إذا اخذنا بنظر الاعتبار جهل أمريكا لبناء هيكل السلطة في العراق. تحول الانتصار الأمريكي خلال اشهر قليلة إلى احتلال شامل ومقاومة تنمو وتتسع يوميا. كان ردّ أمريكا هو الضرب بعنف أشدّ وزيادة عمليات الاغتيال السياسي والسجن والتعذيب. تمّ اخباري يوما إثر يوم عمّا جرى في حينه. مثلا، إنّ الذين يموتون نتيجة التعذيب لا يتمّ دفنهم، بل تتمّ إذابة جثامينهم باستعمال المحاليل الكيمياوية. لم يظهر ذلك إلّا بعد سنوات. السبب هو الخوف من أن يبدأ چَيني بقنص مصادري، واستمر ذلك حتى اللحظة التي بدأت فيها أشعر بأنّ بامكاني الآن أن كتب عن ذلك.

استمر احتقار چَيني لمراقبة لجان الكونگرس لسنوات، وتوسع ذلك ليشمل الأعضاء الديمقراطيين الكبار في لجنة الاعتمادات التابعة لمجلس الشعب، خاصة رئيس اللجنة دَيفِد أوبي، ممثل ولاية وسكونسُن، إضافة إلى جون مُرثا ممثل ولاية پَنسِلفَنيا لفترة طويلة. كان هذا ضابطا في البحرية وله علاقة طيبة بقيادة البِنتگون العسكرية. كان أوبي ومُرثا عضوين في اللجنة الفرعية للمخابرات المكونة من 4 أعضاء، بينهم عضوان جمهوريان يمتثلان لأوامر چَيني. كان اعضاء اللجنة هؤلاء يستلمون تقارير عن نشاطات وكالة المخابرات المركزية السرية. لم يكن العضوان الديمقراطيان على علاقة طيبة ببعضهما البعض ونادرا ما تبادلا الحديث. قررت أن أشرك مُرثا بما اعرفه عن نشاطات چَيني السرية، وفوجئت أنّه يعرف اكثر بكثير ممّا كنت اعرفه. وكان هذا حذرا للغاية. علم أوبي بأنّني تحدثت مع مُرثا، فشعرت أنّ من المهم اخباره ببعض ما اخبرت به زميله مُرثا. كما حاولت أن أحوز على ثقته بي. أخبرني أوبي فيما بعد أنّه ذهب مرة والتقى بنائب الرئيس چَيني ودَيفِد أدينگتُن، مستشاره القانوني واخبرهما بأنّهما يخالفان الدستور، حين لا يحصلان على تفويض من الكونگرس حول كيفية الحصول على التمويل وصرفه. كان جوابهما أنّ لدى الرئيس بُش كافة الصلاحيات لتنفيذ ما يراه ضروريا خلال وقت الحرب. كانت خلاصة الرسالة، التي خرج بها أوبي، كما اخبرني، «إذا كنت لا تحبّ ما نقوم بعمله فبإمكانك تقديم الشكوى ضدنا في محكمة فدرالية.»

كانت تلك معلومات سرية حساسة للغاية ما كنت قادرا على اطلاع احد عليها، كما لم يكن بوسعي الكتابة عنها في المجلة، لأنّها ستكشف، من أين حصلت على تلك المعلومات، التي تخصّ

وكالة المخابرات المركزية. توفي مُرثا عام 2019، وتقاعد أوبي عام عام 2011 بعد أن خدم في الكونگرس مدة تزيد عن 40 عاما.

بعد مرور أشهر قليلة على غزو العراق، استلمت خلال مقابلة في خارج البلاد مع جنرال كان مسؤولا عن عمليات التجسس الأجنبية لبلاده، نسخة من خطة الجمهوريين من المحافظين الجدد حول سيطرة أمريكا على الشرق الأوسط. الجنرال المذكور حليف قويّ لأمريكا، لكنّه كان مستاء من السياسة العدوانية لإدارة بُش/چَيني. أخبِرتُ حينها أنّ الوثيقة التي سُرّبتِ لي، كان قد تمّ الحصول عليها من احدى المحطات المحلية لوكالة المخابرات المركزية. لا شكّ أنّه توجد اسباب لتلك المخاوف. توضح الوثيقة أنّ الحرب ستعيد تشكيل خارطة الشرق الأوسط وتبدأ «بمهاجمة العراق، والسبب الرئيس لذلك... هو أنّ الحرب ستمكن أمريكا من فرض سيطرتها على المنطقة. السبب هو جعل المنطقة تدرك حدّ النخاع جديّة أمريكا ونواياها.» النصر على العراق سيقود إلى اعطاء إنذار نهائي لدمشق «التابعة» لإرادة إيران وحزب الله وياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية، وكافة الجماعات المعادية لإسرائيل. يجب أن يدرك اعداء أمريكا «أنّهم سيقاتلون من أجل حياتهم. السيطرة الأمريكية قادمة لا محالة، وهي تعني إبادتهم جميعا.» اتفقت والجنرال الأجنبي أنّ المحافظين الجدد يشكلون تهديدا للحضارة الإنسانية.

تأثّر دونَلد رامسفيلد بخيالات المحافظين الجدد. امتنعت تركيا عن السماح للفرقة الرابعة من الجيش الأمريكي بغزو العراق ومهاجمته من اراضيها. لم تستطع الفرقة المذكورة المؤلفة من 25 ألف جندي وجندية الوصول إلى داخل العراق حتى منصف شهر ابريل، وكانت المعركة وقتها قد شارفت على الإنتهاء. عرفت فيما بعد أنّ رامسفيلد قد طلب من قيادة الجيش الأمريكي المتواجدة في مدين شتوتگارت في المانيا، وهي القيادة المناط بها مراقبة الأوضاع في اوروبا وايضا سورية ولبنان، أن تبدأ وضع خطط الغزو لسورية. رفض جنرال شاب القيام بتلك المهمة، وهو الأمر الذي استحسنه اصدقائي من العاملين داخل المؤسسة العسكرية، رغم أنّ الرجل قد خاطر بمركزه. لقد رأى أولئك الذين اعرفهم خاصة، أنّ طلب وضع الخطط لغزو سورية أمر غريب، لأنّ بشار الأسد، زعيم سورية العلماني، قد اطلع وكالة المخابرات المركزية إثر وقوع هجمات 11 سبتمبر على مئات الوثائق المخابراتية الحساسة التي توفرت لديه عن الإخوان المسلمين في مدينة هامبُرگ، حيث جرى اغلب التخطيط لتلك الهجمات قبيل تنفيذها. كتبت مقالة عن الأسد نشرتها مجلة نو يوركر في عدد شهر يوليو من عام 2003. في النهاية عاد رامسفيلد إلى رشده وتخلى عن خطط الغزو. أخبِرت أنّه طلب نقل مركز عمليات التخطيط العسكري الخاصة بسوريا ولبنان إلى مقر القيادة المركزية للقوات الأمريكية في قاعدة ماكدِل الجوية في تامپا في ولاية فلوريدا، حيث يوجد مقر تومي فرانكس[40].

لم أكن على علم بتراجع رامسفيلد عن خططه. طرت بسرعة إلى دمشق وتمكنت من ترتيب مقابلة مع مصطفى طلاس، وزير الدفاع الذي كان يشغل ذلك المنصب لفترة ثلاث حقب. دعاني طلاس إلى وجبة عشاء في منزله الواسع. وبعد الإنتهاء من العشاء، أخذني إلى قبو البيت واطلعني على صور فاضحة للمثلة الإيطالية الفاتنة جينا لولو بريجيدا. ثمّ بدأنا الحديث الجدّي.

اخبرني طلاس، الذي تحدث بلغة انگليزية طليقة بأنّه كانت هناك امكانية مؤكدة أنّ رامسفيلد كان سيأمر الفرقة الرابعة المتمركزة في القاعدة الأمريكية قرب الحدود العراقية السورية أن تجتاز الصحراء نحو دمشق. سألته «ماذا كنت ستفعل؟» فهزّ كتفيه. سألت ثانية، «ماذا لو كانت سورية اطلقت ترسانتها من الأسلحة الكيمياوية ضدّ الأمريكان؟» سأل بازدراء واضح، «هذه الأشياء؟» ثم اضاف، «لو فعلنا ذلك لكانت أمريكا ردّت علينا بإحراق بلدنا بالنار النووية، ولكان لهم الحق أن يفعلوا ذلك.» قال طلاس، إنّ ترسانة سورية من الأسلحة الكيمياوية كانت وليدة أفكار حافظ الأسد، والد بشار، والأسد قد توفي عام 2000، وأنّه قد اعتمد عليها اصلا لتكون رادعا ضدّ ترسانة إسرائيل النووية. الأسلحة الكيمياوية عديمة الجدوى كرادع، وهي غالية الكلفة والصيانة. سأل طلاس، «هل فهمت الأمر؟» عدت وسألت الوزير، «ماذا كنتم ستفعلون، لو لم يكن لديكم رادع؟» قال طلاس، «دعهم يأتون إلى دمشق، وسنرى ماذا سيحدث.» كان يعني حرب عصابات طويلة الأمد. رجعت إلى واشنطن واخبرت اصدقائي من العسكر الأمريكيين حول الخطط المختلفة للحروب في الشرق الأوسط، حسب رأي وزير الدفاع السوري، الذي كان بلده في حالة صراع دائم لعدة حقب.

كتبت بشكل موجز في نو يوركر عن الأمسية، التي امضيتها مع طلاس، لكنني لم أشر إلى الجنرال الأمريكي الشجاع في المانيا. إنّ اشارة علنية بصدد الموضوع كانت ستكلف ذلك الجنرال منصبه، وأنا اعرف أنّ المحافظة على نزاهته واستمراره في العمل أكثر أهمية من كتابة سطور قليلة في مقالة.

القصة التي طغت على الإعلام من حيث سعة انتشارها، كانت قصة (سجن أبو غريب) والتجاوزات الجنسية التي تعرّض لها عدد من السجناء الشباب. كنت اتابع بحرص متزايد عنف السلوك العسكري الأمريكي، خلال ما أصبح يُعرف بمعركة الاحتلال، التي حصلت فيها القاعدة على تأييد العديد من الضباط العراقيين الغاضبين ومساعدتهم. بدأت المنظمة تمارس وضع الكمائن وتتبع اساليب الهجوم والهروب. لم تعد وحشية العسكر الأمريكيين في ادارة سجون الحرب خافية على أحد في ربيع عام 2004، حين نشرت أوّل ثلاث مقالات عن (أبو غريب). نشرت منظمة حقوق الإنسان العالمية تقارير مدمرة عن السجون في العراق، حظيت بانتباه العالم. عرفت كلّ ما احتاج معرفته عن (أبو غريب) خلال فترة رأس السنة الماضية، حين امضيت ثلاثة أيام في فندق في دمشق صحبة لواء عراقي سابق في القوة الجوية.

تمّ حلّ الجيش العراقي وحزب البعث ومُنعا في العراق. تمّ استجواب الجنرالات العراقيين، الذين لم يهربوا إلى الخارج، أو الذين انظموا إلى المقاومة وقبِض عليهم. جرى استجوابهم من قبل القيادة الأمريكية وأرسِل بعضهم إلى السجون. تجنّد قسم أخر لمساعدة القوات الأمريكية في قتالها المتصاعد مع المتمردين. هرب ذلك اللواء الطيار من ذلك المصير خلال الأشهر الأولى من الاحتلال الأمريكي واستقر قرب دمشق يقيم أوده من بيع الفواكه والخضروات من حديقة منزله. كانت لغته الإنگليزية جيّدة، وكان نُسّب خلال فترة التسعينات لمراقبة نشاطات فريق مفتشي الأمم المتحدة UNSCOM. أصبح موضع ثقة فريق المفتشين الدوليين لنزاهته. حين سقطت بغداد، اتصل باعضاء الفريق المذكور طالبا العون، ومن بين هؤلاء سكَوت رِتر. وهو رائد في البحرية قاد

في فترة التسعينات عدة حملات تفتيش لمواقع انتاج أسلحة الدمار الشامل في العراق. خلق رتر ضجّة عامة إثر هجمات 11 سبتمبر بإصراره أنّ العراق لا يملك أسلحة نووية. قدّمني سكَوت لِهذا الطيار عن طرق البريد الإلكتروني، واتفقنا أن نلتقي في دمشق حين يكون بمقدوره السفر بالسيارة.

كانت لدى اللواء الطيار قصص محزنة، اكثرها مروية، عن اهوال الاحتلال الأمريكي، بما فيه الغارات التي قام بها الجنود الأمريكيون على البيوت وسرقاتهم المستمرة للأموال والمصوغات الثمينة. يحتفظ العراقيون عادة بمدخراهم في بيوتهم على هيئة اوراق نقدية بقيمة 100 دولارا. اخبرني عن عرفاء في الجيش يقومون بحملات تفتيش منزلية والقاء القبض على المواطنين وطلب الأموال مقابل اطلاق سراحهم. كما كان الضباط الكبار يتلقون الرشاوى مقابل الحصول على العقود المحلية والأجنبية. في شهادة لأحد المترجمين العراقيين العاملين مع الوحدات الأمريكية، أنّ الجنود كانوا يسيئون معاملة السجناء ويبتزون بشكل مستمر الأموال من المواطنين عن طريق التهديد باتهام الأمريكيين لهم أنّهم يتعاونون مع العدو. من اكثر تعليقات اللواء الطيار الباعثة على الحزن والتي يعرفها مباشرة، كانت عن السجون التي يديرها الأمريكيون وزيادة التعذيب فيها، والذي نجم عنه الموت. أسوأها كان في (سجن ابو غريب)، حيث كان يتمّ التجسس على النسوة ويتعرضن للاعتداءات من قبل الحراس الأمريكيين والعراقيين إلى حدّ أنّهن كنّ يكتبن لآبائهن واخوتهن ويتوسلن اليهم للحضور وقتلهن في السجن، لأنّهن تعرضن للاغتصاب من قبل الحراس الأمريكيين والعراقيين.

كان من الطبيعي استحالة تدقيق ما قاله للتحقق من مصداقيته، دون أن اذهب بنفسي للعراق. وحتى لو فعلت ذلك، فإنّ بعض الأقوال لا يمكن التثبت من صحتها. لكن الكلمات التي قيلت عن (ابو غريب) موجودة في التقارير التي اهمِلت بشكل واسع ولم يلتفت إليها أحد، رغم أنّها صدرت عن منظمات حقوق الإنسان. كما أنّ العديد من اقواله كانت تبدو صحيحة، خاصة بعد أن ظهرت بعد اشهر صور تفضح التجاوزات الجنسية المذهلة بحق السجناء العراقيين، والتي تمّ تداولها وانتشارها. حصل برنامج 60 دقيقة في محطة تلفزيون سي بي أس على عدد منها. كما علمت أنّه جرى تحقيق مع بعض الجنود الأمريكيين المسؤولين عن الحراسة في السجن المذكور. اظهر بعض الصور السجناء وهم عرايا واجبروا على الاستمناء بحضور حارسات السجن الأمريكيات. كان الجيش ووكالة المخابرات المركزية بحاجة ماسة للحصول على معلومات من داخل صفوف المقاومة. وعليه تمّ الاتفاق مع بعض السجناء بأطلاق سراحهم مقابل انضمامهم إلى المقاومة لكي يكونوا جواسيس لكشف خطط الهجوم ووضع المتفجرات على جوانب الطرق لتتصيد المدرعات الأمريكية وتفجرها. لا أدري إن كانت فكرة تحويل السجناء إلى جواسيس يعملون لصالح المخابرات، هي التي تحولت إلى هذا الصنف من الاعتداءات الجنسية، التي تبرزها الصور. ومن ناحية أخرى قد تكون الصور قد استخدِمت لتهديد من يرفض أن يصبح عميلا لتزويد الجيش والمخابرات بالمعلومات من داخل صفوف المقاومة. لا شيء أكثر عارا على الرجال في الشرق الأوسط من الظهور عرايا يمارسون الاستمناء بحضور النسوة الأمريكيات. علمت خلال إجراء بحوثي عن (ابو غريب) أنّ الإسرائيليين قد مارسوا تلك الأساليب لإجبار السجناء الفلسطينيين على الانخراط في صفوف حماس وتزويد المخابرات الإسرائيلية بالمعلومات عن نشاط تلك المنظمة وغيرها من المنظمات الأصولية والتجسس عليها.

تمكنت في النهاية من الحصول على أسماء بعض الحراس الأمريكيين في السجون العراقية، الذين ارتكبوا مخالفات، وعرفت أسماء موكليهم من المحامين. حصلت بسرعة على نسخ من صور ما كانت بحوزة برنامج 60 دقيقة. كما أنّني تمكنت من الحصول على شيء أهمّ، وهو تقرير داخلي عن تحقيقات جنائية عمّا جرى في (سجن أبو غريب)، أعده ضابط برتبة لواء اسمه انتونيو تاگوبا. كان التقرير فاضحا كما ظهر في الصور. علمت أنّ المدير التنفيذي لمحطة تلفزيون سي بي أس ما كان مرتاحا من عرض الصور على شاشات التلفزيون، بعد أن طلبت منه إدارة بُش عدم فعل ذلك. اقنعت رَمنِك بعدم حاجة مجلة نو يوركر أن تعتمد شيئا من برنامج 60 دقيقة، وأنّ نشرنا لتقرير تاگوبا سيوفر ملايين الدولارات من تكاليف الدعاية العامة للمجلة. شعرت أنّني خففت على صاحبي من أن ينظر للموضوع كما نظر المدير التنفيذي لمحطة تلفزيون سي بي أس. اتصلت بمنتجة البرنامج المذكور في المحطة واسمها مَري مايس، واخبرتها بالقصة وقت كانت في منزلها في تكسَس. اخبرتها أن بحوزتي صورا لم يعرضوها وتقريرا، وإذا امتنعت سي بي أس من عرض الصور في الأسبوع التالي (يُعرض برنامج 60 دقيقة مرتين في الأسبوع، الأحد والخميس)، فلن يكون امامي خيار إلّا أن اكتب في مجلتنا أنّ المحطة تمارس الرقابة الذاتية على ما تعرضه. أعلم أنّ مَري كانت تكره الرقابة المشددة في محطة أن بي سي. عُرضت الصور مساء الخميس، ولدهشتي فإنّ مقدم الأخبار المعروف لديهم دان راذر، الذي اعرف أنّه كان يبذل جهودا لعرض القصة على المشاهدين، بالقول أنّ سي بي أس مضطرة لعرض الصور لأنّ وسائل إعلام أخرى تنوي فعل ذلك، ولم يُشِر إلى مجلة نو يوركر بالاسم. ما كان من الصعب أن اخمّن أنّه قد أُمِرَ بأن يأتي بمثل هذا العذر الأبله لعرض قصة بتلك الأهمية.

نجحت خطتنا بشكل جيد، ولو أنّنا كنّا نعرف أنّ اجهزة الإعلام الاعتيادية يمكنها أن تتجاهل التقرير، الذي اعده تاگوبا. وبطبيعة الحال، فإنّ صحيفتي السابقة تجاهلت أن تقتبس شيئا من مقالتي في نو يوركر، بالإشارة إلى مصادر اخرى. طلبوا من جَف گرث أن يتصل بي هاتفيا حين صدر العدد الجديد من مجلة نو يوركر ليسأل إن كان بالإمكان أن ازوّد التايمز بنسخة من مقالتي المنشورة في المجلة، فضحكنا معا من سخافة الطلب.

أصبحت مقالتي حدثا اخباريا رئيسيا، فتلقيت العديد من الدعوات لإجراء مقابلات، وقمت بتلبية العديد منها. كان ذلك من مصلحة المجلة ومن مصلحتي ايضا[41]. إنّ احتقار الجنود للسجناء والشعور أنّ باستطاعتهم أن يفعلوا ما يشاؤون كان بوحي من القيادة العليا. ذكرت ذلك في مقابلة إذاعية، وأضفت في تلك اللحظة، أنّ أي شخص يستمع إلى هذه المقابلة ويعرف شيئا عمّا جري في (سجن أبو غريب) عليه أن يتصل بي، واعطيت رقم هاتف مكتبي. لا أدري لماذا فعلت ذلك، وخشيت أنّني سأغرق في بحر من المكالمات الهاتفية من اشخاص يودون بيعي شيئا ما! بدلا من ذلك تلقيت مكالمة من احدى النساء، وهي والدة احدى الجنديات، اللواتي ساهمن في فضائح التعذيب وسوء معاملة السجناء. ذهبت مباشرة لألتقي بها. لقد اتصلت بي بدافع اليأس لأن ابنتها الشابة كانت تتوهج حماسا، وهي من جنود الإحتياط، التي نسّبوها للعمل في وحدة الشرطة العسكرية المسؤولة عن حراسة (سجن أبو غريب)، قد رجعت إلى امريكا، وقد تغيّرت تماما. كانت تشعر بالإكتئاب واليأس. في الحقيقة أنّ الفتاة كانت تزوجت حديثا قبل أن يرسلوها للعراق. وحين عادت تركت

زوجها وسكنت في مكان بعيد عن مكان سكن اسرتها وحصلت على عمل في فترة المساء. لم يعرف أحد ماذا جرى لها. قرأت الأم قصة (أبو غريب) في احدى الصحف المحلية، وجابهت ابنتها بالقصة التي قرأتها. نظرت البنت إلى امّها لحظة ثمّ صفقت الباب بوجهها. تذكّرت الأم أنّها اهدت ابنتها جهاز كومبيوتر محمول قبل ذهابها للعراق بغية تسهيل الاتصالات بينهما. تركت البنت ذلك الكومبيوتر في بيت امها حين انتقلت إلى سكنها البعيد. قرّرت الأم بعد أن قرأت (فضيحة أبو غريب) أن تأخذ ذلك الجهاز إلى مكتبها لحاجتها إليه هناك. رأت أنْ «تنظفه» أولا بإلغاء الملفات غير الضرورية فيه، فطالعها ملف بعنوان «العراق». فتحته فلاحت امامها المئات من الصور الفوتوغرافية لسجناء عرايا وتحت التعذيب. وقف في إحداها سجين مذعور أمام زنزانته عاريا وقد غطى بيديه أعضاءه الجنسية، وعلى مسافة قدم منه وقف كلبان بلجيكيان مستعدان لنهشه، وقد امسك بهما جندي مكلف بمهمة التعذيب. استمعت الأمّ لمقابلتي في الراديو واتصلت بي في الحال. كانت في البداية مترددة في اعطائي الصور لكي انشرها في مجلة نو يوركر، لكنّها وافقت في النهاية بعد الحصول على عدم معارضة ابنتها المضطربة. كان هناك شيء آخر رغبت الأم أن تبوح به قبل أن أغادر المكان. كلّ اسبوع ومنذ عادت من العراق، دأبت بنتها الجميلة الذهاب إلى محل لرسم الوشام، لتضع وشما آخر اسود اللون، وكأنها تودّ تغطية كلّ ما تستطيع من جلدها، كأنّها تريد أن تغيّره بالكامل، كما ذكرت الأمّ.

اصبحت الوثائق المتوفرة عن (أبو غريب) ومقالاتي الأخرى عن الموضوع مادة كافية لكتاب جديد جرى التفاوض حول عقد لنشره. عُيّنت أيمي دَيفِدسُن، محررتي في المجلة لتجميع المواد التي وضعتها في كتاب عنوانه «تسلسل القيادة، نُشِر عام 2004. ربّما بيعت منه نسخ اكثر خارج الولايات المتحدة مقارنة بما بيع منها داخل البلاد، وهو أمر لم يتوقعه الناشر. لكنّني سعيد بالمراجعات والآراء التي نُشِرت عن الكتاب. منها ما كتبته مِكيكو كاكوتني، التي تراجع الكتب لصالح التايمز. لقد دخل تعليقها قلبي. «غالبية ما كتبه إثر 11 سبتمبر، أثار الكثير من النقد والنقاش، لكنّ ذلك أصبح بمرور الوقت حِكَما تقليدية.» كنت على ثقة أنّني سأستمر في الحقب التالية اثير النقاش والنقد، واشعر مع ذلك بمزيد من الارتياح أنّني اقوم بذلك وصفحتي نظيفة، على الأقل من وجهة نظرها. كنت دائما أعير انتباها كثيرا لما يكتبه زملائي من تعليقات حول ما انشره، بدلا من التصدي لتلك التي تأتي من المؤسسات الأكاديمية. شكا جونثن مِرسكي، المحرر السابق في صحيفة لندن تايمز، بشكل لطيف خلال مراجعة كتابي في مقالة نشرتها مجلة سپَكتَيتر قائلا، «هذا هو الكتاب الوحيد الذي راجعته ووجدت أنّ من المستحيل أن الخّصه. إنّه يغطي كافة ما نُشِر في 20 مقالة في مجلة نو يوركر... لقد شكل ذلك قضية جبّارة، صفة «مدمّرة» ليست كافية، ضدّ سياسات واشنطن وبالتالي لندن.»

يسعدني القول أنّ تقاريري عن (أبو غريب) قد غيّرت مجرى الحرب ووضعت نهاية لممارسة التعذيب، ولكنّ الحرب لم تتوقف، كما كان حال قصة ماي لاي، التي لم تضع هي الأخرى نهاية لحرب فيتنام ولا لوحشيتها. واصلت متابعتي للفوضى، التي انزلتها أمريكا بالعراق والشرق الأوسط وجنوب آسيا خلال السنوات التالية. كتبت عمّا يلي:

- التغيّر التامّ في السياسة الأمريكية ازاء الحرب على الإرهاب، حيث قررت إدارة بُش/ چَيني أن تتعاون مع جماعات التطرف السني في منطقة الشرق الأوسط، من أجل زيادة الضغوط على ايران الشيعية وعلى حزب الله في لبنان والعلويين في سوريّة. أعيد نشر مقالتي التي صدرت في شهر مارس عام 2007 بعنوان «تعديل المسار» لعدة سنوات.

- أعاد دِك چَيني إلى الواجهة رغبته المتكررة لمهاجمة إيران، في حين مضيت في اصراري، رغم شكوك زملائي في اجهزة الإعلام، أنّ المخابرات الأمريكية ليست لديها أيّة أدلة على أنّ ايران تمتلك برنامجا نوويا قائما.

- إنّ برنامج پاكستان النووي المزدهر قد زاد من رعب واشنطن إلى حدّ وضع خطط لتدمير كافة منشآته، في حالة قيام أزمة.

- كتبت أنّ مساعدة إسرائيل سريا من قبل إدارة بُش/چَيني وتقديم العون المخابراتي والسلاح لها خلال حرب عام 2006 ضدّ حزب الله في لبنان، تسبّبت في اندحار ستراتيجي لإسرائيل والغت قدرتها على ردع أيّ هجوم عربي في المستقبل.

- كتبت أيضا عن القصف الإسرائيلي في سبتمبر 2007 وتدمير ما ادّعت أنّه مفاعل نووي سوري، ولماذا لا يمكن أن يكون ذلك الموقع صحيحا، حسبما ادّعت إسرائيل.

- إنّ جهودا مماثلة سريّة شملت توفير المعلومات المخابراتية والسلاح لإسرائيل خلال هجومها على حماس في قطاع غزة اواخر عام 2008، في الوقت الذي كانت فيه إدارة بُش/چَيني تستعد لمغادرة البيت الأبيض. إنتهت تلك الحرب بتاريخ 19 يناير من عام 2009 بعد أن حذر الرئيس المنتخب أوباما حكومة إسرائيل سرياً، أنّه إذا استمرت حربها خلال مراسيم تنصيبه في اليوم التالي 20 يناير، فإنّه سيطلب منها علنا وقف تلك الحرب.

تطلبت كتاباتي عن الشرق الأوسط إثر هجمات 11 سبتمبر بالضرورة، أن أقوم بعدة زيارات للمنطقة وإجراء مقابلات مع القادة البارزين، الذين لا يعرف الجمهور الأمريكي إلا القليل عنهم. من بين هؤلاء الرئيس السوري بشار الأسد وقائد حزب الله الشيخ حسن نصر الله، الذي صوره الإعلام الأمريكي هو والمليشيا الشعبية في لبنان بأنّهم يمثلون منظمة إرهابية.

أجريت أوّل مقابلة لي مع الرئيس طويل القامة بشار الأسد عام 2003 في مقره الرسمي في دمشق. كان تسلم الحكم قبل ثلاث سنوات، ولم يكن متأكدا بعد من كيفية التعامل مع مراسل امريكي. طرحت سؤالي الأول، فبادرني بطريقة خجلى بسؤال من عنده مفاده، إن كان بإمكانه أن يعطي أجوبة مطولة عن أسئلتي. قلت له إنّه الرئيس وبإمكانه أن يفعل ما يشاء. سألني لماذا اثار هذا الموضوع، ثمّ مضى يشرح الأسباب. قال موضحا أنّه قد اجرت لالي ويَماوث مقابلة معه وتذمرت لأنّه يعطي أجوبة مطولة تفصيلية. لالي هي ابنة كاثرن گرام. نظرا لأنّني أول صحفي امريكي يقابله منذ مقابلة لالي، فإنّه أراد أن يعرف إن كانت هناك قواعد حول الإجابات الطويلة. سألت وَيماوث، التي تكتب عادة عن الشؤون الخارجية لصحيفة والدتها، واشنطن پوست، عن تعليق الأسد، فأنكرت أنّها قاطعته أو تذمرت وطلبت منه أن يختصر إجاباته.

لم يؤيد الأسد غزو العراق من قبل إدارة بُش/چَيني، على عكس ما فعل والده في تأييد حرب عائلة بُش الأولى، التي كانت أكثر نجاحا في عام 1991. إلّا أنّ الرئيس العلماني أكّد أنّه يؤيد أمريكا في حربها ضدّ منظمة القاعدة. ذكّرني أنّه أصدر بيان تأييد لأمريكا إثر هجمات 11 سبتمبر، وأمدّ وكالة المخابرات المركزية الأمريكية بالآف ملفات المخابرات السورية عن تنظيم الإخوان المسلمين في هامبُرگ، إضافة إلى تفاصيل العمليات عن هجمات منظمة القاعدة فيما بعد ضدّ منشئات الأسطول الأمريكي الخامس ومراكزه في البحرين.

حين رجعت إلى واشنطن، تأكدت من أنّ المعلوات المخابراتية، التي قدمها الأسد كانت لا تقدّر بثمن. كما علمت أنّ البعض في واشنطن كان مقتنعا أنّ التخطيط لهجمات 11 سبتمبر قد وُضع فعلا في مدينة هامبُرگ. كما علمت، دون أن يعطيني الأسد أيّة تفصيلات، أنّ التخطيط للهجوم على مراكز الأسطول الخامس ومنشئآته كان سيجري باستخدام طائرة شراعية محملة بالمتفجرات مقررا لها ضرب اهدافها في البحرين، وهي البناية الرئيسية لمقرّ الأسطول. تبيّن أنّ كشف هجوم البحرين كان أيضا عن طريق المخابرات السورية، التي كان لها عميل مدسوس داخل منظمة القاعدة، ويزودها بالمعلومات عن نشاطات المنظمة ومشاريعها. بدأتْ المخابرات المركزية، التي لم تكن لها القدرة على فعل ما فعلته المخابرات السورية، بالضغط على الأسد، عن طريق السفارة في دمشق، أن يزوّدها بمعلومات عن عميله المدسوس في تنظيم القاعدة. قاوم الأسد ذلك الطلب لشهور، ألّا أنّه رضخ في النهاية، بعد أن تعهدت الوكالة المركزية بعدم الإتصال بذلك العميل المدسوس. أخبرني الأسد خلال مقابلتي له، أنّه ذهِل حين علم أنّ وكالة المخابرات المركزية قد نقضت عهدها واتصلت بالعميل طالبة منه أن يعمل لحسابها، فما كان منه إلّا أن رفض ذلك العرض وقطع صلاته بالمخابرات السورية. حثّني الأسد ألّا اكتب عن الموضوع في حينه واوضح أنّه يأمل أنّ إدارة بُش ستدرك أنّ سورية، باعتبارها دولة علمانية، ستكون في صفّ الولايات المتحدة في حربها ضدّ الإرهاب.

نادرا ما نناقش بيننا نحن الصحفيين موضوعا كهذا يخصّ المصادر. ونحن طبعا نرحب حين يفتح لنا الموظفون الكبار وقادة البلدان ابواب مكاتبهم ليتحدثوا الينا، كما فعل الأسد، الذي أمّن لي عددا من المقابلات وتحدث معي بصراحة. غير أنّ الحصول على منفذ كهذا يضع الإنسان بالضرورة في معضلات اخلاقية. قابلت الأسد في دمشق في الساعة 11:00 من صباح يوم 14 فبراير من عام 2005. برز إلى السطح مباشرة موضوع خلاف له قيل مع رفيق الحريري، رئيس وزراء لبنان. كانت سورية حينها تلعب دورا مسيطرا في لبنان وتقود جوانب من النواحي السياسية والعسكرية. كان الحريري، شأنه كشأن بقية السياسيين في حينه، يستجيب لطلبات سورية، لكنّ الشائعات كانت تسري في دمشق حول المقابلة. بدأت حديثي موجها الكلام له، وكان يبدو مرتاحا وواثقا من نفسه. سألته عن موضوع الخلاف مع الحريري، فردّ الأسد أنّ الأمر يتعلق بالأموال والأرباح. كانت سورية ماضية في بدء استخدام خدمات الهاتف المحمول، وهو مشروع لا شكّ سيدر ارباحا عالية، وأنّ الجميع يريد حصة من ذلك المشروع، بما فيهم افراد عائلته. كان اقتراح الحريري انانيا للغاية، لأنّه اصرّ أن تكون حصته من الأرباح 70%. الحقيقة أنّ البعض من اقاربه، كانوا يطالبون بنسبة أعلى، حسب قول الأسد. تمكنوا أخيرا من الإتفاق على صيغة مرضية ورجع الحريري إلى بيروت. من الطبيعي القول إنّ الفساد كان ضاربا اطنابه في المنطقة. ثمّ تحوّل حديثنا إلى القضايا الجيوسياسية الهامة في ذلك الوقت.

بعد مرور ساعة أو بعضها ونحن منغمسان في الحديث، فتح أحد مساعدي الأسد باب المكتب، فأومأ الرئيس له باصبعه، فأغلق الباب دون أن ينبس بكلمة. وبعد لحظات، فتح ضابط كبير باب المكتب ثانية، فقال الأسد أنّه سيكون معه بعد وقت قليل. تحدثنا لنصف ساعة اخرى، وكانت لغته طليقة. حين غادرت المكتب، وجدت عددا كبيرا من الضباط الكبار والمسؤولين واقفين بانظار انتهاء المقابلة. علمت بعد ساعة، أنّه خلال حديثي مع الرئيس، تعرّض الحريري لمحاولة اغتيال بتفجير قرب مبنى البرلمان اللبناني تسبب في مقتله ومقتل 21 شخصا آخر. وبطبيعة الحال حامت الشكوك مباشرة حول الأسد، بسبب خصومته العلنية مع الحريري. كنت على قناعة بأنّ الأسد لم يكن يعلم أنّ الحريري سيقتل، إذا ما اخذنا بنظر الإعتبار صراحته وما اخبرني به حول طلب الحريري وكيف أنّه لم يكن طلبا معقولا. وبطبيعة الحال، أنّني اعرف بأنّه توجد اشياء أخرى لا اعرفها، لكنّي اعرف أنّه من المستحيل أنّ المقابلة قد تمّ توقيتها لتتوافق مع ساعة تنفيذ الإغتيال. لقد تمّ ترتيب المقابلة في وقت مبكّر. بعبارة اخرى، إنّي وجدت من المستحيل أنّ المقابلة ستكون عذرا لتغطية الأمر ودليلاً على براءة الأسد أو أنّها بأمر منه. ولكن بسبب بعض الضغوط من نو يوركر قررت ألا انشر شيئا عن لقائنا. ما كان ذلك بالأمر السهل، ولدهشتي انّ ذلك لم يوقفني من اجراء مقابلات أخرى مع الرئيس. لم يفتح موضوع اغتيال الحريري اطلاقا، وما زال ذلك الإغتيال لغزا لم يتوصل أحد إلى حله.

اجريت مقابلتي الأولى مع نصر الله، المتوحد الناسك، حول الحرب الأمريكية واحتلال العراق. معروف أنّ للشيخ علاقات وطيدة مع قادة النظام الشيعي في ايران، وهم المعادون بعناد لأمريكا ووجودها العسكري في المنطقة. أخبرني أوگست هانِنگ، رئيس المخابرات الألمانية BND لوقت طويل، خلال مقابلة لي معه في منزله ببرلين، أنّه تعامل مع نصر الله وأرئِل شَرون، رئيس وزراء إسرائيل المتشدد، أثناء سلسلة من عمليات تبادل الأسرى بين الطرفين نتيجة المعارك، التي دارت بين حزب الله والقوات الإسرائيلية في جنوب لبنان. فوجئت باخبار مثل تلك الاتصالات، فمن المعروف أنّ حزب الله يعتبر إسرائيل عدوا وجوديا ودولة لا شرعية، واعتبرت إسرائيل من جانبها الحزب منظمة ارهابية تمارس النشاط على حدودها الشمالية. كان الشيخ المكتنز محترفا ودمثا عذب المعاشرة، حين التقينا لأول مرة. قدّم لنا الشاي والحلوى خلال الحديث عن الحرب واسرائيل. يتمتع نصر الله بروح النكتة وحسن المداعبة، في الوقت الذي كانت اصابعه تداعب حبات مسبحته، ونحن نتبادل الحديث بمساعدة مترجم. سألته أوّلا، إن كان يوافق أن تعقد السلطة الفلسطينية اتفاقا دائما للسلام مع إسرائيل. كان جوابه مفاجئا بالنسبة لي، «إذا كان هناك اتفاق فمرحبا به،» قال ذلك ثمّ أضاف، «لن أقول شيئا، لن أقول شيئا. في نهاية الأمر، لا يستطيع أحد أن يستمر في الحرب نيابة عن الفلسطينيين، حتى وإن كان على غير اتفاق معهم.»[42]

قابلت الشيخ ثلاث أو أربع مرات خلال السنوات التالية، وكان ملتزما راسخا في اعتقاده أنّ من المستحيل على أمريكا أن تربح الحرب في العراق. كما أنّه أكد لي أنّ المعارضة العراقية ستتولى السيطرة على البرلمان العراقي في انتخابات عام 2005. وهي الانتخابات التي تخللتها تجاوزات من قبل كافة الأطراف قبل أسبوعين من إعلان نتائجها. إنّ التنبؤ بتحقيق انتصار في الانتخابات وارد، لكنّ توقع نصر الله كان ضربا من الدقة الإحصائية. استنتجت من تلك الانتخابات

أنّنا نحن الأمريكيون لا نعرف كيف نديرها. كما أنّني خرجت من اجتماعاتي مع الأسد ونصر الله، وأنا على قناعة أنّ الرؤساء الأمريكيين المدفوعين بالخوف والنقد والقلق بصدد المستقبل المجهول، يرتكبون خطأ فاضحا في عدم التعامل مع هذين الرجلين.

كان رَمنِك أكثر ارتيابا منّي في موضوع نزاهة الأسد ونصر الله، لكنّه لم يتردد في نشر جوهر وجهات نظري عنهما. كان ذلك بمثابة صوت ثقة بقدرتي على بلورة احكامي على الشخصيات، التي أتعامل معها، وزاد هذا من احترامي له. كانت هناك قصة واحدة، بعد نشر مسلسلة مقالاتي عن (أبو غريب)، وددت أن ينشرها لكنّه أبى. لقد عبّر لي مسؤول رفيع في وكالة المخابرات المركزية في مطلع عام 2005 عن محنة ألمت به، لأنّه سمع مديرا سابقا لإحدى محطات وكالة المخابرات المركزية، وهو يتفاخر أمام زملائه وهم جلوس حول طاولة شرب، كيف استطاع أن يقضي على شخص مهم في الحرب على الإرهاب. كان ذلك الشخص اندونيسي الجنسية وارهابي معروف لدى وكالة المخابرات المركزية باسم الحنبلي، الذي القي القبض عليه في صيف عام 2003، والذي اعتبرته إدارة بُش نصرا كبيرا في قضية حربها ضدّ الإرهاب. أسمه الحقيقي هو رضوان عصام الدين، وتشير المعلومات أنّه مسؤول القاعدة عن قضايا تطوير الأسلحة البايولوجية. أشارت محطة سي بي أس وصحيفة شيكاگو تربيُن، أنّه حين تمّ القاء القبض عليه كان يدير عملية «لِتنفيذ خطط» لاستعمال الأسلحة البايولوجية، وربما بينها جراثيم الجمرة الخبيثة Anthrax.

شرح مدير المحطة السابق، الذي رُقيّ إلى مركز مهمّ في الوكالة في واشنطن، الطريقة التي قضى فيها على حنبلي، بوضع كيس مليء بالنمل الناري fire ants على رأسه. وخلال دقائق من «النشيج» أصبح حنبلي جثة هامدة. ذكر موظف الوكالة، الذي نقل اليّ الخبر، أنّه دقق ملفات الوكالة عن حنبلي، ولم يجد دليلا على الاتهامات التي تخصّ الأسلحة البايولوجية. ابلغ الإداريين الكبار بموضوع كيس النمل الناري، فطلبوا منه، بطريقة لا توحي بالاحترام، أن يأخذ اختبار كشف الأكاذيب. فقدّم استقالته في الحال. لم يذكر عن الموضوع شيئا إلا بعد مرور سنة حين طلب مقابلتي. عرف أنّ جورج بُش كان في حاجة سياسية ليبرز حربه المتخبطة ضدّ الإرهاب فبالغ في أهمية حنبلي، لكنّ صاحبي لم يفهم كيف أنّ زملاءه وأولئك الذين كانوا في المراكز الرفيعة في الوكالة لم يشعروا بأيّ شيء كما شعر هو شخصيا. قيل له إنّ استعمال النمل الناري خلال التحقيقات اسلوب دأبت قبائل الأپاچي والكومانچي وغيرهما من القبائل الهندية في القرن التاسع عشر على استعماله خلال حروبهم ضدّ الجيش الأمريكي الذي اراد بسط سيطرته على مناطق غرب البلاد.

كانت قصة مروّعة لمدير محطة لم يعرف حدودا لتصرفاته. شعر رَمنِك بنفس القدر من الهلع الذي شعرته وأنا استمع عن مستوى التعذيب في العراق، لكنّه اخبرني أنّه نظرا لأهمية موقع رئيس محطة الوكالة، فإنّه كان منزعجا لأنّ الشخص الرئيسي، الذي كشف فضيحة كيس النمل لم يرغب في اعطاء اسمه، خاصة وأنّ العديد من زملاء مدير المحطة المذكور قد صرحوا أنّه يكذب بشكل متواصل ويبالغ في تصوير الأمور. كنت على قناعة تامة أنّ زملائه هؤلاء قد التفوا حوله لحمايته، فنشروا تلك الكذبة الجماعية. علمت ذلك فيما بعد عن طريق أحدهم، أنّ ذلك هو ما حصل فعلا. لكنّي لم اعرف تلك الحقيقة، حين قرّر دَيفِد أنّ هناك مخاطرة في نشر تلك القصة. فهي لا تشبه

قصة (أبو غريب) المعززة بالعديد من الصور، التي تظهر تعرّض السجناء للإذلال الجنسي، كما كشفها التقرير الداخلي للواء تاگوبا. كان خوف دَيفِد ليس فقط على المجلة، بل عليّ سلامتي أيضا، أنا الصحفي الذي كشف (فضيحة أبو غريب). تمت مراجعة قصة النمل الناري ووضعت بشكلها النهائي للطبع، لكنّها لم تُنشرْ.

لا بُدّ من الإشارة إلى أنّني احطت مكتب العلاقات العامة لوكالة المخابرات المركزية علما بما كنت اخطط لنشره، فعرفت أنّ وزارة العدل قد قررت أن ترفع السرية عن مذكرة قانونية تعود إلى عام 2002 بخصوص قضايا التعذيب، في الوقت الذي كنّا نراجع فيه قصة كيس النمل الناري. اجازت المذكرة استخدام الحشرات خلال عمليات التحقيق، بشرط أن يكون خوف السجين منها معروفا، وأن يتمّ اخباره «بأنّ الحشرات لا تلسع ولا تسبب الموت ولا الألم الشديد». الحشرات المشار إليها تكون على شكل يرقات. ومع ذلك، فإنّ هذا التوضيح لم يكن كافيا لتبرير نشر قصتي. كان دَيفِد على حق. فكرت حينها أنّ للقدرة الألهية سببا لخلق المحررين.

تركز المحور الأساسي لتقاريري على اطلاق إدارة بُش/چَيني/مانسفيلد العنان للقيادة المشتركة للقوات الخاصة أن تعمل ما تشاء في العراق وفي امكنة اخرى. تعرضت إلى موجة من الغضب إثر حوار لي مع نائب الرئيس السابق والتر مونديَل جري في ولاية مِنسوتا. من المعروف أنّه ساهم في لجنة چرچ حين كان عضوا في مجلس الشيوخ. لم تعجب كلماتي أحد الحضور لأنّني شكوت حول ما سميته «إتساع حلقة الإغتيالات،» التي كانت جارية في العراق طيلة فترة الحرب. كانت عادتي أن اترك ما انشر يتحدث نيابة عني، خاصة ما يتعلق بالمواضيع الإستفزازية مثل الإغتيالات. يدعي الكثير من الأمريكيين بالبراءة من هذه الحقيقة الواقعية، لكنّ ردّي كما شرحته لصديقي المنزعج رَفنِك، كان وليد ظروف اللحظة ذاتها. تقررت مشاركتي في حوار مع مونديَل قبل عدة أشهر، كجزء من سلسلة حوارات حول السياسة الخارجية جرت في جامعة مِنسوتا، حيث كان مونديَل يدرّس فيها في حينه. وصلت إلى مطار مدينة مينابُلِس وقت الضحى وكانت الندوة مقررة في المساء. بدأ الثلج يتساقط ساعة وصولي، وحين حلّ المساء كان الثلج الكثيف قد غطى المدينة واوقف نشاطاتها ذلك المساء. لكنّ حوارنا المقرر بقي على موعده حسب الجدول المقرر، وحضره أقلّ من 100 شخصا من بين المئات، الذي اشتروا بطاقات حضور الندوة. أصبح مونديَل راديكاليا قدر تعلق الأمر بوكالة المخابرات المركزية، وكان ذلك بسبب اطلاعه على النشاطات الدنيئة التي كشفتها لجنة چرچ. طلب من الحاضرين القلائل أن يقتربوا صوب منصة المسرح، التي نجلس عليها. لم يتردد نائب الرئيس من التعبير عن غضبه حول الممارسات المشينة التي فضحتها في كتاباتي، ومن بينها وجود فريق امريكي مكلف بالإغتيالات. وبطبيعة الحال، كنت اعرف أكثر مما كنت اكتب عنه. بعد مرور عشرة اشهر على هجمات 11 سبتمبر، حصلت على رزمة من الوثائق الداخلية السرية، التي شملت ردودا من مختلف دوائر البنتگون على سؤال طرحته على دونَلد رامسفيلد وهو، كيف تستطيع أمريكا أن تلمّ صفوفها بشكل اكثر كفاءة لما سمّاه «المطاردات» أي إغتيال الأعداء؟ اجابت احدى جماعات العمليات الخاصة على وجوب انهاء القوات العسكرية على ما يسمى «المخابرات التي تتطلب العمل الفوري. وهذا يعني أنّ الضحية هو الهدف الصحيح، وتكون تلك القوات مستعدة للمجازفة الكبرى.» قالت تلك الجماعة، «يجب أن نتقبّل الحقيقة بأنّنا نقدم على المهمة قبل الإجابة عن كافة الأسئلة... لأنّنا لو تأخرنا سنفقد عنصر المباغتة، الضروري لمداهمات المطاردة والإختطاف وإنزال العقاب.» ساعدتني معرفة طريقة التفكير هذه أن أكيّف

طريقة كتابة تقاريري. لم انشر شيئا عن تلك الوثائق السرية، التي حصلت عليها خوفا من اكتشاف مصدري. بالنسبة للندوة، قام أحد

الحاضرين بتسجيل تعليقاتي باستخدام هاتفه المحمول ونقلها على الإنترنت. لم أعر ذلك أيّ اهتمام، لأن مونديل قد وافق على اختياري للكلمات. غير أنّ ما نقله ذلك الشخص قد تمّ تناقله بشكل سريع، فقامت ضجّة حول اتهاماتي عن فرق الإغتيالات، وكان ذلك امرا مضحكا، إذا اخذنا بنظر الإعتبار تقاريري المفصلة الشاملة حول المواضيع، التي نشرتها نو يوركر.

راجعت دَيفِدسُن العديد من المقالات، التي نشرتها مجلة نو يوركر منذ أواخر عام 2001 لغاية عام 2008، وهي التي ذكرتُ فيها كيف أنّ القتل بدم بارد أصبح الممارسة القياسية في مناطق الإشتباكات. نشرت مقالتي الأولى خلال الأسابيع المبكرة، التي تلت هجمات 11 سبتمبر، واقتبست اقوال ما سمّيته «رجل المخابرات المركزية» لتبنّي «الحاجة إلى تحدّي التكتيكات/الوسائل tactics التي تخرج على قواعد القانون الأمريكي... نحن نحتاج لفعل ذلك، كي نسقطهم الواحد تلو الآخر.» كشفتُ في أواخر عام 2002 خطة لاغتيال أحد قياديي منظمة القاعدة، والتي وافق عليه الرئيس بُش نفسه، رغم أنّ الاغتيالات ممنوعة منذ فترة حكم الرئيس فورد إثر انتهاء لجنة چرچ من الاستماع لأقوال الشهود عام 1975. ختمت مقالتي باقتباس من مستشار في البِنتگون ذي خبرة عالية حين ذكر، «لقد خلقنا ثقافة بين صفوف وحدات القوات الخاصة، الذين تتفاوت اعمارهم بين 20 - 21 عاما ويحتاجون إلى قيادة ناضجة، أنّهم يفترضون أنّ لديهم السلطة وبأمكانهم أن ينفذوا ما يحبّون.» وهذا يعني أبادة من يُقال لهم إنّه هدف مطلوب. «وفي النهاية تكون المخابرات سيئة،» حسب قوله و«يُقتل أناسا أبرياء، ويتعرض هؤلاء للمحاسبة.» صوّرت في نهاية عام 2003 أنّ الاغتيالات المستهدفة أصبحت امرا مألوفا في العراق، وظهر حينها أنّها حققت انتصارات سريعة للقوات الأمريكية ضدّ المتمردين، واغلبهم من منتسبي الجيش العراقي المنحلّ. نقلت اقوال أحد رجال المخابرات السابقين وهو يذكر، «حين تستهدف القوات الخاصة متمردا بغية القضاء عليه، فإنّ ذلك يعني من الناحية التقنية ليس اغتيالا، وإنّما تنفيذ عملية عسكرية.» في مقالتي الثالثة عن (أبو غريب) عام 2004، صوّرت الاغتيالات كجزء من فضيحة السجن. اقتبست قول أحد المسؤولين، «القاعدة هي أن تمسك بمن يجب أن تمسك به، وتعمل به ما تشاء.» كما كشفت في نفس المقالة عن وجود ما أصبح يُسمّى «السجون الخفية،» التي لم يُعلن عن وجودها ويمارس فيها الأمريكيون التعذيب في بلدان أوروبية وأخرى في آسيا. اديرت تلك السجون بسرية تامة ودون معرفة أو تمويل من الكونگرس. في عام 2005 ازدادت حرب العراق ضراوة ووصل العنف إلى أوجه. وضعت يدي على أمر صادر من جهات رفيعة يفوّض فيها الجيش السلطات ليجد خلايا الإرهابيين وإبادتهم عن بكرة أبيهم. احتوى الأمر على قائمة لاستهداف أعضاء منظمة القاعدة ومسؤوليها واهداف أخرى ذات قيمة عالية... وأشار الأمر إلى سؤال أحد المسؤولين وهو يعيد إلى الأذهان، «ألا تتذكّرون فرق الإعدام اليمينية في السلفادور؟» ثم اضاف، «إنّنا سوف لن نبلغ الكونگرس بشأن ما نقوم به.»

حين أوشكت إدارة بُش على اكمال ثمان سنوات في حكم البلاد، اقتبست اقوال مسؤول رفيع في وكالة المخابرات المركزية تقاعد لتوهِ من الوظيفة. أقرّ هذا بوجود خلاف مرّ بين البيت

الأبيض ووكالة المخابرات المركزية حول موضوع الاغتيالات المستهدفة. «كانت المشكلة هي مَن وافق على تلك الاغتيالات؟ كان رجالي في صراع مستمر حول ذلك طيلة الوقت. لماذا نعرّض وضع رجالنا على خطوط النار؟ إذا كنت تريد مني أن اقتل شخصا ما، فاخبرني ذلك بصراحة وسأقتله. لو كنت رئيسا أو نائبا للرئيس، لقلت (هذا شخص رديء، وأنّه من مصلحة الولايات المتحدة أن نصفيه.) المشكلة أنّهم لا يقولون ذلك.» وبدلا منه، يذهب جورج تِنِت، مدير المخابرات المركزية، الذي شغل المنصب لغاية منتصف عام 2004، فيقولون له، (أنتم رجال مهنيون وتعرفون بأهمية الأمر. نحن نعلم أنّكم قادرون على استحصال المعلومات المخابراتية.) «يعود جورج ويقول لنا، افعلوا ما تحبّون أن تفعلوا».

أصبح عملي كصحفي استقصائي أكثر تعقيدا إثر الحرب الكارثية، التي شنتها إسرائيل ضدّ حزب الله عام 2006. كتبت أنّ الحرب لم تجرِ حسب ما خططت له إسرائيل، رغم المعلومات المخابراتية والمعونة العسكرية السرية، التي أمّنتها إدارة بُش، والتي لم يعرف عنها المواطنون شيئا. لقد أملَ بُش ونائبه چِيني أنّ غزو إسرائيل للبنان هدفه تدمير منشئات حزب الله وتحصيناته السرية وقواعده لإطلاق الصواريخ نحو إسرائيل. لقد أرادا ذلك أن يكون نموذجا يُحتذى به لتدمير منشئآت إيران النووية السرية. لم يُذكر شيء عن فشل الهجوم الإسرائيلي في الإعلام الأمريكي، إلّا ما ندر. اقتبست في مقالتي ما ذكره رچَرد آرميتاج، وهو ضابط بحرية سابق عمل مساعدا لوكيل وزارة الخارجية الأمريكي خلال إدارَة بُش الأولى، حين قال «إذا كانت أكبر قوة عسكرية في المنطقة، وهي القوة العسكرية الإسرائيلية، عاجزة عن أن تسيطر على بلد صغير مثل لبنان، الذي لا يتجاوز مجموع سكانه على 4 ملايين، فيجب أن نمعن التفكير قبل أن نغامر في تطبيق النموذج على إيران ذات العمق الستراتيجي وسكانها البالغ عددهم 70 مليون مواطن. الشيء الوحيد الذي حققه غزو لبنان وقصفه، هو توحيد الشعب ضدّ إسرائيل.»

بعد مرور ما يقرب من عام دخلت طائرات إسرائيل الأجواء السورية وهاجمت ودمّرت ما ادعته الحكومة الإسرائيلية بأنّه مبنى مفاعل نووي قيد الإنشاء. لم يصدر بيان رسمي يعترف بالغارة، رغم أنّ الصحف عجّت بالتسريبات أنّ المفاعل كان على وشك الانتهاء ويستعد للتشغيل حين دُمّر. لكنّ إسرائيل لم تكشف عن صور أو أدلة على أنّ الغارة استهدفت فعلا مفاعلا نوويا، كما فعلت قبلها عام 1981، حين دمّرت المفاعل النووي العراقي، الذي كان على قيد الإنشاء على مبعدة 12 ميلا إلى الجنوب من بغداد.

طرت إلى دمشق بعد أسابيع من الغارة الجوية عام 2007 وقابلت الرئيس الأسد ووزير الخارجية وليد المعلم وضابطا رفيعا في المخابرات الرسمية. قيل لي إنّ سورية لا تمتلك الأموال ولا الخبرة للاستثمار في مشروع لإنتاج الأسلحة النووية. وحتى لو توفر لها ذلك، لما أنشأته في الصحراء الشمالية الغربية، جنب مناطق اثرية قديمة وقرب الحدود مع تركيا والعراق ونظاميهما المعاديين، وجعل دمشق في مهبّ الريح القادمة من تلك المنطقة. كما أنّني أخبِرت، دون توفير أيّة أدلة، أنّ المبني قد استخدم لرفع جاهزية الصواريخ والقذائف قصيرة المدى.

بحلول اواخر عام 2007 كنت قد التقيت بالرئيس الأسد عدة مرات ووجدت أنّ ادعاءاته العلنية وغير العلنية تقوم على الحقائق. كما أنّ أجهزة مخابراته قد تعاونت مع وكالة المخابرات

المركزية في تبادل المعلومات، التي تمّ تدقيق صحتها. أخبرني الأسد أنّه صُدِم بعد كل هذا التعاون المخابراتي إثر هجمات 11 سبتمبر، أن ينبري بُش ويضع سورية في صف «دول محور الشر» إلى جانب إيران والعراق وكوريا الشمالية. ومع ذلك استمر الأسد يأمل بعلاقات أفضل مع واشنطن.

علمت قبل أن أطير إلى سورية عن وجود خلاف بين منتسبي المخابرات الأمريكية حول صحة استهداف الطيران الإسرائيلي لضرب المواقع في سورية. اعتقد البعض أنّ هدف الغارات ما كانت له علاقة بالمفاعل المفترض، ولكنّها نوع من ردّ الاعتبار والهيبة للعسكرية الإسرائيلية بعد فشل حملتها ضدّ حزب الله في السنة السابقة. كما تمّ اطلاعي على أنّ العديد من الادعاءات لمساندة الأقوال الإسرائيلية، من قِبَل اعتراض سفينة كانت تحمل مواد نووية لسورية، ما كانت صحيحة على الإطلاق. في الحقبة التي تلت ذلك، اقتصرت حملات الدعاية الأمريكية والإسرائيلية فقط على قدرة سورية وامتلاكها للأسلحة الكيمياوية، ولم يعد ذكر لبرنامجها النووي.

لم أفاجأ أنّ مقالتي المتشككة المشفوعة بنقاط التناقض العديدة التي أشرت اليها، لم تؤد لكتابة تقارير أخرى عن الموضوع. ومع ذلك فقد برز شيء آخر للسطح. إنّ الرواية الإسرائيلية عن الغارات وكيف أنّ إدارة بُش قد ساندتها مخابراتيا وعسكريا دون إثارة أيّ سؤال من قبل محطات التلفزيون والإعلام الأمريكي، الذي يغطي الأخبار على مدار الساعة، رغم توفر أسباب عديدة لإثارة الشكوك حول مصداقية الحكومتين الإسرائيلية والأمريكية. فمثلا، ما زالت حكومة إسرائيل تنفي وجود ترسانة نووية أو امتلاكها لهذا السلاح، رغم أنّ العالم بكامله يعرف أنّ ذلك حقيقة ناصعة. لكنّ إدارة بُش، التي تفتقر إلى المصداقية، استمرت في إصرارها على أنّ العراق كان يمتلك أسلحة دمار شامل WMDs، كمبرر لغزو العراق وأسقاط نظام الحكم فيه. كما بحثت موضوع السفينة، التي استمرت إسرائيل تدعي أنّها حملت مواد نووية لسورية، وكتبت أنّ السفينة لا يمكن أن تكون استطاعت القيام بتلك المهمة، التي كررتها إسرائيل على الدوام. لاحظت خلال السنوات التالية الإعلام الأمريكي، وهو يغطي الأخبار على مدار الساعة، كان يزيد اعتماده خلال الأزمات على الادعاءات الصادرة من البيت الأبيض مباشرة، واجهزة مخابراته المسيّسة. إنّ اتخاذ موقف الحذر، الذي يجب أن يكون الدافع الفطري لكلّ صحفي استقصائي، قد ضعف خلال فترة أوباما، التي بشرت بالأمل واكثرت من الوعيد حين تسلمت السلطة في مطلع عام 2009.

جاء أوباما إلى السلطة، وهو يتكلم واعدا بإحداث تغييرات في السياسة الداخلية، وأكثر أهمية بالنسبة اليّ، في السياسة الخارجية. علمت في أواخر عام 2008، أنّ بشار الأسد كان منهمكا في محادثات جديّة مع إيهود أولمرت رئيس وزراء إسرائيل في حينها، حول استعادة سورية لهضبة الجولان، التي سيطرت عليها إسرائيل في حرب الأيام الستة عام 1967. وفي لحظة معينة في مطلع شهر ديسمبر، علمت أنّ أولمرت قد طار إلى أنقرة وامضى فترة 5 ساعات من المفاوضات مع رئيس وزراء تركيا، رجب طيب أردوگان، الذي كان في نفس الوقت على اتصال هاتفي بالرئيس الأسد. غير أنّ جهود تلك المفاوضات السرية ذهبت أدراج الرياح حين قامت إسرائيل بهجوم عسكري على غزة بعد أسابيع قليلة.

أمضيت الأسابيع الستة التالية وأنا اتحدث مع المسؤولين في الشرق الأوسط وأوروبا وواشنطن حول احتمالات تجديد محادثات السلام في الشرق الأوسط، خاصّة تلك التي تتعلق بهضبة الجولان وعودة سورية ثانية لمعسكر الاعتدال. أخبرني الأسد أنّه متشوق للقاء الرئيس أوباما وتجاذب الحديث مع زعماء الغرب. كان مفهوما بشكل واضح أنّ علاقة سورية المؤيدة لإيران وحزب الله، وكذلك مع حماس، وهو الحزب السياسي المسيطر على غزة، سينالها التغيير. كنت شديد الدهشة لأنّه كان من الصعب عليّ أن أتحدث مع أيّ مسؤول كبيرة في إدارة أوباما القادمة، رغم أنّ الرئيس المنتخب والمحيطين به ما كانوا يترددون في لقاء صحفيين يرددون كالببغاوات ما يُقال لهم. كان هناك المزيد من الثرثرة حول مرحلة جديدة في السياسة الخارجية، لكنّنا لم نلحظ لها أثرا والشهور تمضي سراعا. أخيرا وافق أوباما على زيادة التواجد العسكري في أفغانستان. بدا لي واضحا أنّه في اللحظة التي وصل فيها أوباما إلى الحكم، ما عاد راغبا في المجازفة، التي كان بحاجة إليها لتغيير السياسة الأمريكية.

بالرغم من بداية حكمه المتسمة بالحذر، فقد اضحى العالم في حال أفضل وهو في البيت الأبيض. أمّا أنا فقد كنت متعبا وبحاجة للراحة بعد ثماني سنوات عجاف وأنا اعمل ضدّ إدارة بُش/ چَيني. كما كان هناك عاملا آخر. رغم أنّي أقدّر رَمنِك واحترمه للغاية، فإنّ قربه من أوباما بشكل شخصي قد أزعجني خلال الحملة الإنتخابية عام 2008، وكذلك حقيقة كونه يخطط لكتابة سيرة الرئيس الجديد. لقد تعلمت خلال سنوات عملي الصحفي ألّا أثق بالتطلعات العلنية لأيّ سياسي، ولدي حشمة فحواها أنّ أيّ محرر يجب ألّا يدخل في علاقة صداقة شخصية مع رئيس في السلطة.

ليس من العدل لصديقي دَيفِد ولا بالنسبة لي، وجود مثل هذه الشكوك، وأنّه قد حان الوقت للمضي في اتجاه آخر. كان لدي عرض أن أؤلف كتابا عن سنوات چَيني، واستطاعت موكلتي للنشر من التعاقد مع سوني مَهتا، رئيس ومحرر دار النشر نوف Knopf، على أن يقوم جونثِن سيگل بمهمة التحرير. كان دَيفِد ودودا بشأن الموضوع، فقد قطعنا معا شوطا طويلا واتفقنا أن نبقى على اتصال في حالة ظهور موضوع يستحق الاهتمام. وكما كانت الحال مع أيب، لم يمضِ وقت طويل حتى وجدت نفسي أعود لأكتب للمجلة. كتبت في أواخر عام 2009 مقالة حادّة اللهجة عن جهود أمريكا لمنع تحول النزاع الباكستاني الهندي إلى صدام قد تُستعمَل فيه الأسلحة الذرية. لقد أمضيت أسابيع متنقلا بين پاكستان والهند لأكتب تقارير عن الموضوع، خاصّة أنّني علمت بوجود خصومة حادة في العلاقات الأمريكية الپاكستانية. لا بُد من دفع ثمن باهظ قد يكون على شكل ردّ امريكي عنيف، إذا بدأت پاكستان وضع سلاحها النووي على أهبة الإستعداد لاستخدامه في أيّة أزمة مع جارتها.

تمت مراجعة المقالة من قبَل المسؤولين الكبار في وزارة الخارجية وفي البيت الأبيض. لم يصرح هؤلاء علنا بآرائهم، لكنّهم في الغالب يبدون وجهات نظر متباينة في السّرّ عن كافة ما كتبت. جاء الإنكار الرسمي الأول من الپنتگون. ولكن في اليوم الذي سبق ارسال المجلة للمطبعة، اتصل بي دَيفِد وابلغني أنّ ضابطا رفيع المستوى قد اتصل به وحثّه على عدم نشر المقالة، رغم التحرير والمراجعة، التي خضعت لها. قال له لو أصبح أحد استنتاجاتي معروفا بشكل علني، فإنّ ذلك سيثير تظاهرات خطيرة امام السفارة الأمريكية في إسلامباد، عاصمة پاكستان، وقد يؤدي إلى وقوع

ضحايا في كافة انحاء البلاد. اضاف الضابط منبّها صاحبي أنّ وزارة الخارجية ستضطر إلى اجلاء كافة أسر العاملين في السلك الخارجي في پاكستان على الفور. كان ذلك التحذير غريبا، لأنّه في العادة لم يكن أكثر من اصدار تكذيب رسمي. وبطبيعة الحال وشأني كشأن أيّ صحفي في مثل هذه الظروف، وافقت على اجراء تعديل في مقالتي وحذف بعض استنتاجاتي.

لقد أتيت على هذه الحادثة لأنّها لا بُدّ كانت واضحة في ذهن دَيفِد فهو يعرف أنّ لديّ مصادري في پاكستان وداخل الولايات المتحدة، من الذين يمكن الاعتماد عليهم في قضايا الأمن العام الرئيسية للولايات المتحدة، خاصّة حول ما يجب القيام به ازاء ترسانة الأسلحة النووية في پاكستان. ولو مضينا قدما سنتين لوجدنا أنّ الرئيس أوباما قد اعلن بشكل دراماتيكي في ربيع عام 2011 عن مقتل ابن لادن وهو متخف في قرية في ضواحي العاصمة إسلامباد. كانت تصفية إبن لادن عاملا أساسيا في رفع شعبية أوباما وإعادة انتخابه لفترة ثانية، كما لو كان الحال مع أيّ رئيس آخر. سمعت خلال أيام قليلة من ذلك الإعلان في داخل پاكستان، أنّ وقائع التصفية وتوقيتها كانت أكثر تعقيدا ممّا أعلِن عنه وأنّ إدارة أوباما قد عملت جنبا إلى جنب مع المخابرات في پاكستان، التي تحفظت في واقع الأمر على إبن لادِن لعدة سنوات. أخذت هذه المعلومات إلى أحد مصادري من الجانب الأمريكي للتأكد من ذلك. صحيح أنّ الإدارة الأمريكية قد قضت على إبن لادن، وليس هناك أيّ شكّ بخصوص هذا الأمر. لكنّ ما صدر عن البيت الأبيض من بيانات موجهة للصحفيين، ما كانت دقيقة. ذهبت إلى دَيفِد واطلعته على ما اعرف، وادهشني باقتراح أن اشرك صحفيا آخر ونعمل سوية حول الموضوع. الصحفي المقترح كان شخصا قد عُيّن حديثا في المجلة وموجود وقتها في پاكستان. رحبت بطبيعة الحال بالأمر. مرّت عدة اسابيع ولم يأتِ ذلك الصحفي بأيّ شيء جديد. لا بُد من ذكر أنّني لم اكشف له اسماء مصادري في پاكستان. غير أنّ دَيفِد أخبرني أنّه لا يعتقد أنّ لدي بيانات كافية وموثوقا بها للمضي في الموضوع. الحقيقة أنّني أعددت مواد أكثر ممّا يعرف. كتبت له مذكرة طويلة عمّا أخطط لبحثه والكتابة عنه. تلقيت رسالة الكترونية قال فيها إنّه يشكك باعتمادي «على نفس المصادر السابقة،» فدُهِشت من ذلك. المصادر القديمة، التي يعرفها دَيفِد والمحررون الآخرون وفريق ضبط الحقائق في المجلة، هم نفسهم الذين ساعدوني في إعداد تقاريري لمجلة نو يوركر حول الحرب ضدّ الإرهاب ووضعوها في مقدمة ما نشرته المجلة خلال الحقبة الماضية.

قلت لنفسي حسنا، إنّه لا يريد لهذه القصة أن تُنشر في الوقت الحالي، لأنّ هناك قصص أخرى كثيرة لم تعجبه أوّلا ثمّ غيّر رأيه ونشرها فيما بعد. سافرت مع زوجتي لقضاء عطلة استراحة في أوروپا لمدة عشرة أيام. بعثت وأنا في طريق العودة رسالة الكترونية من فرانكفُرت، بيّنت فيها مخطط ما لديّ من المعلومات والمواضيع التي أودّ الكتابة عنها. اتصل دَيفِد بي لدى عودتي إلى واشنطن، وطلب منّي ألّا انزعج ممّا سيخبرني به. خلاصة القضية هي أنّهم يعدون تقريرا مطولا اعتمادا على مصدر داخلي حول مداهمة منزل إبن لادن، من وجهة نظر فريق الوحدة الخاصة التي نفذت المهمة وقضت عليه، وأنّ ذلك التقرير سَيُنشر في عدد المجلة القادم. ثمّ اضاف أنّ نشر ذلك التقرير سوف لن يكون عقبة أمام مشروعي الذي اعدّه. لم يعرض عليّ ارسال نسخة من ذلك التقرير قبل نشره، ولم اطلب أنا ذلك. علمت من داخل المجلة أنّ جون برَنن، الذي كان حينها مستشارا لجهاز المخابرات المضادة في حكومة أوباما، وكذلك دِنِس مكدونوف، نائب مدير الأمن

الوطني، قد امضيا الكثير من الوقت وهما يتحدثان عن طريق الهاتف مع فريق ضبط دقة المعلومات وعن تفصيلات ذلك التقرير.

انزعجت كثيرا، وربّما تألمت أكثر ممّا غضبت، فكتبت إلى دَيفِد مباشرة رسالة استقالة، قلت فيها إنّه لم يعد بحاجة لشرح مسبباتي. اتصل بي عن طريق الهاتف مباشرة بعد دقائق وطلب منّي عدم التسرّع باتخاذ القرار، واعاد ما قاله لي في السابق إنّ قصتي «غير مكتملة» وأنّه على أتمّ استعداد لنشرها حين تكون جاهزة. فهمت من ذلك أنّ هناك رابط قويّ لتبادل الاحترام بيننا والذي توطد خلال سني عملنا سوية. ماذا فعلت؟ لقد حققنا سوية الكثير وكانت رحلة موفقة. تعلمت من تجربتي أنّ المراسلين الإستقصائيين غالبا ما يبلى شعور الترحيب بهم. لقد حدث لي ذلك من قبل مرتين، في وكالة الأسيوشيتد برس وفي مؤسسة تايمز. يتعب المحررون من القصص الصعبة ومن المراسلين العنيدين. لم استقل من عملي بل رجعت لإكمال كتابي عن چَيني، ولم اقرأ التقرير، الذي نشرته المجلة عن الغارة، التي نجمت عنها تصفية إبن لادن، إلا بعد مرور سنة.

أكملت القسم الأول من كتاب چَيني، الذي استعنت في اعداده بالرجوع إلى مئات المقابلات مع المسؤولين المعنيين في الماضي والحاضر، دون الإشارة إلى اسم أيّ منهم، فبدأت مواجهة عدد من المشكلات، التي تخصّ تلك المصادر. إنّ كتابة تقرير لمجلة شيء وتأليف كتاب مليء بالأسرار يقوم على مقابلات مع اشخاص يعملون في ميادين المخابرات والمؤسسات العسكرية، شيء آخر. يشكل هذا اساسا للمخاطرة باتخاذ اجراءات قانونية، خاصّة وأنّ أوباما بدأ يضيق الخناق على مَن يسرّب معلومات سرية، أكثر من أيّ رئيس سابق. كما أنّ حقيقة كون الكتاب مليء بالإقتباسات من اشخاص لا يمكن تسميتهم، شكّل بحدّ ذاته صعوبة عويصة. عدت ثانية إلى القصة الحتمية حول إبن لادن. تجاوزت حين فرغت من كتابتها أكثر من 10 آلاف كلمة، فأرسلتها إلى دَيفِد، حسب ما وعدت. أجاب بسرعة معترفا أنّ القصة تفرض نفسها، لكنّه لا يمكن نشرها دون تسمية مصادرها. كنت على ثقة أنّه مؤمن بما طلبه منّي، لكنّ الإشكال في الموضوع أنّ المجلة نشرت العديد من مقالاتي السابقة دون تسمية حتى مصدر واحد.

إنّ حقيقة كوننا استطعنا تحديد مكان وجود إبن لادن، وبالتالي تصفيته، قد تمّ بمعاونة الجنرالات، الذين يديرون المخابرات الپاكستانية، وأنّنا خدعناهم، على أقلّ تقدير، ولم نفِهم حقهم. وهذا أمر لا يمكن السكوت عنه. نشرت بعد مضي بضعة اشهر قصتي عن إبن لادن في مجلة مراجعة الكتب الصادرة في لندن، بعد أن اجريت جولة أخرى لضبط الحقائق ودقة المعلومات بمساعدة زميلين من فريق نو يوركر. قوبلت القصة بكثير من الإنتباه، ولم يدهشني رفض وربما عجز الصحافة لمتابعة الجوانب الحية من قصتي، خاصة ما يتعلق بخديعتنا للجانب الپاكستاني. ركّز الإعلام، كما خشيت، ليس على ما كتبته، ولكن على عدم نشرها في نو يوركر. إنّ إمكانية تسلل فريق القوات الخاصة من سلاح البحرية إلى داخل پاكستان والوصول إلى منزل إبن لادن وتصفيته مع ابنه وحارس له واشخاص آخرين، دون أن يلفت ذلك انتباه القوات والمخابرات العسكرية الپاكستانية، أمر خيالي بعيد المنال. لكنّ الإعلام والمراسلين في البيت الأبيض صدقوا الرواية الرسمية، فظهر المعلقون والمحللون والمراسلون في محطات البث المتواصل على مدى الساعة في ندوات متكررة تعيد اجترار نفس الرواية.

خلال الوقت الذي امضيته وأنا احاول حل العقدة، التي واجهتني في اعداد كتابي عن چَيني نشرت بين الأعوام 2013 و2015 ثلاث مقالات مطولة لمجلة مراجعة الكتب الصادرة في لندن، ركّزت فيها على اتساع رقعة الحرب الأهلية في سورية واستمرار إدارة أوباما في منح المساعدة السرية والدعم لجماعات المجاهدين الأصوليين المعارضين لحكومة بشار الأسد. كما أنّني اثرت اسئلة جادة حول يقين إدارة أوباما أنّ هجمات السايرن، التي جرت عام 2013 قرب دمشق كانت من فعل حكومة الأسد. الذي لم يعرفه المواطنون الأمريكيون حسب ما كتبت، أنّ المخابرات الأمريكيية قد قررت في وقت مبكر، ولدي نسخة من التقرير السري، إنّ قوات الجهاديين الأصوليين المعارضة في سورية، قد حصلت على غاز الأعصاب. كانت هناك جهتان تمتلكان وربّما وراء استعمال الغاز. لكنّ المواطنين الأمريكيين قد تمّ اشعارهم رسميا بامتلاك جانب واحد فقط لهذا الغاز. ما كانت تلك لحظة ناصعة في تاريخ حكم أوباما[43].

اقدمت في الأسبوع الأخير من عام 2014 على عمل ما قاومته في السابق على مدى أربع حقب، وهو العودة لزيارة منطقة مذبحة ماي لاي. وجّهت لي الحكومة الفيتنامية دعوات متكررة، ولم ألبِّ أيا منها لأنّني ما كنت متأكدا أنّني سأتحمّل زيارة المكان. لقد سافرت إلى هَنوي مرتين بعد وقوع المذبحة ورفضت الجهود لإقناعي بالذهاب لزيارة القرية المنكوبة.السبب الذي استعنت به هو أنّني حصلت على الشهرة والثروة من خلال كشف المذبحة. ولكن كان هناك سبب آخر وهو أنّه قد حصلت امور خلال ساعات المذبحة ما كتبت عنها، ولا أحب أن اتذكرها. وبعد مرور 45 عاما ووسط غياب أيّ اهتمام بزيارتي على المستوى الرسمي من قبل الحكومة الشيوعية، إستجبت لتوسلات زوجتي المستمرة، فاصطحبتها واطفالي وبعض الأصدقاء المقربين، وفي ذهني أن اكتب قصة لمجلة نو يوركر تحت عنوان «العودة إلى مسرح الجريمة.» إنّ اختلافات وجهات نظري السياسية مع وجهات نظر رَمنِك، قد تلاشت أمام حقيقة كونه محررا رائعا وحريصا على ألّا اكون مثيرا للغثيان وألّا اكتب قصة بدافع خدمة مصالح ذاتية.

لقد اقاموا متحفا رائعا في موقع المذبحة، وكان مديره فام ثان كونگ، الذي كان بسنّ اواسط الخمسينات، هو الناجي الوحيد من المذبحة. كان يتطلع إلى لقائي وكنت بدوري اتطلع إلى لقائه. كان كلامه في البداية خطابيا حين تحدث اليّ والى زوجتي وبعض الأصدقاء المقربين، الذين صاحبونا في تلك الزيارة. لكنّه سرعان ما تحوّل لشرح «إنّ الفيتناميين يرحبون بضيوفهم وأنّهم مسامحون ولا ينسون.» جلسنا أنا وهو بعد انتهاء الجولة على مقعد واخبرته عن أشياء أعرفها ولكن ما كتبت عنها. سألته ماذا يتذكر ورجوته أن يصف لي ما حدث وقت كان في سنّ 11 عاما. قال إنّه حين بدأ إطلاق النار هرعت أمّه واخوته الأربعة وتخفوا في ركن قرب سقف كوخهم المبني من القش. جاء الجنود الأمريكيون وطلبوا من الجميع الخروج فخرجوا. ربّما كان الجنود يبحثون عن افراد في سنّ الخدمة العسكرية. دفعوهم إلى داخل الكوخ والقوا نحوهم قنبلة يدوية رمته حين انفجرت فأغمي عليه. وحين صحا من الإغماء وجد نفسه وسط كومة من جثث افراد عائلته. كنت أعرف أنّ هناك معلومات اخرى، فتجاهلت ما ذكره عن حالة الإغماء. سألته ماذا فعل الجنود باخته المراهقة ووالدته قبل أن يلقوا بالقنبلة اليدوية. تصلب وجهه فجأة وقال إنّني تجاوزت الحدود. غير أنّه اعترف بالترحيب بالأمريكيين الذي ساهموا في الهجوم ليأتوا ويزوروا المتحف. لكنّه غير مهتم بتخفيف آلام أولئك الذين يدّعون أنّ لديهم القليل من الذكريات عن المذبحة، ولم يعبّروا عن اسفهم

لما قاموا به. لا أدري لماذا لم أطلب منه أن يرفع القناع عن وجهه لبضع لحظات، لكنّني سعيد أنّه رفعه بذاته فبانت التشويهات التي أصابت وجهه. في رأيي ليس هناك مجال للمسامحة والصفح لما جرى ذلك اليوم في تلك القرية الوادعة.

أصبح جليا أنّني يجب أن اتخلى عن مشروع كتابي عن چيني، على الأقلّ للوقت الحاضر. تحتوي مسودة الكتاب على الكثير من الأسرار، وأنا لا أستطيع صراحة أن أجازف وأضحي بمستقبل أولئك الذين زودوني بتلك الأسرار منذ 11 سبتمبر وما قبلها. لقد حان الوقت أن أدوّن مذكراتي.

خلال عملي في إنجاز ذلك، خصصت وقتي لأتحدى الرأي السائد أنّ بشار الأسد قد استعمل غاز الأعصاب قبل شهرين ضدّ مواطنيه في محافظة تسيطر عليها الجماعات الأصولية المعارضة في سورية. نظر البعض لمقالتي على أنّها دفاع عن بشار الأسد والروس الذين يقدمون له العون، وليس إشهارا للحقيقة كما وجدتها بنفسي. قامت المحررة الفائقة ترِي - كي ولمرز العاملة في مجلة مراجعة الكتب الصادرة في لندن بتأخير نشر المقالة حتى تقديم الدليل على نقطة، لم تكن في رأيي، ذات علاقة وسرية للغاية. قررت ألّا انتظر فأخذت مقالتي إلى صحيفة ولت آم سونتاگ، وهي نسخة يوم الأحد المعروفة لصحيفة داي وولت في ألمانيا، والتي يديرها الصحفي الواثق من نفسه ستيفان أوست، وهو الذي عمل قبلها محررا في صحيفة دَير شبيگِل لسنوات. كان يرحب دائما بما انشر. بعث أوست زميلا له إلى واشنطن ليتحقق من دقة بعض المعلومات وضبطها، كما كلف فريقا لمراجعة القصة سطرا سطرا، قبل نشرها في شهر يونيو من عام 2017.

عُقِد مؤتمر صحفي في مطلع عام 2018 في البِنتگون تحدث فيه وزير الدفاع جَيمس ماتِس. سُئِل عن التقارير الجديدة حول استعمال غاز الأعصاب في سورية من قبَل حكومة الأسد، فقال على خلاف ما كان معروفا عن الموقف الأمريكي، «ليس لدينا أدلة على ذلك. استخدمت سورية غاز الأعصاب في وقت مبكر،» قال ذلك دون أن يحدد التاريخ، «قد أعطانا الكثير من الأسباب أن نشكّ فيهم.» غير أنّ ماتِس أضاف، «لم أضع يدي على الأدلة، ليس على وجه التحديد... المقاتلون في مناطق المعارك قالوا إنّ غاز السايرين قد استخدم. وعليه، فنحن ننتظر الأدلة... الموثوق بها وغير الموثوق به.» كان تصريح ماتِس هذا يتصف بالأهمية وحظي بقليل من الانتباه.

ما كنت أودُّ أن أكون الوحيد الذي يكتب عن مواضيع تتعارض مع التقارير الرسمية، لكنّها بالنسبة لي أصبحت تجربة تعودت عليها. إنّ تقاريري الأولية وكتبي عن مذبحة ماي لاي وفضيحة ووترگيت وكِسِنجر وجاك كندي وقتل أسامة بن لادن على يد الأمريكيين، قد أصبحت عرضة للنقد المرّ أحيانا. ويسعدني أن أترك الأمر للتاريخ ليكون حكما عليها وعلى ما أكتبه الآن وفي المستقبل.

لقد نشأت وفي داخلي حافز على التعلم ولدي إحساس بمن أثق وبمن أصدّق. لقد وضعني على الطريق حين كنت في سنّ الثامنة عشر أستاذ في كلية محلية حكومية رأي أنّ لديّ إمكانيّات، وفعلتْ مثل ذلك كارول آريموند في الأسيوشيتد برس ومعها وليم شَون في مجلة نو يوركر وأيب روزنثال في نو يورك تايمز. لقد نشروا ما كتبت دون فرض رقابة وعزّزوا إيماني بأن أثق بمنتسبي المخَابرات والعسكريين، الذين زودوني بالمعلومات على مدار السنوات، وكانوا نعم الأصدقاء. إنّني

اعتزّ بهم جميعا، لكنّني لا استطيع البوح بأسمائهم. لقد تلمست طريقي بمساعدتهم حين تعلق الأمر بقضايا الموت والحياة في الحروب، وتميزوا بالكرامة والذكاء. جعلوني أميز بشكل حريص بين ما يعرفون بحكم أعمالهم ووظائفهم وبين ما يعتقدونه بشكل شخصي. كانت الثقة بيني وبينهم متبادلة. حصلت في الغالب على وثائق لم أتمكن من الاستعانة بها لخوفي أن أكشف عناصري بدون قصد، وهناك قضايا لم أجرأ أن اكتب عنها لنفس الأسباب.

لم أجرِ أية مقابلة قطّ مع أيّ شخص دون أن اعرف كلّ ما استطيع معرفته قبل وقت المقابلة. كما أنّني عملت ما بوسعي لأخبر أولئك، الذين كتبت عنهم بخططي عمّا أريد أن أنشر بشأنهم.

سأعود للعمل على إكمال كتابي عن چيني في الوقت المناسب، أي حتى يحين الظرف، الذي لا أضع فيه أيّ من مصادري في ورطة بسبب المعلومات، التي وافوني بها بعد هجمات 11 سبتمبر. وفي نفس الوقت نحن الآن في مرحلة رئاسة دونلَد ترامپ والاتهامات حول تدخل روسيا في الانتخابات عام 2016 لصالحه. الشرق الأوسط لا يزال مسرحا للفوضى ولا زالت داعش تلملم صفوفها وتنتقل من بلد لآخر. يوجد دائما ما يستحق الذكر وهناك لحظات سحرية تشكل معالم الطريق.&&

حدث في وسط التسعينات حين كنت أجمع مواد لكتابي عن جاك كنَدي أن كتبت رسالة إلى الكاردِنَل جون أوكونر قسّ كنيسة نو يورك الكاثوليكية. طلبت لقاء معه لأناقش خلافاته مع القس الذي سبقه، الأب فرانسِس سپلمَن، الذي كانت تربطه بأسرة كنّدي علاقة متينة. وهو تولى مسؤولية الكنيسة منذ عام 1939 حتى وافته المنية عام 1967. حصلت على الموافقة مباشرة.

كان أوكونر لاعبا رئيسيا في عالم مدينة نو يورك، وعُرف عنه معارضته للإجهاض ولحبوب منع الحمل والمثلية الجنسية، إلّا أنه كان في ذات الوقت ناقدا شديدا للحروب غير العادلة وحركة الإتجار بالبشر ومن يعارضون اتحادات العمال. خدم كقسّ للكنيسة الكاثوليكية بين صفوف رجال البحرية خلال الحرب الكورية. وكثيرا ما خاطر بحياته في سوح القتال ليتلو الصلاة الأخيرة امام الجنود المحتضرين في آخر لحظات حياتهم. انتهت خدمته في البحرية وهو برتبة ادميرال ورئيسا لكافة رجال الدين في سلك البحرية الأمريكية. لا أدري إن كان قد اطلع على تقاريري عن مذبحة ماي لاي. واذا كان الأمر كذلك، فهل اتخذ موقفا ضدّي؟

يقع مكتب الكاردِنَل في مبنى ملحق بكاتدرائية سَينت پاترِك الواقعة على الشارع رقم 5. تلقاني وهو ضاحك المحيّا، وتبادلنا بعض القصص عن الكاردِنَل سپلمَن. أشار إلى مدرج لحفظ الملفات مختوم، وذكر وهو يضحك، «إنّ أوّل ما فعلته أن طلبت من أحد العاملين في الكاتدرائية أن يرفع الختم ويفتح المجر. كان يوجد في داخله طرد ملفوف بقطعة قماش وعليه ملاحظة مكتوبة بخط الكاردِنَل سپلمَن نفسِه تقول (يجب عدم فتح محتويات الطرد). فتحت الطرد يا هيرش، فكان ما فيه ساحرا. كان مليئا بالرسائل.» ضحك ثانية وكنت على وشك أن اقفز من مقعدي وأنا لا ادري ماذا اتوقع. أخبرني أنّه لم يطلع أحد على تلك الرسائل وأنّه بعثها إلى الفاتِكَن لتحفظ في أرشيف الكنيسة.

سألني عن التقارير وكتابتها وسألته كيف يدير هذه المؤسسة الكبيرة، وأعني الكنيسة الكاثوليكية في نو يورك. قاطعتنا سكرتيرته بعد مرور 45 دقيقة وثانية بعد مرور ساعة. تجاهلها ففتحت الباب على مصراعيه وكأنّها تستنكر ذلك التجاهل. قمت من مقعدي استعدادا للخروج فصاحبني مودعا حتى الباب الخارجي للمبنى. كانت الشمس مشرقة واليومُ دافئا في مطلع فصل الربيع. حين أوشكنا الوصول إلى الباب الخارجي وضع ذراعه حولي وشدّني صوبه وقال، «يا بُنيّ، لقد وضعك الربّ على هذه الأرض لسبب. وهو أن تقوم بعملك الذي اخترته، بغضّ النظر عمّا يسببه للآخرين من الانزعاج. إنّها مهمتك».

كان بطبيعة الحال على علم بما قمت به بصدد مذبحة ماي لاي، واخبرني أنّني فعلت حسنا. مشيت في الشارع رقم 5 وأنا أكفكف دموعي وافكر أنّ قوة إيمان هذا الرجل هي حقا هبة عميقة ورائعة. أصيب الكاردِنَل بسرطان في الدماغ وتوفي بسببه بعد سنوات قلائل في عام 2000. تبادلت وإيّاه الرسائل منذ زرته حتى فارق الحياة. لا زلت محتفظا بها.

اللحظة الخاصة الأخرى كانت عام 2004 حين تبادلت الحديث عن البيت الأبيض والحرب ضدّ الإرهاب وأنا أتناول الغداء مع يوشكا فِشَر، وزير خارجية المانيا. درس فِشَر الماركسية حين كان طالبا ناشطا في أواخر ستينات ومطلع سبعينات القرن الماضي، وقاد العديد من التظاهرات العنيفة في الشوارع. برز فيما بعد كقائد لحزب جديد اسمه حزب الخضر، وذلك حين تخلى عن تطرفه وسلك طريق الوسط في السياسة الألمانية. وجدته ذكيا عالي الثقة بنفسه وعلى أتمّ استعداد لنقد أمريكا وسياساتها، ما دام الأمر محصورا بنقاشات وديّة. اتفقنا أنّ بإمكاني أن اقتبس بعض أقواله في مقالة أنوي نشرها في مجلة نو يوركر، دون ذكر اسمه بطبيعة الحال. تحدثنا عن تخبط سياسة إدارة بُش في الشرق الأوسط، فوصف فِشر ثلاثة من المسؤولين الأمريكيين وهم پول وولفوتز ودون رامسفيلد وزير الدفاع ونائبه المحافظ جدّا، بأنّهم يمثلون «الثلاثي التروتِسكي»، الذي يؤمن بالثورة الدائمة. اقتبست ذلك في مقالة أعددتها للمجلة، ونسبت القول إلى أحد الدبلوماسيين الأوروپيين الكبار، بأنّه وصف وولفوتز بأنّه «تروتسكي الميول». اتصل أحد اعضاء فريق ضبط الحقائق في المجلة بصاحبنا فِشَر يسأل عن شيء ما، فطلب أن أتصل به على الفور في برلين. اتصلت في الحال وأكدت له أنّه ليس هناك مجال للربط بينه وبين النصّ المقتبس. لم اذكره بالاسم ولم آتِ على ذكر المانيا ولم أقل أنّ الكلام منقول عن وزير خارجية. كان ردّه، «أنا الدبلوماسي الأوروپي الوحيد، الذي يعرف ما المقصود من ذكر تروتِسكي». وحين توقفت عن الضحك، طمأنته بأنّني سأرفع ذلك الاقتباس من المقالة.

إنّ مهنتي ممتعة ورائعة. أمضيت معظمها في كتابة قصص تتحدّى الروايات الرسمية، فنلت جزاء حسنا كبيرا، رغم اعترافي بأنّني قاسيت أحيانا بعض الشيء. وهذا هو المسار الذي خططته لنفسي.

شكر وتقدير

كنت على قناعة أنّني لن اكتب مذكراتي قبل بلوغ سنّ الشيخوخة، أو حالة عدم قدرتي على قيادة السيارة، أو عجزي عن المشاركة في لعبة للتنس، أو ربمّا غيرها. العقبة التي واجهتني، والتي نجم عنها تأخري في إعداد كتابي عن چَيني وما اشرت إليه بشكل مختصر في سرد مذكراتي، هي ما دعاني إلى تغيير موقفي. اتقدم ببالغ الشكر إلى سوني مَهتا وجَنَثن سيگِل، من دار نشر نَوف، لصبرهما معي، والى محررتي العنيدة أستر نوبَرگ، التي قادتني من مستنقع التفاصيل إلى الخروج بهذا الكتاب. كانت سنوات عمل جون سيگِل المبكرة ككاتب ومحرر في نويورك تايمز قد اكسبته تبصّرا لا يُقدر بثمن ووجهة نظر جعلتني اركز على ما هو هامّ في مهنة الصحفي الإستقصائي الجيد. لقد أصرّ المرة تلو الأخرى أن اذكر اسباب ما حدث، ولا اتوقف فقط عند ما بذلته من الجهد لتغطية ذلك الحدث.

لقد اكسبني ذلك المزيد من المتعة، ومن لا يحبّ الكتابة عن نفسه/نفسها؟ كما خفف عنّي الشعور بالذنب لرفضي تدريس موضوع الصحافة الإستقصائية، أو قبول منصب أستاذ أو رئيس قسم في إحدى الجامعات. لقد حاولت أن اكون منفتحا إلى اقصى حدّ ممكن لأخبر القراء كيف فعلت ذلك. حافظت على قناعتي بأنّ المفتاح الرئيسي للصحفي الإستقصائي الجيد هو الحصول على القصص الهامة. كما أوضحت على صفحات هذا الكتاب أهمية أن تقرأ قبل أن تكتب، وبالذات قبل أن تقبِل على اجراء مقابلة.

اعتذر عن حقيقة أنّني سمّيت القليل فقط من مصادري، الذين زادت اعمارهم عن 50 عاما. كان ذلك أمرا أملته الضرورة، حين يركز الشخص على العمليات السرية والأكاذيب السرية. بطبيعة الحال، أنّ الصحفيين كبار السنّ في هذه المهنة يدركون هذه المعضلة.

لقد اعتمدت على مساعدة عدد من الباحثين القديرين، الذي ذهبوا إلى أبعد ممّا كنت احتاجه منهم، وحرصوا كلّ الحرص أن ينقلوا اليّ الحقائق بأمانة وبأقصى قدر ممكن. وعليه فإنّني اشكر ماكس پول فريدمَن وبِل آركِن وجَي پيترزَل وبنجامِن فرانكِل ومارك فِلدستين وجِل شوچات. كما اتقدم بالشكر إلى تومي لَنون، مدير المكتبة العامة في نو يورك لمساعدته القيمة لي وكيف وجهني بالشكل الذي احتجته كثيرا وأنا أقلب أوراق أيب روزنثال ووثائقه، التي تحتفظ بها المكتبة وتغطي فترة 56 عاما قضاها في صحيفة نو يورك تايمز. لا يفوتني شكر جَفري رَوث، الذي يسّر لي الحصول على صور الأيام الخوالي كي اضمنها في مذكراتي، بمساعدة من الجهاز العامل معه،

خاصّة گريگوري مِلر وكمبرلي ولنر وفِلِس كولازو. وهم الذين ساعدوا أيضا بتوفير نسخ المقالات واغلفة المجلات، التي طلبتها. ما تمّ كلّ ذلك بدون مساعدة دين باكِت، المحرر في التايمز. لهم جميعا شكري وامتناني.

أحبتني زوجتي ومعها اطفالي وضحكوا معي وسخروا منّي وشعروا دائما بالحرية أن يصارحوني بما يدور في خلدهم. لا شيء أهمّ من ذلك.

Notes

[1←]
https://ar.wikipedia.org/wiki/D8%A7%D9%84

[2←]
https://elaph.com/Web/NewsPapers/2006/1/120194.html

[3←]
http://www.alkhaleej.ae/studiesandopinions/page/fbe9b2a4-d62f-4b58-b419-540a93638e2f

[4←]
https://www.nytimes.com/2018/03/16/opinion/the-truth-behind-my-lai.html

[5←]
/https://www.fifthestate.org/archive/270-march-1976-2/lai-massacre

[6←]
/https://www.alyaum.com/articles/567510

[7←]
https://www.aljazeera.net/specialfiles/pages/5e657dea-6641-4aa9-9f19-f980f446cc4c

[8←]
https://ar.wikipedia.org/wiki/D9%85%D8

[9←]
https://www.marefa.org/D8%A7D9%

[10←]

https://shar.es/amnXzt via @AJArabic

[11←]
https://constitutioncenter.org/blog/why-watergate-didne28099t-affect-the-1972-election

[12←]
https://akhbarelyom.com/news/newdetails/2578778/1

[13←]
https://arabic.cnn.com/world/2014/06/06/cold-war-5-things-you-might-not-know

[14←]
http://beta.masrawy.com/news/news_press/details/2017/4/17/1062693

[15←]
https://ar.wikipedia.org/wiki/D8%BA%D8

[16←]
https://www.skynewsarabia.com/middle-east/1032201

[17←]
http://www.almadenahnews.com/article/18417

[18←]
http://www.cnn.com/2013/10/30/world/meast/iraq-prison-abuse-scandal-fast

[19←]
https://www.al-akhbar.com/Opinion/269426

[20←]
البطل الشعبي جون هربرت دلِنجر رجل عصابات أمريكي خلال فترة الكساد الاقتصادي في الولايات المتحدة. قاد مجموعة من الرجال الخارجين على القانون سُميت عصابة دلِنجر أو عصابة الرعب، التي اتهمت بسرقة 24 مصرفا والاستيلاء على 4 مراكز للشرطة وقتل العديد من الضحايا. من بين نشاطات دلِنجر الأخرى هي هروبه من السجن مرتين. وُلد دلِنجر بتاريخ 22/6/1903 فى مدينة إنديانابولس في ولاية إنديانا وقتل في مدينة شيكاگو بولاية إلنوي بتاريخ

22/7/1934. وشت بمكانه لمكتب التحقيقات المركزية FBI عشيقة رومانية مقابل حصولها على الجنسية الأمريكية ومبلغ 15 ألف دولار. فتصدي له رجال الأف بي آي خارج إحدى دور السينما في المدينة واردوه قتيلا في الحال.

[21←]
قبل انتقالي إلى واشنطن، قررت أن أسعى للتعرف على الشخصيات الدبلوماسية، التي عملت في روسيا والصين وفيتنام. توطدت علاقتي بعد مرور حقبة من الزمن مع السفير الهندي ك. ر. نارينان، الذي درس العلوم السياسية بعد الحرب العالمية الثانية على يد هَرولد لاسكي في جامعة لندن للعلوم الإقتصادية LSE. إلتحق بعد التخرج في سلك الخارجية الهندية وعمل في الصين وروسيا وتركيا وانگلترا قبل أن يصبح سفيرا لبلاده في واشنطن. قمنا بحكم الجيرة بجولات مشي طويلة في الحي. تمّ انتخابه رئيسا للهند عام 1997، واستمتعت بزيارته في اواخر عام 2001 في مقر اقامته الرسمي في قصر فسروي، الذي يشغل مساحة مائتي ألف قدم مربع وبناه اللورد مونتباتن. اخبرني نارينان المتواضع أنّه يشغل فقط غرفا قليلة من ذلك القصر.

[22←]
علمت فيما بعد أنّ چالز بلاك وهو مراسل خبير في الشؤون العسكرية، والذي عمل لصالح صحيفة كولومبس إنكواير، وهي الصحيفة التي تغطي اخبار قاعدة بنِنگ وزار فيتنام 5 مرات، قد حصل على معلومات تفصيلية ضد كالي، لكنّه اختار ألّا ينشر ما عرفه، حتى كشف الجيش الأمريكي الأخبار عن القضية. نُقِل عنه وهو يوضّح بعد انتشار الأخبار عن ماي لاي، أنّه ما كان يريد أحراج الجيش.

[23←]
حُكم على كالي بالسجن مدى الحياة مع الأشغال الشاقة لقتله عمدا 22 مواطنا مدنيا من الفيتناميين. صدر الحكم بتاريخ 31 مارس عام 1971. أمر الرئيس نكسُن بنقله في اليوم التالي من السجن العسكري في لفننورث في ولاية كانزس إلى الإقامة الجبرية في قاعدة بننگ. اطلق سراحه في شهر فبراير من عام 1974 من الإقامة الجبرية خلال فترة النظر في استئناف الحكم. قررت محكمة الإستئناف تثبيت الحكم عليه، فأعيد كالي إلى سجن لفننورث بتاريخ 13 يوليو من نفس العام. غير أنّه أطلق سراحه بتاريخ 25 سبتمبر عام 1974 بموجب أمر العفو الذي اصدره الرئيس نكسُن عنه. وهكذا امضى كالي خلف القضبان فترة 3 أشهر و13 يوما فقط، جزاء قتل 22 مدنيا بدم بارد.

[24←]
في دراسة نقدية عن قوة أمريكا عالميا نُشِرت في شهر سبتمبر عام 2017، أعاد مككوي، الذي أصبح في وقته استاذا للتاريخ في جامعة وسكنسُن، إلى الأذهان الدور الهام، الذي غاب عن بالي، لمساعدته في طبع كتابه. لقد ذهب كورد مَير، نائب رئيس العمليات السرية في CIA إلى ناشر مككوي وهو دار هارپر/روو في نو يورك وطلب عدم نشر الكتاب. رفضت الدار المذكورة ذلك الطلب لكنّها وافقت، وهو ما اغضب مككوي للغاية، أن تسمح الدار للوكالة أن تراجع مخطوطة الكتاب قبل دفعها للطبع. وفي تلك اللحظة، قرر مككوي أن يلجأ اليّ، كما يقول. «بدلا من الإنتظار بهدوء حتى تكمل الوكالة مراجعة كتابي، اتصلت بسيمور هيرش، الذي كان وقتها مراسلا استقصائيا لصحيفة نو يوك تايمز في نفس اليوم الذي عادت فيه المخطوطة للناشر. طلبت من الناشر أن يعطيني مخططوتي. حملتها ووضعتها في يد هيرش، الذي اندفع وكأنّه عاصفة إلى مكتب الناشر واحتجّ وظهر فضحه لمحاولة الوكالة فرض الرقابة، على الصفحات الأولى من التايمز. انضمت أجهزة إعلام وطنية أخرى ورفعت صوتها مؤيدة له... وتمّ طبع الكتاب بدون أيّ تعديل.»

[25←]
بعد تقاعده من التايمز عام 1989، امضى كوفاك 12 عاما، وهو يعمل أمينا لمؤسسة نيومَن للصحافة في جامعة هارفرد.

[26←]

كنت غارقا تماما في عملي ذلك الربيع واقتنعت وربما أجبرت أن انضمَ إلى زوجتي في احد الأمسيات كي اذهب إلى حفلة في بيت قريب يعود للقس پول مور، وهو مطران الكنيسة الأسقفية في واشنطن. كان مور والقس سلون كوفن هما من قاد الكنيسة لمساندة حركة الحقوق المدنية والمعارضة العنيدة لحرب فيتنام. لاحظت وجود عدد كبير من الشباب خارج منزل مور فلم اعرهم اهتماما. حين دخلت البيت تقدم نحوي شخص تحدث بلهجة بريطانية وقدّم لي صديقته اليابانية، التي عرفت أنّها عملت في التايمز. اخبراني عن الصعوبات التي واجهها ذلك الشاب للحصول على البطاقة الخضراء للإقامة الدائمة في الولايات المتحدة، لأنّه مناهض لحرب فيتنام، ولأنّه سبق أن حُكم عليه في بريطانيا لتدخين الحشيش. كانت لدي بنت اخت اسمها لورا، وهي صديقة لإحدى بنات القس مور. لم تفتني ملاحظة أننا نحن الثلاثة حين تكلمنا، كانت احدى بنات القس تنط وتركض وتميل يسارا ويمينا لجلب انتباهي، فقلت لها «ماذا؟» تبين لي أنّ الشخص البريطاني هو جون لِنِن وصديقته هي يوكو أونو. كيف لي أن اعرف ذلك؟ لا علاقة للإثنين بفضيحة ووترگيت. إتصل لِنِن أو جاء لزيارتي في اليوم التالي في مركز التايمز. ونقلت الصحيفة قصصا عن إدارة نِكسُن وتصميمها للثأر من جون لموقفه من حرب فيتنام. وبعد عدة سنوات على اغتيال لِنِن عام 1980، دعتنا يوكو أونو، أنا وزوجتي، لتناول الفطور معها وتفقد الشقة الي عاشت فيها مع جون في نو يورك. كانت ملأى بالصور والتخطيطات المؤطرة، التي رسمها اعضاء فرقة الخنافس. وهي صور وتخطيطات تفصح جميعا عن الجانب المشرق من حياته، الذي لم يطلع عليه العالم بعد.

[27←]

تركت عددا من الرسائل إلى كرَو مع واحد من أعزّ اصدقائه، وذلك حين قررت الكتابة عن لقائنا غير الإعتيادي، اشرت فيها إلى بعض النقاط الأساسية التي أودّ أن اذكرها. لم يردّ على رسائلي، فارسلت خلاصة تلك الرسائل إلى بل تريدوَل، الذي تقاعد ويقيم الآن في شمال فورت مايرز في فلوريدا. كتب واسترجع ما دار في لقائنا. أخبرني أنّ فكرة كرَو عندما التقى بي بحضوره كانت اصلا لوضع النقاط على الحروف. «ماكنت راغبا حينها أن يتحدث معك أو مع أيّ شخص في اجهزة الإعلام،» كما كتب لي حديثا في رسالته في شهر اغسطس عام 2017. «لقد اصرّ بَد أنّك صحفي مستقيم، وهو يعرفك من خلال عملك وشعر أنّ بإمكانه أن يثق بك. وافقت على فكرته أخيرا، شرط أن تكون المقابلة في مكتب محاماتي وتقتصر علينا نحن الثلاثة فقط... لقد قرر بَد أنّ الوقت قد حان ليقول الحقيقة كاملة أمام المحققين... وأن يذكر بأمانة كلّ ما عرفه وما علمه.» اتصلت فيما بعد ببيرچك ليتأكد من دقة ما تذكره، فقال شيئا لم يذكره من قبل، وهو أنّ كرَو قد تحدث عن وجود السباكين في محادثاته السابقة مع اللجنة.

[28←]

كان رُستن دائم الإندهاش مني لكنّه في النهاية، وحسب ما ذكر هارسُن سولزبَري، قد قال إنّه معجب بوقاحتي/جرأتي. لست متأكّدا من ذلك. في احدى امسيات الكرسمس عام 1971، تطوعت باعتباري أحد اليهود في المكتب أن اعمل حتى وقت متأخر ذلك المساء. سأكون كاتبا وعامل بدالة التلفون وكاتب طابعة حتى ساعات الصباح الأولى. وفي وقت ما دخل سكوتي المكتب وهو يرتدي بدلة رسمية. يبدو أنه قد تناول كمية من الشرب وافترضت أنّه جاء إلى المكتب ليأخذ زجاجة تركها هناك، خاصّة وأنّ محلات بيع المشروبات الكحولية قد اغلقت منذ بعض الوقت. كانت زوجته بصحبته كما اربعة اشخاص آخرين، أحدهم پول نتزا، ذو الشهرة المعروفة في مفاوضات الحدّ من الأسلحة النووية. حين رآني سكوتي صاح، «هيرش، متى ستجري تلك المقابلة الخاصة مع يسوع كي تظهر في الطبعة الثانية للصحيفة؟ لم يعجبني السؤال ولا طريقة طرحه. هل كان يسخر من الصخب والمضايقة اللذين اثيرهما في المكتب؟ أم أنّه منزعج للغاية لأنّي اكسر القواعد واستهدف اصدقائه الكبار في المناصب الحكومية؟ حصلت على اجوبة لأسئلتي هذه بعد اسابيع قليلة. حضر إلى المكتب جدّ زوجتي، إرنست كلاين، الثرثار واحيانا غريب الأطوار، الذي هاجر من المجر إلى نو يورك وهو شابا واثرى بشكل كاف جعله يقضي فصل الشتاء في ميامي بيچ. جاء لزيارتي وأنا في المكتب، لكنّه اعترف حقيقة بأنّه جاء لمقابلة سكوتي رُستن، الذي تعجبه مقالاته التي ينشرها في التايمز. اخذته إلى مكتب سكوتي، وقدمته له. كان صاحبنا حينها في منتصف الثمانينات. دعاه سكوتي للجلوس وتركت المكتب. تذكرتهما بعد أن انجزت ما كنت اعمله بعد ساعات، فجئت إلى المكتب ووجدتهما على وشك الإنتهاء من اكمال شرب زجاجة فودكا وظهر أنّهما قضيا معا وقتا ممتعا يتحدثان عن الأيام الخوالي. ممّا لا شكّ فيه أنّ سكوتي كان مراسلا ناجحا يلاحق الأخبار في الشوارع، كما كنت اعتبر نفسي. لكننا في واقع الحال لم نجلس قط لتناول الغداء معا.

[29←]

في الوقت الذي استطاع فيه ديفد أوبست أن يبدأ صداقة مع وودوَرد وبرنستين، واصبح فيما بعد وكيلهما الأدبي، استطاع أن يرتب لقاء للعشاء يجمعنا نحن الثلاثة، كما اعتقدنا وقت كنّا في قمة زهونا، مع جان وينر، المحرر والناشر لمجلة رولنگ ستون. بطبيعة الحال، كان هناك شرب وغيره من الأمور الأخرى، التي تحاشاها بوب. وفي لحظة ضبابية معينة في أواخر تلك الأمسية تحول الحديث إلى نظريات المؤامرة حول اغتيال جون كندي. لا أدري إن كان البادئ في ذلك أوبست أم وينر؟ في وسط عبقريتهما الحمقاء تبدت فكرة رائعة وليدة الساعة بأن يجري الثلاثة وودوَرد وبرنستين وساي هيرش تحقيقا مشتركا في قضية اغتيال كندي. وهو مشروع سيجري تمويله باكتتاب عام ومستقل عن أيّ تأثير خارجي. ما كان في الذهن اعداد قصص لمختلف الصحف وكتاب وفلم وثائقي للتلفزيون. ستقوم المجلة ببيعها. تقرر أن تكون قيمة كلّ سهم في المشروع 25 دولارا، ويكون الإكتتاب مفتوحا لكافة الأشخاص داخل البلاد وخارجها. كان هناك حديث مسعور حول جمع ملايين الدولارات. لا حاجة للتذكير، بأنّ الفكرة الرائعة التي وُلدت في منتصف الليل كانت أقلّ جاذبية صباح اليوم التالي. إتصلت بالصديق أوبست لأخبره أنّه من المستحيل أن اشارك بمثل هكذا موضوع، واعتقد أن بوب وكارل قد اتصلا أيضا ليعلنا نفس الرأي.

[30←]

اعرف مِچل قليلا، رغم أنّني قابلته عدة مرّات، وفوجئت بحضوره مصحوبا باثنين من محاميه لتناول الغداء في واشنطن وسط اجواء محاكمته عام 1974 بشأن قضية ووترگيت واتهامات بشهادة زور وإعاقة العدالة والتآمر. أومأت له برأسي وتركته مع محامييه حتى فرغا من وجبتهم. ترك المحاميان المطعم وكان مِچل ما زال يوقع على فاتورة الحساب لبطاقة الإئتمان. يبدو أنّ الأشخاص يدفعون دائما وجبات محاميهم. جلست على كرسيّ قبالته. كانت له سمعة مزعجة لمساندته الدائمة للرئيس نِكسُن، لكنّه من الصعب كره هذا الرجل. سألته عن احواله فكتب شيئا خلف نسخته من الفاتورة وثناها وسلمها لي قائلا، «ستجد فيها كلّ ما تريد معرفته عن الحياة، يا ولد.» انتظرت حتى تركَ المطعم قبل أن انظر ما كتب على الورقة. «إحمِ نفسك بالمادة رقم 5 (من الدستور).» إدين في السنة التالية بكافة التهم التي وُجّهت إليه، وقضى 19 شهر خلف القضبان. وهو أوّل مسؤول رفيع في إدارة نِكسُن يلقى مثل ذلك المصير.

[31←]

ألقى أنگلتن باللائمة عليّ عن كافة المشاكل التي واجهها في فصله. إتصل بي عن طريق الهاتف مبكرا في صباح يوم الأحد الموافق 22 ديسمبر، بعد أن اطلع على مقالتي عن التجسس الداخلي. سألني، «هل تعرف ماذا فعلت بعملك هذا؟ لقد كشفت عن دوري في وكالة المخابرات المركزية. لا تعرف زوجتي منذ 31 عاما عن نشاطاتي، حتى نشرت مقالتك. والآن قررت أن تتركني.» صعقني ذلك الخبر وشعرت بالذنب، وعاد إلى ذهني حفل تكريم جرى في مكتب CIA حضرته سِسِلي، زوجة أنگلتن. اتصلت بأحد العاملين في الوكالة، ممّن اعرفه منذ ايام عملي في حملة انتخابات الرئاسة، التي خاضها يوجين مكارثي، فذكرت له مكالمة أنگلتن. ضحك صاحبي هذا وقال، «استطيع اخبارك أنّ سِسِلي قد تركته، ولكن ليس بسبب مقالتك. لقد تركته منذ ثلاث سنوات وتعيش الآن في ولاية أريزونا.» بعد ثلاث سنوات تقريبا بدأت باعداد ملف مطوّل عن الوضع الخاص بصاحبنا أنگلتن كي يُنشر في مجلة نويورك تايمز. إتصلت به وكانت تلك أول محادثة لنا بعد فصله. كتبت في مطلع تقرير المجلة أنّه، «رفض أن يقابلني،» وكانت تلك شفرة لغوية، لأنّنا تكلمنا عن الماضي. سمح لي أن اذكر كافة ما أودّ ذكره، «إفعل ما شئت أن تفعل، فالضرر قد وقع ولا يمكن اصلاحه.» لكنّه أصرّ على أنّ ما جرى، والذي تمّ على يدي بفضح قضية التجسس، قد الحق الضرر بالأمن الوطني الأمريكي. وما ترتب عليه من فصله من الوظيفة، كان اكثر اتساعا ممّا أمكنني تصوره. لقد ادركت أنّه من المستحيل أن اعرف بواطنه. كان من الواضح أنّه ذكي للغاية ولكن بشكل طفولي، مذعور دائما إلى حدّ التفاهة. إختارت المجلة أن تضع غلافا يحمل صورة مقربة لوجه أنگلتن يخيّم عليها ظلّ عميق وفوق خلفية داكنة السواد، فبدت وكأنّها صورة تفتقر إلى تركيز العدسة.

[32←]

الإقتراحات القاسية التي طرحها چيني لملاحقتي قضائيا قد حظيت باعتراض مباشر من قبل إدوارد لفي، عميد واستاذ القانون في جامعة شيكاگو الذي كان يشغل حينها منصب المدعي العام للبلاد. شرح لفي لصاحبنا چيني أنّ الإجراءات القضائية، التي اعتزم تنفيذها ضدي ستفرض عل الحكومة «أن تعترف وفي الحقيقة أن تثبت أنّ عمليات التجسس على خطوط الإتصالات في قيعان البحار قائمة فعلا وستضع التقارير عنها في متناول الجميع. وهذايعني أنّنا نضع ختم الحكومة للتصديق على كافة ما ورد في المقالة.» انهى لفي مذكرته الموجّهة إلى چيني بالقول،»إنّ الطريق الأفضل هو التحدث مع الناشرين حول مخاطر طبع المواد التي تمسّ الأمن القومي وتلحق الأذى به.» لقد كان مباشرا في كلامه مع

جيني، تماما كما كان معي عام 1959 حين توقفت عن اداء واجباتي كطالب في الربع الأخير من السنة الأولى لدراستي في كلية القانون. سألني حينها ببساطة، إن كنت ارغب أن استمر في الدراسة في كلية القانون، فأجبته دون تردد «لا».

[33←]
كما أنّ المقالة المذكورة قد سبّبت لي احراجا كبيرا. اتصل بي بعد نشرها وكيل آخر للمخابرات المركزية ليخبرني أنّ لديه معلومات أكثر دقة تتعلق بتهريب مواد للأسلحة النووية بواسطة ولسُن وترپل إلى ليبيا. كنت في ذلك الوقت قد عدت للعمل في كتابي عن كِسِنجر، فقررت بالإتفاق مع الوكيل المذكور أن ابعث معلوماته إلى دِك ألن، الذي كان حينها يمدّني بمعلومات نافعة لكتابي، قبل أن ينظمّ إلى إدارة رَيگن. اخبرته بالقضية وباسم من نقلها اليّ. شكرني ألن وأخبرني أنّه سيعاود الإتصال بي. نظّم بعد ذلك لقاء في غرفة العمليات في البيت الأبيض. دعاني للحضور، وكان لديّ شعور مزدوج حول ذلك اللقاء. من جانب شعرت أنّه ليس لي علاقة بالموضوع. ومن جهة أخرى، إنّني لم اشاهد غرفة العمليات السرية، رغم أنّني كتبت حول ما جرى فيها، ولذلك ذهبت للقاء بدافع الفضول. إتفقنا أنّ حضوري مشروط بعدم الكتابة عمّا يُناقش، وهو خطأ أوقعت نفسي فيه. وفي لحظة معينة أخبر أحد المسؤولين الكبار الوكيل،الذي جئت به، أنّه عرف بعدم وجود شيء لم يفعله لصالح وطنه. عقّب المعتوه، الذي أتيت به، بقول نعم، وأنّه كانت هناك مناسبات فعل فيها كلّ ما في وسعه. كان واضحا أنّ الإثنين يتحدثان عن اغتيال القذافي. شعرت بالغضب والإنزعاج لتبادل مثل هذا الحديث بحضوري، فقد أصبحت بموجب ذلك مساهما وليس مراسلا. لقد قبلت أشياء ما كان بوسعي الحديث عنها أو الكتابة بشأنها. غادرت الإجتماع متوجّها إلى مكتبي بصحبة الوكيل المذكور. عبّرت له عن امتعاضي لحضور ذلك الإجتماع، فسألني وابتسامة ماكرة تطغى على وجهه، إن كنت أودّ الحصول على نسخة كاملة ممّا دار من الحديث. يبدو أنّه استطاع أن يجلب معه جهاز تسجيل صغير خفي حتى على مراقبة الأمن في غرفة العمليات عن طريق وضعه في اعلى فخذيه. إبتعدت عنه قدر ما استطيع واتصلت بصديقي ألن كي لا يفاجأ بتلك الحيلة وذلك الإختراق، واستمرينا في علاقة طيبة حتى يومنا هذا. لم اسمع من ذلك الوكيل ولم تظهر مجريات ذلك اللقاء أمام الرأي العام. كما أنّني لست متأكّدا من صدقية معلوماته، وإذا كانت كذلك، فهل اتخذت أيّة إجراءات بشأنها؟ إنّ موافقتي على عدم نشر محتويات اللقاء كانت لعنة بالنسبة لي بعد ذلك، وتعلمت مرّة أخرى ألّا أسمح لنفسي أن أكون مساهما في نشاط من نشاطات الحكومة.

[34←]
بعد مرور بضع سنوات وعلى إثر نشر جزء من كتابي عن كِسِنجر في الفصل الخاص بجِلي، تسلمت رسالة من ابنة موري، التي كانت تسكن في ولاية ماسچوست، شكرتني فيها على عملي، واضافت تقول، «عرفت اخيرا عن دور والدي في وكالة المخابرات المركزية، على الأقل ما يتعلق بجِلي، وأنا فخورة به.»

[35←]
اتصل بي بن برادلي وأنا وسط المشروع المشترك مع گِلب ودعاني للغداء في مطعم فرنسي من الدرجة الأولى يقع في قلب العاصمة واشنطن. أخبرني أنّ بوب وُودورد، الذي كان يترأس وقتها فريقا من الصحفيين الإستقصائيين في صحيفة البوست يتألف من 10 أشخاص، سيأخذ إجازة تفرغ بهدف تأليف كتاب. سألني إن كنت أودّ أن أحل محله؟ باستطاعتي أن اكتب عمّا اشاء، ولم اخبر أحدا بهذا العرض، بطلب من بن برادلي. كما كان لي لقاء ممتع حول فرصة العمل هذه ومقدار راتبي مع كاثرن گرام. علم بوب بعد ايام قليلة أنّني سأحلّ محله. لا وجود للأسرار حين يتعلق الأمر بسريان الإشاعات في الصحف. اقترح بوب أن يقضي بعض الأيام ليساعدني كيف اتكيّف لمهمتي الجديدة. أحببت بوب واحترمته كثيرا. إنّه واحد من الصحفيين القلائل، الذين تبادلت معهم قليلا من مصادر معلوماتي، لكنّني كنت دائما افضل الإعتماد على نفسي منذ عملت في محل والدي لتنظيف الملابس وكيّها في شيكاگو، حتى وقت عملي في التايمز. في الحقيقة أنّني ادهشت نفسي بنجاح عملي التعاوني مع جَف گِرث. غير أنّ التعاون مع اشخاص موهوبين من قبيل بوب وُودورد ولس گِلب، لم يكن مناسبا لي، كما اخبرت بن برادلي بذلك. فهم موقفي واستمرينا نلعب التنس صباح يوم الأحد لعدد من السنوات التالية. لم نتحدث بعدها اطلاقا عن مجيئي للعمل في البوست.

[36←]
أضحت قصتي لا تمثل إلّا تلميحا عن الحقيقة إلى حدّ أنّ محرري التايمز، وانا من ضمنهم، لم نكن اطلاقا على علم بها. افادت صحيفة سكوچ صَنْدي هيرالد في عام 2003، أنّ شركة تِركس كانت واحدة من 17 شركة بريطانية سمّاها العراق

في ملف احتوى على 12 ألف صفحة قدّمته حكومة صدام حسين عن المعدات، التي تسلمها العراق لبناء الأسلحة النووية والكيمياوية والصاروخية والأسلحة الأخرى العادية على مدى سنوات عديدة لغاية 1991. تضمّنت قائمة المزودين شركات من الدول الأعضاء في مجلس الأمن الدولي، وهي بريطانيا وفرنسا وروسيا وامريكا والصين. شعر مجلس الأمن بالإحراج وقام بحجب 800 صفحة من الملف قبل نشره. تضمّنت الصفحات المحجوبة معلومات تفصيلية عن الشركات الغربية، التي قدّمت المساعدة للعراق في برنامجة النووي للفترة التي سبقت عام 1989.

[37←]
احتجت إلى وكيلة اعمال قبل سنوات، فالتقينا لأوّل مرة عام 1985 لتناول الفطور في العاصمة واشنطن. بدأت أكرّر على مسامعها بعض الإشاعات، التي سمعتها، فقاطعتني بالقول «هذا هراء.» اصبحت منذ تلك اللظة وكيلة اعمالي مدى الحياة.

[38←]
لغت حكومة الكويت تعاقدها مع شركة أنرون بعد نشر مقالتي، كما أنّ بَيكر، رفض أن يتحدث معي عن الرحلة إلى الكويت. التقاني فجأة ونحن في طائرة متوجهة من واشنطن إلى هيوستن بعد عدة اشهر. وحين مرّ بجانبي، وقف واشار اليّ باصبعه قائلا بغضب، «لن تستطيع تسديد ضربة إليّ، ولا حتى اصبعا.» بعد سنوات جلسنا جنبا إلى جنب في طائرة غادرت هيوستن فدار بيننا حديث ممتع. كان واحدا من القلائل من انصار جورج بُش ممّن حاول جهده أن يخفف من آثار الضرر الذي لحق بأمريكا والعالم نتيجة إدارة بُش الأبن ونائبه چَيني إثر احداث 11 سبتمبر.

[39←]
إدورد گيبَون مؤرخ إنگليزي وكاتب وعضو في البرلمان. من اشهر مؤلفاته (تاريخ ضعف الإمبراطورية الرومانية وسقوطها). يقع الكتاب في 6 أجزاء وأنجزَت كتابته بين السنوات 1776- 1788. الكتاب معروف بلغته العالية واسلوبه الساخر واعتماده على المصادر الأولية ونقده الجدلي للديانات المنظمة. (المترجم)

[40←]
نال رامسفيلد إعجابا وشعبية وأصبح نوعا من الأبطال في نظر وحدة الإعلام في الپنتگون وفي غالبية أمريكا خلال الأيام الأولى للحرب. كان يستمتع بوقته خلال المؤتمرات الصحفية وهو ينكر ضاحكا قصصي، التي نشرتها حول مسار الحرب، في الوقت الذي كان فيه يبعث الرسائل إلى اتباعه. وقد حصلت على البعض منها، حول أمانة الجنرال فرانك والجنرال كارلوچي، الذي كان أمضى فترة طويلة من خدمته في الحكومة باعتباره خبيرا في نزع السلاح واصبح عميدا لكلية الخدمات الأجنبية في جامعة جورجتاون. أخبرني عن اجتماع في الپنتگون مع رامسفيلد خلال ازمة الشرق الأويط عام 1983. حضر الاجتماع رئيس اركان القوات المتحدة وكبار مسؤولي وزارة الخارجية. كان كارلوچي هناك باعتباره وكيلا لوزارة الخارجية، وكان رامسفيلد اعتبره مبعوثا خاصّا. قدّم عرضا دبلوماسيا اعتقد أنّه سيحل المشكلة، إذا كان مصحوبا باستعراض للقوة العسكرية الأمريكية. سأل إن كان هناك أيّ تعليق، ولم يتقدم أحد بذلك. واخيرا سأل كارلوچي رامسفيلد، لماذا اعتقد أنّ اقتراحه سيكون فعّالا، خاصّة أنّ مفهوما كهذا قد استخدم من قبل خلال أزمة مشابهة. نظر رامسفيلد إليه وطلب بصوت عال «أخرج». فوجئ كارلوچي بالأمر ونظر إلى رئيسه الذي اشاح ببصره عنه. ثم عاد وطلب منه أن يخرج. قام كارلوچي من مقعده وسار صوب باب القاعة، في حين اضاف رامسفيلد مؤكدا، «أنا لا اتحمل أحدا لا يكون لاعبا ضمن الفريق.»

[41←]
لم استطع العثور على اللواء تاگوبا قبل أن اكتب مقالتي الأولى عن (أبو غريب)، ولم اتمكن من ذلك حتى مرّتِ سنتان. اخبرني حين التقينا أنّ رامسفيلد كان على قناعة بأنّ تاگوبا قد زودني بنسخة من تقريره. قال اللواء أنّه طلِب منه الحضور لمقابلة وزير الدفاع بعد اسبوع من نشر تقريره بشكل علني، وقوبل بالسخرية والاحتقار. «ها قد حضر... اللواء المشهور تاگوبا... صاحب التقرير المعروف،» ذكر رامسفيلد ذلك باستخفاف أمام عدد من كبار جنرالات الجيش.

أنهوا خدمته العسكرية بعد ذلك اللقاء. قال تاگوبا أنّه أجبر على التقاعد دون الحصول على ترقية، وهو الأمر المعتاد. تحدثنا سوية ولعدة مرات عن جرائم الحرب والتعذيب، وما زلنا نلتقي لتناول الغداء مرة كلّ أشهر قليلة. ما زلت مأخوذا بأمانته وصدقه وصراحته. أخبرني بألم أنّه كان مرة بعد (فضيحة أبو غريب) في سيارة لموزين مع الجنرال جون أبي زيد، الذي انيطت به قيادة الحرب المتخبّطة في العراق. رفع أبو زيد زجاج السيارة الذي يفصل ما بينهما وبين السائق، وحذر تاگوبا أنّه ذهب بعيدا وعميقا في تحقيقه، «أنت وتقريرك ستخضعان للتحقيق.» أضاف تاگوبا، «هذه هي المرة الأولى التي شعرت فيها وأنا اخدم في الجيش مدة 32 عاما، أنّني أعمل مع عصابة مافيا.»

[42←]
هناك لحظة خلال إحدى مقابلاتي الأخيرة مع نصر الله قد علقت في ذهني. كان الشيخ يتمتع بحب واحترام مترجمه في اللغة الإنگليزية، وهو أحد كوادر حزب الله. كان امرا مفرحا أن تتاح للفرد فرصة التحدث معه، لأنّه الوحيد الذي يقضي «وقتا جيدا» quality time مع الشيخ. اخبرني نصر الله خلال المقابلة التي جرت بعد أشهر قليلة من حرب حزب الله مع إسرائيل عام 2006 عن المساعدة المالية لإعادة بناء المناطق المدنية التي دمرها القصف الإسرائيلي لمناطق الشيعة في ضواحي بيروت، وأنّ تلك الأموال كانت تأتي من قطر وإيران. ذكر نصر الله أنّه تلقى ما يقرب من 12 مليون دولار يوميا من المساعدة اليومية من إيران. وفي تلك اللحظة، بدأ المترجم يتحدث مع الشيخ بالعربية، واستمر هذا الأخذ والردّ لدقائق، حتى قاطعت مستفسرا عمّا يدور من كلام بينهما. تبيّن أنّ المترجم قد اعتقد أنّ نصر الله لم يكن دقيقا للغاية في ذكر كمية الأموال، التي بعثتها إيران يوميا. ابتسم الشيخ وهزّ كتفيه ورفع قيمة المساعدات بشكل أكبر. جرت المقابلة بعد أسابيع من أمر الرئيس بُش بفصل مسؤول كبير في وزارة الخارجية لأنّه تجرأ وصحح ما ذكره الرئيس خلال اجتماع لمجلس الأمن الوطني.

[43←]
لم يتعجب ديفِد أوبي من هراء أوباما. بقيت على اتصال مع الرئيس السابق للجنة الإعتمادات في مجلس الشعب بعد تقاعده من الوظيفة عام 2011. أخبرني أنّه خلال اجتماع القيادة مع الرئيس في مطلع عام 2009، بعد اشهر قليلة من توليه الحكم، وهو يصارع مسألة الحرب في افغانستان، التي كانت تجري بشكل غير مقبول، كان موضوع الإجتماع هو النظر في امكانية إقرار الرئيس إرسال زيادة كبيرة من القوات لتعزيز الوجود العسكري هناك. كان أوبي ونائب الرئيس بايدن، هما الوحيدان اللذان أبديا تحفظهما بشأن تلك الزيادة. يتذكر أوبي أنّه حذر الرئيس أوباما أنّه لو مضى في زيادة القوات، فعليه «أن يدرك أنّه سيواجه حقيقة أنّ تلك الزيادة ستستحوذ على جزء كبير من برامجنا، باستثناء العناية الصحية.» بقي أوبي مع الرئيس بعد أن انفضّ الاجتماع، ليتبادل معه كلمات أخرى. سأله إن كان قد استمع إلى الأشرطة المسجلة للرئيس جونسُن حول الحكمة من توسيع انتشار القوات الأمريكية في فيتنام. وهي الأشرطة، التي أصبحت في متناول الجميع عام2003 وأثارت نوعا من الأحاسيس في واشنطن. أجاب أوباما بالإيجاب. عاد فسأله إن كان يتذكر حديث جونسُن مع رچَرد رُسِل، وهو الرئيس المحافظ للجنة القوات المسلحة. اعترف الرجلان في تلك المحادثة أنّ زيادة القوات الأمريكية في فيتنام لم يساعد المجهود الحربي وربما قاد إلى حرب مدمرة مع الصين؟ وللمرة الثانية قال أوباما «نعم.» مضى أوبي ليطرح سؤالا آخر، «من في إدارتك في منزلة جورج بَول؟» كان بَول هذا مسؤولا رفيعا في وزارة الخارجية في حكومة كنَدي، وهو الذي ناقش الرئيس معترضا على زيادة الوجود الأمريكي في فيتنام. وهو الموقف الذي ألحق بسمعته ضررا بالغا بين صفوف المحيطين بالرئيس كنَدي. «إمّا أنّ الرئيس اختار ألّا يجيب عن ذلك السؤال، أو أنّه لم يكن لديه شخص بمكانة جورج بَول،» كما أفادني أوبي. «لكنّني لم اسمع أحدا يُخبر الرئيس أنّه يجب عليه أن يدوس على الكابح في حرب أفغانستان.» وافق أوباما على إرسال 30 ألف جندي أمريكي أكثر للانتشار في سوح القتال على مدى الستة أشهر التالية.

مـذكـرات

صحفي استقصائي

REPORTER: A MEMOIR

يتناول فيها الصحفي الدولي
المخضرم سيمون هيرش

- مواضيع دولية هامة: أحداث 9/11
- علاقة رفيق الحريري مع نظام الأسد
- فضيحة ووتر غيت
- حرب فيتنام

إلى جانب قضايا عديدة أخرى تهمّ
المطلعين على الأوضاع العربية والعالمية.

سيمور م. هيرش
SEYMOUR M. HERSH
الحاصل على جوائز پولِتزر وپولك وبِگِم

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

ترجمة وتقديم:
د. محمد جياد الأزرقي